١٩٧٢

مكتبة نوبل

هاينريش بول

صورة جماعية مع سيدة



ترجمة:
صلاح حاتم

صورة جماعية مع سيدة

مكتبة نوبل

Author :Heinrich Böll	اسم المؤلف : هاينريش بول
Title :Gruppenbild mit Dame	عنوان الكتاب : صورة جماعية مع سيدة
Translator: Salah Hatem	ترجمة : صلاح حاتم
Al- Mada P. C.	الناشر : المدى
First Edition 2002	الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٢

دار المدى للثقافة والنشر

سورية – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٧٢
مكتبة نوبل

هاينريش بول

صورة جماعية مع سيدة

ترجمة

صلاح حاتم

إلى ليني وليف وبوريس

هـ . ب

إلى مَنْ تقرُّ بهم العين:

عفاف، رفيقة العمر،

ومجد وهمام وزياد،

الأمل الكبير.

ص.ح

— أ —

مقدّمة

حين يكون الحديث في داخل ألمانيا أو خارجها عن الأدب الألماني المعاصر يرد اسم هاينريش بول دائماً بأنّه أحد أهمّ ممثّلي الأدب الألماني بعد الحرب. فما بلغ الثانية والأربعين حتى صارت له شهرته العالمية، وما أطلّت سنة ١٩٥٤ حتى كانت قد ترجمت له خمسة أعمال أدبية إلى الإنكليزية. فمنذ عام ١٩٥٣ ازداد الاهتمام بهذا الكاتب الذي كان له قرّاؤه المتحمسون خارج حدود ألمانيا واللغة الألمانية.

ولد هاينريش بول في مدينة كولونيا على نهر الراين في الواحد والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩١٧ لأبٍ يعمل في النجارة والنحت، ونشأ وترعرع في حيّ شعبي من أحياء أبناء الطبقة الصغيرة في مدينة كولونيا وأمضى ثلاث عشرة سنة في المدرسة ونال سنة ١٩٣٧ الشهادة الثانوية.

أهمُّ حادثة شهدها بول في صباه كانت حين تولّى هتلر في كانون الثاني سنة ١٩٣٣ مقاليد السلطة في ألمانيا بمؤازرة الوطنيين الألمانيين وأصحاب المصارف والصناعيين وكبار الملاّكين؛ ولم يكن بول قد جاوز الخامسة عشرة من عمره آنذاك. «شيء مضحك»، يقول بول، «فقد سلمت من أن أتحوّل إلى نازي، مع أنَّ جيلي كانت لديه الأهلية من أجل ذلك». إذ أن هتلر كان قد وجد في صفوف الشبيبة أشدَّ الأنصار

والأتباع حماسة. ولم يكن أمام النازية إلاّ أن تتزلف إلى الشبيبة وتغرّر بها وترضيها، مستندة إلى مثاليتها المضطربة وميلها إلى التمرد والثورة على الجيل الأكبر سنّاً. أما بول فإنّه لم يحسّ في يوم من الأيام أنه منفصل عن بيته وأهله؛ وما من موضع في مؤلفاته يشير بأنّه هناك هوّة أو سوء علاقة بين الأب والابن، فالأب لم يكن ذلك الإله أو الطاغية، بل كان الصديق الذي يمكن الركون إليه. يقول بول: «أبواي، إخوتي وأخواتي، وأصدقاء كثيرون وأصدقاء أصدقائي وبعض أساتذتي عصموني من أن أصبح نازياً».

بيت الأب كان مفتوحاً: وفيه تناقش المرء نقاشاً حرّاً، ولم يكن المرء من أتباع هتلر. وفي هذا الجو الذي تميّز بالحرية الداخلية والتواضع والجد تنفّس بول هواء المقاومة ضد البدعة النازية من حيث «إعلاء الشعب. والحرب وحق أعراق السادة».

وفضلاً عن ذلك كان بول مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً متعدد الجوانب بمدينة كولونيا، مسقط رأسه، التي يكتب عنها قائلاً: «مدينة هادئة، وخلو من كلّ حياة أدبية؛ إلاّ أن شيئاً ما يميّزها: فهلتر توعّك: هناك أكثر من أي مكان آخر في ألمانيا. فالكولونيون لحماً ودماً مناهضون لدعاة الروح العسكرية». وبهذا فإن كولونيا ومنطقة الراين الصناعية تشكل الخلفية لصور الحرب وما بعد الحرب عند بول. كما أنّ المدرسة كانت تتمة للبيئة الأسروية، كانت وطناً صغيراً، وكانت الملاذ من «نازية الشوارع». أمّا الأصدقاء فكانوا من ذوي التفكير المعادي للنظام الهتلري. كانوا بطبيعتهم أنسانيين عقلانيين، الأمر الذي حفظهم من الانجراف في تيار النازية وشرورها. وفي أقوال بول وتصريحاته ما يدل

على أنه لم يكن متأثراً بنشوة الاستعراضات والحفلات الشعبية الجماهيرية التي كانت تقيمها المنظمات النازية. فظلّ بعيداً عن تجمّعات الشبيبة الهتلرية ولم يشارك في اجتماعات جبهة العمل التي أدرجت اسمه بصورة آلية في عداد أعضائها سنة ١٩٣٨ لمّا التحق في بون بعد نيله الشهادة الثانوية بالتدريب المهني لتجارة الكتب. على أنه ترك عمله بعد تسعة أشهر، لأنه وجد صعوبة في أن يمضي ثلاث سنوات ونصف ليكسب بعدها القليل من المال (إذ كان يكسب اثني عشر ماركاً في الشهر!)

في سنة ١٩٣٨ دُعي إلى العمل الجماعي الذي كان قد تحوّل إلى منظمة نازية إرهابيّة لا تختلف في سماتها عن معسكرات الاعتقال؛ فالمرء كان يقوم بأشقّ الأعمال في أصعب الظروف: قليل من الطعام وعمل أقرب إلى السخرة، (أعمال زراعية في الشتاء، واستصلاح أراضٍ وتصريف مياه وتجفيف مستنقعات وما إلى ذلك).

كان أداء معسكر العمل الجماعي شرطاً للقبول الدراسي في الجامعة؛ إذ أنه تسجّل فيها لدراسة اللغات القديمة (اللاتينية واليونانية)؛ إلاّ أنه تمّ سحبه إلى الجيش في تموز سنة ١٩٣٩ قبيل اندلاع الحرب بعدة أسابيع وهو شاب في الواحدة والعشرين، لكنه كان ناضجاً في أعماقه. وساقته الحرب من فرنسا إلى روسيا عبر رومانيا والمجر، ومرَّ بتجربة الجبهة وجرح أربع مرات؛ وبدءاً من تشرين الأول سنة ١٩٤٤ نراه ينتقل جندياً فاراً بأوراق مزورة كان قد سرقها من أحد المكاتب (إجازات مفتوحة موقعة على بياض واستمارات مهمات مفتوحة إلى جانب خاتم رسمي سرقه أيضاً).

وبانهزام ألمانيا على كل الجبهات، في الداخل والخارج، انتهى به المطاف كما انتهى بملايين الألمان، في معسكرت السجون الانكليزية ثم الأمريكية. حين انتهت الحرب كان بول في الثامنة والعشرين، في سنٍّ تكفي لأن يعرف ما كان قد حدث. وفي نهاية تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ عاد إلى الوطن المدمّر إنساناً مريضاً وسط فلول المهزومين، إلى بلد كان لا بدٌّ أن يبنى من جديد بناءً مادياً ومعنوياً. عاد إلى مدينة كولونيا المدمّرة حيث كانت تنتظره أسرته التي ضمت الوالدين والزوجة والإخوة والأخوات.

من أجل الحصول على بطاقة تموينية كان لا بدَّ من تقديم إثبات أنه يمارس عملاً أو يزاول مهنة. وكان على بول أن يتخيّر أسهل السبل بأن يعيد ارتباطه بالجامعة لدراسة الأدب الألماني. ولكي يكسب قوته اليومي اشتغل في الوقت نفسه عاملاً بسيطاً في منشرة كان أخوه يملكها؛ لكنه سرعان ما ملَّ من عملية الجمع بين الدراسة والعمل. وفي الفترة الواقعة بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٥١ عمل بول موظفاً مساعداً في دائرة الإحصاء بمدينة كولونيا، ثمَّ تفرّغ بعد ذلك للكتابة نهائياً.

من سنة ١٩٧٠ وحتى سنة ١٩٧٢ شغل بول منصب رئيس اتحاد الكتاب في جمهورية ألمانيا الاتحادية وكذلك رئيس اتحاد الكتاب العالمي.

حصل بول على جوائز أدبية عديدة تربو على العشرين. كانت أولى هذه الجوائز جائزة «المجموعة ٤٧» سنة ١٩٥٢ على قصته «النعاج السود أو العاقون» وتوجتها جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٧٢ على روايته «صور جماعية مع سيّدة» التي صدرت سنة ١٩٧١. في السادس عشر

من تموز سنة ١٩٨٥ وافت المنية كاتبنا الكبير وقد ترك لنا إرثاً أدبياً كبيراً.

كتب بول الرواية والقصة والتمثيلية الإذاعية والتلفزيونية والمقالة والمسرحية، وكان له نشاطه الخلّاق في مجال الترجمة من الانكليزية والهولندية بالاشتراك مع زوجته أنّا ماري.

يقول بول: «أردت الكتابة دائماً وحاولت ذلك في وقت مبكر، على أنني لم أجد العبارات إلاّ فيما بعد».

تعود البدايات الأولى إلى سنة ١٩٤٦ وتكمن أهميتها في أنها عّمقت تجربته في الكتابة. إذ أنه كتب قصصاً قصيرة وقصائد وبعض الروايات، ثلاث أو أربع روايات، إلاّ أنها لم تجد طريقها إلى النشر. أما القسم الأكبر فكان قصصاً قصيرة نشر معظمها في كتاب أو على صفحات المجلات.

يبرز في أدب بول عالمٌ قاسٍ فظيع غير منمّق. إنه الواقع اليومي لسنوات الحرب وما بعد الحرب بكل ما فيه من أسماء وأماكن ومواقف وبشر. إنه بدافع الميل إلى المهانيين والمستضعفين المظلومين يصف المصير الكئيب والاضطراب الداخلي لبشر فترة الحرب وما بعد الحرب.

الحرب نفسها، لا الهزيمة، تعني الانهيار الاجتماعي والأخلاقي لأبطاله الذين هم عرضة لاضطهاد نفسي، إلاّ أنَّ لهم أن يتخيّروا بين الخير والشر.

في رواياته وقصصه الأولى يعرض لسخافة الحرب وللموت الذي تسببه هذه الحرب، والذي لا غاية له ولا نفع.

بول لا يصف الحرب وصفاً مباشراً؛ إنّما يقتصر وصفه على ما وراء هذه الحرب من مكاتب ومستشفيات ميدانية ونقل للجرحى ومعسكرات

اعتقال ومدن تحترق، علاوة على الجوع والقرف. الحرب، هذه السخافة الكبيرة، كلٌّ معقد من الحركات والأعمال التي لا تجرُّ وراءها إلاّ الدمار، إنها استنفاد للطاقات، وهي السوق السوداء، والجوع والفراق والغربة والملل وكره الذات وكره الآخرين وعرق الخوف البارد وهذيان الجرحى. فكلُّ إمكانية للآدمية تفقد معناها حيث يخيّم شبح الحرب. فلا بطولات عند بول، إنّه الموت العاري المجرّد من كل صفة تنمّ عن بطولة. ومطلب بول هو أنْ يجرّد الحرب من طابعها الأسطوري وينزع عنها الهيئة المحاطة بالجلال والمظهر المثالي.

الواقع في نظر بول مهمة تتطلب الاهتمام العملي لا السلبي. وعلى هذا يستدعي إلى الذاكرة الفوضى والضياع والجوع بين الانقاض، إذ أنَّ «الدمار في عالمنا»، كما يقول، «ليس من النوع الخارجي وذا طبيعة تافهة لا تذكر بحيث إنَّ المرء لا يملك إلاَّ الادعاء بأنه يسوّيه في سنوات قلائل».

موقف بول موقف ملتزم يسميه هو ارتباطاً. وقد يرجع هذا إلى نفوره المطلق من كل ضروب الالتزام التي كرّست نفسها لخدمة العرقية والبربرية الجرمانية والقتل من غير أن تكترث لأية رابطة أخلاقية وإنسانية. فالالتزام في نظره ارتباط بالعصر وبما مرَّ به جيل. إنه الارتباط بقلق جيل وتشرّد جيل وجد نفسه في عمر الأجداد. وعلى هذا فإن الارتباط لا يعني الانقياد أو الخضوع والتبعية، بل هو المؤازرة المسؤولة سياسياً وأخلاقياً ودينياً.

بول يكشف عن بنى مجتمع ما بعد الحرب، التي هي بنى هشة متفككة، ويعتقد المرء أنها باقية إلى الأبد مثل الزواج والكنيسة في

رواية «ولم تنطق بكلمة» (١٩٥٣).

إنَّ مؤلفاته الإبداعية كلّها لا تضع مجتمع الماضي النازي موضع الشكّ والتساؤل فحسب، بل تشكّك أيضاً في بُنى الجمهورية التي انبثقت في ظل ما يسمى بالمعجزة الاقتصادية. إنه يعيد إلى الأذهان أيضاً أيام إصلاح النقد (١٩٤٨) التي جلبت معها أضواء النيون والمعروضات في واجهات الحوانيت لكل إنسان، فضلاً عن النقانق الساخنة والقهوة لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الموت والعودة إلى الحياة، عبء الحياة ونعمة الحب أو الحنو الإنساني هما القطبان اللذان تمتدّ بينهما مؤلفاته الإبداعية. فالحب عند هاينريش بول قوة مطهّرة منوّرة تمكّن البطل من أن يكشف لنفسه ولمحيطه معايير جديدة. على أنَّ التناقض بين مثال الإنسانية الخالصة والواقع المعادي المطبوع بطابع العرف والعادات، يسبب للبطل سقوطاً وانهياراً، كما هي الحال في رواية «آراء مهرج» (١٩٦٣). فالبطل يؤثر أن يكون مهرجاً على أن يكونَ رجلاً منافقاً أو نزيهاً في الظاهر. إنَّ عزلته الاجتماعية نتيجة طبيعية لحبه المطلق للحقيقة ولنفوره التام من كل رياء.

حين كتب بول رواية «صورة جماعية مع سيّدة» كان في الرابعة والخمسين. إنها قمة كتاباته الإبداعية وحاصل أدبي لمرحلة تاريخية تشمل فترة ما قبل الحرب وما بعد الحرب حتى السبعينات. وفي سنة ١٩٧٢ خصّت الأكاديمية السويدية هاينريش بول بجائزة نوبل على روايته هذه. فجاءت هذه الجائزة لتكون التكريس النهائي لعمل أدبي وعودة نهائية أيضاً إلى الساحة العالمية؛ إذ أنَّ بول هو الألماني الأول الذي ينال

جائزة نوبل بعد الحرب العالمية الثانية، مع أن الأكاديمية السودية كان قد خصّت سنة ١٩٤٦ هيرمان هيسّه (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢) بهذه الجائزة، لكن لا بصفته ألمانياً، بل بصفته مواطناً سويسرياً، كما كانت قد خصّت بها الشاعرة اليهوديّة نيللي زاكس (١٨٩١ ـ ١٩٧١) بصفتها مواطنة سويدية، لا بصفتها ألمانية.

الحق أن بول لا يهمّه التكريم العلني من خلال هذه الجائزة والجوائز الأخرى بقدر ما يهمه التأثير الحي لدى قرآئه.

إنه في هذه الرواية الرجل الذي يتذكر، فقد عاصر النازية وشارك في حرب هتلر جندياً جرح غير مرة؛ ويعرف أنَّ الرايخ الثالث لم يكن «إصابة عمل» في التاريخ الألماني يمكن أن يسمح للكاتب بأن يتجاهلها. كما يعرف أيضاً أنَّ البنى التحتية من تلك الأزمان لا يزال لها وجودها، فهو يتلمّسها ويعرّيها؛ وهو في ذلك حذر، فقد كان فيما مضى الشخص المعرّض للخطر والذي يقول دائماً أن الخطر لم يزُل زوالاً نهائياً.

بول لا يكتب أيَّ شيء عن هتلر وعن الحرب بصورة مباشرة، إنّما يصورّ هذا تصويراً يقوم على التلميح، سواءً في روايتنا هذه أم في أي عمل أدبي آخر. فحين يذكر أنَّ إعطاء يهودي أو أسير حرب سوفيتي سيجارة، وحتى قراءة كاتب يهودي مثل كافكا، ستكون عقوبة هذا العمل الموت، ففي هذا إمكانية لمعرفة كل شيء عن عهد النازية. وبهذا فإنه يتناول السيجارة لكي يسلّط الأضواء على فترة اثنتي عشرة سنة من تاريخ ألمانيا.

كان هم بول أن يكتب هذه الرواية؛ إذ أنَّ هذه الفترة التي تصورّها

الرواية تبدّت أمام عينيه دائماً، ألمانيا بين الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب، ورأى أن يجعل بطل هذه الفترة إمرأة لا رجلاً، لأنَّ تجربة الحرب التي عاشها هو، إن وصفت من قبل رجال لرجال، كانت مملّة كليّاً، لأنّها تدعو للسخرية. وبهذا أراد بول أن يبتعد عن أدب الرجولة الذي يمقته، ولو كان هذا نموذجاً عند كاتب يجلّه مثل هيمنغواي الذي يمارس عبادة رجولة رهيبة. البطل امرأة إذاً، ولا يفاجئنا أو يدهشنا هذا، لأنَّ أدب بول مليء بالشخصيات النسوية، ومعظمهن بطلات؛ ونذكر على سبيل المثال كاترينا بلوم في قصة «شرف كاترينا بلوم الضائع» (١٩٧٤) وكيتي في رواية «ولم تنطق بكلمة» (١٩٥٣) والعجوز فيميل في رواية «البليارد في العاشرة والنصف» (١٩٥٩).

اسم البطلة أو الشخصية المركزية ليني. وفي بداية الرواية المتشعبة تشعباً ذكياً والمعقّدة تعقيداً ممتعاً والغنية بالأشخاص والأحداث تطلّ علينا البطلة إمرأة في الثامنة والأربعين، ويخيّل إلينا أنها في حضورها الواقعي هذا لن تتاح لها أية فرصة للتطور، إلاّ أنها لا تزال كائناً انثوياً يتألق صحة من سنوات طويلةٍ، كما أنها واضحة في صفاتها الجسدية والنفسية.

ليني التي أطلق عليها على نحو تهكمي باللغة الإصطلاحية لمطلع القرن اسم «سيدة» يضعها بول في إطار صورة جماعية تمثّل شرائح المجتمع طولاً وعرضاً من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق.

تجري الوقائع والأحداث في بيت أهل ليني وفي مدرسة البنات التي تديرها راهبات، وفي مشتل المقبرة الخاص بالانتهازي المزاود بيلتسر، تاجر الخردة ونابش الجثث، وفي أقبية القنابل الشبيهة بالقبور بمدينة

كولونيا، وفي أماكن البناء والتحصينات حتى سور الأطلسي وعلى شاطيء نهر الراين الهاديء هدوء المقابر بعيد الاستسلام، وفي السوق السوداء وفي الأفنية الخلفية وفيلات أرباب الصناعة وفي معسكر أسرى الحرب وفي طابق عمارة مكيف وهلمّ جرا. الأحداث والأشخاص ومسرح الأحداث والمصاير المرتبطة بها، هذا كلّه يتناوله السرد بصورة مباشرة. فالنسيج الهائل المتشكّل من علاقات وعوالم داخلية وخارجية، من حقائق وتأمّلات وأفكار يتمُّ عرضه أمام العيان في توثيق يتقدم إلى الأمام خطوة خطوة على نحوٍ عالي الدقة.

إنَّ ما خطر ببال أديبنا لكي يربط مصاير آل غروتن بكل ما كان في زمنهم لا يمكن أن يوصف بشيء آخر إلاّ بأنه رائع.

والظاهر أنَّ المخزون القصصي عند هذا القاص لا ينضب. فأبو ليني موهبة طبيعية للصعود، إذا صحّ التعبير، إنه يتحول في الوضع الاقتصادي للتسليح إلى استراتيجي خراسانات على سور الأطلسي؛ إلا أنَّ الموت الرهيب الذي أحاق بابنه الوحيد جعله يرى صعوده زرياً، بحيث إنَّ كلَّ ما سيفعله فيما بعد لن يسبب له إلاَّ الدمار الذاتي.

أما الإبنة ليني التي هي مزيج لطيف من الحلو والمر، فإنَّها تبرز وسط هذا الخضّم من الأحداث لتكون ظاهرة نادرة للبساطة وللطبيعة الفطرية البسيطة؛ فهي غير قادرة على الندم،وهي نموذج للفرد المستقل غير المساير وغير المكيّف (أو غير المدجّن). ولئن كانت متواضعة في مطالبها، إلاّ أنها غير متواضعة بالمعنى الاجتماعي، ذلك لأنها لا تخضع. فلا تريد مالاً ولا تطمح لأن تكسب أيَّ مال أو أن تحظى بأية هيبة. فلديها ما تحتاج إليه. وفضلاً عن ذلك فهي مستقلة.

إنَّ الصفة المميزة للبطلة هي حسيّتها التي هي طبيعة خالصة: ـ فأية مادة، مهما كان نوعها، يتعذّر عليها فهمها إذا ما افتقرت إلى البعد الحسّي. حتى الكتابة، هذه العملية العالية التجريد، كانت في نظر ليني مرتبطة بمدركات بصرية ولمسية وشميّة. وعلى هذا لم تستطع. أن تتعلم إلاَّ ما فهمته عملياً وحسيّاً أيضاً، ولم تستطع أن تتعلم النوتات الموسيقية بطريقة تجريدية، بل بواسطة وسائل ايضاح جغرافية. إنَّ الطريقة التي تتعلم بها وترى بها وتعاني بها وتتأمل بها لا تعتبر شيئاً مميزاً للأنثى وخاصاً بها وحدها دون غيرها، بل هو إنساني. وهذا النوع الإنساني من التعلّم الذي يكمن فيه شيء من المعارضة، يواجه بالقمع في المجتمع الألماني، إذ يطلب من الأفراد أن يفهموا بالتجريد أموراً وأشياء لها علاقتها الوثيقة بالتعلم.

هذا وإنَّ الجانب الآخر من طبيعتها الحسيّة يتجلّى في استمتاعها بالأكل. وللأكل معنى لا يستهان به، وهو جزء من شخصها. بول ينطلق من حقيقة الأمر أنَّ الحديث عن الأكل قليل عند الألمان، وأنه لم يكتب عنه إلاَّ القليل، ويعزو هذا إلى ذهنية الخنوع والخضوع الذي يطبّق على مائدة الأسرة؛ فالمجتمع الإلماني لا يؤكل فيه؛ كما أنَّ الأكل يكون سطحياً، لا احتفالاً ولا عيداً. وقد تمَّ اختزال الطعام ببرشانة يدسها المرء في فمه.

ليني أرملة مقاتل. على أنَّ ذروة حياتها هي علاقتها ببوريس، أسير الحرب السوفييتي المحابى بطريقة غامضة والذي يعرف الشعر الروسي والألماني معرفة جيدة بحيث إنه يعرّفها بالشاعرين تراكل (١٨٨٧ ـ ١٩١٤) وهولدرلين (١٧٧٩ ـ ١٨٤٣) فتسمو بهما روحها.

وتكون ثمرة هذه العلاقة طفلاً يحمل اسم ليف.

في بداية الرواية وفي نهايتها تتنقل في شوارع مدينة كولونيا بسرعة وبلا صوت امرأة تتقدم بها السن يشتمها صبيان الأزقّة بأنها عاهرة الشيوعيين.

إنَّ عقد القران الذي يحدث في مدافن المقبرة تحت قصف المعركة الختامية حول مدينة كولونيا يتخذ سمات الشيء السريالي؛ ثم يطلق على هذه المدافن اسم الفردوس الروسي؛ ومما لا شك فيه أنَّ في هذا تحسّراً على الفردوس المفقود لإنسانية حرّة خالصة.

بول في هذه الرواية الضخمة إلى جانب أولئك الذين يعرفهم بأنهم يحملون قلباً صافياً نقياً. وبهذا الصدد فإنه يستصوب الصوفية الجنسية. ففي مشهد القبو وفي أثناء القصف الشديد بالقنابل تستحيل المواقعة البهيمية في حالة الخوف من الموت إلى اتحاد صوفي واجتماعي مع الكائن البشري ليس غير.

بعد الحرب ترتبط ليني بعامل تركي يعمل في مصلحة التنظيفات، متزوج وله أربعة أطفال.

بول يولي مصلحة التنظيفات ونقل الزبالة أهمية كبيرة، بل إنه ليجدها أهمُّ من إدارة تحرير جريدة. إنَّ احتقار المجتمع لهذه الفئة من الناس التي تكرّس نفسها لرفع القمامة هو عجرفة يمكن أن تكلّف غالياً. فماذا لو أضرب هؤلاء، يتساءل بول في مقابلة أجرتها معه الكاتبة كارين شتروك بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ١٩٧٣، ويجيب قائلاً: «إننا ضائعون لا محالة»، بينما لن يمسنا إضراب إدارة جريدة أو الإذاعة على نحو مباشر.

الظاهر الملحوظ أنَّ بول جعل روايته والشخصيات التي يستقي منها المعلومات حملة أهجوة عصر سياسية. إذ يتاح للقارىء أن يعرف حالات الوعي والخلفية الاديولوجية من مجموع المفردات التي تستعملها شخصيات الرواية.

بول لم يكتب روايته هذه بصيغة ضمير المتكلم؛ بل لجأ إلى خلق مؤلف ضمني مستخدماً صيغة التوثيق. هذا المؤلف الضمني ليس بالمعنى الذي يبتكر الشيء، بل إنه يجمع ويصوغ ما شارك فيه الآخرون. وهذه الشخصية المبتكرة بصفة مؤلف أوتيت الطرق اليدوية الصحفية للتحري والبحث، فضلاً عما تزودت به من معرفة بالأماكن والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع. والأهم من هذا كله أنَّ هذا المؤلف الضمني المختلق ذو حسّ باطني ومقدرة على الإكتشاف وتسقّط الأخبار والحدس بما هو خفي. أمّا القارىء فيعيش الرواية في حركة، ويرافق المؤلف الوهمي في بحثه عن مصادر المعلومات، ونتتبع كل حوار يجريه مباشرة مع الشخوص المتعددة المستويات، وكل قول ينقله لنا نقلاً أميناً ويضمنه نسيجه الروائي.

لقد أوجد بول هذا المؤلف الضمني لكي يخلق عنصر التشويق على نحو دائم ويصعّده. إذ نراه على استعدد دائم لكي يزجّ نفسه في أي موقف متحدثاً ومراقباً علىٰ نحو غير ملفت من أجل الوصول إلى الحقيقة. فهو يقدّم للزبائن خدمة، إذا صحَّ التعبير. فهو تحرٍّ ومعلّق في شخص واحد. وعلى حين يترك بول مؤلّفه الوهمي هذا يتقصّى آثاراً، حتى الآثار المضلّلة، ويخمّن ويستنتج ويحاول التأويل والتفسير، ثم يجعله يرفض بين الحين والآخر أو يردّ الهجوم فإنّه يوفّق إلى تشكيل فني

غاية في المهارة والتقنية، فلا عاطفية ولا حماسة زائدة. رواية يتداخل فيه الواقع بالخيال.

اللغة موضوعية دقيقة تحمل روح السخرية لكي تتوصل إلى كشف الواقع كشفاً غايته معرفة الحقيقة لدى الإحاطة بتاريخ مجتمع وبتاريخ العادات والتقاليد على تعاقب جيلين وتوضيحه من خلال مصير امرأة تتزوج وتترمل ثم يكون لها أخيراً عشيق.

إنها لغة تسمي الأشياء بأسمائها، كما أنها لا تخلو من الغمز واللمز، من التصريح والتعريض بالموضوع الذي تتناوله؛ فالبنية السردية تتطلب مثل هذه اللغة، على حين ليس هنالك سرد بالمعنى الذي تعودناه. إنه جمع وتركيب لمجموعة من الصور التي تشكل العمل الروائي.

وماذا عن الترجمة؟ هل كان لها مشاكلها؟ ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا العمل الأدبي الضخم الذي نقدّمه للقارىء العربي في حلّة حرصنا على أن تكون متناسقة الألوان ودقيقة الصنع، لا يمكن أن يخرج في شكله الجديد بدون عرق ومعاناة. ولكن هل الترجمة «خيانة»؟ هذا السؤال له إجابتان: نعم ولا. نعم، لأننا مهما أوتينا من براعة لغوية وفهم دقيق للمعاني، فلا بدَّ أن تواجهنا صعوبات في نقَل دقائق اللغة المترجم منها إلى لغة الهدف.

وفي بعض الأحيان قد يسبّب إسقاط كلمة بسيطة في ظاهرها مهمة في موقعها بعض الخلل في المعنى الضمني أو قد يخفف من حدّة النغمة التي كان يجب أن تتخذها العبّارة المنقولة. ولكن رغم هذا كلّه فإنَّ صفة الخيانة تنتفي عن النص المترجم حين يتأتّى نقل صورة إجمالية إلى قارىء لا يملك الأدوات ولا الوسائل التي تقرّبه من عالم الكاتب

الأجنبي، هذا القارىء الذي لن يجد في الترجمة التي بين يديه إلاَّ نسخة أصلية ثانية.

ونحن بدورنا لم ننقل مضامين «بسيطة» فحسب، بل إننا على ثقة بأنَّ لغتنا العربية التي ترجمنا إليها هذا العمل الروائي الصعب لا تفقد بعدها الجمالي الذي لا غنى عنه لأية ترجمة تريد أن تثبت نفسها في الساحة الأدبية. ولهذا عمدنا إلى أن نترجم ترجمة كاملة من غير أن نحذف شيئاً أو نضيف شيئاً، كما أننا حافظنا أيضاً على تصوّرات الكاتب في صفائها وخصوصيتها؛ إذ أننا وضعنا نصب أعيينا بأن تكون ترجمتنا هذه تكراراً لخلق لغوي، وبهذا تصبح هي نفسها خلقاً لغوياً فتحقق عندئذ غايتها بأن تربط القارىء بالمؤلف والعمل الأدبي على سواء.

شيء آخر نودّ أن نلفت الانتباه إليه وهو أننا آثرنا ألاَّ نثقل على القارىء الحصيف بأية شروح. فقد ورد في مواضع عديدة أسماء أدباء وفنانين وشخصيّات أدبية وذكرت أسماء أماكن جغرافية أوربية، وكانت هناك أيضاً إشارات إلى مؤلفات أدبية وفنيّة، فتركناها على حالها من دون أن نعلّق عليها، ذلك لأننا نشاطر أديبنا الرأي أنَّ الناس على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم المدرسية قادرون على أن يفهموا الكثير جداً مما يكتبه أيُّ كاتب؛ هذا إذا كان لديهم شيءمن الحساسية. وعلى هذا يقول بريخت: من فقد الحسَّ الأدبي فهو مفقود. فالأدب لا يهدف إلى أن يخلق غربة؛ بل إنَّ همّه ومطلبه أن يلغي هذه الغربة أو أن يحول بينها وبين الإحساس بها على الأقل.

إنَّ أهميّة الكاتب بول وأي كاتب آخر خارج حدود بلده وقفٌ على

الطابع الإنساني للقضايا التي يتناولها، بحيث يتضح الشيء العام في الشيء الخاص.

وكلّنا أمل أن يكون استقبال هذه الرواية «الصعبة» القراءة كبيراً في عالمنا العربي المترامي الأطراف. إذ أنَّ حساسية القارىء العربي ستكون له عوناً في أن يرى الشيء المحلّي في هذه الرواية مجرّد معلومات عن بلاد وأوضاع كان يجهلها قبل أن يصبح هذا العمل الروائي في متناول يده. وفي هذا الكثير الكثير.

اللاذقية في ٢٠/١٢/١٩٩٨

صلاح حاتم

ـ ا ـ

الحاملة الأنثى للأحداث [البطلة] في القسم الأول إمرأةٌ في الثامنة والأربعين، ألمانيّـة؛ طولها ٧١ , ١م، ووزنها ٨ , ٦٨ كغ (في الثياب المنزلية)، وبهذا لا يقلُّ وزنها عن الوزن المثالي إلاَّ ٣٠٠ إلى ٤٠٠ غ تقريباً؛ لها عينان يتغيّر لونهما من الأزرق الغامق إلى الأسود، ولها شعر كثيفٌ شاب قليلاً واسترسل ليحيط برأسها مثل خوذة. اسم المرأة ليني بفايفر، واسم اسرتها غروتن، وقد خضعت طوال اثنتين وثلاثين سنة، بشكل متقطّع طبعاً، لتلك القضيّة الغريبة التي يسميها المرء قضيةَ العمل: عملت لمدة خمس سنوات معاونة غير مدربّة في مكتب والدها، وعملت بستانية غير مدرّبة لمدة سبع وعشرين سنة. وبما أنها تخلّت على نحوٍ مستهتر وفي ظروف التضخّم النقدي عن ملك ثابت كبير هو عمارة للإيجار متينة البنيان في مدينة نويشتات، ربما بلغت قيمتها الآن اربعمائة ألف مارك، فإنّها الآن أقرب إلى الإعواز منذ أنْ تخلّت عن عملها من غير أسباب وبدون مرض أو تقدّمٍ كافٍ في السنّ. وبما أنها تزوّجت في سنة ١٩٤١ بضابط صف محترف في القوات المسلّحة الألمانية زواجاً دام ثلاثة أيام فإنّها تتقاضى معاش أرملة مقاتل لم يُحسّن بعد بمعاش تقاعدي حكومي. وفي وسع المرء أن يقول إنَّ ليني تكاد أن تكون الآن في أسوأ حال، لا من ناحية مالية فحسب، بل منذ أن سجن ابنها المحبوب.

لو أنَّ ليني قصّت شعرها على نحوٍ أقصر وصبغته بصباغٍ أكثر رمدةً بقليل لبدت إمرأةً في الأربعين في حال جيّدة؛ وكما تسرّح الآن شعرها فإنَّ الفرق بين تسريحة الشعر الشبابية ووجهها الذي لم يعد يتحلّى بنضارة الشباب كلّها كبير للغاية، ويقدّر المرء عمرها في نهاية الأربعين؛ وهذا هو عمرها الحقيقي. إلاَّ أنّها تتخلّى عن فرصة كان عليها أن تغتنمها، إنّها تبدو مثل شقراء لم تعد ناضرة وشابة تحيا حياة أو تبحث عن حياة خليعة ـ وهذا لاينطبق عليها البتة. إنَّ ليني إحدى أترابها النادرات كل الندرة التي ربما كان في وسعها أن تلبس تنوّرة قصيرة للغاية: ساقاها وفخذاها لا يظهران تبدّلاً ولا ترهّلاً.

على أنَّ ليني تؤثر طول ثياب كانت زيّاً في سنة ١٩٤٢ تقريباً، ويرجع السبب في معظمه إلى أنها لا تزال تلبس فساتينها القديمة بصورة دائمة وتفضّل السترات والبلوزات لأنَّ الكنزات تبدو لها بالنسبة إلى نهديها غير لائقة وملفتة للنظر. أما فيما يتعلق بمعاطفها وأحذيتها فإنها لا تزال تعيش من الأشياء الموجودة في متناولها الجيدة جداً والتي لا تزال في حال جيدة جداً والتي استطاعت أن تقتنيها في شبابها حين كان والداها ميسورين إلى حين. نسيج صوفي من تويد مزأبر على نحو شديد، وردي رمادي، ونيلي، ورمادي، وأزرق سمائي (وحيد اللون)، وإذا ما رأت غطاء الرأس لائقاً استعملت منديلاً؛ وأحذيتها هي مثل تلك التي استطاع المرء أن يشتريها في السنوات الواقعة بين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ بصفتها «متينة لا تبلى».

بما أنَّ ليني تقف الآن في الدنيا من غير حماية رجلٍ دائمة أو نصيحة رجل دائمة، فإنها تخضع من حيث تسريحة شعرها لخداع دائم؛

السبب في هذا مرآتها، وهي مرآة قديمة تعود إلى سنة ١٨٩٤، وعاشت، لسوء حظ ليني، حربين عالميتين. ولا تدخل ليني صالون حلاقة أبداً، ولا تدخل أبداً متجراً يسطع بالمرايا الكثيرة، إنها تتسوق في حانوت للبيع بالتجزئة ينتصب أمامها الآن ليخضع للتحول البنيوي؛ وعلى هذا كانت هي وحدها في حاجة إلى هذه المرآة التي قالت عنها جدّتها غيرتا باركل، اسم اسرتها هولم، إنّها تتملق بالغ التملّق؛ وكثيراً ما تستعمل ليني المرآة. إنّ تسريحة ليني أحد البواعث لغمّ ليني، ولا تعرف ليني شيئاً عن العلاقة. فما يمكنها أن تشعر به بكل قوة هو الحقارة المتزايدة دائماً للعالم من حولها، في البيت وفي الجوار. وضاف ليني في الأشهر المنصرمة رجال كثيرون: مندوبو شركات ائتمان سلّموها آخر الإنذارات، لمّا أنها لم تستجب لرسائل؛ ومحضرون ورسل محامين وأخيراً رسل محضرين جاؤوا وأخذوا الشيء المحجوز عليه؛ هذا وبما أنَّ ليني تؤجر ثلاث غرف مفروشة يبدّلها المستأجرون بين وقت وآخر، فقد جاء إليها أيضاً رجال أصغر سنّاً يبحثون عن غرف. بعض هؤلاء الرجال الزائرين صار ملحاحاً ـ من غير نجاح طبعاً؛ كل واحد يعرف كيف يتباهى الملحاحون الخائبون بالذات بنتائج إلحاحهم، لذا فإنَّ كل واحد سيشعر بمقدار السرعة التي أطيح بها بسمعة ليني.

* * *

ليس المؤلف مطّلعاً على الإطلاق على مجمل حياة ليني الجسدية والنفسية والجنسية، على أنَّ كل شيء، إنّما كل شيء أيضاً تمّ القيام به للحصول على الشيء الذي يتعلق بليني والذي يسميه المرء بيانات

ومعلومات موضوعية (لا بل إنَّ الأشخاص الذين سيكونون مصدر معلومات ستذكر أسماؤهم في الموضع المناسب!)، وما سيروى هنا يمكن وصفه باحتمال يبلغ حدَّ اليقين بأنه صحيح. إنَّ ليني صموتة وكتومة ـ وبما أنَ صفتين غير جسديتين ذكرتا هنا، فإنه ينبغي أن تضاف أيضاً صفتان أخريان: ليني لا تشعر بالمرارة في نفسها ولا بالندامة؛ بل إنها لا تندم أنها لم تحزن قطّ على موت زوجها الأول. إنَّ قسوة قلبها تامة كاملة بحيث إنَّ كل «تزايد» أو «تناقص» بالنسبة إلى قدرتها على الندم سيكون غير مناسب وفي غير محلّه؛ وأغلب الظن أنها لا تعرف ما الندامة؛ وفي هذا الشأن ـ وفي أمور أخرى ـ يجب وصف تربيتها الدينية بأنها مخفقة، وأغلب الظن لمصلحة ليني.

إنَّ ما يظهر جليّاً من أقوال الأشخاص الذين هم مصدر المعلومات: هو أنَّ ليني لم تعد تفهم العالم، فهي تشكُّ إذا كانت قد فهمته من قبل؛ ولا تفهم عداء البيئة، ولا تفهم سبب حنق الناس عليها ومجافاتهم لها. فلم تقم بعمل منكر ولم تسيء إليهم أيضاً. وفي الفترة الأخيرة ومنذ عهد غير بعيد، وحين تغادر منزلها مضطرة إلى ابتياع حاجاتها يجهر الناس بالهزء والسخرية منها وينعتونها بعبارات وألفاظ ما زالت تعدّ من العبارات والألفاظ الأخف والألطف من مثل «امرأة رذيلة» أو «مرتبة بالية» (مفرش بالٍ). بل وظهرت شتائم من جديد تعود مناسبتها إلى نحوٍ من ثلاثين سنة خلت: عاهرة الشيوعيين وعشيقة الروس. ولا تأبه ليني لمضايقات كلامية حقيرة. فالتهامس من وراءها «بفاسقة خليعة» هو في نظرها جزء من الحياة اليومية. ويعدّها الناس باردة العواطف، لا بل عديمة الإحساس. وكلاهما غير صحيح. ونقلاً عن شهود

صادقين (الشاهدة ماريا فان دورن) فإنَّ ليني تجلس ساعات طوالاً في منزلها وتنتحب، فجيوب الملتحمة والقناتان الدمعيتان عندها في نشاط كبير. حتى الأطفال في الجوار الذين كانت علاقتها بهم إلى الآن علاقة ودية صار الناس يؤلبونهم ضدّها فينادون عليها بألفاظ لا هم يفهمونها ولا هي تفهمها جيداً. وفي أثناء ذلك وكما يدلي شهود بأقوال مسهبة كافية وافية تتناول آخر مصدر عن ليني تناولاً تاماً وافياً ففي الإمكان الإثبات أنَّ ليني ضاجعت في حياتها إلى الان باحتمال يبلغ حدّ اليقين رجلاً واحداً مرات ومرات: فقد ضاجعت مرتين لويس بفايفر الذي اقترنت به فيما بعد (مرة قبل الزواج، ومرّة أخرى بعد الزواج الذي لم يدم إلاَّ ثلاثة أيام) وباقي المرات رجلاً آخر كانت ستتزوجه لو أنَّ الظروف سمحت بذلك. دقائق معدودات، وبعد أن يسمح لليني أن تتدخل مباشرة في الأحداث (وسيستغرق هذا فترة وجيزة)، ستكون قد ارتكبت أول مرة ما قد يسميّه المرء خطيئة: ستكون قد استجابت لعامل تركي سيتضرع إليها ناشداً ودها بلغة لا تفهمها، ولن تستجيب له ـ باعتبار هذا ميزة ـ إلاَّ لأنها لا تحتمل أن يركع أي شخص أمامها (ومن الصفات التي يجب شرطها أنها هي نفسها غير قادرة على أن تركع وترضخ). ولربما كان ضرورياً أن يضاف أنَّ ليني يتيمة الأبوين وأنَّ لها بعض الأصهار المزعجين وآخرين أقلّ إزعاجاً ولا تربطهم بها رابطة زواج، بل رابطة قرابة مباشرة في الريف وأنَّ لها ابناً عمره خمسٌ وعشرون سنة يحمل اسم اسرتها قبل الزواج وهو الآن نزيل السجن. إنَّ علامة جسدية قد تكون ذات أهمية، وقد تكون أيضاً ذات شأن من أجل الحكم على إلحاح الرجال. وهي أنَّ ليني لها نهدان منيعان لا يهزمان تقريباً، نهدا امرأة

هيم بها هياماً رقيقاً ونظمت في نهديها قصائد. وليس أحبّ إلى المحيط من أن يمحو ليني أو يبعدها؛ حتى إنه ليُنادى عليها من خلفها: «هيّا أذهبي» أو «هيّا اغربي عن الوجه»، وقد ثبت أنَّ المرء تصبو نفسه بين الحين والحين إلى القتل بالغاز الخانق، والرغبة في ذلك مؤكدة، ويجهل المؤلف إذا ما كانت هناك إمكانية لذلك؛ وليس في وسعه إلاَّ أن يضيف أنَّ الرغبة يُعبَّر عنها تعبيراً شديداً.

لا بدَّ من الإتيان ببعض التفاصيل حول عادات ليني الحياتية؛ إذ يطيب لها أن تأكل، ولكن باعتدال؛ وجبتها الأساسية الفطور، لا غنى لها في فطورها عن خبزتين مستديرتين طريتين وبيضة طرية مسلوقة سلقاً خفيفاً وقليل من الزبدة وملعقة كبيرة أو ملعقتين كبيرتين من المربّى (وبتعبير أدق: رب الخوخ المعروف في مكان ما برب الخوخ المفروم (البوفيدل)، وتحتاج إلى قهوة ثقيلة تمزجها بالحليب الساخن وإلى قليل من السكر؛ ولا تهمها الوجبة المسمّاة وجبة الغداء إلاَّ قليلاً: إذ يكفيها حساء وشيء قليل من العقبة؛ وفي المساء تأكل أكلاً بارداً فتتناول قليلاً من الخبز الطري الذي لا تترك أحداً يأتيها به، بل تنتقيه هي بيدها، لا بأن تتلمّسه بيديها، بل بأن تفحص لونه؛ لا شيء ـ في الأطعمة على كل حال ـ لا شيء ينفرّها مثلما ينفرّها الخبز البائت التفه. وبسبب الخبز ولأنَّ الفطور طعام العيد اليومي عندها فإنها تيمّم وجهها شطر الناس في الصباح وتتحمل شتائم وأقوالاً رخيصة ومضايقات كلامية حقيرة.

أما موضوع التدخين فينبغي القول بصدده: إنَّ ليني تدخّن منذ أن كانت في السابعة عشرة من عمرها، وتدخن في الحالة العادية ثماني سجائر، لا أكثر، وفي أغلب الأحيان أقل من ذلك؛ وفي أثناء الحرب

امتنعت إلى حين عن التدخين، لكي تدسّ السجائر في جيب شخص أحبّته (لا زوجها!)، وليني ممّن يطيب لهم أن يشربوا بين الفينة والأخرى كأساً من النبيذ، ولا يزيدون شربهم عن نصف زجاجة ويسمحون لأنفسهم بكأس من العرق تبعاً لحالة الطقس، أو بكأس من الشيري (الخمر الأسبانية) تبعاً للحالة النفسية، أو الوضع المادي. بيانات أخرى: هي أنَّ ليني تحوز على إجازة السوق منذ سنة ١٩٣٩ (وقد حصلت عليها بترخيص خاص أو بموافقة استثنائية، وسوف توضّح أدق الظروف فيما بعد)، لكن منذ سنة ١٩٤٣ لم يعد لديها سيارة، ولقد طاب لها أن تسوق سيارة، إلى حدّ الشغف تقريباً.

لا تزال ليني تسكن في البيت الذي ولدت فيه. وبناءً على مصادفات لا يمكن تقصّيها فقد سلم الحي من القنابل، وعلى أية حال فقد سلم نوعاً ما؛ فلم يتهدّم منه إلاّ ٣٥٪ ، وهذا يعني أنه كان محظوظاً أو ميمون الطالع. ومنذ عهد قريب ألمَّ بليني ما حلَّ عقدة لسانها، فحكته من توّها وفي أقرب فرصة لأفضل صديقاتها وموضع سرّها الأساسي والشاهد الأساسي أيضاً للمؤلف بصوت مضطرب: في الصباح وحين اجتازت الشارع وفي أثناء جلب الخبز تعرّفت قدمها اليمنى بعد غياب طويل إلى حفرة صغيرة في بلاط الشارع كانت قدمها اليمنى قد مرّت بها آخر مرة قبل أربعين سنة حين كانت ليني تلعب هناك مع فتيات أخر لعبة الحجلة؛ كانت المسألة مسألة موضع انكسار صغير في حجر رصيف بازليتي لا بدَّ أن يكون المبلّط قد قصّه في نحو سنة ١٨٩٤ عندما أنشيء الشارع. وسرعان ما نقلت قدم ليني الخبر إلى ساق دماغها، وهذا نقل الانطباع إلى كل الأعضاء الحسيّة والمراكز

الشعورية، وبما أنَّ ليني شخص حسّي جداً يتحوّل كل شيء لديه على فوره إلى الجنسي فقد مرّت نتيجة اللذة والبهجة والحزن والذكرى وحالة التهيّج الكامل بتلك العملية التي يمكن أن يطلق عليها في المعاجم اللاهوتية، حيث يقصد بها شيء آخر، بأنها «تحقيق الوجود المطلق»، أما علماء الجنس الأفظاظ والعقائديون المختصون باللاهوت الجنسي فسيطلقون عليها، وقد انتقصت على نحوٍ مخجلٍ مخزٍ، قمّة التهيّج الجنسي.

* * *

قبل أنْ يتكوّن الانطباع أنَّ ليني منعزلة منزوية إلى نفسها لا بدَّ من ذكر كلّ أولئك الذين هم أصدقاؤها، ومعظم هؤلاء الأصدقاء كانوا معها في سرائها، وأثنان شاركاها أفراحها وأتراحها وكانا معها في السّراء والضراء. ولا تقوم عزلة ليني إلاّ على صمتها وتكتّمها، بل إنَّ المرء قد ينعتها بأنّها قليلة الكلام؛ والحق أنها قلّما تتغلب على تحفّظها وتسترسل في الحديث بطلاقة، حتى ولا أمام أعزّ صديقاتها مارغريت شلومر، إسم اسرتها تسايست ولوته هويزر، إسم أسرتها بيرنتغن، الصديقتين اللتين ظلّتا تقفان إلى جانبها عندما مرّت عليها أشدّ الأوقات رزءاً وكرباً. إنَّ مارغريت في مثل عمر ليني، مترمّلة مثل ليني، على أنَّ هذا التعبير قد يحدث سوء فهم. فقد ضاجعت مارغريت نوعاً ما رجالاً، لأسباب ستذكر فيما بعد، لا لغرضٍ فيه منفعة ذاتية، ولكن بين وقت وآخر، وحين كانت تسوء أوضاعها كثيراً، كانت تفعل ذلك لقاء أجر، ولكن في إمكان المرء أن يصف مارغريت على أحسن

وجه حين يؤكد أنه كان لها علاقتها الجنسية الوحيدة المدبّرة بالرجل الذي تزوّجته في الثامنة عشرة من عمرها؛ وآنذاك أيضاً أبدت الملاحظة الوحيدة الفاجرة التي يمكن إثباتها بأن قالت لليني (وكان هذا في سنة ١٩٤٠): «لقد اصطدت شخصاً غنيّاً يريد أن يتزوجني». وتلازم مارغريت حالياً المستشفى في مركز عزل، فهي مصابة بمرض جنسي على نحو وبيل، وأغلب الظن أنه داءٌ عضال؛ وتنعت نفسها بأنها «منتهية كليّاً» ـ فقد أختلّ نظام غددها الصمّ بأكمله؛ ولا يستطيع المرء أن يتحدّث معها إلاّ معزولاً بوساطة لوح زجاجي، وهي شكور على كل علبة سجائر يؤتى بها إليها وكل قسط ضئيل من العرق، حتى لو كان أصغر زجاجة عرق يمكن الحصول عليها في السوق وتعاد تعبئتها بأرخص أنواع العرق. ونظام غدد الصم عند مارغريت في فوضى كبيرة بحيث إنها «لن تعجب لو أنّ بولاً انهمر من عينيها بدلاً من الدموع». وهي شكور على كل نوع من المخدّرات، ولسوف تتناول أيضاً الأفيون أو المورفين أو الحشيش. أما المستشفى الواقع على مشارف المدينة فيحتل مكانه في الطبيعة وقد بني على شاكلة منزل مؤلف من طابق واحد. وللحصول على إذن بالدخول إلى مارغريت كان لا بدّ للمؤلف من أن يلجأ إلى مختلف الوسائل الحقيرة: الرشوة والاحتيال المطابق لانتحال وظيفة رسمية (فقد انتحل شخصية مدرس وعلم اجتماع وعلم نفس البغاء!).

تسليفاً للمعلومات عن مارغريت واستباقاً لها لا بدَّ من الإضافة هنا أنّها «في ذاتها» شخص أقلُّ شهوانية من ليني؛ ولم يكن فساد مارغريت رغبتها الخاصة في ملذات الحب، بل كان فسادها أنها كانت تطمع في كثير من الملذات والمسرات التي أوتيت موهبة لتجود بها؛ ولا

بدَّ من الحديث عن ذلك فيما بعد. على أية حال: ليني تعاني، ومارغريت تعاني.

* * *

«في الواقع» ليس تألّماً «في ذاته»، وإنّما تألّمُ لأنَّ ليني تعاني وتتألم، والشخص الذي هي شديدة التعلّق به هو إمرأة ذكرت في البداية إسمها ماريا فون دورن، عمرها سبعون سنة، وكانت فيما مضى خادمة عند أبوي ليني، آل غروتن؛ وتعيش الآن منزوية على نفسها في الريف حيث يضمن لها شيخوخة رضيّة إلى حدّ ما معاشُ إصابة عمل وحديقة خضروات وبعض أشجار الفاكهة واثنتا عشرة دجاجة ونصيب في نصف خنزير وعجل تشارك في تسمينهما. لم تقف ماريا إلى جانب ليني إلاَّ في سرّائها وأوقات اليسر، ولم تساورها الشكوك إلاَّ عندما «حلَّ بها العسر، وكما ينبغي تبيانه، فلم تكن شكوكاً أخلاقية، وكانت ـ على غير ما توقّع ـ شكوكاً وطنية. إنَّ ماريا إمرأة ربما كانت قبل خمس عشرة أو عشرين سنة «قوية القلب»؛ وفي أثناء ذلك فإنَّ هذا العضو المبالغ في تقديره قد انزلق في مكان ما، هذا إذا كان لا يزال موجوداً في مكانه، والمؤكد أنَّ قلبها لم يغُص «في صدرها»، فلم تكن قط جباناً رعديداً؛ ويهولُها ما يفعله المرء بالمخلصة ليني التي تعرفها في الحقيقة معرفة جيدة، وتعرفها بدون شك أكثر ممّا عرفها الرجل الذي تحمل اسمه. وعلى كل حال عاشت ماريا فان دورن من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٦٠ في بيت غروتن، وشهدت مولد ليني وشاركت في كل مغامراتها ومصيرها الكامل؛ وكانت على وشك العودة ثانية إلى ليني، غير أنّها

تعدُّ مؤقتاً كل طاقتها (الكبيرة إلى حدٍّ ما) لتجلب ليني إليها إلى الريف. ويهولها ما يلّم بها ويهدّدها، لا بل إنها مستعدة لأن تصدّق فظائع تاريخية معيّنة لم تظنها إلى الآن أمراً مستحيلاً، لكنها ارتابت في كتمها.

* * *

يحتل الناقد الموسيقي الدكتور هيرفيك شيرتينشتاين مكانة خاصة وسط الأشخاص الذين هم مصدر المعلومات؛ ويسكن منذ أربعين سنة في القسم الخلفي من منزل كان سيعدّ قبل ثمانين سنة منزلاً فخماً، لكنه فقد مكانته بعد الحرب العالمية الأولى وتقسّم؛ شقّته في الطابق الأرضي من منزل يحدّ بقسمه الواقع باتجاه الفناء منزل ليني الواقع باتجاه الفناء، وقد مكّنه هذا من أن يتابع بعناية طوال عقود من الزمن تمارين ليني وتقدّمها وجزءاً من اتقانها اللاحق على المعزف من غير أن يعرف من قبل إنَّ ليني هي التي تعزف هناك؛ الحق أنّه يعرف ليني من المشاهدة ويلتقيها منذ أربعين سنة بين الحين والحين في الشارع (بل إنه لمن المحتمل أنّه راقبها وهي تلعب الحجلة، إذ أنه شديد الاهتمام بألعاب الأطفال، وقد كتب رسالة الدكتوراه حول موضوع (الموسيقا في لعب الطفل)، وبما أنَّ محاسن الأنثى ومفاتنها لا تؤثر فيه فمن المؤكد أنه تابع بانتباه مظهر ليني الكلّي وشكلها على مدى السنوات، ومما لا شكّ فيه أنه أومأ بين الحين والحين بالرأس مستحسناً، لا بل إنه لمن المحتمل أنه كانت لديه أفكار شهوانية، ومع هذا ينبغي القول إنه إذا ما قارن المرء ليني بكل النساء اللواتي خالطهن شيرتينشتاين إلى الآن ـ ماكان شيرتينشتاين

ليعتبر ليني على نحو جدّي «مظهراً لما هو بالغ الفظاظة والابتذال». ولو حدث هو أنَّ ليني هي التي تعلّمت هنا بعد سنوات من التمرين من غير نصير لها فيها أو معين لتتقن عزف مقطوعتين لشوبيرت على المعزف، وبحيث إنَّ شيرتينشتاين لم يملَّ من تكرار دام عقوداً، فلربما غيَّر حكمه على ليني، هو الذي لم تُخفْهُ واحدة اسمها مونيك هاس فحسب، بل إنها هابته أيضاً. ولا بدَّ من العودة فيما بعد إلى شيرتينشتاين الذي ستكون له فيما بعد عن غير عمد علاقة جنسية مع ليني على نحوٍ لا يقوم على التخاطر. وإنما على النقل عن بعد بواسطة الحواس. ومن الحق أن يقال إن شيرتينشتاين كان سيقف إلى جانب ليني أيضاً في أوقات العسر، إلا أنه: لم يجد الفرصة المواتية.

* * *

استطاع مصدر من مصادر المعلومات وهو شخص في الخامسة والثمانين أن يروي الكثير عن أبوي ليني والقليل عن نفسية ليني وحياتها الروحية، واستطاع أن يحكي كل شيء تقريباً عن حياتها الخارجية والظاهر من حياتها: وهذا الشخص هو أوتّو هويزر كبير المحاسبين المتقاعد منذ عشرين سنة ويقيم في مأوى للعجزة مريح يجمع مزايا فندق فخم إلى مزايا مصحّ فخم. ويزور ليني زيارة منتظمة تقريباً أو تزوره ليني.

كنّته لوته هويزر، إسم أسرتها بيرنتغن، شاهدةٌ قويَّةُ التعبير؛ أمّا ولداها فيرنر وكورت اللذان بلغا في أثناء ذلك الخامسة والثلاثين أو الثلاثين فلا يركن إليهما بشكل خاص. إنَّ لوته هويزر واضحة دقيقة

وعنيفة قاسية على حد سواء. وطبيعي أنَّ قسوتها لم تنصبَّ على ليني قط؛ لوته في السابعة والخمسين، أرملة فقدت زوجها في الحرب مثل ليني وموظفة في مكتب. وتنعت لوته هويزر السليطة اللسان حماها أوتو (أنظر أعلاه) وابنها الأصغر كورت من غير مراعاة لأي قيد ولروابط الدم بالأفّاقين اللذين تحمّلهما تبعة كل ما حلَّ بليني من تعاسة تقريباً؛ ومنذ عهد قريب فقط «عرفتُ أشياء معيّنة لا أستطيع أن أقولها لليني لأنني أنا نفسي لمّا أفهمها بعد فهماً كاملاً. وإنَّ هذا لصعب فهمه». وتسكن لوتّه في شقة مؤلفة من غرفتين ومطبخ وحمام في وسط المدينة وتدفع ثلث دخلها كراءً لها. ويخطر ببالها أن تعود أدراجها إلى منزل ليني، بدافع الشعور الطيب والميل إليها، ولكن أيضاً وكما أضافت مهددة (لأسباب غامضة غموضاً مؤقتاً)، «لكي أرى هل سيطرودنني فعلاً قضائياً. وأخشى: أنهم سيفعلون ذلك». لوتَه موظفة إحدى النقابات «من غير قناعة» (كما أضافت من غير أن تُسأل) «لا لشيء إلاَّ لأنني أود أن آكل وأعيش».

* * *

أشخاصُ آخرون هم مصدر المعلومات، ليسوا حتماً بالأشخاص الأقل أهميّة، هم: الحائز على شهادة الدكتوراة في اللغة والآداب السلافية الدكتور شولسدورف الذي دخل فجأة في تاريخ حياة ليني بسبب تورّط معقّد أو تشابك. وسيوضّح هذا التورّط ولو كان أيضاً غاية في التعقيد ولظروف متعددة الجوانب ستشرح أيضاً في موضع مناسب فقد تورّط شُولسدورف في وظيفة مالية عليا؛ ويريد أن ينهي هذه

المسيرة المهنية عن قريب عن طريق تقاعدٍ سابق لأوانه.

اختصاصي آخر بالآداب السلافية، الدكتور هينغيز، له دور ثانوي؛ وبصفته شخصاً تستقى منه معلومات فهو على كل حال شخص مريب، مع أنه على بيّنة من طبيعته المريبة، لا بل إنّه يؤكدها ويستمتع بها نوعاً ما. ويصف نفسه بأنه «ساقط كليّاً»، وهو وصف لا يحب المؤلف أن يتبنّاه لأنَّ هينغيز صاحبه. وقد اعترف من غير أن يطلب منه بأنّه خان اللغة الروسية «لغتي الروسية الرائعة» في خدمة دبلوماسي نبيل المحتد اغتيل منذ عهد قريب، وذلك في الإتحاد السوفييتي في أثناء «استخدام» يد عاملة لصناعة التسليح الألمانية. ويعيش هينغيز «في ظروف مادية هادئة مريحة» (هـ. عن هـ.) في الريف بالقرب من بون حيث يعمل مترجماً لمختلف المكاتب والمجالات السياسية الشرقية.

* * *

قد لا يتّسع المقام لكي نذكر هنا بالتفصيل كل الأشخاص الذين هم مصدر المعلومات. وسيعرَّف بهم في الموضع المناسب وسيوضعون في محيطهم وبيئتهم. ولْيذكر هنا شخص يعدُّ مصدر معلومات لا لليني نفسها، وإنما لشخص مهم في حياة ليني، لراهبة كاثوليكية، وهو بائع الكتب القديمة سابقاً الذي يعتقد أنه أثبت شخصيته بالأحرف ب. هـ. ت. إثباتاً تاماً.

* * *

شخص ضعيف، هو مصدر للمعلومات، غير أنه لا يزال يعيش على

كل حال، ويجب ألاّ يُرفض على أنه متحيّز مغرض إلاّ عندما تتعلق المسألة به نفسه، وهذا الشخص هو هاينريش بفايفر أخو زوج ليني، وهو في الرابعة والأربعين، متزوج بامرأة اسمها هيتّي، اسم اسرتها إرمز، وله ولدان فيلهيلم وكارل، الأول في الثامنة عشرة والآخر في الرابعة عشرة.

سيعرَّف من بَعْدُ بثلاث شخصيات كبيرة المقام من جنس الرجال، وذلك في الموضع المناسب وبالتفصيل الذي يتناسب وأهمّيتهم: أولهم رجل الدولة للشؤون البلدية وثانيهم من عالم الصناعة الثقيلة والثالث موظف في أكبر المناصب المسؤولة عن التسليح، وعاملتان مقعدتان وشخصان سوفيتيان أو ثلاثة ومالكة لصف من حوانيت الزهور وبستاني مسنّ وصاحب مشتل سابق ليس كبيراً في السن «يكرّس نفسه (على حدّ قوله!) لإدارة أملاكه»، وسيعرّف بآخرين. ويعرَّف بأشخاص **مهمّين**، هم مصدر المعلومات، بإشارة دقيقة إلى طول قامتهم ووزنهم.

* * *

أثاث ليني، بقدر ما بقي لها بعد حجز كثير، هو مزيج من سنة ١٨٨٥ وسنة ١٩٢٠/١٩٢٥: فقد آل إليها من إرث والديها في سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٢ بضعُ قطع مزخرفة بتهاويل نباتية، كومودينو (صندوق ذو أدراج) وخزانة للكتب وكرسيان، وهذه استقرت في منزل ليني وغابت نفاستها القديمة إلى الآن عن محضري المحكمة؛ فقد وصفت بأنها «سقط المتاع». ولا تستحق الحجز. وقد حجز على ثماني عشرة لوحة أصلية وأخرجت من منزل ليني من قبل موظفي التنفيذ، وهي لوحات لرسامين معاصرين محليين تعود إلى السنوات الواقعة بين

١٩١٨ و ١٩٣٥، وهي في معظمها ذات موضوع ديني، وبما أنها الأصل فقد قدّر محْضر المحكمة قيمتها أكثر مما تستحق ولم يؤثّر فقدانها أدنى أثرٍ مؤلم في نفس ليني. ويتألف الزخرف الجداري عند ليني من صور ملونة متقنة تشتمل على رسوم لأعضاء الجسم الإنساني؛ ويجلبها لها أخو زوجها هاينريش بفايفر؛ فهو يعمل كاتباً في مديرية الصحة ويتولى فيما عدا ذلك الإشراف على الوسائل التعليمية والإعلامية «ومع أنَّ ذلك يتعارض مع ضميري» (هـ. بفايفر)، فإنّه يحضر لليني معه تلك اللوحات والصور التالفة المطروحة؛ ولكي يكون الإجراء صحيحاً من ناحية عملية القيود والسجلات فإنّ بفايفر يقتني اللوحات المطروحة ويدفع لها رسماً ضئيلاً؛ وبما أنه يُبقي أيضاً على الاقتناء الجديد للوحات المناسبة «بينه وبين نفسه» فإنه يتأتّى لليني بين الحين والحين أن تقتني أيضاً بوساطته لوحة جديدة تحصل عليها مباشرة من الشركة المنتجة، وطبيعي أنها تدفع ثمنها من جيبها (المزوّد بالشيء القليل غير الكافي). واللوحات التالفة تصلحها بنفسها: فتنظفها بعناية إما بماء الصابون وإما بالبنزين، وترسم الخطوط بقلم رصاص أسود وتستعين بعلبة ألوان مائية رخيصة بقيت عندها في البيت منذ أيام طفولة ابنها لتلوّن اللوحات. أمّا اللوحة المفضّلة فهي الصورة المكبّرة الدقيقة دقة علمية لعين إنسان معلّقة فوق معزفها (ولكي تفكَّ المعزف المحجوز عدة مرات وتحميه من النقل من قبل موظفي التنفيذ فقد أذلّت ليني نفسها بالتوسّلات الكثيرة لمعارف قدامى لأبويها وبالاستلاف من المستأجرين عندها أو الاقتراض من أخي زوجها هاينريش، وفي كثير من الأحيان بزيارات لهويزر الشيخ الذي لا تريبها ملاطفاته الودية في

ظاهرها؛ ونقلاً عن الشاهدات الثلاث الثقات [مارغريت وماريا ولوتّه] فإنّها صرّحت بأنها مستعدّة «بأن تصبح عاهرة» من أجل المعزف ـ وإنه لتصريح جريء للّيني). ويزيّن جدرانَ ليني أيضاً أعضاءُ أقلّ اعتباراً من مثل أمعاء الإنسان، ولا حتى أعضاء التناسل للإنسان تخلو منها الزينة الجدارية في لوحات مكبرة مع وصف دقيق لجميع وظائفها، وكانت معلّقة عند ليني قبل أن يروّج لها بين الناس علم لاهوت الأدب الإباحي بزمن طويل. وقد وقع آنذاك جدل حاد بين ليني وماريا حول هذه اللوحات التي وصفتها ماريا بأنها داعرة ومخالفة للآدب، أما ليني فقد بقيت على تعنّتها وعنادها.

* * *

بما أنه لا بدَّ من الإشارة في وقت ما على كل حال إلى علاقة ليني بالميتافيزيقيا فلابدَّ من الإيضاح في البداية أنَّ الميتافيزيقيا لا تسبب أدنى صعوبة لليني. فعلاقتها بالعذراء مريم علاقة ألفة وتستقبلها على شاشة التلفاز كل يوم تقريباً، وفي كل مرة تفاجأ أنَّ العذراء أيضاً شقراء ولم تعد شابة مثلما كان يتمناها المرء أن تكون؛ وهذه اللقاءات تتم في صمت، وفي معظم الأحيان في وقت متأخّر حين ينام الجيران كلّهم وتضع البرامج التلفزيونية العادية ـ وكذلك البرنامج الهولندي ـ علامة انتهاء الإرسال. وتبتسم كل من ليني ومريم العذراء للأخرى. بلا زيادة ولا نقصان. ولن يذهل ليني أبداً أو لن يروعها حين يُقدَّم إليها ابن العذراء ذات يوم على شاشة التلفزيون بعد انتهاء الإرسال. ويجهل الراوي المخبر ما إذا كانت تنتظر ذلك. ولن يفاجأ هو بعد كل ما علمه في أثناء ذلك.

وتعرف ليني صلاتين تتمتم بهما بين الحين والحين: الصلاة الربانية أبانا الذي في السموات والسلام المريمي (ليكن سلام لك يا مريم). وفضلاً عن ذلك ما زال لديها بضعُ قطع صغيرة من سبحة صلاة. وليس لديها كتاب صلاة ولا تؤم الكنيسة، وتعتقد أنَّ في الفضاء «كائنات لها أرواح» (ليني). قبل الحديث عن سيرة ليني الثقافية حديثاً كثر نقصه أو قلَّ فلْنُلْقِ نظرة على خزانة كتبها. فالمجموعة الرئيسة للمؤلفات التي علاها الغبار هناك تتألف من مكتبة اشتراها أبوها ذات مرّة بالجملة. وتطابق اللوحات الزيتية الأصل ولم تطلها يد الحجز حتى الآن؛ وهناك أيضاً عدة مجموعات كاملة من مجلة مصورة شهرية قديمة ذات اتجاه كنسي (كاثوليكي) تتصفّحها ليني بين الحين والآخر؛ وهذه المجلة التي هي تحفة أثرية تدين ببقائها لجهل محضر المحكمة الذي انخدع بمظهرها الرث. أما الشيء الذي لم يغب عن انتباه المحضر فهو للأسف مجموعة مجلة «هوخلاند» من سنة ١٩١٦ وحتى سنة ١٩٤٠ وقصائد ويليام بتلر ييتس التي آلت إليها من أمها. وإن مراقبين أكثر انتباهاً واهتماماً من مثل ماريا فان دورن التي كان عليها أن تهتم بذلك زمناً طويلاً فتمسح عنها الغبار، أو لوته هويزر التي كانت أقرب المقربين إلى ليني وموضع سرّها زمناً طويلاً في أثناء الحرب يكتشفون في خزانة الكتب هذه المزخرفة بتهاويل نباتية سبعة عناوين أو ثمانية عناوين مفاجئة: قصائد لبريشت وهولدرلين وتراكل، ومجلدين من القصص لكافكا وكلايست ومجلدين لتولتسوي («النشور» و«أنا كارنينا») ـ وهذه المجلدات السبعة أو الثمانية كلّها قد أبلتها كثرة القراءة بحيث إنها أصلحت المرة تلو المرة بمختلف المواد اللاصقة وأشرطة اللصق على نحوٍ يدل على مهارة

وتفنّن، وبعضها جمعه رباط مطاطي جمعاً غير محكم. وقد رفضت ليني رفضاً باتاً يكاد يصل إلى حدّ الإهانة عروضاً لإهدائها طبعات جديدة لمؤلفات أولئك الكتاب (بمناسبة عيد ميلاد السيد المسيح، عيد الميلاد، عيد الاسم الخ). ويسمح المؤلف لنفسه هنا بملاحظة تتجاوز حدود اختصاصه: إنه مقتنع كل الاقتناع أنَّ المكتبة عند ليني كانت ستضمُّ أيضاً مجلدات نثرية لبيكيت لو أنها ظهرت في تلك الآونة حين كان لا يزال للناصح الأدبي تأثيره في ليني أو لو أن هذا الناصح كان على معرفة بها.

* * *

ليست الثماني السجائر اليومية من شهوات ليني فحسب، بل اشتهاء للطعام شديد أيضاً. وإن كان قد نظمّه اعتدال وتخفيف، وعزف مقطوعتين لشوبيرت على المعزف والتأمل المفتون للوحات أعضاء الإنسان ـ بما فيه الأمعاء؛ وليس فقط الأفكار الرقيقة التي تكرّسها لابنها ليف المسجون حالياً. ويطيب لها أن ترقص أيضاً، ولقد كانت دائماً راقصة مولعة بالرقص (الشيء الذي كان **ذات مرة** وبالاً عليها لأنها صارت بذلك ملكاً ثابتاً للاسم بفايفر الثقيل على قلبها). فإلى أين ينبغي أن تذهب للرقص امرأة في الثامنة والأربعين ولا زوج لها وأبيح قتلها بالغاز الخانق من قبل العالم المحيط بها؟ أينبغي لها أن تؤمَّ مراقص الشباب حيث سيُساء فهمها حتماً أنها جدّة الإثارة والجاذبية الجنسية، ويحتمل أن يساء استعمالها؟ كما أنَّ المشاركة في احتفالات القسوسة التي يرقص فيها الناس محرّمة عليها لأنها تعيش منذ بلوغها

الرابعة عشرة حياةً غير كنسية، ولو أنها وجدت صديقات أخريات من صديقات الصبا عدا مارغريت التي سيبقى الرقص محرّماً عليها حتى نهاية عمرها، فأغلب الظن أنها كانت ستزجّ نفسها في حفلات التعرّي وتبادل الشركاء للمضاجعة، ومن غير أن يكون لها نفسها شريك، ولسوف تحمرّ خجلاً للمرة الرابعة في حياتها. ماذا تصنع ليني إذاً. إنها ترقص وحدها، لابسة أحياناً ثياباً خفيفة في غرفة الجلوس والنوم، لا بل عارية في بعض الأحيان في الحمام وأمام المرآة المتملّقة. وتتبّعها العيون بين وقت وآخر وفي أثناء ذلك، بل إنها لتفاجأ ـ وهذا لا يعزّز سمعتها البتّة. وذات مرة رقصت مع أحد المستأجرين عندها غرفة مفروشة، مع إريش كويلر القاضي المساعد الذي سقط شعره قبل الآوان؛ ولو لم تكن الملاطفات الواضحة الملموسة لهذا المستأجر غاية في الفظاظة وعدم اللباقة لكانت ليني على وشك أن تحمّر خجلاً؛ وعلى أية حال كان عليها أن تنذره بإخلاء الغرفة، لأنه كان قد استبان ـ على نحوٍ ذكي لا يفتقر أبداً إلى الغريزة والحس الفطري ـ شهوانية ليني وكان يتوسل بصوت شاكٍ كل مساء أمام باب حجرتها منذ «أن أقدمت على الرقصة» (ليني) التي حصلت هكذا ببساطة لمّا دفع كراءه وضبط ليني عند الانصات إلى الموسيقا الراقصة. لم تشأ ليني أن تستجيب له لأنها كرهته، ومنذ ذلك الحين يصبح كويلر الذي استأجر غرفة في الجوار أحد أحقر الوشاة، ويروي بين الحين والآخر تفاصيل مفصّلة خصوصية جداً عن غرامياته الخيالية مع ليني في حديث ودي مع صاحبة الحانوت لتجارة التجزئة الذي كان على وشك أن يخضع لتحول بنيوي، وصاحبة الحانوت تلك ـ مخلوقة جمالها بارد برودة الثلج وزوجها يغيب طوال النهار (إذ

يعمل في مصنع سيارات)، تثيرها هذه التفاصيل إثارة شديدة بحيث إنها تجرّ القاضي المساعد الأصلع الذي صار في أثناء ذلك مستشاراً إلى الغرفة الخلفية حيث تفاجره بما فيه الكفاية. وهذه المخلوقة التي اسمها كيتي بيرشت، في الثامنة والعشرين من العمر، هي أيضاً تلك التي تتكلم على ليني بأقذع الكلام وتشنّع عليها وعلى سمعتها الأخلاقية، مع أنها حين تكتظ المدينة بزوار المعرض، ومعظمهم رجال، تقبل هي نفسها بواسطة زوجها العمل في نادٍ ليلي لقاء أجر ضخم «للتعرّي أمام زوار المعرض» وتترك مذيعاً معسول الصوت يعلن قبل ظهورها أنها مستعدة لأن تشبع دائماً التهيّجات التي تسبّبها عروضها.

في الفترة الأخيرة تتاح لليني فرصة للرقص بين الحين والآخر. وبحكم تجارب معيّنة لم تعد تؤجّر غرفاً إلاّ لمتزوجين أو لعمالٍ أجانب، وعلى هذا فقد أجّرت غرفتين لزوجين شابين لطيفين نريد أن نسميهما للبساطة هانز وغريته ـ ونظراً لوضعهما المالي! ـ فإنها تؤجرهما الغرفتين بسعر سخي، وقد أحسن ذلك الزوجان هانز وغريته تفسير ارتعاشات ليني الإيقاعية الخارجية والداخلية عند استراقهما السمع إلى الموسيقا الراقصة، وبذلك تتوصل ليني بين وقت وآخر إلى «رقصة قصيرة بشرف». حتى إنَّ هانز وغريته يحاولان أحياناً في حرص وحذر أن يحلّلا لليني موقفها وينصحاها بأن تبحث عن عشيق «قليل من الحيوية والنشاط، يا ليني، وثوب وردي أنيق وجوربان أنيقان يغطيّان ساقيك الرائعتين ـ ولسوف تلاحظين على الفور كم أنتِ جذابة فاتنة بعد» غير أن ليني تهزّ الرأس عندئذ. ففي أعماقها جرح بليغ، فلم تعد تدخل حانوت البقالة، إنها تترك غريته تتولى مشترياتها، وهانز يذهب

كل صباح إلى الخبّاز بدلاً من ليني ويجلب لها على جناح السرعة خبزتيها الطريتين اللتين لا غنى لها عنهما وهما في نظر ليني أكثر أهميّة من أي قربان مقدس بالنسبة إلى ناسٍ آخرين، إنه يقوم بذلك قبل أن يذهب إلى العمل (فهو يعمل ميكانيكياً لدى إدارة إنشاء الطرق، وغريته تعمل فنيّة في أعمال التجميل وقد عرضت على ليني ولكن بلا نتيجة حتى الآن خدماتها بلا مقابل).

* * *

طبيعي أنَّ زينة الحائط عند ليني لا تتألف من لوحات تعليمية بيولوجية فحسب، بل إنَّ عندها على الحائط أيضاً صوراً؛ إنّها صور لمتوفين؛ أمها التي ماتت في سنة ١٩٤٣ في الواحدة والأربعين من عمرها وقبيل موتها التقطت لها صورة وهي امرأة ذات شعر خفيف أشيب وعينين كبيرتين وتبدو متألمة وتجلس متلفعة بغطاء على مقعد على نهر الماين بالقرب من هيرزل وفي القرب من مرفأ للسفن يستطيع المرء أن يقرأ عليه اسم ذلك المكان ويرى في الخلفية أسوار دير؛ وترتعد أم ليني برداً، وفي وسع المرء أن يرى هذا؛ والملفت للنظر هو كلال عينيها والجمود المفاجىء لفمها في وجه لا ينم عن حيوية زائدة؛ ويلاحظ المرء عليها أنها لم تعد ترغب في الحياة؛ ولو طلب إلى المرء أن يقدّر عمرها لوقع في حيرة ولما عرف ما إذا كانت المسألة تتعلق بامرأة في نحو الثلاثين من عمرها أسنّت أكثر مما ينبغي نتيجة مرض خفي أم أنّ المسألة تتعلق بامرأة رقيقة البنية في الستين من عمرها احتفظت بشيء من الصبا والنضارة. وتبتسم أم ليني في هذه الصورة، لا بمشقة، بلْ بإجهاد.

كما أنَّ أبا ليني الذي التقطت له صورة أيضاً قبل موته في سنة ١٩٤٩ في التاسعة والأربعين مع كراج بسيط، يبتسم أيضاً، بل إنّه لا يبتسم حتى تلميحاً ابتسامة المجهد؛ ويراه المرء في لباس بنّاء خيط خياطة متقنة أمام بيت مدمّر وفي يده اليسرى كتلة من النوع الذي يعرفه المطلّعون بأنه «كلاّب» وفي اليمنى مطرقة يعرفها المطلّعون بأنها «مطرقة المعمار»؛ وأمامه وبجانبه إلى الشمال واليمين وخلفه عوارض حديدية من مختلف المقاسات والأطوال، ويحتمل أن تكون ابتسامة موجهة إليها مثلما تتوجه ابتسامة صياد يصطاد السمك بالشص إلى صيده اليومي. والحق أنَّ المسألة كما سيكون الشرح مفصّلاً ـ هي مسألة صيده اليومي، فلقد عمل آنذاك في خدمة صاحب المشتل سابقاً، ذلك الذي ورد ذكره وكان يشمّ رائحة «ارتفاع أسعار الخردة» مبكراً (نقلاً عن لوته هـ .) ويبدو أبو ليني في الصورة حاسر الرأس، شعره كثّ لم يشب إلاّ قليلاً، وإنه لأمر بالغ الصعوبة إلصاق أي نعتٍ أو لقبٍ اجتماعي لطيف بهذا الرجل الأهيف الفارع القوام الذي تأخذ أدواته مكانها الطبيعي في يديه. هل يوحي بأنه بروليتاري؟ أم أنه سيّد؟ هل يوحي بأنه شخص ما يقوم بعمل يجهله، أم أنه يألف هذا العمل الذي يظهر أنه شاق وصعب؟ ويميل المؤلف إلى الرأي أنَّ كلا هذين الأمرين صحيح، وكلاهما في كلتا الحالتين. ويشجّعه تعليق لوتّه هـ. على هذه الصورة، وتصفه في هذه الصورة بأنه «السيّد ابن الطبقة العاملة». ولا يبدو أبو ليني حتى ولا بالتلميح كأنما ذهب عنه الابتهاج بالحياة. فلا يبدو أصغر سنّاً ولا أكبر سنّاً مما هو، إنّه «رجل في أواخر الأربعين، لا يزال في حالة جيدة» ولربما استطاع أن يأخذ على عاتقه في إعلان زواج أن يسعد

شريكة عمر لا تتجاوز الأربعين إذا ما أمكن».

أما الصور الأربع الأخرى فتعرض أربعة شباب، كلّهم في نحو العشرين من العمر، ثلاثة منهم أموات، ورابعهم (ابن ليني) ما زال على قيد الحياة. اثنان من هؤلاء الشباب يُظهران في الصورة بعض الإعواز الذي يتعلق بشبابهما: مع أنَّ المسألة مسألة صور للرأس ويرى المرء عندهما كليهما الكثير من الصدر بحيث يرى في وضوح البزة الرسمية الخاصة بالقوات المسلحة الألمانية، وعلى هذه البزة نسر السيادة والصليب المعقوف وذلك التركيب الرمزي المعروف عند المطّلعين «بنسر الإفلاس» أو «الافلاس المحدق». ويتعلق الأمر بهاينريش غروتن، أخي ليني، وابن خالها ارهارد شفايغرت اللذين يجب إدخالهما ـ مثل الميّت الثالث ـ في عداد ضحايا الحرب العالمية الثانية. ويبدو هاينريش وإرهارد كلاهما «ألمانيين بطريقة ما» (المؤلف)، و«بطريقة ما» (المؤلف) يشبه كلاهما جميع الصور التي يمكن التوصل إليها لشبيبة ألمانية مثقفة؛ وربما كان أكثر وضوحاً إذا ما استُشهد هنا بلوتّه هـ. التي تراهما كليهما «فارسين بامبرغيين»، وكما سيتبيّن فيما بعد، فإنه ليس على الإطلاق إلاّ وصفاً مشرّفاً لطيفاً. ومن حيث الموضوع فإنّه لجدير بالملاحظة أنَّ إرهارد (إ.) أشقر وهاينريش (هـ.) أسمر؛ وأنهما كليهما يبتسمان أيضاً، ويطلق إ. (ارهارد) ابتسامة «من قلبه وبلا تروٍّ» (المؤلف)، كما أنها ابتسامة حلوة أيضاً ولطيفة كليّة، وفي زاويتي ثغره يظهر أثر من تلك العدمية التي يساء فهمها عادة أنها تهكّم وسخرية لاذعة وأنه يمكن تفسيرها بأنها مبكّرة نوعاً ما، لا بل أقرب إلى أن تكون تقدّمية بالنسبة إلى عام

١٩٣٩ الذي التقطت فيه كلتا الصورتين.

تبرز صورة المتوفين الثالثة إنساناً سوفيتياً اسمه بوريس لفوفيتش كولتوفسكي؛ إنه لا يبتسم؛ والصورة هي صورة مكبّرة عن صورة جواز سفر التقطت بصفة خاصة في سنة ١٩٤١ في موسكو وتوحي بأنها أقرب إلى أن تقوم على رسم تصويري. وتبرز بوريس انساناً شاحباً جاداً ويمكن أن يدل ارتفاع قُصاص شعره ارتفاعاً ملفتاً للنظر على صلعة مبكرّة، لكنها تثبت أنها علامة شخصية لبوريس كولتوفسكي ذلك لأنّ شعره كث وأشقر وأجعد عيناه دعجاوان ونجلاوان نوعاً ما، تنعكسان من خلال نظارة من النيكل خاصة بالجيش الأحمر على نحوٍ يمكن أن يساء فهمه بأنه مهارة تصويرية. ويرى المرء على الفور أنّ هذا الإنسان كان شاباً عندما التقطت الصورة، مع أنه جادّ ونحيل ومرتفع الجبين على نحوٍ هائل. ويلبس لباساً مدنياً، القميص مفتوح، زيق القميص مفتوح، لا سترة، وهذا يدل على درجات حرارة صيفيّة عند التقاط الصورة.

أما الصورة السادسة فتظهر شخصاً حيّاً، إنّه ابن ليني. ومع أنه كان يماثل إرهارد وهاينريش وبوريس سنّاً عند التقاط الصورة، فإنه يوحي كأنه الأصغر؛ وقد يعود هذا إلى أنّ مادة التصوير حين التقاط الصورة كانت أفضل مما كانت عليه في سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤١؛ ومما يؤسف له أنه لا سبيل إلى الإنكار أنّ ليف لا يبتسم فحسب، بل إنه يضحك أيضاً في الصورة التي تعود إلى سنة ١٩٦٥؛ وما من أحد سيتردّد بأن يصفه «بالشاب المرح»؛ فالشبه بينه وبين أبي ليني وأبيه بوريس واضح ملحوظ. فقد ورث «الشعر عن آل غروتن» «والعينين عن آل باركل» (فأمُّ ليني تنحدر من أسرة باركل. المؤلف)، وبهذا يتوافر له

شبه إضافي مع إرهارد. وتحتمل ضحكته وعيناه الاستنتاج بسهولة ويسر أنه لا يتحلّى بصفتي أمه: فهو ليس صموتاً ولا كتوماً.

* * *

هنا وفي هذا المقام لا بدَّ من ذكر قطعة ثياب أخرى تتعلق بها ليني مثلما تتعلق بالصور وبلوحات تمثل أعضاء الإنسان، ومثلما تتعلق بالمعزف والخبزات الطريات: إنها معطف الحمّام الذي تصرّ على تسميته التسمية الخاطئة فتسميه المعطف الصباحي. فهو شيء مصنوع «من نسيج خشن ذي سطح مجعّد من نوعية زمن السلم» (لوته هـ.)، وفيما مضى وكما يظهر على الظهر وحوافي الجيوب، كان أرجوانيّاً، وفي أثناء ذلك ـ وبعد ثلاثين عاماً! ـ بهت لونه وصار أقرب إلى لون صالصة التوت الشوكي الخفيفة. ورُفيَ في كثير من المواضع بقطن برتقالي اللون رَفْوَ خبير عليم، كما ينبغي أن يلاحظه المرء. وقلما تستغني ليني عن قطعة الملابس هذه التي قلّما تخلعها، ويشاع عنها أنها قالت إنها «تود أن تدفن فيها حين تزف الساعة» (هانز وغريته هيلتسن اللذان يقومان بدور مَنْ يقدم المعلومات عن كل الأمور الداخلية في المنزل).

وربماكان أمراً مستحسناً أنْ يُذكر باختصار الحجز الحالي لمنزل ليني: فقد أجّرت غرفتين لهانز وغريته، وغرفتين لزوجين برتغاليين مع ثلاثة أطفال، عائلة بينتو التي تتألف من الأبوين يواكيم وأنّا ماريا، وكذلك أطفالهما ايتلفينا وما نويلاً وخوذيه؛ وغرفة لثلاثة عمال أتراك، اسماؤهم كايا تونتش وعلي كيليتش ومحمد شاهين الذين ولّى عنهم الشباب.

ـ ٢ ـ

طبيعي أنَّ ليني لم تكن دائماً في الثامنة والأربعين من عمرها، وبالضرورة لا بدَّ من التذكّر.

فمن صور الشباب كان المرء سيصف ليني بدون تردد بأنها فتاة جميلة نشيطة؛ وحتى في البذلة النظامية الخاصة بمنظمة نازية للفتيات تبدو ليني حلوة لطيفة ـ في الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ـ. وما من مشاهد من جنس الرجال كان سيهبط في حكمه على محاسنها ومفاتنها إلى أدنى من «اللعنة مرة أخرى، لا بأس بهذه». إنَّ دافع التزاوج الإنساني ينطلق في الحقيقة من الحب من أول نظرة، متجاوزاً الرغبة العفوية في مضاجعة شخص من الجنس الآخر أو من الجنس نفسه، في وقت من الأوقات من غير أن يكون القصد الارتباط الدائم؛ إنه يتغلغل إلى أعمق أعماق الشهوة المتهيّجة التي تخلق أرواحاً وأجساداً قلقة، فضروبه كلّها التي تبرز سواء على نحو فوضوي أو غير منتظم، بدءاً من أكثرها سطحيةً وانتهاءاً بأعمقها، كان من الممكن أن تثيرها ليني وقد أثارتها. وحين كانت في السابعة عشرة انتقلت انتقالاً حاسماً من الحلاوة إلى الجمال. وهذا الانتقال يهون على شقراوات ذوات عيون سود أكثر مما يهون على شقراوات ذوات عيون زرق. وما من رجل في هذه المرحلة كان سيهبط في حكمه بأدنى من «جديرة بالاعتبار».

* * *

لا بدَّ من إبداء بعض الملاحظات حول سيرة تعليم ليني. إذ أنها التحقت في السادسة عشرة من عمرها بمكتب أبيها الذي لاحظ القفزة من الفتاة الحلوة إلى الفتاة الجميلة، وبسبب تأثيرها في الرجال قبل كل شيء (ونجدنا في سنة ١٩٣٨) فإنه استشارها في مباحثات تجارية مهمة شاركت فيها ليني بدفتر ملاحظات وقلم على ركبتيها وكانت بين الحين والآخر تدوّن نقاطاً أساسية. لم تعرف الاختزال، كما أنها ما كانت لتتعلمه قط. الحق أنَّ المجرّدات لم تكن غريبة أو بعيدة عنها كلّياً، إلاَّ أنها لم ترغب في أن تتعلّم «الخط المقطّع»، كما كانت تسمي الاختزال. وقد تكوّن أسلوب تعلّمها أيضاً من آلام وأوجاع، كانت أوجاع المعلمين أكثر مما كانت أوجاعها هي. فقد تخرجّت في المدرسة الابتدائية بالصف الرابع وبشهادة لا بأس بها وكثر التدخّل فيها وذلك بعد أن كانت قد «نزلت إلى صفّ أدنى» مرتين لا لرسوبها وإنما «بمحض اختيارها». إنَّ أحد الشهود على قيد الحياة من الهيئة التعليمية بالمدرسة الابتدائية، المدير المتقاعد شلوكس ابن الخامسة والستين الذي كان في الإمكان التوصل إليه في مقر شيخوخته الريفي، استطاع أن يروي أن ليني كانت تنتظر دورها في الإبعاد إلى مدرسة لتقوية التلاميذ وأنَّ ظرفين قد حمياها من ذلك: ثراء أبيها العريض الذي كان له دوره، كما يؤكّد شلوكس، لا على نحو مباشر، وإنّما على نحو غير مباشر، ثانياً حقيقة الأمر أنَّ ليني حازت سنتين، الواحدة تلو الأخرى، في الحادية عشرة والثانية عشرة من عمرها على لقب «أشدّ فتيات المدرسة ألمنةً». غير أنَّ ابنة راهب بروتستانتي أزاحتها إلى المركز الثاني، إذ أنَّ عيني هذه كانتا أنصع زرقة من عيني ليني اللتين لم يعد لهما آنذاك كل تلك الزرقة

الناصعة. فهل كان في وسع المرء أن يرسل «أشدَّ فتيات المدرسة ألْمنةً» إلى مدرسة لتقوية التلاميذ الضعفاء؟

في الثانية عشرة التحقت ليني بمدرسة ثانوية تديرها راهبات وقد كان على المرء أن يطردها منها في الرابعة عشرة باعتبارها فاشلة؛ وكانت قد رسبت خلال سنتين مرة رسوباً عال بالنسبة المئوية ومرة كانت قد نقلت لأنَّ والديها وعدا وعداً رسمياً ألاّ يستفيدا أبداً من هذا النقل. وقد وُفي بالوعد.

* * *

قبل أن ينشأ سوء تفاهم يجب شرح ظروف التعلّم المتعسرة شرحاً يقوم هنا مقام إعلام موضوعي، تلك الظروف التي خضعت ليني لها أو رضخت. ولا يوجد في هذا الصدد أية مسألة ذنب، فلم يكن هناك لا في المدرسة الابتدائية ولا في مدرسة ثانوية البنات التي كانت ليني تلميذة فيها ـ فضائح كبيرة، إنما كان هناك سوء تفاهم. كانت ليني قادرة على التعلّم، لا بل كانت توّاقة إلى التعلّم أو متعطّشة إليه، ولقد حاول المشاركون كلهم أن يرووا ظمأها. غير أنَّ الأطعمة والأشربة المقدّمة لها لم تتناسب وذكاءها ولم تتناسب وطبعها ولا فهمها ومداركها. وفي معظم الأحوال، بل في وسع المرء أن يقول، في كل الأحوال كانت المادة المقدّمة تفتقر إلى ذلك البعد الحسّي الذي إن غاب تعذّر على ليني أن تفهم أيَّ شيء. فالكتابة، مثلاً، لم تسبّب لها أدنى صعوبة، مع أنَّ العكس كان سيتوقّعه المرء في هذه العملية العالية التجريد، غير أنَّ الكتابة كانت في نظر ليني مرتبطة بمدركات بصرية ولمسيّة، بل وشميّة (وليعتبر المرء

روائح مختلف أنواع الحبر والأقلام والورق)، وهكذا نجحت هي نفسها في تمارين كتابية وحيل نحويّة؛ وخطّها ـ الذي لا تستفيد منه للأسف الفائدة الكبيرة ـ كان وما زال واضحاً غليظاً وحلواً وظريفاً ـ وكما أكّد المدير المتقاعد شلوكس (مصدر المعلومات لكل التفاصيل التربوية الأساسية) على نحو جدير بالتصديق ـ فإنَّ خطّها مناسب جداً، «لأن يحدث إثارة جنسيّة أو شهوانية». وقد أخفقت ليني أيّما إخفاق في مادتين متقاربتين تقارباً وثيقاً: الدين والحساب أو الرياضيات. فلو أنَّ أحداً من معلّميها أو معلماتها خطر بباله بأن يوضح للصغيرة ليني، ابنة السادسة، أنَّ السماء المرصّعة بالنجوم التي أحبّتها ليني أشدّ الحب تقدّم إمكانيات تقارب رياضية وفيزيائية لما قاومت جدول الضرب الصغير ولا الكبير الذي كان في نظرها بشعاً مقيتاً مثله مثل العناكب في نظر الآخرين. فالجوزات والتفاحات والبقرات والبازلاء على الورق والتي يحاول المرء أن يتوصّل بها على نحو مبتذل إلى واقعية حسابية ظلّت غريبة عنها؛ فلم تكمن فيها حاسبة، أما الشيء الذي لا ريب فيه هو الموهبة على صعيد العلوم الطبيعية، ولو عرضت عليها عمليات وراثية معقدة بغض النظر عن أزهار مندل التي تظهر المرة تلو المرة في الكتب المدرسية وعلى اللوحات حمراء وبيضاء ووردية، «لشاركت» في مثل هذا الموضوع بحماسة ـ كما يحلو للمرء أن يقول ـ. ونظراً إلى ضحالة درس البيولوجيا فقد حُرمت من مسرّات ومباهج كثيرة لا تجدها إلاّ الآن في الكبر، وهي تنقل الرسوم عن عمليات عضوية معقدة بعلبة ألوان مائية رخيصة. وكما تؤكد فان دورن على نحو جدير بالتصديق فلا يمكنها أن تنسى تفاصيل من كيان ليني المدرسي وهي إلى اليوم «لا

يُطمأنُّ» إليها إلاّ بقدر ما يطمأن إلى لوحات أعضاء التناسل الخاصة بليني. فقد اهتمت وهي طفلة اهتماماً شديداً باستسلامها وخضوعها للبراز ـ وللأسف! ـ فقد طلبت دون جدوى معلومات عن ذلك بالسؤال: «اللعنة، أيُّ شيء هو ذلك الذي يخرج مني؟» فلا أمها ولا فان دورن اطلعتاها على ذلك!

إنَّ أوّل من اكتشف أنَّ ليني كانت قادرة على أعمال تتطلب ذكاء هائلاً ورهافة حسّ مدهشة كان ثاني الرجلين اللذين ضاجعتهما في حياتها حتى الآن، رجلاً أجنبياً دون كل الناس، وفوق ذلك إنساناً سوفيتياً. فقد روت له أيضاً ما روته فيما بعد لمارغريت ـ وقد كانت في الفترة الواقعة بين نهاية سنة ١٩٤٣ ومنتصف سنة ١٩٤٥ أقل صمتاً مما هي عليه اليوم ـ وهو: أنَّ «التحقيق الوجودي» الأول والكامل كان قد حصل لها عندما فصلت في السادسة عشرة من المدرسة الداخلية، وفي الطريق في يوم من أيام حزيران ومعها الدراجة، استلقت على ظهرها في الخلنج «متمدّدة ومستسلمة كل الاستسلام»، (ليني لمارغريت)، وهي ترنو إلى السماء المرصّعة بالنجوم والمضرّجة بالحمرة التي ما زال الشفق يضيئها، وبلغت تلك الدرجة من الغبطة التي كثيراً ما يطمح إليها الناس في هذه الأيام؛ وكما روت ليني لبوريس وحكت لمرغريت ـ فإنّه خيّل إليها في تلك الأمسية الصيفية من سنة ١٩٣٨ أنها «تنكح» وأنها «استسلمت وأعطت» أيضاً حين استلقت في الخلنج الدافيء متمددة و«مفتوحة» ـ وكما أوضحت فيما بعد لمارغريت، أنها ما كانت

ستُدهش لو أنها حملت. وعلى هذا لن تستبهم عليها ولادة العذراء على الإطلاق.

* * *

تركت ليني المدرسة الثانوية للبنات بشهادة مخجلة مخزية، حصلت فيها على درجة ضعيف في الديانة والرياضيات والتحقت لمدة سنتين ونصف السنة بمدرسة داخلية للبنات تلقّت فيها دروساً في التدبير المنزلي واللغة الألمانية والديانة وبعض الدروس في التاريخ (حتى عصر الإصلاح الديني) وفي الموسيقا (المعزف) أيضاً.

* * *

قبل أن يقام نصْب تذكاري لراهبة متوفاة كان لها شأنٌ وأي شأن بالنسبة إلى ثقافة ليني مثلما كان للإنسان السوفييتي الذي سيذكر فيما بعد على نحوٍ موسّع، فإنّه لا بدَّ هنا، وفي هذا المقام، من ذكر ثلاث راهبات ما زلن على قيد الحياة بصفتهن شاهدات، ومع أنَّ لقاءهن بليني يعود إلى الوراء أربعاً وثلاثين أو اثنتين وثلاثين سنة فأنهنَّ ما زلن يتذكرنها ذكرى حيّة نابضة، وثلاثتهن قد بحث عنهن المؤلف في ثلاثة أمكنة بالقلم والدفتر، وما إن ذكرت ليني حتى هتفن ثلاثتهن: «آه، طبعاً، الآنسة غروتن!» وهذا النداء المتجانس لفظاً يظهر للمؤلف مهماً لأنّه يثبت كم كان لليني أثرها القوي. وبما أنَّ الشيء المشترك بين الراهبات الثلاث لم يكن النداء «آها، طبعاً الآنسة غروتن» وحده فحسب، بل صفات جسدية أيضاً، ففي الإمكان تنسيق عدة تفاصيل بعضها إلى بعض لدواعي الاقتصاد في السطور. فثلاثتهن لهن الشيء

الذي يسمّيه المرء البشرة الشبيهة بالرّق (الجلد الرقيق): مشدودة شداً رقيقاً فوق عظام وجنة نحيلة، تميل إلى الأصفر ومجعدة قليلاً؛ وثلاثتهنّ قدّمن للمقررّ شاياً (أو أوعزن بتقديمها). لا بدافع نكران الجميل، وإنّما من أجل الموضوعية وحدها ينبغي القول إنّ الشاي عند الراهبات الثلاث لم يكن قوياً جداً؛ وثلاثتهن قدّمن (أو أوعزن بتقديم) الكعكة، وثلاثتهن بدأن يسعلن حين أخذ المؤلف يدخّن (من دون أن يسأل بطريقة غير مهذبة، ذلك لأنه لم يرغب في أن يجازف بكلمة لا)؛ وثلاثتهن استقبلنه في غرف استقبال مشابهة تقريباً كانت مزينة بصور دينية وصليب، وفي كل غرفة صورة للبابا الحاكم والكاردينال الإقليمي؛ وكانت الطاولات الثلاث في الحجرات الثلاث المختلفة مغطّاة بأغطية من قماش القطيفة، ولم تكن الكراسي كلها مريحة؛ وتتراوح أعمار الراهبات الثلاث بين السبعين والثانية والسبعين.

الأولى، الراهبة كولومبانوس، كانت مديرة مدرسة البنات التي ذهبت إليها ليني لمدة سنتين بنجاح ضئيل كل الضآلة وفائدة طفيفة جداً. شخص سماوي لطيف بعينين ذابلتين وذكيّتين جداً كانت جالسة طوال فترة المقابلة تقريباً وهي تهزّ الرأسَ لأنها لامت نفسها أنها لم تكشف عن الشيء الذي كان يكمن في ليني، وقالت المرة تلو المرة: «شيء ما انطوت عليه طبيعتها، شيء قوي، لكننا لم نكشف عنه». والراهبة كولومبانوس، الحائزة على شهادة الدكتوراة في الرياضيات والتي لا تزال تقرأ إلى الآن الكتب العلمية المتخصصة (بعدسة مكبرة!) كانت النموذج بالتمام من عصر متحرّر مبكراً، عصر رغبة أنثوية في الثقافة وتعطّش أنثوي إلى التعلم، ومما يؤسف له أن هذه الرغبة في الثقافة لا تستبين

في رداء الراهبات إلاّ قليلاً جداً ولا تقدّر أيضاً إلاّ أقلّ تقدير. وعندما سئلت بأدب عن تفاصيل تاريخ حياتها حكت أنها تحوّلت في سنة ١٩١٨ في خيش وأنها تعرّضت للاستهزاء والسخرية والاحتقار أكثر من بعض المتسكعين في هذه الأيام. وحين أعلمها المؤلف بتفاصيل من حياة ليني شعّت عيناها الكليلتان قليلاً وقالت متنهّدة وبشيء من الحماسة: «على نحو متطرف، أجل، على نحوٍ متطرف ـ كان يجب أن تجري حياتها». وإنّها لملاحظة أذهلت المؤلف. وعند الوداع نظر نظرة خجل إلى أعقاب السجائر الأربعة المنطمرة بالرماد بابتذال استفزازي في منفضة فخارية على شكل ورقة العنب، وأغلب الظن أنها قلّما تستعمل وفيها قد لا يهمد بين الفينة والأخرى إلاّ سيجار أسقف.

والراهبة الثانية، برودنتسيا، كانت معلّمة ليني في مادة اللغة الألمانية؛ وكانت أقلّ وجاهة من الراهبة كولومبانوس بقليل، ووجنتاها أكثر تورّداً بقليل، وهذا لا يعني أنها متورّدة الوجنتين، إلاّ: أنّ تورّد وجنتيها المبكر ما زال يشع ألقاً، على حين انبعثت من بشرة وجه الراهبة كولومبانوس على نحو واضحٍ صفرةٌ دائمةٌ عبّر الوجه عنها منذ زمن الشباب. والراهبة برودنتسيا (انظر نداءها أعلاه، حين سمعت اسم ليني!) ساهمت ببعض التفاصيل المفاجئة. قالت: «الحق أنني حاولت جهدي أن أستبقيها في المدرسة، غير أنه لم يكن هنالك من سبيل، مع أني أعطيتها أيضاً؛ إذ أنها كتبت موضوعاً رائعاً جداً عن «المركيزة فون أو...»، وأنت تعرف أنها قراءة لم يكن مسموحاً بها، بل إنه لم يكن مرغوباً فيها ذلك لأنّ لها مضموناً صعباً، إذا صحّ القول ـ لكنني وجدت وأجد أنه يجب أن تقرأها فتيات في الرابعة عشرة بارتياح وأن ينعمن

التفكير فيها ـ، وها قد كتبت الآنسة غروتن شيئاً رائعاً وعظيماً: فقد كتبت دفاعاً حاراً عن الغراف ف...، إنها لقدرة على الفهم الدقيق لحياة الرجل الجنسية والشعور بشعوره، وقد فاجأتني هذه القدرة ـ لقد كان موضوعاً رائعاً ـ وكانت الدرجة على وشك أن تكون جيد جداً ـ، إنَّما كانت هناك علامة ضعيف، وكانت في الحقيقة علامة ضعيف في مادة الديانة أدخلت فيما بعد، لأنَّ المرء لم يرد أن يضرَّ الفتاة بعلامة ضعيف في الديانة، وكان هناك علامة ضعيف جداً في الرياضيات لها أساس من الناحية الموضوعية بكل تأكيد، وكان على الراهبة كولومبانوس أن تمنحها ايّاها بعينين دامعتين، ذلك لأنه كان عليها أن تكون عادلة ـ وراحت الآنسة غروتن... تركت المدرسة، كان عليها أن تتركها».

بعد بحثٍ مضنٍ كان في الإمكان الاهتداء إلى ثالثة الراهبات المقدّمات هنا، الراهبة سيسيليا، وذلك من بين الراهبات والمعلمات في المدرسة الداخلية التي تابعت فيها ليني بدءاً من الرابعة عشرة من عمرها حتى السابعة عشرة تقريباً. ولقد كانت هذه تلك التي أعطت ليني دروساً خصوصيةً في العزف على المعزف مدة سنتين ونصف السنة؛ وسرعان ما تنبّأ وتحسّ بموهبة ليني الموسيقية، إنما كانت مرتاعة وشبه يائسة من عدم قدرتها على أن تقرأ العلامات الموسيقية وتعرف في العلامة المقروءة النغمة المعبّر عنها، فأمضت الأشهر الستة الأولى في إسماع ليني اسطوانات وجعلها تعزف ما سمعته، وكما قالت الراهبة سيسيليا، إنها لتجربة مشكوك فيها، إلاّ أنها ناجحة أثبتت، على حد قول سيسيليا، إن ليني لم تكن قادرة على أن تعرف الألحان والإيقاعات فحسب، بل البنى أيضاً». ولكن أنّى لها ـ ولا عداد لتنهدات الأخت! ـ

أن تعلِّم ليني قراءة العلامات الموسيقية التي لا غنى عنها؟ وخطرت ببالها الفكرة ـ التي تكاد أن تكون رائعة بارعة ـ أن تحاول عن طريق غير مباشر هو طريق الجغرافيا. الحق أن درس الجغرافيا كان هزيلاً ـ فقد كان ينحصر بصورة أساسية في التسميع والإيضاح والتكرير الدائم لكل روافد نهر الراين مع تكرير متزامن للسلسلة الجبلية الوسطى أو المناطق الجغرافية التي تحدَّدها هذه الأنهار ـ ومع ذلك: كانت ليني قد تعلّمت قراءة الخرائط: فهذا الخط الأسود الشديد التعرّج بين جبال هونسروك والآيفل والموزيل لم تتبيّنه ليني خطاً أسود متعرّجاً فحسب، بل علامة لنهر موجود فعلاً. إذاً، نجحت التجربة: فقد تعلّمت ليني قراءة العلامات الموسيقية بمشقة وعلى مضض، وكثيراً ما بكت من الغضب، لكنّها تعلّمت ذلك ـ وبما أنَّ الراهبة سيسيليا حصلت من أبي ليني على مكافأة خاصة محترمة صبّت في صندوق الجمعية الديرية للراهبات فقد أحسّت بأنها ملتزمة بأن «تعلّم ليني شيئاً ما أيضاً». وأفلحت، و: «أنَّ ما أعجبها فيها: أنّها عرفت على فورها أنَّ شوبيرت كان حدّها، مع أنَّ أباها كان قد ألحّ بأنَّ عليها أن تعزف موتزارت وبيتهوفن وآخرين».

ملاحظة أخرى حول بشرة الراهبة سيسيليا: لقد ظهرت مواضع أخرى ضاربة إلى البياض. بيضاء بضّة، ليست جافة كلّ الجفاف، ويعترف المؤلف صراحة أنه ربما أحسّ في قرارة نفسه بالرغبة الماجنة في أن يرى المزيد من بشرة هذه العجوز المتبتّلة اللطيفة غاية اللطف. وقد تعرّضه هذه الرغبة أيضاً إلى ظنّه الولع بالشيوخ. ومما يؤسف له أنَّ الراهبة سيسيليا صارت باردة جداً، وأقرب إلى الصدود والترفّع حين سئلت عن أخت زميلة لها في الرهبنة ومهمة لليني.

ليس في الإمكان هنا إلاّ الإشارة إلى ما قد يُبّرهن عليه في سياق الرواية والحديث: أنَّ ليني عبقرية لم تقدّر حقَّ قدرها في الشهوانية والتماس اللذة. ومما يؤسف له أنه أُطلق عليها زمناً طويلاً تعبيرٌ مريح بحيث يحلو استعماله وهو: الدجاجة الرومية الغبية. حتى إنَّ هويزر اعترف أنه سيصنّف ليني هذا التصنيف اليوم أيضاً.

الآن يصحّ أن يذهب المرء إلى أنَّ ليني التي كانت ذات شهوة شديدة إلى الأكل كانت طالبة طهي ممتازة، وأنَّ التدبير المنزلي كان يجب أن يكون مادتها المفضّلة؛ كلاّ ثمّ كلا: فإنَّ درس الطهي مع أنه دُرِّس على الموقد وطاولة المطبخ ومن خلال مواد يمكن شمّها ولمسها وتذوقها ورؤيتها، بدا لها (إذا صحّ تفسير المؤلف لبعض ملاحظات الراهبة سيسيليا) أكثر تجريداً من الرياضيات وغير حسّي مثله مثل درس الديانة. وإنه لمن الصعب الإثبات ما إذا كانت ليني ستصبح طباخة ممتازة. وإنه لأصعب بكثير الإثبات ما إذا كان خوف الراهبات الميتافيزيقي من التوابل قد أظهر لليني الطعام المحضّر في درس الطهي بمظهر الطعام «العديم الطعم». ومما لا جدال فيه للأسف أنها ليست طبّاخة جيدة؛ فالشوربات وحدها كانت تنجح فيها بين الحين والحين، وفي العقبة أيضاً (الحلوى التي يختم بها الطعام)، وفضلاً عن ذلك، فإنّها ـ وهذا ليس بديهياً على الإطلاق ـ طباخة قهوة جيدة، وكانت طاهية حنون للأطفال (وشهدت بذلك ماريا فان دورن)، غير أنها لن تنجح أبداً في إعداد وجبة طعام سليمة. وكما أنَّ مصير مرقة يمكن أن يكون وقفاً على حركة يد سريعة فوضوية غير منتظمة يناول بها شخص ما تابلاً أو خلطاً ما، فإنَّ تربية ليني الدينية خابت (أو بتعبير أفضل، أخفقت لحسن

الحظ) كليّاً. وحين كانت المسألة مسألة خبز وخمر، مسألة عناق ووضع يد، وحين كان الشيء المادي الدنيوي في حركة وعمل لم تكن عندها أيّة صعوبات، وحتّى إلى يومنا هذا لم يسبّبب لها أدنى صعوبة اعتقادها بأنَّ شخصاً ما يمكن شفاؤه بأن يدهنه المرء باللعاب. ولكن مَنْ ذا الذي دهن شخصاً ما باللعاب؟ إنّها لم تشف باللعاب الإنسان السوفييتي وابنها فحسب، إنّها بوضع اليد فقط بعثت في الإنسان السوفييتي سعادة غامرة وهدّأت ابنها (نقلاً عن لوتّه ومارغريت). ولكن مَنْ وضع اليد على شخص ما؟ وأيّ خبز كان هذا الذي ناولها أياه المرء حين تلقّت أول قربان مقدس (آخر طقس كنسي شاركت فيه)، أين، أين،. اللعنة مرة أخرى، الخمر؟ لماذا لم يناولها المرء إيّاه؟ نساء ساقطات وهلّم جراً، النساء الكثيرات نوعاً ما اللواتي صاحبهن ابن العذراء إذ ذاك، هذا كلّه أعجبها أيّما اعجاب، وكان من الممكن أن يبعث فيها النشوة أيضاً مثل مشهد السماء المرصّعة بالنجوم.

في وسع المرء أن يتصوّر أنَّ ليني التي أحبّت في حياتها خبزاتها الطريّات في الصباح كل الحب وعرّضت نفسها من أجلها لسخرية الجوار قد انتظرت بلهفة واشتياق احتفال مناولة القربان المقدّس أول مرّة. ويجب أن يعرف المرء أنَّ ليني حُرمت في مدرسة البنات من مناولة القربان المقدس لأنَّ صبرها نفد غير مرّة في أثناء الدرس التحضيري وهاجمت بانتظام مدرس الدين الذي كان آنذاك إنساناً تقدّمت به السن وخطه الشب وكان شديد التقشف، ومما يؤسف له أنه مات منذ عشرين سنة، وقد سألته غير مرة بعد حصة الديانة بحدّة الطفل: «من فضلك، من فضلك، هلاّ اعطيتني خبزة الحياة هذه! لماذا ينبغي عليَّ أن انتظر طويلاً؟»

واستاذ الديانة هذا الذي وصل إلينا منه الإسم اريش برينغس وبعض المنشورات وجد قول ليني المعبّر عن الشهوانية تعبيراً عفوياً «إجرامياً». ووراءه هذا التعبير عن الإرادة الذي صنّفه تحت اسم «الشهوات الحسيّة». وطبيعي أنه رفض بخشونة طلب ليني وأخرّها سنتين «لثبوت عدم النضج وعدم القدرة على فهم تناول القربان». ولهذه الحادثة شاهدان: هويزر الشيخ الذي يتذكر ذلك جيّداً ويستطيع أن يروي أنّه «لم يتمّ آنذاك تحاشي فضيحة إلاّ بعصوبة»، ولم يعقد المرء العزم «لكي لا يجعل الموضوع جرسةً» إلاّ بسبب موقف الراهبات (١٩٣٤!) الصعب الدقيق المتعلّق بالسياسة الداخلية والتي لم تعرف عنه ليني أيَّ شيء. والشاهد الثاني هو نفسه السيّد الطاعن في السنّ الذي كانت هوايته علم البرشان، علم ينحصر في الادلاء بالرأي شهوراً، وعند الضرورة سنيناً مع مراعاة شتى الظروف الممكنة على نحو دقيق معقّد، والحديث فيما قد يحدث لجزئيات البرشانة أو يمكن أن يحدث لها أو ينبغي أن يحدث لها. وذلك السيد، إذاً، المختص بخبز القربان المقدس والذي ما زال يتمتّع بسمعة معيّنة، نشر فيما بعد بصورة دورية في مجلة أدبية لاهوتية «صوراً وصفية أدبية من حياتي»، ومن بين الأشياء التي باح بها وأفشاها الحادثة مع ليني التي يختصرها على نحو خال من الحياء والخيال بـ «واحدة اسمها ل. غ، التي كانت آنذاك في الثانية عشرة». ويصف عيني ليني المتوهجتين «وفمها الشهواني» ويعلّق باستخفاف على نطقها المصطبغ باللهجةالعامية وينعت بيت أبويها بأنه نموذجي من حيث حداثة نعمته ومبتذل» ويختم قوله بالجملة: «إن تحرّقاً إلى القدوس وسر الأسرار معبّراً عنه مثل هذا التعبير المادي البروليتاري

كان لا بدَّ لي من أن أمنع عنه بطبيعة الحال منحَ الشيء نفسه». وبما أنَّ أبويّ ليني لم يكونا ورعين ورعاً شديداً ولم يكونا أيضاً متديّنين تديّناً خاصاً، وبما أنهما اعتبرا ذلك بحسب متطلبات المحيط والبيئة نقيصة، لا بل عاراً «أنَّ ليني لم تكن قد رافقتهما بعد»، فإنهما تركا ليني ابنة الرابعة عشرة والنصف وعندما كانت في المدرسة الداخلية «ترافقتهما»، كما اعتاد المرء أن يعبّر، وبما أنَّ ليني كان حظّها آنذاك كحظ النساء ـ طبقاً لمعلومات مصدّقة مصدرها ماريا فان دورن ـ فإنَّ الاحتفال الكنيسي قد أخفق بأسره، كما أخفق الاحتفال الدنيوي أيضاً. كانت ليني قد تحرّقت إلى هذه القطعة من الخبز أيّما تحرّق، وكان مركز احساسها برمّته مستعداً لأن يروح في نشوة وغيبوبة ـ «ثم وضعوا على لساني هذا الشيء الأصفر الباهت الرقيق الجاف الذي لا طعم له ـ وكنت على وشك أن أبصقه ثانية!». هكذا وصفت الأمر آنذاك لماريا فان دورن المذعورة. وصلّبت ماريا على نفسها عدّة مرات، ووجدت الأمر مفاجأةً أنَّ الحسّي المعروض عرضاً ملموساً من مثل الشمعات والبخور وموسيقا التراتيل والأرغن لم يستطع أن يهوّن على ليني خيبة الأمل هذه. حتى ولا مأدبة الغداء التي جمعت الهليون وفخذ الخنزير والبوظة مع القشدة استطاعت أن تهوِّن على ليني خيبة الأمل هذه. وتبرهن ليني يومياً بأنّها «من أتباع مذهب الجزئية» بأنْ تلتقط كل فتاة الخبز من الصحن وتدّسها في فمها (هانز وغريته).

في هذا الخبر ينبغي تحاشي أقوال داعرة وتعابير فاحشة قدر المستطاع، ولكن من أجل اكتمال الموضوع يجب هنا شرح ما قدّمه استاذ الديانة في المدرسة الداخلية للفتيات الشابات من إيضاحات للأمور

الجنسية قبل أن يغادرن المدرسة الداخلية ـ فأصغرهن في السادسة عشرة وأكبرهن في الواحدة والعشرين ـ وهو إنسان أحدث سنّاً، متقشّف أيضاً واسمه هورن وهو الذي لم يقبل بأن تتناول ليني القربان أول مرة إلاّ تحت ضغط المديرة. وبصوت هادىء رقيق استخدم لغة رمزية طهوية دون غيرها، وبدون أن يشير مجرّد إشارة إلى تفاصيل بيولوجية دقيقة قارن نتيجة المضاجعة التي سمّاها «عملية التناسل الضرورية» «بالفراولة مع القشدة المخفوقة»، لكنه استرسل في مقارنات مرتجلة أُريد بها أن تصف تقبيلاً حلالاً أو حراماً، على حين كان «للحلزون» دور يصعب على الفتيات أن يكشفن عنه. ويجب التأكيد أنَّ ليني أحمرّ وجهها خجلاً للمرة الأولى في حياتها (مارغريت)، بينما انساب الصوت الرقيق بتفاصيل تجلّ عن كل وصف، تفاصيل عن التقبيل والمضاجعة في رمزية تجلّ عن كل وصف وطهوية ليس إلاّ، وبما أنه هي نفسها غير قادرة على الندم ـ وإنه لأمر واقع هوّن عليها الاعتراف باعتباره عملاً رتيباً بأن تقول وتردد أي شيء بسرعة وسهولة وبصوت رتيب، فإنّه لا بدَّ أن تكون محاولة توضيح الأمور الجنسية هذه قد أصابت أية مراكز حسية عندها لما تكتشف بعد إلى الآن. وإذا ما بذلت المحاولة هنا لتقديم شهوانية ليني المباشرة البروليتارية التي تبلغ حدّ النبوغ والعبقرية تقديماً جديداً بالتصديق إلى حدٍّ ما، فلا بدَّ من الإضافة: أنها لم تكن فاجرة ماجنة، وعلى هذا يجب تسجيل أوّلَ احمرار لها بأنه حدث مثير. على أيّة حال فقد أحسّت ليني بهذه الحادثة، حادثة الإحمرار الشديد، التي حدثت غصباً عنها، بأنّها مثيرة مدهشة، أليمة موجعة ومكدّرة محزنة. ولم يعد هناك ما يدعو إلى التوكيد أنّ ترقّباً جنسياً وشهوانياً رهيباً غفا في

داخلها، وأنّه آوضح لها من قبل استاذ ديانة شيءٌ ما على هذا النحو شيءٌ مجّدوه لها في آن واحد مثلما مجّدوا تناول القربان بأنه سرٌّ، الأمر الذي زاد تمرّدها وحيرتها في حادثة الإحمرار التي كانت تجهلها حتى ذلك الحين. فقد تركت ببساطة درس الديانة محتقنة الوجه، وهي تتلعثم من الغيظ، وقد جرَّ عليها هذا علامة ضعيف أخرى في مادة الديانة في وثيقة التخرّج. وفضلاً عن ذلك فإنَّ الشيء الذي كان قد انطبع في ذاكرتها في درس الديانة ليوقظ فيها من غير حماسة المرة بعد المرة والمرة تلو المرة: جبال الغرب الثلاثة: الجلجلة والاكروبوليس والكابيتول ـ على حين لم يثقل عليها جبل الجلجلة، جبل عرفت عنه من دروس العهد القديم أنه لم يكن إلاّ تلّة، ولم يكن موقعه قط في الغرب. وإذا ما فكرّ المرء في حقيقة الأمر أنَّ ليني احتفظت على كل حال بالصلاة الربانية والسلام المريمي، حتى إنها لا تزال تؤدي هاتين الصلاتين وتتقن بضعاً من سلسلة صلوات وأنَّ صحبة العذراء مريم شيء بديهي في نظرها ـ فلربما كانت الملاحظة مناسبة هنا وفي مكانها أنّه أسيء تقدير موهبة ليني الدينية مثلما أسيء تقدير شهوانيتها بحيث إنه كان من الممكن أن تكتشف فيها وتنشأ بها متصوفة كبيرة.

* * *

ثُمَّ لا بدَّ من الابتداء أخيراً بأن يُرسم في خطوطٍ عريضةٍ على الأقل تصميمٌ لتمثالٍ يجب إقامته لامرأة ليس في الإمكان قصدها أو مناداتها أو استدعاؤها للأسف شاهدةً؛ فقد ماتت في أواخر سنة ١٩٤٢ في ظروف غامضة حتى الآن، لا نتيجة لعنف مباشر، وإنما نتيجة لعنف

مباشر محدق وإهمال عانته من محيطها. وأغلب الظن أنَّ ب. هـ. ت. هذا وليني كانا الشخصين الوحيدين الذين أحبّا تلك المرأة؛ كما أنه لم يكن في الإمكان أيضاً الكشف عن اسمها المدني بعد استقصاء وبحث دقيقين، ولا الاهتداء أيضاً إلى مسقط رأسها أو البيئة التي تحدّرت منها؛ المعروف هو اسمها الديري فقط: الراهبة راحيل ـ ومن أجل ذلك هناك الكفاية من الشهود، ليني ومارغريت وماريا، فضلاً عن ذلك المتمرن المتدرّب سابقاً في مكتبة للكتب القديمة والنادرة، ذلك الذي يثبت شخصيته على نحوٍ وافٍ كافٍ بالأحرف الأولى ب. هـ. ت. وفضلاً عن ذلك لقبها: هارو سبيكا (العرّافة). وحين كانت على اتصال بليني، وفي الوقت نفسه بهذا الشخص المدعو ب. هـ. ت. (وكان هذا في سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨) كان عمرها نحو خمس وأربعين سنة. كانت قصيرة القامة، مفتولة العضلات (ولم ترو لليني، بل لـ ب. هـ. ت. أنها كانت ذات مّرة بطلة ألمانيا للشباب في سباق حواجز ٨٠ م للسيدات!) وفي سنة ١٩٣٧/١٩٣٨ كان لديها ما يدفعها إلى أن تتستّر على منبتها وثقافتها ـ وأغلب الظن أنها كانت مَنْ أطلق عليه الناس آنذاك اسم «الشخص العالي الثقافة»، الأمر الذي لا ينفي على الإطلاق أنَها ربما حصلت على الدكتوراه، بل ربّما حصلت على الاستاذية (تحت اسم آخر بطبيعة الحال). ومما يؤسف له أنَّ طول قامتها لا يمكن أن يعرف إلاّ تقديراً من ذاكرة الشهود: نحو ١٦٠ سم؛ وربّما بلغ وزنها نحو خمسين كيلوغراماً؛ لون الشعر: أسود وخطه الشيب؛ العينان: زرقة فاتحة؛ وليس بمستبعد أن تكون من أصل كلتي أو يهودي. وإنَّ ب. هـ. ت. هذا الذي يدرس بصفة أمين مكتبة لا يحمل دبلوماً، فهارس الكتب القديمة

بدار كتب وطنية متوسطة الحجم ويمارس تأثيراً معيّناً على سياسة المقتنيات، إنسان مستهلك نسبياً بالنسبة إلى سنّه، ظريف، ولو أنه خلو من المبادرات الكثيرة والحيوية والنشاط، فإنه لا بدَّ أن يكون قد وقع في هوى هذه الراهبة رغم فارق السن الذي لا يقل عن عشرين سنة. وإنَّ ما يدل على ذكاء شديد يعمل بانتظام أنه نجح في أن يتهرّب من الخدمة الإلزامية حتى سنة ١٩٤٤ بحيث إنه يشكل نوعاً من **الحلقة المفقودة** بين ليني والراهبة راحيل (وحين دعي في سنة الحرب الخامسة إلى الجيش، كان على كل حال في نحو السادسة والعشرين وبكامل الصحة والعافية، على حدّ قوله).

وعلى أية حال فقد صار نشيطاً وأقرب إلى الحماسة حين أعجب الراهبة راحيل. فهو غير مدخّن وعازب ـ وطبقاً للروائح التي تملأ بيته المؤلف من غرفتين ونصف وحمام ـ فإنه طاهٍ ممتاز. أما الكتب القديمة فهي وحدها كتبٌ في نظره: إنه يحتقر الكتب الحديثة: «إنَّ كتاباً جديداً ليس بكتاب» (ب. هـ. ت).. وقد أصيب بالصلع مبكراً، وأغلب الظن أنَّ تغذيته كانت جيدة، إنّما كانت محدودة وغير متنوعة، ويميل جسمه إلى تشكل الشحوم: والدليل على ذلك أنف غليظ المسامات وميل إلى أورام صغيرة وراء الأذن، كما استطاع أن يشاهدها عدة ضيوف. وهو بطبيعته غير ميال إلى كثرة الحديث، لا بل يمكن القول إنه في حاجة إلى الإخبار حين يتعلق الأمر بهاروسبيكا (العرّافة) راحيل، وبالنسبة إلى ليني التي لا يعرفها هو من أحاديث الراهبة إلاّ هذه «الفتاة الشقراء الجميلة جمالاً لا مثيل له والتي ينتظرها شيء جميل وشيء مؤلم أيضاً»، فإنّه يكنّ لها ميلاً جنونياً صبيانياً مثالياً، ولو كان يهمّ المؤلف

شيءٌ كهذا ولو لم يكن هو نفسه مغرماً بليني فلربما عرّضه هذا الميل والتحمّس للغواية بأن يجمع بينهما كليهما الآن أيضاً، بعد تأخّر دام نحواً من أربع وأربعين سنة. ومهما يكن لدى هذا الشاب ب. هـ. ت من صفات غريبة (خفيّة وظاهرة)، فمما لا شكّ فيه أنه: مخلص وفي. ومن الجائز أنّه وفيٌّ لنفسه أيضاً.

هناك الكثير الذي يمكن إخباره عن هذا الشاب، ولا داعي إلى ذلك، لأنه ما من شيءٍ تقريباً يربطه مباشرة بليني، حسبه أنه يستطيع أن يؤدي بعض الخدمات بصفة عاكسٍ، ليس غير. ومن الخطأ التسليم أنّ ليني عانت في هذه المدرسة الداخلية، كلا، لقد ألمَّ بها هناك شيء عجيب، فكان حظّها كحظ أصحاب الحظوة عند القدر: لقد وقعت في القبضة المناسبة. فما تعلّمتْه في الدرس كان مملاً مللاً كثر أو قلَّ؛ فالدرس الخصوصي عند الراهبة سيسيليا الهادئة اللطيفة كان مهماً وأتى ثماره. أما الراهبة راحيل التي لم يسمح لها بالتدريس (١٩٣٦!) ولم تزاول إلاّ أعمالاً كان ينظر إليها نظرة حقيرة جداً، أعمال وخدمات راهبة دهليز، كما سمتها الفتيات، وكانت في وضع اجتماعي أقرب ما يكون إلى وضع أجيرة تنظيف وضيعة، فقد صارت ذات شأن حاسم لليني في مسار حياتها، وعلى الأقل كان لها دورها الريادي مثلما كان للإنسان السوفييتي الذي سيظهر فيما بعد، كانت مهمة الراهبة راحيل إيقاظ الفتيات في الوقت المحدّد والإشراف على طقوس النظافة الصباحية عندهن. وكان واجبها أن تشرح لهن ـ ما رفضت أن تفعله راهبة البيولوجيا رفضاً قاطعاً ـ أي ما كان يحدث معهن ولهن حين حصل لهن فجأة مثلما يحصل للنساء؛ وفضلاً عن ذلك ترتّب عليها واجب أحسّته

الراهبات الأخريات كلّهن بأنّه فظيع منفّر وغير معقول، أمّا الراهبة راحيل فقد أدّته على نحوٍ يقرب من الحماسة والاهتمام الحار: إنه فحص تبرّز الفتيات جامداً ومائعاً رخواً على حدّ سواء. فقد كان لزاماً على الفتيات ألاّ يطرحن برازهنّ في الخلاء قبل أن تكون الراهبة راحيل قد فحصته فحص خبير مختص. وقد قامت بذلك لدى الفتيات في الرابعة عشرة الواتي كنَّ في رعايتها، بثقة رصينة تقوم على التشخيص والتي أبهرت الفتيات. هل ينبغي الإشارة هنا إلى أنَّ ليني التي لم يكن اهتمامها بتبرّزها قد أشبع حتى الآن، قد صارت تلميذة لراحيل، تلميذة متحمسة بكل ما في الكلمة من معنى؟ وفي معظم الأحوال فإنَّ نظرةً واحدة كانت تكفي راحيل، فتتمكن من إعطاء المعلومات الدقيقة عن الحالة الجسمية والنفسية للفتاة المعنيّة، وبما أنها تنبّأت بانجازات مدرسية من المفرزات فقد أحاطت بها الوظائف المدرسية إلى حدّ كبير وورثت من جيل إلى جيل (بدءاً من سنة ١٩٣٣) لقب العرّافة الذي كانت قد ألحقته بها إحدى طالباتها السابقات التي حاولت فيما بعد أن تكون صحافية.

ولقد تمّ الافتراض (وإنه لافتراض أكدّته ليني التي صارت فيما بعد موضع سرّ راحيل) أنها مسكت الدفاتر، بأدق التفاصيل. أما لقبها الذي كان من حقّها، فقد رضيت به مثل ملاطفة أو تدليل. وإذا اتخذ المرء /٢٤٠/ مائتين وأربعين يوماً دراسياً معدّلاً سنوياً، أضف إلى هذا اثنتي عشرة فتاة وخمس سنوات خدمة في الدهاليز والممرات (كنوع من ضابط صف ديري مناوب)، فإنَّ في وسع المرء أن يحسب بسهولة أنَّ الراهبة راحيل قد أحصت زهاء ثمانمائة وعشرين ألف وثمانمائة عملية هضم وبراز وحللتها باختصار: وإنّه لموجز مدهش وباعتباره وثيقة تقوم

على دراسة البول والبراز فأغلب الظن أنه ما كان ليقدّر بمال. وأغلب الظن أنه أعدم على نحو مشين! أمّا تحاليل المؤلف وتصرّفات وتعابير، تخص راحيل، ومستقاة من الأحاديث المباشرة لـ ب. هـ. ت. ومن أحاديث ليني غير المباشرة (المصفّاة من قبل ماريا)، ومن ناحية أخرى من أحاديث مارغريت المباشرة، فإنها تسمح بالإفتراض أنَّ ثقافة راحيل كانت مستمدة من ثلاثة ميادين علمية: الطب والبيولوجيا والفلسفة ـ وكل شيء كان يستند إلى خليط لاهوتي مصدره صوفي ليس غير.

كانت راحيل تتدخل أيضاً في مجالات لم تكن هي مسؤولة عنها: العناية بالتجميل؛ الشعر، البشرة، العيون، الآذان، تسريحات الشعر، الأحذية والألبسة الداخلية ـ وإذا ما فكرّ المرء بأنها أشارت إلى مارغريت ذات الشعر الأسود باللون الأخضر القاتم ونصحت ليني الشقراء باللون الأحمر الناري وبحذاءٍ أحمر برتقالي بمناسبة حفلة راقصة مع سكان بيت طلبة كاثوليكي، وبأنها نصحت ليني باللوز المسحوق للعناية بالبشرة، ولم تعتبر الماء المثلّج حتماً نافعاً مفيداً، بل إلى حدّ ما، فإنَّ اتجاهها العام يمكن التعبير عنه باقتضاب وعلى نحوٍ سلبي: أنها لم تكن نموذج صابون الغسيل، وإذا أضاف المرء إلى ذلك أنها لم تنصحها بالعدول عن أحمر الشفاه، بل ناشدتها باستعماله ـ وطبيعي في حدود وبذوق بحسب النوع ـ فإنَّ المرء يعرف أنها سبقت زمانها بمراحل وأنها سبقت بيئتها بالتأكيد. وتمسّكت أكثر ما تمسّكت بالعناية بالبشرة وتمشيط الشعر بالفرشاية تمشيطاً قوياً دائباً، لا سيّما في المساء.

كان مكانها في الدير غير واضح. فقد نظرت إليها معظم زميلاتها الراهبات على أنّها كيان وسط بين خادمة مراحيض وخادمة نهارية

لتنظيف البيوت والمكاتب، وحتى لو كانت هي خادمة المراحيض تلك، فإنَّ في هذا من الازدراء والاحتقار مايكفي. فالبعض هابها، والبعض خاف منها: وعلاقتها بالمديرة كانت علاقة «احترام دائم التوتر» (ب. هـ. ت). والمديرة التي كانت حسناء شقراء. ذكية وصارمة، خلعت ثوب الرهبنة بعد أن تركت ليني المدرسة بسنة واحدة، ثم انضمت إلى منظمة نسائية نازية، ولم ترفض نصائح ليني بخصوص التجميل والتي كانت تناقض روح الدير. وإذا فكرّ المرء بأنَّ المديرة كانت تحمل لقب «النمرة» وأن مادتها الاختصاصية كانت الرياضيات واللغة الفرنسية والجغرافيا المادتان الثانويتان، فسيدرك المرء أنَّ تصرّف العرافة باعتباره «تصوّفاً برازياً» لم يبدُ لها إلاَّ باعثاً على السخرية وغير خطير. ورأت في الشيء مهانة لسيدة أن تجود بنظرة واحدة على برازها (ب. هـ. ت) واعتبرت هذا كله «وثنياً» قلّ أو كثر، مع أنَّه يقال (ب. هـ. ت. من جديد) إنه لم يكن إلاَّ الشيء الوثني الذي مارسته في تلك المنظمة النازية للنساء. ومن الإنصاف أن يقال شيء واحد (كل شيء نقلاً عن ب. هـ. ت)" هو أنها حين تركت الدير لم تخن راحيل ولم تغدر بها قط. ويصفها كل من ليني ومارغريت و ب. هـ. ت. بأنها «مترفّعة أبيّة». ومع أنها كانت طبقاً لكل الأقوال الممكنة إمرأة جميلة جداً وأنها بكل تأكيد «إمرأة يمكن اعتبارها شهوانية» (مارغريت)، فإنها بقيت عازبة حتى بعد خروجها من الدير أيضاً، وأغلب الظن بدافع الكبرياء؛ لأنها لم تشأ أن تظهر أي ضعف وأن ينفضح أمرها على الإطلاق؛ وفي نهاية الحرب، ولما تبلغ الخمسين، اختفت في مكان ما بين ليمبيرغ وتشيرنوفيتش حيث مارست في منصب عالٍ «سياسة ثقافية» بمرتبة

كبيرة المستشارين الإداريين. ويا للأسف. لكم كان في ودّ المؤلف أن «يسألها في الموضوع».

لم يكن لراحيل في المدرسة الداخلية وظائف تربوية جدّية، ولا وظائف طبيّة؛ ومع هذا فقد مارست كلتا الوظيفتين؛ كان قد طلب منها فقط أن تبلّغ في حالات شديدة، في أثناء الإسهال الحاد والاشتباه بخطر العدوى، كما أنه كان مطلوباً منها أيضاً أن تبلّغ عن قذارات ملفتة للنظر ذات صلة بعملية الهضم، وكذلك عن مجافاة الأخلاق المشروطة المسلّم بصحتها. أما المطلب الثاني فلم تنفّذه قط. ورأت أهميّة كبيرة في أن تلقي على الفتيات في اليوم الأول محاضرة بسيطة عن طرق التنظيف بعد كلّ شكل من أشكال التبرّز. وعند الإشارة إلى أهميّة إبقاء العضلات كلها، لا سيّما عضلات البطن، مرنة وقادرة على العمل بصورة دائمة، ونصحت من أجل ذلك بألعاب القوى الخفيفة والتمرينات السويدية، فإنها سرعان ما تطرّقت إلى موضوعها الأثير: أنَّ في إمكان إنسان سليم، كما أكدت، وذكي أن ينجز هذا العمل بدون قصاصة ورق. ولكن بما أنَّ هذه الحالة المثلى لن تتحقق أبداً، أو أنه قلَّ أن تتحقّق، فقد شرحت شرحاً تفصيلياً كيف ينبغي استعمال هذا، إن كان ورقاً.

كانت قد قرأت الكثير حول مثل هذه الأشياء ـ وفي ذلك يكون ب. هـ. ت. مصدراً لا غنى عنه ـ وكل هذا تقريباً من أدب السجون والحبوس، وكانت قد قلبّت مذكّرات كل السجناء (المجرمين والسياسيين)، وكانت قد حسبت حساباً لسخافات الفتيات وكركراتهن في أثناء المحاضرة.

لا بدَّ هنا من القول، لأنَّ هذا مؤكد من قبل مارغريت وليني، أنَّ

الراهبة راحيل استأثر بها نوع من نشوة الطرب عندما رأت براز ليني أوّل مرة وكان عليها أن تفحصه فحص خبير مختص. قالت لليني التي لم تتعود مثل هذه المواجهة: «يا بنيّة، أنتِ مقرَّبة إلى القدر، مثلي أنا».

وعندما توصّلت ليني بعد ذلك بأيام عدّة إلى حالة «من يقضي حاجته بدون ورق»، لا لشيء إلاّ لأنّ «موضوع العضلات» هذا قد راق لها (هذا ما قالته ليني لماريا ـ وأكدّته مارغريت)، عندها نشأت مشاركة وجدانية متينة سلت ليني سلفاً عن كل نكسات التعلّم التي كانت تنتظرها بعد.

وإنه لخطأ لو نشأ الانطباع هنا أنّ الراهبة راحيل أثبتت نفسها أنها ليست عبقرية إلاّ في مجال التبرّز. فبعد عملية تعلّم معقّدة كانت أول ما كانت عالمة أحياء، وبعد ذلك صارت طبيبة، ثم صارت فيما بعد فيلسوفة، وصارت كاثوليكية والتحقت بالدير لكي «تعلّم الشبيبة» تركيباً بيولوجياً طبياً لاهوتياً فلسفياً، ولكن في السنة الأولى من عملها التدريسي منعها المستشار العام في روما من التدريس لأنَّ المرء اتهمها بالإحيائية والمادية الصوفية؛ والحق أنَّ عقوبة تنزيلها إلى الخدمة في الردهات الطويلة والدهاليز كان الغرض منها تنغيص حياة الدير والرهبنة عليها، وكان المرء على استعداد أن يجعلها دنيوية من جديد «في شرف وإخلاص» (كل شيء روته راحيل لـ ب. هـ. ت.)، على أنها تتقبل هذه الحطّة على أنها ترقية فحسب، بل أَحستها وعدّتها ترقية أيضاً، ورأت في شغل الردهات والدهاليز إمكانيات لأن تستخدم تعاليمها على نحو أفضل بكثير مما في التدريس.

وبما أنَّ متاعبها مع الهيئة الديرية قد وقعت على وجه الدقة في سنة ١٩٣٣، فقد كفَّ المرء عن أن ينبذها كلّ النبذ، وبذلك بقي لها خمس سنوات أخرى «خادمة مراحيض» (هذا ما قالته راحيل عن راحيل لـِ ب. هـ. ت.). ولكي تشتري مواد التنظيف وورق المرحاض والمطهرات وبياضات السرير وما شابه ذلك، كان عليها أن تذهب بين الحين والحين على الدراجة إلى المدينة الجامعية الوسطى القريبة في موقعها، وكانت تمضي هناك ساعات كثيرة في مكتبة الجامعة، وفيما بعد أمضت أياماً كثيرة في تلك المكتبة لبيع الكتب القديمة والمجهزة تجهيزاً جيداً، وهناك صادقت ب. هـ. ت. صداقة أفلاطونية، لكنها صداقة حارة؛ فلقد تركها تقلّب كثيراً في الكتب الموجودة عند رئيسه، لا بل وضع تحت تصرفها، على نحوٍ مخالف للتعليمات، فهرساً خاصاً لا يستعمل إلاّ في داخل المكتبة، وتركها تقرأ في الأركن التي لا حصر لها، حتى إنه تنازل لها عن قهوته من الترموس، وبين الحين والآخر كان يدس لها في يدها شريحة بالزبدة حين كانت تتعمّق طويلاً. لقد أنصبّت اهتماماتها الرئيسة على كتب الصيدلة والتصوف وعلم الأحياء وعلى كتب الأعشاب الطبيّة أيضاً، واستحالت في غضون سنتين إلى اختصاصية في مجال معقَّد: في الأورام المتعلّقة بالتغوّط، بقدر ما كان في الإمكان تحصيله بالجهد والعمل من كتب التصوف التي توافرت في مكتبة الكتب القديمة.

ومع أنَّ كل شيء، لكن كل شيء أيضاً قد تمَّ القيام به لتبيان خلفية الراهبة راحيل ومنبتها: ومع أنّ ليني ومارغريت افصحتا أكثر من هـ. ب. ت.، فلم يكن في الإمكان معرفة كل شيء؛ إنَّ زيارة ثانية وثالثة لم تكشف أي شيء عن زميلتها الراهبة السابقة؛ ولم يسبب عناء

المؤلف لها إلاّ احمراراً ـ ويُعترف صراحة أنَّ احمرار عجوز جاوزت السبعين ولبشرتها درجة اللون اللبني ليس بمشهد لا يملأ العينين ولا يبهج. وكما يرى المرء فالمؤلف عنيد ـ ولذلك فإنَّ محاولة رابعة قد أخفقت عند بوابة الدير: فلم يعد يسمح له بالدخول. ترى هل سيفلح في أن يعرف المزيد في محفوظات الهيئة الديرية وسجل الموظفين في روما، إنَّ هذا وقف عما إذا كان سيجد الوقت ويكون لديه نفقات السفر ـ والأهمّ ـ هل سيسمح له بالتسلّل إلى أسرار الهيئة الديرية. ويبقى الواجب أن يذكر المرء بالموقف في سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٣٨: راهبة قصيرة القامة دؤوبة مجتهدة، مغرمة بالتصوف، كما هي مغرمة بعلم الأحياء، ومشتبهُ فيها بفحص البراز ومتّهمة بالإحيائية والتصوّف المادي، تجلس في ركن مظلم في مكتبة للكتب القديمة، ثم إنَّ شاباً لم يكن عنده آنذاك أية دلالة إلى الصلعة والشحم يقدّم لها قهوة وسندويشة. وهذا المشهد من الحياة اليومية الذي يستحق أن يصوره فنان هولندي من مرتبة فيرمر احتاج من أجل إنصاف الموقف المتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية إلى خلفية قرمزية اللون وغيوم ملطّخة بالدم، هذا إذا فكّر المرء بأنَّ قوات الانقضاض النازية كانت تسير دائماً في مكان ما سيرها العسكري وأنَّ خطر الحرب كان في سنة ١٩٣٨ أعظم منه في السنة التالية التي اندلعت فيها الحرب، وإن كان المرء سيجد شغف راحيل هذا بمسائل الهضم والبراز صوفياً إلى حدّ الإفراط، واشتغالها بافراز باطني شاذاً، غير معقول، (انشغالها الذي وصل إلى حدّ أنّها اشتهت أن تعرف التركيب الدقيق لتلك المادة التي تسمّى المني ـ شيء واحد لا جدال فيه: أنها كانت هي التي نصحت الشاب الذي يتعامل مع

الكتب القديمة بحكم تجاربها الخاصة (الممنوعة) على البول نصيحةً مكّنته من أن يتهرب من الخدمة في القوات المسلحة الألمانية، إذ بينما كانت تشرب قهوته (التي لوّثت بها أحياناً أشياء نادرة قديمة ـ واحترامها لكل مظهر من مظاهر الكتب كان ضئيلاً)، أوضحت له بدقة ما ينبغي أن يشربه ويأكله وأية صبغات وحبوب ينبغي أن يتناولها لكي لا يحصل على نتيجة «غير لائق» سطحية، بل دائمة عند فحص بوله وفي أثناء فرز القرعة؛ وعلى كل حال فقد مكّنتها معلوماتها ونتائج مطالعاتها من أن تخضع بوله «لخطة متعددة المراحل» (هذا ما قالته راحيل بالحرف الواحد وأكّده ب. هـ. ت)، وهذه الخطة ضمنت أثناء إقامة في المستشفى العسكري لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أيام ما يكفي من الزلال لدى أشدّ الكواشف الكيميائية اختلافاً وتنوعاً. وهذا الخبر ليس إلاّ مواساة لكلّ أولئك الذين يفتقدون هنا الشيء السياسي. ومما يؤسف له أن ب. هـ. ت. كان خائفاً جداً من أن ينقل هذه «الخطة المتعدّدة المراحل» بكل التفاصيل للإخبار إلى شباب ملزمين بالتجنيد. وخشي «بصفته موظفاً» متاعب مع رئيسه في المصلحة. وأغلب الظن أنَّ المرء كان سيسرّ راحيل سروراً عظيماً (فرضية المؤلف) لو أنه استصدر لها الأذن بأن تقوم بمثل هذه الخدمات مرة على الأقل في مدرسة داخلية للشبيبة لمدة أسبوع واحد وأنْ تطّلع على الكيفية التي أُلِفتْ بها هذا واعتادته لدى الفتيات. وبما أنَّ الكتب العلمية حول اختلاف الهضم والتبرّز بين الرجال والنساء كانت في ذلك الوقت قليلة، فما كانت في حاجة إلاّ إلى افتراضات تزايدت إلى حدّ التحيّز؛ فقد عدّت الرجال كلهم تقريباً: «ذوي برازناشف». فلو تسرّبت رغبتها إلى روما أو إلى أي

مكان لطردت من الكنيسة على الفور أو لأبعدت قضائياً.

وبولع مماثل كانت تنظر كل صباح في عيون الفتيات الشابات التابعات لها نظرتها إلى صحون المرحاض وتوصي بحمامات للعيون كانت تحضّر مجموعة صغيرة من أحواض صغيرة للعيون وإبريق مليء بماء الينابيع؛ وسرعان ما كانت تكتشف كل علامة وأدق علامة أيضاً لالتهاب ما أو لتراخوما. وفي كل مرة كانت تنتشي طرباً ـ أكثر من انتشائها عند وصف عمليات الهضم والتبرّز بكثير كلّما أوضحت للفتيات أنَّ الشبكية سميكة تقريباً سماكة ورق السجائر أو رقيقة رقة ورق السجائر، لكنها تتألف فضلاً عن ذلك من ثلاث طبقات خلوية، من الخلايا الحسيّة والثنائية القطب والخلايا العقدية ـ وفي الطبقة الأولى وحدها التي سماكتها أو رقتها تعادل نحو ثلث سماكة أو رقة ورقة سجائر ـ يوجد نحو ستة ملايين مخروط ومئة مليون عصيّة، وهذه ليست موزعة بالتساوي، إنها موزّعة على نحو غير متناسب على سطح الشبكيّة. إنَّ عيونهن، كما نبَّهت الفتيات وعلّمتهنّ، شيء نفيس نفاسة هائلة لا تعوّض؛ وما الشبكية إلاَّ طبقة من طبقات العين الأربع عشرة تقريباً، ولها على الإجمال سبع أو ثماني طبقات، حيث إنَّ كل طبقة منفصلة بدورها عن الأخرى؛ وإذا ما أخذت تتحدث بعد ذلك عن الزغابات والحليمات والعقد العصبية والعضلات الهدبية، صار لقبها الثاني يتغمغم في الأفواه بين الحين والحين: الراهبة الشعشاء الهلباء أو قنزعة (عنصوة) الراهبات.

على المرء أن يفكر أنَّ راحيل لم يكن لديها وقت إلاَّ أحياناً، وقليل من الوقت لتوضح للفتيات شيئاً ما؛ فالمسار اليومي للفتيات كان

محدداً تحديداً تاماً، وبالفعل فإنَّ معظمهنَّ لم يعتبرنها أكثر من مسؤولة عن ورق التواليت. طبيعي أنها تكلّمت عن العرق والقيح ودم الحيض ـ واسهبت نوعاً ما في الحديث عن اللعاب؛ ولم تعُدْ هناك حاجة تقريباً إلى التوكيد أنّها كانت خصماً عنيفاً لتنظيف الأسنان المفرط، وأنها على كل حال لم تحتمل تنظيف الأسنان الشديد بُعيد النهوض إلاَّ عن غير قناعتها، ولم تحتمل هذا أيضاً إلاَّ بعد أشدّ احتجاجات الآباء حدّة، ولم تفحص عيون الفتيات فحسب، بل جلدهنّ أيضاً، ولم تفحص، للأسف، الصدر والبطن، بل اكتفت بفحص الساعد والعضد، لأنَّ الآباء كانوا قد اتهموها عدة مرات باللمس الفاجر. وفيما بعد انصرفت توضح للفتيات أنَّ نظرة على البراز، هذا إذا كان هناك بعض الحنكة، يجب ألاّ تكون في الحقيقة إلاَّ توكيداً لشيء أحسّه المرء عند النهوض: هو درجة الصحة والعافية، وأنه ـ بعد تجربة مماثلة ـ يكاد يكون غير ضروري النظر إليه، اللهم إلاَّ إذا لم يتأكد المرء من حالته واحتاج إلى إلقاء نظرة عليه للتأكد (مارغريت و ب. هـ. ت.).

حين كانت ليني تعطّل بعلّة المرض، وقد حدث هذا فيما بعد مراراً وتكراراً، كان يسمح لها أن تدخن سيجارة بين الحين والآخر في غرفة راحيل الصغيرة؛ وكانت راحيل توضح لها أنَّ أكثر من ثلاث إلى خمس سجائر لا تنفع ليني في هذه السن وتضّر امرأة. وحين تبلغ مبلغ النساء فينبغي ألاّ تدخّن أكثر من سبع أو ثماني سجائر، ولكن في كل الأحوال يجب أن يبقى العدد دون العشر.

مَنْ ذا الذي قد يعارض هنا أيضاً قيمة تربية ما إذا كان في الإمكان التوكيد أنَّ ليني ابنة الثامنة والأربعين ما زالت تتمسك بهذه

القاعدة وأنها بدأت تحقّق الآن حلماً منشوداً على صحيفة من ورق لف بني اللون قياسه ١,٥ × ١,٥ م (والورق الأبيض بهذا القياس باهظ الثمن بالنسبة إليها في الوضع الراهن لأحوالها المالية)، وإلى الآن لم يكن لديها الوقت لهذه الأمنية: أن ترسم المقطع العرضي رسماً طبيعياً عن طريق **إحدى** طبقات الشبكية؛ وهي عازمة بالفعل على أن تجد مكاناً لستة ملايين مخروط ومئة مليون عصيّة ـ وهذا كلّه بعلبة الألوان للأطفال المتبقيّة والعائدة إلى ابنها والتي تضيف إليها بين الفينة والأخرى ألواناً رخيصة. وإذا فكرّ المرء بأنها تتوصل يومياً إلى ما يعادل على أكثر تقدير خمسمائة عصيّة أو مخروط وسنوياً إلى ما يقرب من مائتي ألف، فإننا نعرفها مشغولة كليّاً لمدة خمس سنوات أخرى، وربما فهمنا أنّها ضحّت بعملها صانعة باقات زهر من أجل رسم المخاريط والعصيّات. وتسمّي لوحتها «جانب من الشبكيّة على العين اليسرى للعذراء مريم المدعوة راحيل».

* * *

من ذا الذي سيدهش حين يعلم أنَّ ليني تحب الغناء في أثناء الرسم؟ وأنها تمزج بإيقاعات وألحان نصوصاً تسمع عليها بدون تردد شوبيرت وعناصر أغنية شعبية واسطوانات من «هنا وهناك» (هانز)، وهذه الايقاعات والألحان لا تنتزع من واحد اسمه شيرتينشتاين «تأثراً وانتباهاً واحتراماً» فحسب (شيرتشتاين). والظاهر أنَّ برنامج أغانيها أوسع وأضخم من برنامجها على المعزف؛ وإنَّ لدى المؤلف شريطاً سجّلته له غريته هيلتسن ويصعب عليه أن يسمعه بدون أن تسيل الدموع على

وجنتيه (المؤلف). وتغنّي ليني غناءً أقرب إلى الغناء الهادىء بصوت جاف قوي لا يتهادى خافتاً إلاً من الحياء والخجل. إنها تغنّي مثل إنسان يغنّي من غياهب سجن فماذا تغنّي؟

صورتها تنظر في المرآة نظراتٍ فضيّة
تنظر في ضوء الغسق إليها نظرات فيها غرابة
شاحبةً أغبشتِ الصورة في المرآة
وتحسّ هي بالخوف من طهر الصورة.

الفحش والفقر نَذْرانِ لي
وكثيراً ما يجعل هذا الفحش براءتيَ أحلى
ما اقترفه المرء تحت شمس الرب
هذا ما سيكفّر عنه المرء في أرض الرب...

كان الصوت صوت أنبل الأنهار، نهر الراين المولود حراً ـ ولكن أين هو هذا الذي ولد مثل ذاك من رحم مقدّس كل التقديس ولادة الراين من المرتفعات المباركة لكي يبقى حراً طوال حياته ويحقق أمنية القلب؟

ولما أنَّ الحرب لم توحِ في الربيع الأول بأي سلام فقد تحمّل الجندي تبعتها ومات ميتة الأبطال.

الحق أني عرفتك أفضل
مما عرفت الناس من قبل
وفهمت سكون الأثير
ولم أفهم قط كلمة البشر...

وتعلّمت الحب وسط الزهور...

وكثيراً جداً ما يُغنّى البيت المستشهد به في النهاية، وفي الإمكان الاستماع إليه على الشريط في أربع تنويعات مختلفة، وتارة أخرى بإيقاع متسم بخصائص موسيقا الجاز (البيتز).

وكما يرى المرء فإنَّ ليني تتعامل مع نصوص مقدّسة في غير هذا الوقت على نحوٍ أقرب إلى التعامل الحرّ، ولا تجمع كيفياً عناصر موسيقية فحسب، بل أجزاءً من نصوص أيضاً.

صوت الراين المولود حرّاً ـ رحمتك يا رب
وتعلّمت الحب وسط الورد ـ رحمتك يا رب
حطّموا نير الطغاة ـ رحمتك يا رب
الفحش والفقر نذراي ـ رحمتك يا رب
كانت لي، وأنا بنت، صلة بالسماء، رحمتك يا رب
ويحبّني حبّ الرجال، حبّاً رائعاً بنفسجيّاً ـ رحمتك يا رب
مرمر السلف صار عتيقاً ـ رحمتك يا رب
وإلى أنْ يُفصح عن سرّ نفسي، كما أقصد ـ
رحمتك يا رب...

ويرى المرء إذاً أنَّ ليني ليست مشغولة فحسب.، بل إنّها مشغولة أيضاً على نحوٍ منتج.

* * *

كانت ليني تفزع فزعاً شديداً كلّما صارت حالها إلى ما تصير إليه

حال النساء. وبدون أن تقع راحيل في رمزية سخيفة غير مستحبة أوضحت لليني عملية المضاجعة بكل تفاصيلها من غير أن يكون لدى ليني أو راحيل أي مبرر لأن تحمّرا خجلاً ولو من طرف خفي؛ على أنه كان ضرورياً أن تبقى مثل هذه الإيضاحات والشروح سريّة، إذأنَّ راحيل جاوزت بذلك حدود الاختصاص. وقد يتوضّح بهذا لماذا احمّر وجه ليني احمراراً شديداً واحمّر غضباً عندما أحيلت ونُبِّهت فيما بعد بسنة ونصف السنة إلى «الفراولة مع القشدة المخفوقة» بمناسبة التنوير في مسائل جنسية. وفيما يتعلّق بأشكال البراز لم تتردّد راحيل في أن تستعمل مفهوم «هندسة البناء الكلاسيكي» (ب. هـ. ت).

هذا وقد وجدت ليني في الشهر الأول في المدرسة الداخلية صديقة للحياة، وهي مارغريت تسايست تلك التي كان معلوماً عنها أنّها «مستهترة عديمة الضمير»، ابنة جموح لزوجين ورعين للغاية «عجزا عنها» كما عجز عنها معلموها السابقون كلّهم. كانت مارغريت معتدلة المزاج بصوة دائمة، وكانت تعدّ «شخصاً ميّالاً إلى الضحك والمرح»، قصيرة القامة سوداء الشعر، وبالقياس إلى ليني كانت تبدو أقرب إلى أن تكون كثيرة الكلام. وكانت راحيل هذه التي أثبتت بعد أربعة عشرة يوماً من فحص جلد مارغريت (الكتفين والعضدين) أنَّ تلك تعاشر رجالاً. وبما أنَّ مارغريت نفسها الشاهد الوحيد على هذه الأحداث، فقد يقتضي الأمر بعض الحذر هنا؛ أما المؤلف نفسه فلديه الانطباع عن الثقة المطلقة في مارغريت. وتذهب مارغريت إلى أنَّ راحيل لم تثبت هذا «بغريزتها الكيميائية الموثوق بها ثقة شبه عمياء» فحسب، بل بناء على طبيعة هذا الجلد الفيزيائية أيضاً التي قالت عنه راحيل فيما بعد

في حديث ودّي مع مارغريت أنَّ جلدها «يشعُّ حناناً متلقّى وحناناً معُطى أيضاً»، لذلك ـ وهذا ينبغي قوله إكراماً لمارغريت ـ أحمَّر وجه هذه لا للمرة الأولى في حياتها ولا للمرة الأخيرة أيضاً. واعترفت أيضاً أنّها كانت تغادر الدير ليلاً على نحو لا تستطيع البوح به وكانت تلتقي شباباً قرويين لا رجالاً. إذ أنها تنفر من الرجال الذين تنبعث منهم رائحة كريهة وتعرف هذا من تجربة لها مع أحد الرجال الذي لم يكن إلاَّ ذلك المعلم الذي زعم أنه لا طاقة له بها. «يا إلهي،» أضافت بلهجتها الراينية الجافة، «أما هذا فقد غلبني كليّاً». إنَّ شباباً في سن مماثلة، تقول هي، لهو الشيء المناسب الصحيح، أمّا الرجال فيفوح النتن منهم ـ وأضافت بصراحة إنه لرائع كيف كان الشبّان ينبسطون، فبعضهم كان يصرخ من اللذة، ومن ثمّ هي أيضاً، إذ أنه لن يكون جميلاً ولا مستحسناً لو أنَّ الشبّان «فعلوا هذا وحدهم»؛ وإنه ليروق لها أن تسرّهم ـ وهنا ينبغي التسجيل أننا نرى راحيل تنفجر بالبكاء أول مرة: «فقد بكت بكاء مراً، وقد خفتُ، والآن وحيثما استلقي وأنا في الثامنة والأربعين ومعي مرض الزهري وأشياء أخرى، الآن فقط أعرف لماذا بكت بكاءً شديداً» (مارغريت في المستشفى). أما راحيل وبعد أن جفّت دموعها ـ وهذا لا بدَّ أن يكون قد استمر برهة طبقاً لوصف مارغريت ـ فإنها نظرت إليها متفكرّة وفي ودّ ثم قالت: «والحق أنّك بائعة هوى». «إنه لتعريض لم أفهمه آنذاك بطّبيعة الحال» (مارغريت). كان عليها أن تعد ـ وقد وعدت بمهابة ووقار ـ بألاّ تقود ليني على دروب مماثلة وألاّ تدلّها أيضاً على المخرج من المدرسة الداخلية، ولئن كانت ليني مصطفاة لأن تمنح المباهج والمسرّات الكثيرة، لكنها ليست بائعة هوى.

وأقسمت مارغريت ووفت بيمينها، «وبالمناسبة لم يحدق بليني هذا الخطر قط، وعرفت هي نفسها، ماذا كانت تريد». وفضلاً عن ذلك كانت راحيل على صواب أنّ الجلد كان جلدها الذي يُحبُّ بشوق ويشتهى بعنف، لا سيما جلد صدرها، وإنّه لا يُصدَّق ما كان يفعله الشبّان بها. وحين سألتها راحيل عما إذا ضاجعت شخصاً أو أكثر من شخص، احمرّ وجه مارغريت مرة ثانية في خلال عشرين دقيقة وقالت بلهجتها الراينية السّطحيّة: «في وقت واحد مع واحد فقط بصورة دائمة». وبكت راحيل ثانية ثم تمتمت، ليس جميلاً الشيء الذي تفعله مارغريت وسيؤدي إلى عاقبة وخيمة. هذا ولم يدم بقاء مارغريت في المدرسة الداخلية طويلاً؛ فلقد انكشف كل ما مارسته مع شبان القرية (ومعظمهم مساعدون نشطاء للقسيس في القداس)، وصادفتها متاعب مع آباء الشبان ومع القسيس وآباء الفتيات، وجرى تحقيق في الحادثة، وفي أثناء هذا التحقيق امتنعت مارغريت وامتنع الشبان كلّهم عن أن يدلوا بأقوالهم ـ وكان على مارغريت أن تترك المدرسة الداخلية في نهاية سنتها الثانية، إنَّ الشيء الذي بقي لليني: صديقة للحياة كان لها أن تثبت نفسها فيما بعد مراراً وتكراراً أنها إنسان يُعتمد عليه في مواقف عصيبة، لا بلَ خطرة على الحياة.

* * *

ابتدأت ليني بالعمل فيما بعد بسنة واحدة لا بنفسٍ ممرورة أو بطريقة برمة ضجرة على الإطلاق، وإنما بحبّ استطلاع لم يتمَّ إشباعه بعد: فقد التحقت بمكتب أبيها صبيّة مبتدئةً (التسمية المهنية الرسمية

مستخدمة في محل تجاري)، ونزولاً عند طلب أبيها الملح انضمت إلى تلك المنظمة النازية للفتيات، حتى إنّها ما زالت تبدو (واأسفاه!) لطيفة في بزّة المنظمة الرسمية. ويجب القول إنَّ ليني شاركت دون حماس في حفلات السمر والندوات، هذا وقبل أن ينشأ سوء فهم، لا بدَّ من الإضافة أنَّ ليني لم تُحْط علماً بالأبعاد السياسية للنازية على الإطلاق، حتى ولو تلميحاً؛ ولم تعجبها البزّات البنيّة على الإطلاق، ولا سيّما فرقة الانقضاض أو الهجوم التي كانت بغيضة على نفهسا، ومن ذا الذي يرى نفسه قادراً على أن يتصوّر قليلاً اهتماماتها المتعلقة بدراسة البراز وكذلك ثقافتها المتعلقة بدراسة البراز من خلال الراهبة راحيل، سيعرف أو سيخمّن على الأقل لماذا كانت تستثقل وتمقت هذا اللون البنّي. أما حفلات السّمر التي تركتها تأخذ مجراها إلى غير حدّ ذلك لأنها كانت تعمل بدءاً من أيلول سنوة ١٩٣٩ في محلّ أبيها «يداً عاملةً مهمةً للحرب». فإنَّ مشاركتها الفاترة الضعيفة فيها كانت لها أسباب أخرى: فقد جرت لها هناك أمور غلب عليها جو الورع والرهبنة، والمجموعة التي كانت قد ألحقت بها، كانت قد «استولت وسيطرت» عليها شابة كاثوليكية حازمة كانت قد عقدت العزم على أن تتصدّى «لهذا الموضوع»، وغيّرت مجرى أمسيةٍ بكاملها بإنشاء (أغانٍ مريمية وتلاوة صلواتٍ بالاستعانة بسبحة وغيرها، وذلك بعد أن تأكدت ـ وللأسف إلى حدّ ما فقط ـ من أمانة الاثنتي عشرة فتاة التابعات لها؛ ثم إنَّ ليني، كما يستطيع المرء أن يتصوّر، لم يكن لديها أي اعتراض على الأغاني المريمية وتلاوة سلسلة الصلوات وغيرها، إلاَّ أنها، وفي هذه الفترة من حياتها وهي دون السابعة عشرة، لم تكن مهتمة جداً بعد تديّن مدرسي

رهباني تحملته بصعوبة سنتين ونصف السنة ووجدت ذلك مملاً؛ ولم تجد الأمر مفاجئاً، إنّما وجدته مملاً فقط. وطبيعي أنَّ محاولات تصدّي السيدة الشابة ـ المدعوة غريتل ما رايكه ـ لم تبق في غفلة من الناس، فقد بلّغت عنها فتاة تدعى باولا شميتس، حتى ليني تمَّ استجوابها شاهدةً، وبما أنها كانت مهيّأة من قبل أبي غريتل مارايكه بما يناسب ذلك، فقد بقيت ثابتة لا تتزعزع وأنكرت من غير أن يطرف لها جفن إنشاء أغانٍ مريمية، (وهذا ما فعلته عشر فتيات من بين اثنتي عشرة)، وهذا ما جنّب غريتل مارايكه هموماً جسيمة، ولم تسلم من حبس شهرين لدى البوليس السري ومن استجوابات، وهذا «كفاها تماماً» ـ ولم تقل أكثر من ذلك (الخلاصة بعد عدة أحاديث مع السيدة فان دورن).

* * *

في تلك الأثناء يجد المرء نفسه في صيف ١٩٣٩. وتمرّ ليني في أشدّ فترات حياتها تبسّطاً في الكلام وستدوم هذه الفترة نحو سنة وتسعة أشهر. وتوصف بالحسناء، وبناءً على موافقة خاصة تحصل على إجازة السوق، وتحبّ أن تسوق سيارة وتلعب التنس وترافق والدها إلى الحفلات الموسيقية وفي السفرات التجارية. وتنتظر ليني رجلاً «تريد أن تحبّه وتهبه نفسها بلا قيد أو شرط»، وها هي تفكرّ له «بملاطفات تتطلب جرأة ـ وَلْيُسرَّ بي ولأُسَرَّ أنا به» (مارغريت). ولا تفوّت ليني أية فرصة للرقص، وتحب أن تجلس في هذا الصيف مساءً على الشرفات وتشرب قهوة مثلّجة وتمثّل قليلاً «المرأة الأنيقة». وهناك صور مدهشة لها تعود إلى هذه الفترة: ربما كان في وسعها أن تنافس حتى الآن على

لقب «أكثر فتيات المدينة ألمنةً»، لا بل الناحية، أو ربما الاقليم ـ أو ذلك الشكل الجغرافي التاريخي السياسي الذي صار معروفاً باسم الرايخ الألماني. وكانت ستستطيع أن تمثّل دور القديسة (المجدلية أيضاً) في تمثيليات الأسرار وأن تُستخدم إعلاناً لدهان بشرة، أو ربما كان من الممكن أن تمثّل في أفلام؛ عيناها اقتمّتا فيما بعد كليّاً، وهما أقرب إلى السواد، وتسرّح شعرها الأشقر الكث، كما هو موصوف على الصفحات الأولى، فلا الاستجواب البسيط عند البوليس السرّي ولا الأمر الواقع أن غريتل مارايكه قد أمضت شهرين في الحبس بلبلا عليها كثيراً يقينها الوجودي.

وبما أنها تعتقد أنها لم تعرف من راحيل إلاّ القليل جداً عن الفرق البيولوجي بين الرجل والمرأة فإنها تبحث بهمة وحماس عن معلومات بهذا الخصوص وتقلّب في المعاجم: ولكن من غير طائل تقريباً، وتفتش، بلا جدوى أيضاً، في مكتبة أبيها وأمها؛ وفي بعض الأحيان تزور راحيل أيام الآحاد بعد الظهر، وتتمشى معها طويلاً في حديقة الدير الكبيرة وتستجدي المعلومات؛ وبعد أن تتردّد راحيل بعض الشيء يرقُّ قلبها، ومن دون أن يكون هناك أيُّ مبرّر لأن يحمرّ وجه كل منهما ولو تلميحاً، فإنها تشرح لها تفاصيل أخرى كانت قد ضنّت عليها بها قبل سنتين: آلة الحياة الجنسية عند الرجل، تهييج الآلة وسرعة تهيّجها مع جميع النتائج والملذات، وبما أنَّ ليني تطلب صوراً لذلك، وراحيل تمنع عنها هذا لأنها تزعم أنه ليس بمستحسن رؤية صور من ذلك، فإنَّ ليني تتوصل إلى «متحف الصحة البلدي» بناءً على نصيحة صاحب مكتبة تتصل به هاتفياً بصوت كانت قد غيّرته (مع أنَّ الأمر ما كان ليستوجب

ذلك على الإطلاق)، وفي المتحف عُرض عليها ضمن الحياة الجنسية أمراض سرّية بصورة أساسيّة، بدءاً من السيلان العادي ومروراً بالقرحة الليّنة وانتهاءً باختناق القلفة الخلفي، مروراً بكل مراحل مرض الزهري، كل شيء في نماذج من الجص ملّونة بما يناسبها تلويناً طبيعياً تعرفه ليني من هذا العالم المريض ـ وتقوم قيامتها؛ لم تكن شكاءة قط، فما أغضبها كان حقيقة الأمر أنَّ الرغبة الجنسية والأمراض السرية ظهرا أنهما اعتبرا شيئاً واحداً في هذا المتحف؛ فهذه الطبيعية المتشائمة أغضبتها أيضاً، كما كانت أغضبتها رمزية استاذ الدين. وبدا لها متحف الصحة ضرباً آخر «للفراولة مع القشدة» (الشاهد مارغريت التي تمتنع هي ذاتها، وقد أحمرَّ وجهها مرة أخرى، عن أن تساهم في توضيح الأمور الجنسية لليني). وقد ينشأ الانطباع هنا أنَّ ليني لم تفكّر إلاّ بعالم سليم؛ كلاّ؛ فواقعيتها الملموسة لمساً مادياً ذهبت إلى حدّ أنَّ صدودها قلَّ حيال محاولات التقارب العديدة التي كانت عرضة لها وأنها استجابت أخيراً للتوسلات الشهوانية التي أبداها مهندس معماري شاب من مكتب أبيها كان خفيف الظل على قلبها فأعطته ميعاد غرام. نهاية الأسبوع وصيف وفندق فاخر على الراين ورقص في المساء على الشرفة، هي شقراء وهو أشقر، هي في السابعة عشرة وهو في الثالثة والعشرين، وكلاهما صحيح الجسم ـ ويوحي هذا بنهاية سعيدة، أو على الأقل بليلة سعيدة ـ، وباءت الخطة بالفشل؛ فبعد الرقصة الثانية غادرت ليني الفندق ودفعت لحجرة لم تستعملها. وفيها كانت قد أخرجت من الحقيبة معطفها الصباحي (= برنس الحمام) وأدوات الزينة بصورة عابرة فقط، ثم سافرت إلى مارغريت وحكت لها أنها أحسّت بعد الرقصة

الأولى أنَّ «الشاب» لم يكن عنده «حنوّ في يديه»، وإنَّ نوعاً من العشق العابر سرعان ما طار وولّى.

في الإمكان الأن الإحساس إحساساً قوياً أنَّ القارىء الصابر إلى هنا صبراً كثر أو قلّ سيصبح فؤاده فارغاً وسيطرح سؤالاً: اللعنة، هل ليني كاملة؟ الجواب: نوعاً ما. ثم إنَّ قراء آخرين. كلّ واحد بحسب القاعدة الأساسية الاديولوجية، سيطرحون السؤال على نحوٍ آخر: اللعنة، أي إنسان قذر هي ليني يا ترى؟ الجواب: إنها ليست إنساناً قذراً. إنها لا تنتظر إلاَّ الرجل «المناسب» الذي لا يتبجح ولا يكابر؛ وتُعاكس إلي أبعد حد ممكن، وتُدعى إلى مواعيد الغرام ورحلات نهاية الأسبوع، ولا تشمئز أبداً أو تنفر، إنما تحس بأنها عرضة للمعاكسات، ولا تغضبها أشنع التعابير عن الرغبة في مضاجعتها التي كثيراً ما تصاغ صياغة سوقية مبتذلة ويُهمس إليها بها في بعض الأحيان، وحسبها أن تهزَّ الرأس. وتحب أن تلبس ثياباً جميلة وتسبح وتجذف وتلعب التنس ولا تنام نوماً مضطرباً، «وقد كان سروراً خالصاً أن تراقبها وهي تتلذّذ بالطعام أثناء الفطور، كلا، لقد كان مجرد سرور وهي تتناول خبزتيها الطريتين وشريحتي الخبز الأسمر وبيضتها المسلوقة سلقاً خفيفاً وقليلاً من العسل، وأحياناً شريحة لحم مملّح من فخذ الخنزير ـ ثم القهوة الساخنة الممزوجة بالحليب الساخن والسكر ـ، لا، كان في وسعك أن ترى هذا لأنه كان سروراً ـ سروراً كل يوم كيف كان الطعام يلذّ للفتاة» (ماريا فان دورن).

وفضلاً عن ذلك تحب أن تؤم السينما «لكي تبكي قليلاً بهدوء في الظلام» (اقتباس عن ماريا فون دورن). إنَّ شريطاً سينمائياً مثل أيدٍ

متحررة ليبلّل منديلين من مناديل الجيب عندها بللاً شديداً بحيث إنَّ ماريا ظنت خطأً أنَّ ليني أصيبت بالزكام في السينما، وإنَّ شريطاً سينمائياً مثل‹ راسبوتين شيطان النساء› أو‹ الدم الحار›. «بعد مثل هذه الأفلام» (ماريا فان دورن) «لم تكن مناديلها ناشفة فحسب، بل بدت كأنها مكوية حديثاً، لشد ما كانت ناشفة». أما فيلم‹ فتاة فانو› فإنّه يبكيها، إنما لا يبكيها دموعاً غزيرة مثل فيلم ‹أيدٍ متحرِّرة›.

* * *

إنّها تتعرّف إلى أخيها الذي قلَّ أن رأته حتى الآن؛ إنه يكبرها بسنتين، وفي الثامنة من عمره التحق بمدرسة داخلية حيث أمضى إحدى عشرة سنة. وقد تمَّ استغلال معظم عطله المدرسية لثقافة إضافية: إقامة في إيطاليا وفرنسا وانكلترا والنمسا وأسبانيا لأنه كان يهمّ والديه كثيراً أن يصنعا منه ما صُنِع منه في الواقع: «شاب ذو ثقافة جيدة حقاً». ونقلاً عن ماريا فون دورن مرة أخرى فقد وجدت أم الشاب هاينريش غروتن «بيئتها غاية في السوقية»، وبما أنها هي نفسها، وقد تربّت وتعلمت على أيدي راهبات وحافظت مدى الحياة على نوع من «الحساسية المفرطة بين وقت وآخر»، فأغلب الظن أنها سعت لابنها إلى شيء مماثل. ولا بدَّ أن يكون هذا قد نجح، بقدر ما تيسّرت المعلومات حول ذلك. وعلينا أن نتفرغ بعض الوقت لهذا الشخص هاينريش غروتن الذي عاش بعيداً عن الأسرة مدة اثنتي عشرة سنة من حياته مثل روح، بل مثل إله تقريباً، وكان وجوده مزيجاً من غوته الشاب وفينكلمان الشاب ومزيجاً من نوفاليس وكان يطل بين الفينة والفينة على الأسرة ـ

ففي غضون إحدى عشرة سنة حضر نحو أربع مرات ـ ولم تعرف ليني عنه حتى تاريخه أكثر من أنه «لطيف جداً، غاية في اللطيف والطيبة». صحيح أنَّ هذا ليس بكثير، إلا أنه يوحي وكأنَّ في هذا شيئاً من خبز القربان المقدس، لأنَّ ماريا فان دورن نفسها لا تستطيع أن تقول عنه أكثر مما تستطيع ليني قوله («مثقف جداً، ظريف جداً، لكنه ليس متكبّراً أبداً، أبداً»).، وبما أنَّ مارغريت لم ترَهُ رأي العين خلال سنة ١٩٣٩ إلاّ مرتين بصورة رسمية عندما كانت مدعوّة لتناول القهوة عند آل غروتن، ومرة أخرى بصورة غير رسمية في سنة ١٩٤٠، في ليلة من ليالي نيسان الباردة نوعاً ما، الليلة التي سبقت إرسال هاينريش لكي يستولي وهو رامي دبابة على الدنمرك من أجل الرايخ الألماني المذكور آنفاً، فإنَّ مارغريت هي الشاهد الوحيد اللاإكليريكي نظراً لصمت ليني وجهل ماريا فان دورن. والمخبر (ناقل الأخبار) يعترف بحيرته عندما يصف الآن الظروف التي علم في ظلها شيئاً عن هذا الشخص هاينريش من امرأة مصابة بمرض الزهري وقد شارفت على الخمسين. إنَّ كل الاقتباسات الحرفية العائدة إلى مارغريت ضربت على الآلة الكاتبة عن شريط تسجيل، إنها غير مستعملة، إذاً، بادىء ذي بدء: فإنَّ مارغريت قد شرد منها العقل والقلب واكتسب وجهها (المشوّه جداً) مسحة من حرارة طفولية عندما قالت ببساطة أوّل ما قالت: «أجل، هذا هو من أحببت. لقد أحببته». وحين سئلت عما إذا أحبّها هو أيضاً، هزّت الرأس، لا بقصد النفي، بل أقرب إلى قصد التشكك، على كل حال لا في موقف استياء إطلاقاً، كما يؤكد هنا تأكيداً مدعّماً بقسم. «شعر فاحم، يجب أن تعلم، وعينان صافيتان وهّاجتان، وإنه، لست أدري،

لنبيل، أجل، هذا هو، إنّه نبيل. لم يجل في خلده كم له من السحر، حتى إني كنت سأصير من أجله على وجه التقريب من بنات الهوى، إن صحّ هذا التعبير، لكي يستطيع أن يقرأ الكتب أو، ما أدراني، أيّ شيء تعلّم، اللهم إلاّ قراءة الكتب وزيارة الكنائس ودراسة التراتيل وسماع الموسيقا ـ وما تعلّمه من اللاتينية واليونانية ـ وكل شيء عن فن العمارة؛ إذاً، لقد شابه ليني ـ في الغموض وعدم الوضوح، وأنا أحببته. كنت مرتين هناك لتناول القهوة ورأيته ـ في آب سنة ١٩٣٩، وفي السابع من نيسان سنة ١٩٤٠ اتصل بي هاتفياً ـ كنت متزوجة من الثري كنوب الذي كنت قد اصطدته أنذاك ـ، اتصل بي هاتفياً، وذهبت إليه على الفور إلى فلنسْبورغ، وعندما وصلت كان هناك منع خروج ومغادرة، كان الطقس في الخارج شديد البرودة؛ وحين وصلت كان الثامن من نيسان. كانوا هناك في مدرسة، كل شيء كان قد تمّ حزمه لكي يتحركوا ليلاً، أو ما أدراني إن كانوا سيطيرون أو سيسافرون بالسفينة. منع خروج ومغادرة. ما من أحد عرف وعلم قط أنني كنت عنده، حتى ليني لم تعرف، ولم يعرف أبواها أيضاً أو من شابههم. ولقد خرج رغم منع الخروج. من فوق السور من مرحاض الفتيات إلى فناء المدرسة. لا غرفة فندق، ولا غرفة خاصة أيضاً. لم يكن مفتوحاً غير حانة، ودخلناها، وأعطتنا فتاة غرفتها لقاء نقودي كلّها، مائتي مارك وخاتمي ذي الياقوتة الحمراء ولقاء نقوده كلها، مائة وعشرين ماركاً وعلبة سجائر ذهبية. فهو أحبّني وأنا أحببته ـ لم يكن هناك من بأس أن كل شيء كان غاية في العهر لابأس، لا بأس على الإطلاق. أجل (تمَّ الاستماع إلى شريط التسجيل مرتين استماعاً دقيقاً للتأكد ممّا إذا كانت مارغريت قد

استعملت فعلاً صيغة الحاضر (المضارع) مرتين ـ لابأس، لا بأس على الإطلاق. إثبات موضوعي: استعملت). ثم إنه مات بعيد ذلك. يا له من إسراف جنوني، جنوني». وعند الاستفهام كيف خطرت ببالها هنا في هذا المقام الكلمة المفاجئة إسراف أجابت مارغريت حرفيّاً (والمحضر منسوخ عن شريط التسجيل بالآلة الكاتبة): «تصوَّر إذاً، الثقافة كلها والجمال كله والفحولة كلها ـ وفي العشرين من العمر، وكم مرة، وكم كنا سنحب بعضنا بعضاً وكان سيتاح لنا أن نحب بعضنا بعضاً، لا في مثل غرف العهر هذه فحسب، بل في الخارج أيضاً، حين يصبح الجو دافئاً ـ، كل شيء غاية في التفاهة، إسرافاً أسمّي هذا».

* * *

بما أن علاقة مارغريت وليني وماريا فان دورن أيضاً بهاينريش غروتن علاقة تقوم على تقديس الصور، ففي هذه الحال أيضاً تمَّ البحث عن معلومات أكثر موضوعية؛ ولم يكن في الإمكان الحصول عليها إلاَّ من طريق راهبين يسوعيين، جاوز كلاهما السبعين، وكلاهما يصحح مخطوطات في غرف التحرير المشحونة أيضاً بدخان الغليون، مع أنهما يعملان لمجلتين مختلفتين، إلاَّ أنهما تختصان بموضوعات مماثلة (الفرجة إلى اليسار أو إلى اليمين؟)، أحدهما فرنسي والأخر ألماني (ويحتمل أن يكون سويسرياً أيضاً)، الأول أشقر شاب رأسه والآخر ذو شعر فاحم بيّضه المشيب، كلاهما عاقل حكيم، طيّب، ماكر وإنساني، وكلاهما أطلق عند السؤال صرخة: «أها، الشاب هاينريش، الشاب غروتن!» (مطابقة حرفية حتى في أدق التفاصيل النحوية واللغوية، حتى وضع

علامات الترقيم، إذ أنَّ الفرنسي كان يتكلم الألمانية)، وكلاهما وضع غليونه جانباً ومال بظهره إلى الوراء وأبعد المخطوطات وهزّ الرأس ثم أومأ بالرأس زاخراً بالذكريات، وكلاهما تنهّد تنهّدة عميقة وأخذ يتكلم، هنا تنتهي المطابقة الكلية ولا تبدأ إلا مطابقة جزئية؛ ـ وبما أنه كان لا بدَّ من قصد السيد الأول في روما والسيد الثاني في القرب من فرايبورغ وكان لا بدَّ من مخابرات هاتفية تحضيرية محدّدة للمواعيد عبر مسافات كبيرة، فقد ترتّب على ذلك مصاريف كبيرة يجب أن يقال عنها إنها لم تُجْدِ في النهاية نفعاً إذا ما غضّ المرء النظر عن «القيمة الإنسانية» لمثل هذه اللقاءات التي ربما كان في الإمكان الحصول عليها بدون هذه المصاريف الباهظة. إذ أنَّ كلا السيدين لم يساهم إلاَّ في الإعجاب الأعمى بهاينريش غروتن؛ فالسّيد الأول، أي الفرنسي، قال: «لقد كان ألمانياً للغاية، ألمانياً إلى هذا الحد، ونبيلاً إلى هذا الحدّ». وقال الآخر: «لقد كان نبيلاً إلى هذا الحدّ، نبيلاً إلى هذا الحد وألمانياً للغاية». ولتبسيط الحديث أو الخبر سيُرمز إلى السيدين، ما دمنا في حاجة إليهما، باليسوعي رقم ١ (ي١) واليسوعي رقم ٢ (ي٢). ويقول (ي ١): «لم يعد لدينا في مدى خمسة وعشرين سنة طالبٌ في مثل ذكائه وموهبته». ويقول (ي ٢): «في مدى ثماني وعشرين سنة لم يعد لدينا تلميذٌ في مثل موهبته وذكائه».

ويقول (ي ١): «كان موهوباً لأن يكون واحداً اسمه كلايست».

ويقول (ي ٢): «كان موهوباً لأن يكون واحداً اسمه هولدرلين».

ويقول (ي ١): «لم نحاول قط أن نستميله إلى مهنة الكهنوت».

ويقول (ي ٢): «لم تبذل محاولات لكسبه إلى جانب الهيئة

الديرية». ي ١: «كان هذا سيكون أيضاً تبديداً ومضيعة».

ي ٢: ««حتى رهبان الهيئة الديرية أنفسهم رفضوا هذا». وعند السؤال عن النتائج المدرسية قال ي ١: «الحق أنه نال تقدير ممتاز في كل المواد، وفي التربية البدنية أيضاً، ولكن ليس على نحو مملّ، وكل معلم من معلّميه خاف من اللحظة التي كان سيقع فيها اختيار المهنة». ي ٢: «بديهي أنَّ الشهادة من أعلاها إلى أدناها جيدة جداً، وفيما بعد أوجد المرء من أجله التقدير: ممتاز. ولكن ماذا كان يمكن أن يصير به؟ هذا أخافنا جميعاً!» ي ١: «سواء أكان دبلوماسياً أم وزيراً، مهندساً، أو علاّمة في القانون، فهو على كلّ حالٍ شاعر». ي ٢: «معلم كبير وفنان عظيم، إنه ـ على كل حال وعلى الدوام شاعر». ي١: «شيء واحد لم يكن يصلح له، فهو لم يخلق: لأي جيش كان». ي ٢: «وهذا ما جعلوه منه».

* * *

المؤكد أنَّ هذا الشخص هاينريش استطاع أن يستفيد قليلاً من ثقافته في الفترة الممتدة من نيسان سنة ١٩٣٩ وحتى نهاية آب سنة ١٩٣٩ وربما لم يرغب في أن يستفيد منها، إذ حصل على وثيقة التعليم تلك التي يسميها المرء شهادة ثانوية. كان هو وابن خاله تابعين معاً إلى مؤسسة حملت الاسم البسيط «العمل الجماعي الوطني»، وابتداءاً من أيار سنة ١٩٣٩ كانت له بين الحين والآخر إجازة من السبت الساعة الثالثة عشرة إلى الأحد الساعة الثانية والعشرين، وكان يمضي من الخمس والثلاثين ساعة الممنوحة له ثماني ساعات في المحطة، وكان

يستفيد من السبع والعشرين ساعة المتبقيّة ليذهب مع أخته وابن خاله إلى الرقص ويلعب التنس قليلاً ويشارك في بعض الوجبات مع الأسرة وينام نحو أربع إلى خمس ساعات ويتشاجر ساعتين إلى ثلاث ساعات مع والده الذي أراد أن يفعل كل شيء من أجله وكان سيفعل ذلك أيضاً لكي يحول دون الامتحان الذي ينتظر هاينريش ويسميه المرء في ألمانيا الخدمة العسكرية ـ ورفض هاينريش هذا. والثابت المؤكد هو مشاهد عنفية وراء باب غرفة الجلوس المقفل حيث بكت فيها السيدة غروتن بينها وبين نفسها، وكانت ليني غائبة عنها، والشيء الوحيد المؤكد هو قول لهاينريش سمعته ماريا فان دورن بوضوح: «قذارة، قذارة وقذارة أريد أن أكون أيضاً، لا شيء إلاّ القذارة». وبما أنّ مارغريت على يقين من أنها شربت القهوة مع هاينريش في عصر يومين من أيام الآحاد من شهر آب، وفضلاً عن ذلك نُقل (من قبل ليني بصورة استثنائية) أنّ الاجازة الأولى لم تكن إلا في نهاية أيار، ففي وسع المرء أن يحسب بارتياح أنَّ هاينريش كان في البيت سبع مرات بصورة إجمالية، أي نحو مائة وتسع وثمانين ساعة بالجملة في البيت، أمضى منها نحو أربع وعشرين ساعة في النوم وأربع عشرة ساعة في شجار مع أبيه. هنا يجب أن يرجع القرار إلى القارىء إذا كان في الإمكان اعتبار هاينريش من ذوي الحظوة والمقرّبين لدى القدر. على كل حال: القهوة مرتين مع مارغريت. وبعد ذلك بأشهر قلائل ليلة حمراء معها. ومما يؤسف له أنه ما من اقتباسات حرفية مثبتة من قبله إلاّ «قذارة، قذارة، قذارة أريد أن أكون أيضاً، لا شيء إلاّ القذارة». ألم يكتب هذا الإنسان الذي كان متفوقاً بالمثل في اللاتينية واليونانية وفي البلاغة وتاريخ الفن، أيّة

رسائل؟ لقد رشا ماريا فان دورن، متضرّعاً إليها على نحوٍ غاية في اللطف والرقة، بفناجين قهوة كثيرة وعدة علب سجائر فيرجينيا بدون مرشح (لقد أخذت تدخن في الثامنة والستين وتجد «هذا الشيء رائعاً»)، وسرق لوقت ما ثلاث رسائل من درج الصوان العائلي الخاص بليني التي قلما تفتحه، وكان في الإمكان تصويرها على وجه السرعة.

* * *

الرسالة الأولى المؤرخة في ١٠/١٠/١٩٣٩ بعد يومين من انتهاء الحرب في بولونيا لا تتضمن الاستهلال الرسمي ولا عبارة التحية التقليدية وقد كتبت بخط لاتيني مقروء وظريف وبارع جداً وكان سيستحق أشياء أفضل. والرسالة هذا نصّها: «يصحّ المبدأ القائل إنه لا يجوز إلحاق الأذى بالعدو بأكثر مما هو ضروري للوصول إلى الهدف العسكري. الممنوع هو"

١ ـ استعمال السمّ والأسلحة المسمومة.

٢ ـ الاغتيال.

٣ ـ قتل الأسرى وجرحهم.

٤ ـ عدم الاعتذار.

٥ ـ قذائف أو أسلحة تسبّب آلاماً غير ضرورية، مثلاً قذائف دمدم.

٦ ـ إساءة استعمال راية الرسول (والعلم الوطني أيضاً)، والشعارات العسكرية والبذلات العسكرية الخاصة بالعدو وشعار الصليب الأحمر (لكن الحذرَ الحذرَ في حالة الخدعة المستعملة في الحرب!).

٧ ـ التدمير التعسّفي أو سلب ممتلكات العدو.

٨ ـ إرغام مواطنين أعداء على القتال ضد بلدهم (مثلاً ألمان في الفرقة الأجنبية الفرنسية)».

* * *

الرسالة الثانية مؤرخة في ١٩٣٩/١٢/١٣. «يتصرّف الجندي النظامي أمام رؤوسائه في غير كلفة أيضاً وباستعداد وأدب وانتباه. وإنَّ تصرّفاً **غيرمتكلّف** ليظهره من خلال البساطة والفطنة والحيوية وأداء الواجب بسرور. وبالنسبة إلى تصرّف ينم عن استعداد وأدب وانتباه فإنه يذكر الأمثلة التالية: إذ جاء أحد الرؤوساء إلى العنبر وسأل عن جندي ليس حاضراً في هذه اللحظة فلا يكتفي بالنفي، بل يقوم بالبحث عن المذكور. وإذا سقط شيءٌ ما من أحد الرؤساء على الأرض فليرفعه المرؤوس من على الأرض (إنما خارج الصف والطابور بناءً على طلب فقط). وإذا رأى المرؤس أنَّ أحد رؤوسائه يريد أن يشعل لفافة غليظة فعليه أن يناوله عود ثقاب مشتعل. وإذا أراد الرئيس مغادرة عنبر من العنابر فما عليه إلاَّ أن يفتح له الباب ويغلقه وراءه بهدوء. هذا وإنَّ الجندي المؤدب المهذّب يساعد الرئيس عند خلع المعطف والحزام وعند ركوب السيارة أو الحصان وعند الترجّل. وإنَّ **تأدّباً مفرطاً** ليس عسكرياً (تملّق ورياء)؛ فلا أحدَثَ الجندي انطباعاً من هذا القبيل، ولا فكرّ أيضاً تفكيراً خاطئاً بأن يقدّم للرئيس هدايا أو يوجه إليه دعوات».

الرسالة الثالثة: تاريخها ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٠.

«**للاغتسال** يُعرّى النصف الأعلى. ويغتسل الجندي بالماء البارد.

واستهلاك الصابون معيار للنظافة. يومياً يجب غسل: اليدين (المرة تلو المرة!) والوجه والعنق والأذنين والصدر والإبطين. ويتم تنظيف أظافر اليد بآلة تنظيف الأظافر (لا بسكين). ويجب أن تكون قصة الشعر قصيرة بقدر المستطاع. ويمشّط حتى المفرق. إنّ رؤوساً شعرها كث جعد ليست بعسكرية (أنظر الصورة أيضاً). (كانت الصورة طيّ الرسالة، ملاحظة المؤلف). وإذا اقتضت الضرورة فإنّ على الجندي أن يحلق ذقنه يومياً. وعليه أن يظهر بمظهر الذي حلق ذقنه لتوّه: من أجل الدورية، والتفتيش والتبليغ لدى الرؤوساء ولمناسبات خاصة. وبعد كل اغتسال يجب التجفيف **فوراً** (ذلك الجلد إلى أن يحمرّ)، وإلاّ أصيب المرء بالبرد وتقشّف (تشقق) الجلد). ويجب الإبقاء على منشفة الوجه ومنشفة اليد منفصلتين، كل واحدة على حدة».

* * *

قلّما تتكلّم ليني عن أخيها؛ كانت معرفتها به قليلاً جداً، فلا تعرف ولم تعرف قط ما تقوله عنه بأكثر من أنها «خافت منه للثقافة الواسعة» ثم «فوجئت بعد ذلك لأنه كان غاية، غاية في اللطف» (مثبت من قبل ماريا فان دورن).

وماريا فان دورن نفسها تعترف أنها كانت تهابه، مع أنه كان معها أيضاً «في غاية اللطف». لا بل إنه كان يساعدها في إحضار الفحم والبطاطا من القبو، ولم يحجم عن أن يساعدها عند غسل الأطباق وما شابه ذلك، «الحق كان فيه شيء ما، أجل، ربما كان شيئاً نبيلاً جداً ـ وبهذا شابه هو ليني نفسها». فكلمة «نفسها» هذه كانت ستحتاج إلى تعليق مسهب يتنازل عنه المؤلف.

«نبيل» و«ألماني» و«لطيف غاية اللطف» و«لطيف جداً» ـ فهل يجدي هذا نفعاً؟ ويجب أن يكون الجواب: كلا. وتبقى صورة صغيرة، ليست بصورة، ولو لم تكن هناك الليلة الحمراء مع مارغريت في حجرة علوية صغيرة بحانة من حانات فلينسبورغ والاقتباس الوحيد المؤكد والمباشر (قذارة الخ).، ولو لم تكن الرسائل وأخيراً الهلاك: في الحادية والعشرين من العمر تقريباً، ومعه ابن خاله بسبب الفرار من الجندية والخيانة الوطنية (اتصالات مع الدانمركيين) «ومحاولة بيع وسائل قتالية خاصة» (مدفع مضاد للطائرات) ـ لولا هذا كله لما كان هناك أكثر من ذكرى يسوعيين إثنين يدخنان الغليون، وهما ذوا جلد رقّي، وأقرب إلى الاصفرار، «زهرة، زهرة لا تزال تزهر في قلب مارغريت» وعامّ الحداد الرهيب، عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١. وبذلك فإنَّ لمارغريت في كل الأحوال القول الفصل في صدده (شريط التسجيل): «قلت له أن يروح، أن يروح معي ـ وكنا سنبلغ مرادنا، ولو أنه كان عليّ أن أصير من بنات الهوى ـ ولكنه لم يرغب في أن يتخلّى عن ابن خاله الذي لولاه لكان من الهالكين، وإلى أين كنا سنستطيع الذهاب، وكل هذه الأشياء القذرة هنا وهناك، المصابيح الحمراء اللعينة، القطيفة وأشياء شتى وردية وصور قذرة وغير ذلك، كان هذا حقّاً كريهاً ومقيتاً. لم يبكِ ـ وكيف حدث هذا؟ آه. ما زال الازهرار في أعماقي، الازهرار ـ ولو أنه بلغ السبعين، والثمانين، لظللت أحبه الحب الناعم الحنون. وماذا أطعموه بعد ذلك: الغرب. الغرب بأجمعه في البطن، فقد مات هو ـ جبل الجلجلة والاكرو بوليس والكابيتول (ضحكة لا معنى لها) ـ والفارس البامبرغي فوق ذلك أيضاً. لمثل هذه التفاهات

والسخافات عاش شاب رائع كهذا. لمثل هذه السخافات».

* * *

اعتادت ليني أن تصبح باردة وأقرب إلى الهدوء والتحفظ إذا ما سئلت عن أخيها حين يرى المرء الصور على الجدار، واعتادت أن تكتفي بالملاحظة المفاجئة: «يرقد منذ ثلاثين سنة في تراب دانمركي».

وغنيٌ عن البيان أنَّ سرَّ مارغريت بقي محفوظاً، فلا اليسوعيان ولا ليني أو ماريا فان دورن أطّلعوا عليه؛ ولا يفكّر المؤلف إلاَّ بأن يدفع مارغريت إلى أن تخبر به ليني شخصاً إذا سنحت الفرصة: فلربما كان عزاء بسيطاً لليني أن تعرف أنَّ أخاها أمضى قبل الموت ليلة حمراء مع مارغريت، ابنة الثامنة عشرة. وأغلب الظن أن ليني ستبتسم، وإن ابتسامة ما ستثلج صدرها. وليس لدى المؤلف أية أدلّة على موهبة هاينريش الأدبية، اللهم إلاَّ النصوص المستشهد بها والتي ربّما جاز لها أن تمرَّ باعتبارها نماذج مبكرّة لشعر واقعي صيغ صياغة سمعية بصرية بوسائل لغوية متحررة من القرائن النحوية.

— ٣ —

لكي نتوصّل أخيراً إلى مكنون البيئة والوسط الداخلي يجب علينا أن نقترب الآن من شخصيّة لم يقصدها المؤلف إلاّ متردداً، متردّداً لأنّ لها: الكثير من الصور، ولها الكثير من الشهود، أكثر مما لليني، إلاّ أنه مع ذلك، ولأنّ أو مع أنّ هناك شهوداً كثراً، تنشأ صورة غير واضحة: إنها أبو ليني هوبيرت غروتن، الذي مات في سنة ١٩٤٩ عن عمر بلغ التاسعة والأربعين. وبالإضافة إلى الأشخاص المرتبطين به إرتباطاً مباشراً من مثل ماريا فان دورن وهويزر ولوته هويزر وليني وحمويْ ليني وأخي زوجها فقد كان في الإمكان الوصول بعد بحث طويل إلى اثنين وعشرين شخصاً عرفوه في شتى الأحوال، ومعظمهم عمل معه، تارة مرؤوساً لهم، وفي معظم الأحيان رئيساً لهم؛ ثمانية عشر شخصاً من البناء، وأربعة في مركز وظيفي، مهندسون معماريون وقانونيّون وموظف سجن متقاعد. وبما أنّ كل الأشخاص إلاّ واحداً عملوا معه مرؤوسين وكانوا تقنيين (فنيين) ورسامين وإحصائين ورسّامي خطط تتراوح أعمارهم اليوم بين الخامسة والأربعين والثمانين فلربما كان الأفضل ألاّ نستمع إليهم إلاّ بعد الموافاة بالبيانات عن غروتن عارية عن كل شيء: وهوبيرت غروتن المولود في سنة ١٨٩٩ كان معماراً اجتاز تدريبه المهني وشارك في الحرب العالمية الأولى سنة واحدة («من غير تكليف» و«من غير رغبة» على حد قول هويزر الأكبر)، وترقّى بعد الحرب في وقت قصير إلى حد

كبير عمّال البناء وتزوج سنة ١٩١٩ «من فوق مستواه» أمَّ ليني، إبنة مهندس معماري موظف في منصب عالٍ تقريباً (مدير إنشاءات)؛ وجلب له زواجه من هيلينا باركل مجموعة من أسهم سكك حديدية تركية صارت عديمة القيمة، ولكن قبل كل شيء عمارة للإيجار متينة البنيان يعرف الناس طريقهم إليها، وما هي إلاّ تلك التي ولدت فيها ليني فيما بعد؛ وفضلاً عن ذلك كانت هي التي اكتشفت «ما كان فيه كامناً» (هويزر الأكبر)، فقد حملته على أن يصبح مهندس إنشاءات لثلاث سنوات كره غروتن الشيخ أن يسمعهم يصفونها بأنها سنوات دراسته؛ وقد أحبت زوجته أن تتحدث عن «هذه الفترة الدراسية» بأنها «قاسية، لكنها جميلة»، أما غروتن الشيخ فقد رأى هذا مزعجاً له؛ والظاهر أنه لم ير نفسه طالباً. وبعد إتمام الدراسة، من سنة ١٩٢٤ وإلى سنة ١٩٢٩، كان المهندس المنفذ المختار، ولمشاريع كبرى أيضاً (وليس من غير مساعدة حميه)؛ وفي سنة ١٩٢٩ أسس شركة مقاولات وحاور وداور حتى سنة ١٩٣٣ وقد أوشك على الإفلاس، وبدءاً من سنة ١٩٣٣ وصاعداً شارك في أعمال كبرى وبلغ قمة نجاحه في مطلع ١٩٤٣، وبعد ذلك أمضى سنتين حتى نهاية الحرب في السجن أو في الأشغال الشاقة وعاد في سنة ١٩٤٥ إلى بيته خالياً من كل طموح واكتفى بأن يشكّل مجموعة صغيرة من عمال الطلاء التي «سدّ بها رمقه بشكل جيد» حتى وفاته سنة ١٩٤٩ (ليني). وفضلاً عن ذلك عمل في «تفكيك آلات لبيع ما يصلح من أجزائها قطع تبديل» (ليني).

* * *

إذا سأل المرء شهوداً من خارج الأسرة عن الدوافع المحتملة لطموحه التجاري فإنَّ البعض سيجادل في هذا الطموح، وأنَّ آخرين سيصفونه بأنه «سمة مميزة من سمات طبيعته»؛ إثنا عشر ينكر عليه هذا الطموح، وعشرة يدافعون عن «سمة مميّزة». الكلّ يجادل فيما يجادل فيه أيضاً رجل مسنّ مثل هويزر: وهو أنه لم تكن عنده إلاّ أقل موهبة بصفة مهندس معماري، حتى ولا «بصفة بنّاء بصورة عامة» يعترف له بالموهبة. ومما لا جدال فيه عند الجميع أنه يظهر أنه كان: منظّماً جيّداً ومنسّقاً لم «تنقصه قط القدرة على أن يحيط علماً بالأمور» (هويزر)، حتى عندما كانت شركته تضمّ نحو عشرة آلاف عامل. وجدير بالملاحظة أنَّ من بين الخمسة والعشرين شاهداً من خارج الأسرة خمسةً (اثنين من فريق «اللاطموح» وثلاثة من فريق «السمة المميزة») عرّفوه، وكل واحد بمعزل عن الآخر، بأنه «إنسان تأمّلي يطيل التفكير»؛ وعند السؤال عما يدفعهم إلى هذا التعريف المفاجىء قال ثلاثتهم ببساطة: «أجل، هذا هو إنسان تأملي ـ وإن إنساناً يستغرق في التفكير لهو في الحقيقة إنسان يستغرق في التفكير». إثنان فقط تنازلا فأعطيا معلومات إضافية عند السؤال عما يمكن أن يكون قد فكر فيه طويلاً. أولهما هانيكن، مدير الإنشاءات العلوية المتقاعد، الذي يعيش في الريف ويزرع الأزهار ويربّي النحل (ومن عجب أنه كان يعبّر عن كرهه للدجاج من غير سؤال ـ ففي كل ثاني جملة كان يضمّن حديثه الملاحظة «إنني أكره الدجاج»). فإنه يفسّر طول التفكير عند غروتن بأنه «تأمل وجودي واضح ـ إذا ما سألتني فإنه إنسان يستغرق في التفكير الوجودي وكان دائماً في صراع مع أية أخلاق اعترضت طريقه». والثاني كيرن في نحو الخمسين من

العمر، إحصائي ناشط جداً إلى الآن، وفي أثناء ذلك موظف في خدمة الحكومة الاتحادية، فقد تحدّث على النحو التالي: «الحق أننا اعتبرناه جميعاً حيوياً، وكان هو هذا أيضاً، وبما أنني أنا نفسي لست بحيوي على نحو متطرف (وإنه لاعتراف غير مطلوب، إنما صائب، المؤلف)، فطبيعي أنني احترمته وأعجبت به، ولا سيّما طريقته في التفاوض مع الكبار ـ وهو الذي كان من البسطاء العاديين ـ وطريقته في التعامل معهم على نحو أقرب إلى اللامبالاة وفي الوصول إلى ما يريد ومعرفة من أين تؤكل الكتف في أثناء ذلك، ولكن كثيراً وكثيراً جداً، وعندما كان عليَّ أن أحضر إليه ـ وكثيراً ما اضطررت إلى أن أجيء إليه، كان يجلس إلى مكتبه ويحملق أمامه مفكّراً، وإذا ما سألتني، فإنه كان يحدّق مستغرقاً في التفكير، ولم يكن يفكّر بأشغاله؛ كان هذا دافعاً لأن أجيل الرأي في عدد المرات التي نظلم بها نحن اللاحيويين الحيويين».

وبعد، فإنَّ هويزر الشيخ رفع نظره مدهوشاً حين أريد منه معرفة تفاصيل عن «الإنسان المتأمل» ثم قال: «ما كانت لتخطر الفكرة ببالي قط، أما الآن وأنا أسمع العبارة، فلا بدَّ لي من أن أقول: ليس لما يقولون وجهٌ من الحقيقة فحسب، بل إنه لصحيح. وفي النهاية كفلت أنا هوبيرت في العماد، فقد كان ابن خالي؛ وفي سنوات ما بعد الحرب (المقصود الحرب العالمية الأولى، المؤلف) ساعدته قليلاً، وفيما بعد ساعدني هو على نحو واسع النطاق؛ وحين أسّس محلّه فسرعان ما ألحقني به أيضاً، مع أني كنت قد بلغت الثلاثين، كنت كبير محاسبيه، ووكيل أعماله وشريكه فيما بعد ـ وصحيح أنه قلَّ أن ضحك، لم يكن فيه شيء من المقامر فحسب، بل كان فيه الكثير منه أيضاً. وحين وقعت الكارثة بعد

ذلك لم أعرف لما فعل هو ذلك، ربما كانت عبارة «متأمل يستغرق في التفكير» توضيحاً لذلك. إلاَّ أنَّ (ابتسامة شامت) الشيء الذي فعله فيما بعد بصاحبتنا لوته لم يكن تأمّلاً ولا طول تفكير على الإطلاق».

ما من أحد من المساعدين السابقين الواحد والعشرين الأحياء يجادل في أنه كان سمحاً كريماً «لطيف المعشر، رزيناً، إنّما لطيف».

إنَّ عبارة صرّح بها غروتن في سنة ١٩٣٢ عندما كان على أبواب الإفلاس لهي عبارة مؤكدة لأنَّ شاهدين كانا قد نطقا بها حين سئلا، كل واحد على حدة، ولا بدَّ أن يكون هذا بعد سقوط برونينغ بأسابيع قليلة. وتستشهد ماريا فان دورن بالعبارة على النحو التالي: «يُشمُّ منه رائحة الخرسانة والأطفال ومليارات الأطنان من الإسمنت ورائحة المخابىء والثكنات»، على حين لم يتفوّه هويزر بغير العبارة على الشكل التالي: «يشمُّ منه رائحة المخابيء والثكنات والأطفال، رائحة الثكنات لمليونين من الجنود على الأقل. وإذا ما تخطّينا نصف العام القادم فنكون قد بلغنا الغاية». نظراً إلى المعلومات الوفيرة الموجودة في متناول اليد من أجل غروتن الشيخ فليس في الإمكان هنا تسمية كل مصدر من مصادر المعلومات،. المفروض أنه لم يُدَّخر وسع للحصول على معلومات موضوعية على وجه التقريب من أجل شخصية ثانوية أيضاً ليست بمهمة إلاَّ من وراء الستار.

وفيما يتعلق بماريا فان دورن لا بدَّ من التوصية ببعض الحيطة والحذر في حال غروتن الشيخ؛ وبما أنها كانت (وما زالت تماثله سناً تقريباً وأنها جاءت من القرية نفسها مثله هو، فليس بمستبعد أنها كانت مغرمة به وكانت قد نظرت إليه بعين الإعجاب على الأقل وأنّها متحيّزة.

على كل حال جاءت في التاسعة عشرة من عمرها خادمةً إلى غروتن الذي كان حديث الزواج وكان قد ألهب عواطف هيلينا باركل نحوه، وقد أتمت السابعة عشرة لتوّها، وذلك قبل نصف سنة في مناسبة حفلة راقصة للمهندسين المعماريين كان غروتن قد دعا إليها أبا هيلينا؛ وليس في الإمكان الاستجلاء بصورة تامة ما إذا كان قد شغف بها كثيراً؛ وقد يُشكُّ فيما إذا كان صواباً أن يدخل معه إلى زواجه الحديث جداً صبيّة فلاحة في التاسعة عشرة يقول عنها كل إنسان أنّها ذات حيوية جامحة كل الجموح ومتقلّبة والذي لا يتطرق الشك إليه هو أنَّ كل أقوال ماريا تقريباً عن أم ليني سلبية بعض الشيء، بينما ترى أبا ليني في ضوء دائم لعبادة الصور وتقديسه، كما هي الحال تقريباً في ضوء سراج زيتي يضيء طويلاً وشمعة طبيعية أو كهربائية أو مصباح نيون أمام صورة لقلب عيسى أو القديس يوسف، بل إنَّ بعض أقوال فان دورن يسمح بالاستنتاج أنها ربما كانت مستعدة لأن تكون لها مع هوبيرت غروتن علاقة خيانة للزواج، فحين قالت على سبيل المثال إن الزواج صار من سنة ١٩٢٧ وصاعداً آيلاً إلى الإنهيار، أما هي فكانت مستعدة لأن تمنحه كل شيء لم تعد تستطيع زوجته أو لم تعد ترغب زوجته أن تمنحه إيّاه، فإنَّ هذا لتلميح واضح نوعاً ما، وإذا ما تعمّق أيضاً مثل هذا التلميح بالملاحظة الإضافية المهموس بها همساً، إنما على استيحاء: «في الواقع كنت آنذاك إمرأة في أول شبابها»، فإنَّ هذا واضح وضوح الشمس. وإن يوجّه إليها السؤال إثر ذلك عما إذا قصدت بمثل هذا التلميح أنَّ الألفة التي تعدّ لبّ علاقة زوجية قد فترت، فإنَّ فان دورن تقول بطريقتها المباشرة فوق العادة: «أجل، إني لأقصد هذا»، وما

تفصح عنه بعد ذلك عيناها العسليتان اللتان لا تزالان معبّرتين، على نحو صامت بطبيعة الحال. يحمل المؤلف على الافتراض أنها اكتسبت هذه المعرفة لا بصفتها مراقبة للحياة الأسروية فحسب، بل بصفتها قيّمةً أيضاً على بياضات السرير. أضف إلى ذلك أنها إذا سئلت عما إذا كانت تعتقد أنَّ غروتن «بحث في مكان ما عن السلوى»، نفت هذا بشدّة وبصورة نهائية وأضافت ـ والمؤلف على ثقة تقريباً أنه استرق السمع في أثناء ذلك إلى نشيج حبيس في صوتها ـ: «مثل راهب عاش، مثل راهب، مع أنه لم يكن راهباً».

* * *

أمّا صور المرحوم هوبيرت غروتن ـ ولا يعتدّ هنا بصور الطفل الرضيع، ويستعان جدّياً بصورة التخرّج في المدرسة كصورة أولى ـ، فإنَّ المرء إذا نظر إليها رآه في سنة ١٩١٣ شاباً طويل القامة رفيع القوام، أشقر الشعر طويل الأنف «وحازماً» نوعاً ما، ذا عينين دعجاوين، غير متخشّب مثل رفاقه المصوّرين الذين يبدون كأنهم مستجدون، وسرعان ما يؤمن المرء بالتوقع الذي عبّر عنه المعلم والقس والأسرة شفوياً وبصورة أقرب إلى الشكل الأسطوري ونقلوه نقلاً متجانس اللفظ: «سيحقّق هذا شيئاً ما ذات مرّة». أي شيء؟ والصورة التالية تظهره صبيّاً متعلّماً استلم لتوّه وثيقة إنهاء فترة التعلّم، في الثامنة عشرة من عمره وفي سنة ١٩١٧: والتعبير «متأمل ممعن في التفكير» المطبّق عليه فيما بعد يجد في هذه الصورة غذاءً سيكولوجياً. إنَّ غروتن شاب جاد، ويرى المرء هذا من النظرة الأولى. أمّا الطيبة التي يسهل تمييزها فلا تتناقض إلاَّ ظاهرياً

مع مضاء العزيمة الواضح وقوة الإرادة؛ وبما أنه لا يتصوّر دائماً إلاً صوراً من أمام ـ إلى آخر صوره التي صوروها له في سنة ١٩٤٩ بآلة تصوير صندوقية الشكل تافهة حقيرة خاصة بأخي زوج ليني، هاينريش بفايفر الآنف الذكر ـ فلن تكون نسبة طول الأنف إلى باقي الوجه ظاهرة أبداً أو يمكن أثباتها، وبما أنّ رسام الوجوه المشهور الذي رسمه في سنة ١٩٤١ رسماً طبيعياً (بالزيت على قماش كتان، ليس برديء مع أنه سطحي للغاية ـ وكان في الإمكان العثور على الصورة في مجموعة خاصة في بيئة بغيضة بصورة خاصة والتفرّج عليه قليلاً)، لم يغتنم حتى هو الفرصة ليرسم غروتن مرة على الأقل رسماً نصفياً من الجانب، فإنَّ هذا يبقى مجرّد ظن أنه ربما بدا وكأنه خرج من لوحة لهيرونيموس بوش، إذا ما جرّده المرء من توافه الأزياء.

* * *

كفى ماريا أن تلمّح إلى أسرار الغسيل، وتكلّمت بصراحة عن أسرار المطبخ. «لم تحبّ التوابل القوية، أما هو فقد أحبَّ كل ما هو متبلّ بتابل قوي ـ وما لبث أن أسفر هذا عن متاعب وصعوبات لأنه كان عليَّ أن أتبّلُ كل شيء بإضافة التابل إليه مرتين في معظم الأحيان: بالنسبة إليها على نحوٍ تفه خالٍ من الطعم والنكهة، وبالنسبة إليه على نحو شديد قوي الأثر؛ ثم أدّى هذا إلى أنه فيما بعد كان يتبّل بنفسه كل شيء على المائدة مرة أخرى؛ وعرف في القرية وهو صبي أنَّ المرء استطاع أن يسرّه بقطعة خيار مخلّلة أكثر منه بقطعة كعك».

إنَّ الصورة الأخرى الجديرة بالذكر هي صورة لرحلة شهر العسل التي

أدّت إلى لوتسن. وما من شكٍّ ممكن: فالسيدة هيلينا غروتن، اسم أسرتها باركل، تبدو فاتنة ساحرة: رقيقة ولطيفة، ظريفة وناعمة؛ ويظهر عليها ما لا يجادل فيه كل المطّلعين، حتى ماريا، وهو أنها تعلّمت أن تعزف شومان وشوبيرت وتتكلم الفرنسية بطلاقة تقريباً، وتقوم بشغل الصنّارة والتطريز وغير ذلك، وينبغي القول: إنَّ المرء يرى أنه ربما ضاعت بها مثقفة، لا بل ربما ضاع بها مشروع مثقفة يسارية؛ وطبيعي أنها، وكما علّمها المرء، لم «تمدَّ يدها» قط إلى زولا، وفي وسع المرء أن يتصوّر مدى هولها حين تسأل ابنتها ليني بعد ذلك بثماني سنوات عن تبرّزها (تبرّز ليني). وأغلب الظن أنَّ زولا والبراز كانا في نظرها مفهومين متساويين تقريباً. وأغلب الظن أنه لم تكن لديها الموهبة لأن تكون طبيبة، غير آنه لمؤكد أنَّ نيل إجازة الدكتوراة في تاريخ الفن ما كان سيسبّب لها أية صعوبات. وعلى المرء أن يكون منصفاً: إذا وفّر المرء لها بعض الشروط والأسباب التي لم تتوافر لها؛ كأن تتلقى تعليماً أساسه تحليلي أكثر منه رثائي؛ وأن يكون لها روح، ولا روحاً رقيقة حساسة (ولو)، ولو أنها كانت بمنجاة من كل الحساسيات المفرطة التي حدّدت حياتها في المدرسة الداخلية لربما كان في وسعها أن تكون طبيبة جيدة. ومن المؤكد كل التأكيد أنها كانت ستقرأ بروست أكثر مما كانت ستقرأ جويس ـ ولو أن مثل هذه الكتب الخليعة المليئة بالمزالق كانت في متناولها مجرّد مشروع قراءة، لا غير؛ وبذلك قرأت على كل حال إنريكا فون هاندل ما تسيتي وماريا فون إبنر إشينباخ وقرأت قراءة كافية وافية في تلك المجلة الأسبوعية الكاثوليكية المصوّرة التي كانت قيمتها في تلك الأثناء قيمة القديم المستعمل والتي كانت **آنذاك** الشيء الأكثر

عصريّة من كل ما هو حديث وعصري في هذا المجال، وبالقياس إلى ذلك «إصدار» الأعوام ما بين ١٩١٤ و ١٩٢٠، ثمّ إذا علم المرء أنه، حين بلغت السادسة عشرة، أُهدي إليها من قبل والديها اشتراكُ في مجلّة «هوخلاند»، عرف المرء أنْ مطالعاتها لم تكن تقدمية فحسب، بل كانت أكثر القراءات تقدميّة؛ وعلى الأرجح أنها كانت مطلّعة على خير وجه على ماضي إيرلندة وحاضرها من خلال قراءة مجلتها هوخلاند، وأنَّ أسماء من مثل بيرسي وكونوللي، وحتى أسماء من مثل لاركن وتشيسترتون ليست غريبة عنها، وبواسطة أختها إيرينه شفايغرت، اسم اسرتها باركل، التي لا تزال على قيد الحياة و«تنتظر موتها برباطة جأش» (اقتباس ذاتي) في مأوى عجزة لأفضل سيدات في سن الخامسة والسبعين في مجتمع ببغاوات تتكلم برقة وحنوّ، قد ثبت أنَّ أم ليني كانت وهي صبيّة «من القارئات الأوائل لويليام بتلر ييتس في الترجمات الألمانية، وبكل تأكيد ـ وكما أعرف أنا لأنني أهديت لها مؤلفات ييتس النثرية التي ظهرت في سنة ١٩١٢ وطبعاً مؤلفات تشيسترتون النثرية أيضاً». وينبغي ألاّ تستخدم هنا على الإطلاق ثقافة شخص ما أو عدم ثقافته له أو عليه، إنها لا تستخدم إلاَّ لإنارة خلفيّة تُظهر في سنة ١٩٢٧ ظلالاً مأساوية. شيء واحد مؤكد كلَّ التأكيد أنَّ أمَّ ليني لم تكن حظيّة مقموعة ـ أيّاً كان الشيء الذي يمكن أن يكون قد قمع فيها وبها: إذا ما نظر المرء إلى صورة رحلة شهر العسل من سنة ١٩١٩؛ إذ أنها لا تبدو شهوانية جداً ولا موفورة الصحة ولا تفيض حيوية على الإطلاق، بينما يفيض هو حيوية ويمتلىء صحة؛ ويحتمل أن يكون كلاهما قد قام بمغامرة الزواج من غير تجربة في الحياة الجنسية ـ

إنَّما التشكيك في حبّ كل منهما للآخر غير مجوّز ـ، ويحتمل أنَّ غروتن لم يتصرّف في الليالي الأولى تصرّفاً فظاً. إلاَّ أنه ربما سلك مسلكاً فيه شيء من اللهفة ونفاد الصبر.

وفيما يتعلق بعهده بالكتب فإنَّ المؤلف لا يريد أن يطمئن على الإطلاق إلى حكم منافس تجاري باق على قيد الحياة موصوف بأنه «عملاق في سوق البناء» قال حرفياً: «هذا والكتب ـ ربما دفتر الأستاذ الخاص به، قد يكون هذا هو الكتاب الذي أثار اهتمامه». كلا، لقد ثبت أنَّ هوبيرت غروتن قرأ في الواقع القليل من الكتب، مضطراً إلى قراءة الكتب العلمية في أثناء دراسته الهندسية، وما عدا ذلك فقد ثبت أنه طالع سيرة مبسّطة لنابليون، وفضلاً عن ذلك وطبقاً لأقوال ماريا وهويزر وما أكدّه كلاهما على نحو متطابق اللفظ أنّ «الجريدة كفته والراديو فيما بعد».

* * *

بعد أن كان في الإمكان اكتشاف مكان السيدة شفايغرت العجوز وضح أيضاً تعبيرٌ لماريا يشيع في الحيّ على نحو غير واضح ولم يكن في الإمكان إيضاحه إلى الآن وبقي في دفتر ملاحظات المؤلف من غير شطب زمناً طويلاً بحيث إنه كاد أن يكون ضحيّة نفاد الصبر؛ إذ أنها (ماريا) اتهمت السيدة غروتن بأنه كان قد «جنّ جنونها بأصدقائها الفنلنديين». وبما أنه لا يمكن أن يكون المقصود بالفنلنديين Finnen المرض الجلدي بنفس الاسم Finne (n) (ماريا: الجلد؟ كلا، كان جلدهم خلواً من كل عيب، أقصد هؤلاء الفنلنديين الأقحاح»)، وبما أنه لم يكن في

الإمكان اكتشاف أية علاقة ولا أدنى علاقة بفنلندة في أي قول من الأقوال الممكنة المنال، فلا بدَّ أن يكون المقصود بهذا التعبير «الفنيين Fenier» (سكان ايرلندة الأصليين م.)،إذ أنَّ شغف السيدة غروتن بايرلندة اتخذ فيما بعد أشكالاً رومانتيكية، لا بل إنَّ بعضها كان عاطفياً. وعلى أية حال كان ييتس وبقي شاعرها المفضل.

بما أنه ليست هناك أية رسائل متبادلة بين غروتن وزوجته، اللهم إلاَّ أقوال فان دورن التي هي في هذه الحال موضع شك وأي شك، فلا يبقى إذاً إلاَّ التحليل السطحي لصورة شهر العسل التي التقطت في نزهة بحرية في لوتسرن، وبتعبير سلبي: إنَّ منظر هذين الزوجين لا يدل على انسجام شهواني أو جنسي. لا والله. والواضح أيضاً في هذه الصورة المبكرة الشيء الذي يتأكد في صور لاحقة كثيرة: وهو أنَّ ليني تشبه أباها شبهاً كبيراً وأنَّ هاينريش كان أكثر شبهاً بأمه، مع أنَّ ليني أكثر شبهاً بأمها من حيث التوابل على الخبزات الصغيرة، ومن حيث حساسيتها الشعرية والموسيقية فقد ثبت أيضاً أنها تشبه أمها في ذلك. والسؤال الفرضي أية أطفال كان سيسفر عنهم مشروع زواج بين ماريا وغروتن يمكن الإجابة عنه هنا بالنفي أسهل من الإجابة عنه بالإيجاب: المؤكد كل التأكيد أنهم ما كانوا سيكونون أمثال هؤلاء الذين كان سيتذكرهم على الفور بعد عقود من الزمن راهبات لهن جلد كالرق ويسوعيون. وأيّاً كان الشيء الذي حصل بين كلا الزوجين على نحوٍ خاطيء أو نحوٍ يكشفه سوء الفهم فقد أكّد صفوة العارفين بحياة غروتن الأسروية، لا بل قد تأكّد أيضاً من قبل فان دورن الغيرى: أنه لم يكن قط غير مؤدب ولا مجرّداً من المروءة أو فظاً غليظ القلب معها، ويبدو

مؤكداً أنها «عبدته». إنَّ السيدة العجوز شفايغرت، اسم اسرتها باركل، التي لا يدلّ مظهرها لا في كثير ولا في قليل على بيستس أو تشيسترتون، اعترفت صراحة أنه « لم تهمّها كثيراً» مخالطة صهرها وأختها أيضاً بعد عرسهما: كان أحبّ إليها لو رأت أختها متزوجة من شاعر، من رسام، من نحات أو على الأقل من مهندس معماري؛ ولم تقل على فورها أنَّ غروتن كان في نظرها سوقيّاً فظّاً أكثر من اللازم، إنما عبّرت عن ذلك تعبيراً سلبياً: «لم يكن مهذّباً التهذيب الكافي»؛ وعند السؤال عن ليني لم تتفوه إلاّ بعبارة دقيقة: «اتركها عَ الله»، وبعد إلحاح لتقول المزيد عن ليني بقيت عند عبارتها «اتركها عَ الله»، بينما طالبت بهاينريش بلا تردد من أجل خاطر آل باركل؛ حتى الواقع أنّ ذنب موت ابنها إرهارد هو «من الناحية العملية في عنق هاينريش، وما كان سيفعل شيئاً كهذا قط بدافع شخصي»، حتى هذه الحقيقة لم تستطع أن تقلّل من ميلها إلى هاينريش؛ فقد وصفته قطعاً بأنه «متطرف، جدّ متطرف، لكنه موهوب، إلى حد العبقرية»، ويخيّل للمؤلف على نحو متباين أنّها لم تأسف جداً لموت ابنها المبكر، بل اقتصرت على عبارات مثل «الزمن المصيري العظيم» ولا سيّما أنه بلغ بها أن قالت بخصوص ابنها وهاينريش أيضاً قولاً غاية في الغرابة تطلّب مراقبات متنوعة وتصحيحات تاريخية. فقد قالت بالحرف الواحد: «بدا كلاهما وكأنهما سقطا صريعين عند لانغيمارك». وإذا فكّر المرء في معضلة لانغيمارك، ومعضلة أسطورة لانغيمارك، وإذا فكّر في الفرق بين ١٩١٤ و ١٩٤٠ وفكرّ في الكثير من سوء الفهم المعقّد الذي يجب ألاّ يشرح هنا، فلربما استطاع المرء أن يفهم أنَّ المؤلف ودّع السيدة شفايغرت بأدب، ولكن على

نحوٍ بارد، وإن لم يكن نهائياً؛ وإذا علم فيما بعد من الشاهد هويزر أنّ الزوج شفايغرت الذي ظل حتى ذلك الحين غريباً مريباً، قد أصيب في لانغيمارك بإصابة خطيرة وأمضى ثلاث سنوات في مستشفى عسكري» فالرصاص كان قد أعطبه كليّاً (هويزر)، وأنه تزوج سنة ١٩١٩ إرينا باركل التي كانت تمرّضه متطوعةً، وأنَّ الابن ارهارد انبثق عن هذا الزواج. أما السيد شفايغرت الذي أدمن على المورفين إدماناً شديداً وهزل بحيث إنّه لم يجد إلاً بمشقة محلاً استطاع أن يتودّد فيه إلى امرأة» (هويزر)، فقد توفي في سنة ١٩٢٣ عن سبعة وعشرين عاماً، بمهنة طالب. فلربَّ شخص قد يخطر بباله أنَّ هذه المرأة شفايغرت الكثيرة الشبة بسيّدة من حيث المظهر والكياسة تتمنّى في سرّها لو أنَّ زوجها قتل عند لانغيمارك. أما رزقها فقد كسبته سمسارة عقارات.

* * *

ابتداءاً من سنة ١٩٣٣ تتحسّن الحالة في محل غروتن، في أول الأمر على الدوام، فمن سنة ١٩٣٥ صعوداً إلى فوق، ومن سنة ١٩٣٧ رأسيّاً؛ وطبقاً لأقوال معاونيه السابقين وبعض الخبراء فقد كسب بالسور الغربي كسباً «جنونياً وسخيفاً»، ولكن طبقاً لأقوال هويزر فإنه كان قد اشترى أيضاً بدءاً من سنة ١٩٣٥ «أفضل المختصين بالتحصينات والمخابىء المرتشين لقاء مال كثير»، وذلك منذ زمن طويل وقبل أن «يتمكن من استخدامهم». «لقد عملنا دائماً بقروض تسبّب لي مبالغها الدوار إلى الآن». لقد راهن غروتن ببساطة على ما سمّاه «عقدة ماجينو»، عقدة كل رجالات الدولة؛ «وحتى لو أنَّ اسطورة ماجينو

ستكون محطمة منذ زمن طويل فسيبقى لها تأثيرها (من أقوال غروتن نقلاً عن هويزر) وسيستمر تأثيرها دائماً، إلاّ الروس فليست عندهم هذه العقدة؛ ولأنَّ حدودهم طويلة جداً، فليس لديهم المال الكافي لذلك، إلاَّ أنه سيتضح يوماً ما فيما بعد إن كان هذا لسعدهم أم لنحسهم، لفلاحهم أم لهلاكهم، وعلى أية حال فإنَّ هتلر عنده هذه العقدة، ومع أنه يروّج للعمليات الحربية المتنقلة ويطبقها، **فهو نفسه** عنده عقدة التحصينات والمخابىء. ولسوف ترى» (قيل هذا بداية ١٩٤٠ وقبل احتلال فرنسا والدانمرك).

على أيّة حال: ففي سنة ١٩٣٨ تضخّمت شركة غروتن ستة أضعاف ما كانت عليه في سنة ١٩٣٦، على حين تضخّمت أيضاً في سنة ١٩٣٦ ستة أضعاف ما كانت عليه في سنة ١٩٣٢؛ وفي سنة ١٩٤٠ تضخّمت ضعفي ما كانت عليه سنة ١٩٣٨، و(نقلاً عن هويزر) «لم يعد في إمكان المرء أن يقرّر أية نسبة على الإطلاق في سنة ١٩٤٣».

يؤكدّ الجميع خصلةً من خصال غروتن الشيخ، ولو بكلمتين مختلفتين: فبعضهم يسمونه «شجاعاً» وآخرون يسمّونه «جريئاً»، وإنَّ قلّةً ما قوامها نحو شخصين أو ثلاثة لتسمّيه «مبتكراً». ويعترف لغروتن اختصاصيون حتى اليوم أنه استخدم في وقت مبكر أفضل المختصين في المخابىء ولا ريب بعد أن حملهم على أن يتركوا أرباب عملهم وأنّه شغّل فيما بعد من غير مبالاة أيضاً مهندسين وفنيين فرنسيين كانوا يشاركون في إنشاء خط ماجينو وأنه، (كما يقول موظف سابق في التسليح عالي الشأن لا يريد أيضاً أن يذكر اسمه) «عرف تمام المعرفة: أنَّ الاقتصاد بالأجور والرواتب سخف وهراء في أزمان التضخم

المالي». وكان غروتن يدفع أجوراً عالية. وفي الفترة التي نحن بصددها يبلغ من العمر الواحدة والأربعين. وإنَّ بذلات مفصّلة من «قماش غالٍ، إنّما ليس قماشاً يلفت غلاؤه النظر أبداً» (لوته هويزر) قد صنعت من «رجل حكومي سيّداً حكومياً»؛ ولم يخجل من حداثة ثرائه وقد قال أمام أحد العاملين معه (وهو فيرنر فون هوفغاو، مهندس معماري من أسرة عريقة) «إنَّ الغنى كلّه كان ذات مرة جديداً، وثراؤك أيضاً إذ صرت واسع النعمة، ولم تكن بعد ثرياً». وأبى غروتن أن يبني فيلا واحدة في الحي الإلزامي لناس أثروا في ذلك الوقت (وقد نطق الفاء في كلمة «فيلا» صوتاً مهموساً لا مجهوراً أو انفجارياً حتى آخر عمره رغم تنبيهات كثيرة).

* * *

إنه لأمر لا مبرّر له أن يعتبر غروتن إنساناً بسيطاً فظّاً حقّق نجاحاً كبيراً في عمله؛ وممّا يتمتع به أنَّ لديه قدرة لا يمكن اكتسابها بالتعلّم ولا يمكن أن تورث: إنه عليم وخبير بالناس، فكل مستخدميه والمهندسون المعماريون والفنيون والتجار يعجبون به، ومعظمهم يبجلونه. إنه يرسم في دقة وعناية خطة تعليم ابنه وتربيته ويتتبعها بدقة ويراقبها. ويزور الصبي مراراً وتكراراً وقلّما يجيء به إلى البيت لأنه ـ على حدّ قول مفاجيء مؤكد (هويزر) ـ لا يريده أن يوسّخ نفسه بأعمال وأشغال. «ويفكرّ له بمهنة عالم، لا أيّ أستاذ جامعي، بل واحد يشبه ذلك الذي بنينا له الفيلا:» (هويزر ـ ونقلاً عن هويزر فالمسألة كانت مسألة أستاذ مشهور نوعاً ما ومختص بالدراسات الرومانية، لا بدَّ أن يكون غروتن

قد أعجب بمكتبته وعالميته «ومعاشرته المباشرة والودية للناس».) وبصبر نافد يجد أنَّ ابنه، حين بلغ الخامسة عشرة، «لم يعرف الأسبانية بعد معرفة جيدة كما كنت قد توقَّعت». ـ

شيء واحد لم يفعله قط: أن يعدّ ليني «بنتاً غبيّة»، فسخطها بمناسبة تناول القربان الأول لم يغضبه على الإطلاق، إنما ضحك لذلك ضحكاً عالياً (وإنه لنادر جداً إثبات هذا في حياته)، وكان تعليقه: «إنَّ هذه لتعرف بالضبط ما تريد» (لوته هويزر).

بينما تزداد زوجته شحوباً وتتباكى بعض الشيء، بل وتتظاهر بشيء من التديّن فإنه يدخل في «سن الكهولة». شيء واحد لم يكن لديه ولن يكون لديه حتى نهاية عمره: الشعور بالنقص أو الإحساس بالدونية. ربما حلم أحلاماً ـ فيما يتعلق بابنه حتماً، وبكل تأكيد فيما يتعلق بتمنيّاته بمعرفة ابنه بالاسبانية. وبعد مضي ثلاث عشرة سنة لم تعد هناك أية علاقة زوجية بينه وبين زوجته (طبقاً لماريا فان دورن)، إنّما لم يخنها بعد، وعلى أية حال فلم يخنها مع نساءٍ أخر. إنه ينفر بصورة مفاجئة من نكات بذيئة يطلقها على المكشوف حين يشارك مضطراً بين الحين والآخر في «السهرات خاصة بالرجال»، وحوالي الثانية أو الثالثة صباحاً لا بدَّ من بلوغ طور معين يصبو فيه أحد السادة الرجال إلى «شركسية حامية الدم». إنّ تعفّف غروتن من جهة النكات البذيئة «والشركسيّات» يعرّضه لسخرية خاصة يتقبلّها بارتياح (نقلاً عن فيرنر فون هو فغاو الذي رافقه مدة سنة بين الحين والحين إلى مثل هذه السهرات الخاصة بالرجال).

* * *

أيّ إنسان هو هذا، يسأل نفسه القارىء الذي ازداد فروغ صبره بالتأكيد، أيّ إنسان هو هذا الذي يعيش عيشاً عفيفاً إذا صحّ التعبير ويكسب من استعدادات حربية ومن الحرب التي شبت نيرانها وارتفعت مبيعاتها (طبقاً لهويزر) من نحو مليون سنوياً في سنة ١٩٣٥ إلى مليون شهرياً في سنة ١٩٤٣، ولما أن مبيعاته لا بدّ أن تكون قد بلغت في سنة ١٩٣٩ مليوناً كل ثلاثة أشهر على كل حال فإنه حاول كل شيء في هذه السنة أن يسحب ابنه من هذه المسألة التي سيغتني هو نفسه بها؟

* * *

ينشأ في سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٠ توتّر أعصاب، لا بل تنشأ مراراً بين الأب والإبن العائد إلى البيت والذي هبط من جبال الغرب الثلاثة وجفّف في مكان ما على مسافة أربع ساعات مستنقعات ولربما استطاع أن يقرأ في أثناء ذلك أيضاً سيرفانتس بالنص الأصلي ـ نزولاً عند رغبة الأب الملحة الذي دفع ليسوعي أسباني مكافأة مجزية من أجل ذلك. وفي الفترة الواقعة بين حزيران وأيلول يزور الأبن الأسرة نحو سبع مرات، وبين أواخر أيلول سنة ١٩٣٩ وبداية نيسان سنة ١٩٤٠ نحو خمس مرات وقد رفض أن يستخدم «نفوذ» أبيه «الطويل الباع» الذي وضعه تحت تصرّفه صراحةً والذي كان «شيئاً سهلاً» عليه أن «ينتدبه إلى مكان مناسب» (كل الاقتباسات لهويزر الأكبر ولوتّه)، أو أن يسرّحه نهائياً بصفته معاوناً مهماً للحرب. أيُّ ابنٍ هو هذا الذي إذا سئل عن صحّته وأوضاعه المعيشية في الجيش تناول إلى مائدة الفطور كتاباً من

الجيب عنوانه: رايبرت، (تعليم الخدمة في الجيش. طبعة لرماة المدفعية المضادة للدبابات)، أعاد النظر فيها ،نقحّها شخص اسمه الدكتور ألمنديغر، رائد في الجيش، وقرأ منه ما لم يخبر به بعد عن طريق المراسلة: إنه بحث من خمس صفحات تقريباً عنوانه: «التحية العسكرية» والذي يصف بالتفصيل كل أنواع التحية العسكرية، في السير والاستلقاء والوقوف والجلوس وعلى ظهر الحصان وفي السيارة ومَنْ يجب أن يقدّم التحيّة وأن تقدَّم له التحية وكيف ينبغي أداؤها. ويجب أن يتصورّ المرء أنَّ المسألة هنا هي مسألة أب لا يقبع دائماً وأبداً في البيت وينتظر زيارة ابنه؛ إنه أبٌ تزوّد في أثناء ذلك بطائرة حكومية (وتستمتع ليني بالطيران أعظم استمتاع!)، أب يجب عليه أن يتفرغ بمشقة لكل قضيّة على حدة بصفته رجلاً ليس مرهقاً بالعمل فحسب، بل إنَّ لديه من الأمور البالغة الأهمية ما يشغله وقتاً إضافياً كثيراً، وعليه أن يلغي مواعيد مهمة ويلغي مواعيد مع وزراء (!) بأعذار تكون في كثير من الأحيان واهية (طبيب الأسنان وهلمّ جرًا)، وذلك لكي لا تفوته ملاقاة ابنه المحبوب ـ الذي سيقرأ له من بعد ذلك تعليمات التحية العسكرية من كتاب رايبرت هذا الذي أعاد النظر فيه ونقحّه شخص يدعى د. ألمنديغر، ابنٌ يود لو يراه مديراً لمعهد تاريخ الفن، وإذا اقتضت الضرورة، مديراً لمعهد الآثار في روما أو فلورنسة؟

إذا ما احتاج الأمر هنا إلى تعليق آخر بأنَّ «سويعات القهوة» والإفطار والغداء «لم تكن مزعجة غير مريحة لكل المشتركين فحسب، وأنها ازدادت إزعاجاً على إزعاج وزاد إنهاكها للأعصاب إنهاكاً على إنهاك، بل إنها صارت أخيراً مخيفة» (لوته هويزر) أمّا لوته هويزر،

اسم أسرتها بيرنغتن، والتي كانت آنذاك في السادسة والعشرين من عمرها، وكنّة الوكيل المستشهد به كثيراً وكبير المحاسبين أوتّو هويزر، فقد كانت تخدم سكرتيرة عند غروتن الذي شغل زوجها فيلهيلم هويزر أيضاً رسّاماً لفترة قصيرة. وبما أنَّ لوتّه كانت مستخدمة عند غروتن في الأشهر الحاسمة من سنة ١٩٣٩ وكانت تشارك بين حين وآخر في «سويعات القهوة» مع الإبن الموجود في إجازة، فلربما لن يكون في الإمكان ذكر حكمها هنا على غروتن نفسه إلاَّ عرضاً، والذي وصفته بأنّه «فاتن، غير أنه آنذاك وفي نهاية المطاف مجرم». ويطيب لهويزر الشيخ أن تداعبه فكرة «علاقة شهوانية، لكنها بطبيعتها أفلاطونية» بين كنّته وغروتن «الذي تدخل في نطاق تأثيره الشهواني مع فارق في السن لا يتجاوز أربع عشرة سنة». وأكثر من ذلك أن نظريات شاعت، ومن عجب أن ليني أشاعتها، لكنها لم تتأكد من لدن هاينريش بفايفر غير الموثوق به على نحو مباشر، بل على نحو غير مباشر) ، وهي أنَّ لوته «كانت تمثل للوالد آنذاك على الأرجح إغواء حقيقياً، ولا أعني بذلك **غاويتي**». وعلى أية حال فإنَّ لوته تصف القهوات العائلية التي كان يأتي إليها غروتن الشيخ بالطائرة من برلين أحياناً أو من ميونيخ، ومن وارصو أيضاً، كما يقال، «بأنها مخيفة»، «ولا تطاق على الإطلاق». وقد وصفت ماريا فان دورن الوجبات بأنها «رهيبة، رهيبة للغاية»، على حين اقتصرت ليني على التعليق «كريهة، كريهة، كريهة».

ثبت، لا بل عن طريق شاهد متحيّز مثل ماريا فان دورن، أن هذه الإجازات «دمّرت ببساطة» السيدة غروتن؛ «فلم تكن لتحتمل ما كان

يجري أمامها». وتتكلم لوته هويزر بوضوح لا لبس فيه عن «تغيير فكري لقتل الأب» وتزعم أنّ الغاية السياسية الهدامة للاقتباسات من كتاب رايبرت المذكور كانت «ستصيب غروتن، ذلك لأنه كان يقف في غمار السياسة، وأكثر من ذلك أنه عرف وكان قد عرف أسراراً سياسية عظيمة الشأن: مثلاً بناء ثكنات في منطقة الراين قبل احتلالها بزمن طويل ـ والبناء المخطط لمخابىء ضخمة ـ، ولهذا رفض أن يسمع في البيت أيَّ شيء عن السياسة».

***

لم تعش ليني هذه الأشهر التسعة المريرة بحدّة، ومن المحتمل أنها لم تعشها بانتباه بالغ مثل مشاهدين آخرين، ففي أثناء ذلك ـ أي في تموز سنة ١٩٣٩ تقريباً ـ استجابت رجلاً، لا، كانت ستستجيبه لو أنه طلب الاستجابة؛ صحيح أنها لم تعرف إذا كان هو حقاً الرجل المناسب الذي انتظرته في لهفة، إلاّ أنها عرفت أيضاً أنها لن تعرف هذا إلاّ إذا كان قد طلب هو الاستجابة. وكان هذا ابن خالها إرهارد شفايغرت، ابن ضحية لانغيمارك وتلك السيدة التي قالت عنه إنه بدا وكأنه سقط صريعاً عند لانغيمارك. وبما أنّ إرهارد كان لديه «استعداد عصبي حساس للغاية» (والدته) فإنه تحطّم على سور تسلّق ثقافي خشن كل الخشونة، مثلما مني بالخيبة في امتحان الثانوية، وأكثر من ذلك فإنه كان قد استبعد لفترة قصيرة من قبل مؤسسة قاسية مثل العمل الجماعي الإلزامي للرايخ وسعى إلى وظيفة معلم ابتدائي «بشعة ممقوتة» في نظره (استشهاد ذاتي نقلاً عن ماريا فان دورن)، بأن خضع بادىء ذي بدء

بصفة خاصة للاستعدادات لامتحان خاص بالموهوبين، إلاّ أنه دُعي بعد ذلك على غير توقّع إلى تلك المؤسسة القاسية حيث التقى ابن عمته هاينريش الذي كلأه برعايته وحاول أن يجمعه بأخته ليني على المكشوف تقريباً بمناسبة الزيارات في الإجازات. فقد اشترى لهما تذاكر سينما «وصرفهما بذلك» (ماريا فان دورن) وتواعد معهما بعد السينما، «غير أنه لم يذهب بعد ذلك إلى هناك» (انظر أعلاه).

وبما أنَّ إرهارد لم يقْضِ معظم إجازته على هذا النحو فحسب، لا، بل إجازته كلها عند آل غروتن، ولم يزر أمه إلاّ زيارات قصيرة متقطعة فإنَّ هذه لتشعر بمرارة في نفسها حتى هذا اليوم؛ وعلى نحوٍ أقرب إلى الاغتياظ نفت إمكانية قيام علاقة غرامية «ذات نيّات جدية» بين ابنها وليني. «لا، لا، ومرة أخرى لا ـ هذه الفتاة البينَ بينَ ـ لا.» وإذا ما تأكّد شيء واحد فإنه لواقع لا يقبل الجدل أنَّ ارهارد أحبَّ ليني لدرجة العبادة، إذا صحَّ التعبير، بدءاً من الإجازة الأولى في أيار سنة ١٩٣٩ على وجه التقريب؛ وهناك شهود عيان على ذلك: ولا سيما لوته هويزر التي تعترف صراحة أنَّ «إرهارد كان سيكون حتماً أحسن مما حدث فيما بعد، على أية حال، مما حدث في سنة ١٩٤١. ولربما ليس بأفضل ما حدث سنة ١٩٤٣». وقد حاولت عدة مرات على حسب اعترافها أن تستدرج ليني وإرهارد إلى منزلها وتتركهما وحدهما هناك، «لكي تنجح العملية مرة أخرى، اللعنة. فالشاب كان في الثانية والعشرين، صحيح الجسم ولطيف جداً. وكانت ليني قد أربت على السابعة عشرة بقليل، وأقول لك بصراحة، إنها كانت ناضجة للحب، كانت إمرأة، إمرأة

رائعـة، حـتى آنذاك، ولكن ليس في إمكانك أن تتـصـور خـجل هذا الشاب إرهارد وحياءه».

* * *

هنا ينبـغي وصف لوته هويزر، لكـي لا ينشـأ سـوء تفـاهم مرة أخرى أو يعـود للظهـور من جديد. فـهي من مـواليد ١٩١٣، طولـها ١,٦٤ م ووزنـها ٦٠ كغ، ذات شعـر بني شـائب جاف مـثل مسـحوق، موهوبة في الجدل، ومع أنها غـيـر مدرّبة، ففي وسع المرء أن يصـفـها بأنها شـخص صريح صراحة جديرة بالاعـتبار، وهي أكثر صراحة من مـارغريت. وبما أنهـا عـاشت في زمن إرهارد قـريبة جـداً من غـروتن فـإنّها تبدو شـاهداً يعتمد عليـها أكثر من السـيدة فان دورن التي تميل في كل شيء يخصّ ليني إلى تقديس الصورة. ولوتّه، عندما أريد منها معرفة تفاصيل عن عـلاقـتـهـا بغـروتن الشـيخ، التي هي مـوضع نقـاش، تـكلّمت عـن ذلك بصـراحة: «وبعـد ذلك كـان من الممكن أن يحدث معنا شيء مـا آنذاك؛ وإني لأعـتـرف بهذا، ولربما كـان سيـصيـر مـا صـار هو سنة ١٩٤٥؛ فلقد استنكرت تقريباً كل شيء قـام به، لكنني فهمته، وأنت تعرف ما أعني. كـانت زوجـتـه شـديدة القلق والرعب أيضـاً من أمـور التـسليح هذه التي روّعتها وشلّتها؛ فلو كانت امرأة فعالة وأقلّ استغراقاً في الأحلام لخبّأت ابنهـا في مكان ما في أسبانيـا أو في أحد الأديرة أو ليكن في هذا البلد بلد الإيرلنديين، إلى حيث كان في إمكانهـا أن تسافر ذات مرة وترى كل شيء، وطبيـعي أنَّ المرء كـان سيـتمكن من أن يـحرم التـاريخ الألماني من زوجي ومن إرهـارد هذا أيضـاً. ولكـي لا ينشـأ سـوء تفـاهم: فـإنَّ هيلـينا

غروتن لم تكن لطيفة فحسب، بل كانت طيبة أيضاً وعاقلة، ولكن إذا ما عرفت قصدي، لم يكن التاريخ في حدود طاقتها، لم تكن كفؤاً لا للسياسة ولا للتاريخ، ولا لهذا التدمير الذاتي الرهيب الذي انتظره هذا الشاب إذ ذاك عن وعي وإدراك. وإنه لصحيح ما قاله الناس الآخرون لك (لم يتم البوح باسم مارغريت. المؤلف) لقد التهم بلاد الغرب كلها ـ وماذا بقي في يده؟ كومة صغيرة من الخراء، إذا ما سألتني، وكان قد واجه هذا السخف الذي يجلّ عن الوصف. ففي ذلك فارس بامبرغي أكثر مما ينبغي وحرب فلاحين أقلّ مما ينبغي. وفي سنة ١٩٢٧ حضرتُ وأنا بنت في الرابعة عشرة دروساً في المدرسة الابتدائية تتناول الخلفيات السياسية الاجتماعية لحرب الفلاحين وكتبت مع آخرين بعناية وبشكل مليح ـ وطبيعي أنني أعرف أنَّ الفارس البامبيرغي لا شأن له بحروب الفلاحين ـ، لكن من فضلك قصَّ لهذا الفارس خصلات شعره واحلق له ـ فأي شيء يخرج من ذلك، وماذا يبقى: قديس يدعى يوسف رخيص ومبتذل نوعاً ما. إذاً: فارس بامبرغي أكثر مما ينبغي في هذا الشاب ووردة كيموسية أكثر مما ينبغي في الأمر ـ وقد أعطتني هي هذا ذات مرة لأقرأه، والحق أنه كان جميلاً، وكانت هي امرأة عظيمة فريدة من نوعها، لا ريب وأغلب الظنّ أنّها ما كانت ستحتاج إلاّ لبضع حقنات هورمونية؛ ثم إنَّ هذا الشاب هاينريش: فإنه كان أهلاً لأن يكون معشوقاً، أجل، ما من امرأة في كل مكان إلاّ وكانت تبتسم إبتسامة غريبة عندما كانت تراه؛ ولا يستشعر شاعراً إلاّ نفرٌ من الشاذين جنسياً والنساء. وطبيعي أنَّ ما قام به عند ذاك كان انتحاراً ظاهراً مكشوفاً، وإنه لواضح كل الوضوح، واتساءل لماذا جرُّ إرهارد إلى ذلك ـ لكن ربما

أراد هذا أن ينجرّ إلى ذلك. فالمرء لا يعرف هذا، فارسان بامبرغيان يريدان أن يموتا معاً، ولقد ظفرا بذلك: فقد أعدموهما رمياً بالرصاص، وهل تعرف بما هتف هاينريش قبل أن يعدموه بالرصاص: «اخرؤوا على ألمانيا» وكان هذا نهاية ثقافة وتربية فريدة من نوعها، وأينما كان هو في هذه القوات المسلحة الخرائية، فلربما كان خيراً هكذا: كان لا يزال هناك ما يكفي من إمكانيات الموت بين نيسان سنة ١٩٤٠ وأيار سنة ١٩٤٥. وكانت للشيخ علاقات كافية فاستجلب الملفات التي جهّزها له أحد الجنرالات، لكنّه لم ينظر فيها قط، بل رجاني فقط أن أحكي له الشيء الجوهري: فكلا الشابين عرض على الدانمركيين للبيع مدفعاً مضاداً للطائرات لا ينقصه شيء، وهذا يعني أنهما أرادا أن يحصلا لقاء ذلك على قيمة الخردة الخيالية، شيء ما قدره نحو خمسة ماركات، وأنت تعرف ما قاله إرهارد، هذا الهادىء الخجول، في المحاكمة: «نموت في سبيل مهنة شريفة، في سبيل تجارة الأسلحة».

* * *

لقد بدا ضرورياً للمؤلف أن يقصد السيد فيرنر فون هوفغاو مرة أخرى، وقد بلغ من العمر الخامسة والخمسين ويدير مكتباً صغيراً للهندسة المعمارية في جناح جانبي من قصر أجداده الذي تحيط به المياه وذلك «بعد عمل مؤقت لدى القوات المسلحة التي وضعت خبرتي في خدمتها بصفتي بنّاءً في وظيفة رسمية»، «ولا يخدم هذا المكتب إلاّ أغراضاً سلمية، أي بناء بيوت سكنية». إنّ فون هوفغاو (الذي وصف نفسه، حين طلب إليه، بأنه غير حيوي، لكنه محتمل) فيجب أن يتصوّره

المرء رجلاً وديعاً أشيب الشعر أعزب، لا يشكل له «مكتب الهندسة المعمارية» إلاّ ذريعة بحسب رأي المؤلف المتواضع، وذلك لكي يراقب ساعات طويلة الاوز العراقي في بركة القصر والعمل في داخل الاقتصاد المؤجر وخارجه ولكي يقوم بنزهات في الحقول (وبتعبير أدق: حقول اللفت) ولكي يرنو بوجه كالح إلى السماء حين تمرّ طائرة مقاتلة مخترقة جدار الصمت؛ إنه يتجنب الإختلاط بأخيه الذي يسكن في القصر «بسبب صفقات معينة دبّرها في القسم الذي كنت أديره آنذاك، مستغلاً اسمي، ولكن من غير معرفتي». وتظهر على قسمات هوفغاو المتشحّمة السريعة الحساسية مرارة، إنّما ليست مرارة شخصيّة، بل هي أقرب إلى المرارة الأخلاقية التي، كما بدا للمؤلف، ينساها شراب يتناوله بكميات ويعدّ من أخطر الأشياء: إنه شراب الخمر الاسباني المعتّق (الشّيري). وعلى أية حال فقد اكتشف المؤلف على حين غرّة الكثير من زجاجات الخمر الفارغة على كومة النفايات والكثير من الزجاجات الملآنة في «خزانة رسم» هوفغاو. ولقد كانت بعض الزيارات إلى خمارة القرية ضرورية لمعرفة معلومات امتنع فون هوفغاو عن إعطائها بعبارة «شفتاي مختوم عليهما»، ولو في شكل إشاعات تناقلتها الألسن.

وما يلي هو خلاصة أحاديث أجراها المؤلف مع نحو عشرة أشخاص من أهل قرية هوفغاوسن بمناسبة ثلاث زيارات للخمارة؛ ولقد انصبّ عطف سكان القرية بجلاء ووضوح على فيرنر الضعيف، أما إجلالهم وإحترامهم المنقول بصوت شبه مرتعش فقد انصبّا على ارنولد الشديد الحيوية كما يظهر؛ والظاهر ـ على حد قول أهل القرية ـ أنّ أرنولد قد ظفر في داخل هيئة التخطيط المدارة من قبل أخيه لبناء مطارات للقوات

المسلحة على أيدي نواب الاتحاد الديمقراطي المسيحي ومصرفيين وأعضاء اللوبي لمختلف مجموعات لجنة الدفاع وبالضغط أيضاً على وزير الدفاع بأنه يتم اختيار «غابة هوفغاوسن المشهورة منذ قرون» والحقول الكثيرة المتاخمة لتكون أرضاً لمطار الناتو. وطبقاً لأقوال أهل القرية فقد كان هذا «صفقة بخمسين أو أربعين أو على الأقل بثلاثين مليون»، وقد حدث هذا إذاً «في قسمه **ضد** إرادته بموافقة لجنة الدفاع» (القروي بيرنهارد هيكّر، مزارع).

إنَّ هوفغاو «المدين لغروتن بالشكر الأبدي لأنّه أنقذني شاباً من هذه القوات المسلحة الألمانية بأن جعلني مستشاره، وعندما ساءت أحواله كثيراً استطعت أن أردّ له جميله على الأقل»، قد تردّد برهة قبل أن يحكي عن قصة إرهارد وهاينريش الغامضة. «بما أنك تبدو مهتماً بالموضوع كثيراً فسأبوح لك به. فالسيدة هويزر لم تقف على الملفات كلّها، كما أنّها لم تقف على الموضوع كلّه. فلم تحصل إلاّ على ملفّات المحاكمة، وهذه أيضاً ليست كاملة، وحصلت على تقرير الملازم من فرقة الإعدام رمياً بالرصاص. والحق أنَّ الموضوع كان معقداً جداً بحيث إنني سأجد مشقة في روايته من الذاكرة بصورة دقيقة. إذاً، لقد رفض ابن غروتن أن يحابيه أبوه، لكن غروتن حاباه وحماه على غير رضاه، بل إنه عني ـ وكان هذا هيّناً عليه ـ بأن ينقل هو وابن خاله بادىء ذي بدء إلى حجرة أمين صندوق القوات المسلحة في مدينة لوبيك، وذلك بعد يومين تقريباً من احتلال الدانمرك. ثم إنّه ـ وأقصد السيد غروتن الشيخ ـ كان قد حسب حساباً لعناد ابنه الذي سافر مع ابن خاله إلى لوبيك، غير أنه من هناك وحين رأى ما كان قد أصبح فيه عاد أدراجه إلى الدانمرك فوراً

من غير أمر بالسير أو بالنقل ـ وكان هذا، إذا ما فسّر تفسيراً محابياً، هرباً من الجيش، وإذا فسّر تفسيراً صارماً، كان هذا فراراً من الجندية، وكان يمكن الحؤول دون ذلك. أما الشيء الذي لم يكن في الإمكان الحيلولة دونه: أن كلا الشابين حاول أن يبيع لأحد الدانمركيين مدفعاً مضاداً للدبابات، ومع أنَّ الدانمركي رفض أن يشتري، وإلاّ كان هذا أيضاً انتحاراً وغباءً تاماً. فقد كان هذا جريمة، وفي مثل هذه الأحوال لم تعد تجدي أية حماية على الإطلاق، وحدث ما كان ينبغي أن يحدث، وعليَّ أن أكون صادقاً معك وأعترف لك أنني بصفتي مقرّر غروتن الشخصي ومستشاره قد لقيت صعوبات للوصول إلى الملفات، مع أنه كان لنا آنذاك مشاريع ضخمة في الدانمرك وكنا نعرف كل الجنرالات تقريباً، وعندما قرأتها سلّمتها للسيدة هويزر التي كانت سكرتيرة غروتن، ولكن في صورة، لنقل إنها كانت صورة منقحّة مضاف إليها، وإذا شئت، صورة معدّلة، إذ أنه كان فيها عدد من «الصفقات القذرة» ـ ولم أرد أن أضرّه بذلك».

إنَ لوتّه هويزر التي لا تفكر إلاَّ متنهدة في أسى وحسرة بأن تتخلى عن منزلها الصغير الجميل ومعه حديقة السطح في وسط المدينة لم تستطع أن تتكلم «عن هذا الموضوع» من دون تنهّدات وسجائر جديدة دائماً وتربيت متكرر على شعرها الأشيب الأملس المقصوص قصّاً قصيراً ومن غير رشف دائم من فنجان قهوتها. «أجل، أجل. لقد ماتا، ولا داع إلى الشك فيما إذا كانا قد ماتا بسبب الفرار من الجندية أم لأنهما حاولا أن يبيعا هذا المدفع ـ لقد ماتا، ولست أدري هل أرادا هذا فعلاً. لقد لاح لي دائماً أنه كان في ذلك كثير من الأدب تقريباً، وفي وسعي

أن أتصور أنهما وقفا هناك عند الجدار في شيء من الذهول والذعر وأعطي الأمر «صوّبوا البنادق». وعلى كل حال فإن ارهارد كانت عنده ليني، أما هاينريش فكان يمكن أن تكون له أية واحدة. إنَّ ما فعله كلا الشابين هناك، هناك تماماً في الدانمرك حيث بدأت مشاريعنا الكبرى تزداد آنذاك، ليبدو لي ذا خصوصية ألمانية نوعاً ما. حسن إذاً. لنسمِّ هذا رمزية، بالثلاثة واحد، من فضلك. لم يحدث هذا مع زوجي الذي سقط عند آميان بعد ذلك بأيام قليلة؛ كان يود لو عاش، لا على نحو رمزي فحسب، وما كان ليتمنّى أن يموت على نحو رمزي، وكان خائفاً، هذا كل ما في الأمر، كان فيه الخير الكثير، لكنهم دمّروا هذا في المعهد اللاهوتي الذي مكث فيه حتى السن السادسة عشرة لكي يصير راهباً، وإلى أن رأى أخيراً أنَّ هذا كلّه سخافة، وكان الوقت قد فات. واحتفظ بهذه العقدة الخبيثة أنه لم يحصل على الشهادة الثانوية ـ وكانوا قد أفهموه ذلك، وتعارفنا من بعد ذلك في الشبيبة الحرّة بنشيد «أيها الإخوة إلى الشمس وإلى الحرية»، وما شابه ذلك، لا بل إننا عرفنا المقطع الأخير ـ «أيّها الإخوة خذوا البنادق وهيّا إلى المعركة الحاسمة. المجد للشيوعية، ولتكن لها السلطة في المستقبل» ـ على أنَّ المرء الذي يعلّمنا بطبيعة الحال أنَّ الشيوعية في سنة ١٨٩٧ كانت شيئاً يختلف عن الشيوعية في سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ـ وزوجي فيلهيلم لم يكن ذلك الذي كان سيمسك يوماً ما بندقية، لا على الإطلاق، ثم إنه كان عليه أن يأخذها بعد ذلك من أجل هؤلاء البلهاء الحمقى، ثم تركوه يسقط قتيلاً من أجل هذا السخف ـ لا بل كان في الشركة ناس زعموا أنَّ أباه قد حذف فيلهيلم من قائمة الذين لا يستغنى عنهم للخدمة في الجبهة بعد

موافقة غروتن، لا بل إنَّ إشاعات أشيعت هنا وهناك عن زوجة أوريا، ولم أستطع، وما كنت لأستطيع ـ وليس في استطاعة المرء أن يشي بإنسان غالٍ مثل فيلهيلم، لا بل إنه لم يكن في استطاعتي ذلك حتى عندما مات. ثم الشيخ. أجل، كان يمكن أن يحدث شيء ما آنذاك بيني وبينه؛ وكان ما فتنني فيه كيفيّة تحوّل هذا الصبي الفلاح الطويل النحيل الذي كان له وجه بروليتاري إلى سيد عظيم نحيل بارز العظام، سيّد عظيم، لا بنّاءً ولا مهندساً معمارياً ـ إنما شخص يتقن علم الخطط الحربية، إذا ما سألتني. وفضلاً عن نحوله الشديد فقد فتنتني فيه أيضاً: هذه الموهبة الاستراتيجية. كان يمكن أن يصير أيضاً مصرفياً من غير أن «يفهم» أيَّ شيء على الإطلاق عن المال، إذا عرفت ما أقصد. كانت عنده خارطة أوربا معلقة في المكتب على الجدار، وقد غرست فيها إبرٌ وبين وقت وآخر علم صغير، وكانت تكفيه نظرة واحدة ـ صغائر الأمور لم تكن تهمّه. وطبيعي أنه كانت لديه حيلة فعالة جداً، أخذها عن نابليون ـ وأظن أنَّ الكتاب الوحيد الذي كان قد قرأه، كان ترجمة لنابليون سخيفة نوعاً ما ـ، وكانت الحيلة أو الخدعة غاية في البساطة، ولعلها لم تكن حيلة على الإطلاق، إنما كان فيها شيء من العاطفية الخالصة. كان قد بدأ في سنة ١٩٢٩ على نحو متعجرف مع أربعين عاملاً ورئيس عمال وهلمَّ جرّا ـ وقد تأتّى له أن يتكفَّل بهم كلهم رغم الأزمة الإقتصادية وألاّ يسرح أحداً منهم، لم يعفّ عن أية حيلة مصرفية أو عن اتّجار زائف بالسندات والكمبيالات، لا بل إنه اقترض قروضاً بفوائد فاحشة ـ وبهذا كان عنده في سنة ١٩٣٣ نحو أربعين عاملاً حموه وردّوا عنه التهم والمآخذ، حتى الشيوعيون منهم، فإنه حماهم ودافع

عنهم وأعانهم في كل الصعاب، وفي المشاكل السياسية أيضاً، وفي وسعك أن تتصور أنهم كلّهم سجّلوا في مستهل السنوات القادمة نجاحاً رائعاً مثل عرفاء نابليون؛ إذ أوكل إليهم مشاريع كاملة وعرف كل واحد، كلاً منهم باسمه وعرف أسماء زوجاتهم وأطفالهم، وعندما كان يلتقيهم كان يسألهم عن ذلك، عن كل شاردة وواردة، وقد عرف على سبيل المثال إذا جاء إلى أحد مواقع البناء ورأى أنَّه كان ممّراً تناول الرفش أو المعزق، كما أنه كان يقوم أحياناً بسفرة ضرورية جداً لسيارة نقل ـ وكان يساعد دائماً حيث كانت الضرورة تقتضي ذلك. وفي وسعك أن تتصور البقية. وهناك سرٌّ آخر: لم يكن المال ليهمّه بشيء. وطبيعي أنه لم يكن في حاجة إليه إلاّ كمظهر: ثياب، سيارات وإمكانية التحرّك والإنتقال، وأحياناً الحفلات، ولكن مثلما جاء هذا المال الوفير فقد صير أيضاً إلى استغلاله من جديد، بل إنه استدين فضلاً عن ذلك. لقد قال لي ذات مرة: «أن يكون المرء مديناً، مديناً بدين كبير، هذا وحده هو الشيء الحقيقي». ثمَّ زوجته، أجل، كانت هي التي فطنت إلى الأشياء، «الكامنة فيه» ـ أجل، أما الشيء الذي كانت تنطوي عليه طبيعته وظهر في أثناء ذلك، فقد روّعها؛ لقد أرادت أن تجعله عظيماً وأن ترعى مجالس الأنس الحافلة وحفلات السمر الفخمة، وغير ذلك، لكنها لم ترغب في أن تكون متزوجة برئيس أحد أركان حرب الجيش. إن شئت أن تسمح لي بالتعبير المضحك، بل ولربما فهمته أيضاً: هو كان المجرّد وهي كانت الواقعيّة، مع أنه قد يبدو العكس. يا إلهي، إن ما كان قد فعله كان في نظري إجرامياً: أنْ يبني لأولئك مخابىء ومطارات ومقرات قيادة، وإذا ما سافرت ذات مرة إلى هولندة أو الدانمرك سأرى هناك على

الشاطىء المخابىء التي بنيناها، وإنه ليبعث الغثيان في نفسي ـ ومع هذا: كان عصر السلطة، كان عصراً للسلطة وكان إنسان السلطة الذي لم تهمه السلطة نفسها بشيء مثلما لم يهمّه المال أيضاً. فما كان يثيره كان اللعب، أجل، لاعباً كان هو ـ لكنه كان شديد الحساسية: كان عندهما الصبي، ولم يرغب هذا في أن يبعد عن القذارة».

باديء ذي بدء فشلت المحاولة لإرجاع لوته إلى الموضوع الثاني للمقابلة: علاقة ليني بهذا الإنسان إرهارد. سيجارة من جديد وإشارة باليد إشارة نفاد صبر.

«سيأتي هذا فيما بعد، لكن دعني أكمل حديثي. لا لشيء إلاّ لكي يتضح شيء واحد: هو أنَّ كلانا ناسب الآخر آنذاك، لا بل كانت هناك بعض الملاطفات والمداعبات أو سمّها كما تشاء، وكانت في نظر رجل في الأربعين ويعاشر إمرأة في السابعة والعشرين مؤثّرة في القلب لدرجة لابأس بها. زهور بطبيعة الحال ومرتين قبلة على الساعد، والشيء المثير: أنّه رقص معي ذات مرة شطراً من الليل في فندق بمدينة هامبورغ؛ لم يناسبه هذا على الإطلاق. ألم يلفت انتباهك بعد أنَّ «رجالاً عظماء» هم دائماً راقصون أردياء؟ ،إني امرأة أقرب إلى الصدود مع رجال آخرين غير زوجها، وعندي خصلة بغيضة لازمتني طويلاً: وهي أنني وفيّة. إنها لأشبه بلعنة. لا مأثرة، بل أقرب إلى أن تكون عاراً ـ أيُّ شيء تتصوره وأنا وحدي ليلاً في السرير والأطفال نيام بعد أن تركوا زوجي فيلهيلم يسقط قتيلاً عند أميان من أجل هذا السخف؟ لا أحد، لا أحد تجرأ على أن يلمسني حتى سنة ١٩٤٥ ـ وهذا كله ضدّ قناعتي، إذ أنني لا أعلّق أية أهمية على العفّة وما شابهها، وفي سنة ١٩٤٥ كانت قد مضت

خمس سنوات، أجل، ونزل كلانا، هو وأنا، ببيت واحد. أما عن ليني وإرهارد: فقد قلت لك إنَّ المرء عاجز عن أن يتصوّر حياء هذا الإنسان إرهارد، ولمعرفتك، فهو عاجز أيضاً عن تصوّر حياء ليني. فقد عبدها من اللحظة الأولى، كانت في نظره بيوندا (شقراء) فلورنسية بعثت من جديد على نحو غامض أو شيئاً من هذا القبيل، وما من شيء استطاع أن يصحّيه ويذهب عنه الحماسة والسرور، لا لهجة ليني الراينية الجافة للغاية، ولا حتى طريقتها في التعبير التي هي أقرب ما تكون إلى الطريقة الجافة جداً. وكان في نظره غير مهم أيضاً أنها ظهرت غير مثقّفة في مفهومه كليّاً وهذا القليل من التحمّس للإفراز الذي شغل بالها ويشغل باله هو، ما كان سيعجبه لو أنها أفاضت بذلك. إذاً، ماذا فعلنا نحن، وأقصد بذلك هاينريش ومارغريت وأنا ـ لكي يحالف النجاح كليهما. وعليك أن تفكّر وتأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن هناك متّسعٌ من الوقت: فما بين أيار سنة ١٩٣٩ ونيسان سنة ١٩٤٠ ربّما حضر ثماني مرات إلى هنا. وطبيعي أنه لم يتمُّ الإفصاح عن أيّ شيء بيني وبين هاينريش، إنّما اكتفينا بغمز العيون لأننا رأينا مدى هيام كلّ منهما بالآخر. كان شيئاً حلواً، أجل، وأقول مرة أخرى، لقد كان شيئاً جميلاً أن تراهما كليهما، ولربما ليس هناك الكثير لكي يؤسف له في أنهما لم يناما معاً. ولقد حصلت على تذاكر سينما لأفلام خرائية مثل <رفاق في البحر> أو سخافات مثل <انتبه فالعدو يسترق السمع>حتى إنني ارسلتهما إلى هذا الفيلم عن بسمارك لأنني اعتقدت: أنَّ الحفلة ستدوم ثلاث ساعات، والجو معتم ودافىء كما في رحم الأم، وما من شك في أنهما سيمسكان الأيدي، ولربما خطر ببالهما أيضاً الخاطر

(ضحكة صفراء جداً! ملاحظة المؤلف) بأن يتبادلا قبلة، وإذا ما قطعا شوطاً بعيداً فستستمرّ الأمور، لكن لا شيء، الظاهر أنه لا شيء من هذا القبيل. لقد ذهبا معاً إلى المتحف وأوضح لها كيف يميّز المرء بين لوحة منسوبة فقط إلى بوش ولوحة حقيقية له، وحاول أن ينقلها من عزفها الرديء لشوبيرت إلى موتزارت وأعطاها قصائد لتقرأها، والأرجح أنها كانت لريلكه، لم أعد أعرف هذا تمام المعرفة، وبعد ذلك عمل شيئاً نجح. فقد كتب فيها قصائد وأرسلها إليها. والحق أنّ ليني كانت مخلوقة حلوة غاية الحلاوة ـ وإذا ما سألتني فإنها لا تزال حلوة ـ، بحيث إني شغفت بها بعض الشيء: فلو أمكنك أن ترى مثلاً كيف كانت ترقص مع هذا الإنسان إرهارد حين كنا نخرج معاً، زوجي وأنا وهاينريش ومارغريت وهما كلاهما ـ عندها تمنّى المرء لهما كليهما سريراً عريضاً ذا أعمدة ومظلة كان يمكن أن يسعدا فيه جنباً إلى جنب ـ، وبعدها كتب لها إذاً قصائد، والشيء المدهش: أنها أرتني إياها، مع أنها، وهذا ما يجب أن أقوله، كانت جريئة؛ فلقد تغنّى على المكشوف تقريباً بنهدها الذي سمّاه «زهرة الصمت البيضاء الكبيرة» وقال عنها إنه لسوف «ينتزع بتلاتها»، وكتب قصيدة جيدة حقاً موضوعها الغيرة، لا بل كان يمكن أن يطبعها المرء: «إني غيور، أغار من القهوة التي تشربينها ومن الزبدة التي تضعينها على خبزتك، أغار من فرشاية أسنانك ومن السرير الذي تنامين فيه». وأعني أنها كانت أشياء أقرب إلى الوضوح، حسن، لكن الورق، الورق...»

حين سئلت عما إذا كان من الممكن أن تكون الأمور بين ليني وإرهارد وصلت إلى حد العلاقات الجنسية التي بقيت خافية عليه وعلى

هاينريش وآخرين، احمرّ وجه لوتّه فجأة (ويعترف المؤلف أنّ لوتّه المحمرّة الوجه كانت مبعث سرور كبير في أثناء التحريات المضنية في أغلب الأحيان) وقالت: «لا، وإني لأعرف هذا معرفة تامة تقريباً، إذ أنها حين فرّت بعد ذلك بأكثر من سنة مع لويس بفايفر الذي تزوجته فيما بعد بطريقة غبية فقد تباهى هذا فيما بعد عند أخيه هاينريش الذي روى لي بسذاجة وبصراحة عارية تقريباً أنه «وجد ليني بكراً». واستمر احمرار لوتّه. وحين سئلت عما إذا كان من الممكن أن يكون لويس بفايفر هذا قد تباهى عند أخيه هاينريش بشيء ما، بشعار غلبة وانتصار، إذا صحّ التعبير، لم يجلبه قط، عندئذ ترددت أول مرة وقالت «إنه مما لا يقبل الجدل تقريباً أنه كان دعياً ــ وإنك لتوحي إليَّ هنا بفكرة. لا، لا»، قالت بعد هزة رأس عابرة، «إني لاستبعد هذا، مع أنه كان لهما كليهما الفرصة الكافية ـ لا، لا»، قالت وقد احمر وجهها مرة أخرى على نحوٍ مذهل. «لم تتصرف ليني مثل أرملة حين مات، هذا إذا كان في إمكانك أن تعرف ما أرمي إليه، وليكن في علمك أنها تصرّفت مثل أرملة إفلاطونية».

بدا هذا القول واضحاً للمؤلف وضوحاً كافياً، وأعجبته صراحته، التي لا لبس فيها ولا غموض، ولكنه لم يعد بعد مقتنعاً كل الاقتناع مع أنه ندم أنه لم يكتشف إلاَّ متأخراً الشاهدة لوته هويزر، اسم اسرتها بيرنغتن، في قوة تعبيرها. إنَّ ما أدهشه هو تبسّط ليني في الحديث، بل ميلها إلى كثرة الحديث نوعاً ما في تلك الفترة من حياتها. ومن أجل ذلك قدّمت لوتّه هويزر شرحاً، وهي الآن أكثر تفكيراً وهدوءاً، ولم تعد طلقة اللسان، وتنظر إلى المؤلف بين الحين والآخر نظرة أقرب إلى التأمل

وإنعام التفكير: «كان واضحاً أنها أحبت إرهارد هذا، وأنها أحبّته **بلهفة وتشوق**، إذا ما استطعت أن تتصوّر شيئاً من هذا، وأحسست أحياناً أنّها هي كانت على وشك أن تقبل على العمل من تلقاء ذاتها؛ وأريد أن أقول أو أسرَّ لك بشيء: رأيت ليني ذات مرة وقد نظفت مرحاضاً منسداً، وأذهلتني هذه الفتاة. كنا موجودين في مساء يوم أحد من سنة ١٩٤٠ عند مارغريت في المنزل وقد شربنا شيئاً ورقصنا قليلاً ـ وكان زوجي فيلهيلم حاضراً أيضاً ـ وإذا به يتبيّن أنَّ المرحاض كان منسداً؛ أقول لك، شيء فظيع. شخص ما كان قد ألقى فيه شيئاً ما ـ تفّاحة معفّنة وضخمة نوعاً ما، كما تبيّن فيما بعد، سدّت أنبوب التصريف، هنا قام الرجال إلى العمل لكي يزيلوا هذا الشيء المزعج؛ في الأوّل هاينريش ـ ولكن بدون نتيجة، فقد أدخل في الأنبوب حديدة نكش، وبعده إرهارد الذي حاول هذا، وكان هذا ذكاءً منه، بطرف خرطوم ماء أتى به من حجرة الغسيل، حاول هذا بواسطة توليد ضغط فيزيائي بأن راح ينفخ نفخاً جنونياً في الخرطوم الذي دسّه في هذا السائل العكر الكريه من غير أيّة حساسية زائدة ـ ولأنَّ فيلهيلم زوجي الذي كان عامل تمديدات صحية ثم صار فنيّاً وأخيراً رسّاماً، قد أظهر حساسية مفرطة، ولأنّنا أنا ومارغريت، اقشعر منا البدن تقزّزاً واشمئزازاً ـ، فأنت تعرف من حلَّ المشكلة: ليني. ادخلت يدها ببساطة، يدها اليمنى، وما زلت أرى ذراعها الجميل الأبيض يتّسخ إلى ما فوق المرفق بوسخ مائل إلى الخضرة، وتمسك بالتفاحة وترميها في سلّة المهملات ـ ويغرغر كل السائل العكر الكريه إلى الأسفل بسرعة كبيرة، أما ليني فقد اغتسلت ـ وتطهّرت جيداً مرّات ومرّات بماء الكولونيا ـ والآن يخطر ببالي مرة أخرى

أنها أبدت ملاحظة وقعت عليَّ وقوع الصاعقة. «كان شعراؤنا أجرأ منظّفي مراحيض». وحين أريد أن أقول الآن إنَّ هذه استطاعت أن تشمرّ عن ساعد الجدّ عندما استدعت الحاجة إلى ذلك، ففي هذه الحال أقصد أنها ربما خلبت أيضاً لبّ ارهارد هذا في النهاية: ومن المؤكد أنه ما كان سيعترض على ذلك. هنا يخطر ببالي أيضاً: أن زوج مارغريت هذه لم تقع عينا أحد منا عليه قط».

* * *

بما أنَّ أقوال لوته هويزر لم تكن متطابقة مع أقوال مارغريت كلَّ التطابق فكان لا بدَّ من استجواب هذه مرة أخرى. أصحيح أنها كانت مع مجموعة الرقص المذكورة من قبل لوته عدة مرات في بيتها؛ أيحتمل أنه كانت لها علاقة جنسية مع هاينريش بزمن طويل قبل تلك الحادثة التي سيطلق عليها «حادثة فيلزينبورغ»؟ قالت مارغريت، وقد جعلتها جرعة كبيرة من الويسكي في حالة من النشوة الناعمة الرقيقة المتّسمة بالكآبة: «النقطة الأخيرة أستطيع أن أنكرها بداهة، كان عليَّ أن أعرف ذلك عين المعرفة وما كان هناك ما يدعوني إلى نكران ذلك. هنا ارتكبت خطأً، إذ أنني عرّفت هاينريش بزوجي، وقلما كان شلومر في البيت، ولم أفطن قط أو أكتشف هل كان هو رجل أسلحة أم مخبراً، على أية حال فقد كان لديه من المال ما يكفي، ولم يطلب مني أكثر من أن أكون موجودة من أجله حين كان يرسل إليَّ برقية. كان أكبر سناً مني. كان آنذاك في منتصف العقد الرابع تقريباً. كان ظريفاً، أنيقاً وما يشبه ذلك، كان رجلاً لبقاً، كما يقول الناس ـ كان بينهما كليهما تفاهم. أما هاينريش فقد

كان عاشقاً رائعاً، لكنه لم يكن حتماً زوجاً خائناً ـ ولَمَّا يكن آنذاك هذا الزوج الخائن؛ وكنت أنا دائماً الزوجة الخائنة، أما هو فلم يكن بعد ـ ولهذا، ولأنه خاف واستحيا منذ أن التقى زوجي فلم يتمَّ ذلك آنذاك. أما الشيء الآخر ـ ولوته وحدها قد تكون روته لك، هو أنني رأيته أكثر من مرتين وكنت معه أيضاً في الرقص، هنا في المنزل مع آخرين ـ، فهذا صحيح، لكننا لم نلتق أكثر من أربع مرات على وجه الإجمال».

حين سئلت عن إرهارد وليني ابتسمت مارغريت وقالت: «لا أريد أن أعرف هذا معرفة تامة، كما أنني لم أرغب في أن أعرفه آنذاك المعرفة التامة. أيّ شأن كان لي في هذا؟ فالتفاصيل لا شيء منها حتماً، فهذه لم تهمّني بشيء. أأريد أن أعرف أم أردت أن أعرف هل تلاثما وهل سرّت وابتهجت أيديهما على الأقل بالآخر وهل ناما معاً في السرير، هنا، أعني في منزلي أو في منزل لوته أو غروتن ـ الحق أني وجدت الأمر رائعاً أن يكون الأثنان معاً هكذا على هذه الصورة، والقصائد التي كتبها فيها وأرسلها إليها، ولم تستطع ليني أن تحتفظ لنفسها بالسر وتخلّت في هذه الأشهر المعدودات لأول مرة عن تكتمها وتبسّطت في الحديث، وبعد ذلك اعتزلت مرة أخرى اعتزالاً كلياً. هل من مهمٌّ أن تعرف هل كان إرهارد أم هذا الغبي لويس أول الرجال، ما الفائدة؟ دعك من هذا. لقد أحبّته بحنان وحرارة، وإذا لم يكن قد حدث شيء حتى ذلك الحين، ففي الإجازة القادمة كان سيحدث، أنا أضمن لك هذا، وأنت تعرف كيف كانت النهاية، في الدانمرك عند سور مقبرة. لقد راح. ولك أن تسأل ليني. إسأل ليني! سهل قول هذا. فلا تترك أحداً يسألها، وحين يسألها المرء لا تجيب. وقد وصف هويزر الشيخ قصة

إرهارد بأنّها «قضيّة مؤثّرة، لكنها رومانتيكية محض ذات نهاية محزنة على كل حال. لا أكثر من ذلك». وراحيل ماتت، و ب. هـ. ت. هذا لا يعـرف بطبيعـة الحـال أيَّ شيء يخصّ إرهارد. وبما أن زيارات ليني المتكررة إلى الدير قد ثبتت فمن المؤكد أنَّ راحيل كانت ستعرف شيئاً ما. وآل بفايفر لم يدخلوا حياتها إلاّ فيما بعد، والمؤكد أنها لم تحدّث **هؤلاء** بأيّ شيء كان «غالياً وعزيزاً» عليها. وقد وصفت ماريا فان دورن التي لجأ المؤلف إليها لهفان قصة إرهارد بأنها «غالية عزيزة».

كان على المؤلف أن يصحح بعض الأحكام المتسرعة جداً التي كان قد اتخذها بعد أقوالهم في السيدة غروتن ضدها. وحين لا تكون المسألة مسألة السيدة غروتن وزوجها، تظهر السيدة فان دورن بارعة في المعلومات الدقيقة شبه المفصّلة. «آه»، قالت وقد تمَّ إيجادها في مقرّ شيخوختها الريفي وسط أزهار النجمة والغرنوقية والبغونية وهي تنثر الأكل للحمام وتلاطف كلبها الذي يميل إلى نوع الهجين من الكلاب الجعدة، «لا تذكر هذا الشيء الغالي النفيس في حياة ليني. كان هذا أشبه بحكاية، فالإثنان كانا مجردّ حكاية. كانا عاشقين على المكشوف وعلى غاية من الألفة، ولقد رأيتهما غير مرة جالسين هنا في غرفة الجلوس ـ وهذه هي الغرفة التي أجّرتها ليني للبرتغاليين ـ وهما يشربان الشاي، أحسن الخزف والشاي، على حين لم تحب ليني الشاي قط، لكنها شربت الشاي معه، ولم يشتكِ وقتها من الجيش، غير أنه أبدى اشمئزازه ونفوره بكل صراحة بحيث إنها وضعت يدها على ذراعه لتواسيه، وكان في وسع المرء أن يلاحظ عليه أنَّ هذه اللمسة قد أحدثت ثورة حقيقية لحواسه أو حساسيته إذا ما أردت أن تعرف. كانت هناك

لحظات كافية أتيح له فيها أن يفوز بها كل الفوز، كانت، وقفت ـ وإذا ما سمحت لي بالتعبير المبتذل نوعاً ما ـ، استلقت متأهبة، جاهزة له، وإذا كان لي أن أحكي عن ذلك، فإنّ ليني وحدها نفد صبرها بعض الشيء، أجل، أجل، فرغ صبرها ـ ومن الناحية البيولوجية أيضاً قلّ صبرها؛ لم تغتظ لا، ولم تغضب ـ ولو أنه استطاع أن يجيء يومين متتالين على الأقل أو ثلاثة أيام متتالية لاختلف الوضع. الحق أني بقيت عانساً وليس لي أية تجربة مباشرة مع الرجال، غير أنني راقبتهم مراقبة أقرب إلى الدقة، وإني أسألك، أي وضع هو هذا حين يصل رجل ما وفي جيبه تذكرة العودة وفي رأسه دائماً جدول مواعيد السفر وبوابة الثكنة التي ينبغي عليه أن يعبرها في ساعة محددة، أو مركز التوجيه في الجبهة. أقول لك ـ وأقوله أنا العانس التي فطنت إلى ذلك في الحرب العالمية الأولى وهي فتاة وفي الحرب العالمية الثانية وهي امرأة يقظة حذرة: إنَّ الإجازة شيء رهيب لرجل وامرأة. كل إنسان يعرف، حين يأتي الرجل في إجازة، ماذا ينوي كلاهما عندئذ ـ وفي كل مرة يكاد أن يشبه هذا ليلة عرس عامة ـ، والناس، على أية حال لا عندنا في القرية، ولا في المدينة أيضاً، ليسوا في الواقع أرقّاء المشاعر ويلمّحون تلميحات ـ كانت الحال هكذا عند فيلهيلم صاحب لوته بحيث إنه كان يحمرّ دائماً، فقد كان إنساناً رقيق المشاعر. هل تعتقد أنني ما كنت سأعرف ما قد حدث حين منح أبي إجازة في الحرب ـ وإرهارد، هو كان سيحتاج إلى قليل من الوقت ليفوز بليني ـ أنّى له أن يفعل ذلك، وهو دائماً على عجلة من أمره، وأن يغامر، وهذا أمر لم يكن ليقدر عليه، وقصائده كانت واضحة وضوحاً كافياً وكانت أقرب إلى الإلحاح (أنت الأرض التي

سأصير إليها ذات يوم) ـ أيستطيع المرء أن يكون أكثر وضوحاً؟ لا، فما كان ينقصه كان **الوقت**، لم يكن لديه وقت. تصوّر أنّه ربما لم ينفرد بليني إلاّ نحو عشرين ساعة ـ ولم يكن قط مغامراً جسوراً. لم تعب ليني عليه هذا، لكنها كانت حزينة، وكانت **جاهزة**، أجل. حتى أنها عرفت هذا، وأرادته، أقول لك هذا. لقد رأيت كيف ألقت بالها إلى أنَّ ليني لبست أجمل الفساتين ـ الأصفر الزعفراني المقوّر، والحلية إلى جانب ذلك: فقد ألبستها في أذنيها مرجاناً بدا مثل كرز قطف حديثاً وأعطتها الخفيّن الأنيقين والعطر وزيّنتها مثل **عروس**، حتى هي علمت بالموضوع وأرادته ـ لكنّه لم يكن هناك وقت، قلّة وقت فقط ـ لو كان هناك يوم واحد فقط زيادة لكانت صارت زوجته ولما ـ دعنا من هذا. كان صعباً على ليني».

لم يكن هناك بدٌّ من الذهاب مرة أخرى إلى السيدة شفايغرت وزيارتها، وعند السؤال هاتفياً من قبل البّوابة «خلّت الزائر يتفضّل إلى عندها»، لا على نحوٍ بالغ التجهم، وإن كانت بادية اللهفة، إلاّ أنها «تعرضت لبعض الأسئلة»، وهي تشرب الشاي، لكنها لم تقدّم مثل هذا؛ أجل، لقد عرض لها ابنها ذات مرة هذه الفتاة البين بين؛ وقد أقامت وزناً للفرق بين **عرض وقدّم**؛ ثمّ إنَّ تقديماً ما لم يكن أيضاً ضرورياً، إذ أنها كانت تعرف الفتاة منذ زمن طويل، وكان لها بعض الإطّلاع على سير حياتها التعليمية؛ طبيعي أنه كان «هناك عشق في الموضوع»، لكنها جدّدت رفضها لمشروع ارتباط دائم، أو ما يسمّى زواجاً، بأنه محال مثله مثل ارتباط اختها الدائم بأبي الفتاة؛ وقالت من غير أن يسألها أحد، إنَّ هذه الفتاة زارتها وحدها أيضاً ذات مرّة ـ ولا بدٌّ من الإنصاف ـ إنها شربت الشاي بأدب جمّ، وكان موضوع الحديث الوحيد الخلنج ـ أجل إنَّ لهذا

وقعاً مفاجئاً لكنه صحيح ـ؛ فقد سألتها الفتاة متى وأين ينمو الخلنج ـ وعما إذا كان الآن أوانه؟ «يجب أن تعلم أنّ الوقت كانت نهاية آذار تقريباً، وخيّل إليّ أنني أتكلّم مع معتوهة»؛ أتزهر الأرض الخلنجية في نهاية آذار تقريباً ـ وهذا في عام الحرب سنة ١٩٤٠ ـ في شيلزفيك هولشتاين؛ لم يكن للفتاة علم بالفرق بين الأرض الخلنجية الأطلسية والصخرية، كما أنها كانت تجهل أيضاً مختلف شروط تربيتها؛ وأخيراً، قالت السيدة شفايغرت، سار كل شيء على خير ما يرام ـ ويظهر أنَّ موت ابنها على أيدي فصيلة الإعدام بالقوات المسلحة الألمانية بدا لها أفضل من مشروع زواجه بليني.

يجب على المرء أن يعترف للسيدة شفايغرت هذه أنها أوضحت بعض الخلفيات بطريقتها الدقيقة جداً؛ فقد أوضحت مسألة الفنلنديين الغريبة المريبة أو أنها ساهمت في إيضاحها ـ فإذا اعتبر المرء أنَّ ليني تكرّمت في نهاية آذار سنة ١٩٤٠ بزيارة أم إرهارد وتكلّمت معها عن الخلنج في شيلزفيك هولشتاين وإذا ما أضاف إلى ذلك أنها كانت مستعدة على حدّ قول السيدة فان دورن، بل إنها كانت **مستعدة** في رأي لوته هويزر لأن تقوم بالخطوة الأولى، وإذا ما تذكر المرء تجربة الخلنج تحت سماء صيفية مرصّعة بالنجوم ـ جاز الاستنتاج، على نحو موضوعي أيضاً، أنَّها نوت أن تزور إرهارد المذكور أعلاه وأن تحقق مآربها معه في الخلنج، وهب أنَّ المرء اتخذ الشروط النباتية والمناخية موضوعاً وتوصل إلى النتيجة أنَّ مثل هذا المشروع مقضي عليه بالإخفاق بسبب الرطوبة والبرودة فتبقى الحقيقة التي يمكن إثباتها أنَّ بعض أجزاء الأرض الخلنجية في شيلزفيك هولشتاين تكون أحياناً في آذار، ولو لوقت

قصير، دافئة وجافة بحسب تجربة المؤلف على كل حال.

في النهاية حكت مارغريت، وهي دائماً في حرج، أنَّ ليني استشارتها كيف يجب أن تتصرّف المرأة إذا أرادت أن تقابل رجلاً. وعندما نبهتها مارغريت إلى منزل أبويها الواسع الهادىء أحياناً هدوءاً تاماً والمؤلف من سبع غرف فإنَّ ليني لم تحمرّ في أثناء ذلك، بل مارغريت، وهزّت ليني الرأس؛ وحين لفتت نظرها في آخر الأمر إلى غرفتها في هذا المنزل والتي تستطيع أن تقفلها ولا تحتاج إلى أن تسمح لأحد بأن يدخلها، هزّت ليني الرأس غير مرّة. وحين أشير لها مباشرة من قبل مارغريت التي قلَّ صبرها على أنَّ هناك فنادق نوّهت ليني بمغامرتها التي منيت بالإخفاق مع المهندس المعماري الشاب والتي لم يمضِ على وقوعها زمن طويل وأبدت تصوّراً لم تنقله مارغريت إلاّ مترددة بأنه «أكثر أخبار ليني سرّية إلى الآن»، والتصوّر هو أنه يجب ألاّ تتم «العملية في الفراش»، بل في الخارج. «في العراء، في العراء. هذا الاضطجاع معاً في السرير ليس الشيء الذي أبحث عنه». واعترفت ليني أنه لا بدَّ من السرير في بعض الأحيان في حالة مشروع حياة زوجية. لكن: مع إرهارد رفضت أن تنام من أول مرة. كانت على وشك أن تسافر إلى فلينسبورغ، إلاّ أنها قررت بعد ذلك ألاّ تسافر إلى هناك إلاّ في أيار ـ فموعدها مع إرهارد بقي إذاً أمنية وهمية حالت دونها القضية العسكرية. أليس كذلك؟ لا أحد يعرف هذا تمام المعرفة.

* * *

إنَّ العام ما بين نيسان ١٩٤٠ وحزيران ١٩٤١ لا يستحق أن

يوصف طبقاً لأقوال كل الشهود الأحمّاء وغير الاحمّاء إلاّ بوصف واحد: حالك. لم يتعكّر مزاج ليني فحسب، بل إنها فقدت من جديد حبها للكلام وتبسّطها في الحديث، لا بل أنها فقدت الشهيّة. وتنعدم اللذة في قيادة السيارات لفترة قصيرة، ويتلاشى السرور بالطيران ـ ثلاث مرات طارت مع أبيها ولوته هويزر إلى برلين ـ مرة واحدة فقط في الأسبوع تجلس إلى المقود وتسافر بضعة كيلومترات إلى الراهبة راحيل. هناك كانت تبقى أحياناً وقتاً طويلاً؛ ولا سبيل لمعرفة أي شيء عن أحاديثها مع راحيل، حتى ولا من طريق ب. هـ. ث. الذي لم يعد يرى راحيل في مكتبة الكتب القديمة منذ أيار سنة ١٩٤١ ـ وبسبب الخمول وانعدام الخواطر والومضات الفكرية ـ لم يخطر بباله أن يزورها مرة واحدة. دير كبير للراهبات ـ حديقة فواكه في الصيف والخريف والشتاء منذ عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، فتاة شابة في الثامنة عشرة والنصف لم تعد تلبس إلاّ الأسود وتتوقف نتيجتها الوحيدة الخاصة بالإفراز الخارجي على نتيجة معقدة: الدموع. وبما أنّ نبأ موت فيلهيلم هويزر، زوج لوتّه، يصل أيضاً بعد أسابيع قليلة فإنّ دائرة الباكين تتسع حول هويزر الشيخ وزوجته (التي كانت آنذاك على قيد الحياة)، وحول لوته وابنها فيرنر الذي كان في الخامسة من عمره؛ وبقي مجهولاً إن كان قد بكى مع الباكين الابن الأصغر كورت الذي كان لا يزال في بطن أمه.

* * *

بما أنّ المؤلف عاجز ويعدّ نفسه غير مؤهل لينعم النظر في الدموع فإنّ المرء يطلعه على نشوء الدموع وعن حدوثها الكيميائي والفيزيائي

على أحسن صورة في مرجع موجود في متناول اليد. فالقاموس المؤلف من سبعة مجلدات والعائد إلى شركة هي موضع نقاش ومطبوع سنة ١٩٦٦، يعطي المعلومات التالية عن الدموع: الدموع هي السائل الذي تفرزه الغدة الدمعية ويبلل كيس ملتحمة العين ويحمي العين من التجفاف ويغسل بصورة دائمة الأجسام الغريبة في العين، إنه (وأغلب الظن السائل، ملاحظة المؤلف) يسيل في زاوية العين الداخلية ويجري هناك عبر القناة الأنفية الدمعية. وبالتهييج (إلتهاب أو أجسام غريبة) أو بالانفعال النفسي يزداد انسكاب الدموع (البكاء)». وتحت مادة **البكاء** يقرأ المرءُ في المرجع ذاته: البكاء ـ مثل الضحك صيغة تعبيرية عن أزمة. وهذا يعني الحزن والتأثر والغضب أو السعادة، ومن **الناحية النفسية** (التوكيد ليس من قبل المؤلف) هو محاولة تحرّر نفسي. وحين يصاحبه إفراز دموع ونشيج أو انفعالات تشنجية يكون له علاقة بجهاز عصبي لا شعوري وبساق الدماغ. ويوصف بأنه بكاء قسري ونوبة بكاء ونحيب لا يمكن التأثير فيها في حالة انقباض وأمراض كآبية هوسيّة وتصلّب متعدّد».

وبما أنه يحتمل أن يجهش بالبكاء كثير من المهتمين بهذا التدوين، تدوين حقائق بسيطة ولربما ودّوا أيضاً أن يكون هذا الانعكاس قد توضّح، فينبغي هنا في هذا المقام نقل الفقرة المناسبة أيضاً لتوفير اقتناء القاموس وإذا دعت الضرورة لتوفير الكشف في المعجم أيضاً.

«الضحك، من **الناحية الانتروبولوجية** (كل توكيد وإظهار، والتوكيد التالي **ليس** من قبل المؤلف) حركة تعبيرية باعتبارها استجابة جسدية لحالات نفسية في مواقف عصيبة تؤدي إلى البكاء. ومن **الناحية**

الفلسفية ضحك الحكيم، ابتسامة بوذا والموناليزا من اليقين الذاتي بالوجود. ومن **الناحية السيكولوجية** حركة تعبيرية تمثيلية كعلامة للسرور ولما هو هزل وفكاهة. ويعكس قيم الطبع والوجدان باعتباره ضحكاً طفولياً أجوف ساخراً عاطفياً محرراً يائساً شامتاً مغناجاً.

ومن **الناحية المرضيّة** في أمراض الحبال العصبية والاختلالات الذهنية يكون الضحك الغريزي بصفة قسر على الضحك وضحك استهزائي تهكمي ترافقه تقلصات عضلات الوجه، وضحك هستيري بصفة ضحك تشنّجي. ومن **الناحية الاجتماعية** يعدي: الضحك (الحركية الفكرية اللاشعورية بصفة حركة عن طريق التصوّر). » بما أنه لا بدّ هنا من الدخول في مرحلة انفعالية على نحوٍ زاد أو نقص ومأساوية أيضاً على نحوٍ لا مناص منه، فإنه لمن الأفضل إكمال التجهيز واثباته بمفاهيم: فشرح مفهوم السعد (الحظ) غير موجود في هذا المعجم، ولا يوجد هناك بين كلوك GLUCK، كريستوف فيليبالد الفارس وكلوجه GLUCKE = (الدجاجة الحاضنة) إلاّ كلمة كلوك آوف GLUCK AUF= (التوفيق)، إلاّ أنه كان في الإمكان إيجاد كلمة السعادة التي عرّفت بأنها عنوان التحقيق الكامل والدائم للحياة؛ وبما أنه مبتغى كل إنسان بالفطرة فإنّ الشيء الذي يبحث فيه الإنسان عن هذا التحقيق النهائي يخضع لاختياره الذي يحدّد مجمل معيشته؛ وطبقاً للتعاليم المسيحية لا يمكن أن تكون السعادة الحقيقية إلاّ في الغبطة الأبدية».

« **الغبطة**، الحال التي تخلو من الألم والذنب خلواً تاماً، حال التحقيق الكامل الدائم للسعادة التي ترتجى من الأديان كلها على أنّها الهدف الفكري للتاريخ العالمي ومبتغاه. وفي العقيدة **الكاثوليكية** تكون

غبطة الرب بادىء ذي بدء في الحيازة الذاتية اللامتناهية للطفه الوجودي؛ وبعد ذلك تكون غبطة الإنسان (والملاك) في معاشرة الإله عن طريق مشاركة رؤوفة بحياته المسعدة، وهذه المشاركة تبدأ في الحياة الزمنية على أنّها محبّة المسيح (غبطة إلهية) وتكتمل في الغبطة الأزلية بالقيامة والتجديد الأخروي للواقع الكلي. وطبقاً للمفهوم **البروتستانتي** فإنَّ الاتحاد التام مع الإرادة الإلهية رسالة الإنسان الحقيقية، فلاحه وخلاصه». بما أنّه تمّ شرح الدموع والبكاء والسعادة شرحاً كافياً، وأنه يمكن في كل وقت البحث عن شرحها كمعلومات، فإنَّ هذا التقرير لا يحتاج إلى أن يتصدّى طويلاً لوصف حالات وجدانية، بل حسبه أن يشير بين الحين والآخر إلى تعريفها في المعجم.

بما أنَّ الدموع والبكاء والضحك لا يحين حينها إلاَّ في مواقف متأزّمة فلربما كان مناسباً هنا تهنئة كل أولئك الذين جابوا الحياة بدون أزمات أو بالأحرى صامدين أمام الأزمات ولم يذرفوا قط دمعة واحدة وسلموا من البكاء ولم يشيعوا أحداً بالبكاء وكتموا كل ضحكة طبقاً للتعليمات. وهنيئاً لمن يضطرّ كيس ملتحمته إلى أن يقوم بعمله على الإطلاق ولمن اجتاز المخاطر كلها من غير دموع ولم يحتج قط إلى قناته الدمعية. وهنيئاً أيضاً لمن يحكم السيطرة على ساق دماغه ولم يكن عليه أن يضحك أو يبتسم يوماً في اليقين الذاتي الدائم بالوجود من إحساس وجودي آخر إلاّ من الإحساس الوجودي بالحكمة! هتاف لبوذا وموناليزا اللذين كانا بالكليّة موقنين يقيناً ذاتياً في وجودهما.

بما أنَّ الألم أيضاً سيكون بالضرورة متوقعاً ووشيك الوقوع فلا ينبغي اقتباس فقرة المعجم كلها هنا، بل ينبغي اقتباسها على نحو موجّه

وبجملتها الحاسمة الفاصلة فقط: «إنَّ درجة الإحساس بالألم مختلفة من فرد إلى آخر، وقبل كل شيء أيضاً لأنه يلحق بالألم الجسدي أصلاً تجربة الألم النفسية أيضاً. وكلاهما معاً يولّدان الألم الذاتي».

بما أن ليني وكل المصابين بمصاب لم يحسوا بالألم فحسب، بل **تألموا** أيضاً فإنه ينبغي الإسراع هنا بالاستشهاد بجملة المعجم الحاسمة عن **الألم** لكي نكمل عدّتنا. فكلما كان متاع الحياة المفجوع به أعظم وكانت طبيعة الإنسان أكثر حساسية اشتد إحساس الإنسان به (بالألم)». وبما أنَّ الضحك Lachen والألم Leiden يبدأان بنفس الحرف (L) فيجب أن يتخذ الضحك مستقبلاً صيغة مختصرة هي (ل١) والألم (ل٢) لتفسير حالات وجدانية.

شيء واحد مؤكّد: هو أنه لا بدَّ أن تكون كلتا الأسرتين، أسرة غروتن وأسرة هويزر ومن ضمنهما ماريا فان دورن التي كانت أيضاً مرتبطة بالأسرتين، قد فجعتا بمتاع حياة عظيم نوعاً ما. وقد حدث لدى ليني شيء يقلق: فقد نحلت واكتسبت عند الغرباء سمعة بكاءة؛ فشعرها الرائع لم يسقط سقوطاً، بل ذهبت نضارته، وما من شيء استطاع أن يقوّي شهيّة ليني، حتى ولا فنون الشوربة الرائعة عند ماريا التي حاولت هي أيضاً أن تزاولها والدموع في عينيها ـ، إذ أنها نشرت أمام ليني سلّم الشوربة الغني الخاص بها وجلبت لها الخبزات الأكثر طراوة. صور من تلك الفترة التقطها خلسة أحد موظفي أبيها وانتقلت فيما بعد إلى حوزة ماريا، تُظهر ليني عليلة، إذا صحّ القول، وشاحبة من الألم والوجع، وذهب البكاء والدموع بقواها، من غير أن تكون هناك أيضاً مجرّد دلالة تبشّر بالضحك. ترى ألم تكن ليني أرملة في طبقة

أعمق وخفية على لوته ولم تكن أفلاطونية فحسب؟ وعلى أية حال فإنَّ وجع ليني الذاتي لا بدَّ أنه كان كبيراً. ولم يكن بأقلَّ منه عند الآخرين. فأبوها لم يعد ينعم في التفكير فحسب، بل ظهرت عنده كآبة أيضاً، (وطبقاً لمعلومات كلّ من كانت له علاقة به) لم «يعد يركز انتباهه». وبما أنَّ هويزر الشيخ كان أيضاً محطماً وأنَّ لوته أيضاً «لم تعد منذ زمن طويل لوته القديمة» (طبقاً لإفادتها هي)، فإنَّ السيدة غروتن، وهي على كل حال في غرفة النوم، «تتناول بين الحين والآخر بضع ملاعق من الشوربة ونصف شريحة من الخبزّ المقمّر» (ماريا فان دورن)، مترقبة الموت، فقد توافر هذا ليكون تفسيراً للواقع أن المحل لم يزدهر من الآن وصاعداً فحسب، بل إنه توسّع أيضاً، إنه تفسير هويزر الشيخ الذي يجيء معقولاً نوعاً ما: «كان له موقع جيّد وكان بناؤه جيداً، وكان المحاسبون ،خبراء التصميم والبناء الذين كان هوبيرت قد وظفّهم، مخلصين جداً بحيث إنه ظل يسير سيراً منتظماً، ومهما يكن من أمر فقد كان هذا في السنة التي سقط فيها هوبيرت سقوطاً تاماً وأنا كذلك. ولكن قبل كل شيء: الآن أزفت ساعة المحاربين القدماء ـ كانوا قد صاروا في أثناء ذلك بضع مئات، واستولوا على المحل!»

* * *

كان من الممكن أن يكون الموقف حرجاً وحساساً جداً لو اتُخذت لوتّه هويزر بالذات شاهداً على فترة غامضة في حياة غروتن الشيخ؛ ومما يؤسف له أنه يجب الاستغناء عن إيجازها وموضوعيتها الرائعة.

إذا اتخذ المرء على سبيل المثال تعبيراً مناسباً لذوق العصر فإنها

كانت إذاً «مرافقته الدائمة» في السنة القادمة التي يجب أن تحسب بدءاً من نيسان سنة ١٩٤٠ وحتى حزيران تقريباً سنة ١٩٤١. والأرجح أنه كان هو أيضاً مرافقها الدائم، ذلك لأنهما كليهما كان في حاجة إلى العزاء الذي لم يجداه، فيما يبدو، في النهاية.

لقد جابا أرجاء البلاد، الأرملة الحامل مع الرجل الكئيب الذي لم يقرأ الملفّات عن الحادثة التي كانت قد ألّمت بابنه وابن الأخت ولم يستخبر عنها من لوته وهوفغاو إلاً على نحوٍ وجيز؛ رجل كان يتمتم بينه وبين نفسه أحياناً بعبارة «خراء على ألمانيا» وكان يتنقل، كما يقال، من أرض بناء إلى أرض بناء، ومن فندق إلى آخر ولم يُلقِ في الواقع نظرة واحدة في أي مكان على الرسوم والكتب والملفات أو أراضي البناء. إنه يسافر بالقطار أو السيارة ويطير أيضاً بين الحين والآخر، ويدلّل فيرنر هويزر ابن الخامسة الذي يبلغ عمره في هذه الأثناء الثانية والثلاثين ويسكن في منزل رائع فخم هو ملك له ومؤثّث بالأثاث الحديث ويعبد آندي ورْهول ويود أن «يغضب على نفسه» لأنه لم يعجّل في شراء ما فيه الكفاية؛ إنه مُعجبٌ بما يعجب النشيء ومتحمّس للجنس وصاحب مكتب مراهنات، ويتذكّر تماماً نزهاته الطويلة على شواطيء شيفينيغين وميرلي بان وبولون، ويتذكر أنَّ «الجد غروتن» مدّ اليدين للمساعدة وأنَّ لوته بكت؛ ويتذكر أماكن بناء وحملة علامة (ت) وعمالاً في «ثياب غريبة» (الأرجح سجناء. المؤلف).

وبين الحين والآخر فإنَّ غروتن الذي لم يعد يتخلّى عن لوته من ناحيته، يلازم البيت عدة أسابيع ويجلس عند سرير زوجته ويحلُّ محلَّ

ليني ويحاول يائساً مثلما تحاول ليني أيضاً أن يقرأ لزوجته شيئاً إيرلندياً، حكايات وأساطير وأغاني ـ ولكن من دون جدوى مثل ليني؛ وتهزّ السيدة غروتن الرأس متعبة وتبتسم. إنَّ هويزر الشيخ الذي يبدو أنه شفي من وجعه على نحوٍ أسرع ولم يعد يسكب دمعة واحدة في أيلول «ويذهب إلى المحلّ» من جديد فإنه يأتيه بين الفينة والأخرى السؤال المفاجىء: «أما انهار المحل بعد؟» لا. بل إنه ما زال في صعود: ويقف المحاربون القدماء ويصمتون.

* * *

هل انهدَّ حيل غروتن هذا في الواحدة والأربعين من العمر؟ ألا يستطيع أن يوطّن نفسه على الرضا بموت ابنه على حين يموت من حوله بكثرة أبناء ناس آخرين من غير أن ينهار هؤلاء؟ هل أخذ يقرأ الكتب؟ نعم. كتاب واحد. إنه ينبش كتاب صلوات يعود إلى سنة ١٩١٣ وأهدي إليه حين تناول القربان أوّل مرة، و«يبحث عن السلوى في الدين» («الذي لم يكن عنده قط». هويزر الأكبر). والنتيجة الوحيدة لهذه القراءة هي أنه يهب المال «كومات كومات»، كما يشهد هويزر وكنّته لوته أيضاً، وكذلك السيدة فان دورن التي تقول «رزمات رزمات» بدلاً من «كومات كومات» («كما أنه أعطاني أنا المال رزماً، فاسترجعت آنذاك مزرعة أبوي الصغيرة وقطعة أرض صغيرة») ـ ويذهب إلى الكنيسة، لكنّه لا يتحمل الجو في الداخل أكثر من دقيقة أو دقيقتين» (لوته)، إنه لا يبدو وكأنه في السبعين على حين تبدو زوجته التي بلغت الآن التاسعة والثلاثين وكأنها في الستين» (فان دورن). ويقبّل زوجته،

ويقبّل ليني في بعض الأحيان، إلاّ أنه لم يقبّل لوته قط.

هل يبدأ التدهور؟ فالدكتور فندلين الذي كان فيما مضى طبيب أسرته هو الآن في الثمانين ومنذ زمن طويل فوق اسطورة سرّ الطبيب وفي منزله القديم البناء حيث لا تزال بقايا عيادته بادية للعيان، خزانات بيضاء وكراسي بيضاء، وهو مهتم كل الاهتمام بأن يكشف عن الهوس الدوائي المطابق لذوق العصر بأنه عبادة أصنام، يقول إنَّ «غروتن كامل، كما أنه في كامل الصحة أيضاً؛ كل شيء، كل شيء عنده سلبي أيضاً ـ الكبد، القلب، الكليتان، الدم والبول ـ، كما أنَّ الرجل قلّ أن دخّن أيضاً، ربما سيجارة واحدة في اليوم وربما شرب زجاجة خمر في بحر أسبوع واحد. أهو مريض؛ لا، لا أثر لمرض ـ أقول لك إنه عرف ما كان وعرف ما فعل. وإذا كان مظهره قد دلّ في بعض الأحيان على أنه في السبعين فإنَّ هذا لا يعني أيَّ شيء ـ طبيعي أنه كان قد تأذّى كلياً من الناحية النفسية والمعنوية، أما عضوياً: فلا والشيء الوحيد الذي احتفظ به من الإنجيل: (صادقوا المال الظالم)، فهذا يتغلّب على الروح».

* * *

ألا تزال ليني تولي إفرازاتها الهضمية الكثير من الاهتمام؟ أغلب الظن لا. إنها تزور راحيل مراراً وتكراراً، بل إنها تتحدث عن ذلك. «أشياء غريبة وعجيبة»، كما تشهد مارغريت. «لم أصدّق أيَّ شيء ثمَّ سافرت معها ذات مرة ورأيت أنه كان صحيحاً. لم تعد هاروسبيكا العرافة تمارس أية وظيفة. حتى إنها لم تعد (راهبة مراحيض). ولم يسمح لها بالدخول إلى الكنيسة إلاّ حين لم يكن هناك ترتيلة منشدين

رسمية أو صلاة. حتى ولا غرفتها الصغيرة باتت ملكاً لها؛ فقد قبعت فوق تحت السقف في غرفة صغيرة جداً كانت فيما مضى مخزناً للمكانس ومسّاحات البلاط ومساحيق التنظيف وخرق المسح، وأنت تعرف أيَّ شيء طلبته منا نحن الاثنتين؟ طلبت سجائر. الحق أنني لم أكن أدخن آنذاك، غير أنَّ ليني أعطتها بعض السجائر، ثم أشعلت على فورها سيجارة وابتلعت الدخان بنهم؛ ثم قطعت رقبتها ـ وكم من شخص رأيته يقطع رقبة السيجارة، إلاّ أنه ما من أحد أحسن هذا العمل مثلها! عمل ناجح ـ، كان عملاً يتطلّب مهارة وكان مصنوعاً على القياس، كما في السجن أو في المرحاض بالمستشفى، قصّت باحتراس وحذر تامين الوهج بمقص، ثم أخذت تنكش في الوهج الساقط، فلربما كان فيه خيط رفيع من التبغ ـ وكل شيء في علبة ثقاب فارغة. وفي أثناء ذلك كانت تتمتم: «الله قريب، الله قريب، إنّه هنا» لا في جنون أو سخرية قالت هذا، بل في جدّ، لم تكن مجنونة، إلاّ أنها فسدت بعض الشيء لكأنما اقتصد في صابونها. لم أعد أذهب إلى هناك، واعترف بصراحة أنني خفت ـ كانت أعصابي على كل حال منهكة لأنَّ الولد كان قد مات وابن خالته أيضاً؛ وفي غير أوقات حضور شلومر كنت أتنقل في حانات الجنود الرخيصة وكنت أروح مع أحدهم؛ كنت مستعدة، حتى وأنا في التاسعة عشرة ـ لم يكن في مقدوري أن أرى بأم عيني ما كان يحدث مع الراهبة، كانت محبوسة مثل فأرة حكم عليها بالموت، لم يكن في وسع المرء أن يرى هذا، كانت قد ازدادت تغضّناً، وقضمت الخبز الذي جلبته لها ليني وقالت لي المرة تلو المرة:< أي مارغريت، دعكِ من ذلك، دعيه>. وسألت:< أي شيء>.< ما تفعلينه أنت >لم تعد لدي الشجاعة،

لم أستطع، كانت أعصابي منهكة ـ وظلت ليني تتردد عليها سنوات. قالت أشياء مضحكة: ‹ لماذا لا يقتلونني بدلاً من أن يخبّؤني› وقالت ليني دائماً: ‹ اللعنة، ينبغي أن تعيشي، عليك أن تعيشي، ألا تسمعين›، ـ وكانت ليني تبكي. لقد أحبّتها. وفيما بعد عرف المرء («ماذا؟») أنها كانت يهودية ولم يبلغ الدير عنها، بل تصرّف وكأنما اختفت عند الانتقال، لقد خبأوها، لكنهم لم يطعموها إلا الشيء القليل. ولأنّها لم تكن ستحصل على بطاقة تموينية، لكنهم كانت لديهم في أثناء ذلك حديقة الفواكه والخنازير التي كانوا يسمّنونها. لا، لم تتحمّل أعصابي. فقد لزمت جحرها مثل فأرة منكمشة ـ ولم يأذنوا لليني بالدخول إليها إلاّ لأنّها كانت غاية في الحزم وقوة الإرادة ولأنهم عرفوا كم كانت ساذجة وبسيطة. فقد اعتقدت أن الراهبة عوقبت فقط. وحتى اللحظة الأخيرة لم تعرف ليني ما هو اليهودي وما هي اليهودية، وحتى لو عرفت ذلك، ولو عرفت كم كان هذا خطيراً: لقالت: وماذا في الأمر؟ وإني لأقسم بأنها ما كانت ستتوقف عن الذهاب إليها. كانت ليني شجاعة ـ وكانت لا تزال لديها الشجاعة. لقد ساءت الحال عندما قالت الراهبة: ‹الإله قريب، الإله قريب›، ونظرت إلى الباب، كأنه دخل في تلك اللحظة، لتوه ـ لقد أخافني هذا، أما ليني فلم تجزع ـ، نظرت إلى الباب، في لهفة وترقب ـ لكأنها لن تفاجأ لو أن الرب دخل.

كان هذا في بداية سنة ١٩٤١، وكنت أعمل آنذاك في المستشفى العسكري، نظرت إليَّ بعد ذلك وقالت: ‹لا الشيء الذي تفعلينه سيء فحسب، بل إنَّ ما تتعاطينه أيضاً هو أسوأ وأفظع. فمنذ متى تتعاطينه›؟ قلت: ‹منذ أربعة عشر يوماً› قالت: ‹ إذاً، ما زال هناك

وقت›. قلت: ‹لا ، لن أضحيّ به أبداً›. إنه المورفين طبعاً ـ أولم تعلم ذلك أم أنه لم يخطر هذا ببالك على أقل تقدير؟»

* * *

إنَّ الإنسان الوحيد الذي يبدو أنه لم يكن في حاجة قط إلى العزاء هو السيدة شفايغرت التي تظهر في ذلك الوقت مراراً وتكراراً في بيت غروتن لكي تعود أختها المحتضرة وتحاول أن توضح لها أن الأقدار لا تستطيع أن تحطم شخصاً بل تقويه»؛ وأنَّ زوجها غروتن برهن عن عنصره الرديء لأنه كان «محطماً إلى هذا الحد». ولا تستحي من أن تلوم أختها التي تذبل على نحوٍ ما: تذكّري الفنيّين الأُباة (سكان إيرلندة الأصليين) » وتتحدث عن لانغيمارك، إنها تستاء، وتستاء استياءً مميتاً حين تسأل عن أسباب غمّ ليني البادي وحين تعلم من فان دورن التي تؤكد هذه الأقوال كلها بصفتها مصدر معلومات أنَّ ليني تحزن على الأرجح على ابنها إرهارد. وتجد الحقيقة الواقعة مزعجة أنَّ «فتاة الخلنج» هذه (وهو على كل حال تغيير «فتاة البين بين». المؤلف) «تدعي» بأنها تحزن على ابنها مع أنها هي نفسها لم تحزن عليه. وبعد هذا «الخبر المزعج» تكفّ عن زياراتها وتغادر البيت قائلة: «لكن هذا في الحقيقة كثير ـ يا خلنج».

* * *

طبيعي أنه تعرض في هذه السنة أفلام أيضاً، وتذهب ليني بين الحين والآخر إلى السينما. وتشاهد فيلم ‹الرفاق في البحر› وفيلم‹

كانت ليلة رقص صاخبة›، وتشاهد للمرة الثانية فيلم ‹بسمارك›. ويشك المؤلف في أن يكون أحد هذه الأفلام قد واساها على وجه التقريب أو أن يكون قد سلاّها أيضاً.

ترى هل واستها الأغاني الشائعة آنذاك من مثل ‹زوجة جندي صغيرة جريئة› و‹نحن نسافر صوب أرض الملائكة›؟ يجب أن يبقى هذا أمراً مشكوكاً فيه.

بين الآونة والأخرى يستلقي آل غروتن الثلاثة، الأب والأم والإبنة، في السرير، في غرف مظلمة ولا يغادرون غرفهم عند الإنذار بغارة جوية أيضاً، ولا يحدقون طوال أيام، بل طوال أسابيع إلاّ إلى السقف» (فان دورن).

في تلك الأثناء انتقل آل هويزر كلهم إلى منزل غروتن: أوتو وزوجته ولوته وابنها فيرنر ـ وتحدث حادثة كان من الممكن التكهّن بها، بل توقّعها تماماً، ومع هذا فإنها تعتبر أشبه بمعجزة، حتى أنها لتساهم في الشفاء: إذ يبصر طفل لوته النور في ليلة الواحد والعشرين من كانون الأول ليوم الثاني والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٤٠، في أثناء غارة جوية؛ إنه صبي يزن ثلاثة كيلوغرامات ونصف، وبما أنه جاء قبل أوانه بقليل، فإنّ القابلة القانونية لم تكن على أهبة الاستعداد، كانت «مشغولة في مكان ما» (بتوليد بنت، كما تبيّن فيما بعد)، وبما أن لوته القوية الإرادة أثبتت فجأة أنها ضعيفة ولا حيلة لها مثل فان دورن فإنّ معجزة أخرى تحدث: إذ تغادر السيدة غروتن سريرها وتعطي ليني التعليمات بصوت دقيق حازم، إنما ودود؛ وبينما تنتاب آخر آلام الوضع لوته يسخن الماء ويعقّم مقصّ وتدفأ قماطات وأغطية وتطحن

القهوة ويهيّأ الكونياك؛ إنها ليلة باردة مظلمة، وأشدّ ليالي هذه السنة حلكة، والسيدة غروتن التي نحلت «ولم تعد إلاّ روحاً تقريباً» (فان دورن) كانت ساعتها الحاسمة، في برنس حمامها السماوي الزرقة تتفحّص مرات ومرات وجود الأدوات الضرورية على الكومودينة وتمسح بماء الكولونيا جبين لوته وتمسك بيديها وتفتح رجليها بدون أية حساسية مفرطة وتضعها في وضع أشبه بالقرفصاء؛ وتستلم الطفل غير مذعورة على الإطلاق، وتغسل الأم بماء الخل وتقطع الحبل السرّي وتُعنى بأن يوضع الطفل «دافئاً دافئاً، دافئاً» في سلة غسيل أحسنت ليني تنجيدها. وبما أنَّ القنابل المنفجرة لا تسقط بعيدة جداً فإنها لا تسبب لها أية مضايقات، أما مراقب الوقاية الجوية، شخص اسمه هوستر، والذي يطالب دائماً بأن تطفأ الأنوار ويلجأ كل واحد إلى القبو فإنها تصرفه بحضور بديهة بحيث إنَّ كل شهود هذه الحادثة (لوته، ماريا فان دورن وهويزر الشيخ) يقولون بالإجماع، وكلٌّ منهم بمنأى عن الآخر، إنها بدت «وكأنها شرطي».

هل ضاعت فيها طبيبة؟ وعلى أية حال فإنها «تنظف الرحم» (السيدة غروتن عن هويزر الأكبر)، وتراقب خروج المشيمة وتشرب القهوة والكونياك مع ليني ولوته؛ وعلى نحو مفاجىء كانت قد أثبتت فان دورن ذات الحيوية أنه «لا قبل لها بهذه العملية» (لوته)، وكانت قد مكثت معظم وقتها في المطبخ متعللة بحججٍ واهية، فتقدّم القهوة لكلا الرجلين، غروتن وهويزر، وتتكلم دائماً بصيغة «نحن» («ها نحن نقوم بهذا، وها نحن ننجز ذاك، ولن ندع أحداً يخضعنا، أجل، نحن الخ... «وتفصح بصوت مهموس عن نقد للسيدة غروتن: «عسى أن

تقاوم أعصابها، يا إلهي، لو لم يكن هذا كثيراً عليها»، ثم تبتعد عن مكان الحادثة الذي هو غرفة نوم لوتّه ولا تظهر على الساحة إلاّ بعد زوال أسوأ الأمور. وحين تتلفت السيدة غروتن حواليها لكأنها ترتاب هي نفسها في قدرتها على أن تشمّر عن ساعد الجد، عندئذ تدخل مع الصغير فيرنر إلى غرفة النوم وتهمس له: «هيّا بنا نر أخيّنا، أليس كذلك؟» وكأنما شكّ شخص ما في ذلك فقد قال غروتن الشيخ لهويزر الشيخ: «عرفت دائماً وقلت إنها إمرأة عظيمة».

بعد ذلك بأيام قلائل تظهر بعض التوترات، وذلك حين تصرّ لوته بشدة على أن تتخذ السيدة غروتن عرّابة، ولكنها تمتنع عن أن تعمد الصبي الذي أحبّت أن تسميّه كورت («كانت هذه رغبة فيللي إذا ما كان صبيّاً ـ ولو كانت بنتاً لكان لها أن تسمّى هيلينا»)، وتغلظ القول للكنيسة، «لا سيّما الكنيسة هناك» (وإنه لتعبير لم يكن في الإمكان إيضاحه إيضاحاً تاماً، وباحتمال يقارب اليقين فإنها قصدت الكنيسة الكاثوليكية الرومية، ولم تعرف كنائس أخرى عن كثب. المؤلف)، ولا تحنق السيدة غروتن من ذلك، إنما تقبل كفالة المعمّد «في أسى شديد، شديد،» وتُعنى كثيراً بأن تضع للصبي في المهد شيئاً مرتباً ملموساً ودائماً، فتهبة قطعة أرض لم تزرع بعد على طرف الشاطىء كانت قد ورثتها من أبويها عند وفاتهما؛ وتنهي كل شيء على نحوٍ صحيح وسليم مع الكاتب بالعدل، ويعد غروتن الشيخ بشيء كان سيفي به من دون شك، لكنه لن يستطيع الوفاء به: «وأنا، أنا سأبني له بيتاً عليها».

* * *

يبدو أنَّ فترة أعمق اكتئاب قد ولّت إلى غير رجعة. فكآبة غروتن الشيخ التي كانت حتى ذلك الحين سلبية جامدة ومعدومة الإحساس تصبح فعّالة: «بانتصار، لا بل بشيء يقارب الشماتة» (هويزر الأكبر) يؤكد حقيقة الأمر أنَّ مكتبه يُصاب بقنبلتين منفجرتين في الصباح الباكر من يوم السادس عشر من شباط سنة ١٩٤١. وبما أنه لم تسقط قنابل حارقة ولم تسبب قوة الانفجار أية نار فلم يتحقق الأمل «بأن يحترق كل شيء»: وبعد أعمال تنظيف وترتيب تستغرق اسبوعاً ولا تشارك فيها ليني بحماسة عالية يتبيّن أنه لم يضع ملف واحد، وبعد أربعة أسابيع أخرى يرمّم المكتب من جديد. لن يدوسه غروتن بعد ذلك أبداً، وسيفاجأ المحيطون به كلُّهم أنه سيصبح شيئاً لم يكن هو عليه حتى ذلك الحين، «ولا حتى في شبابه، سيصبح اجتماعياً لطيف المعشر» (لوته هويزر). وتضيف لوته هويزر: «صار لطيفاً جداً، شيء مفاجىء تماماً. كلَّ يوم كان يصرّ على أن يشرب الجميع القهوة معاً بين الرابعة والخامسة في المنزل، وكان على ليني أن تكون موجودة، وحماتي والطفلان، كلهم. وبعد الخامسة كان ينفرد مع أبي وكان يطلب منه بأن يطلعه على تفاصيل «المحل» كلها والرصيد الحالي وحركة الحسابات والمشروع وأماكن البناء ـ طلب أن يقدموا له كشفاً مالياً وأمضى ساعات كثيرة عند المحامين ورجال القانون الموظفين ليستعلم كيف يمكن تحويل المؤسسة التي شغلته وحده كلياً إلى شركة. وكتبت «قائمة بالمحاربين القدماء». وكان من الشطارة ما يكفي ليعرف أنه في سنِّ الواحدة والأربعين، فضلاً عن أنه في كامل الصحة، ـ كان لا يزال ملزماً بالتجنيد، وأراد أن يضمن لنفسه منصب مستشار في مرتبة المدراء. وبناءً على نصيحة

زبائنه ـ الذين كانوا من عليّة القوم تقريباً، ومن بينهم بعض الجنرالات أيضاً ـ وكلهم كما يبدو، أرادوا له الخير، فقد غيّر لقبه إلى لقب «مدير تخطيط»؛ وصرت أنا مديرة مكتب الموظفين وأبي مندوباً مالياً ـ أما ليني التي كانت قد بلغت الثامنة عشرة والنصف فلم يفلح في أن يجعلها مديرة: لقد رفضت. فكرّ بكل شيء ـ شيءُ واحد لم يذكره: أن يؤمّن ليني مالياً. وفيما بعد، وحين وقعت الفضيحة عرفنا كلنا طبعاً لماذا كان قد دبّر المسألة على ذلك النحو، لكن في مثل هذه الأحوال لم يكن عند ليني وزوجته شروى نقير. إذاً كان لطيفاً ـ شيء آخر مفاجيء على نحو أكثر: لقد تكلّم عن ابنه؛ مضى ما يقارب السنة من غير ذكرٍ للإسم وما كان للإسم أن يذكر. أما الآن فقد تكلّم عنه، لم يكن غبيّاً بما يكفي لأن يتحدّث عن سخافة مثل القدر أو المصير أو شيء من هذا القبيل، غير أنه قال إنه ليستحسن أن الابن لم يمت موتاً «سلبياً»، بل مات «فعّالاً». لم أفهم هذا فهماً سليماً لأن هذه القصة الدانمركية ازعجتني جداً بعد أكثر من سنة وبدت لي سخيفة بعض الشيء أو لنقل: إنني كنت سأجدها سخيفة لو لم يمت كلاهما في سبيل ذلك؛ واليوم أظن أن «الموت فداءً» أيضاً لا يجعل قضيّة ما أفضل وأعظم أو أقل سخافة؛ وكل ما في الأمر أنه لا يروق لي، ولا يسعني أن أضيف أكثر من ذلك. ثم إنه كان لدى غروتن «التصميم الجديد» للمحلّ، وأقام في حزيران بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لتأسيس المحل، هذا الاحتفال الذي أراد أن يعلن فيه كل شيء. كان ذلك في الخامس عشر تماماً بين غارتين لقاذفات القنابل ـ، لكأن قلبه حدّثه بذلك. ونحن، نحن لم يحدثنا قلبنا بشيء، بأيّ شيء».

واصلت ليني محاولاتها على المعزف بشكل مكثّف «وعلى نحوٍ نمَّ فجأة عن عناء ودأب تامين» (هويزر الأكبر)، وشيرتينشتاين الذي ورد ذكره وكان قد استمع إليها «لا غير مهتم ولكن في ملل كثر أو قلَّ (على حدّ قوله هو نفسه) حين وقف عند النافذة متأمّلاً أرهف السمع فجأة وسمع بعد ذلك في مساء من أمسيات حزيران أعظم وأروع تحليل سبق له أن سمعه. كانت هناك فجأة قسوة، أشبه بالقسوة الباردة في ذلك، كما لم اسمعها من قبل على الإطلاق. وإذا ما سمحت لي أنا الرجل الذي انتقد غير واحد النقد الهدام، بالملاحظة التي قد تفاجئك: لقد استمعت إلى شوبيرت من جديد وكأني أستمع إليه أول مرة، ومن ذا الذي كان يعزفه ـ ما كنت لأستطيع أن أقول لك هل كان العازف رجلاً أم امرأة ـ فما كان قد تعلّم شيئاً فحسب، بل كان قد فهم شيئاً أيضاً ـ وإنه لمن النادر جداً أن يفهم غير مختصين شيئاً من هذا القبيل. لم يعزف إذ ذاك شخص ما على المعزف، هناك ـ هناك كانت موسيقا، ووجدت نفسي أقف المرة تلو المرة عند النافذة وانتظر، وفي معظم الأحيان بين السادسة والثامنة. ولم يمضِ إلاً قليل حتى استدعيت إلى الجيش، وغبت طويلاً، طويلاً ـ وحين عدت كان المنزل محتلاً، كان ذلك في عام ١٩٥٢ ـ، أجل، غبت إحدى عشرة سنة، في الأسر لدى الروس ـ آنئذٍ عزفت عزفاً رديئاً دون مستواي بكثير، لم تكن الحال سيئة ـ، موسيقا راقصة، أغاني راقصة وطقاطيق ـ أشياء كريهة غير سارة؛ هل تعرف ما معنى هذا حين يعزف «ناقد حفلات موسيقية مهاب» (ليلي مارلين) ست مرات تقريباً كل يوم؟ ـ وبعد أربع سنوات من عودتي، ولا بدَّ أن يكون هذا في سنة ١٩٥٦، استعدت أخيراً منزلي ـ إني لأحب هذه الأشجار في

فناء الدار والسقوف العالية ـ وما أسمعه وأعرفه مرة أخرى بعد خمس عشرة سنة ـ إنه عزف الجزء الذي يجب عزفه بطريقة معتدلة من سوناته آمينور (الموديراتو من سوناته آ ـ مول)، والقطعة المعتدلة السرعة من سوناته جي ماجور (الاليجريتو من سوناته جي دور)، كان عزفاً غاية في الوضوح والشدة واللحن لم يسبق لي أن سمعته، ولا في سنة ١٩٤١ أيضاً، حين بدأت أصغي وانتبه فجأة. كان هذا عزفاً ممتازاً من الطراز الأول».

ـ ٤ ـ

إنَّ ما سيأتي الآن يمكن أن يحمل العنوان: ليني ترتكب حماقة، ليني تخرج عن درب الفضيلة ـ أو: ما خطب ليني؟

كان غروتن قد دعا إلى حفل المؤسسة الذي أقيم في منتصف سنة ١٩٤١ «كل المصطافين العاملين في المؤسسة والمقيمين حالياً في الوطن». إنَّ الشيء الذي لم يستطع أحد أن يعرفه ظنّاً، «والشيء الذي لم يكن في الإمكان استشفافه بالمناسبة من الدعوة» (هويزر الأكبر)، أنه ربما خطر ببال شخص ما أنَّ عاملين في المؤسسة سابقين أيضاً ربما اعتبروا أنفسهم مدعوين، وحتى التعبير عاملون في المؤسسة سابقون كان يمكن أن يكون مبالغة لابأس بها لهذا، إذ أنَّ هذا قد عمل متطوعاً عندنا مدة ستة أسابيع، لا، لم يشأ أن يكون متعلماً لمهنة، فقد وجد هذه التسمية «بدائية جداً»، وكان عليه أن يكون «متطوعاً» على فوره، أما التعلم فقد رفضه، لقد أراد أن يعلمنا كيف يجب أن يبني المرء ـ وطردناه مرة أخرى، ثم ذهب بعد ذلك إلى الجيش، فالولد لم يكن سيئاً، كان أحمق غريب الأطوار ليس غير، إلاّ أنه لم يكن يحسن الحماقة أو الجنون مثل إرهارد هذا ـ كان أحمق رديئاً ميالاً إلى العملقة، وهذا الخنوع لم نستلطفه قط؛ كانت فكرته أن نتخلّى عن الخرسانة< ونكتشف من جديد> <فخامة الحجر> ـ حسن، إذاً، ربما كان في هذا شيء من الحقيقة، على أننا لم نستطع أن نستخدمه، ذلك لأنه لم يشأ ولم يستطع

أن يتناول حجراً بيده. اللعنة، فأنا عملت نحو ستين سنة في البناء، وآنذاك كان لي على أية حال نحو أربعين سنة في ذلك العمل، وكان في إمكاني أن أتصوّر شيئاً ما تحت ‹فخامة الحجر›؛ ولقد رأيت مئات من المعمارين ومتعلّمي مهنة البناء كيف كانوا يتعاملون مع الحجارة ـ وما عليك إلاَّ أن تشاهد ذات مرّة كيف يمسك معمار حقيقي بحجر!

حسن ـ لكن هذا الذي لم تكن يدٌ ولم يكن له إحساس بالحجر ـ مهذاراً كان هو. لم يكن خبيثاً سيء الطبع، لا، إنما: كانت له خطط كبيرة غير قابلة للتحقيق، حتى إننا عرفنا من أين كانت تأتي».

عنصرٌ آخر للحفل تعيس غير متوقع: أنَّ ليني لم ترغب في الذهاب إلى هناك. كانت قد فقدت اللذة في الرقص، كانت «الآن فتاة رزينة جداً وهادئة جداً، أجادت التفاهم مع أمها؛ وتعلمت معها الغة الفرنسية وقليلاً من الإنكليزية وكانت مولعة بمعزفها» (فان دورن). وفضلاً عن ذلك كانت تعرف «مستخدمي المؤسسة العاملين في المكان معرفة كافية، وما من أحد منهم كان سيستطيع أن يوقظ مرة ثانية حب الرقص لديها» (لوته هويزر) ولم تشارك ليني في احتفال المؤسسة إلاَّ أداءً للواجب وتلبية لطلب أبويها.

* * *

مما يؤسف له أنه لا بدَّ هنا من قول بضع كلمات عن لويس بفايفر الذي وصفه هويزر وصفاً له وقع الصاعقة وعن عائلته وبيئته مع أنه لا يلعب إلاَّ دوراً ثانوياً مميزاً بولغ في عرضه. فقد كان أبو لويس، فيلهيلم بفايفر، «زميل مدرسة وزميل سلاح وكفاح» لغروتن الشيخ، وكلاهما

أصله من القرية نفسها، وكلاهما رعى حتى زوج غروتن صداقة غير وطيدة انتهت بأن بدأ فيلهيلم بفايفر «يزعج غروتن بحيث إنه لم يعد يستطيع أن يتحمّل ذلك» (هويزر). كان كلاهما قد شارك في إحدى معارك الحرب العالمية الأولى (على اللوس، كما تبيّن)، وبعد العودة إلى الوطن من الحرب فإنَّ بفايفر الذي كان آنذاك في العشرين من عمره «أخذ يجرّ رجله اليمنى جراً» (هويزر، وكل ما يلي أيضاً)، «لكأنها مشلولة. إذا كان لا بدّ من ذلك، فليكن، ولا اعتراض لي عندما يحاول المرء الحصول على معاش، على أنَّ هذا بالغ، ولم يعد يتكلّم عن شيء آخر إلاّ عن‹ شظيّة قنبلة بحجم رأس الدبوس› أصابته في‹ موضع حاسم›؛ وكان هذا كلباً عنيداً شديد الجلد جرجر رجله ثلاث سنوات من طبيب إلى طبيب ومن مصلحة معاشات إلى مصلحة معاشات بحيث إنهم أعطوه أخيراً معاشاً ووفروا له فضلاً عن ذلك الدراسة ليكون معلماً. حسن. حسن. فالمرء لا يريد أن يظلم إنساناً ـ وربما كان هو ـ ماذا أقول ـ كان حقاً مشلولاً ـ على أنَّ الشظية لم يعثر عليها أحد قط ـ ليس من الضروري أن تكون الشظية السبب في ذلك، إنّه ليشفع أيضاً لوجوده، حسن ـ لقد حصل في الواقع على معاشه وصار معلماً وهلمّ جرا، على أنَّ شيئاً غريباً حدث: أفقد هوبيرت صوابه وأثار أعصابه عندما كان يظهر بفايفر برجله المجرورة؛ وكان الموقف يزداد سوءاً بصورة دائمة، حتى أنه تكلّم أحياناً عن البتر، والحق أنَّ رجله تصلبّت فيما بعد. على أنَّ ‹هذه الشظية بحجم رأس الدبوس› لم يرها أحد قط ولم يثبتها حتى على أدق شاشات الأشعّة. وبما أنه لم يرها أحد قط فقد قال هوبيرت لبفايفر ذات يوم:‹ أنى لك أن تعرف أن الشظية بحجم رأس

الدبوس ولم يرها أحد حتى الآن› ؟ وعليَّ أن أقول إنَّ هذا كان حجة مذهلة ـ ومنذ ذلك الحين استاء بفايفر أيضاً إلى مالانهاية. غير أنه صنع بعدئذ من ذلك نوعاً من مذهب رأس الدبوس، ودائماً دائماً والمرة تلو المرة كان في إمكان الأطفال أن يسمعوا في المدرسة في الخارج في قرية لوسيميش عن الشظية وعن (اللوس)، ودام هذا عشر سنوات، واستمر هذا عشرين سنة، وعاد هوبيرت ليقول شيئاً صحيحاً كل الصحة ـ ومن القرية التي ننحدر كلنا منها ولنا فيها أقرباء كان يحكى لنا دائماً عنه ـ، هوبيرت قال: «حتى لو أنَّ فيها شظيّة: فإنّها لأكذب رجلٍ أعرفها ـ ويجرجرها هنا وهناك؛ وإنه لمستبعد أن تكون المسألة مسألة معركة، فقد كنت موجوداً ـ إذ أننا كنّا في الحملة الثالثة أو الرابعة ولم ندخل غمار المعركة بعد ذلك ـ، طبيعي أنه كانت هناك قنابل وما شابه ذلك، لكن ـ وبما أن الحرب سخف فإننا نعرف ذلك، لكن ليس إلى هذا الحد كما يصفها هو ،لم تستمر بالنسبة لنا إلاّ يوماً ونصف اليوم ـ ومن ذلك لا يمكن أن ينفق المرء على معيشته). ثم (تنهدة من جانب هويزر)، ثم ظهر ابن فيلهيلم، لويس، في الحفلة الراقصة».

* * *

كان لا بدَّ من القيام ببعض الزيارات في قرية لوسيميش للحصول على بعض المعلومات الموضوعية عن لويس. وقد سئل صاحبا مطعم كانا في سنّهما مقاربين لسنّ لويس، وسئلت زوجاتاهما اللتان لا تزالان تذكرانه؛ وأنَّ زيارة في بيت القس أثبتت أنها غير مجدية؛ فالقس لم يعرف آل بفايفر إلاّ من سجل القسيس بأنَّ الاسم «مثبّت منذ سنة

١٧٥٦ في لوسيميش»، وبما أنَّ فيلهيلم بفايفر لم ينتقل إلاَّ في سنة ١٩٤٠، «لا بسبب نشاطه السياسي الذي كان مخجلاً نوعاً ما، وإنما لأننا لم نعد نطيق مجالسته» (صاحب المطعم تسيمرمان في لوسيميش في الرابعة والخمسين، مستقيم ومن الثقات)، فإنَّ آثار بفايفر قد أمحت تقريباً هناك؛ والشهود الوحيدون هم للأسف كلهم، بنحوٍ أو بآخر، مغرضون: فان دورن، آل هويزر كلّهم وليني (أما مارغريت فلا تعرف أي شيء عن آل بفايفر)؛ وإنَّ معلومات الفئتين المغرضتين لا تتناقض في البيانات، بل في تحليلها فقط. وكل شهود الطرف المعارض للويس يذكرون أنه كان على لويس أن يضحّي بالمدرسة الثانوية في الرابعة عشرة من عمره ـ وفي هذا تشابه سيرته مع سيرة ليني ـ ويزعم آل بفايفر أنه «وقع ضحية بعض الدسائس». ومما لا جدال فيه، ومع أن هذه الصفة تذكر في أشدّ التغيّرات الساخرة اختلافاً: هو أنّه كان «رجلاً جميلاً». لم تكن له عند ليني صورة معلقة على الجدار، وكان له عند آل بفايفر نحو عشر، ويجب القول: إذا كان لهذه التسمية رجل جميل معنى ـ فإنها تنطبق على لويس. كان له عينان زرقاوان كزرقة السماء وشعر فاحم أقرب إلى أن يكون شعراً أسود تشوبه زرقة، وفيما يتعلّق بنظريات عرقية غاية في الابتذال فقد قيل كلام كثير عن شعر لويس الأسود الذي تشوبه زرقة؛ فقد كان أبوه أشقر وأمه وجميع أجداده (كل هذه المعلومات الآتية مصدرها الأبوان بفايفر)، بقدر ما كان معروفاً عن لون شعرهم أو كان مأثوراً؛ وبما أن كل أسلاف آل بفايفر وتولتسم (اسم أسرة السيد بفايفر قبل الزواج) الذين يمكن إثباتهم ورأوا النور في المثلث الجغرافي لوسيميش ـ فيربن ـ تولتسم (وإنه لمثلث يبلغ محيطه سبعة وعشرين

كيلومتراً)، فإنَّ أسفاراً محفوفة بالمخاطر لم تكن ضرورية. أما بيرتا وكيتي، أختا لويس اللتان عاجلتهما المنية في أول العمر، فقد كانتا بيضاوين، وإن لم تكونا شقراوين، مثلهما مثل أخيهما هاينريش الذي لا يزال على قيد الحياة. ولا بدَّ أن الوشوشة السخيفة عن الشعر الأشقر والشعر الأسود كانت عند آل بفايفر الموضوع رقم ١ على مائدة الإفطار؛ بل إنَّ المرء كان مستعداً لأن يلجأ إلى الوسيلة الفظيعة، وسيلة الاشتباه بالإجداد، لكي يؤول شعر لويس؛ وفي داخل المثلث الجغرافي المذكور (الذين لا يمكن أن يكون قد دلّ نظراً إلى محيطه على بذل كبير جداً) تمَّ النبش في كتب القسيس وسجلات الأحوال المدنية (ناحية فيربن) للاهتداء إلى آثار جدّات قد يشنّع عليهن بأنهنّ جلبن الشعر الفاحم ـ عن طريق الخيانة الزوجية ـ ويقول هاينريش بفايفر بخصوص عائلته، وفوق ذلك على نحوٍ خالٍ من السخرية: «أذكر أنَّ المرء قد اهتدى بعد لأي سنة ١٩٣٦ في سجل كنيسة تولتسم إلى امرأة ينحدر منها شعر أخي الفاحم على نحو مفاجىء: كان اسمها ماريا ولم يدوّن إلاَّ الأسم الشخصي، أما أبواها فقد قيّدا بأنهما (متشردان)».

يسكن هاينريش بفايفر مع زوجته هيتي، إسم إسرتها إرمز، منزلاً لأسرة واحدة في مساكن للموظفين ذات بيئة مذهبية. له ابنان، فيلهيلم وكارل، وهو على وشك أن يقتني سيارة صغيرة. وهاينريش بفايفر مبتور الساق، ليس فظاً، بل على شيء من توتر الأعصاب سببه «هموم الاقتناء».

والآن فإنَّ الشعر الفاحم ليس ندرة أبداً في هذا المثلث الجغرافي، وترجح كفته في المعدّل الملحوظ والمسجّل تسجيلاً عابراً، كما استطاع

المؤلف أن يقف على حقيقته بأمّ عينيه؛ على أنه كانت هناك أسطورة عائلية، نعرة عائلية، تناقلها الناس باسم «شعر بفايفر المشهور»؛ وإنَّ امرأة كان لها «شعر بفايفري» اعتبرت بطريقة ما مباركة أنعم عليها، واعتبرت على كل حال جميلة. وفي أثناء التحريات داخل المثلث تولتسم ـ فيربن ـ لوسيميش تمَّ اكتشاف، طبقاً لإفادة هاينريش بفايفر، روابط مباشرة لا حصر لها بآل غروتن وأسلافهم (لا بآل باركل الذين اصبحوا منذ أجيال من سكان المدن)، ويبدو مستحيلاً على المؤلف أن تكون ليني منيت بهذا الشعر البفايفري عن طريق أية روابط مباشرة. ونريد أن نكون منصفين: كان شعر لويس من الناحية الموضوعية ـ طبقاً لما يسمّى بوجهات نظر الحلاقين ـ جميلاً جداً: كثيفاً، فاحماً، أجعد. ولما أن الشعر كان أجعد فقد كان هناك ما يدعو إلى تأملات لا حصر لها لأنَّ الشعر البفايفري ـ كما هي الحال عند ليني! ـ كان سبطاً محبكاً الخ.. الخ.

* * *

منذ اليوم الأول من ولادة لويس هذا كثر القيل والقال فيه ويمكن اعتبار هذا مثبتاً من الناحية الموضوعية. وكما ناسب الأمر الحيل البفايفرية فسرعان ما جعلوا من الضرورة فضيلة واستغلوا المسألة أحسن استغلال، وعدّ لويس «بأنه غجريّنا»، وكان هذا إلى سنة ١٩٣٣ ليس إلاّ، ومن ذلك الحين عُدَّ «من شعوب البحر المتوسط». ويهمّ المؤلف الإثبات أنَّ لويس لم يكن قط نموذجاً سلتياً. وإن إساءة التفسير هذه يسهل فهمها لأنّه كثر وجود العيون العسلية والشعر الفاحم؛ وافتقر لويس، كما سيتبيّن، إلى الحساسية السلتية والخيال؛ وإذا ما أراد المرء

أن يصنّفه تصنيفاً عرقياً فإنّه يستحق هذه التسمية: جرماني خائب. وقد عُرض من واحد إلى آخر ورفع عالياً طوال أشهر، وأغلب الظن طوال سنين، ووصف بأنه «حلو»، وحتى قبل أن يتمكن من النطق بالكلام إلى حدّ ما، تصوّر له المرء مسيرة مهنية غير معقولة، وقبل كل شيء سيرة مهنية على صعيد الفن، فقد شحن بتوقعات عالية: نحات، رسام، مهندس معماري (ولم تدخل مهنة الكتابة في نطاق تأملات العائلة إلاّ فيما بعد. المؤلف). فكل ما فعله أضاف إلى حسابه بضع أرقام إضافات كبيرة جداً. وبما أنه كان بطبيعة الحال أيضاً «مساعداً حلواً للقسيس في القدّاس» (فالاسم الشخصي يوفّر الإشارة إلى المذهب)، وقد رأته عماته وخالاته وبنات عماته وخالاته الخ «راهباً رساماً»؛ أو لربما أيضاً «رئيس دير رساماً».

والثابت المؤكد (عن طريق زوجة صاحب المطعم كومّر في لوسيميش وهي اليوم في الثانية والستين وكذلك عن لسان حماتها، الجدة كومر، التي هي الآن في الواحدة والثمانين ويُثنى على ذاكرتها الجيدة في القرية كلها) أنَّ زوّار الكنيسة تزايد عددهم حين كان لويس مساعداً للقسيس في القدّاس في لوسيميش، وهذا يعني بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٣. «يا إلهي، طبيعي أننا كنا نذهب أيضاً تارة في أثناء أيام العمل، ومراراً في أيام الآحاد إلى الكريستيلير (Kristelier) (أي طقس هو المقصود بالكريستيلير هذا ما لم يكن في الإمكان تبيانه إلى حدّ الآن. المؤلف)، على أنه كان جميلاً جداً «رؤية الولد الصغير» (الجدة كومر). وكان لا بدَّ من إجراء مقابلات كثيرة مع السيد بفايفر وزوجته ماريانا ،اسم اسرتها تولتسم.

ويكفي عندما يوصف محيط السيّدة بفايفر بأنه على «درجة أعلى. من محيط ابنها هاينريش: منزل لأسرة واحدة بحجم أكبر نوعاً ما في سلسلة من البيوت المتلاصقة المتشابهة وسيارة. وبفايفر الأكبر الذي تقاعد في أثناء ذلك لا يزال يجرجر ساقه. وبما أنَّ آل بفايفر مستعدون للإفضاء بما في نفوسهم فلم يكن هناك أية صعوبة لمعرفة شيء ما منهم عن لويس؛ فكل شيء سبق أن أنتجه سيحفظ في خزانة زجاجية مثل أثر تذكاري: فمن بين أربعة عشر رسماً كان هناك اثنان لا بأس بهما: إنّها رسوم بالقلم الرصاص ملونة مثل مناظر طبيعية حول لوسيميش، ويبدو أن ما استفزّ لويس دائماً وأبداً هو سطحيتها التي لا حدّ لها ـ فروق في المستوى لا يمكن تجنّبها حتى في سهول ـ منخفضات تنشأ مثلاً عن الجداول، ـ تعدّ من ستة إلى ثمانية أمتار حادثة مثيرة؛ وبما أنَّ السماء هنا تعلو دائماً الأرض، التي هي أرض خصبة، فقد بحث لويس عن سرِّ ضوء الرسم الهولندي ـ وطبيعي أنه لم يكن في الإمكان التأكد مما إذا كان هذا عن معرفة أم عن غير معرفة - واقترب منه على ورقتين أو ثلاث ورقات على حين يستخدم في أثناء ذلك مصنع السكر في تولتسم مصدراً للضوء على نحوٍ فيه أصالة وابتكار ويضعه قريباً من لوسيميش ويخفي الشمس في دخانه الأبيض. ولم يكن في الإمكان التحقق من مزاعم بفايفرية أنه كان هناك المئات من هذه الرسوم، ولم يتمّ أخذ العلم بها إلاّ بارتياب. وهناك بضعة أشياء عملها لويس هواية: منضدة للصّبار وعلبة صغيرة للمجوهرات وحامل غليون لوالده وكذلك مصباح كبير (عمل بمنشار رفيع ودقيق)، وهذا كله ترك، بتعبير مهذب، إنطباعاً مؤلماً، وفضلاً عن ذلك كان هناك: نحو ستة دبلومات في

الرياضة لا يستهان بها: ألعاب القوى الخفيفة، السباحة ـ وثناء من نادي كرة القدم في لوسيميش. وإنَّ تدرّباً على صنعة معمار بدأه لويس في فيرين وقطعه بعد ستة أسابيع وصفته السيدة بفايفر بأنه «تدرّب آل إلى الفشل بسبب الفظاظة غير المعقولة، فظاظة المعلم التي تفوق طاقة الإنسان، المعلم الذي لم يفهم حوافزه ومبادراته. «وباختصار: من الظاهر تماماً أنَّ المرء خطط مع لويس وهو خطّط مع نفسه «شيئاً سامياً». كان هناك أيضاً عشرات القصائد التي كتبها لويس وقد عرضت في خزانة زجاجية خاصة بآل بفايفر، ويفضل المؤلف أن يمسك عن ذكرها؛ فليس من شعر أو سطر واحد توصّل ولو من بعيد إلى قوة التعبير للأشعار المعروفة من قبل إرهارد شفايغرت. وبعد التمرين الذي توقف «زوال لويس بحماسة رائعة» (بفايفر الأكبر) مهنةً، أغلب الظن أنها أودت بطبعه الضعيف على كل حال: فقد أراد أن يصير ممثلاً: إنَّ بضع مشاهد ناجحة على مسرح الهواة حيث مثَّل في مسرحية ‹أسود فلاندرز› الدور الرئيسي تركت في خزانة بفايفر الزجاجية ثلاث قصاصات تُثنى بها عليه «ثناء غير محدود»؛ وبما أنَّ المسألة مسألة الناقد الواحد الذي لم يكتب إلاَّ لثلاث صحف محلية مختلفة وبأحرف أولى كبيرة مختلفة فإنَّ هذا لم يلفت انتباه آل بفايفر حتى هذا اليوم؛ فنصوص النقد مطابقة لبعضها ـ ما عدا بعض التغييرات الطفيفة (فبدلاً من «غير محدود» نجد تارة «غير منقوص» وتارة أخرى «لا يقبل الجدال»). أما الأحرف الأولى الكبيرة فهي ب. هـ. أو ب. ب. هـ. أو هـ. ب. ب. وطبيعي أن التمثيل أخفق أيضاً بسبب تصور البيئة المحيطة عن فهم «حدس» لويس؛ كما أنه أخفق بسبب حسد البيئة والمحيط له على «جماله»

(السيدة بفايفر).

ومن أكثر الآثار المعتبرة في أسرة بفايفر بعض النسخ من نثر مطبوع بهت لونها قليلاً ووضعت في إطار مذهب. وتزيّن أعلى طوابق الخزانة الزجاجية، وأرت السيدة بفايفر المؤلف هذه النسخ مبدية هذا التعليق: «ها أنظر، **المطبوع**، إنها لموهبة حقيقية أصلية، وأي شيء كان يمكن أن يكسب المرء بذلك. (هذا المزيج المكوّن من اسمى المثاليات ومن مادية مفرطة شيء مميز لآل بفايفر. المؤلف).

١ ـ التحرّك!

ثمانية أشهر مضت على الحرب عندنا ولم نطلق بعد رصاصة واحدة. واستُغِلَّ الشتاء القارس الطويل لتدريب شاق. وها هو الربيع قد أقبل، ونحن ننتظر منذ أسابيع أمر الزعيم (الفورير).

في بولندة حارب الناس على حين كان علينا نحن أن نقوم بالحراسة على نهر الراين؛ وقد تمّ احتلال النرويج والدانمرك من غير أن يسمح لنا بأن نشهد ذلك؛ بعضهم زعم أننا لن نشهد الحرب إلاّ في الوطن.

موقعنا في قرية صغيرة في الآيفل. في السادس من أيار وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً يأتي الأمر بالتحرك نحو الغرب. إنذار بالخطر! وخيول تشد عليها عدّتها، وفي كل مكان حزمت أجربة، كلمة شكر للساكنين عند الوداع، وللفتيات الصغيرات عيون حمراء قرع جفونها البكاء ـ ألمانيا تتقدم نحو الغرب صوب الشمس الغائبة، حذار يا فرنسا! في المساء تسير الكتيبة. أمامنا فرق، وخلفنا مباشرة تأتي فرق أخرى، وعلى الجانب الأيسر من الشارع تتجاوزنا أرتال من السيارات لا نهاية لها؛ ونسير عبر الليل. الفجر لا يمكن معرفته إلاّ

بالظن، إذ يرتجّ الهواء تحت زئير طائرات ألمانية تئز عابرة من فوقنا وترسل إلى الجار الغربي تحية الصباح. ولا تزال تتجاوزنا قوافل من السيارات.ـ «لقد اجتازت في الفجر فرق ألمانية حدود هولندة وبلجيكا واللكسمبورغ وتواصل زحفها نحو الغرب». نادى أحدهم بهذا الخبر الخاص في طابور السيد وهو مارٌّ به. وتلتهب الحماسة، ونلّوح لرفاقنا الطيارين الشجعان الذين يمرون بطائراتهم من فوقنا.

٢ ـ نهر الماس في سنة ١٩٤٠

ليس الماس بنهر. إنه شعاع ناري وحيد. ومرتفعات الضفة على كلا الجانبين جبال تنفث ناراً.

إنَّ كل تغطية طبيعية في هذه الأرض المثالية تستغل للدفاع. وأنّى تخذل الطبيعة تساعد التقنية. ففي كل مكان مخابىء للمدافع الرشاشة، أمام الصخور وبين الشقوق الصخرية وفي أعماق الصخور. أقبية وسراديب صغيرة جداً محفورة داخلها ومضروبة بالخرسانة ويعلونا سقف من أكوام الحجارة الضخمة التي عمرها آلاف السنين ويبلغ ارتفاعها خمسين متراً.

٣ـ نهر الاين سنة ١٩٢٠

مئة وعشرون محرّك طائرة انقضاض يهدر باغنيته الحديدية القاسية!

مئة وعشرون طائرة انقضاض تهدر فوق نهر الاين!

لكن ما من طائرة انقضاض تجد هدفها.

همدت الطبيعة محتمية بضباب أرضي كثيف فوق خط ويغان.

أنت، يا جندي المشاة المجهول، اليوم وأنت تعتمد على نفسك، عليك أن تبرهن عن مرانك القاسي المتفوق. تعطشك إلى النصر يجب أن

يحطّم أصلب المقاومات.

حين تهبط من مرتفعات شيمين دي دامز فتذكّرِ الدم الذي سال هنا.

تذكّر أنَّ آلافاً من قبلك قد ساروا في هذا الطريق.

أنت يا جندي سنة ١٩٤٠ عليك أن تكمله.

هل قرأت على النصب التذكاري: «هنا كان إيليت الذي تحطم على إيدي البرابرة». يا للروح الإجرامية تبهر خصومك الذين ينظرون إليك اليوم أيضاً بأنك بربري، أنت الذي يقاتل من أجل حقه في الحياة.

في الصباح الباكر من يوم التاسع من حزيران تقف فرقتنا على أهبة الاستعداد للهجوم. رفاق من كتيبة ممرضات مهمتهم أن يهاجموا في منطقتنا. نحن مقسّمون بصفة احتياطي فرقة.

انذار بالخطر! ـ خروج!

إنها الساعة الرابعة صباحاً. ويخرج الواحد تلو الآخر زحفاً من الخيمة مثقل الرأس بالنوم. وتبدأ حركة نشيطة.

٤ ـ بطل من الأبطال.

تاريخ هذا البطل مثال لشجاعة لا تعرف الخوف ولإقدام ضباط ألمان على الجبهة إقداماً شخصياً لا هوادة فيه. وقيل إنَّ الضابط يجب أن يتحلّى بالشجاعة ليتقدم رجاله إلى الموت. على أنَّ كل جندي يؤاخي الموت في اللحظة التي يدخل فيها معترك القتال ويأخذ بخناق العدو. فهو ينزع الخوف من صدره ويشدّ حيله مثل وتر القوس. وفجأة يصبح لحواسه حدّة مفرطة ورهافة ويرتمي في أحضان الحظ المتقلّب ويحس من غير أن يعرف أن الحظ والنعمة الألهية لا يحالفان إلاّ الشجاع المقدام. وينجرف المترددون الوجلون بنموذج الشجعان، إنيّ قدوة واحدة وحيد

يضرب **مثلاً في الشجاعة** التي لا تعرف الخوف تؤجج مشاعل الجرأة والإقدام في قلوب الرجال المحيطين به. وهكذا كان العقيد غونترا

٥ ـ يقاتل العدو في صلابة وجلد وخبث وحيلة، وفي حال تطويقه يقاتل حتى النهاية. وقلّما يستسلم. إنهم سنغاليون، هنا في مجالهم الطبيعي، يتقنون حرب الغابات. فقد اختبأوا بشكل رائع وراء جذور الأشجار وخلف جدران طبيعية واصطناعية من أوراق الأشجار، دائماً هنا مختفون في الأرض حيث يجذب المهاجم طريقٌ أو موضع في الغابة قلّت كثافة شجره. وعن أقرب مسافة تنطلق النيران، وكل طلقة تقريباً تصيب ودائماً تقريباً تصيب في الصميم. كما أنَّ الرماة في الشجر لا تراهم العين في كثير من الأحيان. وكثيراً ما يتركون المهاجم يمرُّ لكي ينقضوا عليه من الوراء. ومن الصعب التخلّص منهم ويضايقون احتياطيين وسعاة وأركان حرب ومدفعيين. ومع أنّه تمّ عزلهم زمناً طويلاً وكانوا على وشك أن يموتوا جوعاً، فإنّهم صرعوا بعد أيام بعض الجنود بالرصاص. منهم إمّا منبطحون أو واقفون أو جالسون لصق الجذع، وكثيراً ما يلفون أنفسهم بشبكة تمويه ويتربصون بالفريسة. فإذا كان في الإمكان اكتشاف شخص ما ومعرفة مكانه رأى المتوحّش هذا عادة قبل ذلك وارتمى من فوق مثل كيس ليختفي مثل لمح البصر في الأجمة.

٦ ـ واصلوا، ليس لنا أن نتوقف، وعلى الأخص هنا. فالكتيبة تسير بدون تغطية في الوادي. من يدري ما إذا كان العدو رابضاً على اليمين أو على اليسار فوق التلال ـ واصلوا! إنه لأشبه بمعجزة ألاّ يعيق تقدمنا أحد. القرى نهبها الفرنسيون الراجعون إلى قواعدهم ودمروها.

«هناك على الجهة الأخرى يرى المرء شيمين دي دامز»، يهمس زميل

بقربي ـ قتل أبوه في الحرب العالمية.

«لا بدَّ أنَّ يكون هذا قاع وادي ايليت، فهنا جرح ذات مرة وهو يجلب الطعام».

طريق عريض يخترق قاع وادي ايليت صوب ظهر المرتفعات العالي المهم العريض في شيمين دي دامز. وعلى يمين الطريق ويساره قلّما تجد بقعة لم تجعل القنابل عاليها سافلها غير مرة. وليس هناك في أي مكان شجرة كبرى ذات جذع سليم. وفي سنة ١٩١٧ لم يعد هنا أية أشجار، كل شيء تحوّل إلى أنقاض. وفيما بين هذا وذاك نبتت الجذور مرة أخرى وصار كل جذر شجيرة.

٧ ـ ننظر كل لحظة إلى الساعة. ويتكرر الفحص والقياس. تنبيه أخير. وإذا بطلقة تمزّق الصمت والسكون. هجوم! ويطلق الرماة الألمان النيران من حوافي الغابة ومن خلف صفوف الشجيرات. شيئاً فشيئاً يدوّي ضرب بالمدافع لحماية هجوم المشاة على منحدر الضفة الأخرى لنهر الاين. وتغمر وادي الاين كله سحابة من دخان بحيث لا نستطيع المراقبة إلاّ قليلاً بين الآونة والأخرى. وفي أشدّ النيران غزارة يسحب جنود في سلاح المهندسين الأكياس المطاطية وينقلون المشاة من ضفة إلى أخرى ويبدأ قتال شديد حول المعبر إلى الاين والقنال. وفي نحو الساعة الثانية عشرة تمّ بلوغ القمة الأخرى، مع أنَّ العدو يدافع عن نفسه يائساً. الآن لم نعد نستطيع أن نواصل المراقبة من مرقبنا. فالمراقب الأمامي وعاملا اللاسلكي كانوا قد تقدموا مع المشاة قبل الظهر. وبعد الظهر يأتي أيضاً الأمر للمرقب وموضع المدافع بتغيير الموقع. حرارة الشمس محرقة. وبعد قليل نصل إلى نهر الاين. وعلى ارتفاع ١٦٣ يجب أن يقام المرقب

الجديد.

المؤلف في أشدّ حيرة فيما يتعلق بالانتاج النثري وعليه أن يمتنع عن التعليق.

* * *

إذا ما جمع المرء كل البيانات **الموضوعية** عن لويس وحصر كل البيانات **غير الموضوعية** في مركز قد يناسب البيانات الموضوعية فأغلب الظن أنَّ طبيعته انطوت على معلم جيد للرياضة وكان يمكن أن يعلّم الرسم مادة ثانوية. أما المكان الذي انتهى المطاف به إليه فعلاً بعد عدّة مهن وحرف تمّ الانقطاع عنها فإنه لمعروف عند القارىء منذ زمن طويل: في الجيش.

ثمّ إنه لمعروف أنه لن يوهب أحد أيّ شيء في الجيش، لا شيء بالتأكيد حين ينبغي عليه أن يبدأ مهنة ضابط صف، المهنة الوحيدة التي كان بابها مفتوحاً أمام لويس الذي «كان عليه أن يعود إلى المدرسة الابتدائية تلميذاً في الصف الثالث» (هويزر الأكبر). ومن الإنصاف أنه يجب القول هنا أنَّ لويس ابن السابعة عشرة الذي ذهب في بادىء الأمر طوعاً إلى العمل الجماعي الشبيبي ثم إلى البروسيين الصادقين بدأ يظهر فهماً ومعرفة. وفي رسائل إلى والديه (في إمكان كل واحد أن يطلع عليها في الخزانة الزجاجية) يكتب بالحرف الواحد: «الآن أريد أن أصبر رغم كل المخاطر، وإن وقف العالم المحيط بي موقفاً معاكساً مني فلن أحمّله وحده المسؤولية دائماً، وأنتما، يا أمي ويا أبي، إذا ما شرعت في وظيفة أو مهنة فأرجوكما ألاّ ترياني وقد شارفت على بلوغ قمتها».

ليس هذا بتعبير رديء وله علاقته بملاحظة أبدتها السيدة بفايفر التي رأت في لويس «ملحقاً عسكرياً في إيطاليا أو غيرها» حين جاء أول مرة في إجازة بالزي العسكري.

إذا ما استعمل المرء نتفة الرحمة المنشودة دائماً أو الحد الأدنى أيضاً من الشيء الذي قد يسميه المرء عدالة، وإذا ما وضع في حساب أيّة تربية سيئة للغاية تلقاها لويس فإنه لم يكن في نهاية المطاف سيئاً للغاية، وكلما ابتعد المرء عن عائلته صار أفضل ذلك لأنه ما من أحد في القرية رآه أكثر من كاردينال أو أميرال في المستقبل. وعلى كل حال فقد وصل في الجيش في غضون سنة ونصف السنة إلى ضابط صف، وحتى لو فكّر المرء أن الحرب التي تقترب قد شجعت المسيرات المهنية فإنَّ هذا لمعتبر كل الاعتبار، وعند دخول فرنسا عيّن ضابط صف، وبصفته ضابط صف «حديث العهد» فقد شارك في حزيران سنة ١٩٤١ في حفلة مؤسسة غروتن.

* * *

ليس هناك معلومات موثوق بها عن انبساط ليني بالرقص في هذا المساء والذي بدأ يتفتح من جديد، اللهم إلاَّ إشاعات ووشوشات وكلتاهما ذات طبيعة مختلطة: وديّة، شامتة، غيرى، غريبةالأطوار؛ وليفترض المرء أن الموسيقا عزفت للرقص بين الساعة الثامنة مساء والساعة الرابعة صباحاً نحو أربع وعشرين إلى ثلاثين مرة وأنَّ ليني غادرت القاعة مع لويس بعد منتصف الليل فتكون ليني قد شاركت باثنتي عشرة رقصة على وجه التقريب ـ هذا إذا حصر المرء الإشاعات

والوشوشات بمعدل مناسب -؛ ومن هذه الرقصات الاثنتي عشرة المفترضة لم ترقص معظمها أو كلها تقريباً. لقد رقصتها كلّها مع لويس. فلا أباها منحته دورة شرفية، ولا حتى هويزر الشيخ - لا، لم ترقص إلاّ معه.

هناك صور يمكن رؤيتها في الخزانة الزجاجية البفايفرية إلى جانب نيشان ووسام حربي وتظهر لويس في تلك الفترة واحداً من أولئك الشباب اللامعين الذين كانوا أهلاً لأن يزينوا في أزمان الحرب صفحات المجلات المصورة، لا بل أن ينشروا أيضاً في مجلات مصورة نشراً من النوع المستشهد به؛ وحتى في أزمان السلام. وطبقاً لكل ما عرفته لوته ومارغريت وماريا عنه (سواء أكان بطريقة مباشرة أو مصفّى من خلال معلومات ليني الضحلة)، بالإضافة إلى الأقوال الهويزرية، فإنّ على المرء أن يتصوّره واحداً من هؤلاء الشباب ما زال متهللاً بعد سير ثلاثين كيلومتراً، ويدخل على رأس المجموعة التي يقودها قرية فرنسية شاهراً مدفعاً رشاشاً ملقماً محرّر الزناد لابساً سترة ميدانية مفكوكة الأزرار يتدلدل عليها أول وسام وهو على يقين راسخ أنه استولى على القرية. وبعد أن يتأكد بواسطة المجموعة التي يقودها من أنّه لا يختبيء في القرية قناصون ولا ساحرات فإنه يغتسل اغتسالاً تاماً ويستبدل الثياب الداخلية والجوارب ويسير طوعاً اثني عشر كيلومتراً أخرى في الليل (ليس ذكياً بما يكفي لأن يبحث قبل ذلك في القرية عن دراجة قد تكون متبقيّة ـ ولربما لم يتخوف أيضاً إلاّ من اللافتات المرائية «سيعاقب النهب بالموت»)؛ وحيداً لم يهض جناحه، ينطلق في سيره، ذلك لأنه سمع أن نسوة في البلدة التي تبعد عشرة كيلومترات؛ بعض المومسات اللواتي ذهبت عنهن ميعة الصبا، كما سيتبين عند تفحص الشيء،

ضحايا موجة الجنس الألمانية سنة ١٩٤٠؛ مخمور ومنهك بعد عمل وظيفي مهم؛ وبعد أن يبوح الجندي الممرض المناوب لبطلنا الثانوي ببعض التفاصيل الإحصائية ويتيح له أن يلقي «نظرة غير مجاملة» على النساء اللواتي يوحين بأنهن عجائز يدعين إلى الشفقة فإنه يقفل لأمور لا تجارى قاطعاً اثنتي عشر كيلو متراً على حين لم يخطر بباله إلاّ **الآن** أنَّ البحث المضني أيضاً عن دراجة مخبّأة كان سيجدي نفعاً)، ويفكر على ندم باسمه الشخصي الملزم، وبعد سير أربعة وخمسين كيلومتراً يستغرق على فوره في سبات عميق قصير قبل أن يفيق، وربما بدأ «يعمل مثل كاتب» في مطلع الفجر ويتابع سيره ليستولي ويحتل قرى فرنسية أخرى.

إنَّ ليني، إذاً، رقصت معه اثنتي عشرة مرة على وجه التقريب. («ومما لا جدال فيه: أنه كان راقصاً رائعاً!» لوته هويزر)، قبل أن تتركه يخطفها نحو الواحدة صباحاً إلى خندق حصن غير بعيد تحول إلى حديقة عامة.

* * *

طبيعي أنه تمَّ التفكير كثيراً في هذه الحادثة، ووضعت فيها نظريات كثيرة ونوقشت وحللت. كانت فضيحة، بل أقرب إلى الحادثة المثيرة أنَّ ليني التي اعتبرت «صادة، متحفظة وغير اجتماعية» هربت «مع **هذا**» دون غيره (لوته هويزر). فإذا أخذ المرء، فيما يتعلق بهذه الحادثة، معدّلاً معيناً للأصوات والأمزجة كما في عدد الرقصات جاءت النتيجة التالية لدراسة الرأي العام: أكثر من ٨٠٪ من المطلعين

والمشاركين والمراقبين نسبوا للويس دوافع مادية عند التغرير بليني، بل إنَّ القسم الأكبر يعتقد بوجود علاقة معيَّنة بمهنة الضباط التي ابتغاها لويس؛ ويذهب المرء إلى أنَّه أراد أن يوقع ليني في شباكه لكي يستطيع أن يشد أزره بالمال (لوته). وتذهب عصابة بفايفر كلها (ويدخل في ذلك بعض العمات والخالات **لا** هاينريش) إلى أنَّ ليني غرَّرت بلويس. وأغلب الظن أنَّ كلا الافتراضين غير صحيح. وأيّا كان لويس فأنه لم يكن أنانياً بالمعنى المادي ولم يكن يفكر بالمصلحة الشخصية، وفي هذا يتميَّز عن عائلته على نحو مريح. ويحتمل أنه عشق ليني التي اكتمل شبابها وأينع جمالها من جديد؛ وأنه سئم مغامراته المضنية والمبهجة بعض الشيء في بيوت البغاء الفرنسية وأنَّ «نضارة» ليني (المؤلف) قد نقلته إلى حال من النشوة.

أمّا ليني فلها من العذر أنها «نسيت» نفسها (المؤلف)، وأنها قبلت الدعوة إلى نزهة عبر خندق الحصن القديم، وعلى كل حال كان الوقت إحدى ليالي الصيف، وإذا افترض المرء أنَّ لويس صار من دون شك رقيقاً، بل أنه لمن المحتمل أنّه صار ملحاحاً كانت النتيجة في أسوأ الأحوال أنَّ المسألة لم تكن عند ليني مسألة خطيئة أخلاقية، بل أقرب إلى أن تكون مسألة خطيئة وجودية.

* * *

بما أن خندق الحصن لا يزال حديقة عامة ولا يزال موجوداً وبما أنَّ زيارة مكان لم تسبب إلاَّ القليل من التعب فقد تمَّ القيام بمثل هذه الزيارة: فقد جعل المرء من ذلك نوعاً من الحديقة النباتية، وهناك نحو

خمسين متراً مربعاً من الأرض المزروعة بالخلنج (الأطلسي). على أنَّ إدارة الحديقة رأت نفسها «عاجزة عن أن تعثر على خطة الغرس لسنة ١٩٤١».

* * *

كان تعليق ليني الوحيد المأثور فيما له علاقة بالأيام الثلاثة التالية: «مزعج على نحوٍ يفوق الوصف»؛ هذا ما وافت به مارغريت ولوته وماريا بالحرف الواحد كمساهمة وحيدة. وما كان في الإمكان اكتشافه إلى جانب ذلك فإنه ليحتمل الاستنتاج أنَّ لويس لم يكن عاشقاً رقيقاً جداً، ومن المؤكد أنه لم يكن عاشقاً كثير الخواطر. فقد جرجر ليني في الصباح الباكر إلى عمة غير معروفة تدعى فيرناندي بفايفر التي تدين باسمها الشخصي الأول لميول أبيها إلى فرنسا ومحبته لها ولميوله الإنفصالية أيضاً التي انكرتها الأسرة بطبيعة الحال؛ فقد أقامت في منزلٍ مؤلفٍ من غرفة واحدة في بناء قديم يعود إلى سنة ١٨٩٥، ليس من غير حمام فحسب، بل من غير ماء أيضاً ـ والثاني على أية حال ليس في المنزل، بل في الممشى. وفيرناندي بفايفر هذه لا تزال تسكن، وبتعبير أدق، تسكن من جديد في غرفة في بناء قديم (يعود هذه المرة إلى سنة ١٩٠٢)، إذ سارت الأمور إلى حين على أحسن ما يرام، وتتذكر «تماماً حين ظهر كلاهما، وأقول لك، إنه لم يظهر عليهما قط أنهما عاشقان مثل قمّريين، بل كان مظهرها أقرب إلى الحياء والخجل. ولربما كان من حقها عليه على الأقل أن يمضي بها إلى فندق أنيق بعد أن تصرّفا تصرف صديقين طبيعيين ـ إلى حيث كانت ستتمكن من أن

تغتسل وتغير ثيابها وتأخذ زينتها. هذا الشاب الغبي لم يكن عنده مثقال ذرة من آداب اللياقة». السيدة (أو الآنسة) فيرنادي بفايفر ذاتها أعجبت المؤلف في أنها عرفت «آداب اللياقة». هي كان لها الشعر البفايفري الممجّد تمجيداً عظيماً، ومع أنها لم تعد شابة، إذ أنها كانت في نحو العقد السادس وتعيش في عسرٍ، فقد تناولت هي أيضاً زجاجة من أغلى الخمور الأسبانية المزّة. أما الحقيقة أنَّ آل بفايفر بما فيهم هاينريش ينكرون فيرناندي بفايفر «لأنها جربّت غير مرة، ولكن من غير نجاح، عمل مضيفة في حانة»، فلا تجعلها في نظر المؤلف أقلَّ ثقة. وقد جاء في ملاحظتها الختامية: «أرجوك، أي موقف كان هذا للفتاة الحلوة أن تلازم منزلي المؤلف من غرفة واحدة. أكان علي أن أخرج لكي يتمكن كلاهما من المضيّ، لنقل، في التسلية أو الوقوع في المعصيّة، أم كان عليَّ أن ألازم البيت؟ كان هذا بالنسبة إليهما أسوأ مما هو في أرخص نزل حيث يكون للمرء على الأقل مغسلة ومنشفة ويستطيع أن يغلق الباب وراءه». وأخيراً أعلن لويس العزم عند المساء على أن «يجابه الأبوين يداً بيد وبعين جريئة وبدون مراعاة للأخلاق البورجوازية المتعفّنة» (فيرناندي بفايفر)، وإنه لتعبير استقبحته ليني كذلك لا على حد قولها، وإنما طبقاً «لهيئة الاحتقار والازدراء». وإنه لمن الصعب التأكد بطريقة موضوعية مما إذا كان لويس قد كذب بعض الشيء وأسمع بعض النغمات من أيامه، أيام «أسود فلاندرز» أو مما إذا برزت فيه صفة مميزة مثاليتها واضحة بالنظر إلى «التجارب الخالصة» (هكذا سمّى كل شيء بشكل مزعج في حضرة ليني أمام عمته). والظاهر أنّه أثبت أنه حامل أو منتج عبارات طنانة رنانة من الدرجة الأولى، وليس صعباً التصوّر

كيف قطّبت ليني المادية الدنيوية الرائعة في إنسانيتها الجبين في أثناء هذه الثرثرة. وسواء أصدّق المرء العمة الغريبة المريبة أم لم يصدقها فقد أفادت أنه بدا لها كأنَّ ليني كانت مهتمة اهتماماً ضئيلاً بأن تمضي مع لويس ليلة أخرى في سرير أو في الخلنج وحين خرج لويس ذات مرة ليستعمل غير مرة مرحاض السلّم النصفي أخرجت من جيبه ورقة الإجازة وقطّبت أنفها الصغير ونظرت خائبة الأمل باستنكار واحتقار إلى طول الإجازة. شيء واحد ليس صحيحاً في هذا الحديث أبداً: إنَّ ليني لم يكن لها أنف صغير، إنّما كان لها أنف حسن التكوين، لا عيب فيه.

* * *

بما أنَّ لويس لم يُبْدِ أي نشاط نحو الخطف أو ما شابه ذلك فإنه لم يبقَ في المساء المتأخر وبعد أن «جلس المرء صامتاً واحتسى قهوتي كلّها» إلاّ المثول أمام العائلات الخاصة. وعلى نحوٍ مزعج تمّ التوجه قبل كل شيء إلى آل بفايفر الذين كانوا يسكنون في ضاحية بعيدة بعد أن انتقل بفايفر الشيخ «إلى المدينة». ولم يتفوه بفايفر الشيخ بكلمة عتاب إلاّ بعناء وهو يداري انتصاره بمشقة: «كيف لك أن تقوم بمثل هذا نحو ابنة صديقي الحميم!» واقتصرت السيدة بفايفر على تعبير فارغ تافه «مثل هذا لا يليق». ويعتقد هاينريش بفايفر الذي كان آنذاك في الخامسة عشرة أنه يذكر تماماً أنَّ المرء أمضى الليل بالقهوة والكونياك (تعليق السيدة بفايفر: «ليكلفنا هذا بعض الشيء»)، وأنَّ المرء خطط بالتفصيل خطط زواج سكتت عليها ليني، لا سيّما وأنها لم تسأل قط. وأخيراً غشيها النوم بينما كان المرء يضع خططاً أخرى، حتى إنَّ حجم

البيت وأثاثه نوقش بالتفصيل («فدون الخمس غرف لا يمكنه أن يسكن ابنتي ـ وإنه لمدين لها ببساطة» و«خشب الماها غوني، ودون ذلك لن يتم الأمر». «ربما بنى بيتاً لنفسه أو لابنته على الأقل»).

عند الصباح (كل شيء نقلاً عن هاينريش بفايفر) قامت ليني «بمحاولة كان المقصود منها الاستفزاز والتحدي بشكل ظاهر»، وهي أن تتصرف تصرّف البغايا. فقد دخّنت سيجارتين الواحدة تلو الآخرى، تنشقّت الدخان ودفعته من الأنف ودهنت نفسها بأحمر الشفاه». واستدعيت سيارة أجرة بهاتف موجود في الجوار (هذه المرة السيد بفايفر: «لنصرف شيئاً من المال على هذا»). (ماذا؟ المؤلف)، وسار المرء إلى منزل غروتن حيث «وصل المرء في وقت مبكر جداً، وهذا يعني في السابعة والنصف» ـ ومن الآن وصاعداً سنكون وقفاً على الشاهدة فان دورن لأنَّ ليني تصرّ على الاستمرار في صمتها. كانت السيدة غروتن لا تزال في سريرها بعد نوم قليل (انذار بغارة جوية وإصابة اشبينها كورث بالبرد) وتناولت فطورها («والقهوة والخبز المحمّص المقمرّ ومربّى البرتقال، وأنت تعرف كم كان صعباً الحصول على ربّ البرتقال في سنة ١٩٤١ ـ لكنّه قدّم لها كل شيء»).

«إذاً هنا كانت ليني قد بعثت من جديد في اليوم الثالث ـ هكذا بدت لي، فقد جرت فوراً إلى أمّها واحتضنتها ثم توجهت إلى غرفتها وطلبت إليَّ أن آتيها بفطور، و ـ ماذا تتصور ـ جلست إلى المعزف. أما السيدة غروتن، وهذا أمر لا أستطيع أن أنكره عليها، فقد (نهضت) ـ وأنت تعرف ماذا أعني ـ وتزيّنت بكلّ هدوء وتلفّعت بطرحتها ـ وهي قطعة قديمة رائعة، ترثها دائماً أصغر بنات أسرة باركل ـ، وتوجّهت إلى

غرفة الجلوس حيث كان ينتظر آل بفايفر، وسألت بلطف: «من فضلكم ماذا تريدون؟» ثم جرى حوار بسبب المخاطبة بصيغة (الاحترام والتفخيم): (الله، الله يا هيلينا لماذا تخاطبينا مرّة واحدة بصيغة التفخيم؟)، وقالت السيدة غروتن، (لا أذكر أنني خاطبتكم بصيغة الكاف)، وعلى هذا قالت البفايفرية العجوز: «إننا نطلب يد ابنتكم لابننا». وعلى ذلك «تهمهم» السيدة غروتن. لا شيء غير هذا، وتيمّم وجهها شطر الهاتف وتتصل بالمكتب، فلعلّ المرء يهتدي إلى مكان وجود زوجها ويرسله في الحال إلى المنزل حين يجده».

الظاهر أنّه مثّل نحو ساعة ونصف الساعة ذلك الخليط المزعج من الملهاة والمأساة الذي هو عادي ومألوف في أثناء تدبيرات أبناء البورجوازية الصغيرة للزواج. فقد وردت كلمة «كرامة وشرف» نحو خمس عشرة مرة (وتزعم فان دورن أنها تستطيع إثبات ذلك لأنها وضعت على ضلفة الباب قائمة بخطوط متقطّعة). «لو لم تكن المسألة تتعلق بليني لوجدت الأمر مضحكاً، إذ أنَّ هؤلاء ردّوا الصاع بالصاع بعد أن لاحظوا قلّة اهتمام السيدة غروتن لردّ كرامة ابنتها بزواجها من لويس هذا، وهنا ذكر هؤلاء كرامة ابنهم وشرفه ـ وقد وصفوه بأنه عذراء غُرِّر بها وزعموا بأنَّ ابنهم بصفته ضابطاً احتياطياً ـ وهذا لم يكُنْهُ قط ولن يكونه أبداً ـ لا يمكن رد شرفه أو كرامته إلاّ بزواج. كان مضحكاً وأكثر حين أخذوا يمجّدون ابنهم لويس جسدياً أيضاً: شعره الجميل، طوله الذي يبلغ ١٨٥ سم وعضلاته».

من حسن الحظ أنَّ غروتن الشيخ المنتظر في هلع قد حضر بعيد ذلك، («وكانت قد ثارت ثائرته في أثناء ذلك مثل مجنون»)، أظهر

«ليناً لا متناهياً وهدوءاً وشبه ودّ وبشاشة ليسهّل كثيراً عن آل بفايفر الذين كانوا كلّهم مرعوبين منه». وقاطع من غير تردد عبارات من مثل «شرف» («نحن أيضاً لنا الشرف، نحن أيضاً»قاله بفايفر الشيخ وزوجته باللفظ الواحد وفي آن واحد)، ونظر إلى لويس نظرة تأمل عميق، وطبع مبتسماً قبلة على جبين زوجته، ثم سأل لويس عن فرقته وعن الكتيبة «وازداد تأمّلاً»، ثم ذهب وأحضر ليني من غرفتها «ولم يلمها أدنى ملامة» وسألها بدون ديباجة: «ما رأيك، يا بنيّة، زواج أم لا ؟» وعلى هذا رأت ليني لويس، ربما لأول مرة، على الوجه الصحيح، متأمّلة، كأنه لم يكن لديها مرة أخرى إحساس داخلي (وهل كان لدى ليني حتى الآن إحساس داخلي؟ المؤلف)، ومشفقةً أيضاً، على أنها كانت قد هربت معه طوعاً، وقالت زواج».

«بشيء من العطف في الصوت» (فان دورن) نظر غروتن بعد ذلك إلى لويس وقال «لابأس إذاً»، وأضاف: «فرقتك لم تعد موجودة عند آميان، بل في شنايديمول».

* * *

بلغ منه أن أبدى الاستعداد ليساعد لويس في الحصول على تصريح بالزواج، ذلك لأنَّ «الوقت ضيّق». وطبيعي أنه لمن البساطة التأكد فيما بعد أنَّ غروتن الشيخ قد علم بالتحركات العسكرية الضخمة منذ نهاية سنة ١٩٤٠ وعلم في الليلة السابقة لقرار الزواج في حديث مع أصدقاء قدامى أنَّ الهجوم على الاتحاد السوفييتي على الأبواب؛ وفي منصبه الجديد «رئيساً للتخطيط علم أموراً شتى» (هويزر الأكبر)، فكل

الاعتراضات التي أبداها فيما بعد في وضح النهار كل من لوته وأوتو هويزر ضد العرس بدّدها بعبارة «آه، بالله عليكم كفّوا... كفوا...»

ويبقى التأكيد أنَّ لويس جاءه الخبر مع التصريح البرقي بزواجه «ليقطع إجازته من غير إبطاء ويلتحق بفرقته في شنايديمول بتاريخ ١٩٤١/٦/١٩».

زواج مدني يعقده مأذون شرعي، زواج كنسي؛ هل ينبغي وصف هذا؟ قد يكون مهماً أنَّ ليني رفضت أن تلبس ثوباً أبيض؛ وأنَّ لويس لم ينهِ طعام العرس إلاَّ بعصبية مفرطة؛ وأنَّ ليني، كما يظهر، لم تحزن ولم تغتم على الإطلاق على عدم حدوث ليلة العرس الرسمية، وقد رافقته على كل حال إلى المحطة وتركته يقبلها هناك. وكما أسرّت ليني فيما بعد، وفي أثناء غارة جوية شديدة بصفة خاصة سنة ١٩٤٢، لمرغريت في مخبأ عمارتها أنَّ لويس أرغمها قبل رحيله بساعة في غرفة الكوي آنذاك بمنزل غروتن على أن تضاجعه «بإخلاص وبطريقة مشروعة» مع الإشارة الواضحة إلى واجباتها الزوجية، وبهذا كان لويس «قد مات في نظرها قبل أن يكون ميّتاً» (ليني نقلاً عن مارغريت).

في مساء الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٩٤١ جاء النبأ أنَّ لويس «ترك قتيلاً» عند الاستيلاء على غروندو.

المهم فقط في هذا الصدد أنَّ ليني رفضت أن تلبس الحداد وتظهر الحزن؛ وأداءً للواجب ألصقت صورة لويس بجانب صورتي إرهارد وهاينريش، غير أنها أزالت صورة لويس عن الحائط في نهاية سنة ١٩٤٢. وتمرّ سنتان هادئتان ونصف السنة، وفيها تصبح ليني في التاسعة عشرة وفي العشرين وأخيراً في الواحدة والعشرين. فلا تذهب

إلى الرقص مرة أخرى مع أنَّ مارغريت ولوته تتيحان لها بين الحين والآخر فرصة لذلك. وتذهب أحياناً إلى السينما (نقلاً عن لوته هويزر التي لا تزال تجلب لها بطاقات السينما)، وتشاهد أفلام ‹أولاد الحيوانات ›و‹امتطوا ظهور الخيل› و‹فوق كل شيء في الدنيا›. وتشاهد‹ العم كروك›ر و‹اأوغاد كلاب السماء› ـ وما من فيلم واحد من هذه الأفلام يستجر دمعة واحدة من عينيها. إنّها تعزف على المعزف وتتفانى في العناية بأمها التي انتكست مرة أخرى وتتجول كثيراً إلى حدّ ما بالسيارة في الناحية. وتزور راحيل زيارات متكررة وبشكل دائم وتأخذ معها القهوة في زجاجة حافظة للحرارة وسندويشات في علبة للفطور، وسجائر. وبما أنَّ الاقتصاد في زمن الحرب يصبح أكثر قسوة وصرامة ويصبح عمل ليني في الشركة مجرد افتراض دائم فإنها مهددة في مطلع سنة ١٩٤٢ بسحب السيارة منها بعد محنة قاسية شديدة تعرّضت لها الشركة، شيء واحد يشهده المطلعون لأول مرة هو أنَّ ليني تطلب من أبيها شيئاً ما؛ إذ ترجو والدها أن «يترك لها هذا الشيء» (وتقصد بذلك سيارتها من نوع آدلر)، وحين يوضح لها أبوها أنَّ الأمر لم يعد طوع بنانه بأكمله، تناشده وتلح في المناشدة إلى أن «حاول أخيراً بكل الوسائل وحصل لها على مهلة مدتها نصف سنة» (لوته هويزر).

هنا يسمح المؤلف لنفسه بتدخّل كبير بأن يسمح لنفسه بأن يطرح نوعاً من فرضية المصير وأن يشغل باله بما كان يمكن أو كان يجب أو كان ينبغي أن يتمخّض عن ليني لو... أوّلاً لو خرج لويس من الحرب حيّاً بصفته أوحد الشبان الثلاثة المهمين حتى الآن في نظر ليني.

وبما أنَّ مهنة الجندية ، كما يظهر، كانت مهنته الحقيقية، فأغلب

الظن أنَّ لويس ما كان ليندفع مدارياً انتصاره بمشقة حتى موسكو فحسب، بل كان سيجاوزها لو كان ملازماً أو نقيباً أو ربما كان يمكن أن يكون رائداً عند أنتهاء الحرب ـ وإننا لنريحه من الأسر السوفييتي المفترض ـ وكان سينجو من معسكر الأسر والنياشين تزين صوره وكان سيفقد مرغماً في وقت من الأوقات بساطته الجزئية أو كانت ستسلب منه هذه البساطة ـ بالقوة إن دعت الضرورة ـ وكان سيعمل سنتين عاملاً بسيطاً بصفته عائداً وسنة واحدة بصفته عائداً متأخراً، ويحتمل أن يشارك غروتن الشيخ الذي كان سيفضل لويس شخصاً منكسر النفس على لويس شخصاً منتصراً، ومن المؤكد أنه كان سيرجع مبكراً إلى الجيش، الذي هو الآن الجيش الاتحادي، ومن المؤكد أنه كان سيصير جنرالاً وقد بلغ في أثناء ذلك الثانية والخمسين. ترى هل كان سيستطيع أن يصير في نظر ليني مرة أخرى الرفيق لليالي الزواج أو ليالي العشق والغرام؟

يقول المؤلف: لا. أما الحقيقة أنَّ ليني لا تصلح للفرضيات إلاّ بقدر يسير فإنَّ هذا يجعل التأمل النظري صعباً. وما كانت ليني لتستغل مغامرة غرامية من نوع قوي لا مناص من وصفها فيما بعد، لو ـ ويزعم المولف: كانت ستستغلها حتى لو...

من المؤكد تماماً أنَّ لويس الذي كان سيظل حتماً رجلاً جميلاً وهو أيضاً في الثانية والخمسين وقد وقاه الشعر البفايفري من الصلعة، كان سيتمكن من أن يقدّم نفسه في مواقف العسر مساعداً للقس في القداس في كنيسة بون أو كنيسة كولونيا؛ فإلى أين بجنرالات حسان يلوّحون بكتب القداس في براعة ويناولون بتواضع أباريق الماء لغسل يدي

الكاهن وأباريق خمر صغيرة؟ إلى أين بهم؟ لنفترض أنَّ ليني «بقيت معه»، وإن لم تكن وفية له، وقامت بين الحين والآخر بواجباتها الزوجية، فهل كانت ستشارك وهي أم لثلاثة أو أربعة أطفال «حلوين» ولويس مساعد عام للكاهن في القداس في أول (لا آخر) صلاة للجيش الاتحادي التي أقامها الكاردينال فرينغس في العاشر من تشرين الأول سنة ١٩٥٦ في كنيسة غيريون بكولونيا؟ ويقول المؤلف: لا. إنه لا **يرى** ليني هناك. لويس يراه هناك، والأطفال «الحلوين» أيضاً، لا ليني. فما دام يرى لويس فوق ذلك ـ على غلاف مجلاّت مصورة أو مع السيدين الجميلين نانن وفايديمان في استقبال شرقي فهو، أي المؤلف، يرى لويس ملحقاً عسكرياً في واشنطن، لا بل في مدريد ـ إلاَّ أنه لا يرى ليني في أي مكان، ولا في صحبة السيدين الجميلين نانن وفايديمان. وقد يتوقف على عجز المؤلف التكهني الحدسي أنه يرى لويس في كل مكان، لكنه لا يرى ليني ـ حتى أطفالها يراهم هو، إلاَّ أنه لا يراها هي بالذت. ولا ريب في أنَّ قوة التنبؤ عند المؤلف ضئيلة ضآلة لا تذكر، ولكن لماذا يرى لويس رؤية واضحة جداً ولا يرى ليني في أي مكان؟ وبما أنه يوجد حتماً في مكان ما في الكون جسم طائر مجهول لم يكتشف بعد وركِّب فيه حاسوب ضخم ربما كان بحجم مقاطعة بافاريا ويتلفظ اعتباطاً بسير حياة افتراضية، فعلينا أن ننتظر إلى أن يتم اكتشاف هذا الشيء اكتشافاً نهائياً. ومن المؤكد لو أنَّ ليني أجبرت نفسها أو أنَّ شخصاً آخر أجبرها على أن تواصل حياتها بجانب لويس لكانت سمنت من الهم والكرب ولما نقص الوزن اليوم ثلاثمائة غرام بل لزاد وزنها عشرة كيلوغرامات عن الوزن المثالي ولاحتاجت المسألة من جديد إلى حاسوب ضخم بحجم

مقاطعة شمال الراين ـ فستفاليا ويكون هذا الحاسوب متخصصاً في مراقبة الإفراز ويستطيع أن يكتشف أية عمليات داخلية وخارجية يمكن أن تكون السبب في أن يصير كيان مثل كيان ليني سميناً. هل يرى المرء ليني زوجة ملحق ترقص في سايغون أو واشنطن أو مدريد وتلعب التنس؟ ربما واحدة **بدينة** اسمها ليني، لا التي نعرفها نحن.

من المؤسف أنه لم تكتشف بعد الأدوات السماوية التي تحسب قيمة كل دمعة لم تذرف، كل الأوجاع وكل سعادة غامرة، كل بكاء وكل غبطة، كل بكاء وألم في وزن زائد أو نقص في الوزن. وإنه لصعب صعوبة لا يمكن التعبير عنها أن نلصق بليني تهمة اللاواقعية؛ ولكن بما أنَّ الحاسوب موجود فلماذا يتخلى العلم عنا (وهذا مالا تفعله المعاجم)؟

إذا كان المؤلف يرى إذاً سيرة لويس المهنية الافتراضية بوضوح صافٍ صفاء البلور فإنه لا يرى ليني في أي مكان، وبصراحة فإنه لا يراها حتى عند الأداء لأية واجبات زوجية.

أسفاً، أسفاً أنَّ الأدوات السماوية ليست بعد في متناول اليد، تلك التي قد تجيب عن السؤال المتعلق بالكتاب المقدس: قل لي كم تزن أكثر مما ينبغي أو أقل مما ينبغي، وأقول لك هل يحوّل المزيد أو القليل من الدموع والبكاء، من الضحك والغبطة والسعادة والأوجاع والآلام في معدتك وأمعائك، في ساق الدماغ والكبد والكليتين والبنكرياس عملك وإحساسك الخاطئين إلى تلك الزيادة أو النقصان. ومن يجيب عن السؤال كم كانت ليني ستزن لو

ثانياً: أنَّ إرهارد نجا وحده من الحرب.

ثالثاً: نجا إرهارد وهاينريش.

رابعاً: نجا إرهارد، هاينريش ولويس.

خامساً: نجا إرهارد ولويس.

سادساً: نجا هاينريش ولويس.

المؤكد فقط أنه لو بقي إرهارد حيّاً لابتهجت تلك الأداة السماوية التي لم تكتشف بعد بوزن ليني (والحواسيب أيضاً تبتهج) بالتوازن الخيالي لإفراز ليني. والسؤال الأهم: لو أنَّ ليني وقعت في الحالات من ١ إلى ٦ في مشتل بيلتسر، ولو كانت صراعات ونزاعات فكيف كانت ستسيطر عليها؟

هناك على كل حال ما يدعو للحكم على حياة ليني الافتراضية مع لويس بريبة بينما كان سينتهي اللقاء المخطط من قبل ليني في خلنج شلزفيك هولشتاين، كما يظهر، نهاية جيدة. ومؤكد أيضاً أن واقعة الزواج ما كانت ستزعج ليني أدنى ازعاج لو جاء أيُّ رجل «مناسب». وكما أنَّ المعلومات حول إرهارد في متناول اليد، ففي وسع المرء أن يراها زوجة مدرس ثانوي (المادة الرئيسية اللغة الألمانية)، زوجة أو (خليلة) لمحرر برنامج ليلي، زوجة لناشر إحدى المجلات الطليعية (ويجب القول هنا إنها كانت ستتعرف عن طريق إرهارد **أيضاً** إلى ذلك الشاعر الذي يكتب بالألمانية والذي تعرفت إليه فيما بعد عن طريق إنسان آخر: وهذا الشاعر هو جيورج تراكل). ومؤكد أيضاً أن إرهارد كان سيحبّها دائماً ـ هل كانت ستحبه هي ـ ليس في الإمكان ضمان هذا لأكثر من عشرين سنة، على أنه من المؤكد أيضاً أنَّ إرهارد ما كان سيصرّ على أية حقوق، وبهذا كان شيء واحد مؤكداً عنده مدى العمر، شعور ليني الطيب إنْ لم يكن إخلاصها الدائم على أية حال. فما لا يراه المؤلف أيضاً (على نحو

مفاجىء بالنسبة إليه) هو هاينريش؛ فلا يراه في أي مكان في أية مواقف وظيفية افتراضية إلاّ بمقدار ما رآه كل اليسوعيين.

فيما يتعلق ببعض المعلومات المعجمية، هنا يجب طرح السؤال أيضاً: ما هي الآن متطلبات المعيشة العليا؟ هناك في المعاجم شفرات مزعجة، حتى في المعاجم ذات الشهرة الفائقة. وما يمكن إثباته هو وجود ناس يمثل لهم ماركان ونصف المارك وسيلة معيشة أعلى بكثير من أية حياة إنسانية عدا حياتهم الخاصة، بل هناك ناس يقامرون بغير مبالاة في سبيل قطعة نقانق دم ينالونها أو لا ينالونها بمستلزمات حياة نسائهم وأطفالهم مغامرتهم بحياة عائلية مليحة وطلعة أب متهلل الوجه بعد زمن طويل. وكيف هي الحال بمتاع الحياة الذي يمجّد لنا بأنه الغبطة؟ اللعنة مرة أخرى، فالأول يكاد أن يكون قريباً من الغبطة حين يجمع في نهاية المطاف ثلاثة أو أربعة أعقاب سجائر تكفيه لكي يلف سيجارة جديدة أو يصح له أن يرشف بقية خمر الفيرموت من زجاجة مطروحة، أما الآخر فلكي يكون سعيداً مدة عشر دقائق تقريباً ـ على كلٍّ وفق تقليد الحب الغربي بقضاء الأمور المستعجلة ـ وبتعبير أدق: لكي يضاجع على جناح السرعة الشخص الذي اشتهاه لتوه، فإنه يحتاج إلى طائرة نفاثة خاصة يطير بها بين الإفطار وقهوة العصر إلى روما أو ستوكهولم من غير أن يلاحظ الشخص المخصص من أجل غبطته بطريقة مشروعة وفق الأحكام الكنيسة والقانونية أو (أنه احتاج إلى وقت عندئذ حتى موعد الإفطار التالي) فيطير إلى أكابولكو ـ لكي يضاجع الشخص المشتهى مضاجعة الذكر للذكر أو الأنثى للأنثى أو الذكر للأنثى.

هنا يجب الإثبات نهائياً أنه لم تكتشف بعد أجسام طائرة مجهولة

كثيرة ذات حاسبات كثيرة.

أين تسجل تجربة الأوجاع النفسية وأين تسجل تجربة الأوجاع الجسدية، أين يُسجل تسجيلاً بيانياً نشاط أكياس ملتحمتنا، ومن ذا الذي يعد دموعنا حين نستسلم خفية للبكاء ليلاً؟ من ذا الذي يهتم أخيراً بضحكنا وألمنا؟ اللعنة، هل ينبغي على المؤلفين أن يحلّوا هذه المسائل كلها؟ فلم العلم إذاً حين يبعثه المستأجرون الكرام لكي يجمع غبار القمر ويجلب معه إلى أن يحدّد مكان ذلك الجسم الطائر الغريب الذي ربما أعطى معلومات عن نسبية مستلزمات معيشة. لماذا مثلاً تنال بعض النساء حق مضاجعة عابرة، مع فيلّلتين وست سيارات ومليون ونصف دفعت نقداً، على حين تثبت الإحصائيات أنَّ في مدينة مقدسة فيها تقليد البغاء كبير وخطير في الوقت الذي كانت فيه صديقتنا ليني في السابعة أو الثامنة من عمرها، صبايا وفتيات سلْمن أنفسهن، لا بل حققن رغبات إضافية في الملاطفة لقاء فنجان قهوة ثمنه ثمانية عشر بفينيكاً (ومع الإكرامية عشرون بفينيكاً، بالمعنى الدقيق ثمنه تسعة عشر فاصلة ثمانية ـ لكن أية قطعة نقود معدنية يخطر ببالها أن تسكّ قطعاً من فئة صفر فاصلة واحد بفنيك، أو صفر فاصلة اثنين بفنيك ويكون مجموع عشر، أو خمس منها على كل حال بفينيكاً واحداً) أو لقاء سيجارة قيمتها اثنان ونصف بفنيك، ويكون المجموع في هذه الحال اثنين وعشرين بفنيك فاصلة خمسة؟

ويحتمل أن تكون مؤشّرات حاسب مستلزمات الحياة في فرط اضطراب وحركة دائمين لأنَّ عليها أن تسجّل فروقاً كبيرة جداً ـ بين اثنين وعشرين بفنيكاً فاصلة خمسة ومليوني مارك سعراً لنفس الخدمة تماماً.

فعلى أية مرحلة من مراحل الحساسية يسجّل المرء مثلاً متاع الحياة عود ثقاب، ليس عود ثقاب واحد، وليس نصف عود كبريت، ربع عود يشعل به سجين سيجارته مساءً، بينما آخرون ـ وإلى ذلك غير مدخنين! ـ عندهم على كل مكاتبهم قداحات غازية لا غاية منها ولا نفع فيها، كبيرة كبر قبضات اليد؟

أية أوضاع هذ هذه الأوضاع؟ أين هي العدالة؟

إذاً هنا ينبغي التلميح فقط إلي أنّ أسئلة كثيرة تبقى معلّقة.

* * *

قليل هو المعروف عن زيارات ليني لراحيل ذلك لأنّ الراهبات المقيمات في هذا الدير يهمّهن قليلاً أن يلقين كثيراً جداً من الضوء على ألفة ليني وراحيل، بناء على خططٍ ألمحت مارغريت إليها، لكن يجب كشفها. في هذه الحال كان لا بدّ أيضاً من مراعاة خاطر شاهدٍ عرّض نفسه للخطر نوعاً ما تجاه المؤلف وكان عليه أن يدفع الثمن غالياً؛ والمسألة هي مسألة البستاني ألفريد شويكنز الذي ألحق بدءاً من سنة ١٩٤١ بالراهبات بستانياً وبواباً مساعداً وهو مبتور الساق والذراع ولما يتجاوز الخامسة والعشرين ولا بدّ أن يكون قد عرف شيئاً ما عن زيارات ليني.، فلم يكن في الإمكان استجوابه إلاّ مرتين، وبعد الاستجواب الثاني نقل إلى دير موجود على الراين الأسفل، وحين بذلت المحاولة للعثور عليه هناك نقل من هناك مرة أخرى وأفهم المؤلف من قبل راهبة حازمة قوية الإرادة في نحو الخامسة والأربعين اسمها سابينتسيا أن المرء لا يرى واجباً عليه أن يقدم معلومات عن سياسة الأشخاص العاملين في

الهيئة الديرية. وبما أنَّ اختفاء شويكنز يتوافق تقريباً مع رفض الراهبة سيسيليا أن تستقبل المؤلف لرابع حديث، وهذه المرة حول راحيل فقط، فإن المؤلف يظنّ تلاعباً ومكايد ودسائس ويعرف في أثناء ذلك السبب: تحاول الهيئة الديرية أن تقيم عبادة خاصة براحيل، إن لم تهيىء لتطويب أو إعلان قداسة ـ في هذا المجال فإنَّ «مخبرين» (هكذا وصف هو)، غير مرغوب فيهم، وهو حتماً غير مرغوب فيه بالنسبة إلى ليني. ومادام شويكنز يتكلّم أو سمح له بأن يتكلم لأنه لم يخطر ببال المرء عمّا تكلّم فقد سجّل في المحضر أنه سمح لليني حتى منتصف سنة ١٩٤٢ مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع بالدخول إلى راحيل سراً، وأذن لها بالدخول إلى حرم الدير عبر منزله المخصص للبواب «وفي حرم الدير كانت جيدة الإطلاع نوعاً ما». أمّا لوته التي لم «تكن تحسن الظن بهذه الراهبة الصوفية الغامضة المريبة»، فليس عندها ما تخبر به عن ذلك، ويبدو أنَّ مارغريت لم تخبر ليني إلاَّ بموت راحيل. وقالت لي أنها «ضمرت وذبلت هناك وماتت جوعاً مع أني كنت آتي لها بطعام، وحين ماتت طمروها في الحديقة من غير شاهد قبر وما شابه ذلك؛ لقد أحسست حين وصلت إلى هناك أنها لم تعد هناك، وقال لي شويكنز: (لا فائدة ولا عائدة بعد الآن، يا آنسة، لا فائدة ـ أم أنك تريدين أن تحفري الأرض بأظافرك؟) ومن ثم ذهبت إلى الرئيسة وسألت بعنف عن راحيل، عندها قيل لي إنها مسافرة، وحين سألت إلى أين، تخوّفت الرئيسة وقالت: أي بنيتّي، هل تخلّت عنك كل الأرواح الطيبة؟ إنني الآن، تابعت مارغريت القول، لسعيدة أنني لم أعد أصحبها وأنني نجحت في أن أمنعها عن تبليغ؛ كان يمكن أن يمنى هذا بالفشل ـ بالنسبة إلى ليني،

للدير وللجميع. وهذه العبارة ‹الله قريب›، لقد مللتها ـ وحين أتصور أنه كان سيجتاز الباب إلى الداخل ـ» (هنا بلغ من مارغريت أن صلّبت على نفسها).

* * *

«طبيعي أنني سألت نفسي (هذا هو شويكنز في آخر زيارة حيث ظهر هو بمظهر الميال إلى التبسط في الحديث) أية امرأة هي، دائماً غاية في الأناقة وفي سيارة أنيقة مثل هذه الأناقة؛ زوجة أو صديقة متنفذ لمنصبه الحزبي، قلت في نفسي ـ مَنْ ذا الذي استطاع آنذاك أن يسوق سيارة ـ، الحزب أم الصناعة.

طبيعي ما من أحد كان له أن يعرف، ولقد أدخلتها سراً إلى الحديقة، هنا وعبر منزلي الصغير، وأخرجتها من هنا مرة أخرى، على أن الأمر انكشف ذلك لأنَّ المرء شمّ رائحة دخان سجائر، وذات مرة كانت لنا مشاحنة كبيرة مع مراقب الوقاية الجوية الذي زعم أنه شاهد نوراً في إحدى النوافذ ـ ولا يمكن أن يكون هذا إلاَّ أعواد الثقاب ـ التي يراها المرء على بعد كيلومتر واحد حين يكون كل شيء ظلاماً. وكان هناك مضايقة ونكد، ووضعت الصغيرة في القبو. (الصغيرة؟) أجل، الراهبة العجوز الصغيرة التي لم أرها إلاَّ مرة واحدة حين انتقلت إلى مسكن آخر ـ كان لديها كرسي صلاة وسرير، ولم ترغب في أن تأخذ معها الصليب، لا، قالت: ليس هو هذا، ليس هو هذا. كان شيئاً رهيباً. لكن الشقراء الأنيقة جاءت المرة تلو المرة، كانت عنيدة، أستطيع أن أقول لك، وحاولت إقناعي بأنّ عليَّ أن أساعدها في خطف الصغيرة. لقد أرادت أن تأخذها

معـهـا بدون مناقشــة وبدون تردد. ثم ارتكبت أنا حـمـاقـة، وهي أنني ارتشـيت ـ بسـجـائر وزبدة وقـهـوة ـ وسـمـحت لهـا دائمـاً بالدخـول، وإلى القـبـو أيضـاً. هنا لم ير المرء على الأقل حين كـانتـا تدخّنان. الحق أن النافذة كانت دون مستوى المصلّى. لابأس، ففي ذات يوم ماتت وقبرت في المقبـرة الصـغـيـرة في الحـديقـة. (بتـابوت وصليب وكـاهن؟) أجل بتـابوت، لكن لا كـاهن ولا صليب. سمعت الرئيـسـة تقول:‹ الآن لم يعد في وسعها أن تسبب لنا أية مضايقات على الأقل بسبب بطاقة المدخنين الملعونة الخاصة بها› ».

* * *

إلى هنا شويكنز لم يحدث أثراً لطيفاً جداً، على أنَّ ثرثرته كانت قد أيقظت آمـالاً لم تتـحـقق في آخر المطاف؛ فـأخـبـار ثرثارين لا تكون في مـجـموعـهـا ذات قـيـمـة إلى حد مـا إلاَّ حين يكتـشف المرء حـتى تصـبح «خـائنة»، وقـد أخذ شـويكنز يكشف نفسـه ـ إلاّ أنه هنا حـيل بـينه وبين المؤلف بعنف، حتى الراهبة اللطيفة سيسيليا التي أوحت للمؤلف أن الميل أو الشعور الطيب متبادل، قد نضبت كمصدر.

من المؤكد تماماً أن ليني تعتلي قمة صمتها وكتمانها بنهاية سنة ١٩٤١ وبداية سنة ١٩٤٢. وتظهـر لآل بفـايفـر احـتـقـارها بصـراحـة بأن تترك المكان حين يظهرون. فزياراتهم التي كانت اهتمـامـاً من وراء القلب يولونه ليني، قد جعلت شخصـاً قوياً مثل السـيـدة فـان دورن يحس بعد ستة أسابيع بالموضوع الذي انصّب اهتمامهم عليه، ليس مراقبة تصرّفات ليني الأرملة فحسب ـ بل أنصبّ أيضاً على أملها بالأطفال. فبعد موت

لويس بستة أسابيع، وفي وقت «كان قد وصل فيه الحزن الأبي عند الشيخ بفايفر إلى نقطة كان على وشك أن يجرَّ وراءه من الفخار والحزن الرجل الثانية على هذا النحو الزائف. أكانت اليسرى أم اليمنى التي كانت سليمة ـ لا أستطيع أن أقول لك ـ إنّما كان عليه أن يحتفظ أخيراً بالرجل السليمة لكي يتمكن من جرّ الأخرى وراءه، أليس كذلك؟ على أية حال، جاء هؤلاء باستمرار ومعهم الكعك البيتي العجيني القوام والباعث على الاشمئزاز والقرف؛ ولأنهم لم يكونوا موضع اهتمام أي إنسان، لا السيدة غروتن ولا ليني ولا الشيخ غروتن ولا حتى لوته، فقد قبعوا عندي في المطبخ، ويجب أن اعترف لك بأنني لم أقصد دائماً بالسؤال عما إذا «تغيّر» شيء ما عند ليني إلاَّ ترمّلها؛ هل كان لها عشيق أو شيء من هذا القبيل، لم أفهم هذا حتى فطنت أخيراً إلى أنهم ودّوا لو نظروا في ثياب ليني. فقد أرادوا أن يعرفوا هذا إذاً، وحين عرفت ماذا كان همّهم، ضلّلتهم نوعاً ما بأن قلت إنَّ ليني تغيّرت تغيّراً كبيراً، وحين وثبوا عليَّ مثل طيور البط بمناقيرها وسألوني كيف تغيَّرت، قلت بكل برود، نفسيّاً تغيّرت، وتراجعوا القهقرى. ثم بعد ثمانية أسابيع حدث أمر كانت فيه التولتسمية على وشك أن تتحرش بليني رأساً، أقصد مباشرة ـ ويجب ألاّ يغيب عن بالك أننا نتخاطب كلنا بضمير أنت، فنحن كلنا من القرية نفسها. وقد ضقت ذرعاً وقلت: لا، أستطيع أن أؤكد لكم بكل ثقة أنه لا أطفال هناك. كان سيوافق هواهم أن يهرّبوا إلى العش صغيراً يحمل اسم بفايفر ـ لكنَّ الشيء المضحك أنَّ هوبيرت أظهر فضولاً مماثلاً، ليس على نحو فظ بعيد عن اللباقة، بل أقرب إلى شيء من الأسى، إذ كان يتمنى لو كان عنده حفيده، ولو كان

من ذاك ـ حفيده الذي صار عنده أخيراً وصار يحمل اسمه أيضاً».

* * *

هنا يقع المؤلف في حيرة تامة ذلك لأنّه ودَّ أن يستشير المعجم من أجل خصلة مخمّنة من قبله لدى ليني وعرفت بصفة عامة باسم البراءة. ففي المعجم شيء عن الدين، والكثير إلى حدّ ما عن الإعتراف بالدين وحتى الاعتراف بالذنب، مما أسيء فهم المسرحية التربوية Schul -- drama على أنها Schuld - rama على حين تكشف القرى المدرسية عن هويتها في غير لبسٍ ولا إبهام، وفيه كلام كثير عن المدارس، الأمر الذي ابتلع منه القلاع المدرسية؛ وهناك فقرة عن حق التعليم طويلة إلى حد الإملال. طولها ثلاثة أضعاف ما كتب عن الدموع والضحك والسعادة والألم. وليس هناك كلمة واحدة عن البراءة التي لم يرد ذكرها على الإطلاق. اللعنة، أية أوضاع هي هذه الأوضاع؟ هل حق التعليم عند الألمان أهم من الضحك والبكاء والألم والسعادة؟ بما أن البراءة انتفت فإنه لمغيظ جداً أنَّ المرء لن يستطيع أن يتدبّر أمر هذا المفهوم من غير معجم. هل يتخلّى عنا العلم في النهاية؟ أيكفي القول إنّ ليني فعلت كل ما فعلته عن براءة وتحذف ببساطة علامات التنصيص؟ إنَّ ليني التي يتعلق بها المؤلف بحنوّ وحنان لا يمكن فهمها من غير هذا المفهوم. وسيتضح قريباً ـ في نحو سنة ـ وحين تشارف على الواحدة والعشرين أنها لم تفتقر أيضاً إلى الإمكانية لأن تسترد وعيها.

أية امرأة شابة هي تلك التي تتجول «شقراء أنيقة» في وسط الحرب بسيارة فارهة وترشي بستانيين ثرثارين (أغلب الظن أنهم صاروا

متطفلين لحوحين في حديقة الدير المظلمة)، لكي يجلبوا القهوة والخبز والسجائر لراهبة منبوذة محكوم عليها، كما يبدو، بالذبول والضمور حتى الموت، إمرأة لا تبدي أدنى جزع حين تقول تلك محدقة إلى الباب: «الرب قريب، الرب قريب» ـ وحين تقول هذه عند رؤية الصليب: «هذا ليس هو». إنها ترقص بينما يموت الآخرون كلّهم ميتة الأبطال، وتذهب إلى السينما بينما تسقط القنابل وتسمح، بتعبير مهذب، لصبي لا يثير الإعجاب الزائد بأن يغويها ويتزوجها، وتذهب إلى المكتب وتعزف على المعزف وترفض ترقيتها إلى مديرة وبينما يزداد قتلى الحرب أكثر وأكثر فإنها تذهب فوق ذلك إلى السينما وتشاهد أفلاماً مثل ‹الملك العظيم› و‹الأوغاد: كلاب السماء›. قول واحد أو قولان معروفان يمكن الاستشهاد بهما حرفياً ويعودان إلى هاتين السنتين من سنوات الحرب. وطبيعي أنَّ المرء يعرف الأشياء من آخرين، ولكن هل هؤلاء يعتمد عليهم؟ يعرف المرء أنها تضبط بين الحين والآخر وهي تثبت بصرها متعجبة مدهوشة في بطاقتها الشخصية بصورة تثبت شخصيتها بأنها هيلينا ماريا بفايفر، اسم اسرتها غروتن، من مواليد ١٩٢٢/٨/١٧. وتؤكد ماريا أيضاً أن شعر ليني يزهر من جديد؛ ويعرف المرء أيضاً أن ليني (وغيرها بالتأكيد) تكره الحرب وقبل الحرب أيام الآحاد التي لا يوجد فيها خبز طري.

ألا تلاحظ هي بشاشة أبيها الغريبة الذي يمضي «في كامل رشاقته» (لوته هويزر) الشطر الأكبر من يومه في مكتبه في المدينة حيث «يأتمر ويجري مباحثات»، «رئيس تخطيط» على أكمل وجه، لم يعد مالكاً، ولا حتى مساهماً، لا يعتمد إلا على «مرتب ثابت» عالٍ

نوعاً ما «بالإضافة إلى مصاريف ونفقات».

باحتقار فقط، كل شيء ثبت عن طريق تقبيض الوجه وحركات الجفون، تتلقى ليني الخبر مثلاً أنَّ حماها لا ينوي أن يتزين بصليب الشرف للمحاربين القدماء فحسب، بل بصليب الشرف رقم /٢/ أيضاً، لقاء المشاركة في معركة تعود إلى الوراء ثلاثاً وعشرين سنة، وأنه «يلح» على صديقه غروتن الذي يفاوض بين الحين والآخر في مكتبه في المدينة جنرالات أيضاً بأن يكون له عوناً في الحصول على هذا الوسام المطموع به. وإلى الآن لم يكتشف أي طبيب بعد شظية القنبلة «الكبيرة كبر رأس الدبوس» التي سبّبت الجرجرة الدائمة «للساق المفقودة». ألا تلاحظ هي أنَّ آل بفايفر يحاولون أن يخدعوها بأنهم هم الذين يقدمون طلباً لليني من أجل معاش أرملة ـ ألا تلاحظ أنها توقّع الطلب وبدءاً من ١٩٤١/٧/١ يدخل إلى حسابها المصرفي ستة وستون ماركاً ألمانياً ـ وطبعاً مع مبلغ إضافي مناسب ـ؟ ألم يفعل آل بفايفر هذا إلا لكي يثأروا منها نحو ثلاثين سنة بطريقة خبيثة بأن يجعلوا ابنهم هاينريش اللطيف.. ومن غيره اللطيف كل اللطف، الذي لا يجر خلفه ساقاً، بل يمكن الإثبات أنه فقد واحدة، يعدّ على ليني ذات يوم أنها كسبت على الأقل باسم بفايفر أربعين ألف مارك على أقل تقدير، أو على الأرجح خمسين ألف مارك، ذلك لأنها «حصّلت» منذ نحو ثلاثين سنة معاش الأرملة الذي زاد عدة مرات ولم يستقر بسبب عملها المهني ـ وأنه ـ وقد استاء من نفسه أنه جاوز حدّه ذات مرة وأغلب الظن (هذا رأي المؤلف الذي لم يؤكده أيُّ شاهد) بدافع الغيرة لأنه وقع بينه وبين نفسه منذ اليوم الأول في حب ليني، يصرخ بعدئذ في وجهها بحضور شهود (هانز

وغـريتـه هيلتسـن): «أي شيء قـمت به لقـاء ذلك، لقـاء خمـسين ألف مـارك؟ مرة واحدة استلقيت معـه فـي الأدغـال، ومرة ثانيـة، وكلٌّ يعـرف ذلك، أنـه كـان عليـه أن يتـوسّل إليك هذا المسكين الذي مـات إثـر ذلك بأسبوع واحد وترك لك اسماً لا تشوبه شائبة، بينما أنت ـ بينما أنت ـ بينما، بينما أنت ـ » نظرة من عينيّ ليني تجعله يصمت.

أتخال ليني نفسها مومساً بعد أن «استقذفت» بأنها حصّلت نحو خمسين ألف مارك لقاء مضاجعتين ـ بينما هي ـ بينما هي ـ بينما هي ـ

* * *

لا تتحاشى ليني المكتب فحسب، بل إنها قلما تدخله، وتعترف للوته هويزر بأنَّ «منظر هذه الأموال الطائلة المطبوعة طباعة حديثة» يسبب لها الغثيان. وتحمي سيارتها من خطر مصادرة آخر، فلا تستعملها إلاّ لكي «تتجول في المنطقة»، إلاّ أنّها تصطحب معها أمها الآن بصورة متكررة دائماً «وتجلسان ساعات طوالاً في مقاهٍ ومطاعم أنيقة تكون قريبة من نهر الراين بقدر الإمكان، وتتبادلان الابتسامة وتنظران إلى السفن وتدخنان السجائر». فما يميّز آل غروتن في هذه الفترة هو هذا «المرح الذي لا يمكن تحديده والذي كان يمكن أن يجنّن شخصاً ما تدريجياً» (لوته هويزر). ويتشخّص مرض السيدة غروتن بصورة نهائية بقليل من الأمل في التحسّن: تصلّب متعدد يزداد سرعة في دخول الطور النهائي. وتحملها ليني إلى السيارة ومن السيارة؛ لم تعد تقرأ، حتى ولا ييتس، وبين الحين والآخر «تترك سبحة تنزلق من بين يديها» (فان دورن)، لكنها لا تطلب تعازي الكنيسة».

هذه الفترة في حياة آل غروتن ـ بين بداية سنة ١٩٤٢ وبداية سنة ١٩٤٣ ـ يصفها المشاركون كلّهم بصراحة بأنها «أعظم الفترات ترفاً». «بلا مسؤولية، أجل بلا مسؤولية، وحين أقول هذا، فلربما تفهم على نحو أفضل لماذا أصاحب ليني اليوم بطريقة ليست فيها قسوة أو خشونة، كما أنه ليس فيها لين، وتمتعوا هم بكل شيء قدمته سوق أوربا السوداء ـ ثم ظهرت تلك المسألة الرهيبة التي لا أعرف عنا حتى يومنا هذا لماذا أقدم هوبيرت عليها. فلم يكن في حاجة إلى ذلك. الحق أن لم يكن في حاجة إليها». (ماريا فان دورن).

* * *

لم تنكشف «المسألة» إلاّ بمصادفة سخيفة محض أدبية، وقد سمّاها غروتن فيما بعد «شغل مفكرات خالص»، وكان معنى هذا أنه حمل معه دائماً كل الأوراق في محفظته وفي مفكّرة؛ وكان عنوانه البريدي في هذه القضيّة مكتبه في المدينة، ولم يطلع أحداً على هذه القضيّة، ولم يقحم أحداً فيها، حتى ولا صديقه هويزر المحاسب الأول عنده. كانت قضيّة محفوفة بالمخاطر، مقامرة بمبلغ عالٍ ثبت عنده أنَّ المسألة في نظر غروتن لم تكن مسألة مبلغ مراهن عليه بقدر ما كانت مسألة لعب أو مقامرة، وأغلب الظن أنَّه ما من أحد «فهمه» حتى يومنا هذا إلاّ ليني، مثلما «فهمته» زوجته ولوته هويزر ـ ولكن بشروط ـ ولئن فهمت هذه معظم الأمور، إلاّ أنها لم تفهم «الشيء الانتحاري للغاية في ذلك، فقد كان في الحقيقة انتحاراً ـ محض انتحار ـ وماذا صنع بالمال؟ لقد كانت الرزم والكدسات والربطات التي وهبها! كان أمراً غاية في السخافة والعدمية

ـ غاية في التجريد والجنون».

كان غروتن قد أسس بسبب «هذه القضية» دون غيرها في مدينة صغيرة على بعد نحو ستين كيلومتراً شركة سمّاها «شليم والابن». وكان قد دبّر لنفسه أوراقاً ثبوتية مزورة وطلبات مزورة بتواقيع مزورة («وكانت الاستمارات في متناول يده دائماً، ولم تهمه التواقيع كثيراً، وفي الفترة العصيبة ما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٣ بلغ منه أحياناً أن زوّر توقيع زوجته على كمبيالات قائلاً:< ستفهم هي هذا ولماذا يستفزون هم **الآن** بذلك>. » هويزر الأكبر).

أما المقامرة، القضيّة فقد استمرت على كل حال ثمانية أو تسعة أشهر وعرفت في عالم البناء كلّه بأنها «فضيحة النفوس الميتة». وهذه الفضيحة الكبيرة توقفت على «لعبة مفكرة مجردّة» (لوته هويزر) لعبت فيها دوراً كميات هائلة من اسمنت مدفوع الثمن، لا بل مستورد، إنما عن طريق السوق السوداء في غير موضعه، كما لعب فيها دوراً سريّة كاملة من «العمال الأجانب» يعملون لقاء أجر أو مكافأة، لكنهم وهميون، مهندسون معماريون، مراقبو بناء، رؤوساء عمال، بل ومطاعم وطباخات وهلمّ جرا، لا وجود لهم إلاّ في مفكرّة غروتن؛ حتى محاضر الاستلام كانت موجودة، وكانت التواقيع الصحيحة موجودة ضمن محاضر الاستلام؛ والحساب المصرفي ومجمل كشوف الحسابات، كل شيء موجود، «شيء صحيح كل الصحة، أو بالأحرى شيء يبدو صحيحاً ومضبوطاً» (دكتور شولسدورف أمام المحكمة فيما بعد).

* * *

أنَّ شولسدورف هذا، مع أنه لم يجاوز آنذاك الواحدة والثلاثين، قد وصف من قبل الجميع، وكذا أيضاً من قبل أشدّ لجان الفرز، من غير أن يستعمل حيلاً («مع أني ما كنت لأوفّر حيلاً أيضاً، غير أنني لم أحتج إليها»)، بأنه غير لائق، مع أنه لم تلازمه أية آلام عضوية، فقط لأنه كان رقيقاً للغاية وجدّ حساس وعصبي بحيث إنَّ المرء لم يرد أن يجازف معه ـ وهذا يعني شيئاً إذا ما فكرّ المرء أنَّ أطباء ألمانيين، أعضاء لجان الفرز في عام ١٩٦٥ أيضاً، ليس «أحبَّ» إليهم من أن يصفوا «استشفاء في ستالينغراد «لشبان ألمانيين ليسوا نحفاء كل النحافة. «وزيادة في الحيطة» فإنَّ أحد أصدقاء شولسدورف من أيام الدراسة الذي «تربّع» في مركز قوي النفوذ، كان قد جعل هذا يؤدي خدمته الإلزامية في إدارة الشؤون المالية لتلك المدينة الصغيرة، ومن عجب أنَّ شولسدورف تمرّن هناك على مادة غريبة عنه بسرعة كبيرة وعلى نحوٍ سليم أيضاً بحيث أنَّ وجوده لم يصبح بعد سنة «ضرورياً، بل إنه بات لا يعوَّض إذا جاز التعبير» (رئيس المالية المتقاعد الدكتور كرايف، رئيس شولسدورف الذي كان في الإمكان الاهتداء إليه بعد بحث شاق في مكان للاستشفاء خاص بالبروستات). ويتابع كرايف: «ومع أنه متخصص في علم اللغة (الفيلولوجيا) فلم يكن في إمكانه أن يحسب فحسب، بل كان أيضاً قادراً على أن يسبر بدقة غور عمليات مالية حسابية معقّدة ويعرف صفقات في طبيعتها المريبة ـ وهذا على عكس موهبته الحقيقية». وهذه «الموهبة الحقيقية» كانت علم الدراسات السلافية، هوى شولسدورف حتى يومنا هذا، مجال الاختصاص: الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، «ومع أنه عرضت عليَّ مترجماً عروض

مغرية فقد فضّلت هذا العمل في إدارة الشؤون المالية ـ هل كان عليَّ أن أترجم إلى الروسية لغة ألمانية لضابط صف أو ربما لجنرال؟ أكان عليَّ أن أحط من كرامة هذا الشيء المقدس في نظري وأحوّله إلى قاموس عملي لانتزاع المعلومات؟ لا، أبداً!»

وقع شولسدورف في أثناء فحص روتيني بريء على أوراق شركة «شليم والابن»، ولم يجد أي شيء، بل إنه لم يجد أيضاً أدنى مأخذ عليها. وبالمصادفة فقط أخذ يفحص جداول الأجور، هنا أصيب «بالذهول، ماذا أقول: لقد قامت قيامتي، إذ وقعت على أسماء لم تبدُ لي معروفة فحسب، بل كانت أيضاً أسماء ما زلت أعيش معها». هنا وللإنصاف يجب أن يضيف المرء أنه ربما كانت في ذهن شولسدورف بعض أفكار الانتقام، لا من غروتن، بل من البناء فوق الأرض وتحتها؛ وكان قد بدأ في إحدى شركات البناء ماسكاً لجداول الأجور، وقد أوصاه صديق ذو نفوذ بهذا الاتجاه، ولكن بما أنَّ المرء اكتشف عبقريته في الأرقام والنسب، فقد ذمّوه ومدحوه المرة تلو المرة لأنه ما من شركة بناء كانت في الحقيقة مهتمة بأن يتركوها تنظر في الحسابات بمثل هذه الدقة التي ما كان المرء سيتوقعها من اختصاصي في علم اللغة. وفي سذاجته التي تفوق كل وصف كان شولسدورف قد اعتقد أنه ليهمُّ الشركات في الحقيقة ما كان عليها أن تخشاه في الواقع: الاطلاع على حيلها والإلمام بها. فالمرء كان قد استخدم لغوياً غير مساير للدنيا ونصف مجنون «أراد أن يشبعه أكلاً بدافع الشفقة وينقذه من الخدمة العسكرية» (السيد فلاكس من شركة البناء التي تحمل الاسم نفسه وهي في الوقت الحاضر مؤسسة كبيرة بأعمالها وصفقاتها)، ثم أنه كان هناك شخص

مخمور يتطاير مخه وكان أدق من أي موظف مالي. كان هذا خطراً كبيراً علنياً».

إن شولسدورف الذي كان سيتمكن من أن يقول بدقة كم متراً مربعاً كانت مساحة حجرة راسكولنيكوف الطلابية وكم درجة كان على راسكولنيكوف أن يهبط حتى يبلغ الفناء قد وقع فجأة على عامل اسمه راسكولينكوف كان يخلط في مكان ما في الدانمرك الخرسانة المسلحة لشركة شليم والابن وكان يأكل في مطعمها. غير أنه بعد ذلك، ليس ظناناً بعد، إنما على نحوٍ «شديد الانفعال والاحتداد»، وقع على واحد اسمه سفدريغايلوف وآخر اسمه راسوميتشين، واكتشف أخيراً تشيتشيكوف وواحداً اسمه سوباكيفتس ـ ثم وقع في الخانة الثالثة والعشرين تقريباً على واحد اسمه غورباتشوف، فامتقع لونه، لكنه ارتعش من الغضب والامتعاض حين اكتشف بعد ذلك واحداً اسمه بوشكين وغوغول وواحد اسمه ليرمنتوف على انهم أسرى حرب يتقاضون أجراً متواضعاً. حتى ولا على الاسم تولتسوي كان المرء قد أبقى. هنا نريد أن نوضّح الأمر: إنّ د. شولسدورف هذا لم يهمه أي شيء على الإطلاق من مثل «نظافة اقتصاد الحرب الألماني» أو شيء من هذا القبيل؛ فمثل هذه الأمور كانت «في نظره غير ذات قيمة»؛ ولم تكن دقته المزعجة المتعلقة بالتقنية المالية (تفسير المؤلف الذي تحدث كثيراً وطويلاً منذ وقت غير بعيد مع شولسدورف وأغلب الظن أنه سيتحدث معه أيضاً مراراً وتكراراً) إلاّ تنويعاً وتغييراً على الدقة العالية التي عرف بها شخوص الأدب الروسي كلهم في القرن التاسع عشر وأحبهم وشرحهم. «وقد اكتشفت على سبيل المثال أن تشيخوف ومستخدموه

كلهم غير موجودين في هذه الجداول ـ وكذلك تورجنييف، وكان في إمكاني أن أقول لهم آنذاك اسم الشخص الذي كان قد وضع هذا الجدول: ما من أحد كان يمكن أن يكون إلاً زميل الدراسة الدكتور هينغيس، ضائع منحط، لكنه أحد أنصار تورجنييف المتحمسين، وأحد أنصار تشيخوف المجانين، مع أنَّ هذين المؤلفين كليهما لا علاقة لأحد منهما بالآخر بحسب رأيي، ومع أني أريد أن أعترف صراحة بأنني استهنت في أثناء فترة دراستي بتشخيوف، استهنت به استهانة كبيرة والثابت أنَّ شولسدورف لم يقدّم بلاغاً على الإطلاق، ولا في هذه الحال أيضاً: «كان هذا خطراً كبيراً عليَّ، مع أني أكره عدم الدقة واحتقر تجار السوق السوداء، فلم أبلّغ عن أحد قط، وأوعزت إلى الناس أن يأتوا واستقبلتهم بين هذا وذاك وطلبت منهم أن يصحّحوا تصريحاتهم بإضافات وذيول وأن يدفعوا الفرق ـ ولأنني في قسمي كان عليَّ أن أبيّن معظم المبالغ الإضافية فقد كنت محترماً ومقدّراً عند كرايف. لا أكثر، إنما تبليغ الشرطة ـ وعرفت في أية آلة قضائية كنت سأرمي الناس، وماكان في ودي أن أؤذي حتى المهربين والناس غير النزيهين. فإذا تصوّرت أنت أنه حكم على ناس بالموت لأنهم سرقوا بضع كنزات، لا ـ لكن هذه المرة أفلت الأمر من بين يدي. لقد ولّى الأمر مسرعاً: ليرمنتوف عبدٌ لصناعة البناء الألمانية في الدانمرك! بوشكين وتولستوي وراسوميتشين وتشيتكشوف ـ يخلطون الخرسانة المسلحة ويأكلون حساء الفريكة. غونتشاروف مع بطله أو بلوموف والجاروف في اليد!»

إنَّ شولسدورف الذي سيتقاعد قريباً برتبة مستشار إداري أول ولا يزال يتعمق في الأدب الروسي المعاصر، أتيحت له الفرصة أن يعتذر من

غروتن الشيخ وأن يردَّ له جميله بسخاء بأن علّم حفيده ليف، ابن ليني، لغة روسية رائعة فخمة؛ وإذا كان لدى ليني اليوم بين وقت وآخر زهور في غرفتها (لا تزال تحبها مع أنها تعاملت معها زهاء سبع وعشرين سنة مثلما يتعامل آخرون مع البازلاّء) فإنَّ هذه الزهور من دكتور شولسدورف! وشولسدورف غارق الآن في أشعار أخماد ولينا. «طبيعي أنني لم أقدّم بلاغاً إلى الشرطة، كتبت أولاً رسالة هذا نصّها تقريباً: ‹ لا بدَّ لي من أطلب منكم أن تسعوا لديّ في الحال، إذ أنَّ الصفة العاجلة للمسألة وأهميتها لا يمكن توكيدها التوكيد الكافي أو إبرازها على نحوٍ كافٍ› » وقد أنذر مرة ومرتين وحاول أن يجد هينغيس، بلا جدوى ـ «وبما أنني أنا أيضاً كنت خاضعاً لمراجعات روتينية عُشر عندي على أسماء الأشخاص المطلوبين، وسرعان ما أجري تحقيق مع شركة «شليم والابن». وبعد ذلك ـ بعد ذلك توقفت الاسطوانة القاسية وانتهى الموضوع الموجع».

لقد صار شولسدورف شاهد الإثبات الأساسي في قضية لم تستغرق إلاّ يومين ذلك لأنَّ غروتن الشيخ أقرَّ واعترف بأنه مذنب بلا قيد أو شرط؛ بقي هادئاً رابط الجأش، إلاَّ أنه وقع في حيرة حين طلب إليه أن يسمي «المورّد بالإسم» (تصوّر هذا «المورّد بالأسم» شولسدورف)، وهذا «المورّد بالاسم» لم يتخلَّ شولسدورف أيضاً عنه مع أنه لم يعرفه تمام المعرفة. مضى نحو ثلاث ساعات من يوم المحاكمة الثاني بامتحان ثقافة على يد اختصاصي بعلم الدراسات السلافية من برلين استدعي خبيراً لأنَّ غروتن كان قد ادّعى أنه أخذ الأسماء من كتب ـ وثبت عليه أنه لم يسبق أن قرأ كتاباً روسياً واحداً، «وإن كان قد قرأ كتاباً ألمانياً فحتى

كتاب (كفاحي) لم يقرأه» (شولسدورف)، وبذلك جاء «دور هينغيس». فلاغروتن سلّمه، إنّما شولسدورف كان قد عثر عليه في أثناء ذلك. «الحق أنه عمل بمرتبة مرشد خاص للقوات المسلحة وحاول أن يدفع أسرى حرب روسيين للبوح بأسرار عسكرية. رجل كانت ستتاح له فرص بصفته اختصاصياً في تشيخوف لينال شهرة عالمية».

إنَّ هينغيس الذي حضر في الحقيقة بمحض اختياره قد مثل أمام المحكمة في بذلته العسكرية، بذلة قائد خاص لم تكن مخروطة عليه ولم تكن على قدّه، فلم يستعملها ولم يلبسها إلاَّ منذ أربعة أسابيع» (شولسدورف). أجل، لقد اعترف بأنه أمدَّ غروتن الذي قصده بقائمة أسماء روسية. والشيء الذي أخفاه وسكت عليه هو أنه كان قد حصّل لكل اسم عشرة ماركات مكافأة. وكان قد تحدّث قبل ذلك مع محامي غروتن حول هذه النقطة وأوضح له: «هل تعلم أنني لا أستطيع أن أسمح لنفسي القيام بهذا الآن؟» وعلى هذا تنازل غروتن ومحاميه عن هذا التفصيل المزعج الذي اعترف به هينغيس أمام شولسدورف الذي واصل معه محاجته وجداله في حانة قريبة من المحكمة. إذ أنَّ مناقشة حادة حدثت قبل المحكمة بين شولسدورف وهينغيس، وقد صاح شولسدورف في أثناء ذلك في وجه هينغيس مغتاظاً: «لقد خنت الجميع، الجميع، إلاَّ صاحبك تورجنييف وصاحبك تشيخوف لم تخنهما». وقد قاطع المدّعي العام هذا «التكلّف الروسي».

إنَّ العبرة المستمدة من هذا الفصل الأوسط تتضح من تلقاء ذاتها: إن مقاولين يضعون جداول أجور مزوّرة، ينبغي عليهم أن يكونوا مثقّفين ثقافة أدبية و ـ إنَّ موظفي مالية على ثقافة أدبية يمكنهم أن يثبتوا أنهم

نافعون ومشجعون للدولة.

* * *

لم يكن هناك في هذه القضية إلاّ متّهم واحد: غروتن. اعترف بكل شيء وعقّد وضعه لأنه رفض أن يعترف بشهوة الكسب دافعاً؛ وعند سؤاله عن دافعه امتنع عن الإجابة وحين سئل عما إذا خطر التخريب بباله نفى. وحين سئلت ليني غير مرة عن الدافع غمغمت بشيء ما عن «الانتقام» (لمَ الانتقام؟ المؤلف).

لم ينجُ غروتن من عقوبة الموت إلاّ بشق النفس، وذلك بعد تدخّل قوي «لأصدقاء ذوي نفوذ كبير جداً جداً تعلّلوا بخدماته التي لا جدال فيها، والتي انصبّت على الاقتصاد الحربي الألماني» (نقلاً عن هويزر الأكبر)، فحكم عليه بالسجن المؤبد وصودرت ثروته كلّها. وكان على ليني أن تمثل مرتين أمام المحكمة، إلاّ أنهم برّأوا ساحتها لثبوت براءتها، وكذلك هويزر ولوتّه وكل الأصدقاء والمستخدمين. الشيء الوحيد الذي سلم من المصادرة كان العمارة للإيجار التي ولدت فيها ليني، وهي لا تدين بهذا إلاّ للمدعي العام الذي كان «فيما عدا ذلك صارماً جداً» والذي تعلّل «بمصيرها الصعب أرملة حرب وبثبوت براءتها» و«جدّد القول» على نحو من الثرثرة المزعجة المقيتة في بطولات لويس (لوته هويزر)؛ حتى إنه سجّل عمل ليني في منظمة نازية للفتيات لحساب أرباحها الأخلاقي. «وإنه لمن غير اللائق، يا فضيلة القاضي، أن نسلب ونغتصب من هذه الأم الشديدة المرض (وكان المقصود بذلك السيدة غروتن) التي فقدت ابنها وصهرها هذه الأم الألمانية الشابة الشجاعة

التي ثبت أنَّ حياتها لا تشوبها شائبة، قيمة مالية جيء بها إلى ملك الأسرة عن طريق زوجته لا عن طريق المتهم المدعى عليه».

لقد قضت هذه الفضيحة على السيدةغروتن. وبما أنه لم يكن ممكناً نقلها فقد استجوبت عدة مرات في السرير، «وكفاها هذا» (فان دورن)، «ولم يكن ليحزنها أن تغادر هذه الدنيا ـ وفي نهاية المطاف إنها لامرأة شجاعة شريفة محترمة. وكان سيطيب لها أن تودّع هوبيرت، لكنَّ هذا كان محالاً، ودفناها بكل هدوء، طبعاً دفناً كنسيّاً».

* * *

بلغت ليني الآن الواحدة والعشرين؛ طبيعي أنه لم يعد لديها سيارة، وترى أن تتخلى عن منصبها في الشركة، فأبوها لم يقفوا له مؤقتاً على أثر. ألا يصدمها هذا كله أو يصدمها جداً؟ ماذا سيحلّ بالشقراء الأنيقة صاحبة السيارة الأنيقة التي تبدو أنه لم يعد لها من شأن في السنة الثالثة من الحرب إلاّ أن تعزف على المعزف قليلاً وأن تقرأ على أمها المريضة حكايات إيرلندية وأن تزور راهبة تحتضر؛ وهذه التي ترملت مرتين، إذا جاز التعبير، من غير أن تبدي أسىً وحزناً، تفقد أمها الآن بينما أبوها يختفي في غياهب السجون؟ وليس معروفاً إلاً القليل من أقوالها المباشرة التي تعود إلى تلك الفترة. فالأثر الذي أحدثته في نفوس كل الذين يعيشون معها عن كثب أثرٌ مفاجىء. وتقول لوته إن ليني كانت «منشرحة الصدر على نحو أو آخر»، وتقول فان دورن إنها «بدت متحررّة» على حين يعبرّ هويزر الشيخ على النحو التالي: «لقد تنفّست الصعداء على نحو أو آخر»؛ وهذه العبارة «على نحو أو آخر»

في قولين من هذه الأقوال هي بطبيعة الحال ضعيفة واهية، إلاَّ أنها تفتح للخيال أيضاً خصاصة في ميل ليني إلى الكتمان.، وقد عبّرت ليني عن ذلك بقولها: «لم تبدُ مغمومة مكسورة النفس، بل خيّل إليَّ أنها انتعشت أو عادت إليها الحياة. والأسوأ في نظرها بكثير من الجرسة مع أبيها ومن موت والدتها كان الاختفاء الغريب المريب للراهبة راحيل».

ويجب التوكيد بصورة موضوعية أنَّ ليني فرض عليها العمل الإجباري وانتهى بها المطاف في محل أكاليل الزهور بناءً على تدخل أحد ذوي الخير والبرّ الذين يعملون بعيداً عن الأنظار والأضواء والذي «كان بيده مقاليد بعض الأمور» وما أحبَّ أن يذكر اسمه، إلاَّ أنَّ المؤلف يعرْفه.

قد يتساءل المولودون فيما بعد لماذا كانت الأكاليل في سنة ١٩٤٣/١٩٤٢ مهمة للحرب. والجواب هو: من أجل تنظيم الدفن في المستقبل بصورة مهيبة بقدر الإمكان. وهذه الأكاليل لم تكن في الفترة مطلوبة أو مبتغاة مثل السجائر لكنها كانت سلعة تندر في الأسواق، وما من شك في ذلك، فإلى ذلك كانت مطلوبة ورائجة ومهمة في نظر قيادة الحرب النفسية. على أنَّ الحاجة الرسمية إلى الأكاليل كانت كبيرة: من أجل ضحايا القنابل والجنود الذين يموتون في المشافي الميدانية، وفضلاً عنذلك وبما أنَّ «موتاً خاصاً كان يقع بين الحين والآخر» (فالتر بيلتسر، مالك المشتل سابقاً والمتقاعد ورئيس ليني آنذاك والذي يعيش الآن من أملاكه) وأنّه «شيّع كثيراً إلى حدّ ما كبار الاقتصاديين والحزبيين والعسكريين في جنازات رسمية في مختلف الفئات والطبقات»، فقد كان كل نوع من الأكاليل مهماً للحرب بدءاً «من أبسط إطار ضخم اقتصد في تزيينه وانتهاءاً بإطار ضخم صفّت الورود عليه وضفّرت» (فالتر بيلتسر). إنه هنا ليس المكان المناسب لتقدير الدولة حق قدرها بصفتها مقيماً ومعداً للجنائز، ويمكن أن يعدّ تاريخياً بصورة لا جدال فيها، ويمكن إثباته علمياً، أنه كان هناك جنائز بأعداد كثيرة وأنَّ الأكاليل كانت مطلوبة رسمياً وشخصياً وأنَّ بيلتسر نجح في أن يؤمّن لمحله، محل أكاليل الزهور، وضع محلّ مهم للحرب. وكلّما

ازدادت الحرب تقدّماً، وهذا يعني كلّما استمرت زمناً طويلاً (وهنا يشار بصراحة إلى العلاقة بين التقدم والاستمرار) قلّت الأكاليل بطبيعة الحال.

إذا مـا كـان هناك «في مكان مـا» تغـرّضٌ وانحيـاز أنَّ فن صناعـة الأكـاليل ليـس بمهم وجب هنا الاعتـراض من أجل ليني بصـورة حـازمـة، وإذا اعـتبر المرء أنّه يوجـد هناك أكليل الزهر أو النوار كـشكل نهـائي أو شكلٍ ابتدائي وأنه يجب الحفاظ على وحدة الشكل الإجمالي في كل حال وأنه يوجد أشكال وتقنيات مختلفة لتشكيل جسم إكليل؛ وأنه لمهم في حالة غـصنات الربط أي غـصنات ربط تنتقى لأي شكل إكليلي مختـار؛ وأنه يوجد تسعة أنواع مختلفة من غصنات الربط لأجل القـاعدة وأربعة وعـشـرون نوعـاً مـخـتـلفاً لأجل الشكل النهـائـي واثنان وأربعـون لأجل التبويق (الصيغة الشاملة الغرز) وتسعة وعشرون نوعـاً للرومنة أو جعل شكل الإكليل رومـانيـاً، وفي هذه الحال يتوصّل المرء إلى عـدد إجمـالي قدره مئة واثنا عشر نوعاً من غصنات الربط، وإن تداخلت هذه أيضاً في شتى أصناف استعـمالها ـ فإنه يبقى مع ذلك خمسة أصناف استعـمال مختلفة ونظام معقد من التداخل والتشابك، وإن استعملت هذه الغصنة أو تلك للربط أو للشكل النهائي وللغرز (الذي سينقسم بدوره إلى حزم وتبويق) وللرومنة، صحت هنا أيضـاً القاعـدة الأساسية: إذا عـرف المكان عـرفت الطريقة والكيفيـة. إنَّ الذي يشـعر عندئذ بصنع الأكـاليل شعور الإحتقار والازدراء بأنه عـمل متـواضع صغـير، هل يعرف متى يستعمل غـصنة شجر التنّوب لأجل القاعدة أو للشكل النهائي ومتى وأين ينبغي استعمال شـجرة الحيـاة والطحلب الاسلندي والزنبقيـة والماهونيـة وتنوبة الشوكران؟ من يعرف أنَّ الغـصنة يجب أن تعلق في كل حال من البداية

إلى النهاية بصورة تامة، وأنه لمتوقع دائماً وفي كل مكان إنجازٌ خاص بعمل باقات الزهر؟ وعلى هذا سيرى المرء أنَّ ليني التي لم تعمل حتى الآن إلاَّ أعمالاً كتابية سهلة وغير منظمة، لم تقع هنا قطعاً في أرض سهلٌ المشي فيها وفي صنعة سهلٌ اتقانها، إنما سيرى أنها كادت أن تتورط في مشغل للفن.

* * *

ربّما كان غنيّاً عن التوكيد والإثبات أنَّ «الاكليل المرومن» ساءت سمعته بعض الوقت حين برز ما هو جرماني بروزاً شديداً؛ وأنَّ مسائل خلافية على ذلك قد توقفت حين حصل المحور وصنع موسوليني بشيء من الفظاظة والخشونة الحط من قدر الإكليل المرومن؛ وكان في الإمكان استعمال الفعل «رومن» بحرية حتى منتصف تموز سنة ١٩٤٣، ولكن نظراً للخيانة الإيطالية استئصلت شأفته نهائياً (تعليق أحد القادة النازيين الكبار نوعاً ما: «في بلادنا هذه انتهت الرومنة فلم يعد يرومن المرء، حتى ولا عند ترتيب الزهور في أشكال فنية متنوعة صنع أكاليل الزهور») ـ وكل قارىء نبيه سيفهم على فوره أنه في مواقف متطرفة سياسياً لن يكون صنع الأكاليل آمناً. وبما أنَّ الاكليل الروماني كان قد نشأ إلى ذلك تقليداً لأكاليل زينة منقوشة في الحجر على واجهات رومانية فقد تهيأت أسباب اديولوجية لمنعه البات المطلق: فقد وصف بأنّه «ميت» ووضعت كل أشكال الأكاليل الأخرى بأنها «حيّة». أما فالتر بيلتسر الذي هو مهم بصفته شاهداً على تلك الفترة من حياة ليني، مع أنه قد يكون رديء السمعة، فقد استطاع أن يثبت إثباتاً شبه معقول

أنه وشي به في نهــاية سنة ٤٣ وبداية سنة ٤٤ «من قــبل حــسّــادٍ ومنافسين» في الغرفة الصناعيـة وزوِّد «بالمذكّرة الخطيرة» (بيلتسر): «مـا زال يرومن». «اللعنة، كـان يمكن أن يكوّن هذا آنذاك خطراً على الحياة» (بيلتسر). وطبيعي أن بيلتسر يحاول أن يبرهن بعد سنة ١٩٤٥ وحين تطرّق الحديث إلى موضوع ماضيه المريب «وليس فقط من أجل ذلك» بأنه «ملاحق سياسياً»، وكما يجب توكيده للأسف، فبمعونة ليني ـ نجح. «إذ أنَّ هذه كـانت الأكـاليل التي كـانت ليني، وأقـصـد ليني بفايفر، قد ابتكرتها بنفسها في حقيقة الأمر: أكاليل ملساء محبوكة من الخلنج تبـدو في واقع الأمـر كـأنهـا مطليّـة بالميناء، لكنّهـا ـ وهذا مـا أستطيع قوله لك ـ أعجبت الجمهور. لم يكن لهذا أدنى صلة بالرومنة أو ما شـابه ذلك ـ كـان ابتكاراً خـاصاً بليني بفايفر. على أنَّ هذا كاد أن يكلّفني حياتي لأنّه فسّر أنّه تنويع روماني».

إنَّ بيلتسر الذي بلغ في هذه الأثناء السبعين ويعيش متقاعداً، من أملاكه، بانت عليه بعد ست وعشرين سنة سيماء الخوف على نحو واضح الدلالة وكان عليه أن يضع إلى حين لفافته الغليظة من يده لأنه بدا منه أنه حسب حساباً لنوبة سعـال. «أصلاً ـ كل مـا قدّمتـه لهـذه، وكل ما غطيتـه هنا ورعيته ـ كان في الحقيقة خطراً على الحياة، وأسوأ من تهمة الرومنة».

على كل حـال كـان في الإمكان الاهتـداء إلى خـمسـة أشخـاص من العشرة الأشخاص الذين تعاونت ليني معهم تعاوناً وثيقاً ويومياً، ومنهم بيلتسر نفسه ومعلمه البستاني غروندتش. وإذا ما وصف المرء بيلتسر وغروندتش على سبيل الدقة بأنهما رئيسا ليني بقي على كل حال ثلاثة

من الثمانية الذين تعاونت ليني معهم على أساس من المساواة كثرت هذه أم قلّت.

يسكن بيلتسر في شكل معماري يسميه هو نفسه بنغلاً (بيتاً ذا طابق واحد)، إلاّ أنَّ المرء يستطيع أن يطلق عليه بارتياح اسم فيلاً فخمة مزخرفة، وإنّه بناء مؤلف في الظاهر من طابق واحد ومبني من قرميد قاسٍ أصفر (ويشتمل القبو الموسّع بناؤه على بار فخم وصالة للهوايات أعدّ فيها بيلتسر نوعاً من متحف الأكاليل، وحجرة للضيوف مع منتفعاتها ومخزن خمور مجّهز أحسن تجهيز)؛ واللون المسيطر الذي يلي الأصفر هو الأسود: الشعرية والأبواب وباب الكراج وأطر النوافذ ـ كلها باللون الأسود. والمعنى الفرعي ضريح يبدو أنَّ له أساسه. ويقطن بيلتسر في المنزل مع امرأة تبدو عليها الكآبة نوعاً ما، اسمها ايفا واسم اسرتها برومتل وربما كانت في منتصف العقد السابع ووجهها الجميل يفور مرارة.

* * *

ألبرت غروندتش الذي هو الآن في الثمانين لا يزال يعيش «منزوياً في قوقعته، بصورة عملية في كل مقبرة» (غروندتش عن غروندتش)، في مخزن حجري (من الآجر) كبير كبر غرفتين ونصف الغرفة، ومنه يستطيع أن يدخل بارتياح إلى كلا بيتيه الزجاجين. لم يستفد غروندتش من اتساع المقبرة كما استفاد بيلتسر (ولم يرد أن يستفيد أيضاً، كما ينبغي الإضافة) ودافع «دفاع المستميت عن الدونمين ونصف بيوت الزجاجية التي وهبتها له غباءً على أيامه» (بيلتسر). «وإنه لعملي

بحيث إنَّ مصلحة الجنائن والمقابر ستتنفس الصعداء حين يموت، فلنعبر عن ذلك بهذه الطريقة».

في وسط المقبرة التي لم تبتلع الهكتارات المعدودة من مشتل بيلتسر فحسب، بل ابتلعت أيضاً مشاتل أخرى وورش نحاتين من قبل ذلك بكثير، هنا يعيش غروندتش حياة تكاد أن تكون مستقلة من الناحية الاقتصادية: متمتعاً على كل حال بمعاش إصابة عمل («الحق أنني مضيت في التعرّق والتوسّخ من أجله». بيلتسر)، ويسكن مجاناً ويزرع تبغه وخضاره بنفسه، وبما أنه نباتي فليس عنده إلاَّ مشاكل تموينية قليلة؛ وقلّما يكون عنده هموم أو مشاكل تتعلق باللباس - ولايزال يلبس سراويل لغروتن الشيخ خيّطها هذا سنة ١٩٣٧ وأهدتها ليني لغروندتش سنة ١٩٤٤. وقد تفرّغ كلياً (استشهاد ذاتي) «لشغل الأصص الموسمي» (كوبيّات لأول أحد يلي الفصح وبنفسج ألبي وأذن الفأر لعيد الأم، ولعيد الميلاد تنّوبة أصيصية صغيرة مزينة بشرائط وشموع لأجل القبور - «إن كل ما يجرّه هؤلاء إلى قبورهم - لا يمكن فهمه»).

لقد خيّل للمؤلف أنَّ إدارة الحدائق، هذا إذا توقعت في واقع الأمر موت غروندتش، يجب أن تنتظر بعض الوقت. إذ أنه ليس كما يقال عنه «قعيد الحجرة والدفيئة» (نقلاً عن عمال حدائق البلدية)، بل إنه يستعمل المقبرة المخيفة في خلال ذلك «بعد انتهاء العمل، حديقة خاصّة، عندما تدق النواقيس، ويكون هذا في كثير من الأحيان في وقت مبكّر جداً؛ وأقوم بنزهات كثيرة وأدخّن غليوني هنا وهناك على المقعد، وإذا هفا بي المزاج والهوى أقبلت أيضاً على قبر مهمل منسي وزوّدته بأساسٍ

مناسب، طحلب أو غصنة تنوب، وألقيت بين الحين والآخر زهرة عليه، وصدقني، أنني لم ألتق أحداً عدا بعض لصوص كل المعادن إلاَّ الحديد؛ طبيعي أنه يوجد هناك بين الحين والآخر نفرٌ من المجانين لا يريدون أن يصدقوا أنَّ شخصاً ما هو ميّت حين يكون ميّتاً؛ فيتسلقون السور لكي يبكوا ليلاً على القبر، ويلعنوا ويصلوا وينتظروا ـ على أنَّ هذا لم أشهده طوال خمسين سنة إلاَّ مرتين أو ثلاث مرات ـ وطبيعي أنني كنت أنسحب عندئذ، ثمَّ قد يظهر كل عشر سنوات عاشقان جريئان منصفان أدركا أنه ليس هناك من مكان في الدنيا يخلو لهما الجو فيه مثل هذا المكان ـ وطبيعي أنني كنت أنسحب عندئذ، وطبيعي أنني لم أعد أعرف في أثناء ذلك كل ما يحدث في أطراف المقبرة ـ لكنني أقول لك إنه لجميل أيضاً في الشتاء حين تثلج السماء، وأتنزه هنا ليلاً ملتفعاً بلفاع سميك ولابساً حذائي اللبادي الطويل العنق ومعي غليوني ـ الجو هادىء كل الهدوء، وهؤلاء كلهم آمنون، مسالمون. طبيعي أنني لاقيت صعوبات مع كل صديقاتي كلّما أردت اصطحابهن إلى غرفتي: ما باليد حيلة، أقول لك ـ وكلما قلّت الحيلة ازداد هؤلاء عهراً وفجوراً، والمال أيضاً لم يجدِ نفعاً».

عندما ذكرت ليني كاد أن يرتبك. «أجل، من الطبيعي أن أتذكر السيدة بفايفر! لكأنني نسيتها! ليني هذه. فقد لاحقها الرجال كلهم بطبيعة الحال، بطريقة أو أخرى كلّهم، وكذلك فالترشن الذكي (والمقصود بذلك بيلتسر الذي بلغ في أثناء ذلك السبعين. المؤلف)، لكن ما من أحد كانت لديه الجرأة. وكانت هذ منيعة، لا على نحو شديد الحساسية، يجب أن أقول لك هذا، وأنا الأكبر سناً ـ إذ كنت آنذاك في منتصف

العقد السادس ـ فلم أحسب أولاً لفرص مناسبة، ولم يحاول من بين الآخرين إلاّ كريمب الذي اسميناه «هيريبيرت السافل القذر»، وصدّت هي هذا على نحو فيه تطاول وازدراء ووقاحة صداً نهائياً بحيث إنه كفّ عن ذلك. ولا أعرف كم مرة حاول فالترشن هذا معها ـ إلاّ أنه لمؤكد أنه لم يتوصل عندها إلى شيء، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك إلاّ نساء، هنّ رهن الحرب، طبعاً، وانقسمت النساء بالتساوي تقريباً إلى مؤيد ومعارض ـ لا لها، بل لهذا الروسي الذي سيتبيّن منه فيما بعد أنّ قلبها اصطفاه. فإذا ما تصوّرت أنت أنّ القصة كلها استمرت زهاء سنة ونصف السنة ـ وما من أحد، ولا أحد منا لاحظ شيئاً جدياً: فقد كانا ماهرين شاطرين وحذرين. والحق أنّ شيئاً ما كان مهدداً وعرضة للخطر: عنقان، يقيناً عنق واحد ونصف العنق، اللعنة، حين أتذكّر ما خاطرت به هذه الفتاة فإنّ بدني ما زال يقشعر إثر ذلك حتى السافلة. اختصاصية؟ كيف كانت اختصاصية؟ ربما كنت متميّزاً لأنني أحببتها، أحببتها حقاً حبّاً عظيماً تارة مثلما يحب المرء ابنة لم ينجبها قط أو مثل محبوبة لن يحصل المرء عليها أبداً ـ مع أني كنت أكبر منها سناً بثلاث وثلاثين سنة. الحق أنها كانت موهبة طبيعية ـ هذا هو مختصر الكلام. لم يكن عندنا إلاّ بستانيان مدرّبان، أو ثلاثة إذا ما أضفت فالتر إليهما، على أنّ هذا لم يكن يشغله إلاّ كتبه وصندوق نقوده. بستانيان إذاً: هولتهونه التي كانت أكثر بستانية عقلانية ذكيّة متأثرة بالشباب، وكانت قد أنهت المدرسة الثانوية للبنات ودرست ثم شرعت في البستنة، شخص رومانسي، ناهيك عن الأرض والعمل اليدوي ـ وما شابه ذلك ـ على أنها برعت في شيء ما، ثم أنا. أما الآخرون فلم يتلقّوا في الحقيقة

تدريباً مهنياً، المرأة هويتر والرجل كريمب والنسوة شيلف وفانفت وتسيفن، نساء فقط لم يعدن في تمام حلاوتهن، وعلى أية حال فهن لسن اللواتي ربمّا ودّ المرء لو يسطحهنّ على نحو عفوي بين اللبد النباتي ومادة التُل. ثم اتضح لي بعد يومي عمل أنَّ بفايفر هذه قد لا تصلح أبداً لشيء واحد، لصنع جسم الإكليل، فهذا عمل خشن وصعب نسبياً اشتغلت به مجموعة هويتر وشيلف وكريمب، وكان هؤلاء يتلقون قائمة، وكومتهم من غصنة الربط، وبحسب الوضع التمويني كانت فيما بعد محددة تقريباً بورق البلوط وورق الزان والصنوبر الراتنجي ثم الحجم - وفي أكثر الأحيان الحجم العادي، أما بالنسبة للجنازات الرسمية فقد كنا متفقين على اختصارات م١، م ٢، م ٣ - وكان هذا يعني: موظفاً متنفذاً مستغلاً لمنصبه من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة؛ وحين تبيّن فيما بعد أنه كان لدينا في داخل الحسابات العلامة أيضاً ب١، ب٢، ب٣ لأبطال من الدرجة الأول والثانية والثالثة فقد وقعت مشادة مع هذا الرجل كريمب السافل الرذيل الذي رأى في ذلك إهانات وأحسّ بأنه نفسه أهين لأنه كان بطلاً من الدرجة الثانية: مبتور الساق وبعض الأوسمة والنياشين؛ إذاً، لم تنسجم ليني مع جماعة جسم الأكاليل، وقد لاحظت أنا ذلك على الفور وزججتها في مجموعة التزيين حيث عملت مع المرأة كريمر والمرأة فانفت - وأقول لك إنها كانت نابغة طبيعية في التزيين أو إذا شئت، كانت حاذقة بارعة في التشبيك. كان ينبغي أن ترى براعتها في استعمال أوراق الغار الكرزي أو غصنة الوردية، وكان في إمكان المرء أن يسلّمها أغلى مادة: فلاشيء كان سيضيع ولا شيء كان سيكسر - وسرعان ما كانت قد فهمت هي ما لم يفهمه البعض: النقطة الأساسية،

مركز التزيين يجب أن يكون في القسم العلوي الأيسر من جسم الإكليل؛ وبهذا تسري في الإكليل حركة صاعدة مرحة، وإذا جاز القول، حركة متفائلة؛ وإذا وضعت أنت مركز التزيين على اليمين تكوّن انطباع تشاؤمي للانزلاق. ولِيني هذه ماكان سيخطر ببالها أن تمزج أشكال تزيين هندسيّة بأشكال نباتية ـ أقول لك إنها لم تفعل هذا قط. كانت نموذج الاختيار بين أمرين ـ بل إنَّ في إمكانك أن ترى ذلك في أثناء تزيين الإكليل. على أنَّ الشيء الذي كان عليَّ أن أصرفها عنه بصورة دائمة وبعنف: هو أنه كان لها ميل إلى أشكال هندسية خالصة ـ المعينات والمثلثات، والواقع أنها ذات مرة ـ وفي إكليل لمتنفذ من الدرجة الأولى ـ كانت قد أوجدت، على سبيل اللعب الهندسي، وبالتأكيد عن غير قصد، نجمة داوود من نبات اللؤلؤية (مرغريتا)، فقد خرجت من بين يديها بسيطة، وأغلب الظن أنها لا تعرف حتى اليوم لماذا ثارت ثائرتي وتوتّرت أعصابي بحيث إني جافيتها على نحوٍ ما: تصوّر أن الإكليل كان سيصل إلى عربة نقل الموتى من غير مراقبة ـ وعلى العموم يفضّل الناس الأشكال النباتية الغامضة، وهنا كان في وسع لِيني أن تحسن العمل بشكل ارتجالي: بأن تصنع سلالاً صغيرة، لا بل طيوراً صغيرة، على أية حال إن لم تكن نباتية، فأنها كانت عضوية ـ إذا لزمت ورود لاكليل متنفذ من الدرجة الأولى في وقت من الأوقات، وإذا أعطى فالترشن أيضاً كثيراً من الورد، وإن كانت لا تزال وروداً نصف متبرعمة: هنا كانت لِيني تتحول إلى فنانة: هنا كانت تنشأ صور من الحياة اليومية، وإنها في الحقيقة لخسارة كبيرة لأنها كانت صوراً زائلة، حديقة مصغّرة مع غدير فيه طيور التمّ؛ وأقول لك: لو أنه كانت هناك جوائز

لربحتـهـا كلّها ـ والشيء الأهم، في نظر فـالـترشن على أية حـال ـ أنهـا حققت بقليـل مـن مادة الزينة تأثيراً أكبر بكثـيـر مما حققه بعضـهـم بكثـيـر من مـادة الزينة. وفضلاً عـن ذلك كانت اقـتـصـادية. ومن بعـد ذلك كـان الإكليل الجاهز يمرّ بمجموعة الاستلام المؤلفة من المرأتين هولتهونه وتسيفن ـ وما من إكليل خرج إلاّ ومرّ في نهاية المطاف من تحت يدي. وكان على هولتـهـونه أن تـتـحقق من جسم الإكليل والزينة، وإذا دعت الضـرورة، أن تحسّن فـيـهـمـا. أمـا تسيفن فقد كـانت حيزبون الشرائط المعقودة، كـمـا اسميناها وهي التي كانت تضع الشرائط المعقودة على الأكاليل التي كان يؤتى بها إلـينا من المدينة ـ وطبـيـعي كـان لا بدّ هنا من الانـتـبـاه انـتـبـاهاً شديداً جداً لكي لا يحدث أيُّ تبديل. فـإذا كـان هنالك مَنْ طلب إكليـلاً كتب عليه «من أجل هانز كآخر تحيـة من هنرييت»، وحصل على إكليل بشـريطة كـتـب عليـهـا: «من امـيـليـا إلى أوتو الذي لا ينـتـسى»، أو بالعكس ـ فـهـذا كـان من الممكن أن ينتـهي فـي عـدد من الأكـاليل نـهـاية مزعجة، وأخيراً كانت هناك أيضاً سيارة السعاة دراجة ثلاثية العجلات، تافـهـة حقـيـرة، كـان عليـهـا أن تنقل الأكـاليـل إلى الكنائس والمشـافي ومكاتب القـوات المسلحة والحزب أو إلى مؤسسـات دفن الموتى ـ وأصرَّ فـالـتـرشن عـلى أن يتـصـرف هكذا، إذ أنـه في مـثـل هذه الحـال كـان في إمكانه أن يـخطو خطوات واسعـة ويجمع مـالاً ويـخرج مـالاً من الحـصـالة فترة من الزمن».

* * *

بما أنَّ ليـني لم تشكُ قط ولم يسـبق لهـا أن شكت من عـملهـا عند لوتّه ولا عند فـان دورن أو مـارغريت، ولا عند هويزر الشيـخ أو هاينريش

بفايفر، فلا بدَّ من الافتراض أنه راق لها في واقع الأمر. ويبدو أنَّ الشيء الذي أحزنها هو الواقع أنَّ أصابعها واليدين بليت كثيراً: بعد أن كانت قد استهلكت مخزون قفازات أمها وأبيها طلبت في الأسرة كلها «قفازات مهملة».

إنه لمن المحتمل أنها تذكّرت بينها وبين نفسها المرحومة أمها، وتذكّرت أباها، ويحتمل أنَّ أفكاراً عديدة كرِّست لإرهارد وهاينريش، بل من الجائز أيضاً أنها كرّست للمرحوم لويس. وفيما يتعلق بهذه السنة فإنَّ ليني توصف بأنها «رقيقة ظريفة ولطيفة وهادئة جداً».

بيلتسر ذاته يصفها بأنها «صموت، يا إلهي، **قبل** أن تفتح فاها! لكنها كانت رقيقة وظريفة، رقيقة ولطيفة وأكثر الأيدي العاملة عندي براعة وكفاءة في هذه الفترة، هذا إذا صرفت النظر عن غروندتش الذي كان عندئذ سائق عربة هرم، وعن هولتهونه، على أنَّ هذه كانت ذات طبيعة متحذلقة، ذات طبيعة أكاديمية لتصحّح خواطر جيدة في بعض الأحيان. وفي أثناء ذلك لم تكن بفايفر موهوبة من ناحية التكوين والتركيب فحسب، بل من ناحية علم النبات أيضاً، فقد عرفت بالفطرة أن المرء يستطيع ويجب أن يعامل ويستعمل نوار بنفسج على نحوٍ مغاير لاستعمال ومعاملة وردة صلبة السوق أو الفاوانيا (عود الصليب)، وأستطيع أن أقول لك إنه كان يعني لي في كل مرة تضحية مالية حين كان عليَّ أن أعطي وروداً حمراء من أجل الأكاليل ـ في مثل هذه الأحوال كانت هناك سوق سوداء لابأس بها لهؤلاء الذين يعرفون أصول اللياقة واعتبروا الورد الهدية الممكنة دون غيرها والخاصة بعلاقة غرامية ـ هنا كان سيتمكن المرء من أن يختلس، ولا سيما في الفنادق حيث كان

الضباط الشباب ينزلون مع صديقاتهم. فكم كلّمني من هناك بالهاتف بوابو الفندق الذين لم يعرضوا المال في بعض الأحيان فحسب، بل بضاعة جيدة أيضاً لقاء باقة ورد طويل السوق. وقد عرض عليَّ ذات مرة قهوة وسجائر وزبدة، لا بل قماش أيضاً ـ وأقصد نسيجاً مصقولاً ـ ولقد كان بطريقة أو بأخرى عاراً أنَّ كل شيء تقريباً قد تمَّ صرفه على الموت ولم يبق للأحياء أيُّ شيء تقريباً».

في أثناء ذلك، وبينما كان بيلتسر يعاني من هموم تتعلق بالورود، كانت ليني على وشك أن تقع ضحيّة الإشراف الحكومي على المساكن: فقد بدا للسلطات أنه لأقلّ مما ينبغي إشغال مسكن مؤلف من سبع غرف ومطبخ وحمام بسبعة أشخاص هم (السيد هويزر الأكبر والسيدة هويزر الكبرى ولوته مع كورت وفيرنر ثم فان دورن). على أية حال كانت المدينة قد شهدت حتى ذلك الحين أكثر من خمسمائة وخمسين إنذاراً بغارات جوية ومئة وثلاثين غارة، وتمَّ التنازل لآل هويزر كلّهم عن ثلاث غرف، إلاّ أنها غرف كبيرة وأجيز لليني وماريا فان دورن أن «تحتفظ كلٌّ منهما بغرفة رغم استخدام كل العلاقات الممكنة» (ماريا فان دورن). وفي الإمكان الافتراض أنّه كان للشخصية العالية المقام من دائرة البلدية والتي لم ترغب في أن يذكر اسمها، دور هنا مع أنها نكرت بتواضع أن «تكون هناك مساعدة». ومهما يكن فقد بقيت هناك غرفتان شاغرتان «لتوضعا تحت إشراف الحكومة»، «وآل بفايفر هؤلاء الثقلاء الظل، وقد شردتهم في أثناء ذلك من جحرهم، جحر الأرانب، قنبلة منفجرة (لوته هويزر)، يحاولون بكل الوسائل ‹أن نسكن مع كنّتنا العزيزة تحت سقف واحد›. فقد تمتع بفايفر العجوز بالتضرّر بالقنبلة

مثلما تمتّع بساقه العرجاء. وتجرّد من كل ذوق ليقول ما فيه الكفاية: (ها إني افتديت الوطن أيضاً بملكي المتواضع المكتسب بنزاهة وإخلاص) (لوته هويزر). وطبيعي أننا فزعنا كلنا، إلاّ أنَّ مارغريت اكتشفت عن طريق صاحبها المتنفَّذ (؟؟ المؤلف) أن بفايفر الشيخ كان على وشك أن يسفّر إلى الريف مع صفّه، ورضخنا ـ وبالفعل فإنهم لم يغادروا عتبة البيت طوال ثلاثة أسابيع، ثم كان عليه أن يسافر إلى الريف، رغم ساقه المجرورة واصطحب معه أولّه الكريهة، ولم يعد يسكن عندنا إلاّ هاينريش بفايفر اللطيف الذي كان قد جاء من تلقاء نفسه ولم ينتظر إلاّ استدعاءه للخدمة، وكان هذا بُعيد ستالينغراد». (لوته هويزر).

* * *

كان سبب بعض الصعوبات والمتاعب معرفة شيء ملزم عن خصم ليني الأساسي في زراعة الزهر؛ ولم يخطر ببال المؤلف أن يستخدم العناية بمدافن الشهداء إلاّ بعد أن فتش سجلات السكان ولوائح الكتائب...الخ تفتيشاً مستفيضاً وبدون نجاح. إنَّ استفساراً لدى العناية بمدافن الشهداء قد أسفر أن هيربيرت كريمب، ابن الخامسة والعشرين، قد سقط قتيلاً في منتصف آذار بالقرب من نهر الراين ودفن في القرب من طريق فرنكفورت ـ كولونيا العريضة؛ ولم يكن صعباً التوصل إلى عنوان والديّ كريمب من عنوان قبر كريمب، مع أنَّ الحديث معهما كان غير سار للغاية؛ فقد أكدا أنه عمل في بستنة بيلتسر، هناك وكما هو في كل مكان عمل فيه وعاش، بذل كل ما في وسعه من أجل النظام والنظافة ـ وبعد ذلك لم يعد في الإمكان إيقافه حين كان الوطن في ضائقة كبيرة

جداً، فتطوّع، مع أنه مبتور الفخذ، في بداية آذار في المقاومة الشعبية ومات أجمل ميتة استطاع أن يتمناها». وبدا أنَّ والديّ كريمب قد أحسّا بموت ابنهما أنه عادي جداً وتوقّعا من المؤلف ما لم يستطع أن يقدّمه لهما: ألا وهو بضع كلمات استحسان وإعجاب، ونظراً للصورة التي عرضت له، لم تكن ردة فعله حارة جداً، وعلى هذا بدا له أنه لمن الأحسن أن ينصرف على جناح السرعة مثلما انصرف من عند السيدة شفايغرت؛ وأظهرت الصورة إنساناً قلّت خفّة ظلّه ولطافة معشره (بالنسبة للمؤلف)، إنساناً واسع الفم ضيّق الجبين ذا شعر أشقر كث أجعد وعينين مزرّرتين.

* * *

للاهتداء إلى عناوين ثلاث شاهدات لازلن على قيد الحياة وكنَّ عاملات مع ليني في البستنة الحربية، لم يحتج الأمر إلاَّ لطلب استعلامات صريح لدى مكتب تسجيل السكان الذي تمَّ إرضاؤه بعد إيداع رسم زهيد مناسب. الشاهد الأول هو السيدة لياني هولتهونه التي ترأست في حينه قيادة اختبار الأكاليل واستلامها وهي الآن في السبعين من عمرها وصاحبة سلسلة محلاّت زهور تشتمل على أربعة دكاكين. وتسكن فيلاً صغيرة موفورة الأناقة، مولفة من أربع غرف ومطبخ وردهة وحمامين في ضاحية لا تزال ريفية نوعاً ما وقد تأثّثت أثاثاً ينمّ عن ذوق لا تشوبه شائبة، وتتوافق درجة اللون مع الطابع الشكلي، وبما أنها على كل حال تكاد أن تغرق وتختنق في الكتب، فإنّها لم تكن فظة، ذات شعر فضي مرتّب، ومن الصورة لأحد احتفالات المؤسسة التي التقطت في

سنة ١٩٤٤ وعرضت من قبل بيلتسر. فما من أحد كان سيتعرف في المرأة القصيرة التي توحي بأنها ممتلئة الجسم قليلاً بمنديل ووجه قاسٍ إلى جمال الشيخوخة الرقيق الذي يمثل أمام المؤلف في وقار وتحفّظ؛ قرطان من أسياخ فضيّة مضفّرة لهما شكل سلّة صغيرة، اهتزت في كل منهما مرجانة مرتخية غير ثابتة ومصقولة صقلاً دائرياً، وبما أنها فضلاً عن ذلك كانت تحرك عينيها العسليتين القويتين قوة الخصب حركة حيوية فإنّ القرطين جعلا من رأسها هدفاً كثير التحرك يزعج العيون؛ فالقرطان اهتزا، وفي القرطين اهتزت المرجانتان، والرأس اهتزّ، وفي الرأس اهتزت العينان؛ طلاء الوجه عندها، وبشرتها المتكمشة تكمشاً خفيفاً عند الرقبة ومفاصل اليدين ظهرا بأنهما موضع عناية واهتمام، لكن ليس على نحو كأنما تحاول السيدة هولتهونه أن تخفي عمرها.

الشاي والكعك والسجائر في صندوق صغير فضي (لا يتسع لأكثر من ثماني سجائر)، وشمعة مشتعلة وأعواد ثقاب في غلاف خزفي رسمت عليه باليد دائرة بروج مؤلفة من إحدى عشرة صورة فقط، وفي وسطها برز رامٍ مبسّط تبسيطاً فنياً بلون وردي ميّزه عن الأبراج الأخرى ذات اللون الأزرق، هذا كله يحتمل التخمين أنّ السيدة هولتهونه ولدت في برج الرامي؛ ستائر ذات ألوان وردية قديمة العهد وأثاث ذو لون بني فاتح، شجرة جوز، وسجادات بيضاء على الجدران حيث كانت الكتب قد تركت فراغاً، صور على لوحات معدنية تمثل مناظر لنهر الراين ملوّنة باليد في حرص وعناية، ست أو سبع صور (ولا يستطيع المولف أن يضمن الدقة القصوى)، بقياس ٦ × ٤ على أقل تقدير، دقيقة وذات وضوح جوهري: مدينة بون من وجهة نظر بويل ومدينة كولونيا من وجهة

نظر دويتس، تسونس انطلاقاً من الضفة اليمنى للراين بين اوردينباخ وباومبيرغ، أوبيرفينتر وبوبارد وريس؛ وبما أنَّ المؤلف يتذكر فضلاً عن ذلك أنه رأى كسانتين التي قربّها الفنان من الراين بعض الشيء، وسيقبلها دقة جغرافية ـ فإنه لا بد أنَّ عدد الصور على اللوحات المعدنية كان سبعاً. «أجل، أجل»، قالت السيدة هولتهونه ومدت بيدها الصندوق الفضي الصغير إلى المؤلف، بسيماء خيّل للمؤلف أنها توقّعت ألاَّ يأخذ منها (وكان عليه أن يخيّب أملها ولاحظ أيضاً اكفهرار جبينها اكفهراراً خفيفاً). «صحيح ما تراه، مناظر لضفة الراين اليسرى فقط (وبهذا سبقت بحساسيتها سرعة المؤلف في الإدراك والملاحظة والتفسير!). كنت انفصالية وما زلت، وليس من الناحية الذهنية فحسب؛ وفي الخامس عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ أصبت بجرح في إيجيدينبيرغ، ليس على الناحية المجيدة المحمودة، بل على الناحية المخزية الفاضحة التي لا تزال في نظري الناحية المجيدة المحمودة. لن أعدل عن رأيي أن هذه البلاد ليست جزءاً من بروسيا، أو أنها لم تكن قط جزءاً منها ولم تكن أيضاً تابعة لأية امبراطورية أشادتها بروسيا. انفصالية، حتى يومنا هذا، ليس من أجل منطقة راين فرنسية، بل من أجل منطقة راين ألمانية. فنهر الراين باعتباره حداً لمنطقة الراين، وطبيعي فالالزاس واللورين جزء من ذلك؛ طبيعي فرنسا الجارة ليست فرنسا الشوفينية بل الجمهورية؛ هذا وقد هربت إلى فرنسا عام ١٩٢٣ أو أنني شفيت وبرئت وكان عليَّ أن أعود آنذاك إلى ألمانيا باسم مستعار وثبوتيات مزيّفة، وكان هذا في عام ١٩٢٤. ثم كان حرياً بي أن أدعى هولتهونه في سنة ١٩٣٣، لا ايللي ماركس؛ لم أرغب في الرحيل ثانية ولا في الهجرة مرة أخرى. هل

تعلم لماذا؟ إنّي أحب هذا البلاد والناس الذين يسكنونها: فهم لم يتورّطوا إلاّ في التاريخ الزائف، وإن شئت ففي إمكانك أن تكثر عليَّ بالقيل والقال عن هيجل (ولم يكن في نيّة المؤلف أن يبادرها بهيجل! المؤلف)، وفي إمكانك أن تقول لي إن المرء قد لا يتورط أبداً في تاريخ مزيف. وخير ما بدا لي أن أضحي بعد سنة ١٩٣٣ بمكتبي الزاهر بصفة مهندسة معمارية للجنائن. فقد تركته يفلس، كان هذا أبسط الطرق وأقلّها لفتاً للنظر، مع أنه كان صعباً جداً، إذ أنَّ مكتبي كان يدرّ ربحاً، ثمَ بدأت القضية بشجرة النسب المعتمدة، أمر حرج عصيب وخطير، إلاَّ أنه كان لا يزال لديَّ أصدقائي في فرنسا وتركتهم يتصرفون هناك. الواقع أنَّ لياني هولتهونه هذه كانت قد ماتت سنة ١٩٢٤ في مبغى باريس وكان المرء قد موّت عوضاً عنها ايللي ماركس من سارلويس وتركت محامياً باريسياً ينهي هذه الجلبة حول مسألة شجرة النسب التافهة، وهذا بدوره كان له في السفارة شخص يعرفه، ولكن بقدر ما أحيط الموضوع أيضاً بالكتمان، ففي ذات يوم جاءت رسالة من قرية قريبة من مدينة أوسنابروك عرض فيها شخص يدعى إرهارد هولتهونه على صاحبته ليانى بأن «يغفر لها كل شيء، بالله عودي إلى الوطن وسأبني لك كياناً». ثم كان علينا أن ننتظر أوّلاً إلى أن تتجمع أوراق شجرة النسب المعتمدة مع بعضها بعضاً، وأن نموّت بعد ذلك ليناني هولتهونه هذه في مدينة باريس على حين بقيت هي في ألمانيا عاملة بساتين. وتمّ الأمر وكان أمراً مؤكداً إلى حدّ ما، لكنه لم يكن مؤكداً كل التأكيد، ولهذا خيّل أنه لمن الأفضل أن آوي إلى نازي مثل بيلتسر».

شاي ممتاز، ثقيل بثلاثة أضعاف مما هو عليه عند الراهبات، وكعك

شهي لذيذ، وعلى نحو متكرر جداً، وللمرة الثالثة مدّ المؤلف يده إلى الصندوق الفضي، مع أنَّ المنفضة التي كانت بحجم قشرة الجوز لم تكن لتستوعب رماد السيجارة الثالثة وبقاياها. وما من شك: إنَّ السيدة هولتهونه كانت إمرأة ذكية **ومعتدلة**، وبما أنَّ المؤلف لم يعارض آراءها الانفصالية ولم يرغب في أن يعارضها أيضاً فقد بدا رغم إفراطه في التدخين وشرب الشاي (إذ كان قد شرب الفنجان الثالث!) أنَّ الميل لم يضعف والتعاطف لم يقلّ.

«في وسعك أن تتصور أني ارتعشت لغير ما سبب قلَّ أو كثر من الناحية الموضوعية، إذ أنَّ أقرباء لياني هذه لم يظهروا قطّ، إلاّ أنه كان يمكن أن يجري تفتيش شديد على المحل من قبل مصلحة الضرائب أو مراقبة للعاملين عند بيلتسر، وكان هناك أيضاً ذلك النازي اللعين كريمب وفانفت وتسيفن الوطنية الألمانية التي جمعتني بها في العمل طاولة واحدة. أما بيلتسر الذي كان دائماً وما زال عبقري الشمَّ؛ فلا بدَّ أنه شمَّ أنني لم أكن مطلّعة كل الاطلاع وملّمة كل الإلمام، إذ أنه حين أخذ يدبّر شغلاته الملتوية غير المشروعة بالزهور والغصنات على المكشوف تقريباً وعلى نحو أقرب إلى الفظاظة، عندئذ تملكني خوف من أنني قد أتعرض لخطر لست أنا **سببه**، بل **على** يديه، وأردت أن أنذره بترك العمل، وحين قلت له ذلك نظر إليَّ نظرة الغرابة والعجب قائلاً: «أنت تنذرين بترك العمل؟ هل في وسعك القيام بذلك؟» وأنا متأكدة أنه لم يعرف أيَّ شيء، لكنه شمَّ ـ وتملكني الاضطراب والانفعال وسحبت الانذار بترك العمل، لكنه كان قد لاحظ بطبيعة الحال أنني كنت قد انفعلت في **الحقيقة** وكان لديَّ سبب للانفعال، وفي كل مناسبة كان ينبر اسمي كما

لو أنه كان اسماً مزيفاً، وطبيعي أنه عرف من المرأة كريمر أنَّ زوجها كان قد اغتيل باعتباره شيوعياً في معسكرات الاعتقال، وعند المرأة بفايفر شمٌّ ومن ناحية أخرى كان له بشمّه أثرٌ في الواقع، أبلغ معنى مما ظن هو وظننا نحن كلنا. وقد كان واضحاً بعض الوضوح وخطيراً خطورة كافية أنَّ تعاطفاً وانسجاماً شمل الصغيرة بفايفر وبوريس لفوفيتش، أما **هذه** الجرأة ماكنت لاتقوقّعها منها. وبالمناسبة برهن بيلتسر أيضاً على شمّه عندما عرف سنة ١٩٤٥ على فوره أن الزهور تعني (فلاورز)، أما في الأكاليل فقد أخطأ، إذ أنه سمّاها (حلقات)، وأعتقد الأمريكان زمناً طويلاً أنّه قصد الحلقات السرية».

وقفة. توقّفٌ قصير. بضع أسئلة للمؤلف الذي وضع بمشقة بقية سيجارته الثالثة في قشرة الجوز الفضيّة في أثناء الوقفة ورأى في جدار الكتب الذي لا تشوبه شائبة أن المجلدات لبروست وستاندال وتولستوي وكافكا بدت بالية **جداً** من كثرة اللمس والتقليب، لا وسخة ولا ملطّخة، إنما مهترئة فقط من المس وبالية مثل قطعة ثياب أثيرة تغسل وترقع المرة تلو المرة.

«أجل، أجل، أنا مغرمة بالقراءة، وإنها دائماً وأبداً الكتب التي قرأتها غير مرة، وقرأت بروست بترجمة بنيامين سنة ١٩٢٩ ـ ولنعد الآن إلى ليني: طبعاً هي فتاة رائعة، أجل، أقول إنها لفتاة ولو أنها أشرفت على الأربعين؛ لكن: لم يستأنس المرء إليها كل الاستئناس، لا في أثناء الحرب ولا بعدها؛ هذا لا يعني أنها كانت باردة، إلاَّ أنها كانت: هادئة وقليلة الكلام؛ لطيفة ـ لكنها قليلة الكلام وعنيدة، فأنا أول من حظي بلقب (سيّدة)، ومن ثمَّ، وحين بدأت ليني عندنا أطلق علينا (كلتا

السيدتين)، ولكن ما إن مرت نصف سنة حتّى جرّدها المرء من لقب (سيّدة)، ولم يعد هناك إلاّ (سيدة واحدة) وهي أنا. عجب أنني لم أفطن إلاّ فيما بعد إلى ما جعل ليني غريبة كل الغرابة وغامضة نوعاً ما ـ كانت بروليتارية، أجل، إنني عند رأيي، علاقتها بالمال، بالزمن وما شابه ذلك ـ علاقة بروليتارية؛ كان في إمكانها أن تمضي بذلك بعيداً، لكنها أبت أن تفعل ذلك؛ لم يكن انعدام الشعور بالمسؤولية، ولم يكن العجز أيضاً عن أن تتسلّم مسؤولية، وقد استطاعت أن تخطط أيضاً، فقد برهنت على ذلك البرهان الكافي، فقد كان لها علاقتها الغرامية مع بوريس لفوفيتش قرابة سنة ونصف السنة، وما من أحد، لا أحد منا ظنّ هذا ممكناً، ولا مرة ضبطت هي أو ضبط هو، وفي وسعي أن أقول لك إنّ المرأتين فانفت وشيلف وكريمب الحقير هذا راقبوها بعيون مفتوحة، بحيث إني خفت في بعض الأحيان وظننت أنه إذا ما كانت بينهما علاقة غرامية، فليسامحهما الله. كان هذا خطراً في البداية، حين لم يستطع كل منهما ـ ولأسباب عملية ـ أن تكون له علاقة غرامية بالآخر، ولقد ارتبت في بعض الأحيان فيما إذا كانت هي تعرف ما كانت تفعله عندما كانت...؛ كانت أقرب إلى السذاجة - والبساطة. إذاً: لا علاقة بالمال، لا علاقة بالملكية والأملاك. كنا نتقاضى كلنا، بحسب العلاوات والساعات الإضافية وغيرها، أجراً يتراوح بين الخمس وعشرين إلى الأربعين ماركاً في الأسبوع، وفيما بعد دفع لنا بيلتسر «مكافأة كشوفات» كما كان يسميها بيلتسر: لكل إكليل عشرون بفينكاً زيادة كانت توزّع، وكان هذا يساوي بضعة ماركات في الأسبوع، لكن ليني كانت تحتاج إلى أجر أسبوعين على أقل تقدير من أجل القهوة فقط كلّ أسبوع، وما كان هذا

ليمرّ بسلام مع أنها كانت تحصل على إيرادات الإيجار. وخطر ببالي أحياناً، وما زلت أفكر حتى اليوم: إنَّ هذه الفتاة لنابغة. ولم يعرف المرء قط تمام المعرفة ما إذا كانت عميقة جداً أم سطحية جداً ـ وقد يوحي هذا بالتناقض: وأنا أعتقد أنها جمعت كلا الأمرين، العمق الشديد والسطحية الشديدة، شيء واحد فقط لم تكنه قط: لم تكن فتاة لعوباً متهتكة. لا. لم تكن الفتاة اللعوب.

الحق أني لم أحصل في عام ٤٥ على أي تعويض لأنه لم يكن في الإمكان الإيضاح ما إذا كنت قد تواريت عن الأنظار بصفة انفصالية أم بصفة يهودية. وطبيعي أنه لم يكن لانفصاليين متوارين عن الأنظار أيٌّ تعويض ـ وبصفتي يهودية، إذاً برهن أنك تفلس قصداً لكي تصرف الانتباه عنك. فما حصلت عليه ولم يكن هذا إلاّ بوساطة صديق لي في الجيش الفرنسي، كان ترخيصاً أو موافقة على مشتل نباتي والاتّجار بالزهور. وفي نهاية سنة ٤٥ ضممت ليني إلى متجري حين أوشكت أحوالها وأحوال طفلها أن تسوء، وبقيت عندي أربعاً وعشرين سنة، حتى سنة ١٩٧٠. لا عشر مرات ولا عشرين مرة، بل أكثر من ثلاثين مرة عرضت عليها إدارة فرعية وعرضت عليها شركة، وكان ستتمكن من القيام بالخدمة في صدر الحانوت بثوبها الجميل، إلاّ أنها آثرت أن تقف في إزارها في الحجرة الخلفية الباردة وتصف الأزهار وتضفرها باقات وأكاليل. لم يكن لديها أي طموح لكي تتقدم وتترقى، لا طموح. وأحياناً أقول في نفسي إنها حالمة. وعلى شيء من الجنون، لكنها لطيفة جداً جداً وخليقة بأن يحبها المرء كثيراً جداً. وطبعاً، وفي هذا أرى شيئاً بروليتارياً، هي مدللة نوعاً ما: وأنت تعرف أنها، هي نفسها عاملة،

وبأجر أسبوعي قدره خمسون ماركاً، استبقت عندها خادمتها العجوز في أثناء الحرب ـ وهل تعرف ما خبزت لها بيديها كل يوم؟ بضع خبزات طريّات، أقول لك، خبز طريّ محمّص سال له لعابي أحياناً ـ وأنا، مع أني‹ السيدة›، كنت أحياناً على وشك أن أقول:‹ أي بنيّة، دعيني أقضم قضمة واحدة، دعيني أقضم قضمة واحدة›. وكانت ستتركني أقضم في أمكانك أن تطمئن إلى ذك ـ آه، ليتني سألتها وليتها طلبت مني مالاً بلا حرج، إن سارت أحوالها الآن على نحو سيء جداً ـ؛ لكن هل تعلم ماذا كانت هي فضلاً عن ذلك؟ أبيّة. غاية في الإباء على نحو ما تكون عليه الأميرات في الحكايات. وفيما يتعلق بمواهبها في ترتيب الزهور كانت ماهرة وموهوبة، أما بالنسبة إلى ذوقي فقد كان للزينة عندها الكثير جداً من عناصر التخريم والفتائل المضفّرة، غاية في الدقة، والنعومة، مثل شغل التطريز، لا مثل تطريز جميل ذي عيون شبكية واسعة خشنة؛ وكانت ستصبح صائغة جيدة جداً، أما فيما يتعلق بالزهور، وقد يبعث هذا على الدهشة، فعلى المرء أن يشمّر أحياناً عن ساعد الجد بخشونة وحزم وعزم، وهذا ما لم تفعله هي قط. فقد انطوت في زينتها شجاعة، لكن لا جسارة. أما إذا فكرّ المرء أنها كانت غير متدربة كلياً فإنه كان شيئاً عظيماً، عظيماً من الناحية الشخصية، أنها كانت قد تعلمت هذا بمثل هذه السرعة».

بما أنَّ إبريق الشاي لم يعد يرفع إلى أعلى وأنَّ صندوق السجائر الفضي لم يعد يفتح ويقدَّم فقد خيّل للمؤلف أنَّ الحديث قد انتهى (مؤقّتاً لسبب وجيه، كما تبين). وبدا له أنّ السيدة هولتهونه قد ساهمت بشيء جوهري لإتمام صورة ليني. وقد سمحت له السيدة هولتهونه بنظرة

أخرى إلى مشغلها الصغير حيث تفرّغت من جديد ومن وقت قريب لهندسة المناظر. إنها تصمّم لمدن المستقبل «جنائن معلقة»، تسميها «سميراميس ـ وإنها، كما بدا للمؤلف، تسمية فقيرة الخواطر نسبياً بالنسبة لمن تقرأ بروست بحماسة شديدة. وعند الوداع بقي الإنطباع أنَّ هذه الزيارة انتهت، لكن زيارات أخرى ليست بمستحيلة، إذا أنه بقي الكثير، مع أنه يرتسم على وجه السيدة هولتهونه لطف مجهد.

* * *

يمكن القيام إلى حد ما من جديد بمزامنة لدى السيدتين مارغا فانفت وإلزه كريمر؛ فكلتاهما صاحبة معاش إصابة عمل، إحداهما في السبعين من عمرها والأخرى في التاسعة والستين، كلتاهما شيباء، وكلتاهما تسكن في مبنى اجتماعي في شقة مؤلفة من غرفة ونصف فيها مدفئة وأثاث يعود إلى الخمسينات، ويسود لديهما كلتيهما انطباع بالضيق والهرم، إلاَّ أنَّ إحداهما (فانفت) ـ هنا تبدأ الفروق ـ لها ببغاء استرالي رمادي مائل إلى السمرة، والأخرى (كريمر) لها ببغاء استرالي صغير هزيل حشيشي اللون. فالسيدة فانفت ـ هنا تصبح الفروق جسيمة ـ قاسية، شبه منغلقة وصغيرة الفم لكأنها تبصق بدون انقطاع نوى الكرز لصغر فمها ولم تكن مستعدة لأن «تقول الكثير عن هذه المرأة المستهترة العديمة الضمير. والحق أني عرفت هذا توقعته، ويمكنني أن أصفع نفسي الآن أيضاً لأنني لم أكتشف ذلك. وكنت أود أن أرى هذه برأس محلوق وما كان سيضرّها أن تتعرّض قليلاً للسب واللعن. أن تقيم علاقة مع روسي على حين كان أبناؤنا الشباب على الجبهة وزوجها سقط قتيلاً

وأبوها تاجر سوق سوداء من الطراز الأول ـ وهذه سلّموها بعد ثلاثة أشهر مجموعة الزينة وأخذوها مني. لا. إنها ساقطة، ولا شيء غير هذا ـ لا معنى للشرف عندها ودائماً بجسدها المثير ـ، وقد جننت الرجال كلّهم؛ فقد لازمها غروندتش مثل قط مسرفاً في ملاطفتها والخضوع لها، وكانت في نظر بيلتسر الاحتياطي الجنسي رقم اثنين، حتى إنَّ العامل الطيب كريمب الذي بذل أقصى جهده قد جُنَّ بها بحيث إنه بات لا يطاق. ومع هذا ظلّت تمثل دور السيّدة ولم تكن إلاّ حديثة نعمة فاسدة لا غناء فيها. يا له من عمل منسجم كان قبل أن تأتي. وفيما بعد كان الوضع دائماً طقطقة أو فرقعة في الهواء، توترات لم تخفَّ حدتها على الإطلاق ـ فالضرب ربما كان أفضل استرخاء. ثم اشتغال المدارس الداخلية للفتيات بالزهور شغلاً رخيصاً غير متقن، هنا انخدعوا جميعاً بذلك، لا، لقد كنت في عزلة في عزلة، بكل ما في الكلمة من معنى منذ أن كانت هنا، ولم انخدع باديء ذي بدء بتكلفّها في تقديم القهوة، ونسمي هذا ‹حشيشاً حلواً›، لا شيء غير هذا، دجاجة سمينة، امرأة غبية متكبّرة، شبه مومس، ومتهتكة لعوب بكل تأكيد».

لم يمرّ هذا بمثل السرعة التي سيكتب بها، عند السيدة فانفت: جزءاً جزءاً، نواة نواة، كما يلفظ من فمها، وما أرادت أن تزيد على ذلك، بل إنها زادت على ذلك ووصفت غروندتش العجوز بأنه «رجل شهواني خائب، فاون أو بان، كما تشاء»، وبيلتسر بأنه «أسوأ أو أرذل وغد وانتهازي سبق أن عرفته، وآزرته لدى الحزب وكفلته. وقد سئلت دائماً بصفتي شخصاً موثوقاً به لدى الحزب (أهو الغستابو؟ المؤلف). وبعد الحرب؟ عندما ألغوا لي المعاش لأنَّ زوجي لم يسقط قتيلاً في الحرب،

بل في المعـارك من شـارع إلى شـارع سنة ١٩٣٢/١٩٣٣؟ وشيء عن السيد فالتر بيلتسر الذي كان زوجي فيها. لا شيء. وبمساعدة العاهرة الصغيرة والسيّدة اليهودية استطاع أن يتملّص بالمراوغة والتحايل، بينما كنت أنا في الحبس وبقيت عاطلة عن العمل. لا، أرحني من هؤلاء، لا تثقل عليَّ بهؤلاء. فلا وجود للامتنان ولا للعدالة في هذا العالم، وعالم آخر غير هذا لن يكون لنا».

* * *

إن السيّدة كريم التي كان في الإمكان زيارتها في اليوم نفسه، لم يكن وراءها مغنم كبير فيما يتعلق بليني، ولم تسمّها إلاّ «البنت الحلوة المسكينة ـ البنت الحلوة، البنت المسكينة الجاهلة، المسكينة الحلوة. وهذا الروسي. يجب أن أقول لك لشدّ ما كنت سيئة الظن به، وكنت سأظل سيئة الظن به إلى هذا اليوم. إن لم يكن هذا مخبراً للغستابو متنكراً. ولكم كان يجيد الألمانية، ولكم كان مؤدباً ولطيفاً، وكيف حدث أن جاء هذا بالذات إلى محل للزهور لا بأوامر الفرقة الانتحارية في أثناء تعزيل القنابل، أو إصلاح سكك الحديد؟ الحق أنه كان شاباً لطيفاً وسيم المحيا، على أنَّ الجرأة لم تواتني لأتحدّث معه كثيراً. على أية حال ليس بأكثر ممّا كان ضرورياً في أثناء العمل».

على المرء أن يتصوّر السيدة كريم شقراء سابقاً انطفأ سناها كليّاً وأوشكت عيناها اللتان كانتا فيما مضى زرقاوين بكلّ تأكيد ألاّ يكون لهما لون. وجه ناعم، مسترسل رقة ونعومة، ليس خبيثاً، إلاّ أنَّ فيه شيئاً قليلاً من التذمر والضيق، وجهٌ مفعوم، لا وجهاً بائساً تعيساً، إنها وهي تقدم القهوة لكنها لا تشرب أية قهوة؛ تكلّمت بانسياب وسلاسة،

بفمٍ عريض، وبقليل من الفتور، من غير أن تراعي علامات الوقوف في إيقاع الكلام، لا مذهلةٌ فحسب، بل أقرب إلى إشارة في لمعانها كانت الدقة التي تجلّ عن الوصف والتي لفّت بها سجائر دقيقة: من تبغ نصف مبلّل أصفر كالعسل، لا تشوبه شائبة، ولم تحتج إلى أن تقصّ بالمقصّ أية أطراف صغيرة. «أجل، هذا ما تعلمته في وقت مبكر، ولربما كان أول شيء تعلّمته، من أجل والدي سنة ١٩١٦ في حبس القلعة، وفيما بعد من أجل زوجي في السجن، وبعد ذلك، وحين سجنت أنا نفسي نصف سنة، وفي فترة البطالة بطبيعة الحال، ثم في الحرب ـ فما زلت أتقن لف السجائر»، وهنا أشعلت سيجارة، وفجأة، وبالسيجارة البيضاء الملفوفة لفاً حديثاً والموضوعة في الفم، استطاع المرء أن يعرف ظناً أنها كانت ذات مرة شابة وكانت حلوة جميلة جداً؛ طبيعي أنها قدّمت سيجارة، وبدون كثير من التكلف، دفعت بسيجارة من فوق المنضدة ببساطة وأشارت إليها آمرة. «لا، لا، لم أعد أريد، لم أعد أريد. في سنة ١٩٤٩ لم تعد لي رغبة، لم يكن لي قط الكثير من القوة، والآن لم تعد لديّ أية قوة، وفي الحرب لم يبقني ويُصنّي إلاَّ الصبي، ولدي إيريش، فقد كان عندي الأملُ دائماً أنه لن يكبر بما فيه الكفاية قبل أن تنتهي الحرب، لكنه كبر بما فيه الكفاية، وسحبوه، حتى قبل أن ينهي تدريبه المهني حدّاد أقفال؛ هادىء، صموت، ولدٌ جادّ، وقبل أن يرحل تفوهت آخر مرة في الحياة بشيء سياسي، وخطير، قلت: ‹هيّا فرًّ! وعلى الفور!› ‹هل أفرُّ؟› سأل، بجبينه المغضّن دائماً، وأوضحت له ما الفرار. وهنا نظر إلي في هزء، وتملّكني الخوف من أن يقول يوماً ما شيئاً ما عن ذلك، وحتى لو أراد هو ذلك، فلن يعود لديه عندئذ متسع من الوقت.

فقد ساقوه في كانون الأول سنة ١٩٤٤ إلى حفر الخنادق على الحدود البلجيكية، ولم أعلم إلاّ في نهاية سنة ١٩٤٥ أنه مات. في السابعة عشرة. هذا الشاب بدا دائماً وأبداً جاداً وكئيباً. غير شرعي، يجب أن تعلم هذا، الأب شيوعي والأم كذلك. في المدرسة والشارع أسمعوه ذلك. أبوه مات منذ سنة ١٩٤٢، وجدّاه لم يكن يهمهما أيُّ شيء. أما بيلتسر فكنت قد تعرفت عليه سنة ١٩٢٣. هل لك أن تحزر أين؟ إنّك لن تحزر ذلك. في الحزب الشيوعي. فقد شاهد هذا فيلماً دعائياً فاشياً، وكان من المفروض أن يكون للفيلم تأثيره الرادع الزاجر، إلاّ أنه كان له في نفسه أثر جذاب فتان. فقد خلط فالتر بين الثورة وأعمال السلب والنهب، وفي هذا كان هو على خطأ كبير، وطرد من منظمة المكافحة، وذهب إلى الفدائيين، كتيبة المتطوعين، ومن ثم انضم إلى فرقة الهجوم سنة ١٩٢٩. تاجر أعراض كان هو أيضاً فترة من الزمن. إذْ أنَّ هذا كان قادراً على كل شيء. كما أنه كان بستانياً بطبيعة الحال، تاجر سوق سوداء، أي شيء تريد. زير نساء. فكّر ملياً كيف تكوّن كافة المستخدمين في محل أكاليل الزهور: ثلاثة فاشيين عنيفين: كريمب والمرأتان فانفت وشيلف، وحياديان هما المرأتان فريدا تسيفن وهيلغا هويتر؛ وأنا بصفتي شيوعية شُلّت وعُطِّلُت؛ **السيدة** بصفتها من أنصار الجمهوريين ويهودية؛ وليني لم تصنّف سياسياً، إلا أنها أوذيت بسبب فضيحة أبيها، ومهما يكن فهي أرملة مقاتل؛ ثم الروسي الذي تملّقه في الواقع نوعاً ما ـ أي شيء يمكن أن يحدث له بعد الحرب؟ لا شيء. والحق أنه لم يحدث له أي شيء. فحتى سنة ١٩٣٣ كان يخاطبني بالكاف (أنت)، وحين التقيته ذات مرة قال: <حسن يا إلزه، من ذا الذي سيفوز، أنتم أم نحن؟>؛ ومن سنة

١٩٣٣ وحتى سنة ١٩٤٥ خاطبني بصيغة الاحترام (حضرتكم) والتفخيم، وما مضى على وجود الامريكان خمسة أيام حتى كان في حوزته ترخيص، وجاء إليَّ وناداني بإلزه مرة أخرى ورأى أن أكون الآن عضو مجلس بلدي. لا، لا، لا ـ لقد طال انتظاري، وكان من المفروض أن أنتحر عندما رحل الصبي. لم تعد لدي أية رغبة، ومنذ زمن طويل لم تعد لدي أية رغبة. وجاءت ليني في نهاية سنة ١٩٤٤ إليَّ بصفة شخصية، جلست هنا ودخنت سيجارة وابتسمت لي بشيء من القلق لكأنها أرادت أن تقول شيئاً ما، وعرفت تقريباً ماذا كانت ستقول، لكنني لم أرد أن أعرف. وعلى المرء ألاّ يعرف الكثير الكثير، ولم أشأ أن أعرف أيَّ شيء على الإطلاق، ولأنها جلست هناك تبتسم في صمت وقلق قلت لها أخيراً: ‹ها إنَّ المرء يرى أنك حامل، وأعرف ماذا يعني أن يكون غير شرعي›. لا، وبعد الحرب جاءت الدعاية الفارغة كلها مع المقاومة والمعاش والتعويض، وحزب شيوعي جديد له ناسه الذي أعرف منهم أنَّ ذنب موت صديقي فيللي في أعناقهم. هل تعرف ماذا سميت أنا هؤلاء؟ مساعدي القس في القداس. لا، لا ـ وبين هذا وذاك ليني الجاهلة التي لا تعرف شيئاً، البنت الحلوة اللطيفة المسكينة التي نجحوا في إقناعها في واقع الأمر،‹ بصفتها من أهل الميت، محارب قديم شجاع من محاربي الجيش الأحمر› بأنها تصلح لأن تكون مثل هذا النوع من شقراوات المعركة الانتخابية. وابنها الصغير المدعو ليف بوريسوفيتش غروتن ـ هنا ألحّ عليها في القول كل معارفها وأقربائها أنَّ هذا لم يكن ممكناً، وتخلّت عن ذلك، إلاّ أنّها أتت أمراً مخالفاً للشرف يزيد على ما فعلته أثناء الحرب. وبعد ذلك بسنوات سمّاها المرء

‹عاهرة السوفييت الشقراء› ـ هذه البنت الحلوة اللطيفة المسكينة. لا، لم يكن الأمر سهلاً عليها قط، حتى هذه الساعة».

٦

هنا على الأكثر، وابتغاء تفادي تأملات نظرية غير مناسبة لتهديم آمال كاذبة في وقت مبكر بما فيه الكفاية، يجب تقديم بطل القسم الأول. فبعضهم ـ ليس فقط السيدة إلزه كريمر ـ، وحتى الآن فالجميع تقريباً بدون نتيجة، شغلوا بالهم بما هيّأ الظرف المناسب لهذا الإنسان، إنسان سوفييتي اسمه بوريس لفوفتيش كولتفسكي، لكي يسمح له بالعمل في سنة ١٩٤٣ في محل ألماني لصناعة الأكاليل. وبما أنَّ ليني ليست ميالة جداً إلى كثرة الحديث، إن كان للموضوع علاقة ببوريس، إلاَّ أنها تكون أحياناً متبسطة في الحديث نسبياً ـ وذلك بعد إلحاح دام ثلاث سنوات من جانب لوتّه ومارغريت وماريا ـ فإنها كانت مستعدّة لأن تسمّي شخصين ربّما قدّما معلومات عن بوريس لفوفيتش. الشخص الأول لم يعرفه بوريس إلاَّ معرفة سطحية عابرة، إلاَّ أنَّه أثرَّ في مصيره تأثيراً قوياً. فقد جعله حظيٌّ القدر بأنْ تدخَّل بسلطة ومثابرة في مصيره، لا بل إنه كان مستعداً للتضحيات إن لزم الأمر. إنّه شخصية ذات منصب كبير للغاية وخلفية صناعية لا ترغب في أن يذكر اسمها على الإطلاق، ولا بحال من الأحوال، مهما كلّف الأمر. وليس في مقدور المؤلف أن يسمح لنفسه بذرّة من فضح السر وعدم الكتمان، إذ قد يكلّفه هذا غالياً، وبما أنه وعد ليني وعداً ثابتاً به ـ أي الكتمان ـ مشافهة طبعاً، فإنه يريد أن يبقى رجلاً شريفاً ويفي بوعده. ومما يؤسف له أنَّ هذه

الشخصية لم تقتف أثر ليني إلاً في وقت متأخر، في وقت متأخر للغاية، وذلك في عام ١٩٥٢، لأنه لم يعلم إلاً في هذا العام أنَّ بوريس كان حظيّاً مزدوجاً للقدر: لا في محل بيلتسر لعمل أكاليل الزهر سمح له أن يعمل فحسب، بل كان أيضاً ذلك الذي بدا أن ليني كانت تنتظره. كان بوريس عرضة لكل شبهة ممكنة تقريباً: إذ قد أشيع عنه أنّه كان مخبراً زُجَّ خفية من قبل الألمان، وعُيِّن على بيلتسر وخليط المستخدمين، وفضلاً عن ذلك أشيع أنه كان بطبيعة الحال مخبراً سوفييتياً. فبم كلِّف: أبأسرار محل صناعة الأكاليل الألماني في الحرب أم لكي يبلّغ عن الحالة المعنوية المختلطة لعمال ألمان؟ الصحيح هو أنه لم يكن إلاّ صاحب حظوة عند القدر. ولا شيء غير هذا ـ. أغلب الظن أنه، حين ظهر على الشاشة في نهاية ١٩٤٣ ـ معتمدين هنا على التقديرات ـ كان طوله يتراوح بين ١,٧٦ م و١,٧٨ م، وأنه كان نحيلاً أشقر، وباحتمال يقارب اليقين كان وزنه على أكثر تقدير ٥٤ كيلوغراماً وكان يلبس نظارة نيكل للجيش الأحمر. وكان، حين دخل حياة ليني، في الثانية والثلاثين من العمر، وكان يتكلّم الألمانية بطلاقة، ولكن بلكنة بلطيقية، روسي مثل أي روسي. كان قد دخل ألمانيا في سنة ١٩٤١ بسلام وعاد بعد سنة ونصف السنة أسير حرب سوفييتياً إلى هذه البلاد الغريبة (المخيفة الغامضة في نظر البعض). كان ابن عامل روسيّ ترقّى إلى موظف البعثة التجارية السوفييتية في برلين، وكان يحفظ بعض قصائد تراكل وبعض القصائد لهولدرلين، وطبعاً بالألمانية، وبصفته مهندساً يحمل دبلوماً في هندسة إنشاء الطرق فقد كان ملازماً في سلاح المهندسين. هنا لا بدَّ من إيضاح مختلف سلف المنح والمنن التي يبرأ منها المؤلف. مَنْ ذا الذي اتخذ

دبلوماسياً أباً وشخصية كبيرة المقام من الصناعة الحربية وليٍّ فضل ونعمة؟ ولمَ لا يكون غير ألماني حاملاً للأحداث السياسية؟ لا إرهارد، ولا هاينريش ولا لويس، لا غروتن الشيخ ولا هويزر الشيخ، لا هويزر الشاب، حتى ولا بيلتسر الجدير بالاعتبار، ولا شولسدورف اللطيف غاية اللطف الذي ستنكسر نفسه من ذلك حتى آخر حياته، أنّ شخصاً كان عليه أن يدخل السجن، لا بل إنه عرّض حياته للخطر، لا لشيء إلاّ لأنه، أي شولسدروف، كان سلافياً شديد التعصّب. فلم يطق صبراً على أن يترك شخصاً وهمياً يدعى ليرمنتوف يعمل على قائمة في الدانمرك في بناء وهمي للمخابىء؟ ويتساءل شولسدورف: أينبغي على إنسان، ولو كان أيضاً شخصاً لطيف المعشر ومن أمثال غروتن الشيخ، أن يعتقد نوعاً ما بذلك لأنَّ شخصاً وهمياً اسمه راسكولنيكوف يعتل أكياس اسمنت وهمية ويحتسي شوربة فريكة وهمية في مطعم وهمي؟

إذاً: ليني مذنبة. فقد أرادت ألاّ يكون البطل هنا بطلاً ألمانياً. وهذه الحقيقة يجب قبولها، مثل أشياء كثيرة من ليني، وبالمناسبة فقد كان بوريس هذا إنساناً مستقيماً تمام الاستقامة، حتى إنّه كان ذا ثقافة مناسبة، لا بل ثقافة مدرسية. وقد كان يحمل على أية حال دبلوماً في هندسة بناء الطرق، وإذا لم يكن قد تعلّم أيضاً كلمة لاتينية، فإنه، مع هذا، كان يعرف كلمتين لاتنيتين معرفة جيدة جداً: «من الأعماق»، ذلك لأن كان يعرف تراكل معرفة جيدة. ومع أنَّه لا يمكن مقارنة ثقافته المدرسية أبداً بشيء نفيس مثل الشهادة الثانوية، إلاّ أنه في الإمكان القول بطريقة موضوعية إنها يمكن أن تكون **أشبه** بنوع من الشهادة

الثانوية. فإذا قبل المرء الحقيقة المؤكدة أنه كان قد قرأ في شبابه هيجل بالألمانية (هيجل لم يقده إلى هولدرلين، بل هولدرلين قاده إلى هيجل)، فإنَّ قرّاءً لهم مطالب كثيرة من ناحية الثقافة قد يميلون إلى الإعتراف أنه لم يكن خاضعاً خضوعاً زائداً عن حدّه، على أية حال جدير بها عاشقاً ـ وكما سيتبين ـ يستحقها.

* * *

حتى آخر لحظة كان هو نفسه في حيرة كاملة من الحظوة التي كانت من نصيبه، كما علمنا من أقوال رفيقه السابق في المعسكر بيوتر بيتروفيتش بوجاكوف على نحو جدير بالتصديق، والآن في السادسة والستين، مصاب بالتهاب المفاصل، بأصابع مقوسة تقوّساً شديداً بحيث إنّه صار لا بدَّ من إطعامه في معظم الأحيان، بل صار لا بدَّ من إمساك سيجارته بالمناسبة ودفعها إلى الفم، فقد فضّل ألاّ يعود بعد الحرب إلى الاتحاد السوفييتي. ويعترف بصراحة أنه «ندم حتماً ألف مرة وندم الندم الأكيد ألف مرة». أنَّ أخباراً تجدّ المرة تلو المرة عن ناس كانوا أسرى حرب في السابق وعادوا إلى بلادهم، جعلته يسيء الظن؛ فقد دخل حارساً في خدمة الأمريكان وصار ضحيّة المكارثيّة، ووجد عند الانكليز مأوى وملاذاً حيث إنه خدم حارساً من جديد في بذلة عسكرية إنكليزية ملوّنة باللون الأزرق. ومع أنه تقدّم غير مرّة بطلب للحصول على الجنسية الألمانية فقد بقي بلا جنسية. أما غرفته في ملجأ ذي خلفية خيرية خاصة بالكنيسة فيقاسمه إيّاها معلم ابتدائي أوكراني عملاق يدعى بيلينكو الذي له لحية وشاربان وكان قد رانت عليه بعد موت زوجته كآبة دائمة

تخلّلها بين الحين والآخر انتحاب، وكان يمضي وقته بين الكنيسة والمقبرة وفي البحث الدائم عن مادة غذائية، يتمنى أن يجدها منذ إقامته في ألمانيا، أي منذ ست وعشرين سنة، «غذاء شعبياً رخيصاً، لا طعاماً شهياً»: إنها القثاء المملح. أما رفيق بوجاكوف الثاني في الغرفة فهو شخص اسمه كيتكين، وهو لينغرادي هرم، وطبقاً لأقواله فإنه «مصاب بمرض الحنين إلى الوطن»: إنسان صموت هزيل، وبحسب أقواله أيضاً «لا يستطيع أن يتخلّى عن الحنين». وبين الآونة والأخرى بين الرجال الشيوخ الثلاثة خصومات ومشادات قديمة، إذ يقول بيلينكو لبوجاكوف: «أنت أيها الملحد»، ويقول هذا لذاك: «أيها الفاشي»، بينما يقول كيتُكين لكليهما: «أيها الثرثاران»، ويسمّيه بيلينكو «الليبرالي العتيق»، على حين يسميه بوجاكوف «رجعياً». وبما أنَّ بيلينكو لم يشارك كلا الرجلين الغرفة إلاّ بعد موت زوجته، أي منذ ستة أشهر فإنه يعدُّ «جديداً». ولم يكن بوجاكوف مستعداً لأن يتكلّم بحضور رفيقي الغرفة كليهما عن بوريس وفترة المعسكر، وكان لا بدَّ من موعد يكون فيه بيلينكو في المقبرة أو الكنيسة أو «في البحث عن القثاء» ويتنزّه فيه كيتكين ـ وطبيعي من «أجل السجائر». ويتكلم بوجاكوف الألمانية بطلاقة باستثناء الاستعمال الخلافي المتكرر لكلمة «نافع للصحة أو سهل الهضم» في غير لبس أو إبهام. وبما أنَّ يديه تقوّستا في الحقيقة تقوّساً شديداً من «هذا الوقوف اللعين عشرات السنين في الليل، وفي كل برد، بل وفيما بعد ببندقية على الكتف»، فقد أمضى المؤلف وبوجاكوف بعض الوقت في أن يفكرا بتحسين إمكانيات التدخين لبوجاكوف. «ربما كان مفيداً أنني غير مستقل في أثناء التشغيل، لكن

عند كل تيار هواء، «ويطيب لي أن أدخّن سجائري الخمس أو الستّ، وإذا كانت لديَّ سجائر فإنني أدخّن عشر سجائر في اليوم». وأخيراً خطر ببال المؤلف (الذي يجب أن يبرز هنا على وجه الاستثناء) أن يطلب من راهبة الردهة حاملاً من تلك الحوامل التي تعلّق عليها زجاجات فيها سوائل نقاعة؛ وبالاستعانة بقطعة سلك وثلاثة ملاقط وبالتعاون مع راهبة الردهة (الظريفة اللطيفة بالمناسبة) فقد تمَّ الإهتداء إلى تصميم سمّاه بوجاكوف في حبور «مشنقة التدخين النافعة»؛ فقد تمَّ تعليق السلك في المشنقة بملقطين على شكل انشوطة، وتمَّ تثبيت الملقط الثالث في تجويف فم بوجاكوف وحُشَر في الأخير فم سيجارة، ما كان على بوجاكوف إلاّ أن يمص هذا الطرف بعد أن يشعل له السيجارة «آكل القثاء الفاشيّ أو الرجل المريض بالحنين ذو الوجه الخاص بالبوليس السري الروسي» ويدخلاها في فم السيجارة، ولا سبيل إلى النكران أنَّ المؤلف قد فاز ببعض المشاعر الطيّبة لدى بوجاكوف استناداً إلى تصميم «مشنقة التدخين المفيدة»، وبذلك شجّع ميله إلى التبسّط في الحديث، ولا سبيل أيضاً إلى نكران حقيقة الأمر أنه حسّن مصروفه المتواضع الذي يبلغ خمسة وعشرين ماركاً شهرياً بهدايا سجائر، ليس فقط لدواعٍ أنانية، ـ كما يدعم توكيده بقسم. والآن عودة إلى كلام بوجاكوف الذي تخلّله بين الفينة والأخرى تدخين واستراحة قصيرة سببها ضيق تنفّس، لكنه سينقل هنا في شكل محضر، لا نقص فيه ولا انقطاع.

«بطبيعة الحال لم يكن وضعنا سليماً بصورة مطلقة. طبعاً نسبياً كان عادياً. وفيما يتعلق ببوريس كولتوفسكي فإنَّ هذا كان يجهل كل شيء، لكن جهلاً كلياً أيضاً ووجد الأمر مصادفة سعيدة خيالية أنه جاء

إلى معسكرنا. ولا بدَّ أنه خمّن من كان وراء ذلك، إلاَّ أنه لم يعرف ذلك إلاَّ فيما بعد؛ وليس بمستبعد أنه خمّن ذلك. وعلى حين أننا اعتبرنا تحت أشدّ أنواع الحراسة جديرين بأن نهدم بيوتاً محترقة أو نطفئهاوأن نرمم أضراراً أحدثتها قنابل في شوارع وسكك حديدية ـ ومَنْ ذا الذي خاطر بأن يدسّ في جيبه ولو مسماراً، أجل، مسماراً بسيطاً فقط، وإنَّ مسماراً يمكن أن يكون شيئاً نفيساً لسجين، فذاك الذي كان لا ضير عليه أن يعتبر حياته منتهية إذا ما ضُبط، وكان يضبط ـ، ونحن إذاً قمنا بهذا، وهذا الصبي الذي يجهل كل شيء، كان يمر عليه كل صباح حارس ألماني طيب القلب ويحضره إلى هذا المشتل النموذجي للغاية. هناك أمضى الأيام في عمل سهل، بل إنه أمضى فيما بعد أيضاً نصف الليالي؛ والشيء الذي لم يعرفه أحد سواي هو أنه كان يرافق بنتاً، عشيقة!ـ وما إن علمت ذلك حتى خفت على الرأس الكفء لهذا الصبي خوفي على حياة ابني ـ. فإن لم يجعلنا الأمر ظنّانين فقد جعلنا حسّاداً، وكلا الأمرين، إن لم يكونا مجديين، فمن الممكن أن يجدهما المرء بوفرة في وسط السجناء. وفي فيتيبسك حيث دخلت المدرسة بعد الثورة كان لنا زميل وكانت تنقله إلى المدرسة صباحاً عربة تجرها خيول، وهذا يعني سيارة صغيرة على نحو منتظم ـ هكذا بدا لنا بوريس. وفيما بعد، وحين كان يجلب معه خبزاً، بل وزبدة، وأحياناً صحفاً، كما كان يحضر معه دائماً أنباء عن وضع الحرب ـ بل كان يحضر أيضاً قطع ملابس متينة متانة مذهلة ولا يمكن أن تكون ملبوسة إلاَّ من قبل رأسمالي ـ فإن وضعه تحسّن قليلاً، إلاّ أنّه لم يصبح بعد وضعاً سليماً، لأن فيكتور غينريشوفيتش الذي كان قد ترقى عندنا إلى مرتبة المفوّض أبى أن

يصدّق أن مسألة فوائد بوريس الكثيرة هي مسألة إحدى تلك المصادفات التي سميّت من قبل بورجوازيين والتي ـ على حدّ تعبير فيكتور غينريشوفيتش ـ ناقضت المنطق التاريخي. وكان الشيء الرهيب في ذلك أنّه اكتشف في نهاية المطاف أنه كان على صواب. أمّا كيف توصّل إلى ذلك فالسموات كلّها لا تعرف. وعلى أيّة حال فإنه عرف ذلك بعد سبعة أشهر: وكان بوريس قد تعرّف في برلين سنة ١٩٤١ في بيت والده على صديقه السيّد (هنا سقط ذلك الاسم الذي تعهّد المؤلف بألاّ ينشره على الناس). أما أبو بوريس فقد انتقل بعد نشوب الحرب إلى وكالة الأنباء وكان أحد رجال الاتصال لجواسيس سوفيتيين في ألمانيا واستخدم أحد هواتفه وصناديق بريده الكثيرة ليعلم السيّد بأسر ابنه ويطلب منه المساعدة. والتحليل الملائم للعصر: أنه أساء استخدام وظيفته ليقيم علاقات أساسها خيانة الوطن مع رأسمالي ألمانيّ كبير من أسوأ النوعيات لكي يجني فوائد لابنه. لا تسألني الآن كيف اكتشف فيكتور غينيريشوفيتش هذا! وأغلب الظن أنَّ هؤلاء كان عندهم آنذاك أقمار صناعية للأنباء، هؤلاء الخنازير. أما الشيء الذي بان ـ ولم يعرفه بوريس قط: هو أنَّه قُبض على أبيه بسبب ذلك ورحِّل وقضي عليه. هل كان فيكتور غينريشوفيتش إذاً على صواب أم أنه لم يكن حين شكّ في أنه لا يوجد إلاّ منطق التاريخ ولا وجود للمصادفة البورجوازية التي سيسميّها صديقي الورع وآكل القثاء بيلينكو بطبيعته تقادير؟ وبالنسبة إلى أبي بوريس فقد انتهى الموضوع إذاً نهاية كريهة للغاية، أما في نظر بوريس فلا، إذا أنَّ فيكتور غينريشوفيتش تشمّم وخمّن أكثر من كان وراء ذلك: هل جاءت قطع الثياب الرائعة هذه **مباشرة** من ذلك السيّد

الذي عرف عنه أنه كان معارضاً للحرب مع الاتحاد السوفييتي وكان موالياً لمعاهدة قوية أبدية لا تتزعزع بين هتلر والاتحاد السوفييتي، لا بل إنّه كان قادراً على أن يرافق بوريس ووالده وأمه وأخته ليديا في برلين إلى القطار وأن يحتضنهم كلهم بحرارة، وقد عرض على أبي بوريس بمناسبة الوداع أخوّة اثنين يخاطبان بعضهما بعضاً بالكاف؟ هل كان لبوريس اتصال مباشر بهذا الإنسان عندما ذهب إلى هذا المشتل العجيب لكي يعمل أكاليل زهور ويبتكر كتاباً للأشرطة على الأكاليل لفاشيين؟ لا، لا، لا، لم يكن له أي اتّصال، اللهم إلاَّ مع العمال والعاملات، ـ ولكي ينجلي شيء ما على الأقل عن هذه الفائدة، فكيف كانت إذاً حالتهم النفسية، كيف كانت الحالة النفسية للعمال الألمان؟ ثلاثة كانوا مؤيدين تأييداً واضحاً، واثنان وقفا موقفاً حيادياً، وأغلب الظن أن اثنين كانا معارضين، ولو أنهما لم يتمكنا من التعبير عن ذلك أيضاً على نحو مباشر! وهذا ناقض من جديد معلومات فيكتور غينريشوفيتش التي بناءً عليه كان العمال الألمان على أهبة الثورة في عام ١٩٤٤. اللعنة، أقول لك، إن الولد كان في موقف صعب حرج ودفع ثمن فوائده غالياً: كان خارج منطق التاريخ، ولو أنه كان قد انكشف أنه كان له فعلاً عشيقة، بل أنَّ ذلك قد تأتّى له فيما بعد، وتأتّى له غير مرة أن يقطف عند هذه الفتاة الجميلة جمالاً أخّاذاً كلَّ الزهور الممكنة المنال ـ يا سلام. وهكذا بقي على عناده، فالهدايا ـ التي قدّرت فيما بعد ـ والثياب والقهوة والشاي والسجائر والزبدة ـ كل هذا خبّأه له شخص لا يعرفه في كومة الخُثّ، والأخبار، قال هو، همس بها إليه رئيسه، تاجر الزهور والأكاليل هذا. أما فيكتور غينريشوفيتش فقد كان سادراً في

غيّه، لكنه لم يكن منزهاً عن كل رشوة: فقد حصل على صدريّة كشميرية أصلية وعلى سجائر، أما الهدية المدهشة المذهلة فقد كانت خارطة صغيرة لأوربا كانت قد انتزعت من تقويم جيبي وقد طوي بحجم حبة سكاكر مستوية ـ وكانت هذه هبة سماوية؛ وعرفنا أخيراً تمام المعرفة أين كنّا وأين كان دورنا. .وقد أخفى فيكتور صدريته الكشميرية تحت قميصه الداخلي المهلهل كلياً حيث بدت، رمادية كماكانت، أشبه بخرقة قذرة، بل إنَّ هذه كانت ستوقظ طمع حارس ألماني وأنها كانت ستلائمه جداً. ثم جاء الوقت الذي قدم فيه بوريس أنباءً موثوقة عن مجرى القتال في الجبهة وعن تقدّم القوات السوفييتية وقوات الحلفاء ـ وهنا صار أقرب إلى النافع المفيد لفيكتور غينريشوفيتش الذي كان في حاجة ماسة إلى مثل هذه الانباء لكي يرفع معنوياتنا ـ ولأنه كان المناسب الكفء له فإنّه فقد بطبيعة الحال ثقة آخرين ـ وهذا بديهي إذا ما عرف المرء جدل الأسر».

وللحصول على المزيد من المعلومات من بيوتر بترفوفيتش بوجاكوف احتاج المرء إلى خمس مناسبات ملائمة، وكان على المؤلف أن يشتري مشنقة زجاجة نقاعة، ذلك لأنَّ المشنقة الموضوعة تحت التصرّف استخدمت بين الحين والآخر للاستعمال الأصلي؛ بل إنَّ تذاكر سينما استثمرت واستغلّت لإرسال بيلينكو وكيتكين إلى أفلام سينمائية ملوّنة مثل ‹أنّا كارنينا› و‹الحرب والسّلم› و‹الدكتور جيفاغو›، واستغلت تذاكر حفلات موسيقية لكي لا يفوتها متيسلاف روستروبوفيتش.

* * *

هنا بدا للمؤلف مستحباً أن يضايق السيّد صاحب المركز الرفيع؛ وقد يكفي أن يضاف أنَّ المسألة هي مسألة اسم يمثل أمامه كل ألماني في كل فترة تاريخية بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٧٠، وكل روسي وموظف سوفييتي ذي منصب قيادي في الفترة التاريخية نفسها مثول الجندي، والذي ستنفتح أمامه اليوم وفي كل وقت أبواب الكرملين كلّها على مصاريعها، وعلى الأرجح أيضاً الباب المتواضع المؤدي إلى غرفة عمل ما. لقد تمّ وعدُ ليني ما وعدت هي نفسها به: ألاّ يبوح بالأسم أبداً ولو تحت التعذيب.

ولكي يهيّيء لذلك السيّد مزاجاً طيّباً وأنْ يطلب منه بأن يمنَّ عليه بأحاديث استخبارية أخرى لاحقة إذا لزم الأمر، لا على نحوٍ فيه خضوع ومذلة، بل بتواضع مناسب، فإنه كان على المؤلف أن يسافر بالقطار نحو ثلاثة أرباع الساعة، وللبوح بشيء من السر، فقد كان الاتجاه شمال شرق، وكان على المؤلف أن يصرف نقوده على باقة زهور للزوجة وعلى طبعة من (أويجين أونيجين) للزوج، مجلّدة بغلاف من الجلد، وشرب عدة فناجين من شاي طيب المذاق (أفضل مما عند الراهبات وأسوأ مما عند السيّدة هولتهونه)، وتحدّث عن الطقس والأدب، وذكر أيضاً وضع ليني المالي الحرج (هنا سألت الزوجة سؤال استرابه: «مَنْ هي هذه؟» ـ وكانت إجابة الزوج غير الودية: «لا شك أنك تعرفين أنها كانت تلك التي كانت لها علاقة مع بوريس لفوفيتش في أثناء الحرب» ـ وهذا ما جعل المؤلف يخمنّ أنَّ السيّدة بدت تشمّ رائحة شيء غرامي وعلاقات غرامية). ثم جاءت اللحظة التي كان لا بدَّ أن يتوقف الحديث عندها عن الطقس والأدب وليني، ولا بدَّ من القول إنَّ السيّد قال أيضاً بوضوح، وبلهجة

أقرب إلى الخشونة والفظاظة: ميتسي، من فضلك اتركينا وحدنا»، وعلى هذا غادرت ميتسي الحجرة من غير أن تخفي سخطها وهي على يقين أن المؤلف **رسول غرام**.

أمن الضروري أن يوصف السيد؟ إنه في منتصف العقد السابع، أشيب الشعر، لطيف ورقيق الجانب، إنّما جاد رزين، في غرفة شرب الشاي بحجم نحو نصف قاعة مدرسية، هذا إذا اتخذ المرء مدرسة بستمائة تلميذ مقياساً، وإطلالة على الحديقة العامة، وأرض معشبة انكليزية وأشجار ألمانية، أصغرها عمره نحو مئة وستين سنة وأحواض ورد الشايي ـ وعلى هذا كله ـ وكذلك على وجه السيّد أيضاً، لا بل على بيكاسو، وعلى شاجال وفارهول وراوشينبيرغ، وعلى فالد موللر وبيخشتاين وبورمان ـ على كل شيء، كل شيء نوع ـ ويخاطر المؤلف ـ من الأسى والألم. هنا أيضاً دموع وبكاء وألم وعذاب! ولا أثر للضحك؟

«إذاً يهمّك ما إذا كان هذا السيد بوجاكوف قد أخبرك على الوجه الصحيح ـ وبالمناسبة سأفعل شيئاً من أجله، ولا تنسَ أن تعطي سكرتيري الإسم والعنوان ـ إذاً: لا يسعني إلاّ القول: إجمالاً نعم. من أين عرف هذا المفوض في معسكر بوريس هذا، من أين علم بذلك (هزة كتف). **الشيء الذي** يرويه السيد بوجاكوف صحيح. فقد تعرّفت إلى أبي بوريس في برلين في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٤١ وصادقته تماماً. كان هذا خطيراً عليَّ وعليه على حدّ سواء. من حيث السياسة العالمية وشمولية التاريخ فأنا ما زلت من أنصار تحالف بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا، وإني من أصحاب الرأي أنَّ تحالفاً خالصاً

صادقاً تسوده الثقة المتبادلة سوف يزيل جمهورية ألمانيا الديمقراطية من على الخارطة. **نحن**، نحن مَنْ يشغل بال الاتحاد السوفييتي. والآن، هذه هي موسيقا المستقبل. في برلين عددت آنذاك أحمر، وقد كنت أحمر، وما زلت ـ وإني لا أنتقد السياسة الشرقية للحكومة الاتحادية إلاّ لأنّها في نظري ضعيفة جداً وهزيلة جداً. ولنَعُدِ الآن إلى السيد بوجاكوف. الحق أني استلمت ذات يوم في مكتبي في برلين مظروفاً وفهي قصاصة لم يكتب عليها إلاَّ: يبلغكم ليف أن ب. (بوريس) في الأسر الألماني». ولم أكتشف من جاء بالقصاصة ـ ولم يكن هذا مهمّاً، فقد سُلِّمت تحت للبّواب. وفي إمكانك أن تتصور الآن الاضطراب الذي حلَّ بي. فقد كنت أميل ميلاً عميقاً إلى هذا الفتى الهادىء المتيقظ الذكي الكثير التفكير والذي كنت ألتقيه عدة مرات ـ ربما عشرات المرات ـ في منزل والده. وقد أهديته قصائد جيورج تراكل ومؤلفات هولدرلين الكاملة ولفتُّ نظره إلى كافكا ـ ولي أن أدّعي لنفسي أنني كنت من أوائل ـ إن لم أكن القارىء الأول ـ لقصة «طبيب ريف» التي طلبتها من أمي سنة ١٩٢٠ هديّة بمناسبة عيد ميلاد السيّد المسيح وأنا طالب ثانوي في الرابعة عشرة من عمري. علمت إذاً بأن هذا الفتى الذي كان قد بدا لي دائماً كثير التفكير وغريباً جداً عن هذا العالم، كان موجوداً في ألمانيا أسير حرب سوفيتياً. أتظنّ (هنا صار السيّد، مع أنه لم يُعْتَدَ عليه حتى بالنظرات، أقرب إلى أن يكون دفاعياً على نحو متطرّف، وصار عدوانياً من جديد)، أتظن أنني لم أكن لأعرف كيف كانت الأمور تجري في المعسكرات؟ أتظن أنني كنت أعمى وأصمَّ وعديم الإحساس؟ (مجرّد أمور لم يكن المؤلف قد ادّعاها قط). هل تتصوّر (وهنا صار لصوته رنّة أقرب إلى الحنق!)

هل تتصوّر أنني كنت سأجد هذا كلّه صحيحاً؟ ثم (هنا رق صوته وصار رقيقاً جداً) أتيحت لي الفرصة أخيراً لأفعل شيئاً. ولكن أين كان الفتى؟ كم مليوناً وكم مئات الآلاف من أسرى الحرب السوفييت كانوا عندنا في هذه الفترة؟ هل أطلقوا النار عليه عند الأسر أم أنه جرح؟ لتبحث عن شخص اسمه بوريس لفوفيتش كولتوفسكي بين الكثيرين جداً (من جديد تضخّم إلى حدّ العدوانية)! ووجدته، وأقولك لك (حركة فيها وعيد حيال المؤلف البريء كلَّ البراءة)، وجدته بمساعدة أصدقائي في القيادة العليا للجيش والقيادة العليا للقوات المسلحة ـ لقد وجدته. كيف؟ عاملاً في مقلع، لا في مركز تجميع أو معتقل، إنّما في ظروف شبيهة بظروف المعتقلات. هل تعلم ماذا كان يعني مقلع (بما أن المؤلف كان قد عمل في الحقيقة ثلاثة أسابيع في مقلع فقد شعر بالزعم المتبع بالسؤال أنه لا يعرف ماذا كان يعني المقلع، وبتعبير مهذّب، على نحوٍ فيه تكبّر، لا سيّما وأنَّ الفرصة لم تتح له لكي يجيب) فقد كان يعني الحكم بالموت. وهل حاولت مرة من المرات أن تخرج شخصاً ما من معسكر نازي خاص بأسرى حرب سوفيتيين؟ (عتاب في الصوت في غير محلّه، ذلك لأنَّ المؤلف لم يحاول قط، ولم يتأتَّ له قط أن يخرج أي شخص في أيِّ مكان، إلاَّ أنه أتيحت له عدة فرص ألاّ يأسر أسرى وأن يتركهم يهربون، وهذا ما فعله هو أيضاً). ثمَّ إني احتجت أيضاً إلى أربعة أشهر متواليات قبل أن أتمكن من القيام بشيء فعال للفتى. لقد خرج من معسكر مخيف نصيب الوفيات فيه بنسبة واحد إلى واحد وذلك إلى معسكر أقل هولاً نصيب الوفيات فيه بنسبة واحدة إلى ١.٥ (واحد فاصلة خمسة)، ومن المعسكر الأقل هولاً وإخافة جاء إلى معسكر لا

شيء فيه إلاَّ أنه مريع، بنصيب وفيات نسبته ١ إلى ٢,٥، ومن المعسكر الرهيب المريع إلى معسكر أقل رهبة وروعاً بنصيب وفيات نسبته واحد إلى ٣,٥ ـ ومع أنه كان موجوداً في معسكر جاوز المعدل العام للوفيات فإنه جاء إلى معسكر يمكن أن يعتبره المرء عادياً نوعاً ما. نصيب الوفيات مناسب للغاية بنسبة ١ إى ٨,٥، وتركتهم ينقلونه إلى هناك، لأنَّ أحد أفضل أصدقائي، زميلي السابقي في المدرسة إريش فون كام، الذي كان قد فقد في ستالينغراد ذراعاً وساقاً وعيناً وكان رائداً قائداً للمعسكر الأساسي، الذي كان بوريس واحداً منه؛ وهل تظنُّ أنَّ إريش فون كام كان سيستطيع أن يقرر ذلك وحده؟ (لم يخطر ببال المؤلف أيُّ شيء على الإطلاق، لم يكن يطمع إلاَّ في معلومات موضوعية). لا، كان لا بدَّ من أن يتدخل متنفذون حزبيون، وكان لا بدَّ من رشو أحدهم ـ بفرن غاز لعشيقته وبطاقات بنزين تتجاوز الخمسمائة ليتر وثلاثمائة سيجارة فرنسية، إذا ما أردت أن تعرف تمام المعرفة (وقد أراد المؤلف معرفة هذا: تماماً)، وأخيراً كان لا بدَّ لهذا المتنفذ الحزبي من أن يجد صنواً آخر له، وهو بيلتسر هذا الذي استطاع المرء أن يخبره نوعاً ما بأنَّ بوريس يجب الرفق به ـ أما القائد الذي كان عليه أن يوافق على الحارس اليومي لبوريس فقد صار عندئذ لازماً، وهذا، هذا القائد، عقيد هوبيرتي، من مدرسة قديمة، محافظ، إنساني، لكنه حذر لأنَّ قوات الحرس النازي كانت قد حاولت عدة مرات أن تكيد له بمكيدة وتثبت إدانته بسبب «الإنسانية المستعملة في غير موضعها»، وكان لا بدَّ أن تقدَّم للسيد العقيد هوبيرتي وثيقة بأنَّ عمل بوريس في البستنة (ومستنبت الزهور) مهم للحرب أو «ذو قيمة إستخبارية عالية)، هنا

استجابت لنا المصادفة أو استجاب لنا الحظ، أو إذا شئت (لم يشأ المؤلف. المؤلف) استجاب القدر، إنَّ بيلتسر هذا كان ذات مرة في الحزب الشيوعي وكان قد وظّف رفيقة سابقة، كان زوجها أو عشيقها، على ما أعتقد، على أية حال كان حبّاً طليقاً أو شيئاً من هذا القبيل ـ هذا الرجل هرب إلى فرنسا ومعه وثائق فيها معلومات ذات قيمة عالية ـ وعلى هذا الأساس عُيِّن بوريس رسمياً على هذه المرأة ـ كما يقال في اللغة الدارجة ـ من غير أن يحسّ بيلتسر هذا أو هذه الشيوعية بأي شيء ـ والشهادة من أجل ذلك حصلت عليها من جديد من أحد المعارف في قسم (الجيوش الأجنبية شرق) ـ أما الشيء الذي كان أكثر أهميّة أنه كان يجب أن يبقى نشاطي سريّاً، وإلاّ كانت النتيجة عكسية: وهي أنَّ قوات الحرس النازي كانت ستتنبه إلى بوريس. ماذا تتصوّر تماماً (من جديد لم يدر أي شيء في خلد المؤلف. المؤلف)، تصوّر كم كان صعباً أن تقوم من أجل فتى كهذا بشيء معقول في الواقع ـ وبعد العشرين من تموز صار كل شيء أكثر شدّة وحدّة؛ فقد طلب المتنفذ الحزبي رشوة أخرى ـ كان النجاح معلّقاً بشعرة صغيرة. فمن ذا الذي كان يهمه مصير بوريس لفوفيتش كولتوفسكي الملازم السوفييتي في سلاح الهندسة؟»

* * *

بما أنه تمَّ الوقوف إلى حدٍّ ما على مدى الصعوبة التي لاقاها السيّد ذو المنصب الرفيع ليقوم بشيء ما من أجل أسير حرب سوفييتي، فلنعد من جديد إلى بوجاكوف، مسلحين بقشاء مملح وبتذكرتي دخول إلى السينما للفيلم الملّون <ابنة راين>. وإنَّ بوجاكوف الذي تزوّد في أثناء

ذلك بأنبوب نارجيلة يضعه على فم السيجارة، فيستطيع بذلك أن يدخن «على راحته»، ذلك لأنه يستطيع أن يمسك الأنبوب باليد المقوّسة («وبهذه الطريقة لا أحتاج دائماً إلى أن أمدَّ شفتيّ الممطوطتين إلى فم السيجارة»)، فقد كاد تبسّطه في الحديث أن يصبح بلا حدود، وما أحجم عن الإفضاء بأشياء خاصة حميمة، لا بل بأكثر الأشياء خصوصية، فيما يتعلق ببوريس.

«إذاً»، كما يقول بوجاكوف، «ما كانت المسألة ستحتاج قط إلى فيكتور غينريشوفيتش الصارم لكي نلفت انتباهه إلى العبث التاريخي لفائدة مصيره. وإنَّ أكثر ما أزعج الفتى كان تلك اليد الخفية الملموسة بشكل واضح والتي كانت قد دفعته من معسكر إلى معسكر ثم أخيراً إلى هذا المستنبت الخاص بالزهور الذي كان له إلى جانب المزايا الأخرى ميزة ثانية: فقد كان مدفأً، دائماً مدفأً، ولم يكن هذا في شتاء سنة ٤٣/٤٤ بنفع ضئيل. وبما أنني همست له في أذنه فقد علم أخيراً **مَنْ** دفعه إلى هناك، ولم يكن مرتاح البال على الإطلاق، ومضى زمن كان فيه سيء الظن تجاه الفتاة اللطيفة لأنه اعتقد أنّها معيّنة ومكلّفة من قبل ذلك السيّد ومدفوع أجرها. وكان هناك شيء آخر أرهق حساسية هذا الشاب شبه السماوية إلى أقصى حد: إنه إطلاق النار المتواصل بالقرب من مركز عمله النموذجي للغاية. لا أريد أن أنوّه هنا على الإطلاق أنَّ الشاب كان ناكراً للجميل، لا، أبداً ـ كان سعيداً في قرارة نفسه، لكنَّ الأمور كانت هكذا. فإطلاق النار الدائم جعله عصبيّاً».

* * *

على المرء أن يستحضر هنا في ذهنه أنَّ دفن موتى كل الفئات الألمانية قد أدّى إلى أرقام قياسية جديدة دائماً في نهاية سنة ١٩٤٣ وبداية سنة ١٩٤٤: فلاحراس المقابر ولا صانعو أكاليل الزهور ولا القساوسة ولا محافظو المدن الذين يلقون الخطب ولا رؤوساء الوحدات المحلية ولا قادة الكتائب ولا المعلمون ولا الرفاق ولا مدراء المؤسسات والمصانع فحسب كان عليهم أن يطلقوا النيران في الهواء، بل جنود كتيبة الحرس أيضاً المأمورون بإطلاق النار تأدية للتحية العسكرية. وبحسب عدد الضحايا ونوع الميتة والرتبة والمركز فقد كان هناك في المقبرة المركزية إطلاق نار دائم بين السابعة صباحاً والسادسة مساءً. (وكما يقول غروندتش الذي نستشهد فيما يلي بقوله حرفياً) «كثيراً ما تناهى دويٌّ لكانَّ المقبرة كانت منطقة تدريب للجنود، أو مرمى على الأقل. طبيعي أنَّ إطلاق البنادق دفعة واحدة للتحية العسكرية يجب أن يكون له وقع طلقة واحدة ـ وأنا نفسي بصفة رقيب في الحرس الوطني قد قدت في بعض الأحيان في سنة ١٩١٧ فرقة أداء التحية العسكرية، أمّا هذه الأمنية الوهمية فكثيراً ما أخفقت. كان لهذا دويّ مثل إطلاق نار متواصل، أو كأنَ مدفعاً رشاشاً جديداً يجرّب. وبما أنه كانت تسقط أيضاً بين الفينة والفينة قنابل فإنَّ المدفعية المضادة للطائرات كانت تدوّي هنا وهناك، وما سرّت قط ناساً يتحسسون للصخب، وحين كنا نفتح النافذة أحياناً ونخرج رؤوسنا كنا نشمّه في الواقع: دخان البارود، ولد من خرطوش خلّبي».

* * *

إذا سُمِح هنا للمؤلف بتعليق بصورة استثنائية، فإنه يودّ أن يلفت الانتباه إلى أنَّ جنوداً شباباً غير متمرسين بإطلاق النار كانوا يؤمرون أيضاً بين الحين والآخر، ولا بد أن يكون هؤلاء قد استغربوا أن تطلق النيران من فوق رؤوس قساوسة رهبان وأهل ميت محزونين وضباط ومتنفذين حزبيين ـ ويحتمل أن تكون أعصابهم قد شدّت، وعسى ألاّ يؤاخذهم أحد على ذلك. ومما لا شكَّ فيه أنَّ بعض الدمع قد انسكب هناك أيضاً وبان بكاء كثير ولوحظ أسى، وقلَّ أنْ كان أحد المحزونين (من أهل الميت) ثابت الجأش في اليقين الذاتي لوجوده، أما الألم الذي ارتسم جلّياً على بعض الوجوه، وكذلك التوقّع أن يوارى هو نفسه ذات يوم تحت إطلاق نيران التحية العسكرية، فأغلب الظن أنَّ هذا لم يدخل الطمأنينة إلى نفوس الجنود على الإطلاق. ولم يكن الحزن الوقور وقوراً دائماً، في كل يوم كان في المقبرة بضع مئات، إن لم يكن بضع آلاف كيس ملتحمة تعمل، لقد فقد المرء السيطرة على ساق المخ، إذ أنَّ بعضهم ربما كان قد أحسّ أنه أصيب هنا بأعزّ ما يملك في الحياة.

* * *

بوجاكوف: «طبيعي لم يدم سوء الظن بالفتاة طويلاً، يوماً، أو يومين، وبعد أن كانت قد وضعت يده للتبريك، وكان قد حدث له (؟؟) ـ وأقصد وأنت تعرف حق المعرفة، ما يحدث لبعض الرجال في حال أنّهم لم يعاشروا امرأة منذ زمن طويل، وأنّهم أنفسهم لن يساعدوا أو يجاروا في ذلك ـ نعم، نعم ـ هذا ما حدث له، حين وضعت الفتاة اليد على يده، عند الطاولة إلى حيث كانا يأتيان بأكاليل الزهور.

أجل. هكذا كانت الأمور. لقد حكى لي ذلك، ومع أنَّ هذا حدث له غير مرّة، ولكن في الحلم فقط، لا بعينين مفتوحتين في الواقع، فقد كان مضطرباً حائراً مفعماً بنشوة النفع. أقول لك، كان الفتى بسيطاً وكان قد تلقّى تربية متزمته ـ ولا يعرف شيئاً عما يسميّه المرء الحياة الجنسية. هنا حصل شيء أستطيع أن أطلعك عليه إذا ما وعدتني وعداً صادقاً (وهذا ما حدث! المؤلف)، بألاّ تعلم به هذه الفتاة (والمؤلف على يقين أنَّ ليني ربما علمت بذلك وأنها لن تخجل، بل أغلب الظن أنها ستكون سعيدة بأن تعرف ذلك. المؤلف) فالشاب لم يدخل قط على أية امرأة. (وبناء على رفع المؤلف لحاجبين مستغرباً، تابع:) أجل، هكذا سميت هذا دائماً: مباشرة امرأة. فقد رفض أن يعرف كيف يقوم المرء بذلك، إذ أنه عرف الكثير في الحقيقة أنَّ هناك شروطاً جسدية معيّنة، وإذا صحّ القول، ذات طبيعة صحية سليمة، شروط تنبّه إلى حدٍّ ما إلى أين يريد المرء أن يمضي بشيء ما في بعض حالات الإثارة، إذا ما أحب المرء إمرأة وأراد أن يباشرها. هذا ما عرفه هو، لكن اللعنة، كانت هناك حالة خاصة أخرى، إذ أردت أن تعرف» (والمؤلف أراد أن يعرف، المؤلف)، «لقد أنقذ حياتي، ولولاه لمتُّ جوعاً وفطست ومتّ... ولولا ثقته أيضاً. مع مَنْ كان في إمكانه أن يتكلّم، اللعنة! كنت كل شيء في نظره، أباه وأخاه وصديقه ـ وكنت أستلقي ليلاً وأبكي من الخوف عندما كانت له غرامياته مع الفتاة. وقد حذّرته وقلت له: ‹ حسن، في وسعك أن تعرّض رأسك للخطر إذا كنت تحبها حبّاً جنونياً ـ أما حياتها؟ فكّر بما هو مهدّد بالنسبة إليها ـ فلا تستطيع أن تحتج بأنك كنت ستجبرها أو ستغضبها ـ وما من أحد قد يصدقها. بالله عليك تعقّل›! ‹أتعقّل›، قال: ‹لو أنك

استطعت أن تراها لما تكلمت عن العقل، ولو تكلّمت إليها عن العقل لسخرت مني. إنها تعرف ما أخاطر به، وتعرف أيضاً أنني أعرف ما تخاطر هي به ـ إلاّ أنها لا تريد أن تعرف أننا عاقلان. كما أنها لا تريد أن تموت، إنها تريد الحياة ـ وتريد أن تنتهز كل فرصة ليدخل كل منا على الآخر› ـ واعترف أنه أخذ مني هذه الكلمة وحين رأيتها فيما بعد وتعرفت عليها عن كثب أدركت أن كلمة عقل كانت كلمة سخيفة. لا، إلاّ أن شيئاً آخر كان هناك وعذّب الولد كثيراً. فعندما كان ولداً صغيراً في الثانية أو الثالثة خبّأته أمه في أثناء الحرب في قرية في غاليسيا عند صديقة قديمة لها، وهذه الصديقة كان لها جدّة يهودية تبنّت هذا الصبي بعد إعدام هذه الصديقة رمياً بالرصاص، وفي هذه القرية خالط الصبي الأطفال اليهود سنة أو سنتين، ثمَّ ماتت هذه الجدّة، وتبنّته جدة أخرى، وما من أحد عرف من أين كان قد جاء الصبيّ. وذات يوم تكتشف هذه الجدة أن بوريس الصغير لم يختن بعد، وفكرت بطبيعتها أن الجدة المتوفاة قد فاتها ذلك، فتستدرك هي هذا ـ ثم خُتن كذلك. خيّل إليّ أنني سأجنّ. فقد سألته قائلاً، أنت، يا بوريس، تعرف أنني إنسان منصف، قل لي:‹ هل أنت يهودي أم لا›؟ وأقسم لي:‹ لا، لست بيهودي، ولو أنّي كنت يهودياً لقلت›. كما أنه لم يكن عنده أيُّ أثر للهجة يهودية ـ على أنَّ هذا كان خبراً مزعجاً، فقد كان هناك ما يكفي من المعادين للسامية في معسكرنا والذين عذبوه وضايقوه، لا بل وشوا به إلى الألمان. وقد سألته:‹ كيف نجوت، في أثناء التحقيقات، أو شيء من هذا القبيل، أعني، نجوت بقلفتك، لنقل، المتغيّرة؟› ـ وقال لي إنه كان له صديق، طالب طب في موسكو، وقد اتضح له إلى حدّ ما مدى

الخطر الذي يمكن أن ينجم عن ذلك، فما كان منه إلاّ أن خيّط عليها باتقان بصورة مؤقتة وتحت آلام رهيبة قطعة من معي قطة قبل أن يستوجب عليه الالتحاق بالجيش، وعاش هذا طويلاً إلى أن تعرّض بصورة دائمة إلى حالات التهيّج هذه، هنا ماتت القطعة المخيّطة، وسقطت. هنا أراد أن يعرف هل النساء ـ وهلمّ جرا. هنا كان هذا دافعاً لي مرة ثانية لكي أسكب دموعاً في الليل وأعرق دماً: ليس هذا مع المرأة ـ لا أعرف أي شيء عن ذلك، ماذا تلاحظ النساء وهل تلاحظ هذا ـ لا، إنَّ فيكتور غينريشوفيتش هذا كان معادياً عنيفاً للسامية، وكان هناك نفرٌ بينهم، وكان هؤلاء سيشون به إلى الألمان بدافع الحسد وسوء الظن: وبعد ذلك ـ لم يعد هناك شخصية كبيرة المقام كانت ستتمكن من إنقاذه. عندئذٍ كان سيذهب النفع كلّه والمراءة كلها».

* * *

السيّد العالي المقام: «يجب أن أعترف لك أنني حنقت عليه نوعاً ما عندما علمت فيما بعد أنه أقحم نفسه في علاقة غرامية. كنت غاضباً، نعم. لكن هذا جاوز حدّه. وكان عليه أن يعرف كم كان هذا محفوفاً بالخطر، وكان عليه أن يتصوّر أننا كلّنا، كل أولئك الذين يحمونه ـ وقد عرف أنه كان في حمايته ـ قد نكون في موقف حرج. إذ أنّه في مثل هذه الأحوال كان مجلس التنسيق الكلّي المعقّد سينفتح ملّفه إلى الوراء. وأنت تعرف أنه لم يكن هناك في حالٍ مثل هذه الأحوال هوادة أو رحمة. ثم سارت الأمور على خير، وما انتابني ذعرٌ ورعب إلاّ فيما بعد ولم أكتم أيضاً الآنسة ـ السيدة بفايفر ذهولي واندهاشي من

هذا الجحود. أجل، جحود، وإنّي لأسميّه هكذا. يا إلهي، من أجل قضيّة ومسألة نسائية! طبيعي أنني كنت أتلّقى دائماً عن طريق وسطائي أخباراً عن صحته وكنت أحسّ بين الحين والآخر بالإغراء للسفر إلى هناك ذات مرة بمناسبة سفر رسمي للعمل فأراه ـ إلاّ أنني لم أستسلم في النهاية إلى هذا الإغراء. لقد سبّب لي من النكد ما يكفي لأنّه، فيما يبدو، كان يستفزّ الناس أحياناً في الحافلة الكهربائية، ولست أدري هل كان هذا عن وعي أم عن غير وعي ـ إلاّ أنه تواردت عنه وعن جندي الحراسة شكاوي في الواقع، وكان لا بدَّ لفون كام أن ينظر فيها. ـ إذ إنّه كان يغنّي في الصباح الباكر في الحافلة الكهربائية، وفي أغلب الأحيان كان يدندن بينه وبين نفسه، لكنه كان يغنّي أحياناً بصوت عالٍ بحيث إنه كان في وسع المرء أن يفهم الكلمات. أتعرف أيّ نصّ؟ المقطع الثاني من ‹أيها الإخوة نحو الشمس، نحو الحرية ـ انظروا كيف ينبثق موكب الملايين من مكان مظلم ظلاماً لا متناهياً إلى أن يغمر شوقكم وتطلّعكم السماء والليل›ـ هل تعدّ هذا حكمة أن يغنّي لعمال مبيت ألمان وعاملات في ساعة صباحية مبكرّة وبعد مضي سنة على ستالينغراد وفي حافلة كهربائية مكتظة شيئاً من هذا القبيل أو أن تغني مع خطورة الموقف؟ ـ تصورّ أنه كان سيغني المقطع الثالث، وإني على ثقة أنه فعل ذلك صراحةً من غير أسرار تطوى أو خبايا تضمر: ‹حطّموا نير الطغاة الذين عذبوننا أشدّ العذاب، لوّحوا بالعلم الأحمر فوق دنيا العمال›. ها أنت ترى أني لا أحمل الوصف أحمر عبثاً. كان هناك نكد ومضايقة. ولقد عوقب الحارس واتصل بي فون كام هاتفياً على نحو استثنائي، وإلا كنا نتفاهم عن طريق السعاة، وسألني: ‹ أيّ محرّض هو هذا الذي فرضته

عليَّ بالخداع؟› ـ ثم كان في الإمكان تسوية الموضوع، ولكن يا للمتاعب التي سبّبها. وتكرّرت الرشوة، وتكررت الإشارة إلى الأمر بالعمليات العسكرية لكتيبة (الجيوش الأجنبية شرق) ـ إلاّ أنه حدث بعد ذلك الشيء الرهيب: فقد بادر أحد العمال بوريس بالكلام وهمس له في الحافلة الكهربائية: ‹تشجع أيها الرفيق، فالحرب في حكم الكسب›. وسمع الحارس هذا ولم يكن في الإمكان حمله على أن يسحب تبليغه إلاّ بمزيد من الصعوبات ـ وكان يمكن أن يكلّف هذا الشيء العامل حياته. لا، الحق أنني لم أجْنِ حمداً ولا شكراً. اللهم إلاّ الصعوبات والمتاعب».

* * *

ثبت أنّه ضروري قصدُ ذلك السيد مرة أخرى الذي كان سيملك النوع والعيار لينحيّ بوريس عن دور البطل: إنه فالتر بيلتسر، في السبعين من عمره، في منزله البنّي المؤلف من طابق واحد على طرف الغابة. أيائل معدنية مذهّبة تذهيباً شديداً تزيّن أحد الجدران، وخيول معدنية مذهّبة تذهيباً شديداً تزيّن الجدار الآخر. ولديه حصان ركوب واصطبل لهذا الحصان، وعنده سيارة (من الطراز الرفيع)، ولدى زوجته سيارة (من الدرجة المتوسطة)، وحين قصده المؤلف للمرة الثانية (وسيصبح المزيد من الزيارات مستوجب الوقوع) وجده غارقاً في كآبته الدفاعية التي كان لها طابع أقرب إلى أن يكون طابع الندامة. «هنا ترك المرء أولاده يتعلّمون شيئاً وتركهم يدرسون: إنَّ ابني طبيب، وابنتي عالمة آثار ـ وهي الآن في تركيا ـ، ثم ما النتيجة؟ احتقار البيئة الأبوية. حديث نعمة. نازي عتيق، وغني من أغنياء الحرب وانتهازي ـ وماذا

تظن، كل هذه الأشياء تتناهى إلى أسماعي. بل إنَّ ابنتي تتكلّم إليَّ عن العالم الثالث، وها أنذا أسألك: أيَّ شيء تعرفه هي عن العالم الأول؟ عن العالم الذي تنحدر منه؟ الحق أنّ لديَّ وقتاً كثيراً للمطالعة، وبهذا يكون لي أيضاً أفكاري الخاصة. أنظر إلى ليني التي مانعت آنذاك أن تبيعني بيتها لأنني كنت في نظرها موضع شبهات ـ ثمَّ باعته إلى هويزر، وأيّ شيء يمارسه هذا بالتعاون مع حفيده الذكي؟ إنه يفكر بأن يرسل إليها الأمر بالإخلاء لأنها تؤجّر بدورها إلى عمال أجانب، ومنذ زمن طويل لم تعد تستطيع أن تدفع الأجرة في الوقت المحدد أو أن تدفعها على الإطلاق. هل كانت الفكرة ستدور في رأسي من قبل أو في أي وقت كان بأن أوعز بطرد ليني من منزلها؟ لا أبداً، ولا في ظل أي نوع من النظام السياسي. لا على الإطلاق. لا أخفي أنني وقعت في غرامها على الفور حين بدت لي، وتهاونت في الزواج. هل أخفي هذا؟ لا. هل أخفي أنني كنت نازياً وكنت شيوعياً وأنني انتهزت فرصاً اقتصادية أتاحتها الحرب لي في عملي؟ لا. لقد اختلست ـ واعذرني على هذا التعبير الفظ ـ أينما استطعت. واعترف بذلك. ولكن هل ألحقت أيَّ أذى بأيّ واحد في داخل مؤسستي أو خارجها، بعد سنة ١٩٣٣؟ لا. الحق أني كنت قبل ذلك الحين على شيء من الفظاظة والقسوة، وأعترف بذلك. ولكن بعد سنة ١٩٣٣؟ لم أؤذ إنساناً قط. هل في وسع أحد عمل عندي ومعي أن يشكو ويتذمر. إنّ الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يشكو، كان يمكن أن يكون كريم، لكن هذا مات. أجل، لقد سمت هذا سوء العذاب، واعترف بذلك، وأرهقت هذا المتعصب الثقيل الظل الذي كان على وشك أن يقلب المحل رأساً على

عقب ويفسد جو العمل نهائياً، هذا الغبي أراد من أول وهلة وفي اليوم الأول، حين جاءنا الروسي إلى المحل، أن يغيّر كل شيء على معاملة الدون وسفلة الناس. وبدأت المسألة بفنجان القهوة التي جلبته ليني إلى الروسي في أثناء استراحة الفطور قبيل التاسعة. كان يوماً شديد البرودة، في نهاية كانون الأول سنة ١٩٤٣ أو بداية كانون الثاني سنة ١٩٤٤، وكانت قد جرت الأمور على نحو تدريجي سليم بحيث إنَّ إلزه كريمر صارت طاهية القهوة. إذ أنّها كانت الأجدر بالثقة، إذا ما سألتني، وإن كريمب الغبي هذا كان يجب أن يسأل ذات مرة لماذا كانت شيوعية عجوز الأجدر لمثل هذا العمل. على أنَّ كل واحد أحضر معه إذ ذاك مسحوق القهوة الخاص به في كيس صغير، وكان في مسحوق القهوة ما يكفي من الاستفزاز والتحريض. وبعضهم لم يكن لديهم إلاَّ بديل القهوة (شعير أو حنطة سوداء محمّصة لتحضير مشروب شبيه بالقهوة م.) وبعضهم كانوا قد مزجوا بنسبة ١ إلى عشرة أو ١/٨، أما ليني فبنسبة ١/٣ بصورة دائمة، وأنا سمحت لنفسي أحياناً بالترف والنعيم بنسبة ١/١، لا بل بالبن الخالص بين وقت وآخر: إذاً كان هناك عشرة أكياس مختلفة من مسحوق القهوة وعشرة أباريق قهوة مختلفة ـ وبالنظر إلى الوضع التمويني بالقهوة فهو بالنسبة إلى إلزه مركز يستوجب الثقة، إذ من ذا الذي كان سيلاحظ شيئاً أو سيظن أنها ما كانت ستأخذ في كل مرة إلاَّ خمسة غرامات من كيس جيد لتضعها في كيسها الرديء أحياناً؟ لا أبداً. فقد سمّى المرء هذا تضامناً عند الشيوعيين، وهذا ما استخدمه لنا النازيون كريمب وفانفت وشيلف استخداماً جيداً واستفادوا بأن يترك إعداد القهوة للمرأة فانفت أو المرأة شيلف أو لهذا الغبي

كريمب: فهؤلاء كانوا سيتبادلون مسحوق القهوة فيما بينهم. وعلى المرء أن يضيف إلى ذلك أيضاً أنه لا شيء كان يمكن استبداله عند كريمب هذا في كثير من الأحيان، فقد كان هذا غبيّاً جداً ومستقيماً جداً، وفي كثير من الأحيان كان يشرب مشروب عوض القهوة خالصاً ـ ثم الإشاعات عند صبّ القهوة: آنذاك كنت تشم على الفور أية قهوة كانت تحتوي أيضاً على أثر القهوة الخالصة ـ ثم كان إبريق ليني الإبريق الذي فاح أجمل رائحة وأطيبها ـ حسن إذاً. ماذا تعتقد كم استوجب هذا كله من الحسد والحقد والغيرة، لا بل من الكراهية وأفكار الانتقام، عندما كانت توزَّع قدور القهوة في التاسعة والربع؟ وهل تظن أنَّ الشرطة أو الحزب كان سيتمكن في بداية سنة ٤٤ من القيام باستجواب أو اتهام كل واحد بسبب ما كانوا يسمونه (انتهاك اقتصاد الحرب)؟ فهؤلاء كانوا في الحقيقة سعداء حين كان الناس يحصلون، من أي مكان كان، على قليل من القهوة. طيّب ـ وماذا تفعل صاحبتنا ليني في اليوم الأول الذي يظهر فيه الروسي عندنا؟ إنها تصبّ للروسي فنجاناً من قهوتها ـ ويجب أن تعرف أنها قهوة نسبتها واحد إلى ثلاثة، وعلى حين كان كريمب يرشف قهوته الخفيفة تصبّ للروسي من إبريقها قهوة في فنجانها وتحضره له إلى الناحية الأخرى، إلى المنضدة حيث كان يعمل في الأيام الأولى مع كريمب في فريق أجسام الأكاليل. كان هذا في نظر ليني شيئاً بديهياً، أن تقدِّم فنجان قهوة لشخص لم يكن لديه فنجان ولا قهوة ـ لكن صدِّق أنها أحسّت كم كان هذا **سياسياً**. فقد رأيت أنَّ إلزه كريمر نفسها امتقع لونها ـ إذ أنَّ هذه عرفت كم كان هذا سياسياً: إحضار فنجان قهوة لروسي بنسبة واحد إلى ثلاثة وقد طغى هذا الفنجان بعبقه في كل الأحوال على

كل الأخلاط الخفيفة الرديئة الأخرى. وماذا يفعل كريمب؟ في معظم الأحيان يجلس وقد فكَّ رباط رجله الاصطناعية في أثناء العمل لأنها لم تناسبه بعد على الوجه الصحيح، إذاً يتناول العضو الاصنطاعي المفكوك من الكلاّب على الجدار ـ وماذا تظن كيف بدا هذا جميلاً، دائماً ساق اصطناعية هناك على الحائط ـ ويضرب الفنجان من يد الروسي المرتبك كل الارتباك. وما النتيجة: ويسمّي المرء هذا صمتاً قاتلاً، على ما أعتقد، أما هذا الصمت المسمّى قاتلاً ـ هكذا يسمونه في الأدب، في الكتب التي أقرأها الآن بين الفينة والأخرى ـ فإنَّ له أيضاً تنوّعات: كان لدى المرأتين شيلف وفانفت قاتلاً على نحوٍ فيه قبول وتسليم، وكان لدى المرأتين هويتر وتسيفن مميتاً على نحو محايد، وكان قاتلاً على نحو لطيف لدى المرأتين هولتهونه وإلزه. وأستطيع أن أقول لك إننا كلنا ذعرنا، إلاّ غروندتش الشيخ الذي استند بجانبي إلى باب المكتب وضحك ضحكاً بالغاً. كان هذا يحسن الضحك، وقد اعتبر هذا غير قادر على تحمّل المسؤولية عن أفعاله ولم يكن عنده الكثير ليخاف، مع أنه كان داهية، ماذا أقول، كان داهية على طاقين. وماذا فعلت أنا؟ بصقت من عصبيتي من باب المكتب إلى الورشة، وعندما يحدث هذا، وعندما أفلح في أن أعبر عن ذلك، فقد كانت هذه بصقة هزء وسخرية تماماً انتهت إلى مكان أقرب إلى كريمب منه إلى ليني. يا إلهي، كيف يستطيع المرء أن يشرح تفاصيل مهمة سياسياً: ذلك أنَّ بصقتي انتهت إلى مكان أقرب إلى كريمب منه إلى ليني، وكيف تريد أن تثبت أنَّ المقصود من البصقة كان الهزء والسخرية؟ ما زال الصمت قاتلاً، وماذا تفعل ليني على حين يسود، لنقلْ، نوع من التوتر المخنوق والمشحون

بالخوف؟ ماذا تفعل؟ ترفع الفنجان الذي سقط في لين بسبب بقايا اللبد النباتي الموجودة هنا وهناك ولم ينكسر، إنها ترفعه وتمضي إلى صنبور الماء وتغسله في عناية وإتقان ـ كان الموقف استفزازياً وهي تغسله بعناية ـ، واعتقد، أنها من هذه اللحظة فعلت ذلك بتحدٍّ مقصود. يا إلهي، أنت تعرف أنَّ المرء يستطيع أن يغسل فنجاناً مثل هذا الفنجان بسرعة، ولا اعتراض عندي أنه سيغسله أيضاً غسلاً تاماً، أمّا هي فقد غسلته وكأنّه كأس مقدّس ـ ثم فعلت ما كان زائداً عن الحد ـ؟ جفّفت الفنجان أيضاً بعناية فائقة بمنديل جيب نظيف وتوجهت إلى إبريق قهوتها وصبّت الفنجان الثاني الذي كان فيه ـ إذْ أنَّ الابريق، كما تعلم، لم يكن يتسع إلاّ لفنجانين ـ، وتجلبه بكل ارتياح إلى الروسي من غير أن تنظر نظرة واحدة إلى كريمب. ولم تقم بذلك في صمت. لا، بل أنها قالت أيضاً: «تفضّل» الآن تعلّق الأمر بالروسي. فقد عرف هذا كم كان الموقف كله سياسياً ـ أقول لك إنه كان فتى عصبياً زائد الحساسية، بهذا كان يمكن أن يتخذ بعضهم منه أسوة لهم، شاحب الوجه بنظارته النيكلية المضحكة وشعره الأشقر الفاتح الأصفر الأجعد قليلاً، وكان الولد في مظهره أقرب إلى ملاك صغير. ـ ماذا يفعل، ماذا فعل؟ ولم يزل الصمت القاتل، وكل واحد يحس أنَّ شيئاً حاسماً يحدث هنا، فقد قامت ليني بواجبها ـ وماذا يفعل هو؟ إنه يأخذ القهوة ويقول بصوت عالٍ وواضح وبلغة ألمانية لا تشوبها شائبة:« شكراً يا آنستي» ـ وأخذ يشربها. قطرات عرق على جبينه، وعليك أن تتصوّر، وأغلب الظن أنَّ هذا لم يحصل منذ سنوات قليلة على قطرة من البن أو الشاي ـ فقد فعلت القهوة فعلها منه مثل حقنة في جسم مضني منهوك القوى، ولحسن الحظ فقد انتهى بذلك

الصمت القاتل المتوتر توتراً مخيفاً - وتتنفس هولتهونه الصعداء، ويدمدم كريمب بشيء من مثل‹ بولشفي - أرملة مقاتل - قهوة لبولشفي›، أما غروندتش فيضحك للمرة الثانية وأبصق أنا للمرة الثانية من غير ضابط بحيث كدت أصيب ساق كريمب الاصطناعية - وكان يمكن أن يكون هذا تدنيس حرمات. وتشخر المرأتان شيلف وفانفت وتنخران ثائرتين مغتاظتين، ويتنفس الآخرون الصعداء - وبذلك بقيت ليني بدون قهوة - وماذا تفعل إلزه كريمر؟ تأخذ من قهوتها وتصبّ لليني وتجلبها لها، بل إنها تتكلم في أثناء ذلك بصوت واضح وتقول: لا يمكنك أن تزدردي خبزك ناشفاً من غير أن تشربي شيئاً. كما أنّ قهوة إلزه كانت قهوة لا بأس بها أيضاً، إذ أنه كان لها أخ وكان هذا نازياً لا يستهان به وكان له منصب رفيع في أَنْتفيربْن وكان يجلب معه قهوة غير مطحونة. حسن. هذا ما كان. كانت هذه معركة ليني الحاسمة».

* * *

هذا المشهد الحاسم لليني في نهاية ٤٣ وبداية ٤٤ بدا للمؤلف مهمّاً جداً بحيث إنه أراد أن يجمع حول ذلك معلومات أخرى واسعة وأن يقصد مرة أخرى كل الذين بقوا أحياء بعد هذا المشهد. وبدا له في المقام الأول أن «مدة الصمت القاتل» لبيلتسر ذكرت بأنها طويلة جداً. ويذهب المؤلف إلى أنَّ هنا شيئاً أضفى عليه الطابع الأدبي، الأمر الذي يجب إيضاحه، إذ أنَّ «صمتاً قاتلاً بحسب رأيه وتجربته لا يمكن أن يستمر أطول من ثلاثين أو أربعين ثانية. والمرأة كريمر التي لا تنكر أخاها النازي وموردّ القهوة - تقدّر الصمت القاتل «بثلاث أو أربع دقائق»، وتقول

فانفت: «المشهد واضح في ذاكرتي وألوم نفسي إلى هذا اليوم أننا تركنا المسألة تمرّ على هذا النحو وبذلك أعطينا نوعاً من الموافقة على الأشياء التي جاءت ـ صمت قاتل؟ حريٌّ بي أن أقول، صمت مهين ـ وكم أستمر؟ إذا كان هذا يهمّك جداً: فإني أقول: من دقيقة إلى دقيقتين. وما كان يصحّ أن نسكت وما كان ينبغي أن نسكت. أولادنا في الخارج وقد بردوا وما انفكوا يلاحقون البولشفيين (لم تكن الحال هكذا في سنة ٤٤، في ذلك الوقت كان البولشفيون «يجدون في أثر أولادنا»، تصحيح تاريخي من قبل المؤلف)، وهذا يقعد هنا في الدفء ويحصل أيضاً من هذه العاهرة على قهوة نسبتها واحد إلى ثلاثة». وتقول هولتهونه: «أقشعر بدني، وتملكني نوع من الرعشة، رعشة الحمّى، وأستطيع أن أؤكد لك ذلك، وأسأل نفسي وكثيراً ما تساءلت فيما بعد: هل تدرك ليني ماذا فعلت يومئذ؟ لقد أعجبت بها، بجرأتها والبديهية وبالهدوء الرهيب الذي غسلت به الفنجان في أثناء هذا الصمت القاتل وجففته وما إلى ذلك ـ لقد كان، لنقل، كان في ذلك حرارة وإنسانية باردتان، لعن الله الشيطان ـ وماذا عن المدة، أقول لك، كان وقتاً أبدياً ـ سيان أكان هذا ثلاث أو خمس دقائق أو ثمانين دقيقة فقط. كان وقتاً طويلاً جداً، وأول مرة أحسست بشيء أشبه بالميل نحو بيلتسر الذي تبيّن أنه كان إلى جانب ليني وضد كريمب ـ أما عملية البصق فقد بدت إلى حدٍّ ما سوقية مبتذلة، لكنها كانت في تلك اللحظة الوسيلة الوحيدة الممكنة للتعبير ـ وكان واضحاً الشيء الذي عبّر عنه بذلك: لقد راودته نفسه أن يبصق في وجه كريمب، لكنه لم يتمكن من ذلك».

يقول غروندتش: «راودتني نفسي أن أهلّل عالياً: كانت الفتاة

جريئة وشجاعة. اللعنة، لقد خاضت من البداية المعركة الفاصلة ـ لم تعرف الشاب إلاً منذ ساعة ونصف أمضاهما في حيرة لدى فريق جسم الأكاليل ـ وما من أحد، حتى ولا الجاسوسة العجوز الشمّامة فانفت، كان سيتمكن من أن يتجنّى عليها بأنّ بينها وبينه شيئاً ما. فإنَّ ليني أوجدت لنفسها مرمى بندقية كبير قبل أن يكون هناك أصلاً شيء لإطلاق النار. ما من أحد استطاع أن يفسّر الشيء الذي فعلته تفسيراً آخر: سوى أنه إنسانية ساذجة خالصة، وهذه الإنسانية كانت محظّرة على أسافل الناس، ومع هذا، فأنت تعرف: لقد رأى هذا شخص مثل كريمب وهو أن بوريس **كان** إنساناً: كان له في الواقع أنف وساقان، لا بل كان يضع نظارة على الأنف، وكان أكثر حساسية من كل الأوغاد هنا معاً. إن بوريس هذا جعل منه إقدام ليني إنساناً وأعلنه إنساناً ـ وانتهى الأمر، رغم كل الأشياء السيئة التي كان لا بدَّ أن تأتي، كم استغرق هذا: آه، خيّل إليَّ أنه استغرق خمس دقائق على الأقل».

* * *

رأى المؤلف لزاماً عليه أن يبيّن بالتجربة الفترة الممكنة للصمت القاتل. وبما أن مكان العمل ـ إنه الآن في ملك غروندتش ـ لا يزال موجوداً، فقد كان في الإمكان القيام بقياسات: من طاولة ليني إلى طاولة بوريس: أربعة أمتار، ومن طاولة بوريس إلى صنبور الماء: ثلاثة أمتار، ومن صنبور الماء إلى طاولة ليني (حيث كان إبريق القهوة): متران ـ ومرة أخرى أربعة أمتار إلى طاولة بوريس: فيكون المجموع ثلاثة عشر متراً، وأغلب الظن أنَّ ليني قطعتها بهدوء كما يبدو، ولكن

من المؤكد أنها قطعتها بسرعة. ومما يؤسف له أنّه لم يكن في الإمكان إلاّ التظاهر بضرب الفنجان، ذلك لأنه لم يتوافر للمؤلف شخص مبتور الساق ولا عضو اصطناعي؛ ولم تكن هناك حاجة إلى التظاهر بغسل فنجان وتنشيفه ولا إلى صبّ القهوة: فهو ـ أي المؤلف ـ قام بالتجربة ثلاث مرات زيادة في الحيطة وليحقق المعدل الموضوعي المنشود. النتيجة: التجربة الأولى: ٤٥ ثانية، التجربة الثانية: ٥٨ ثانية، التجربة الثالثة: ٤٢ ثانية. المعدل: ٤٨ ثانية.

* * *

بما أنَّ المؤلف الذي يجب عليه أن يتدخّل هنا مرة أخرى بصورة استثنائية تدخّلا مباشراً يودّ أن يطلق على هذا الحادث مولد ليني أو إعادة ميلادها، باعتباره حادثة مركزية إذا صحّ التعبير، فليس تحت يده من المواد عن ليني أكثر من مثل تلك المادة التي تسمح بالتلخيص التالي على أكثر تقدير: ربما محدود بعض الشيء، مزيج من رومانسي وحسّي ومادي، وقراءة كلايست بعض الشيء وعزف على المعزف ومعرفة بعض عمليات الإفراز معرفة غير متخصصة إلاً أنها معرفة عميقة الأثر أو متأصلة في قرارة النفس؛ وإذا ما فهمها المرء هاوية أفسد عليها هذه الهواية (مصير إرهارد) وأرملة مخفقة، ثلاثة أرباعها طفل يتيم (الام ميتة والأب في السجن)، وإذا عدّها المرء شبه مثقفة أو غير مثقفة ـ فما من أحد يوضّح هذه الصفات المشكوك فيها ولا تركيبها، بداهة عملها في تلك اللحظة التي نريد أن نسمّيها معاً «ساعة فنجان القهوة». وطبيعي أنها اهتمت من أعماق قلبها وبشكل مؤثر في القلوب براحيل،

حتى تلك اللحظة التي طُمرت فيها هذه في حديقة الدير، على أنَّ راحيل كانت موضع سرّها وكانت أحبّ الناس إليها في طريق الحياة بعد إرهارد وهاينريش ـ فلماذا القهوة لأنسان مثل بوريس لفوفيتش الذي وضعته هي في موقف كبير خطير على الحياة، إذ في أي مأزق تورّط سجين حرب سوفييتي قدّمت له ألمانية ساذجة القهوة عندما تقبل هو هذه القهوة **ببداهة** وببساطة أيضاً (كما يبدو)؟ فهل عرفت أصلاً ما هو الشيوعي إذا لم تكن تعرف بحسب رأي مارغريت ماذا كانت تعني امرأة يهودية؟

أمّا فان دورن التي لم تعرف أيَّ شيء عن «ساعة فنجان القهوة» (والظاهر أنَّ ليني لم تعتبر الموضوع مهماً الأهمية الكافية، لكي ترويه لها)، ومارغريت ولوته أيضاً لم تعرفا شيئاً عن ذلك، فإنها تقدّم إيضاحاً بسيطاً نوعاً ما: «أنت تعرف أنَّ شيئاً واحداً كان دائماً بديهياً عند آل غروتن: وهو أنَّ القهوة كانت تقدّم لكل إنسان سواءٌ أكان متسولاً أو طفيلياً أو متسكّعاً، وسواءٌ أكان عميلاً محبوباً أو ممقوتاً. هذا شيء لم يكن له وجود، كل واحد كانت تأتيه قهوته. حتى آل بفايفر، وهذا له معناه. وعلى المرء أن يكون منصفاً، لا هو كان، وإنّما هي لم يكن لها معذرة في هذه القضية. فقد ذكّرني هذا دائماً بالبديهية التي كان يحصل بها كل واحد فيما مضى على مغرفة حساء عند بوابة الدير من غير أن يسأله المرء عن دينه أو يطالبه بأقوال متديّنة ورعة.

لا، كانت ستقدّم القهوة لكل إنسان، سواءٌ أكان شيوعياً أم غير شيوعي... وأعتقد أنها كانت ستقدمها لأسوأ نازي. وما كان هذا له وجود على الإطلاق ـ ومهما كان لها من أخطاء إلاَّ أنها كانت شخصاً أريحيّاً، هذا ما كانت إيّاه وكانت ودودة وإنسانية ـ اللّهمَّ إلاَّ في نقطة

معينّة، وأنت تعرف ما أعني، لم تكن ما كان هو في حاجة إليه».

* * *

هنا يجب تفادي الانطباع تفادياً شديداً وبتصميم تام كأنما كان هناك عند نهاية سنة الحرب ٤٣ ـ وبداية سنة ٤٤ في محل بيلتسر لصناعة الزهور شيءٌ مثل الميل إلى ما هو روسي أو الاغتباط بالسوفييت كان موجوداً أو كان ممكناً. وبديهيّة ليني لا يمكن تقويمها من الناحية التاريخية إلاّ تقويماً نسبياً، أمّا شخصياً فيمكن تقويمها تقويماً موضوعياً. فإذا فكّر المرء أن ألمانيين آخرين (قلائل) قد عرَّضوا أنفسهم لقاء امتيازات ضئيلة جداً للسجن والشنق أو لمعسكرات الاعتقال ونالوا، فإنّ على المرء أن يدرك أنّ المسألة هنا لم تكن مسألة عرض متعمدّ لإنسانية، بل مسألة إنسانيّة نسبيّة موضوعياً وذاتياً ولا يمكن أن ينظر إليها إلاّ من حيث ارتباطها بوجود ليني والمكان التاريخي. فلو كانت ليني أقلّ جهلاً (كانت قد أثبتت جهلها عند راحيل) لتصرّفت التصرّف نفسه ـ وإنّ أحداثاً لاحقة وأعمالاً قادمة ستحتمل هذا الاستنتاج ـ. ولو أنّ ليني لم تستطع أن تعبّر عن بديهيتها وبساطتها وحسّها السليم تعبيراً مادياً ـ وذلك بفنجان قهوة ـ لتحوّل هذا إلى لجلجة عطف حائرة، بل وأغلب الظن أن لجلجة تعاطف مخفقة كان يمكن أن تفسّر لها أسوأ من فنجان القهوة المقدّم كما في كأس مقدّس. ويحتمل أن غسل الفنجان بعناية وتجفيفه بعناية هيّأ لها مسرّة حسيّة: ولم يكن في ذلك شيء مقصود وبما أنّ التفكير عندها حتى الآن كان يأتي دائماً فيما بعد (لويس، إرهارد، هاينريش والراهبة راحيل والأب والأم والحرب)، ومن

بعد ذلك بوقت كثير، فليس في وسع المرء أن يفترض عندها أنّها لم تدرك إلاً متأخراً **الشيء الذي** كانت قد فعلته. لم تصب القهوة لسوفييتي فحسب، بل كانت قد قدمتها على الوجه الصحيح، كانت قد جنّبت هذا السوفييتيَّ مهانة وألحقت إهانة بألماني مبتور الساق. إنَّ ليني إذاً لم تولد أو لم تبعث من جديد في خمسين ثانية للصمت القاتل على وجه التقريب، فولادتها أو إعادة ولادتها لم تكن عملية كاملة، لقد كانت عملية متواصلة. وبتعبير مختصر: لقد عرفت ليني دائماً ما فعلت وعندما كانت تفعل ذلك. كان عليها أن تضفي طابع المادة على كلِّ شيء. ويجب ألاّ يغيب عن البال أنَّ ليني كانت تلك اللحظة في الواحدة والعشرين ونصف السنة تماماً. ويجب الإعادة أنها كانت شخصاً خاضعاً للافراز وبالتالي للهضم، وكانت غير مؤهلة كلياً لأنَّ تصعّد أيَّ شيء. فقد كمنت فيها القدرة على الوضوح الذي لا لبس فيه والتي لم تدرك ولم توقظ من قبل لويس ولم تتح الفرصة لإرهارد لكي يوقظها ولم ينتهزها. إنَّ الدقائق الثماني عشرة وحتى الخمس وعشرين على وجه التقريب دقائق إشباع وإرضاء شهواني ربما كانت قد شهدته مع لويس إنّما لم تعبئها التعبئة التامة لأنَّ لويس كان يفتقر أيضاً إلى القدرة على أن يرى المفارقة أنَّ ليني كانت شهوانية لأنها لم تكن شهوانية بكلّيتها.

* * *

ليس هناك إلاً شاهدان للحادثة الحاسمة: وضع اليد. بوجاكوف الذي وصفها وصوّر النتائج المتعلقة بالإفراز، وبيلتسر الذي يجب أن يوصف بأنه العارف والمطلّع الوحيد.

بيلتسر: «منذ تلك اللحظة كانت هناك قهوة للروسي بصورة منتظمة طبعاً، من جهتها، وإنني واثق مما أقول، عندما جلبت له القهوة في اليوم التالي ـ لكنه لم يعد موجوداً في فريق جسم الأكاليل، بل عند طاولة التزيين النهائي عند السيدة هولتهونه، وإني واثق مما أقول ـ أنَّ هذا لم يعد ساذجاً أو لا شعورياً، كما تشاء. إذ أنها قلّبت نظرها فيما حولها على نحو ظريف ولطيف وأخذت حذرها ـ، عندها وضعت يدها اليسرى على يده اليمنى، وسرت الرعشة في أوصاله، مع أنَّ العملية لم تدم إلاَّ وقتاً قصيراً جداً، سرت الرعشة في أوصاله مثل صدمة كهربائية. فقد ارتفع هذا وعلا تماماً كما في معراج. لقد رأيت هذا وأستطيع أن أقسم لك، ولم تعرف هي أنني رأيت ذلك، كنت أقف في مكتبي المظلم وكنت أنظر بانتباه إلى الخارج، لأنني أردت أن أرى كيف ستسير عملية القهوة. هل تعلم بماذا فكّرت، إنَّ لهذا وقْعَاً سوقياً مبتذلاً، أعرف، لكننا نحن البستانيين لسنا شديدي الحساسية كما يظن بعض الناس؛ خطر ببالي: اللعنة، إنها تبدأ ـ ياولد، إنها تبدأ، قلت في نفسي، وحسدت الروسي فعلاً وغرت منه. كانت ليني هذه كائناً أنثوياً تتصاعد شهوانية، ولم يهمها أنّه تقليدٌ أن يقوم الرجل بالمبادرة: هي قامت بذلك بأن وضعت يدها على يده. وإذا لم تعرف هي أيضاً تمام المعرفة أنه لم يستطع في موقفه أن يقوم بالمبادرة، فقد كان هناك كلا الأمرين: لقد كانت جرأة من الناحية السياسية والشهوانية، وأقرب إلى أن تكون صفاقة».

وعن كليهما (عن ليني من قبل مارغريت وعن بوريس من قبل بوجاكوف) نُقل حرفياً، وبالإجماع، أنهما كليهما «شبّت فيهما النار»

على الفور، وكما نعرف من بوجاكوف فقد حدث له ما يحدث للرجل، وكما نعرف من مارغريت فإنَّ ليني حدثت لها حادثة كانت «أجمل بكثير من حدث الخلنج هذا الذي رويته لك ذات مرة». ويعلّق بيلتسر على مواهب بوريس الفنيّة: «يمكنك أن تصدّقني أنني أعرف كيف أتعامل مع الناس وعرفت من اليوم الأول أنَّ بوريس، هذا الروسي، كان شخصاً عالي الذكاء ويتمتع بقدرات ومواهب تنظيميّة. وبصفة غير رسمية صار بعد ثلاثة أيام وكيلاً لغروندتش عند الاستلام النهائي. وكان هناك تفاهم بينه وبين هولتهونه وتسيفن اللتين كانتا مرؤوستين عنده من الناحية العملية. إلاَّ أنه لم يكن لهما أن تلاحظا طبعاً أنهما كانتا مرؤوستين عنده. كان على طريقته فناناً وكان قد فهم بسرعة إلى حدّ ما أيّ شيء كان مهماً: التوفير بالمواد. وما كانت هناك انفعالات عندما كانت المسألة مسألة كتابات على أناشيط ذات شرائط تزيينية لا بدَّ أنه كان قد كرهها نوعاً ما. ‹من أجل الزعيم والشعب والوطن أوفرقة الاقتحام ١١٢›، ولم يزعجه الاشتغال طوال النهار بصلبان معقوفة وعقبان سلطانية. وذات مرة سألته سؤالاً خاصاً في مكتبي حيث أدار فيما بعد إدارة ذاتية الشرائط التزيينية ومكتبة الشرائط: ‹قل لي، يا بوريس، بصراحة بماذا تشعر وأنت مع كل هذه الصلبان المعقوفة والعقبان السلطانية وما شابه ذلك؟› لم يتردّد ثانية واحدة في الإجابة. قال: ‹أيها السيد بيلتسر، بما أنّك سألتني بصراحة فأرجو ألاّ يزعجك إذا ما وجدتُ أنا أنَّ في هذا شيئاً من العزاء والسلوى، لا لأن تحسّ وتعرف. بل لترى أيضاً أن عناصر فرقة اقتحام أيضاً فانون. وما يتعلّق بالصلبان المعقوفة والعقبان السلطانية فإنني على وعي كامل لموقفي التاريخي›. ولم يكن

لي عنه ولا عن ليني غنى تقريباً، وأود أنْ أخصّ هذا بالذكر. فإذا كنت لم أساعده في أي شيء، إلاّ أن أكون قد أوجدت له تسهيلات ـ والشيء نفسه ينطبق على الفتاة ـ فقد كان لهذا أيضاً معنى تجاري. فأنا لست أبداً هذا الخيّر الحالم، ولم أدّعِ هذا قط . ـ والشاب كان عنده مفهوم رائع عن التنظيم وكانت لديه موهبة للتنظيم ـ وكان بينه وبين الناس تفاهم، وحتى فانفت وتسيفن أخذتا بمشورته لأنه كان يفعل ذلك بحذق ومهارة. أقول لك، كان سينجح في سياسة السوق الحرة. وطبيعي أنه كان مهندساً ويحتمل أنه عرف الرياضيات، لكنه كان أوّل من انتبه إلى ذلك، مع أني أدرت المحلّ نحو عشر سنوات وغروندتش كان له في المحل نحو أربعين سنة، وما من أحد منّا انتبه إلى ذلك، ولا هولتهونه الذكيّة عرض لها الأمر ـ، أنَّ الجسم ـ أعني فريق جسم الأكاليل ـ كان غير مزوّد بالعدد الضروري من العمال بالنظر إلى مردود طاولة التزيين، ولأنه كان هو وهولتهونه فريق استلام، ولا أحسن منه. إذاً: تعديل الخطة. فتعود تسيفن إلى طاولة الأجسام، ومع أنها تذمّرت بعض الشيء، إلاّ أنني عوّضت هذا بعربون، والنتيجة: تصاعد الإنتاج بنسبة يمكن إثباتها من ١٢ ـ ١٥٪. هل يدهشك أنه كان يهمّني أن أستبقيه وأن أعمل حسابي بألاّ يحدث له أيُّ شيء؟ وكان هناك أيضاً الرفاق الحزبيون الذين أعلموني تارة بصورة مباشرة وتارة بطريقة غير مباشرة وبالتلميحات بأنَّ عليَّ بأن أعمل حسابي بألاّ يحدث له أيُّ شيء، فقد تمتع هذا بحماية كبيرة. إذاً، لم يكن هذا بالأمر الهيّن؛ وإنَّ جاسوساً صغيراً حقيراً مثل كريمب، وفانفت المضطربة عصبياً ـ كان في مقدور هذين أن يقضيا على المحل. وما من أحد عرف، ولا ليني أيضاً، ولا حتى غروندتش، أنني

تخليّت له في بيتي الزجاجي الصغير الخاص عن ستة أمتار مربعة مسمّدة تسميداً جيداً من أجل التبغ والقثاء والبندورة».

* * *

فيما يتعلّق بالشهود الناجين من زمن صناعة الأكاليل الحربية فإنَّ على المؤلف أن يعترف أنّه فضّل طريقاً أقلَّ مقاومة وأنه زار الشهود مراراً وتكراراً وفقاً لانفتاحهم وإمكانية الوصول إليهم. وبما أنَّ فانفت أدارت له ظهرها في الزيارة الثانية على نحوٍ أكثر تحدياً واستفزازاً مما كانت عليه في الزيارة الأولى فلم يحسب لها حساباً وصرف النظر عنها. وبما أنَّ بيلتسر وغروندتش وكريمر وهولتهونه منفتحون على حدّ سواء وميالون إلى كثرة الحديث على حدّ سواء، ولو أنَّ هولتهونه أقلُّهم حديثاً ـ، فقد صعب الاختيار؛ والشيء المغري عند هولتهونه كان الشاي الفريد من نوعه والأثاث الذي نمَّ عن ذوق دقيق، فضلاً عن حسنها الذي أحسنت الحفاظ عليه والعناية به، وكذلك أيضاً ميولها الواضحة إلى الانفصالية، هذه الميول التي شملت الحاضر، والشيء الوحيد الذي تركه يتردد عند هولتهونه كان منفضتها الصغيرة ونفورها البيّن ممّن يكثرون التدخين ويدخّنون السيجارة تلو السيجارة.

«حسن إذاً، إنَّ لبلدنا (والمقصود بذلك إقليم شمال الراين ـ فستفاليا المؤلف) أعلى دخل ضريبي ويدعم أقاليم اتحادية ضعيفة بضرائبها ـ ولكن هل سبق أن خطر ببال أحد أن يدعو إلى هنا الناس من أقاليم ضعيفة بضرائبها، وليكن على سبيل المثال إقليم شليزفيك ـ هولشتاين وإقليم بافاريا، لا ليبتلعوا قروشنا الضريبية فحسب، بل

الهـواء الملوث أيضـاً، ذلك الهـواء الذي هو أحد الأسبـاب فـي أنَّ مـالاً كثيراً يتم ربحه هنا ؟ وأن يشربوا مـاءنا الكريه الباهت ـ وكـيف ستكون الحال لوجاء البـافـاريـيـون ببـحيراتهم النظيـفـة جداً وجاء الهـولشتـاينيـون بشطآنهم لكي يستـحـمـوا في نهـر الرايـن الذي سيـخـرجـون منه ثانيـة مقيّرين وربّما ملولبين، مزوّدين باللولب أيضاً. ثمّ انظر إلى شتراوس هذا الذي لا تتـألف سيرته المهنيـة كلها إلاّ من حالات غيـر واضحة، وأقـول، غير واضحة، وإلى ذلك أقول، غـامضة لأن هذا يعني الشيء نفسه ـ وكم يسبّ هذا إقليـمنا (شمال الراين ـ فستفاليـا ـ المؤلف)، والزبد يعلو فـمه تقريباً ـ فلماذا إذاً؟ لأنَّ الأمور تسير هنا على نحو أكثر تقدماً. وعلى المرء أن يجبـر شتـراوس هذا على أن يسكن مع الزوجة والأطفـال ثلاث سنوات في دويسبورغ أو دور مـاغن أو فيـسيـلينغ لكي يعـرف من أين يأتي المال وكيف يكسبه المرء ـ المال الذي يحصّله ويجمعه ثمَّ يسبّ عليه لأنَّ لدينا هنا حكومة إقليمية وإن لم تكن ساحرة باهرة، إلاّ أنها مع ذلك ليـست على الأقل الحـزب المسـيـحي الديمقـراطي ولا بأثر من الحـزب المسيحي الاجتماعي ـ أنت تعرف ما أقصد؟ فلماذا ينبغي عليَّ أن أحسّ هنا< بشعـور التـضـامن>. لماذا؟ هل أسّست أنا الرايخ، وهل سبق لي أن وافـقت على أن يتـأسّس؟ لا. ومـاذا يهمنا هذا الذي فـوق أو تحت أو في الوسط؟ مـا عليك إلاّ أن تفكّر كـيـف تورطنا نحن في هذا الاتحـاد؟ كل هذا بواسطة هؤلاء البـروسـيين الملاعـين ـ مـا عـلاقـتنا بهـم؟ من ذا الذي بـاعنا فـي سنة ١٨١٥؟ هل نـحن بالـذات؟ فلـو أردنا لـكان هناك شـيء مـثل التـصـويت؟ لا، أقـول لك. وعلى شتـراوس أن يسـتـحم فـي الراين ويتنفس فـي دويسبـورغ ـ لكنه يبقى في جوّه البـافـاري السليم ويغـمغم

غضباً حين يهذي بسخافات عن (الراين والرور). مالنا ولهذه العناصر الاقليمية الغامضة؟ أليس عندنا أشياؤنا الغامضة؟ فكرّ بذلك؟ (وقد وعد المؤلف بذلك). لا، فأنا إنفصاليه وسأبقى إنفصالية، ولا مانع عندي أن يأتي بعض الفستفاليين، إذا دعت الضرورة، ولكن أي شيء سيجلبه هؤلاء لنا؟ الاكليروسية، النفاق وربما البطاطا ـ لا أعرف تماماً أيّ شيء يزرعون هناك، ولا يهمني هذا أيضاً ـ والغابات والحقول ـ ليكن، فأنا لا أستطيع أن آخذ هذه أيضاً معي إلى البيت ـ فهذه تبقى حيث هي ـ لكن لا مانع من وجود بعض الفستفاليين. لا أكثر. فهؤلاء مستاؤون على الدوام ويحسون بأنهم مظلومون، ولهذا يتذمرون ويشاكسون بسبب <نسبة زمن الارسال> وما شابه ذلك من نقنقة. لا شيء إلاّ النكد مع هؤلاء. وهذا هو الشيء الرائع في ليني أنها كانت تنتمي إلى منطقة الراين أيّما إنتماء. وعليَّ أن أقول لك شيئاً، وبالتأكيد ستعدّه مضحكاً: وهو أنَّ بوريس بدا لي أنه يتحلّى بطابع منطقة الراين أكثر من الآخرين، باستثناء بيلتسر الذي كان عنده خليط من الإجرامية والإنسانية، كما لا يحتمل هذا إلاّ هنا. صحيح أنه لم يلحق الأذى بأيّ شخص كان، اللهم إلاّ بكريمب الذي سامه سوء العذاب حيثما استطاع، وبما أنَّ كريمب هذا كان نازياً فقد رأى المرء أنَّ بيلتسر لم يكن انتهازياً، على أنَّ هذا كان عين الخطأ: إذ أنه بالنظر إلى نسب الأغلبية كان انتهازياً في أن يضطهد كريمب دون غيره ويعنته ـ إذ أنَّ هذا لم يكن محبوباً، حتى عند كلا النازيين الآخرين، لقد كان شخصاً لا يريح يطارد النساء بطريقة منفّرة بشعة. ولكن عليَّ أن أحاول إنصافه، لقد كان شاباً وكان قد فقد في سنة ١٩٤٠ ساقه وهو في العشرين من

عمره. ومن ذا الذي يودّ أن يصبح واضحاً أو يستوضح أنَّ المسألة كانت في نهاية المطاف لا طائل تحتها أو أنها عديمة الجدوى؟ يجب أن نكون على بيّنة من أنَّ هؤلاء الشباب قد تمَّ الاحتفاء بهم في الأشهر الأولى مثل الأبطال وأحاطت بهم النساء ـ ثمَّ كلما طالت الحرب صارت الساق المقطوعة أكثر من عادي وأكثر ابتذالاً. وفيما بعد اتيحت لمن كانت له ساقان فرص أكثر ممّن كان له ساق واحدة أو لا شيء. إنني امرأة متنوّرة وتقدميّة وأشرح لك الحالة الجنسية والشهوانية والموقف النفسي لهذا الشاب هكذا وإلاَّ فلا. يا إلهي. ماذا كان شخص مبتور الساق في بداية ١٩٤٤؟ لم يكن إلاَّ خنزيراً بائساً له معاش تافه ـ وتصوّر كيف تكون الحال عندما يفكّ واحد مثله الساق في الموقف الجنسي الحاسم؟ فظيع، بالنسبة إليه ولشريكته ولو كانت عاهرة. (يا لله، هذه الشاي الرائعة عندها، وهل ينبغي على المؤلف أن يحمل هذا محمل تصريح بالعطف والميل أنَّ المنفضة كان لها في أثناء الزيارة الثالثة حجم طبق فنجان صغير؟ المؤلف) ثم إنَّ بيلتسر هذا الصحيح الجسم الذي يمكنك أن تتخذه مثالاً **للعقل السليم في الجسم السليم**، وهذا شيء لا تجده إلاَّ عند الإجراميين، وأقصد الناس المعدومي الضمير. أقول لك إنَّ انعدام الضمير يحسّن الحال. فهو لم يترك صفقة تفلت منه، ولا صفقة. فمع الحراس الذين كان يأتون ببوريس في الصباح ويصحبونه في المساء عقد صفقات وتاجر فيما تاجر بالكونياك والقهوة والسجائر ـ وهؤلاء كانوا يسافرون كل أسبوع تقريباً بصفة مرافقي نقل إلى فرنسا وبلجيكا وكانوا يجلبون معهم الكونياك والقهوة والسجائر صناديق صناديق، وكذلك الأقمشة، لا بل كان في وسعهم أن يطلبوا عند هؤلاء الأشخاص بضائع كما في أيِّ

متجرٍ حقيقي. وإنَّ أحدهم، وكان يدعى كولب وكان قد جاوز مرحلة الشباب، وكان بالمناسبة على جانب من القذارة، قد جلب لي معه ذات مرة مخملاً لثوب كامل من أَنْتَفيرْبن، والآخر، وكان اسمه بولديغ وكان أصغر سنّاً، وعدمياً مرحاً، مثلما تمَّ انتاجهم بالعشرات في بداية سنة ١٩٤٤. شاب مرح خفيف الروح وكانت له عين زجاجية ويد مبتورة، وصدر جندي مزيّن بنيشان ظريف وقامر في خبث بعينه المفقودة ويده المبتورة والفضيّة على صدره ابتغاء مصلحته مثلما يقامر المرء بفيشات القمار. ولم يكن يهمه الزعيم والشعب والوطن، لا كما كانوا بالنسبة إليَّ، إذ أنني في نهاية المطاف، وحين استطعت أن أستغني عن الزعيم برحابة صدر، أؤيد وطناً منسوباً إلى الراين وأؤيد الشعب المنسوب إلى الراين. أمّا هذا فقد هان عليه الأمر أنْ يذهب إلى الخلف إلى البيت الزجاجي بصحبة المرأة شيلف التي كانت أكثرنا حلاوة بعد ليني‹ ليصطاد فأرة ›معها، كما سمّى هو ذلك، أو ‹ليستمعا إلى غناء قَرْقَفٍ›، والظاهر لكي ينتقي لها بنفسه بضع زهرات بموافقة بيلتسر. وكانت لديه أسماء عديدة لذلك. ليست سمجة أو ثقيلة ـ اللهّم إلاّ: التهكمية والعدمية كانت بشعة ومنفرّة بعض الشيء. وكان هو أيضاً ذلك الذي حاول دائماً أن يُنفِّس عن كريمب بعض الشيء، فكان يدس له تارة بعض السجائر وتارة كان يربت على كتفه ويردد بصوت عالٍ الشعار الذي عمَّ وشاع آنذاك:‹ تمتّعْ بالحرب يا عامل المنجم، فالسلم يصبح مخيفاً›. أما الآخر المدعو كولب، فقد كان شخصاً مقيتاً سمجاً، ملاطفاً متلمّساً، وفيما يتعلق ببيلتسر ـ وبتعبير معاصر: نظراً للوضع في سوق الدفن تكوّنت بطبيعة الحال سوق سوداء لكل شيء، لأكليل وشرائط تزيين

وزهور ونعوش، وطبيعي أنه حصل على حصة لقاء أكاليل المتنفذين والأبطال وضحايا القنابل. فمن ذا الذي يرغب في أن يدفن موتاه الأعزاء من غير إكليل. وبما أنَّ جنوداً ومدنيين أيضاً كانوا يموتون أكثر وأكثر فلم تستعمل النعوش مرات ومرات فحسب، بل إنها لم تستعمل إلاّ أشكالاً مصطنعة: فالميت في حينه كان يوارى التراب عن طريق غطاءٍ مثبت من جهة، وقد خيط في داخل قماش شراع، وفيما بعد في خيش، وبعد ذلك فإنّه لم يُلفَّ إلاّ لفّاً. وكان المرء يترك الشكل المصطنع للنعش حيث هو فترة لياقة معينة، لا بل كان المرء يغطيه في الظاهر بطبقة رقيقة من التراب، ولكن ماكان ذوو الميت المحزونون قد ابتعدوا بما فيه الكفاية ومعهم فرقة تأدية التحية ومحافظ المدينة والمتنفذون الحزبيون ـ لنقل ـ وكما سمّاها بيلتسر، ما كان «المشيّعون المتعذّر اجتنابهم» قد ابتعدوا كفاية وصاروا بعيدين عن مدى النظر، حتى كان الشكل المصطنع للنعش يسحب وينظف ويصقل قليلاً، ثم يردم القبر بسرعة ردماً كاملاً ـ أقول لك بسرعة، كما هي الحال في دفن يهودي. وكان المرء سيقول: الذي عليه الدور، كما هي الحال عند الحلاّق. كان طبيعياً ومنطقياً أنَّ بيلتسر الذي أفلت من رسوم الاستعارة للنعوش ـ وكل توافه الدفن المربحة، قد خطر بباله أنَّ المرء يستطيع أن يستعمل الأكاليل أيضاً عدة مرات، وإنَّ استعمال الأكاليل مرتين وثلاث مرات، بل خمس مرات في بعض الأحيان، لم يكن ممكناً من غير رشوة أو تعاون مع حراس المقبرة. فعدد الاستعمالات المتكررة كان وقفاً على ثبات المادة المخصصة لجسم الإكليل والغصنة ونباتات الربط ـ وفضلاً عن ذلك كانت فرصة لمشاهدة طريقة العمل والعمل غير المتقن للمحل المنافس على أدقّ

ما يكون. وتطلّب هذا بطبيعة الحال تنظيماً وشركاء ـ ونوعاً من الكتمان ـ ولم يستطع أن يقوم بذلك إلاً هو نفسه مع غروندتش ولينى ومعي أنا ومع كريمر ـ، واعترف: أننا شاركنا. هنا ظهرت أحياناً أكاليل من مشاتل ريفية ذات جودة حقيقية لما قبل الحرب. ولكي لا يلاحظ الآخرون أي شيء سُميَّ الكلُّ ‹فريق التجديد والإصلاح›. وجرى هذا أخيراً إلى حد شرائط الزينة. وفطن بيلتسر في النهاية إلى هذا ووجّه الزبائن في أثناء الطلب بحيث إنَّ الكتابات ازدادت فرديتها تناقصاً، وبهذا تزايدت فرص إعادة استعمال الشرائط. وإنَّ كتابات من مثل (أبوك، أمك) يمكن استعمالها كثيراً نسبياً في الحرب، وحتى كتابة فردية نسبية (المخلص كونراد) أو (المخلصة إنغريد) لها فرصة معينة عندما يكوي المرء الشريطة ويجدّد الألوان والكتابة قليلاً ويضع الشريطة في خزانة الشرائط إلى أن تحين اللحظة، ويكون على واحد اسمه كونراد أو على واحدة اسمها إنغريد أنْ يندبا شخصاً ما. وأحب قولٍ مأثور لبيلتسر في ذلك الحين وفي كل حين هو: الدواجن وصغار الماشية أيضاً تصنع روثاً (صغار الأمور تلقي دلوها بين الدلاء). وفي النهاية خطرت ببال بوريس فكرة أثبتت أنها مربحة إلى حدٍّ ما، خطرت بباله الفكرة ـ ولا يمكن أن يكون قد عرف هذا إلاً بحكم معرفته بالأدب الغث الألماني ـ وهي إعادة كتابة قديمة على الشرائط: ‹محبوب ومأسوف عليه وخالد لا ينتسى› وصار هذا ما سيسميه المرء اليوم الأكثر رواجاً، و: كان في الإمكان استعمال هذا زمناً طويلاً ـ إلى أن صار متعذّر إصلاح الشريط وكيّه. حتى إنَّ كتابات فردية للغاية مثل‹ المخلصة غودولا ›تمَّ الحتفاظ بها».

تضيف كريمر: «أجل، هذا صحيح، وبهذا شاركت أنا أيضاً. وعملنا

نوبة عمل خاصة لكي لا يلفت هذا النظر. كان يقول دائماً إنه ليس انتهاكاً لحرمة المقابر وإنه يحصل عليها من كومة القمامة. ولم يكن هذا ليهمني. فقد عاد علينا هذا بعلاوة مالية محترمة، وفي النهاية، أكان هذا منكراً؟ وما النفع وما الجدوى حين تذبل الأكاليل على كومة القمامة. وأخيراً وصل الأمر إلى بلاغ بسبب انتهاك حرمة المقابر وسلب الموتى، إذ أنه كان هناك أيضاً ناس استغربوا حين عادوا بعد ثلاثة أو أربعة أيام ولم يجدوا أثراً للإكليل ـ إلاَّ أنَّ هذا كان لطفاً منه، إذ أنه أبعدنا عن الموضوع كلياً، فقد ذهب وحده إلى المحاكمة وتحمّل كل شيء، لا بل إنه أبعد غروندتش عن القصة، وكما علمت من أحد معارفه، وحاجَّ بكياسة ومهارة هذا البعبع الوطني الذي سمّاه المرء‹ قبر القروش›، واعترف ‹بنوع من الأعمال الخرقاء›، وتبرّع بألف مارك لدور الشفاء ـ والحق أنها لم تكن محكمة حقيقية بمعنى الكلمة، وإنّما كانت لجنة نقابية، وفيما بعد كانت محكمة مخزية حزبية ـ، إنّما قال، كما روى لي أحد معارفي: ‹سادتي، الرفاق الحزبيون والرفاق الحزبيات، إني أقاتل على جبهة يجهلها معظمكم ـ وعلى جبهات يعرفها كثيرون منكم خير مما أعرفها أنا، ألا يغضّ المرء النظر أيضاً في بعض الأحيان؟› وبعد ذلك تخلّى عن ذلك كلياً فترةً من الزمن حتى نهاية سنة ٤٤، يومها كانت الفوضى العامة كبيرة جداً بحيث إنَّ المرء لم يعد يلقي بالاً إلى أشياء ثانوية مثل الأكاليل والشرائط».

V

بما أنَّ دعوات غروندتش الشيخ كانت حارة وصادقة جداً وقائمة بصورة دائمة فقد زاره المؤلف عدّة مرات على التعاقب، واستمتع معه بالهدوء السماوي حقاً الذي يسود مقبرة مغلقة في أمسيات دافئة من أمسيات أواخر الصيف، والشيء المستشهد به هنا حرفياً عن غروندتش هو النتيجة الملخّصة لنحو دورات اجتماع بدأت كلّها بانسجام وتجاوب وانتهت بانسجام وتجاوب. أولى دورات الاجتماع هذه حدثت على مقعد خشبي تحت شجيرة بيلسان والثانية على مقعد خشبي تحت شجيرة دفلى، والثالثة على مقعد خشبي تحت شجيرة ياسمين، والرابعة على مقعد خشبي تحت شجيرة سيتيسوس (وغروندتش الشيخ يحب التغيير ويزعم أنَّ هناك مزيداً من المقاعد تحت الشجيرات والتي يمكن التصرّف بها)، وفي أثناء هذه الجلسات تمَّ تدخين التبغ وشرب الجعة، وفي بعض الأحيان أنصت المرء إلى ضوضاء الشارع التي تفعل فعلها من مكان بعيد جداً وعلى نحو لطيف إلى حدّ ما.

خلاصة الزيارة الأولى (تحت شجيرة البيلسان): «الحق أنه لفكاهة وظرف حين يتحدث صاحبنا فالتر عن فرص اقتصادية. إذ أنه كان قد انتهز هذه الفرص بصورة دائمة، حتى حين كان في التاسعة عشرة حيث إنه كان في إحدى سرايا المعدات الحربية في الحرب العالمية الأولى. سرايا معدات حربية؟ ـ لنقل إنَّ هذه كانت تعزّل ميادين القتال حين انتهاء

المعركة ـ إذ أنه كان يوجد هنا الكثير الذي كان في الإمكان جمعه وكان يمكن أن يكون ذا فائدة للجيش: مثل الخوذات والبنادق والمدافع الرشاشة والذخيرة وحتى المدافع، وكل مطرة ترفع وكل قبعة ضائعة وكل حزام وهلمّ جرا ـ، وطبيعي كان هناك موتى، وفي أغلب الأحيان يكون لدى الموتى شيء ما في الجيوب: صور، رسائل ـ محافظ وفيها أحياناً مال، وروى لي زميل من زملاء فالتر، وهذا لم يتورّع عن شيء، ولا حتى عن الأسنان الذهبية، ولم تكن لتهمّه جنسية الأسنان الذهبية ـ وأخيراً ظهر أيضاً الأمريكان آنذاك أول مرة على ساحات قتال أوربية ـ، وأثبت صاحبنا فالتر أول مرة على الجثث ما يسمّيه هو نفسه الحسّ التجاري. وطبيعي أنَّ هذا كان ممنوعاً منعاً باتاً، لكن الناس ـ وآمل ألاَّ تكون أنت أيضاً منهم ـ كثيراً ما يرتكبون الخطأ بالإعتقاد أنَّ ما هو ممنوع قد يترك. وهذه هي قوة فالتر: فهو لا يبالي بالتعليمات والقوانين، همّه فقط ألاّ يضبط متلبّساً. الحقيقة أنَّ الولد عاد بثروة لابأس بها من الحرب العالمية الأولى وهو ابن تسع عشرة، وبرزمة لابأس بها من الدولارات والجنيهات والفرنكات البلجيكية والفرنسية ـ وبصرّة لابأس بها من الذهب. وأثبت حسه التجاري بأنْ أثبت أنّ له حاسة، حاسة شم رائعة للعقارات والأراضي المزروعة وغير المزروعة، ولا أعني غير مزروع بمعنى البستنة بل بالمعنى التجاري، واقتنى عند الضرورة أراضي مزروعة. وفي تلك الفترة كانت الدولارات والجنيهات ذات فائدة، وكانت الحقول على الشاطىء رخيصة جداً، هنا مشتل وهناك مشتل، وبقدر الإمكان على الطريق الرئيسي الهام الذي يخرج من المدينة، عدة بيوت صغيرة لأرباب مهن وتجار مفلسين في مركز المدينة. ثم انصرف صاحبنا

فالترشين إلى العمل السلمي، إن شئت: فقد استخرج جثث جنود أمريكانيين من القبور ووضعها في توابيت من الزنك من أجل نقلها إلى أمريكا ـ وهنا كان لا بدَّ من القيام بالأشياء الكثيرة اللامشروعة والمشروعة على حدّ سواء، إذ أنَّ المنبوشين أيضاً كان لهم أحياناً أسنان ذهبية؛ والأمريكان بخوفهم الصحي الشديد دفعوا لهذا العمل أجوراً خيالية، فكان هناك مرة ثانية دولارات مشروعة وغير مشروعة في زمن فقير بالدولارات، وكان هناك من جديد بعض الأراضي لصاحبنا، بعض القطع الزراعية الصغيرة، وفي هذه المرة في مركز المدينة حيث أفلس تجار مواد غذائية صغار وأرباب مهن».

خلاصة الحديث تحت شجيرة الدفلى: «كان فالتر في الرابعة حين التحقت وسني أربع عشرة عند بيلتسر الشيخ في التدريب المهني، ونحن كلنا ووالداه أيضاً، أسميناه فالتر شن (فالتر الصغير) ـ وبقي هذا الأسم عالقاً به. كان والداه لطيفين، وكانا على شيء مزعج من التقوى المفرطة، دائماً في الكنيسة وغير ذلك، أما هو فكافر عن معرفة وإدراك، وإذا استطعتَ أن تتصوّر أيّ معنى كان لهذا في سنة ١٩٠٤. طبيعي أنه قرأ نيتشه وقرأ ستيفان جيورجه، ولم يكن بغريب الأطوار، إلاَّ أنه كان عنده قليل من الوشّ، فلم يكن مهتماً بصورة خاصة بالتجارة، بل انحصر اهتمامه في المستنبت والتجارب المشروحة بعبارة جديدة خير شرح: فلم يبحث عن الزهرة الزرقاء فحسب، بل بحث عن الزهرة الجديدة أيضاً، وكان منذ البداية في حركة الشبيبة، ولقد سحبني معه أيضاً: وفي وسعي أن أغنّي لك حتى اليوم كل المقاطع من ‹العمال› (وغنّى غروندتش:) «من يستخرج الذهب؟ من يطرق الحديد والحجر؟ من ينسج القماش

والحرير؟ من يزرع القمح والكروم؟ من يعطي الأغنياء خبزهم ويعيش من شقاء مرير؟ هؤلاء هم العمال، البروليتاريا. مَنْ يكدّ من الصباح الباكر حتى آخر المساء؟ مَنْ يوجد للآخرين كنوزاً وراحة وبهاء؟ مَنْ يدفع وحده عجلة العالم وليس له لقاء ذلك أيُّ حقّ في الدولة؟ هؤلاء هم العمال، البروليتاريا».

إذاً، التحقت عند هاينز بيلتسر صبياً في الرابعة عشرة من آيفلدورف، أشدّ الأماكن بؤساً وشقاء، وفي وسعك أن تتصوّر هذا. وأعدّ لي غرفة صغيرة في البيت الزجاجي، بسرير وكرسي وطاولة، بجوار المدفأة ـ وحصلت على الطعام وقليل من المال ـ، وهو نفسه لم يبق عنده شيء للأكل ولم يبق عنده مال أكثر مني. كنا شيوعيين، من غير أن نعرف هذه الكلمة، ومن غير أن نعرف حق المعرفة ما هي. أما آديلهايد، زوجة بيلتسر، فقد أرسلت إليّ طرداً حين كان عليَّ أن أمضي إلى بروسيا ١٩٠٨ ـ ١٩١٠، وطبيعي إلى أين: إلى الوطن البارد، أرسلوني إلى برومبيرغ؛ وإلى أين كنت أسافر حين كنت أذهب في إجازة: ليس إلى الوطن، إلى هذه القرية البائسة الموحشة التي سيطر عليها القساوسة، بل كنت أسافر إلى بيلتسر، وفالتر الصغير كان يلعب دائماً بين أقدامنا في المراعي والحدائق الرحبة والبيت الزجاجي، ولد صغير جميل وهادىء، لا ودوداً ولا فظاً. وعندما أفكر تفكيراً سليماً بما جعله يختلف عن أبيه، كما أتعرف: الخوف. كان عنده خوف. وكانت هناك دائماً مشاكل ومتاعب مع محضرين وكمبيالات غير مجدية، وأحياناً جمعنا نحن بعض المعاونين مدخراتنا الضئيلة لكي نتفادى أسوأ الأمور. لم تكن البستنة تجارة رائعة قط، فلم تصبح تجارة رائعة إلاّ منذ أنْ غزا

وهم الزهور أوربا كلها. وكان هاينز بيلتسر لا يزال يقتفي أثر زهرته الجديدة. كان يرى أنَّ العصر الجديد يحتاج إلى زهرة جديدة، فقد تراءى له شيء جنوني لم يجده قط، مع أنه اشتغل سنوات طويلة بقدوره ومستنبتاته متكتماً متستراً مثل مخترع، فسمّدها وقصّها وخلطها: ولم ينتج عن ذلك إلاّ زهور خزامى متنكّسة أو ورود متنكسّة، هجناء كريهون. أما فالتر الصغير، حين التحق بالمدرسة في السادسة من عمره، فكان في رأسه كلمة واحدة، الكلمة (منفّذ) ـ وكانت اختصاراً للمحضر ومأمور التنفيذ. ‹ماما، هل يأتي المنفذّ اليوم؟ بابا، هل يأتي المنفّذ اليوم مرة ثانية؟› الخوف، أقول لك، الخوف جعله هكذا كما هو. وطبيعي أنه أخفق في الثانوية، ولم يكن أكثر من طالب في الصف الثالث الإعدادي، والتحق على فوره بالتدريب المهني، وحصل على صدريته الخضراء وتخرّج، كان هذا في سنة ١٩١٤، وإذا ما سألتني: ففي سنة ١٩١٤ انتهى مجرى حياة بيلتسر في الثانوية، وانتهى كل شيء، كل شيء. كنت في الرابعة والعشرين، وأعرف ما أقول: فقد انتهى أيّ نوع من الاشتراكية في ألمانيا. انتهى. وهؤلاء الأغبياء تركوا قيصرهم الخرع المتملّق يضحك على ذقونهم لهذا الحدّ! وهاينز، أبو فالتر، فهم هذا أيضاً، وضحّى في النهاية بتجاربه غير التخصصيّة. وكان عليه أن يلتحق أيضاً بالجيش ويتجنّد، مثلي أنا ـ وكلانا، وأستطيع أن أقول لك بدافع الغضب، صار عريفاً، بدافع الغيظ والسخط والأسى، والحنق. لقد كرهتهم، كرهت هؤلاء المجندين المستجدين الأرانب أكباش الفداء الذين انخرطوا في الجيش، متربّين في أدب، خاضعين، ومخدوعين وفي حال سيئة جداً. كرهتهم وانهكتهم في الطابور. أجل، صرت رئيس عرفاء

ودرّبتهم مجموعات وأفواجاً من ثكنة هاكيتوير التي كانت مثل الثكنة في برومبيرغ تماماً، وبالتفصيل ـ، بحيث إنه كان في وسعك أن تجد في النوم حجرة المكتب الخاصة بالسرية الثالثة كما في برومبيرغ ـ، دربتهم مجموعات مجموعات وأرسلتهم إلى الجبهة. وفي المحفظة صورة صغيرة لروزا لوكسيمبورغ. حملتها معي مثل صورة قدّيس. واهترأت فيما بعد من كثرة الاستعمال مثل صورة قدّيس. ثم إني لم أكن في مجلس الجنود، لا: ففي سنة ١٩١٤ انتهى التاريخ الألماني في نظري ـ وقتلوا طبعاً روزا لوكسيمببورغ، أو أوعزوا بقتلها، السادة الاشتراكيون الديمقراطيون ـ، والتحق فالتر في الحرب، والشيء الوحيد الذي ربما كان سليماً وصحيحاً هو: جمع الأسنان الذهبية وقبض الدولارات. وكانت أمه، آديلهايد، امرأة لطيفة، لا بل إنها كانت جميلة ذات مرّة، لكنها ذبلت مبكراً، الأنف مدبّب وموردّ، والسرار القاسي العابس حول الفم والذي لا أطيقه عند النساء فقد وجدته عند جدّتي وعند أمي، هذه الوجوه الجميلة لم يبق لها إلاّ المعاناة، والتعبير عن التبرّم، ولا تستجيب إلاّ للقساوسة الملاعين وتمضي صباحاً إلى القدّاس الصباحي وتنطلق في العصر بالسبحة ومساءً بالسبّحة أيضاً مرة أخرى ـ وكان علينا أن نؤمَّ الكنيسة كثيراً إلى حدٍّ ما أو أن نمضي إلى المقبرة لأننا كنّا قد أقمنا مركزاً لإعارة براميل من النخيل، وهنا أفادتنا علاقات آديلهايد الكنسية كثيراً وفي أثناء احتفالات النادي واحتفالات المصنع وما إلى ذلك ـ، وكنت أفضل أن أبصق على المذبح، إلاّ أنني لم أفعل ذلك حبّاً بآديلهايد... وبعد ذلك بدأ هاينز يسكر أيضاً... وفي استطاعتي أن أفهم أنَّ فالتر الصغير كان يترك البيت في كثير من الأحيان، وكان ينبش

موتى أمريكانيين، ومن ثم التحق لمدة ستة أشهر بكتيبة متطوعين، وأظن في سيليسيا، ثم مكث فترة من الزمن في المدينة وأخذ يلاكم، محترفاً، على أنَّ هذا لم يدم طويلاً، ثم اتجر بالأعراض قليلاً ـ في أول الأمر لدى مومسات رخيصات جداً لقاء فنجان قهوة بعشرين بفينيكاً، وفيما بعد لدى مومسات أرقّ وأظرف وأبرز ـ، ثم صار شيوعياً، عضواً حقيقياً، ولكن ليس لوقت طويل... لم يتكلّم كثيراً، ولم يزعجه أيضاً أنَّ عقاراته لم تدرَّ الكثير، لم يقم بأعمال البستنة إطلاقاً، ذلك لأن هذا يوسّخ الأيدي ويتلف حزوز البشرة ـ وصاحبنا فالترشن كان ممتازاً دائماً وظريفاً جداً وكانت تهمه الصحة دائماً: ففي كل صباح كان يقوم بالجري الصباحي، ويتدوّش بعد ذلك بالماء الساخن والبارد، وكان الفطور في البيت بسيطاً جداً بالنسبة إليه، قهوة ملت (قهوة خفيفة رديئة) ومربّى مصنوع من أربعة أنواع فاكهة، هنا كان يهرع على فوره إلى مقهى مومساته حيث كان يؤتى له بالبيض والقهوة والكونياك ـ وفيما بعد كان يدفع زبائن المومسات ثمن هذا. وبطبيعة الحال، أبكر ما أمكن، سيارته، ولو أنها كانت سيارة هانوماج».

خلاصة الحديث تحت شجيرة الياسمين: «كان لطيفاً دائماً نحو والديه، الحق أنه كان لطيفاً، وإنّي لأميل إلى الاعتقاد أنّه أحبّهما حقاً. لم يخاطب أمه بكلمة قاسية، ولا بكلمة استهزاء، وآديلهايد هذه صارت مع الأيام أكثر ضجراً وتذمراً، فلم تمت من الغمّ، بل ماتت من الضجر والتذمر، إمرأة متجهمة، وكانت ذات يوم جميلة ونضرة؛ وفي سنة ١٩٠٤ وحين التحقت أنا بالعمل كانت مرحة كل المرح ومرتبة. ثمَّ فيما بعد، وحين سافر فالتر معي ذات مرة لندور ببراميل النخيل، ليتك رأيته

وهو ينحني أمام المذبح ويده في حوض الماء المقدس... لبسه هذا لبساً. في سنة ٣٢ التحق بفرقة الهجوم، وفي بداية سنة ٣٣ شارك في ملاحقة سياسيين بارزين، لكنه لم يقبض على أحد منهم، بل قبض مالاً، وأطلق سراحهم لقاء مجوهرات ونقود ـ والأرجح أنَّ هذا كان مربحاً إلى حدّ ما، وسرعان ما كانت هناك سيارة جديدة، وثياب جديدة، وكانت هناك أيضاً أراضٍ يهودية للشراء بثمن بخس، وكان هناك تارة محلٌّ أو شيء من هذا القبيل، وتارة أخرى مكان للبناء، ويسمّي هو هذا، ‹كان فظاً بعض الشيء›. وإذا به يصبح سيداً محترماً أنيقاً بأظافر معتنى بها، وتزوج في الرابعة والثلاثين، طبعاً مالاً، ابنة برومتل ايفا، أتعلم، إنها كانت فتاة من اللواتي يطمحن دائماً إلى الأعلى؛ لا رديئة. وإنّما عصبية بعض الشيء، وأبوها الشيخ كان عنده مكتب حيث كان في وسع المرء أن يقترض قروضاً تدفع بالتقسيط، وفيما بعد كانت له بعض محلات رهونات ومؤسسات ارتهان ـ والابنة كانت تقرأ ريلكة وتعزف على الناي، وقد جلبت هذه معها أيضاً بضع أراض ورزمة من النقود أيضاً. وبعد سنة ١٩٣٤ صار قائداً فخرياً لقوات الهجوم، إلاَّ أنه نفض يديه من أمور قذرة، وكذلك أيضاً من أمور وحشية، ولا يستطيع المرء أن يقول عنه إنه كان فظاً غليظ القلب، إلاَّ أنه كان به طمع بالأراضي. ومما كان يبعث على السخرية أنه كلما ازداد غنى وثراءً ازداد إنسانية، بحيث إنه لم ينهب في الليلة البلورية (ليلة أعمال العنف ضد اليهود). اكتفى بالجلوس في مقاهي الحفلات الموسيقية والذهاب إلى الاوبرا بصفته مشتركاً بطبيعة الحال، وأنجب أطفالاً، طفلين حلوين عبدهما عبادة، أحدهما فالتر والآخر إيفا الصغيرة، وفي سنة ١٩٣٦ تولّى نهائياً زراعة

المشاتل والبستنة حين نفق هانز هذا من شرب الخمر الكثير، إذا صح التعبير، وهو منهوك القوى، ممرور النفس ناقم على الحياة ـ ثم صرت مدير أعمال فالترشن، وبسبب الطلبات الحزبية بدأنا بصناعة الأكاليل، ووهبني الجزء من المشتل الذي ما زال ملكاً لي حتى اليوم، ولا بدَّ من القول إنه كان كريماً سمحاً وما تكلّم قط بكلمة رديئة أو حقيرة. وتحسّن المحل وتقدّم عندما غيّب الثرى هاينز وآديلهايد المسكينة».

أما خلاصة الحديث تحت شجيرة السيتس فكانت كما يلي: «هناك ناس يذهبون إلى أنها إهانة في نظر نازي أن يسمّى فالتر نازياً. فقد تغيّر في منتصف سنة ١٩٤٤ عندما بدأت العلاقة بين ليني والروسي. ونوشد بإلحاح بأن يهتم بحالة كل منهما الصحية، بمكالمات هاتفيّة وأحاديث. وكان التغيير: وهو أنَّ فالتر صار تأملياً. كما أنه عرف أيضاً أن الحرب كانت خاسرة وأنَّ هذا لن يضرّه بعد الحرب على الإطلاق إذا كان قد أحسن معاملة روسي والفتاة غروتن ـ لكن: كم ستستمر الحرب؟ كان هذا هو السؤال الذي أفقدنا كلّنا الصواب: أن نجتاز الأشهر الأخيرة أحياء، على حين كان يشنق في كل لحظة شخص ما أو يرمى بالرصاص، عندئذ لم تعد في أمان لا بصفتك نازياً ولا غير نازي ـ أعوذ بالله، وكم طال هذا، حتى جاء الأميريكان أخيراً من آخين إلى الراين، دام هذا زهاء ستة أشهر، وأعتقد أنَّ فالترشن الذي كان سليماً معافى ورزيناً وكان يحب طفليه إلى درجة العبادة، تعلّم الآن شيئاً لم يتعلّمه من قبل: وهو الصراع الداخلي. لقد سكن في الخارج في الفيلاً الخاصة به، وكان عنده كلبان أحسن الاعتناء بهما، وطفلاه وسيارته ومزيد من العقارات. فالقديمة كان قد باعها من أجل مجموعات سكنية ومباني ثكنات، ليس

نقداً، لا أبداً، فالنقود لم تهمّه كثيراً، فقد تركّز همّه كلياً على قيم عينية مادية؛ فقد تركهم يدفعون له بعقارات، ضعف أو ثلاثة أضعاف ما أعطاه هو، عقارات خارج المدينة وبعيدة قليلاً. والحق أنه كان متفائلاً. فقد بالغ في العناية بالجسم والحفاظ على الصحة، ففي كل صباح وبصورة دائمة كان يقوم بالجري عبر الحدائق العامة وبعد ذلك يأتي دوشه ثمّ فطوره العامر الذي يتناوله الآن في البيت، وكان لا يزال قادراً على أن يجيد تأدية انحناءة رائعة أو إشارة صليب سريعة عندما كان يضطر إلى الذهاب إلى الكنيسة. ثم كان هناك ليني وبوريس اللذان أحبّهما وكانا أفضل العاملين عنده، وقد حمتهما قوى علوية، قوى لم يعرفها ـ ثمّ كانت هناك قوى علوية أخرى تفعل فعلها، وكان في وسع هذه القوى أن تحررّ شخصاً ما على نحو سريع جداً أو أن ترميه بالرصاص أو تنحيه إلى أحد معكسرات الاعتقال. إلاّ أنه ينبغي ألاّ ينشأ هنا سوء فهم، إلاّ أن يكون فالتر اكتشف في نفسه فجأة ذلك الجسم الغريب الذي يعرفه بعض الناس بأنه الضمير، وإلاّ أن يكون قد اقترب فجأة، وهو يرتجف من الخوف أو من حب الاستطلاع، من تلك الكلمة الغريبة التي ما زالت غامضة عليه حتى اليوم، أو من القارة التي يسميّها المرء بين الفينة والأخرى أخلاقاً. لا. لا. ليس من الداخل إطلاقاً، أما من الخارج فهو بين الحين والحين قلق مكروب (إذ أنه كان هناك أيضاً مضايقات من داخل الحزب وفرقة الهجوم له ومعه)، وصار غنياً. وكثيراً ما اعترضته صعوبات في كل أعماله، بدءاً من سريّة المعدات الميدانية وانتهاء بالسياسيين البارزين الذين أطلق سراحهم سنة ٣٣ لقاء نقود ومجوهرات. وكانت هناك بلاغات ضده أمام محاكم حزبية

عاديّة، ولا سيما حين بالغ بعد ذلك في الانتفاع بالأكاليل والشرائط. متاعب وصعوبات بما فيه الكفاية تحدّاها ووقف في وجهها وأطاح بها برباطة جأش بأن أشار إلى الأهميّة الاقتصادية الوطنية لعمله بصفته مقاتلاً لا يكل يحارب ذلك العدو الوطني الذي سُمّي آنذاك ‹قبر القروش›. كانت حقاً صعوبات، لكنه لم يكن قط في صراع مع نفسه حول الشيء الذي كان ذا فائدة له. ولم يكن ليبالي باليهود، مثلهم مثل الروس والشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين أو غيرهم ـ ولكن كيف كان ينبغي أن يتصرّف الآن، حيث كانت تواجه الآخرين قوى عليا، وإلى ذلك فقد استلطف بوريس وليني ـ ويا له من لقاء! ـ لا بل إنهما كانا مربحين. ولم يكن يهمه أن الحرب كانت خاسرة، وما كانت لتهمه السياسة ولا ‹القتال المصيري للشعب الألماني› ـ ولكن لعن الله الشيطان، مَنِ استطاع أن يقول له كم دهراً كان المرء لا يزال في تموز سنة ٤٤ بعيداً عن نهاية الحرب؟ كان مقتنعاً أنه كان مناسباً أن ينقل الحساب إلى حساب حرب خاسرة، ولكن متى كان ينبغي ومتى كان في الإمكان القيام بالنقل أخيراً من حساب إلى حساب؟»

هنا يبدو نوع من التلخيص مناسباً، وكذلك أيضاً بعض الأسئلة التي يجب أن يجيب عنها القارىء ذاته. بادىء ذي بدء التفاصيل الإحصائية والخارجية. إنه لمخطيء من يتصور بيلتسر وسخاً بعض الشيء وهو يدخن السيجار. كان (وما زال) نظيفاً جداً، وكان يلبس الثياب المفصّلة تفصيلاً، وكان يلبس وما زال يلبس بصورة دائمة ربطات عنق تجاري الزي السائد، حتّى إنها لا تزال تناسب بيلتسر ابن السبعين. إنه يدخّن سجائر، كان وما زال سيداً، وإذا ما وصف هنا أيضاً وهو

يبصق ذات مرة فلا بدَّ من الإضافة: أنه قلّما بصق، وربّما لم يبصق قط، وفي هذه الحال الموصوفة هنا فإنَّ لبصقه وظيفة ترقيم تاريخي، ومن الجائز أنّه أيضاً تلميح إلى تحيّز ومحالأة. يسكن في فيللا لا يسميها هو فيلّلا. طوله ١,٨٣ ويزن، طبقاً لأقوال ابنه الذي هو طبيب ويعالجه ـ ٧٨ كغ، له شعر كثٌ جداً وكان ذات يوم أسود ثم اعتراه الآن الشيب قليلاً. هل يجب اعتباره حقاً النموذج الكلاسيكي **للعقل السليم في الجسم السليم**؟ هل سبق أن عرف الألم، وهل عرف الدموع؟ ومع أنه يبدو أنَّ لديه ثقة ذاتية كلية تقريباً بالوجود فما من صفة من الصفات المذكورة في مادة الضحك ستنطبق على ضحكه هو، وإذا كانت قد وردت عنده بين الحين والآخر ابتسامة ما فإنها كانت أشبه بابتسامة موناليزا أو ابتسامة بوذا. فإذا اعتبره المرء إنساناً لا يخشى صراعات خارجية ولا يعرف صراعات داخلية وصار له من العمر حتى سنة ١٩٤٤ أربع وأربعون سنة من غير أي صراع داخلي ويوسّع محل والده خمسة أضعاف ما كان عليه، ولم ينفر من «روث الأرانب والدواجن والغنم والخنازير»، فإنَّ على المرء أن يتبيّن أنه على كبر في السن نسبياً مقداره أربع وأربعون سنة قد طوِّح به لأول مرة خارج الثقة الذاتية الكليّة بالوجود، ولم يدخل أرضاً جديدة إلاّ متخوّفاً.

وإذا ما أخذ المرء أيضاً صفة من صفاته البارزة، وهي شهوة شديدة على نحو غير مناسب تقريباً (عاداته في الفطور تشابه تماماً عادات ليني)، فلربما استطاع المرء أن يتصوّر أيَّ صراع خاضه هو بعد تموز سنة ٤٤. وقد حصل المؤلف في هذا الصدد على معلومات تفصيلية مهمة ربما وصفت سلوك بيلتسر عند نهاية الحرب تقريباً. ففي الأول من آذار

سنة ١٩٤٥، قبيل دخول الأمريكان إلى المدينة بأيام قلائل، أعلن بيلتسر خطياً وبرسالة مسجلة انسحابه من الحزب ومن فرقة الهجوم، وتنصّل من جرائم المنظمة وأعلن نفسه «إنساناً ألمانياً مستقيماً» (وفي الإمكان الإطّلاع على الصورة المصدقة للرسالة لدى المؤلف)، «إنساناً انخدع وضلّل). والحق أنه لا بدَّ أنه عثر بعد لأي عشيّة دخول الأمريكان تقريباً على مكتب بريد ألماني ما زال يعمل أو على موظف بريد ألماني مفوض بالوثائق والمستندات. وإيصال التسجيل أيضاً موجود ولو أنّه تشوّه على يد إفلاس محدق. وحين دخل الأمريكان استطاع بيلتسر أن يؤكد إذاً ما يطابق الحقيقة أنه ليس عضواً في منظمة نازية. لقد حصل على ترخيص بمزاولة العمل في المشاتل وزراعة الزهور وصناعة الأكاليل، على حين استمرّ الدفن، ولو أنه تناقص كثيراً. وتعليق بيلتسر على ثبات حرفته هو: «الموت دائم».

بادىء ذي بدء عليه أن يمضّي سنة حرب كاملة تقريباً في ظروف متزايدة الصعوبة، وفي بادىء الأمر، وحين كانت تطلب منه تسهيلات (إجازة، سلفة، علاوة، أجور، زهور إضافية)، كان يصنطع القول المأثور: «الحق أنّي لست فظاً غليظ القلب. ويؤكد كل الشهود الأحياء الممكن إيجادهم من محل صناعة الأكاليل هذا التعبير في تكراره. «كان هذا أشبه بطلبة مكررة (هولتهونه) كرّرها هو هنا، وقد كان فيها شيء من السحر، لكأنّما كان عليه أن يوهم نفسه بالذات أنه لم يكن هو في الحقيقة هذا وقاله أحياناً في مناسبات حيث لم يكن هذا مناسباً، وذات مرة على سبيل المثال حين سألته عن حال أسرته أجاب قائلاً: ‹الحقّ أني لست فظاً غليظ القلب›، وذات مرة حين سأله أحدهم ـ ولم أعد أدري

مَنْ ـ عن يوم الأسبوع ـ هل هو الإثنين أم الثلاثاء، قال: ‹الحق أني لست فظاً غليظ القلب›. وقد تمّ تقليد هذا تقليداً أقرب إلى السخرية والهزل، حتى بوريس قلّده تقليداً ساخراً، طبعاً بتحفّظ مناسب، فحين ناولته إكليلاً ليربطه بشريطة قال: ‹الحق أني لست فظاً غليظ القلب›. فما حدث مع بيلتسر كان ممتعاً من ناحية التحليل النفسي».

أكدّت كريمر قول بيلتسر الذي كانت له صفة الطلبة كمّاً وكيفاً من حيث المحتوى التام: «قال هذا مراراً وتكراراً بحيث إنَّ المرء لم يعد يسمع، كان أشبه بما يقال في الكنيسة ‹ليكن الله معكم› أو ‹ليرحمنا الرب›، وفيما بعد كان لديه تعبيران لذلك ‹الحق أني لست فظاً غليظ القلب›، و‹هل أنا فظ غليظ القلب؟›»

غروندتش (بمناسبة زيارة قصيرة لاحقة لم تسمح لأسف بجلسة مريحة تحت شجيرات البيلسان ما شابهها) قال: «أجل، هذا صحيح. صحيح ‹الحق أني لست فظاً غليظ القلب›. ‹هل أنا فظٌ غليظ القلب؟› كان يتمتم بهذا بين الحين والآخر وكلّما خلا بنفسه. وكثيراً ما سمعته ونسيته مرة أخرى لأن هذا كاد أن يكون عنده شيئاً بديهياً مثله مثل التنفس. والآن (ويضحك غروندتش ضحكة شامت)، ربما استلفتت نظره بعض الشيء الأسنان الذهبية والأكاليل المسروقة والشرائط والزهور والعقارات التي ما فتيء يجمعها، وفي أوقات الحرب أيضاً، وبالمناسبة ما عليك إلا أن تفكر ملياً بين آن وآخر في الكيفية التي تتحول فيها يدان أو ثلاث أو ربما أربع أيد مليئة بالأسنان الذهبية من مختلف الجنسيات إلى عقار عديم الفتنة في أوّل الأمر، اليوم، وبعد خمسين سنة، لكنها تتحول إلى عقار ينتصب عليه مكتب للجيش الاتحادي عالٍ

جداً وواسع جداً ويدرّ على فالترشن إيجاراً لابأس به ـ».

* * *

كان في الإمكان اقتفاء أثر ذلك السياسي الكبير من سياسي جمهورية فايمار الذي تمَّ الإهتداء إليه في سويسرا حيث لم يستطع المرء الظفر إلاّ بأرملة السيد. سيّدة مسنّة بلغت أرزل العمر في أحد فنادق مدينة بازل وتتذكر ما حدث تماماً. «كان أهم الأشياء في نظرنا: أننا ندين له بحياتنا. حقاً. أنقذ حياتنا ـ ولكن لا تنس في هذا الصدد كيف كان على المرء أن يكون رفيعاً أو منحطاً لكي يكون قادراً على أن يهب الحياة لشخص ما. هذا الجانب من التسهيلات ينتسى دائماً: حين زعم غورينغ فيما بعد أنه أنقذ حياة بعض اليهود فليس عليك أن تنسى: من ذا الذي كان قادراً على أن ينقذ حياة شخص ما وأية أوضاع ديكتاتورية هي التي تتوقّف فيها حياة إنسان على مثل هذه المنّة؟ الحق أنَّ هؤلاء وجدونا في شباط سنة ٣٣ عند أصدقاء في فيلّلا في بادغوديسبيرغ، وهذا الإنسان ـ بيلتسر؟ من الجائز أنني لم أعرف اسمه قط، وبقسوة لص طلب كل مجوهراتي وكل النقود، لا بل إنه طلب صكاً، لا على أساس أنها رشوة، لا، كما تعرف، بل كما عبّر هو: <إنني أبيعكم دراجتي النارية وتجدونها في الخلف عند مدخل الحديقة، وأنبّهكم إلى شي: سافروا إلى الآيفل ولا تسافروا إلى بلجيكا أو اللوكسمبورغ، ومن ثم سافروا من وراء ساربروكن حتى الحدود وانظروا لعلَّ أحداً يساعدكم في العبور. الحق أني لست فظاً غليظ القلب> قال هو <وطبيعي أنه السؤال عما إذا كانت دراجتي النارية ذات قيمة كبيرة لكم

وعما إذا كان في استطاعتكم أن تقودوها،. إنّها دراجة تسونداب Zun-dapp>. ولحسن الحظ كان زوجي في شبابه مولعاً بقيادة الدراجات النارية، لكن هذا الشباب ولّى من عشرين سنة ولا تسألني كيف عبرنا ألتينار إلى بروم ومن بروم إلى ترير، وأنا على المقعد الخلفي، ولحسن الحظ كان لنا في ترير زملاء في الحزب جاؤوا بنا ـ لا بصورة شخصية بل عن طريق وسطاء ـ إلى منطقة السار. ـ أجل نحن مدينون له بحياتنا ـ لكن حياتنا كانت أيضاً في قبضته. لا، أرجوك ألا تذكّرني بذلك من جديد. هيّا انصرف. لا، لا أريد أن أعرف اسم هذا السيّد».

* * *

بيلتسر نفسه لا ينكر أيَّ شيء تقريباً من هذا كلّه، إلاَّ أنَّ تفسيره يختلف عن تفسير الآخرين كلّهم. وبما أنه جدّ متبسّط في الحديث ويفتقر أيضاً إلى الأخبار ففي وسع المؤلف أن يتصل به هاتفياً في كل وقت، ويذهب إليه ويتحدّث معه بقدر ما يستطيع. ويجب التذكير مرة ثانية: أنَّ بيلتسر لا يوحي بأيّ حال من الأحوال أنه رجل رديء السمعة، قذر ومريب. إنه رزين بكل ما في الكلمة من معنى: وإن المرء سيجده جديراً بأن يكون مدير مصرف ويقبل به رئيس مجلس إدارة، وسيتصورّه وزيراً متقاعداً، ولهذا فما من أحد سيدهش أنه أحيل إلى المعاش، إذ أنه لا يوحي أبداً أنه في السبعين، بل إنه أقرب إلى أن يكون في الرابعة والستين ونجح في أن يبدو في الواحدة والستين.

وعند توجيه الكلام إليه بخصوص عمله في سرّية المعدات الميدانية لم يتهرّب ولم ينكر أيضاً، كما أنه اعترف، إلاّ أنه اصطنع تفسيراً شبه

فلسفي: «انظر، إذا كنت قد كرهت دائماً وحتى هذه الساعة شيئاً ما، فإنه في مثل هذه الحال إسراف في غير طائل، وأؤكد: في غير طائل. الإسراف ذاته شيء جميل إذا كان له معنى وصلة: وذلك حين يبسط شخص ما يده فيقدّم تارة هدية سخيّة أو شيئاً من هذا القبيل، أمّا أن يكون إسراف من غير طائل فإن هذا يغيظني وما مارسه الأمريكان مع موتاهم، دخل في باب ‹إسراف من غير طائل› ـ أي إنفاق هو في التكاليف والمستخدمين والمواد لكي ينقلوا جثمان شخص يدعى جيمي من بير نكاستل حيث كان قد مات في التاسعة عشرة من عمره في المستشفى العسكري في سنة ٢٣ أو ٢٢ إلى ويسكونسين؟ فلمَ هذا؟ أينبغي أن تكون معه كل سن ذهبية أو خاتم زواج وكل سلسلة تميمة ذهبية يجدونها بين البقايا؟ وماذا تظن كم جمعنا هنا ـ لبضع سنوات خلت ـ من محافظ الجيب بعد المعركة على اللوس وبعد كامبراي ـ هل تعتقد أننا لو لم نأخذ الدولارات أكنّا توصّلنا إلى أبعد من السرية ـ أو مكتب الكتيبة؟ وفضلاً عن ذلك: إن سعر دراجة نارية ليحدده الموقف التاريخي ومحفظة نقود ذلك الذي يحتاج إليها في هذا الموقف التاريخي.

يا إلهي، ألم أبرهن على أنني أستطيع أن أكون كريماً سمحاً أيضاً؟ وأستطيع أن أضرب بمصالحي عرض الحائط إذا ما كانت المسألة مسألة مصالح إنسانية؟ هل تستطيع أن تحكم أصلاً كم كان موقفي عصيباً بدءاً من منتصف سنة ٤٤؟ فقد أخللت بواجباتي الوطنية عمداً وعن معرفة لكي أهيىء لكلا هذين الشخصين الشابين حظهما العابر. الحق أني رأيت كيف وضعت يدها عليه ولاحظت كيف اختفيا فيما بعد المرة

تلو المرة لدقيقتين، لثلاث دقائق ولأربع دقائق في الخلف في البيت الزجاجي حيث وضع اللبد النباتي الميبّس والقش والخلنج والغصنات الرابطة من كل الأنواع ـ تصوّر لو أني لم ألاحظ ما لم يلاحظه الآخرون في أول الأمر أن كلا الشخصين قد اختفى في أثناء الغارات الجوية أحياناً ساعة أو ساعتين؟ لم أخلَّ بواجباتي الوطنية فحسب، بل أخللت أيضاً باهتماماتي الشهوانية الخاصة وأنا رجل، إذ أنني أعترف بذلك بصراحة ـ فأنا لم أُخفِ قط اهتماماتي الشهوانية ـ وكنت قد رمقت ليني بعين الإعجاب والاشتهاء. وتستطيع أن تقول لها بلا حرج أنني ما زلت مهتماً حتى اليوم، حتى هذا اليوم. في بعض الأحيان نكون نحن المحاربين القدماء والبستانيين صبياناً أفظاظاً، وآنذاك سمّينا هذا الشيء الذي يوصف اليوم وصفاً دقيقاً جداً ومعقداً وغاية في الدقة <صراعاً> ـ وأعود، لكي أثبت لك، كم أنا وفيٌّ مخلص، إلى طريقة تفكيري وتعبيري السابقة. وكانت نفسي تصبو إلى <مصارعة> ليني. لا بصفتي مواطناً، ولا بصفتي رئيساً ولا بصفتي عضواً في الحزب، بل بصفتي رجلاً احتملت التضحية. فمن حيث المبدأ كان لديّ شكٌّ في الغراميات والمغازلات والحب العابر والمصارعات بين الرئيس والعاملات، ولكن حين كان ينتابني هذا كنت أضرب بهذا الشكوك عرض الحائط واتصرّف تصرّفاً عفوياً وأقوم بالمبادرة؛ وبين الحين والآخر، وهكذا نسمّي هذا أيضاً، كنت أضاجع امرأة. وقد لقيت غير مرة نكداً من الفتيات الصغيرات والكبيرات، ولا سيما الكبيرات، من آديلي كريتين التي أحبتني وأنجبت طفلاً مني واعتزمت أن تتزوجني وأردت أن أطلّق وهلمَّ جراً، إلا أنني في الحقيقة عدو مبين للطلاق وأرى هذا حلاً خاطئاً لمشاكل

معقدة، وأنشأت لآديلي محلاً لبيع الزهور في شارع هوهينْتسولرن وعنيت عناية جيّدة بالطفل، وألبيرت هذا هو اليوم ومنذ زمن طويل مدرس ثانوي يتقلّد وظيفة جيدة وآديلي امرأة عاقلة ذات رزق موفور. من آديلي الحالمة التي تهيم بخيالها تحولت امرأة تاجرة ذكية شجاعة ونزيهة ـ على حين كانت بستانية عقائدية، كما نسمّيها نحن الخبراء وكانت تعبد الطبيعة وغير ذلك. وبسبب القصة مع بوريس وليني تصبّب عرقي دماً من الخوف، ورجائي أن تبحث عن شخص ما، أيّ شخص، ربما استطاع أن يقول لك لسبب ما أنني كنت فظاً غليظ القلب».

* * *

الحق ما من أحد من المعنيين استطاع أنْ يقول موقناً عن بيلتسر إنه كان فظاً غليظ القلب. ولكن في هذا المقام يجب التوكيد والملاحظة أنَّ بيلتسر لم يستعمل عرقه، عرق الدم والخوف، استعمالاً اقتصادياً. فقد تعرّق قبل أن يئن الأوان بستة أشهر. وإنه لمتروك للقارىء أن يقدّم له قرضاً على ذلك. أما مكتب بيلتسر المزجّج (الذي لا بدّ من زيارته فيما بعد ويستعمله غروندتش اليوم قسم إرسال حيث يحضّر الأصص الجاهزة للجلب وأشجار التنوب للأضرحة في عيد الميلاد) فإنه الآن في مركز مصنعه الفخم: فإذا اتخذ المرء موقعاً طوبوغرافياً منظماً تنظيماً دقيقاً فإنَّ ثلاثة بيوت زجاجية تكون مواجهة من الشرق والشمال والجنوب بكامل عرضها لهذا المكتب المزجّج حيث كان بيلتسر يسجّل على أدق وجه الزهور المربّاة في البيوت الزجاجية (وفيما بعد أوكل تسجيله إلى بوريس، قبل أن يدفع بعضاً منها إلى طاولات التزيين ويدفع ببعضها

الآخر إلى غروندتش الذي أدار وحده محلّ المشتركين في العناية بالقبور الذي كان لا يزال آنذاك ضئيلاً، وقبل أن يدفع ببعضها إلى تجارة الزهور الحرة، كثرت هذه الحرية أم قلّت. وعلى الجهة الغربية من المكتب كان محلّ صناعة الأكاليل العريض عرض البيوت الزجاجية والذي كانت له منافذ مباشرة إلى بيتين من البيوت الزجاجية الثلاثة، وطبيعي أنَّ بيلتسر استطاع أن يتتبع كل حركة بدقة. والشيء الذي ربّما رآه هو أنَّ ليني وبوريس كانا يذهبان أحياناً الواحد تلو الآخر إمّا إلى دورة المياه التي لم تكن مفصولة طبقاً للجنسين، وإما ليأتيا بمواد من أحد البيتين الزجاجيين. كانت ظروف الحماية الجوية في محل بيلتسر «إجرامية» طبقاً لبيانات مكررة من قبل مراقب الوقاية الجوية المختص فون دين دريش، فأقرب مخبأ يمكن بلوغه ويناسب مؤقتاً التعليمات يبعد ٢٥٠ م في مبنى إدارة المقابر المدنية، ومرة أخرى وطبقاً للتعليمات ـ لا يسمح لليهود ولا للسوفييت ولا للبولونيين أن يستعملوا هذا المخبأ. فمن أصرَّ إصراراً شديداً على مراعاة هذه التعليمات كان، كما يخمّن المرء، كريمب وفانفت وشيلف؛ فإلى أين إذاً بسوفييتي إذا ما سقطت قنابل إنكليزية أو أمريكية، ولئن لم يكن هو المستهدف بها، إلاَّ أنها يمكن أن تصيبه؟ لم يكن مصاب سوفييتي بمشكلة. وقد عبّر كريمب عن ذلك على النحو التالي: «واحد بالناقص، فلم لا؟» (الشاهدة كريمر). على إنّه كان هناك صعوبة أخرى لم تكن في الحسبان: مَنْ كان يحرس السوفييتي بينما كانت حياة ألمانية محميّة في المخبأ (ولو حماية وهمية)؟ هل استطاع المرء أن يتركه وحده ويمنحه الفرصة ليسعى دونما حراسة إلى ذلك الوضع الذي يعرفه كل إنسان وإن لم يكن مألوفاً: الحرية؟ ولقد حلَّ بيلتسر

المشكلة حلاً صارماً. فقد رفض ببساطة أن يدخل المخبأ مجرد دخول أيضاً وعارض ـ وإن كان هذا شيئاً لا يمكن أن يعارض فيه أحد بصفة غير رسمية لدى سلطات البلدية ـ، أنه لن يقدّم إلاّ أدنى حماية أيضاً. والحق ليس هذا إلاّ قبراً »، وبقي في أثناء الغارات في مكتبه وضمن بألا يسعى السوفييتي «بسهولة ويسر» إلى وضع الحرية. «ألم أكن جندياً وأعرف واجباتي.» أمّا ليني التي لم تدخل طوال حياتها مخبأ أو قبواً (وفي هذا نجد تطابقاً بينها وبين بيلتسر)، فقالت إنها «ستذهب إلى المقبرة وتنتظر صفارة الأمان». وفيما بعد أدّى الأمر إلى أن «يذهب كل واحد إلى أي مكان، كما أنّ احتجاجات ذلك السخيف فون دين دريش لم تُجْدِ أيضاً نفعاً، وشكاويه الكتابية قطع عليه الطريق صديق مخلص لفالتر» (غروندتش). «كان مخبأ العمارة هذا لدى إدارة المقبرة شيئاً سخيفاً، لم يكن إلاّ حجرة اختناق، لا شيء آخر، مجرد افتراض، قبو عادي مقوّى ببضع سنتيمترات إسمنت، بل إنّ قنبلة حارقة كانت ستخرقه». النتيجة: في أثناء إنذار بغارة جوية حلّت فوضى: لم يكن ليسمح بمزاولة العمل، وكان يسمح للسوفييتي أن يغيب عن النظر، والآخرون كلّهم هرعوا إلى «مكان ما». وبقي بيلتسر في مكتبه وضمن بوريس، وفيما عدا ذلك كان ينظر إلى الساعة ويتأسف على زمن العمل الضائع الذي هو حسابه ولم يدرّ عليه بشيء. هذا وبما أنّ فون دين دريش كان ينتقد بصورة دائمة شعريات التعتيم لنوافذ بيلتسر فقد أطفأ بيلتسر «النور فيما بعد ـ وخيّم ظلام على المياه» (غروندتش).

وماذا حدث في هذه الظلمة؟

هل حدثت في بداية سنة ١٩٤٤ وحين تصبب بيلتسر العرق دماً،

«مصارعات» بين بوريس وليني؟

طبقاً لأقوال الشاهدة الوحيدة ـ مارغريت ـ التي كانت مطّلعة على حياة ليني الشخصية ففي إمكان إعادة الوضع التالي للعلاقات الجنسية بين بوريس وليني إعادة تامة تقريباً. فبعد وضع اليد أول مرة كثيراً ما أمضت ليني الأمسيات عند مارغريت، لا بل إنها سكنت عندها ومرّت مرة أخرى «بمرحلة ميل إلى كثرة الحديث». مثلما مرَّ بوريس تجاه بوجاكوف في «مرحلة مزاج للحديث الكثير». ولئن لم يحدّث بوريس بوجاكوف عن الوضع الجنسي للأشياء على نحوٍ دقيق مثلما حدّثت ليني مارغريت، إلاَّ أنّه كان هناك تصوير متزامن، هذا إذا غلّظ المرء قليلاً حاجز الموضوعية الضوئي. على أيّة حال فإنَّ بيلتسسر الذي لا جدال في هذا المقام في حسّه الواقعي، لا بدَّ أنه تكبدّ خسارة واقع كبيرة حين «تصبب عرقه دماً »في بداية ١٩٤٤. وفي شباط تقريباً سنة ٤٤ ـ وبعد ستة أسابيع من وضع اليد ـ صدرت الكلمة الحاسمة! استطاعت ليني أن تهمس لبوريس أمام دورة المياه بسرعة: «أحبّك»، وأسرع في الإجابة هامساً: «وأنا أيضاً». هذا الإختصار الخاطيء لغوياً يجب أن يغفره المرء له. كان عليه أن يقول: أنا أحبك أيضاً، ولكن ربّما ذكّرته كلمة أنت كثيراً بعبارة «أنت لي أيضاً». ومهما يكن: ليني فهمت، مع أنَّ «إطلاق نيران التحية العسكرية اللعين وصل في هذه اللحظة بالذات إلى ذروته» (مارغريت نقلاً عن ليني). ونحو منتصف شباط حدثت القبلة الأولى التي انتشى بها كلاهما. أما «المضاجعة» الأولى (تعبير ليني الذي أكّدته مارغريت) أو «المواقعة» الأولى (تعبير بوجاكوف) فلم يثبت حدوثها إلاَّ في الثامن عشر من شباط. وذلك بمناسبة غارة جوية

نهارية استمرت من الساعة الرابعة عشرة وخمس دقائق إلى الساعة الخامسة عشرة وثماني عشرة دقيقة ولم يسقط في أثنائها إلاً قنبلة واحدة.

هنا وفي هذا المقام يجب تبرئة ليني من تهمة معقولة لكنها باطلة كلَّ البطلان، وهي تهمة الأفلاطونية في الحياة الجنسية والمسائل الشهوانية. فأقوالها الصريحة التي ليس كمثلها أقوال، أقوال فتيات من منطقة الراين (أجل، إنها من منطقة الراين، لا بل أنها إبنة الراين التي منحتها السيدة هولتهونه «دبلوماً» في ذلك ويعني هذا شيئاً ما)، وفتيات منطقة الراين هؤلاء إذا أحببنا شخصاً ما أو أحسسنا بأنّهن وقعن على الشخص المناسب فإنهن سرعان ما يكنّ مستعدات لكل شيء «ولأجرأ الملاطفات»، ومن غير أن يتوقعن أيضاً تراخيص كنسية أو حكومية. فكلاهما لم يكن عاشقاً فحسب، بل كان «الحب قد تمكن منهما» (بوجاكوف)، وأحسّ بوريس بشهوانية ليني العنيفة، التي وصفها أمام بوجاكوف بأنها «مستعدة، مستعدة، وأنه في مثل هذه الحال لطف لا يدانيه لطف». وفي الإمكان الاشتراط شرطاً مؤكداً أنهما كليهما رغبا في أن يضاجع أحدهما الآخر بأسرع ما يمكن وعلى نحو متكرر إذا ما أمكن، وأن يعاشر أحدهما الآخر، إلاً أنَّ الظروف اقتضت حذراً كما ينبغي أن يتخذه نسبياً عاشقان يعدو كلٌّ منهما نحو الآخر من اتجاه معاكس فوق حقل ألغام بعرض كيلومتر واحد لكي يستلقي مع الآخر على ثلاثة أو أربعة أمتار مربعة خالية من الألغام، «ويطرحه ظهراً» أو ينهي الصراع.

***

وتعبّر السيدة هولتهونه عن ذلك على النحو التالي: «اتجه كل من هذين المخلوقين الشابين نحو الآخر بسرعة صاروخية، ولم تكن إلاَّ غريزة حب البقاء أو بتعبير أقوى، لم يكن إلاَّ الدافع لإبقاء الآخر الذي وقى نفسه من أعمال طائشة. فأنا من حيث المبدأ ضد «العلاقات الغرامية». ولكن في ظل الظروف التاريخية والسياسية الراهنة كنت سأمنح كليهما شروطاً استثنائية وكنت سأتمنى لهما رغم مبادئي الأخلاقية لو أنهما استطاعا أن يذهبا معاً إلى فندق أو إلى حديقة عامة على الأقل، أو ليكن دهليزاً أو أي شيء آخر ـ لا بل إنه لتحيا في الحرب بشكل نسبي صيغ وأشكال مبتذلة وأماكن لساعة **صبوة** ـ آنذاك، وعليَّ أن أضيف، كانت ستبدو لي علاقة ما شائنة مخزية، أما **اليوم** فأنا أكثر تقدميّة».

وتقول مارغريت بالحرف الواحد: «قالت لي ليني: ‹الحق أني أرى في كل مكان، في كل مكان اللافتة: احذر خطر الموت›. ويجب أن تعرف أن إمكانيات التفاهم أيضاً كانت ضئيلة. وكما عرفت ليني تمام المعرفة فقد كان رائعاً وغير عادي أنه كان عليها أن تمسك زمام المبادرة فترة من الزمن ـ رغم كل التقاليد والأعراف التي كنت لا أزال متمسكة بها آنذاك. الحق أنني ما كنت سأخاطب رجلاً قط بغير ما كلفة. وإنَّ أحدهما لم يكن يبادل الآخر نجواه فحسب، بل كان على كل منهما أن يعرف ويعلم شيئاً عن الآخر. كان صعباً جداً أن ينفرد أحدهما مع الآخر نصف دقيقة. وفيما بعد علّقت ليني ستارة من الخيش بين دورة المياه ولفّات اللبد النباتي الكبيرة، وطبيعي أنها علّقتها تعليقاً غير ثابت، وذلك بمسمار مدقوق دقاً محنياً استطاع المرء أن يعلّق عليه الستارة عند الضرورة بحيث إنَّ حجرة صغيرة نشأت، وهنا استطاعا أن يمسحا على

الخد بين الحين والآخر مسحاً رقيقاً وسريعاً وأن يتبادلا قبلة، وكان حادثة مثيرة عندما استطاعت أن تهمس قائلة ‹حبيبي›. وكم كانت هناك أشياء للبوح بها! الأصل، الحالة النفسية الراهنة، الأوضاع في المعسكر، السياسة، الحرب والأكل. طبيعي أنه كان لها اتصال معه بسبب العمل أو الوظيفة، وكان عليها أن تأتيه بالأكاليل الجاهزة، وربما استغرق هذا التسليم نصف دقيقة، وربما استطاعا أن يتهامسا على جناح السرعة بشيء ما عشر ثوانٍ من نصف الدقيقة هذه. وأحياناً كان لهما عملهما سوية في مكتب بيلتسر من غير أن يكون هناك داعٍ إلى ترتيب ذلك، وذلك حين كان على ليني أن تملي عليه استهلاك الزهور أو أن تراجع شيئاً ما في خزانة الشرائط. ثم كان هناك في بعض الأحيان دقيقة إضافية. وكان عليهما أن يتفاهما باختصارات أيضاً، ولكن باديء ذي بدء **حول** الاختصارات. فحين كان بوريس يقول ‹اثنان› كانت ليني تعرف أنَّ اثنين كانا قد ماتا في المعسكر في ذلك اليوم. وقد أضاعا بعد ذلك وقتاً كثيراً بطبيعة الحال في أسئلة لا ضرورة إليها من حيث الموضوع، لكنها ضرورية عند العشاق، من مثل ‹أما زلت تحبني؟› وما شابه ذلك، وكان على المرء أن يختصر هذا أيضاً. فإذا قال بوريس مثلاً: ‹أما زلت ـ مثلي؟› عرفت ليني أنَّ هذا يعني ‹أما زلت تحبينني مثلما أحبك أنا؟› وكان في إمكانها أن تسرع في القول ‹أجل، أجل، أجل› ـ وبهذا لم يضع الكثير من الوقت. وبين الحين والآخر كان عليها أن تجود ببعض السجائر لكي تلاطف وتجامل النازي المبتور الساق ـ الذي لم أعد أعرف اسمه ـ وكان لا بدَّ أن يحصل هذا بحذر شديد جداً لكي لا يسيء هذا فهمها بأنها محاولة اقتراب أو رشوة، وإنما مجاملة طبيعية ولطف

واضح بذاته بين الزملاء، ليس غير ـ وإذا كانت قد أعطت ـ ربما على مدى أربعة أسابيع ـ أربع أو خمس سجائر، فقد كان عليها أن تعطي بوريس أيضاً في بعض الأحيان سيجارة على **المكشوف**، وكان بيلتسر يقول بين الحين والآخر ‹اخرجوا يا أولاد واعملوا استراحة ودخّنوا سيجارة في الهواء الطلق›، ثم كان يسمح لبوريس أن يخرج أيضاً ويدخن سيجارة في الخارج بصورة علنية ـ وكان في وسعهما أن يتحادثا على المكشوف دقيقتين أو ثلاث دقائق، وطبيعي حديثاً لا يفهم أيُّ أحد كلمة واحدة منه. وبين الحين والآخر كان بوريس يعطّل بسبب المرض، والمرأة المزعجة أيضاً، وأحياناً كلاهما في آن واحد؛ الحق كانت هناك مصادفات سعيدة حين كان يمرض ثلاثة أو أربعة معاً وفي آن واحد وكان يغيب بيلتسر، هنا كان بوريس وليني يقومان بمسك الدفاتر على التساوي ـ وفي هذه الحال كانا يجلسان معاً عشرين دقيقة أو عشر دقائق بصورة رسمية في المكتب وكان في إمكانهما أن يتحدثا في شيء ما حديثاً سليماً حول والديهما وحياتهما، ليني عن لويس ـ الحق أنَّ هذا دام إلى مالانهاية، يومها، على ما أعتقد، كان قد ضاجع كلٌّ منهما الآخر، كما سمّت ليني هذا، ويومها لم تعرف هي حتى اسم أسرته. قالت لي، ‹ولماذا›، ‹ولماذا كان علي أن أعرف هذا من قبل، كانت هناك أشياء أهمّ للإفضاء بها، وقلت له إنني أدعى غروتن ولا أدعى بفايفر كما هو على الورقة›. ومثلما تلمّ ليني بتاريخ الحروب لكي تستطيع أن تطلعه على نحو صحيح بوضع الجبهة: فقد سجّلت على أطلس كل شيء سمعناه من الانكليز، وأقول لك، إنها عرفت تمام المعرفة أنَّ الجبهة انتهت في بداية كانون الثاني سنة ٤٤ عند كريفوي روج وأنَّ موقعة حصار وقعت نهاية

آذار عند كامينيس بودولسك وأن الروس كانوا في منتصف نيسان سنة ٤٤ على مقربة من ليمبيرغ، كما أنها عرفت تمام المعرفة أن الأمريكان هم الذين جاؤوا من الغرب إلى افرانشيه سانت لو وكين، وفي تشرين الثاني وحين كان قد مضى على حملها زمن طويل، ثم غيظها الدائم من الأمريكان أنهم، كما سمّت هي هذا، ‹لم يعجّلوا› واحتاجوا إلى وقت طويل لكي يصلوا من موسكو إلى الراين. ‹لا تتراوح المسافة إلاً من ٨٠ إلى ٩٠ كم، فلماذا استغرق هذا وقتاً طويلاً؟›، قالت هي. ونحن حسبنا حساباً أن نكون متحررين في موعد أقصاه نهاية كانون الأول أو كانون الثاني، على أنَّ هذا طال، ولم يكن في مقدورها أن تفهم ذلك. ومن ثم القنوط الرهيب من الهجوم في الأردينين والمعركة الطويلة في غابة هورتغن. لقد أوضحت لها ذلك أو حاولت إيضاح ذلك وهو أنَّ الألمان يهاجمون الآن هجوم المتوحشين لأنَّ الأمريكان يدخلون أرضاً ألمانية وأنَّ الشتاء الفظيع حال دون التقدم والزحف. ذاكرنا هذا معاً بحيث إنَّ هذا ما زال حاضراً في ذهني حتى الآن. ثم إنَّ عليك أن تفهم أنها كانت حاملاً وأنه كان علينا أن نجد رجلاً أهلاً للثقة فيستطيع أن يكون أباً للطفل. التسجيل: ‹الأب مجهول› لم ترد أن تتركه يحدث إلاً عند الضرورة القصوى. بلا داعٍ ـ وأني لأجد هذا اليوم أيضاً: بغير موجب، إذ أنه كان في بالنا أشياء أخرى، ثم أحدث بوريس بلبلة لم تكن في الحسبان بأن همس ذات يوم باسم: جيورج تراكل. أحسّ كلانا بذهنه يتبلّد، ولم ندرِ أي شيء كان يعني هذا: هل اقترحه أباً لطفل ليني، ومَنْ كان هذا وأين كان يسكن؟ وكانت ليني قد فهمت تراكل هذا (Trak1) مثل (Trackel) ولأنها كانت تتكلم الانكليزية قليلاً فقد خطرت ببالها

كلمة Truckel أو Truck1. ولا أعرف إلى اليوم ماذا خطر ببال بوريس في أيلول سنة ٤٤. وكانت بالنسبة لكل منا مسألة حياة أو موت. فقد اتّصلت أنا بالهاتف مع مختلف الجهات طوال المساء لأنَّ ليني كانت على أحرَّ من الجمر ونفد صبرها وأرادت أن تعرف الموضوع في المساء نفسه. وما من شيء: ما من أحد أعرفه استجاب لذلك. ثم ذهبتُ في وقت متأخر إلى البيت وتحدّثت مع آل بفايفر كلهم بشكل مفصّل. لا شيء. وإنه لمزعج نوعاً ما لأنه كان عليها أن تضحي في اليوم التالي بثوانٍ غالية لكي تسأل بوريس من هو هذا. قال: (شاعر، ألماني، نمساوي، ميّت) ثم مضت ليني رأساً إلى أقرب مكتبة عامة وكتبت على فورها على قصاصة الورق: تراكل، جيورج ـ واستشارت عند أمينة مكتبة مقاربة للشيخوخة الاستنكار المتبدي المبيّن وحصلت على كل حال على ديوان أشعار صغير تناولته بحرارة وبدأت تقرأ فيه في الحافلة الكهربائية. حفظتُ أنا بضع أبيات لأنها كانت تقرأها لي كل مساء، كل مساء ‹رخام الأسلاف صار عتيقاً›. واستحسنت هذه القصيدة ووجدتها رائعة، كما وجدت القصيدة الأخرى أفضل: ‹فتيات يقفن على البوابات، ينظرن على استحياء إلى الحياة المتعدّدة الألوان، شفاههنّ النديّة ترتعش وينتظرن على البوابات›. عندها بكيت كما ينبغي وما زلت أبكي حتى اليوم لأنَّ القصيدة تذكرني، كلّما تقدّمت بي السن، بطفولتي وصباي: وكم كنت متشوقة ومرحة ـ متشوقة ومرحة ـ، والقصيدة الأخرى على ظهر قلب: ‹مرات كثيرة على العين، وعند حلول الظلام، يراها المرء واقفة مفتونة، تغترف الماء، عند حلول الظلام، دلوٌ صاعد ودلوٌ نازل›. لقد حفظت هذه الأشعار من ديوان القصائد الصغير وفي الورشة كانت

تمتم بها بينها وبين نفسها بلحن مرتجل ـ لكي تفرحه وتبهجه، وقد أبهجه هذا، ولكن كانت هناك مكدّرات ومنغّصات أيضاً مع هذا النازي الذي صرخ ذات يوم في وجهها وسأل ما معنى هذا، وقالت إنها تستشهد بشاعر ألماني، ولسوء حظّها تدخّل بوريس وقال إنه يعرف هذا الشاعر الألماني الذي هو من النمسا ـ الحق أنه قال النمسا! ـ وأنَّ اسمه جيورج تراكل وما إلى ذلك. وهذا ما أغاظ النازي وذلك لأن بلشفياً هنا عرف قصائد ألمانية أكثر منه هو ـ واستفسر لدى القيادة الحزبية وسأل عما إذا كان تراكل هذا بولشفياً، وقيل له إنَّ هذا طيّب ومليح، ولدى السؤال عما إذا كان يجوز لروسي سوفييتي، من أسفل الناس، وشيوعي، أن يعرف تراكل هذا معرفة جيّدة، قيل له إنَّ التراث الثقافي الألماني المقدّس ليس مكانه الطبيعي أن يتفوّه به أسافل الناس. والحق أنه كان هناك مزيد من المنغّصات والمتاعب ذلك لأن ليني التي كانت إلى حين وقحة ومعتدّة بنفسها وبدت رائعة كانت محبوبة على نحوٍ لم يحبّني أياه أحد، ولا شلومر أيضاً ـ ولربما كان سيحبنّي هاينريش على هذا النحو ـ وفي هذا اليوم بالذات أنشدت قصيدة موضوعها صونيا: ‹في المساء تعود إلى حدائق قديمة، حياة صونيا، سكينةٌ زرقاء› ـ أربع مرات يرد اسم صونيا. وصرخ النازي: لعل صونيا اسم روسي، وأنه لخيانة قومية أو شيء من هذا القبيل. ليني بحضور بديهة وسرعة خاطر: صونيا هيني كان اسمها أيضاً صونيا، وأنها رأت قبل سنة فيلماً بعنوان ‹مدير مكتب البريد›، ليس فيه إلاّ الروس وفتاة روسيّة. هذه المجادلة وضع لها بيليتسر حداً بأن نعت هذا كلّه بأنه سخف وقال إنَّ ليني لها أن تغنّي في أثناء العمل، وإذا لم يكن شيئاً معادياً للدولة فلا اعتراض

عليـه، وتمَّ التصويت على ذلك، وبما أنه كان لها صوت غنائي خفيض رقيق وجميل، وكان كل شيء في كل الأحوال غارقاً في الكآبة، وما من أحد أخذ يغني بمثل هذه البساطة فقد صوّت الجميع أيضاً ضدَّ النازي ـ وسمح للّيني أن تغني من جديد أغاني تراكل المرتجلة».

* * *

يشهد كل من هولتهونه وكريمر وغروندتش، ولو في عبارات متفاوتة، أنهم شعروا بأنَّ أغنية ليني حلوة لطيفة. هولتهونه: «يا إلهي، شيء حلو مثل هذا في هذا الزمن المحزن: الصغيرة بصوتها الغنائي الخفيض الأنيق التي غنّت ـ من غير أمر ـ؛ ثم استطاع المرء أن يرى أنها عرفت صاحبها شوبيرت على ظهر قلب، ولمهارتها في تنويع النصوص الجميلة المؤثرة». وتقول كريمر: «الحقّ أنَّ هذا كان ضوءَ شمس حقيقيّاً حين غنّت ليني شيئاً ما. حتى إنَّ المرأة فانفت أو المرأة شيلف لم يكن عند أي منهما اعتراض على هذا؛ وكان في إمكان المرء أن يرى ويسمع ويحسّ أيضاً أنها لم تكن عاشقة فحسب، بل كانت معشوقة أيضاً ـ ولكن لِمنْ ومن قبل مَنْ ـ ما من أحد منا كان سيعرف لأنَّ الروسي كان يقف دائماً من الحادث موقف الهادىء الساكن ويتابع عمله في عناد وإصرار».

غروندتش: «كان عليَّ أن أضحك ضحكاً شديداً في الظاهر والباطن على غيظ كريمب، هذا الكريه الرديء. ولكم تميّز غيظاً من صونيا! ولكأنه لم تكن هناك مئات، بل آلاف النساء اللواتي كان اسمهنّ صونيا، وكانت سرعة خاطر من ليني أن تأتي على ذكر صونيا هينه،

الحق أنَّ هذا كان أشبه بزهرة عباد الشمس تتفتح أو تخرج على حقل كرب شتائي حين طفقت الفتاة تغني. كان هذا رائعاً، وأحسّ كل منا أنها معشوقة وعاشقة ـ مثلما كانت هي نفسها يانعة الجمال آنذاك. طبيعي أنه لم يدرِ أحد إلاّ فالتر مَنْ كان الشخص المختار».

بيلتسر: «أبهجني غناؤها بطبيعة الحال، على أنني ما كنت قد عرفت حتى ذلك الحين أنَّ لها صوتاً غنائياً خفيضاً رقيقاً وجميلاً إلى هذا الحد ـ لكن لو أني أستطيع أن أشرح لك ولو من قبيل التلميح أيضاً مدى الغيظ الذي سبّبه لي هذا. والاتصالات الهاتفية ـ والاستفسار أخذاً ورداً عمّا إذا كانت أغاني روسية وعمّا إذا كان للروسي شأنٌ بذلك وهلمَّ جرا، ثم هدأت الحال، لكنه كانت هناك مضايقات، وما كان الأمر بمأمون وإني لأقول لك: لم يكن الأمر بمأمون آنذاك».

هنا وفي هذا المقام لا بدَّ من تصحيح الانطباع الذي ربما نشأ بالخطأ والذي ربما كان قوامه أن بوريس وليني أمضيا حياتهما في كآبة دائمة أو أنَّ بوريس كان يطمح أكثر ما كان يطمح إلى أن يختبر ثقافة ليني أو يتمّمها، ثقافة ليني المتعلقة بالشعر الألماني والنثر. وكما روى لبوجاكوف آنذاك فإنّه سُرَّ بالعمل وكان منشرح الصدر لأنه، حين استطاع أن يتأكد من أمر ما، استطاع أن يتأكد من لقاء ليني ويمنّي نفسه «بمضاجعة» بحسب الموقف الحربي وموقف القصف بالقنابل والموقف العام. وبعد أن تلقّى التأنيب الشديد على غنائه في الحافلة الكهربائية كان عاقلاً بما يكفي لأن يكبت بمشقة رغبة متوثبّة في أن ينطلق في الغناء. كان يعرف عدداً من الأغاني الشعبية الألمانية وأغاني الأطفال أتقن إلقاءها بصوت حزين؛ وقد جرَّ عليه هذا متاعب مع فيكتور

غينريشوفيتش وبعض رفاقه في المهجع الذين لم تهفُ أنفسهم حتماً إلى أغانٍ ألمانية (وهذا شيء واضح ومفهوم ـ المؤلف). وأخيراً حصل اتفاق: بما أنَّ ليلي مارلين كان موافقاً عليها، لا بل كانت مطلوبة، وتمَّ الاعتراف بصوت بوريس فقد كان يسمح له أن يغني أغنية ألمانية أخرى، إذا ما غنّى ذات مرة لليلي مارلين (أغنية لم تناسب طبعه على حد قول بوجاكوف ـ المؤلف). وأغنياته المحبّبة، كما يقول بوجاكوف: ‹على العين أمام البوابة›، ‹رأى صبي›، ‹في أرض معشبة›. وإنه لمفترض أنه ليس أحبّ إلى بوريس من أن يتغنّى من فوق رؤوس الراكبين معه المكتئبي الوجوه في الحافلة الكهربائية في الصباح الباكر بأغنية من مثل ‹اصغ إلى ما يأتي من الخارج›. على أية حال بقي له عزاء بعد الأغنية الفريدة التي أسيء فهمها فهماً مزعجاً وقمعت قمعاً وحشياً: فالعامل الألماني الذي كان قد همس إليه آنذاك بشيء معزٍّ كان يركب معه كل صباح تقريباً في الحافلة الكهربائية نفسها. طبيعي أنه لم يعد في وسعهما أن يتبادلا كلمة واحدة، إلاَّ أنَّ كلاً منهما اكتفى بأن ينظر بين الحين والآخر في عيني الآخر نظرة عميقة حرّة، وإنَّ مَنْ كان في الوضع نفسه، هو وحده يقدّر كم يمكن أن تعني بعض الأعين التي يسمح للمرء أن ينظر فيها بعمق وحرية. وقبل أن يبدأ هو نفسه الغناء أيضاً في المؤسسة (بوجاكوف) اتخذ احتياطاً من نوع حكيم. وبما أنه كان لا بدَّ من أن **يتكلّم** معه الجميع تقريباً في محل صناعة الأكاليل بين الحين والآخر، حتى كريمب والمرأة فانفت ـ ولو أنها كانت كلمة مدمدم بها مثل «هناك» أو «تعال» أو «الآن» ـ وبما أنَّ بيلتسر كان مضطراً إلى أن يجري بين الحين والآخر حواراً مستفيضاً مع بوريس حول الشرائط ومسك دفاتر

الأكاليل والزهور وحركة العمل التي يجب تغييرها ـ فإنَّ بوريس تقدّم إليه ذات يوم بالطلب ما إذا كان سيسمح له أيضاً بأن «يغني أغنية» بين الحين والآخر.

* * *

بيلتسر: «دهشت دهشة بالغة. أجل. ذلك أنَّ نفس الشاب ما زالت تهفو إلى ذلك. إلا أنّ هذا كان أمراً حساساً حرجاً جداً بعد الخيبة بالأغنية في الحافلة الكهربائية بينما لم يلاحظ أحد ولحسن الحظ أي شيء، اللهم ، إلاَّ أنه غنّى. وحين سألته لماذا هو معتزم أن يغني وأوضحت له أنه بالنظر إلى الوضع الحربي لا بد أن يجد المرء في غناء أسير حرب روسي استفزازاً ـ ولا تنسَ أنَّ هذا كان في حزيران سنة ٤٤، وروما صارت في قبضة الأمريكان وسيفاستبول عادت إلى حوزة الروس ـ، عندما قال لي: ‹إنَّ هذا يبعث في نفسي السرور الزائد›. ويجب أن أقول لك إنني تأثرت، تأثرت جداً: إنه يروق له أن يغني أغاني ألمانية. عندها قلت له: ‹اسمع يا بوريس، أنت تعرف أنني لست بإنسان فظ غليظ القلب ولا داعي لأحد أن يخافني، ولا مانع عندي، وتستطيع أن تغني أغانيك بصوت عالٍ مثل شاليبابين، لكنك تعرف ما سبّبه غناء السيدة بفايفر من بلبلة (لم أسمّها قطّ ليني في حضوره)، فأيُّ شيء سيكون عندما أنت...› وفي نهاية الأمر جازفت وألقيت خطبة قصيرة وقلت: ‹اسمعوا أيها الناس، إنَّ صديقنا بوريس هذا الذي يعمل معنا هنا منذ نصف سنة. ونعرف كلنا أنه عامل جيّد وإنسان هادىء خجول متواضع، ثم إنّه ليحبّ الأغاني الألمانية والغناء الألماني ويتمنى لو

نسمح له بأن يغني أغنية ألمانية في أثناء العمل بين الفينة والفينة. واقترح أن نصوّت، فمن يوافق عليه فليرفع يده›، وكنت أوّلَ مَنْ رفع يده على الفور ـ ونظرت فإذا بكريمب لم يرفع يده على فوره، بل دمدم بشيء ما بينه وبين نفسه ـ ثم تابعت القول: ‹إنَّ ما يريد بوريس إلقاءه هو أولاً وأخيراً تراث ألماني، ولا أرى أيّ خطر في ذلك حين يتتبع إنسان سوفييتي التراث الألماني إلى هذا الحدّ›. ثم إنَّ بوريس كان لديه من الحكمة ما يكفي لئلا يشرع في الغناء فوراً، فقد انتظر عدة أيام، ومن ثم، أقول لك، غنّى أغنيات من تأليف كارل ماريا فون فيبر بكيفية لم أسمعها في الأوبرا على نحو أفضل. كما أنّه غنّى ‹آديلا يدي› لبيتهوفن، غناءً لا تشوبه شائبة من حيث الموسيقا وبلغة ألمانية لا تشوبها شائبة. ثم إنه غنّى لي أغاني حب كثيرة، وغنّى أخيراً ‹هيّا إلى مهاغوني، فالهواء رطب ونقي، وهناك لحم خيول ونساء، وويسكي وطاولات بوكر›. وكثيراً ما غنى هو هذا، وفيما بعد عرفت أنَّ مؤلفها بريخت ـ ولا بدَّ لي من اقول إني ما زلت أرتعد فرقاً حتى فيما بعد ـ وإني لاستحسن هذه الأغنية، واشتريت فيما بعد الاسطوانة، وكثيراً ما استمع إليها حتى في هذه الأيام، ويطيب لي الاستماع إليها ـ لكنني ارتعد خوفاً كلما خطر ببالي أنَّ أسير حرب روسياً غنّى بريخت في خريف سنة ٤٤ حين كان الانكليز عند أرنهايم والروس على مشارف مدينة وارصو والأمريكان في مدينة بولوني تقريباً... في مثل هذه الأحوال يمكن أن يشيب المرء فيما بعد. لكن مَنْ ذا الذي عرف بريخت، ولا إلزه كريمر عرفت بريخت ـ وكان في وسعه أن يطمئن إلى أنّه ما من أحد عرف بريخت، وما من أحد أيضاً عرف تراكل هذا: ولم أنتبه إلى ذلك إلاَّ في

وقت متأخر: كان هذا أغنية غرامية يغنيّها هو وليني بالتناوب! أغنية غرامية حقيقية يتناوبان في غنائها».

* * *

مارغريت: «كلاهما ازداد جرأة وإقداماً، لقد تملكني رعب شديد. كانت ليني تحضر له معها كل يوم، يوماً، شيئاً ما: سجائر، خبزاً، سكراً شاياً، قهوة وجرائد طوتها إلى مربعات متناهية الحجم، شفرات حلاقة، قطع ثياب ـ وكان الشتاء قد أقبل. وفي إمكانك أن تحسب أنه بدءاً من منتصف آذار سنة ٤٤ لم يمرَّ يوم لم تحضر له فيه شيئاً ما. فقد حفرت في لفات اللبد النباتي السفلي كهفاً كانت تسدّه من جديد بنوع من سدادة اللبد النباتي، وطبيعي أنَّ المخبأ كان يطل على الجدار، ومنه كان عليه أن يخرج الأشياء فيما بعد. وطبيعي أنها هي أيضاً كانت تلاطف الحراس لكي يوفروا لها اللباد ـ وكان لا بدَّ أن يحصل هذا بحذر واحتراس، ثم كان هنالك ذلك الإنسان الوقح، كان مرحاً، لكنه كان وقحاً، فقد أراد هذا أن يذهب مع ليني ذات مرة إلى الرقص، وشيء من هذا القبيل أيضاً وغير ذلك، هكذا سمّى هو هذا، «الذهاب إلى التطويق مرة من المرات» ـ وإنه لخنزير صغير وقح، وأغلب الظن أنه عرف أكثر مما أراد أن يعترف به. فقد أصرَّ هذا بأن تخرج ليني معه ذات مرة، وأخيراً كان لا بدَّ من ذلك، وطلبت أنْ أرافقها. ذهبنا عدة مرات إلى صالات الرقص الخاصة بالجنود والتي عرفتها جيداً، لكنّ ليني لم تكن تعرفها، واعترف الشاب بصراحة أنني من طينته وألبيّ ذوقه أكثر من ليني التي هي امرأة حساسة جداً، فأنا من طراز ‹اللؤلؤة الجذابة المستهترة السادرة›

ـ ثم وقع المحذور، ولأنَّ ليني كانت خائفة خوفاً شديداً ذلك أنَّ الشاب ـ الذي كان يدعى بولديغ ـ قد يكتشف شيئاً ويسبب أذى ومضرّة. فأنا لم ـ أنّى لي أن أعبر عن ذلك بتعبير آخر ـ أجل، إنني لم أجد بروحي بالضبط ، لكنني تحملته، وربما بتعبير أفضل، تعهّدت به، الحق أنها لم تكن تضحية كبيرة لي، ولم يعد الأمر يتعلق كثيراً أو قليلاً بواحدٍ ما في نهاية سنة ٤٤. فقد عاش هذا في ترف ورفاهية نوعاً ما، هذا السيّد الشاب الوقح: أفضل الفنادق فقط عندما يكون معي، وكما كان يسميّ هو ذلك، فقد أراد أن <يدورّ أسطوانة>، ثم الشمبانيا وما شابه ذلك ـ أهم شيء كان، أنه تبين أنه لم يكن وقحاً فحسب، بل كان دعيّاً أيضاً، كان يثرثر بكل شيء عندما كان يسكر قليلاً. كان يتاجر بكل ما هو ممكن: بالعرق والسجائر طبعاً، بالقهوة واللحم، على أنَّ أكثر أعماله ربحاً كانت وثائق لمنح الأوسمة وبطاقات جرحى وبطاقات جندية ـ وهذه أشياء كان قد سرقها مجموعات مجموعات عند انسحاب ما، وفي إمكانك أن تتصورّ، عندما سمعت ببطاقات جندية، عندها فتحت عيني، بسبب بوريس وليني. تركته يثرثر ثم سخرت منه، حتى **أراني** هذه الأشياء، وبالفعل: كانت ترافقه دائماً علبة من الورق المقوّى بحجم القاموس مليئة باستمارات مختومة وموقّعة وأذونات وتراخيص قيادة. حسن. تركت الأمور كما هي ـ على أنَّ هذا كان في **يدنا**، بينما هو ما زال يجهل كلَّ شيء عنّا. وسألته بكل حذر عن الروس، ووجد أنّ هؤلاء ربما كانوا خنازير بائسة، وأنه في بعض الأحيان تبرّع لهؤلاء ببعض سجائر اللف، وأنَّ هؤلاء ربما حصلوا في كل الأحوال على أعقاب سجائر، وأنه ما كان ليهمه أن يخلق أعداء علاوة على ذلك. وبولديغ هذا أخذ

ثلاثة آلاف مارك لقاء الصليب الحديدي(١) ووجد هذا ‹رخيصاً› وخمسة آلاف مارك مقابل بطاقة جندية، وهذا ‹بحسب الظروف إنقاذ حياة› ـ وبطاقات الجرحى نفدت كلها عنده حين جاء السيل الارتدادي من فرنسا واختبأ الفارون في الأنقاض وهؤلاء تبادلوا إطلاق النيران على الساق والذراع ـ بالمسافة المناسبة طبعاً ـ ثم اثبتت بطاقات الجرحى لديهم أنّ كل شيء كان قانونياً عندهم. وعملت آنذاك سنتين في المستشفى العسكري وعرفت ما يحدث لمن شوّهوا أنفسهم».

* * *

بيلتسر: «كان هذا في الوقت الذي بدأ الشغل يخفّ تدريجياً لفترة قصيرة. وكان من حسن الحظ أنَّ كريمب الذي كانت ساقه الاصطناعية تضايقه دائماً كان عليه أن يذهب إلى المستشفى العسكري لعدة أشهر. وكان في وسعي أن استغني عن شخصين أو ثلاثة أشخاص ببساطة ـ التوضيح: لم يقل عدد الموتى، لكن إخلاء المدينة أنجز على نحو أكثر حزماً وإصراراً وعلى نحو أشدّ أيضاً. ولم يعد يؤتى بالجرحى كلّهم إلى مدينتنا بأعداد كثيرة، بل كانوا يرحلون عبر الراين. ولحسن الحظ تمّ إجلاء شيلف وتسيفن طوعاً واختياراً إلى ساكسونيا ـ وفي نهاية المطاف ‹خلا الجوُّ لنا› تقريباً؛ على أنَّ تشغيل العمال الباقين إلى حدّ ما كان صعباً بما فيه الكفاية. ودفعت بالعمال أخيراً إلى المشتل ـ ولكنه بقي بهذه الطريقة أيضاً محلٌّ مشلول يكاد لا يغطي النفقات. ففي سنة ٤٣ كان عندنا نوبة عمل مزدوجة، وبين الحين والآخر أحدثنا نوبة عمل ليلية، وعمَّ كساد، وفجأة زيادة من جديد ارتبطت بعمليات الغارات الجوية

المتزايدة التي قام بها الانكليز ـ إذاً، بما أنَّ مهنتنا تعدّ مهنة دفن ـ وبما أنه كان هناك في المدينة موتى من جديد بأعداد كافية فقد استرجعت العمال في المشتل وأحدثت نوبة العمل الليلية من جديد، وهذه الفترة صادف أحد اختراعات ليني، في وسع المرء أن يقول، وهذا الاختراع أحيا المحل أيّما إحياء. وكانت قد اكتشفت مع إريكا في مكان ما عدّة قدور مهشّمة وبدأت تصنع منها أكاليل بلا إجسام، أشياء صغيرة مضفّرة تضفيراً محكماً، وطبيعي أنَّ هذه الأشياء أثارت من جديد شبهة إضفاء الطابع الروماني عليها ـ إلاَّ أنه لم يفكرّ بمثل هذه التوافه إلاَّ بضع أغبياء بدءاً من منتصف ٤٤ ـ، وقد بلغت ليني في ذلك حدّ الاتقان والكمال، فهذه الأكاليل كانت صغيرة وسهلة الاستعمال وأقرب إلى أن تكون معدنية، بل أنّها زوّدت فيما بعد بورنيش، وضفّرت ليني فيها الأحرف الأولى للمتوفى أو للواهب المتبرّع، وأحياناً أيضاً الأسماء الكاملة إذا لم تكن طويلة جداً: هاينز لبّى لتوه نداء ربّه وكذا ماريا، وعند ذلك نشأت تعارضات جميلة: أخضر على بنفسجي، وما من مرّة أخلّت ليني قط بقانون التزيين في ثلث الإكليل العلوي الأيسر. طربت وطرب الزبائن ـ وبما أنه كان في إمكاننا أن نعبر الراين بحرية ومن غير خطر بالغ أيضاً فلم يكن صعباً أو متعذّراً جلب الخلنج عربة تلو العربة. وفي بعض الأحيان بزّت هي نفسها حين كانت تضفر رموزاً دينية ومراسي وقلوباً وصلباناً».

* * *

مارغريت: «طبيعي أنَّ ليني كانت لها مقاصدها الخفية حين بدأت

بأكاليل الخلنج. فقد عبّرت هي نفسها عن ذلك على النحو التالي: المفروض أن يكون سرير دخلتها من الخلنج، وبما أنّه كان عليهما أن يبقيا في حرم المقبرة فلم يكن هناك من سبيل إلاّ تعيين أحد مدافن الأسرة للميعاد الغرامي؛ ووقع اختيارهما على الكنيسة الخاصة الكبيرة لآل بوشامب التي كانت آنذاك متضرّرة لدرجة لابأس بها؛ وكان فيها مقاعد ومذبح صغير لم ير المرء وراءه الخلنج، وكانت مهمة سهلة ميسّرة أن ينزع المرء من المذبح حجرة وأن يعدّ هناك مخزناً صغيراً فيه سجائر وخمر وخبز وحلوى. وفي الوقت نفسه ازدادت ليني مكراً ودهاء، فمنذ زمن طويل لم تعد تقدم لبوريس كل يوم فنجان قهوة، بل كل أربعة أو خمسة أيام. وتجاهلته أحياناً عند تسليم الأكليل، وقلّما اجتمعت به في داخل المحل، ولم تعد تتهامس معه، ثم أزيل المخبأ في بالات اللبد النباتي ونقل إلى مذبح كنيسة آل بوشامب. كان الثامن والعشرون من أيار نهارها الأبيض: فقد انطلق إنذاران بغارة جوية، الواحد تلو الآخر بفاصل زمني قصير، وكلتاهما غارتان نهاريتان بين الواحدة والرابعة والنصف ـ لم يسقط الكثير من القنابل، إنّما سقط ما يكفي ليجعل من ذلك غارة حقيقية. على أية حال عادت في المساء إلى البيت متألقة وقالت: ‹كان اليوم يوم زفافنا ـ الثامن عشر من آذار كان يوم خطبتنا، وأنت تعرفين ما قاله بوريس لي: إصغي إلى الانكليز، فهؤلاء لا يكذبون›. ثم جاء وقت عصيب لم تحدث غارة نهارية فيه لمدة أكثر من شهرين، ومعظم الغارات غارات ليليّة، بعضها قبيل منتصف الليل، وكنا نحن في السرير، ولعنت ليني بينها وبين نفسها: ‹لماذا لا تأتي في أثناء النهار، متى تأتي في أثناء النهار، ولماذا لا يسرع الأمريكان، ولماذا يحتاج

هؤلاء إلى الوقت الطويل حتى يصلوا إلى هنا، فالمسافة ليست ببعيدة؟› كانت حينذاك حاملاً، وفكرنا في أن نجد أباً لطفلها. وفي نهاية المطاف حدثت غارة كبيرة في يوم عيد صعود المسيح دامت ساعتين ونصف، على ما أظن ـ وسقط من القنابل ما يكفي، حتى إنَّ بعضها سقط على المقبرة، وبعض الشظايا اخترقت زجاج نافذة كنيسة بوشامب ومرت كالريح من فوقهما كليهما. ثم جاء الوقت الذي سمته ليني الزمن ‹المجيد الرائع›، ‹شهر السبحة المجيدة› ـ بين الثاني من تشرين الأول والثامن والعشرين منه تسع غارات نهارية كبيرة. وقالت ليني معقبّة على ذلك: ‹أدين بذلك إلى راحيل وأم الرب، فهاتان كلتاهما لم تنسيا مدى حبّي لهما.›».

* * *

ينبغي هنا وفي هذا المقام تقديم بعض الحقائق الموضوعية على جناح السرعة، وعلى نحو مختصر إذا صحّ التعبير: ذلك أنَّ ليني كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وبتعبير بورجوازي ربّما سمّى المرء بلا حرج الأشهر الثلاثة بين عيد ميلاد السيد المسيح سنة ٤٣ و«المضاجعة» الأولى في ١٩٤٤/٣/٨ فترة الخطوبة، وبدءاً من يوم عيد صعود السيد المسيح سنة ١٩٤٤ علينا أن نطلق عليهما كليهما اسم «المتزوجين حديثاً» أو «العريسين»، ونسميهما زوجين كانا قد وضعا مصيرهما كلّه في يدي هاريس المشير الجوي الذي كانا لا يعرفانه آنذاك. ويساعدنا الإحصاء الأكيد هنا أكثر من بيانات بيلتسر ومارغريت. ففي الفترة الواقعة بين ٩/١٢ و ١٩٤٤/١١/١٣ كان هناك سبع عشرة غارة

نهارية وسقط نحو ١٥٠ لغماً جوياً وأكثر من ١٤٠٠٠ قنبلة مدمّرة و نحو ٣٥٠٠٠ قنبلة حارقة؛ وعلى المرء أن يدرك أنَّ هذا العماء الذي لا محيد عنه كان مناسباً للزوجين: فما عاد المرء يهتم كل الاهتمام بمن اندسّ في مكان ما وبمن خرج مع مَنْ زاحفاً من مكان ما أو أنه كان كنيسة لمدفن أسرة. لقد تخلّف عشّاق شديدو الحساسية وشكاؤون عن الركب في مثل هذه الأوقات و ـ الظاهر أنَّ ليني لم تكن شكاءة ولا شديدة الحساسية، ولا بوريس أيضاً. وطبيعي أنه كان لديهما متسع من الوقت ليتحدثا عن الآباء والإخوة والأخوات والأهل وسير التعليم وعن الوضع الحربي. وبدرجة شبه علمية يمكن الإثبات استناداً إلى إحصائية الغارات الجوية أنَّ ليني وبوريس قضيا معاً بين آب وكانون الأول سنة ٤٤ نحو أربع وعشرين ساعة كاملة، وفي ١٠/١٧ فقط ثلاث ساعات متتالية. فإذا ما خطر ببال شخص ما أن يرثي لهما كليهما فما عليه إلاَّ أن يسارع إلى التخلص من هذا الشعور، وإذا ما فكرّ المرء كم هو قليل عدد أولئك الأزواج، سواء أكانوا مرتبطين معاً ارتباطاً شرعياً أم غير شرعي، وسواء أكانوا أسرى أم طلقاء، الذين استطاعوا أن يمضوا معاً وقتاً كثيراً في مثل هذا الحنو والحب، فعلى المرء أن يصف كلا الزوجين في هذا المقام أيضاً بأنهما المقرّبان إلى القدر ـ اللذان تاقا على نحو مشين مستنكر إلى غارات نهارية لسلاح الجو البريطاني لكي يلتقيا مرة أخرى في الكنيسة الصغيرة الخاصة بآل دوشامب.

* * *

الشيء الذي لم يظنّه بوريس ولم يشعر به، لا ولم يعرفه أيضاً قط:

أنَّ ليني تعرّضت لصعوبات مالية كبيرة. فإذا ما فكرّ المرء في أنَّ أجرها الشهري لم يكن يساوي أكثر من نصف كيلو قهوة والإيرادات من بيتها نحو مئة سيجارة وأنَّ استهلاكها من القهوة كان نحو كيلو، أما استهلاكها من السجائر، إذا ما أضاف المرء إلى ذلك ما كان عليها أن «تدسّه» دائماً في جيب شخص ما، فكان يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة سيجارة، فسيرى كل واحد أنَّ هنا قانوناً من أبسط القوانين الاقتصادية قد فعل فعله بسرعة كسرعة هيار ثلجي: مصاريف زائدة مع دخل ضئيل. وبمراجعة دقيقة للحساب، أو بدقة مطلقة لما يقارب الاحتمال، فإنَّ ليني احتاجت إلى نحو أربعة آلاف مارك، وأحياناً إلى خمسة آلاف مارك في الشهر لكي تموّن بيتها بالقهوة والسكر والخمر والسجائر والخبز ـ وهذه البيانات تتبع أسواق الأوراق المالية لسنة ٤٤. فقد بلغت فيها إيراداتها، أجرها وإيجارات السكن نحو ألف مارك؛ والنتائج واضحة جليّة: ديون. وإذا ما أضاف المرء إلى ذلك أنها علمت بدءاً من نيسان ١٩٤٤ بمكان إقامة أبيها وأنها أرادت أن «توافيه» أيضاً بشيء ما بين الحين والآخر بطرق غير مباشرة ومعقّدة، فقد ارتفعت ميزانيتها الشهرية بدءاً من حزيران ١٩٤٤ إلى نحو ستة آلاف مارك مصاريف يقابلها من الإيرادات ألف مارك. وما كانت قد ادخرت أية مدّخرات على الإطلاق، كما أن استهلاكها الشخصي قبل أن يتطلب بوريس وأبوها مصاريف إضافية، زاد عن إيراداتها كثيراً. وخلاصة القول: إنَّ ما يمكن إثباته هو أنَّ ديونها بلغت في أيلول ١٩٤٤ عشرين ألف مارك وأنَّ دائنيها قلَّ صبرهم وضاق بهم الإنتظار. وفي هذه الفترة بالذات اتخذ هوس التبذير عندها بعداً جديداً: فقد رغبت في مواد كمالية مثل شفرات الحلاقة

والصابون، لا بل والشوكولاته ـ ثم الخمر، الخمر المرة تلو المرة.

* * *

لوته هويزر عقبّت على ذلك: «الحق أنها لم تستلف مني قط، ذلك لأنها كانت تعرف أنني كنت أعاني ما يكفي من الصعوبات مع كلا طفليَّ، وعلى العكس: إنها أعطتني بين الحين والآخر شيئاً ما بعيداً عن أعين الناس، بطاقات خبز وسكر، وأحياناً أيضاً تبغاً أو عدة سجائر. لا، لا. لقد كانت إمرأة صالحة. وقلّما جاءت إلى البيت بين نيسان وتشرين الأول، وكان في وسع المرء أن يرى في سيماها أنَّ شخصاً ما كان في حياتها أحبّته وأحبّها. وطبيعي أننا لم نعرف من كان وظننا كلنا أنه كان لها مواعيدها الغرامية في منزل مارغريت. كما أنني لم أعد موجودة آنذاك في الشركة العامة لعامٍ مضى وكنت أعمل لدى مكتب العمل وفيما بعد لدى رعاية المشرّدين وكسبت نقوداً كثيرة بحيث استطعت أن ابتاع حاجاتي بالبطاقات. كانت الشركة قد أعيد تنظيمها، واستلم الإدارة بعد حزيران سنة ٤٣ شخصٌ جديدٌ قوي الجسم من الوزارة وسميّناه كلّنا ‹الريح الجديدة›، لأنّه كان يتكلّم بصورة دائمة عن ‹تهوية الجو الدافيء المريح القديم وإخراج الرائحة النتنة من الغرفة!› وكان اسمه كيرفيند. وكان من ضمن هذه الرائحة النتنة أيضاً حمي أبو زوجي وأنا. وقال لي بصراحة: ‹طال وجودكم هنا كثيراً، كثيراً جداً ـ ولا أريد أن يكون لي معكما كليكما أيَّ نكد أو مضايقة، إذا ما كان علينا الآن القيام بحفر الخنادق والتحصينات على الحدود الغربية ـ هناك ستكون الحال صعبة مع روس وأوكرانيين وروسيات وجنود ألمانيين مذنبين. هذا لا

شيء بالنسبة لكما. الأفضل أن تذهبا طوعاً واختياراً›.، كان كيرفيند النموذج الكلاسيكي الحازم الجريء، تهكّمي ساخر، لكنه لا يخلو من الظرف ـ وكثر وجود هذا النموذج. ‹كلّكم تفوح منكم رائحة غروتن›. ذهبنا إذاً، أنا إلى دائرة العمل وأبو زوجي إلى السكة الحديدية محاسباً. ولست أدري، أنى لي أن أعبّر عن ذلك، هل أبان هويزر آنذاك عن طبعه الحقيقي أم هل كونّت الظروف هذا الطبع. فقد صار أقرب إلى الخساسة والحقارة. وبقي هكذا إلى يومنا هذا. ولو وصفنا الأوضاع في منزلنا بالجحيم لكان الوصف بسيطاً. وبعد إلقاء القبض على غروتن كان عندنا في باديء الأمر نوع من جمعية السكن والطبخ ضممنا إليها هاينريش بفايفر الذي كان لا يزال ينتظر آنذاك استدعاءه للخدمة. وباديء ذي بدء قامت ماريا وحماتي بشراء الحاجات وكفلتا الطفلين، وبين الحين والآخر كانت ماريا تسافر إلى الريف إلى تولتسم أو لوسيميتش وكانت تجلب معها على الأقل بطاطا وخضراوات، وبيضاً أيضاً في بعض الأحيان. وسارت الأمور على خير ما يرام ردحاً من الزمن، إلى أن بدأ حمي يجلب معه إلى المنزل الشوربة الحرة التي كان يحصل عليها ظهراً لدى سكة الحديد ويسخنها مساءً ويرشفها أمام أعيننا بلذة، بالإضافة طبعاً، بالإضافة إلى ما كان يحصل عليه من القِدْر المشتركة. بعد ذلك جُنّت حماتي ‹جنوناً ساخطاً›، كما سمّت ماريا هذا، وطفقت تعيد وزن كل شيء؛ ثم جاءت الفترة التي قفل فيها كل واحد على أشيائه في خزانة صغيرة يتصدرها قفل، وطبيعي أنهم أخذوا يتهمون بعضهم بعضاً بالسرقة. وكانت حماتي تزن سمنتها الصناعية النباتية قبل أن تقفل عليها وكانت تعيد وزنها عندما كانت تخرجها، وفي كل مرة كانت تزعم

أن شيئاً ما قد سرق منها. فما اكتشفته **أنا** هو أنها ـ أي حماتي ـ بدأت حتى بحليب طفلي وخلطته بالماء لكي تصنع لنفسها أو للشيخ بين الحين والآخر حلوى البودينغ. وانضممت إلى ماريا، وتخليت لها عن التسوق والطبخ، وكانت حالتي في أثناء ذلك على ما يرام، وكانت ماريا أو ليني تنفق عن سعة وتترفعان عن الصغائر ـ إلاَّ أنَّ العجوزين هويزر أخذا الآن يتجسسان ويتسقطان الأنباء حين كان يطبخ شيء ما أو يوضع على المائدة، ثمَّ ظهر نوع جديد جميل: ألا وهو الحسد. الحق أني حسدت ليني، وخطر ببالي أنها ربما ذهبت في حال سبيلها ووجدت ملاذاً لها مع عشيقها عند مارغريت. أما الآن ومنذ أن عمل هويزر الشيخ لدى السكة الحديدية وسّع علاقاته، كما سمّي هو ذلك، إذ أنه كان يقوم بمسك الدفاتر لسائقي القاطرات مع نظرائهم الذين كانوا يسافرون آنذاك في سنة ٤٣ إلى كل ركن من أركان أوربا تقريباً ويأخذون معهم إلى هناك بضائع مطلوبة ويأتون إلى هنا ببضائع لها سوقها. كانوا يأتون بخنزير كامل من أوكرانيا مقابل كيس ملح ويجلبون السجائر من هولندا الميتّة كلها جوعاً أو من بلجيكا والخمور من فرنسا، ثم الخمور والشمبانيا والكونياك مقابل كيس من دقيق الحنطة. ومهما يكن فإنَّ هويزر كان في المكان المناسب، وبما أنه قام فيما بعد بتنسيق جداول مواعيد السفر والخدمة لقطارات النقل فقد صار متعهّداً كبيراً، وكان يحلّل تحليلاً دقيقاً أين تكون الأشياء قليلة في أوربا واتخذ الترتيبات والإجراءات الضرورية لتهريب سلع مناسب: فاللفائف الغليظة اتجهت إلى النورماندي مقابل الزبدة، وطبيعي قبل الاجتياح، ومقابل الزبدة حصل المرء بعد ذلك في أنتفيربن على سجائر غليظة ضعف ما كان قد أعطى لقاء ذلك في

النورماندي ـ ولأنه استلم أيضاً تقسيم الرحلات، فقد سيطر على الوقّادين وسائقي القطارات، وخصّ بطبيعة الحال أولئك الذين تعاونوا معه على النحو الأفضل، بأفضل الرحلات، وطبيعي أنه كانت في السوق الألمانية الداخلية أيضاً سلعٌ مختلفة جداً في الأماكن المختلفة متفاوتة المكانة والحظوة. وكان في الإمكان بيع كل شيء في المدن الكبرى على أحسن وجه: الأكل والوسائل الغذائية المترفة ـ وطبيعي أنَّ القهوة كانت في مناطق ريفية أكثر رواجاً ـ وبالمقايضة ـ الزبدة مقابل القهوة أو ما شابه ذلك ـ استطاع المرء أن يضاعف أسهمه، كما كان المرء يسمّي هذا. واتضح طبعاً أنَّ ليني كانت الأكثر اقتراضاً؛ والظاهر أنه أنذرها، ولكنها كلما احتاجت إلى المال أعطاها هو إيّاه. وفي نهاية المطاف لم يعد هو مموّلها فحسب، بل موردّها أيضاً، وهنا كان في استطاعته أن يقوم بصفقة إضافية ذلك بأنه أضاف إليها قليلاً، ولم تلاحظ ليني ذلك. كانت تكتفي بأن توقع سندات الديون دائماً. وأخيراً كان هو ذلك الذي اكتشف مكان غروتن الشيخ، في أول الأمر عامل بناء على سواحل الأطلسي في فرنسا على آلة خلط الإسمنت مع وحدة جنود مذنبين، وفيما بعد في برلين لرفع الأنقاض بعد الغارات ـ وأخيراً وجدنا إمكانية لأن نرسل إليه طرداً بين الحين والآخر ونتلقى منه خبراً، وفي معظم الأحيان كان يرسل إلينا خبراً: ‹لا تقلقوا. سأعود في القريب العاجل›. ثم كانت هناك أيضاً أموال مستحقة الدفع. وحدث ما كان يجب أن يحدث، ففي آب سنة ٤٤ بلغت ديون ليني عند هويزر عشرين ألف مارك، وهل تدري ماذا فعل: لقد استعجلها وشدّد عليها! قال إن صفقاتي ستتوقف، يا بنيتي، إن لم أسترجع المال وأنت تعرفين ما معنى

هذا؟ لقد أخذت ليني رهناً عقارياً قدره ثلاثون ألف مارك على بيتها فأعطت الشيخ عشرين ألف واحتفظت هي بالعشرة آلاف الأخرى. لقد حذّرتها وقلت لها إنه لجنون أن يقترض المرء على قيم عينية في أزمان التضخم النقدي ـ لكنها ضحكت وأهدتني شيئاً للطفلين وأعطتني علبة سجائر لفّ من فئة العشر قطع، وبما أنَّ هاينريش كان قد انسلّ إلى البيت عندنا بحثاً عن لقمة إضافية فقد أعطته شيئاً أيضاً وأقدمت على رقصة قصيرة مع الشاب المندهش كل الاندهاش. وكان رائعاً كيف كانت مستهترة وفكهة، ولم أحسدها هي فحسب، بل حسدت الشاب الذي أحبّته حبّاً جماً. وبعيد ذلك ذهبت ماريا إلى الريف إلى زمن، واستدعي هاينريش إلى الجندية، وبقيت وحدي مع العجوزين اللذين كان عليَّ أن أعهد إليهما بطفليَّ. وحدث لليني ما كان يجب أن يحدث: فقد صار الرهن الثاني مستحق الدفع، من ثم، أجل، من ثمَّ ـ وأخجل أن أقول ذلك ـ من ثمَّ اشترى منها البيت فعلاً، بيتاً لم يتهدّم إلاَّ في جزء منه في ذلك الوضع، نهاية سنة ٤٤ ـ حيث كان صعباً أن يحصل المرء على شيء لقاء المال ـ وأعطاها مرة أخرى عشرين ألف، وطلب شطب الرهونات التي حررت على اسمه، وهنا صار ما كان قد طمح إليه في ظاهر الأمر بصورة دائمة: مالك بيت، وامتلك هو الشيء الذي تبلغ قيمته في هذه الأيام نحو مليون مارك، وما تنطوي عليه طبيعته لم ألاحظه إلاَّ عندما بدأ يحصل الإجارات في ٤٥/١/١. لا بدَّ أنه كان حلماً له أن يدور في أول الشهر ويقبض ـ وفي كانون الثاني سنة ٤٥ كان هناك القليل من المال للتحصيل: فمعظم الناس كانوا قد أجلوا عن المكان، وكلا الطابقين العلويين كانا قد أصبحا أثراً بعد عين. وما كان مضحكاً طريقته التي

أدرجني بها في قائمة المستأجرين، آل بفايفر طبعاً، إلاً أنَّ هؤلاء لم يعودوا إلاً في سنة ٥٢ ـ ولم يلفت انتباهي أننا كنا قد سكنّا كل هذه السنين عند ليني بلا مقابل إلاّ عندما قبض مني الإيجار الأول ـ وقدره ٣٢,٦ مارك لكلتا غرفتيَّ غير المفروشتين. وخطر ببالي في بعض الأحيان أنَّ ليني ربما كانت عديمة الحكمة، والحق أنني حذّرتها ـ أما اليوم فإنّي أرى أنها كانت عاقلة في أن تنفق كل شيء دون مبالاة مع محبوبها، كما أنّها لم تمت جوعاً أيضاً في السلم».

* * *

مارغريت: «الآن حدث ما سمّته ليني نفسها تفقدّها وتفتيشها الثاني. فالتفقد أو التفتيش الأول، كما روت لي، كانت قد أجرته حين بدأت القضيّة مع بوريس ـ فقد مرّت على كل معارفها وأقربائها، لا بل إنها قصدت في البيت مخبأ العمارة عدة مرات لكي تجري هناك اختبارات، كانت قد ‹تفقّدت› آل هويزر وماريا وهاينريش وكل العاملين في المصنع، ومَنْ ذا الذي بقي في أثناء تفقدّها وتفتيشها بأنه الملازم الوحيد الصالح للاستخدام؟ أنا. كان قد ضاع فيها قائد حربي ـ وعندما أتصوّر كيف تفقدّت وفتشت كلاً بمفرده، وكيف توجّست في لوته مشروع حليف، لكنها شطبتها بسبب ‹الغيرة›، وحدّثها قلبها أن هويزر الشيخ وزوجته ‹على الطراز القديم ومعاديان للروس›، وأن هاينريش بفايفر بصفة ‹حيران› جداً، كما عرفت حقَّ المعرفة أنَّ السيدة كريمر كانت مشروع حليف، لا بل أنها كانت قد زارتها لكي تبدأ معها حديثاً بريئاً لا يثير الشبهات، لكنها لاحظت بعد ذلك أنها كانت ‹قلقة جداً، شديدة

القلق ومتعبة جداً؛ ولم تعد تريد، وأفهم ذلك›. وأنها زارت السيدة هولتهونه، لكنها رفضتها ‹بسبب أخلاقها القديمة الطراز، لا لسبب آخر، ومن ثمّ، ومن ثمّ يجب أن يعرف المرء أيضاً من كان قوياً القوة الكافية ليعرف شيئاً من هذا القبيل وأن يظهر الجلد›. إذاً، كانت عازمة على أن تكسب المعركة، وكان في نظرها أكثر الأشياء طبيعية وبداهة في الدنيا أنها احتاجت إلى المال من أجل المحاربة، واحتاجت إلى معاقل، والمعقل الوحيد الذي وجدته عند أول تفقّد لها وتفتيش وعند تقديرها للوضع كان أنا ـ وإنه لشرف كبير وعبء كبير أيضاً. كنت قوية إذاً بما فيه الكفاية. وفي مخبأ للعمارة، في البيت ولدى آل هويزر وماريا اختبرت هي الموقف بانتظام، بأن تخلّت عن صمتها وقدّمت قصصاً مختلفة: بدأت بفتاة ألمانية ربطتها بأسير انكليزي علاقة غرامية، ومع أنَّ النتيجة كان لها وقع الصاعقة ـ إذ أنَّ معظم الناس أيدّوا الرمي بالرصاص والتعقيم والنبذ من المجتمع وغير ذلك ـ إلاّ أنها اختبرت أيضاً الفرنسي الذي كان له اعتبار أفضل من حيث إنه ‹إنسان›، ولاقى من حيث هو عاشق يدعو إلى النظر ابتسامة رضا » (وأغلب الظن بسبب الموهبة الفرنسية على **ممارسة الحب**. المؤلف) »،، إلاّ أنه تمّ رفضه من حيث هو ‹عدو› رفضاً مطلقاً. كما أنه كان عليها أن تقدّم أيضاً صاحبها البولوني وصاحبها الروسي، وبتعبير أفضل أن تلقي بهما طعاماً للوحوش الكاسرة، وما من حكم كان دون ‹قطع الرقبة›. وفي أوساط خاصة الأهل، هذا إذا ألحق المرء بهم آل هويزر وماريا، كانت المعلومات بطبيعتها أكثر صراحة وصدقاً، ولم تكن ذات طابع سياسي. ومن العجب أن ماريا كانت إلى جانب البولونيين لأنها رأت فيهن ‹ضباطاً شجعاناً› ووجدت الفرنسيين

<فاسدين> والانكليز <عشّاقاً لا ترجى منهم فائدة ـ والروس غامضين>. وشاطرتني لوتّه الرأي أنَّ هذا كلّه كان هراء وسخافة بتعبيري الخاص. وكان تعليقها <الرجل رجل>، وأكّدت لوته أنَّ ماريا وحماها وحماتها كان عندهما آراء وأحكام قومية مسبقة، إلاَّ أنه لم يكن عندهما أبداً أحكام أو آراء سياسية مسبقة. وتمَّ وصف الفرنسيين بأنهم شهوانيون، لكنهم مصاصو دماء، ووصف البولونيون بأنهم جذابون وذوو حميّة وحيوية، إلاَّ أنهم أوفياء. أوفياء جداً ـ أما في الموقف الحالي فقد رأى الجميع، ومن بينهم لوته أيضاً، <خطراً على الأقل أن تكون هناك علاقة أو حب عابر مع أوربي غربي، وخطراً على الحياة أن تكون هناك علاقة مع أوربي شرقي>».

* * *

لوته هـ.: «ذات مرة وعندما كانت عندنا لتزاول أعمالاً مالية مع حمي فاجأت أنا ليني وقد وقفت عارية أمام المرآة في الحمام المغلق، أعطت رأيها في اكتناز جمسها؛ ألقيت عليها من الخلف منشفة، وحين دنوت منها احمرّت ليني احمراراً شديداً ـ وما سبق أن رأيت وجهها يحمرّ ـ، ووضعت يدي على كتفها وقلت: لكِ أن تهنأي أنك ما زلت قادرة على أن تحبّي شخصاً، وإن كنت أحببت شخصاً فانسي الخاطب الحقير. فأنا لا أستطيع أن أنسى صاحبي فيللي. ـ خذيه وإن كان انكليزياً. الحق أني لم أكن بسيطة إلى هذه الدرجة بحيث لم أكن لأتوجّس آنذاك في شباط سنة ٤٤ ما كان يجري مع رجل، وأغلب الظن مع أجنبي عندما أقرّت بقصصها المختلفة المضحكة. وبالصراحة كنت

سأنصحها بالعدول عن روسي أو بولوني أو يهودي بإلحاح، بإلحاح شديد: في مثل هذه الأحوال كان الرأس مهدداً بالضياع، وإنني اليوم لمسرورة فرحة أنها لم تروِ لي القصة. الحق إنه لم يكن جميلاً أن يعرف المرء الكثير الكثير».

* * *

مارغريت: «حتى بيلتسر بقي في أثناء تفتيش ليني الأول مشروع حليف. أما غروندتش فلربما كان في الحسبان، إلاَّ أنه كان يثرثر كثيراً. ثم حدث التفتيش الثاني، ومن جديد كنت أنا وحدي المضمونة الوحيدة عندما كانت المسألة مسألة حمل ليني ونتائج هذا الحمل. وفي نهاية المطاف وضعنا بيلتسر في اعتبارنا بصفته نوعاً من الاحتياطي أو الرديف الاستراتيجي وشطبنا عنصر الدفاع المدني الذي جاوز مرحلة الشباب وكان بوريس يجلبه معه إلى المصنع في معظم الأحيان، ذلك لأنه كان بخيلاً وثرثاراً، ووضعنا في اعتبارنا بولديغ الحازم الجريء الذي كنت ألتقيه بين الحين والآخر والذي راجت تجارته ـ ولكن ليس إلى زمن طويل ـ إذ أنه جاوز الحدَّ فيها فقبض عليه في تشرين اثاني سنة ٤٤ ـ وضبط محلّه بكل ما فيه من استمارات وقرطاسية ـ وبلا تردد رمي بالرصاص وراء المحطة حيث ضبطوه في صفقة تجارية، هذا إذاً سقط، وللأسف أيضاً مع بطاقات الجندية».

* * *

هنا وفي هذا المقام لا بدَّ من إبداء بعض الملاحظات الهامة من حيث

تاريخ تطور الآداب والتقاليد لكي يتم إنصاف ليني ومارغريت. بالمعنى الدقيق لم تكن ليني أرملة، كانت من أهل الميت إرهارد المحزونين الذي قارنت به بوريس بين الحين والآخر. «كلاهما شاعر، إذا ما سألتني، كلاهما». وفي نظر إمرأة من الثانية والعشرين التي فقدت أمها ومحبوبها إرهارد وأخاها وزوجها، وشهدت نحو مئتي إنذار بقذف قنابل ومئة غارة جوية على الأقل، ولم تتسكع مع زوجها في كنائس صغيرة تابعة لمدافن أسروية **فحسب**، بل إنه كان عليها أن تنهض في السادسة والنصف صباحاً وتذهب مقنّعة إلى الحافلة الكهربائية وتنطلق إلى العمل عبر شوارع إطفئت أنوارها ـ في نظر هذه المرأة الشابة لا بدَّ أن يكون حديث لويس عن النصر الذي ما زال يتردد في الأسماع على نحوٍ خافت على الأرجح أشبه بأغنية راقصة عاطفية تزداد خفوتاً ولعلَّ المرء رقص على أنغامها ذات ليلة قبل نحو عشرين عاماً. كانت ليني منشرحة الصدر على نحوٍ استفزازي ـ على العكس من المنتظر وخلافاً للأحوال والظروف. فالناس المحيطون بها كانوا صغاراً، متجهمين متكدرين برمين، وإن فكرّ المرء أنه كان في مقدور ليني أن تبيع ألبسة ابنها السليمة الغالية بربح كبير في السوق السوداء، ولكن عوضاً عن ذلك لم تهدها فحسب لهذا التابع لسلطة أعلن عنها أنها معادية، بل أهدتها أيضاً إلى أتباعها الجائعين المعوزين المرتعشين برداً (وأحد مفوضي الجيش الأحمر تحوّل لابساً صدرية أبيها الكشميرية!) ـ فلا بدَّ أن يسلّم المراقب الشكاك لهذا المشهد أيضاً بكلمة أريحي كصفة ثانية لليني.

كلمة أو كلمتان أيضاً فيما يخص مارغريت. إنه لمن الخطأ وصفها بأنها عاهرة. ومن أجل المال فقط كانت قد تزوجت. منذ سنة ٤٢ في

عمل إجباري في مستشفى عسكري احتياطي ضخم، مرت عليها أيام وليال أشدُّ وأقسى مما مرت على ليني التي كانت تضع في أثناء ذلك أكاليلها على نحو لا يعترضه منازع ودائماً برفقة أعزّ الأحباب، ومحميّة بحظوة بيلتسر وطيبته. في هذا الجانب ليست هي **البطلة** أو أيضاً بطلة فقط، إنّها لم ترأف برجل إلاّ في سن الثامنة والأربعين (ذلك الرجل المدعو محمد الذي ربما ما زال القارىء الكريم يتذكره)؛ ومارغريت لم تفعل شيئاً آخر على الإطلاق، وكذلك أيضاً في عملها ممرضة نهارية أو ليلية في المستشفى العسكري منحت «كلَّ مَنْ بدا لطيفاً واكتأب وجهه، الرأفة والشفقة» ـ ومع تهكمّي وقح مثل عنصر الدفاع المدني بولْديغ لم تنم إلاّ لكي تغطّي على هناء ليني في الحب على سرير من الخلنج في الكنيسة الصغيرة لمقبرة آل بوشامب ولتصرف انتباه بولديغ عن ليني. نريد أن ننصف هنا نوعاً ما ونتأكد مما وجدته مارغريت نفسه بعد حياة طويلة مفعمة بالبذل الرؤوف الرحوم: «كنت موضع حب كثيرين، وما أحببت إلاّ شخصاً واحداً. ولم أحسَّ إلاّ مرة واحدة بهذه اللذة الجنونية المذهلة التي كثيراً ما رأيتها على وجوه الآخرين». لا، لا يمكن إدراج مارغريت على الإطلاق في عداد المقرّبين إلى القدر، بل إنَّ حظّها ما كان أسوأ من حظ ليني ـ مثلها مثل لوتّه المتذمّرة الناقمة على الدنيا، ومع ذلك لم يكن في الإمكان رؤية أيّ حسد من ليني لدى أية واحدة من هاتين السيدتين كلتيهما.

* * *

— 八 —

المؤلف، الآن وفي هذه الأثناء في دور المتحرّي (دائماً في خطر بأن يعدَّ مخبراً، مع أنه لا شيء في ذهنه، إلاَّ شيء واحد فقط وهو أن يلقي الضوء على شخص صموت كتوم أبيّ لا يعرف الندم مثل ليني غروتن ـ بفايفر ـ هذه المرأة السكونية إلى هذا الحد والشبيهة بالتمثال كذلك!)، قد لقي بعض الصعوبة في أن يعرف من المشاركين كلهم موقفهم عند نهاية الحرب معرفة موضوعية إلى حدٍّ ما وأن يفحصه نوعاً ما فحصاً موضوعياً.

والظاهر أن المعرّف بهم والمستشهد بهم كلهم هنا على نحو مسهب زاد أو نقص لم يجمعوا إلاَّ على نقطة واحدة: أنهم كرهوا أن يغادروا المدينة؛ حتى إنَّ كلا السوفييتين بوجاكوف وبوريس لم يرغبا في أن ييمما وجهيهما شطر الشرق. وبما أن الأمريكان قد اقتربوا (ليني تقول لمارغريت: «أخيراً، أخيراً، ما أطول المدة التي استغرقها هؤلاء». فقد ضمن هؤلاء وحدهم دون غيرهم ما تاق إليه الجميع، مع أنهم لم يستطيعوا تصديق ذلك: وهو نهاية الحرب. وانحلت بدءاً من ١/١/٤٥ مشكلة **واحدة**: مشكلة بوريس وليني ـ ولنسمّها من أجل البساطة والسهولة ـ «أيام المضاجعة» ـ. كانت ليني في شهرها السابع، وفي تمام «الصحة والعافية» (ماريا فان دورن)، ومع ذلك كانت معوقة طبقاً لحالها، ولكن ـ «المباشرة»، المضاجعة، المصارعة، أيّاً كان التعبير الذي

يريد المرء الأخذ به، «كانت مستبعدة» (ليني نقلاً عن مارغريت).

لكن أين وكيف البقاء على الحياة ؟ هيّن جداً قول ذلك حين لا يفكرّ المرء بمن كان عليه أن يخفي كل شيء عمّن. ومارغريت، على سبيل المثال، التي كانت تخضع لأوامر وتعليمات مثل أي جندي، لم يكن ما يمنعها من أن تجتاز مع المستشفى العسكري نهر الراين باتجاه الشرق. إنها لم تفعل ذلك، كما أنها لم تتمكن من الهرب إلى بيتها، وإلاً كان المرء سيخرجها من هناك عنوة.

ولوته هويزر كانت في وضع مماثل ، كانت موظفة في مصلحة انتقلت أيضاً نحو الشرق. فإلى أين بها؟ وإذا فكّر المرء أن ناساً تمّ إجلاؤهم حتى في كانون الثاني سنة ٤٥ إلى سيسيليا حيث نقلوا باتجاه الجيش الأحمر مباشرة، ففي هذا المقام يجب تقبل إشارة جغرافية قصيرة: فالرايخ الألماني المشتهد به عدة مرات كان لا يزال اتساعه في منتصف آذار سنة ٤٥ نحو ٨٠٠ ـ ٩٠٠ كم ولم يكن بأطول من ذلك بكثير. ففي نظر أكثر المجموعات اختلافاً كان السؤال إلى أين غاية في الأهمية. فإلى أين بالنازيين، إلى أين بأسرى الحرب، إلى أين بالجنود وإلى أين بالارقّاء؟ وطبيعي أنه كان هناك حلول مجرّبة: الإعدام رمياً بالرصاص وهلمّ جرا. إلاً أنَّ هذا أيضاً لم يكن دائماً بالأمر اليسير، ذلك لأنَّ القائمين بإطلاق النار لم يكونوا متفقين وعلى رأي واحد. فبعضهم أراد أن يقوم بالدور المعاكس قليلاً، أي بدور منقذ حياة الأشخاص. وتحوّل بعض مطلقي الرصاص المبدئيين إلى غير مطلقي الرصاص، ولكن أنّى للذين سيعدمون رمياً بالرصاص، ولنسمهم الذين سيقتلون بالرصاص، أنى لهم أن يتصرّفوا؟ ليس هذا بالأمر اليسير على الإطلاق.

ويخيّل للمرء أن هناك شيئاً ما أشبه بنهاية الحرب، وفي مكان ما كتب تاريخ وانتهى الأمر. ومن ذا الذي استطاع أن يعرف هل وقع هو في يدي مطلق رصاص مهتد أم غير مهتد أو في يديّ ممثل لتلك المجموعة من الناس التي نشأت حديثاً وقد يسميهم المرء مطلقي الرصاص الآن وقبل أي وقت مضى، وبعضهم كان حتى الآن من مجموعة غير مطلقي الرصاص. حتى إنه كان هناك مكاتب لفرقة الانقضاض قاومت نداءها بإطلاق الرصاص! وكانت هناك مراسلة بين فرقة الانقضاض والقوات المسلحة الألمانية المظفّرة، بحيث يتخلّص المرء من الأموات لكأنهم بطاطا متعفنّة! أما «القتل» و«القضاء على» فيكلّف به هنا ناس محترمون أو مؤسسات معتبرة كان همهم مثل شركائهم في المراسلة ـ أن يبلغوا بأيدٍ نظيفة إلى حدّ ما تلك الحال التي كانت ستسمّى سلاماً تسمية خاطئة وتسمّى نهاية حرب تسمية صحيحة.

* * *

هنا يقرأ المؤلف على سبيل المثال: «قادة معسكرات الاعتقال يتقدمون بشكوى أنَّ نحو ٥٪ إلى ١٠٪ من الروس الذين كتب عليهم بالإعدام يصلون إلى المعسكرات أمواتاً أو شبه أموات. ويظهر هذا كأنَّ المعسكرات الأساسية تتخلّص على هذا النحو من مثل هؤلاء الأسرى.

وتبيّن بصورة خاصة أنَّ عدداً كبيراً من أسرى الحرب تخونهم قواهم في أثناء السير على الأقدام، من محطة القطار مثلاً إلى المعسكر بسبب الإعياء ويخرّون موتى أو أشباه موتى ويجب أن تلتقطهم سيارة تسير في أعقابهم.

وليس في الإمكان منع السكان الألمان من مشاهدة مثل هذه الحوادث.

وإذا ما اعتادت القوات المسلحة أن تقوم بمثل هذا النقل أيضاً حتى معسكرات الاعتقال فإنَّ السكان الألمان سيقيّدون هذه الوقائع على حساب فرقة الانقضاض.

ولاستبعاد مثل هذه الحوادث في المستقبل بقدر الإمكان فإني آمر إذاً اعتباراً من هذه الساعة بأن يستثنى في المستقبل مبدئياً من النقل إلى معسكرات الاعتقال من أجل الإعدام روس سوفييتيون مستبعدون بصورة مريبة نهائياً وهم، كما يظهر، عرضة للموت (تيفوس الجوع مثلاً) ولهذا فلم يعد إجهاد السير على الأقدام، ولو كان قصيراً، في حدود طاقتهم. نيابة عن: التوقيع: موللر».

والأمر متروك للقاريء أن ينعم النظر في تعبير «كبير، ضخم» المتعلق بمرشحي الموت. كان هذا في سنة ١٩٤١ مشكلة، في الوقت الذي كان فيه الرايخ الألماني لا يزال كبيراً بما فيه الكفاية. وبعد ذلك بأربع سنوات صغر حجم الرايخ الألماني كثيراً، ولم يكن هناك روس سوفييت ويهود وما شابه ذلك فحسب لكي يقتلوا ويتم التخلّص منهم، بل كان هناك أيضاً عدد لابأس به من الألمان والفارين من الجندية والمخرّبين والمتعاملين مع العدو، وكان لا بدَّ من إخلاء معسكرات الاعتقال والمدن من النساء والأطفال والشيوخ، ذلك لأنَّ المرء أراد ألاّ يخلّف للعدو بالتبادل إلاّ أنقاضاً.

* * *

طبيعي أنه نشأت أيضاً مشاكل أخلاقية أو صحية. مثلاً المشاكل التالية: «إن مخاتير القرية المرتشين كثيراً طلبوا أو يطلبون إحضار العمال الفنيين المعيّنين من قبلهم وليس بالنادر ليلاً من الفراش وحبسهم في أقبية حتى الترحيل. وبما أن العمال أو العاملات لا يترك لهم وقت في أكثر الأحيان لحزم الأمتعة وغيرها فإنَّ الكثيرين من العمال الفنيين يصلون إلى معسكر تجمّع العمال الفنيين بمتاع غير كافٍ (من غير أحذية، ثوبان، أطباق وكاسات وغطاء وهلمَّ جراً). فمن وصل لتوّه يجب إعادته على الفور في حالات صارخة بصورة خاصة لإحضار ما هو أكثر ضرورة ولزوماً. وكثرت تهديدات العمال الفنيين وضربهم بواسطة ميليشيات الريف أعلاه إن لم يصطحبهم الناس على الفور ويبلّغ عن ذلك من قبل معظم البلديات. وفي حالات متعدّدة تضرب نساء إلى حدّ العجز عن السير. وقد بلّغت أنا عن إحدى الحالات الشديدة بصورة خاصة قائد شرطة الأمن هنا (السيد العقيد زاميك) من أجل المعاقبة الشديدة (المكان سوتسولنيكوف، منطقة ديرغاتشي). فمظالم المخاتير والميليشيات كانت ذات نوع خطير بصورة خاصة ذلك أنَّ المذكورين يزعمون في أكثر الأحيان تبرئة لهم أنَّ هذا يحدث باسم القوات المسلحة الألمانية. والحق أنَّ القوات المسلّحة الألمانية عاملت عمالاً فنيين والسكان الأوكرانيين بصفة عامة تقريباً معاملة المتعاطف الواسع الصدر على خير الوجوه. على أنَّ الشيء نفسه يمكن قوله عن بعض الجهات الإدارية. ولتوضيح الشيء الذي قيل أعلاه يُذكر أنَّ أمرأة وصلت ذات مرة وليس عليها أكثر من قميص».

* * *

«استناداً إلى وقائع مبلّغ عنها يجب التنويه أيضاً أنها خيانة وتقصير بالواجب ترك العمال محبوسين ساعات كثيرة في عربة السكك الحديدية بحيث إنهم لا يستطيعون أن يقضوا حاجتهم. بديهي أنه يجب إتاحة الفرصة للنقل من حين إلى حين لإحضار مياه الشرب والاغتسال والذهاب إلى المرحاض (لقضاء الحاجة). وقد تمَّ عرض عربات ثقبها الناس لكي يتمكنوا من قضاء حاجتهم. في هذه الحالة يجب أن يتمَّ قضاء الحاجة بقدر الإمكان عند الاقتراب من محطات أكبر خارج المحطات نفسها».

* * *

«عرفت أوضاع سيئة من مصحات التنقية والتخليص من القمل من حيث إنَّ هناك رجالاً قاموا بالخدمة أو أنَّ رجالاً آخرين عملوا وسط نساء وفتيات في الحمامات أو أنهم تنقلوا بين ظهرانيهن ـ لا بل أنهم قاموا بالفرك بالصابون! ـ وكذلك العكس نساء عند الرجال، وبعض الرجال التقط صوراً إلى وقت أطول في حمامات النساء. وحيث إنَّ المسألة تتعلق بالقطاع النسوي من السكان وأن المسألة عند سكان الريف الأوكرانيين الذين تمَّ نقلهم في الأشهر الأخيرة بخاصة هي مسألة نساء سليمات جداً من الناحية الأخلاقية وتعوّدْنَ نظاماً صارماً فإنَّ معاملة مثل هذه يجب الشعور بها بأنها جلب عار على الشعب. فالأوضاع السيئة المذكورة لأول مرة أزيلت في أثناء ذلك بحسب معرفتنا عن طريق تدخل المشرفين على النقل. وجاءنا نبأ التصوير من هاللي، ونبأ التصوير المذكور في أول الأمر من كيفرسي». هل بدأت موجة الجنس آنذاك، وهل

صوّرت بعض الصور التي يجبرنا المرء اليوم على قبولها، في مصحات التفلية من القمل لعبيد أرقاء أوربين شرقيين؟

وإنه لمهمٌّ معرفةُ أنَّ غزو أصقاع من الدنيا أو غزو عوالم ليس بالأمر اليسير على الإطلاق وأنه كان لهؤلاء الناس مشاكلهم وحاولوا تسويتها بدقة ألمانية وأثبتوا ذلك بدقة ألمانية بواسطة ملفات. كل شيء إلاَّ الارتجال! الحاجة تبقى حاجة، ولا يجوز أن يستلم المرء ناساً من أجل إعدامهم وهم أموات! وإنَّ هذا لخنزره ويجب الثأر لذلك، ولا يجوز أيضاً أن يغسّل الرجال النساء بالصابون ويزيلوه عنهن ولا النساء الرجال في أثناء عملية التخليص من القمل، ولا يجوز التصوير أيضاً هناك! هذا لا يجوز البتّة. في مثل هذه الحال لا تبقى الأيدي نظيفة ولا الشاشة. هل تدخّل هنا رجال متهتكون فاسدون ومجرمون خلقيون في حادث صحيح «في ذاته» كل الصحة؟

وحيث إنَّ النزاع على الجثث الذي يساوي نزاعاً على أجزاء جثث قد أصبح في أثناء ذلك علامة نموذجية للحرب التقليدية الحديثة وبما أنه لمقرف أنَّ فساقاً متهتكين ومجرمي أخلاق يغتصبون النساء، وهؤلاء في بذلة عسكرية، لا بل إنهم يصورون أيضاً، فما من شيء يدعو القارىء إلى أن يملَّ من إشارات مماثلة. لكن: كيف وأين يكون لهم كلهم أن يبقوا على قيد الحياة، ليني الحامل وبوريس الزائد الحساسية ولوته الحازمة النشيطة ومارغريت الحنون وغروندتش، دودة الأرض هذه، وبيلتسر الذي لم يكن قطّ فظاً غليظاً يخشاه الآخرون؟ وما مصير صاحبتنا ماريا وبوجاكوف وفيكتور غينريشوفيتش وغروتن الشيخ وآخرين كثيرين في آذار سنة ١٩٤٥؟

في بادىء الأمر عني بوريس في نحو نهاية سنة ٤٤ وبداية سنة ٤٥ بصعوبة زائدة عن اللزوم كلياً لم تتحدث عنها ليني بأيّ شيء وحكت مارغريت كل شيء عنها ولم تعرف لوته وماريا أيَّ شيء عنها. ومارغريت المحروسة في أثناء ذلك أشد الحراسة، لكي لا يتمكن المؤلف من أن يدسَّ في يدها بعد الآن أي شيء! الطبيب للمؤلف: «يجب أن تجوَع الآن أربعة أو خمسة أسابيع، لكي نصلح ما أفسده الدهر إلى حدّ ما في نظامها الصمائي والخارجي الإفراز: فهذا في فوضى شديدة بحيث إنها قد تبكي من حلمتي الثدي وقد تتبول من الأنف. إذاً: الكلام نعم، والجلب لا شيء.»)، ومارغريت، وقد تعودت الزهد والتقشف، لا بل إنه ليرجى منها الشفاء: «لكن في وسعك أن تعطيني سيجارة لف (وهذا ما فعله المؤلف!)، آنذاك اغتظت جداً من بوريس، استأت منه جداً، ولم يتوقّف هذا إلاّ حين قعدنا كلنا معاً فيما بعد وتعرّفت إليه ـ كم كان عاقلاً ورقيق المشاعر، ولكن في نهاية ٤٤، وفي عيد ميلاد السيد المسيح أو في بداية ٤٥، ربما كان ذلك في عيد الغطاس، لكن بالتأكيد ليس بعد ذلك، جاءت ليني ذات مرة إلى البيت وفي رأسها إسم، إلاّ أنها عرفت هذه المرة على الأقل أنه كان كاتباً، وفوق ذلك كاتباً ميّتاً، بحيث إننا لم نضطرّ على الأقل إلى الاستفسار عنه بالهاتف، وكانت المسألة من جديد مسألة كتاب وكان اسم المؤلف كافكا، فرانس كافكا؛ وعنوان الكتاب: ‹في مستعمرة العقاب›. وسألت بوريس فيما بعد عما إذا لم يكن يعرف حقاً أي شيء أحدثه حين نصح ليني في نهاية ٤٤ (!) بقراءة كاتب يهودي، وقال: ‹كنت مشحون الذهن، وكان هناك الكثير للتفكير به، ونسيت **هذا**›. إذاً: ذهبت ليني مرة أخرى إلى المكتبة ومعها

قصاصتها لطلب الكتاب، وكانت لا تزال هناك امرأة كانت تعمل، ومن حسن حظ ليني أنها كانت امرأة متقدمة في السن وعاقلة إلى حدّ ما ، فمزّقت قصاصة ليني وانفردت بليني على فورها وقالت لها بالحرف الواحد الشيء الذي كانت كبيرة الراهبات قد قالته لها أيضاً حين كانت تبحث كثيراً عن راحيل: ‹أي بنيّتي، هل جُننت، مَنْ أرسلك إلى هنا بهذا الطلب؟› لكنني أقول لك إنَّ ليني عادت إلى عنادها وإلحاحها. فالمرأة المتقدمة في السن هناك في المكتبة لاحظت على الفور أنها لم تكن متحدية، ولهذا فقد تنحّت بها جانباً وأوضحت لها كل الوضوح وتمام الوضوح أيضاً أنَّ كافكا هذا كان يهودياً، وأنَّ كتبه كلها ممنوعة وأحرقت وما شابه ذلك، ومن المؤكد أنَّ ليني بادرتها مرة أخرى بعبارتها المدهشة ‹وماذا في الأمر؟› وأوضحت لها المرأة بعد ذلك، ولو متأخراً، ولكن على نحوٍ دقيق ما كان من أمر اليهود والنازيين، وأرتها مجلة (الشتورمر = المهاجم). وطبيعي أنَّ هذه كانت لديها في المكتبة، وأوضحت لها كل شيء، وكانت ليني مذعورة حين جاءت إلي، وكانت قد فهمت أخيراً كلَّ شيء. وتمسّكت برأيها وأرادت أن تقتني كافكا وتقرأه، وحصلت عليه. والحق أنها سافرت إلى بون وقصدت بعض الأساتذة الذين كان أبوها قد اشتغل لهم ذات مرة وعرفت منهم أنَّ لديهم مكتبات ضخمة، وبالفعل وجدت أستاذاً كان آنذاك قد صار جداً جاوز الخامسة والسبعين واعتكف في البيت بين كتبه متقاعداً، وهل تعرف ما قاله لها حرفياً: ‹أي بنيتّي، هل أنت مجنونة، كافكا بالذات دون غيره ـ ولمَ لا يكون هاينه؟› لا بدَّ أنَّ هذا كان لطيفاً جداً معها وتذكّرها وتذكّر أباها، أما هو نفسه فلم يكن الكتاب عنده وكان عليه أن يمضي

إلى أحد الزملاء ويتوجه إلى زميل آخر أيضاً، إلى أن وجد من استطاع أن يثق به ويثق هو به ويأمن كل منهما الآخر، وكان لديه الكتاب أيضاً. لم يكن هذا بالأمر الهيّن، وأقول لك إنَّ هذا استغرق النهار كلّه، وجاءت في منتصف الليل إلى البيت وكان الكتاب في حقيبة اليد، هذا كله لم يكن سهلاً، إذ أنه لم يكن عليهما أن يجدا مَنْ كان في وسع الأستاذ أن يثق به ويثق هو بدوره بالأستاذ، وكان عليه أيضاً أن يمنح ليني الثقة، وما كان عليه أن يملك الكتاب فحسب، بل كان عليه أن يعطيه أيضاً. كان جنوناً ما كان يشغل بال ليني وصاحبها بوريس من هموم ومشاغل حيث إن المسألة كانت مسألة حياة فقط، حياة عارية كما خلقها الله. ولسوء الحظ أنه ظهر أيضاً في هذه الفترة السيد شلومر المتزوج مني والذي قعدنا في داره الصغيرة، ولم تتبقَّ لدى شلومر باقية من الرجل الاجتماعي اللبق ولا من الظرافة والأناقة، فقد كان هذا مشتت النفس خائر القوى وارتدى على حين فجأة بذلة عسكرية خاصة بالقوات المسلحة، لكن لم تكن معه أوراق وكان قد أفلت من قبضة الفدائيين في فرنسا الذين كانوا على وشك أن يرموه بالنار. لا أدري، فقد تعلّقت به بطريقة أو بأخرى، كان دائماً لطيفاً جداً نحوي وكريماً، وقد أحبّني هو أيضاً على طريقته. ثمَّ قلَّ شأنه وفقر فقراً مدقعاً وقال لي: ‹يا مارغريت، قمت بأعمال ستكلفني حياتي في كل مكان وكل ناحية: عند الفرنسيين والألمان الذين أيدّوا ذلك وعند بعض الألمان الذين عارضوا ذلك، وعند الانكليز والهولنديين والأمريكان والبلجيكيين، وإذا ما وصلت أيدي الروس إليّ أو اكتشفوا مَنْ أنا فإنني هالك لا محالة، وهالك أيضاً إذا ما توصّل إليَّ الألمان الذين ما زالوا يمسكون بزمام

الأمور. ساعديني يا مارغريت.> كان عليك أن تتعرف إليه قبل الآن، إنسان مثله لم يركب إلاّ سيارة أجرة ولم يصل إلاّ بسيارة رسمية، وكان يذهب في إجازة ثلاث مرات في السنة ويجلب معه الكثير جداً بحيث يكفي، ودائماً أنيق ومرح ومغتبط، وإذا به قد صار شأنه شأن فأر صغير بائس وكان خائفاً من كلاب الحراسة ومن الامريكان بخاصة. وفي أول الأمر خطرت ببالي فكرة كان يمكن أن تخطر بالبال قبل الآن. ففي المستشفى العسكري مات كثيرون، وطبيعي تمّ وضع الأيدي على بطاقات الجندية، وزّعت وسجّلت وأرسلت إلى فرقة ما أو ما شابه ذلك؛ على أية حال عرفت أين كانت بطاقات الجندية، كما عرفت أيضاً أنّ بعض الجنود ما كانوا قد سلّموها أو أنّ المرء ما كان قد عثر عليهم إذا ما كانوا قد أصيبوا بإصابات خطيرة ورميت ثيابهم الممزقة الملطخة بالدم. فماذا فعلت أنا؟ سرقت في الليلة نفسها ثلاث بطاقات جندية ـ كان هنالك ما يكفي، وكان في استطاعتي أن أتخيّر ما يكفي لأنتقي لنفسي منها ماله صور وما شابه شلومر وبوريس في السن والمظهر؛ وعلى هذا الأساس أخذت بطاقتين لشخصين أشقرين يضعان نظارات في نحو الرابعة أو الخامسة والعشرين، وإحدى البطاقتين لأسمر لطيف في أواخر الثلاثين تقريباً، مثل شلومر وأعطيته إياها. وكل ما كان معي من نقود وما كان لدي من زبدة وسجائر وخبز لففته له وأرسلته باسمه الجديد: ارنست فيلهيلم كايبر، حتى إني سجّلت هذا وسجّلت العنوان لأنني أردت أن أعرف ما سيؤول إليه. وكنا على كل حال زوجين قرابة ست سنوات، وإن كان هذا الزواج زواجاً متقطعاً متباعداً، وقلت له إنه لأضمن الأشياء لو أنه التحق بالقوات المسلحة، بمركز توزيع في الجبهة أو

ما شابه ذلك، على حين كانوا كلّهم في أثره. وهذا ما فعل. بكى. وإن كنت لم تعرف شلومر قبل سنة ٤٤ فإنك لن تعرف ما معنى هذا: شلومر الباكي المستجدي المعترف بالجميل الذي قبّل يدي، بكى مثل كلب صغير ـ ثم رحل. ولم أره قط. فيما بعد سافرت مرة على سبيل حب الاستطلاع إلى زوجة ذلك المدعو كايبر في كولينبوت بالقرب من بور، إذ أنني أردت أن أعرف ـ ولك أن تفهم، وكانت هذه قد تزوّجت ثانية، وقلت إنني كنت سأمرض زوجها في المستشفى العسكري وأنه كان سيموت وأنه كان سيرجوني أن أزورها. أقول لك إنها كانت امرأة جسورة مستهترة طويلة اللسان. إذ أنّها سألتني: ‹أيَّ زوج من أزواجي تقصدين، زوجي ارنست فيلهيلم الذي قضى نحبه مرتين، مرة في المستشفى العسكري، ومرة أخرى بالقرب من مكان قفر عندكم فوق واسمه فورسيلين›. على هذا النحو إذاً كان شلومر ميتاً، ولا أكتمك القول: إنني كنت منشرحة الصدر. ربما كان هذا خيراً من أن يشنق أو يعدم بالرصاص على أيدي النازيين أو الفدائيين. وكان مجرم حرب حقيقياً ـ ففي فرنسا وبلجيكا وهولندة جند عمال سخرة، بدءاً من سنة ٣٩ وكان قد تعلّم مهنة التجارة. لقد استجويت غير مرة بسببه، كما أنهم أخذوا مني البيت أيضاً بكل ما فيه، ما كان لي أن آخذ معي إلا ثيابي. والظاهر أنَّ شلومر سرق ما فيه الكفاية وبهذا، وقد انبطح، ارتشى ـ أجل، يومها لزمت الشارع في سنة ٤٦ تماماً، وبقيت في الشارع طال هذا أو قصر. أجل، في الشارع، مع أنَّ ليني والآخرين حاولوا أن يهيئوا لي استقراراً من جديد. وسكنت عند ليني ستة أشهر، على أن هذا لم يكن مقبولاً على الدوام بسبب صداقاتي مع الرجال،

حيث إن الولد كبر وسألني ذات مرة: ‹لماذا، لماذا يا مارغريت، يريد هاري هذا، لماذا يريد أن يدخل فيك دائماً في مثل هذا العمق؟› وكان هاري هذا رقيباً انكليزياً التقيته آنذاك». (وتحمر مارغريت مرة أخرى خجلاً. المؤلف).

* * *

إنه لمعروف المكان الذي شهد فيه شير تينشتاين نهاية الحرب: فقد عزف على المعزف خبط عشواء (ليلي مارلين) لضباط سوفييت، في مكان ما بين لينغراد وفيتبيسك؛ رجل هابته واحدة من مثل مونيك هاس». كانت لديَّ رغبة مستعصية رهيبة» (شير تينشتاين للمؤلف)، «أردت أن آكل وأبقى على قيد الحياة. بل كنت سأعزف (ليلي مارلين) على هارمونيكا الفم».

* * *

أمضى الدكتور شولسدورف نهاية الحرب بطريقة تكاد أن تدمغه بدمغة البطولة: كان قد انزوى في «قرية صغيرة على الناحية اليمنى من الراين حيث ترقبت نهاية الحرب، ذلك لأني لم أحمل معي أوراقاً صحيحة سليمة ولا أحمل عيباً سياسياً لكي أضطر إلى الخوف من النازيين من غير مضايقة أو إعاقة ومن غير الأمريكان. ولكي أجعل تمويهي كلياً توليّت قيادة مجموعة اقتحام شعبية مؤلفة من عشرة أنفار، ثلاثة منهم تخطّيا السبعين واثنان دون السابعة عشرة واثنان كانا مبتوري الفخذ وواحد كان مبتور الساق، والعاشر كان معتوهاً، وهذا يعني كان

أبله القرية؛ كان سلاحنا مؤلفاً من النبابيت وبصورة أساسية من شراشف بيضاء مقطّعة إلى أربعة أقسام متساوية؛ وفضلاً عن ذلك كان معنا بعض القنابل اليدوية، وكان علينا أن نفجّر بها جسراً؛ ثم انطلقت بمجموعتين وربطنا شراشفنا المقسمة إلى أربعة أقسام متساوية إلى عصيّ وتركنا الجسر سليماً ـ وسلّمنا القرية سليمة إلى الأمريكان. وإلى ما قبل سنتين كنت في القرية (والمسألة هي مسألة القرية الجبلية طاحونة آوسلر، المؤلف)، على الرحب والسعة، وكنت أدعى بصورة دائمة إلى حفلات تدشين الكنيسة واحتفالات مماثلة؛ لكنني لاحظت يومها تغييراً في الروح المعنوية والحالة النفسية وصرت أسمع بين الحين والآخر كلمة انهزامي ـ وذلك بعد مرور خمس وعشرين سنة وبعد أن أنقذت برج الكنيسة ذلك لأنني ضمنت للملازم الأمريكي إيرل ويتني بحياتي أن يكون خالياً وألا يستعمل عسكرياً. وكانت هزّة يمينية وحدث كسبٌ أصوات عالٍ لليمن، وما من شك في ذلك. على أية حال لن أتوجّه بعد الآن إلى هناك بطمأنينة تامة».

* * *

لايحتاج هانز وغريته هيلتسن إلاّ إلى تبرير مختصر: فهانز لم يولد إلاّ في حزيران سنة ١٩٤٥؛ ويجهل المؤلف ما إذا كان قد أظهر في الرحم مشاعر إنسان تحوّل إلى ذئب يهدد آخرين. وأخيراً فإنّ غريته لم تولد إلاّ في سنة ١٩٤٦.

* * *

هاينريش بفايفر، عمره في نهاية الحرب ٢١ سنة، لازم، وقد بتر فخذه الأيسر لتوّه، ديراً من طراز الباروك بالقرب من بامبيرغ، وكان قد تحوّل إلى مستشفى عسكري. وكما أدلى هو بأقواله ـ «أفقت لتوّي من التخدير وكنت في حال يرثى لها وإذا بالأمريكان أمام الباب ـ لحسن الحظ تركوني وشأني».

* * *

بفايفر الشيخ الذي يذكر مقرّه ومقرّ زوجته «في يوم الهزيمة» «غير بعيد عن درسدن»، يجرّ ساقه المشلولة وراءه في السابعة والعشرين (وإذا ما أخذ المرء تاريخ اليوم، فيكون في الخامسة والثلاثين، تلك الساق التي أطلق عليها أبو ليني في عام ١٩٤٣ أيضاً وقبل أن يدخل السجن، بأنها لا تزال «أكذب ساق أعرفها».

* * *

السيدة فان دورن: «ظننت أنني كنت الأكثر دهاء ومكراً، انتقلت في كانون الأول سنة ٤٤ إلى تولتسم حيث اشتريت بيت والدي وقطعة الأرض أيضاً من المال الذي وهبه هوبيرت رزماً رزماً، وقلت لليني المرة تلو المرة بأن تنتقل هي إليَّ وتلد بهدوء في الريف طفلها الذي ما زلنا نجهل مَنْ كان أباه، وقلت لها إن الأمريكان سيكونون حتماً عندنا قبل أن يكونوا عندكم بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كيف كانت الحال وكيف حدث هذا؟ من حسن الحظ أن ليني لم تكنْ موجودة. فقد محوا تولتسم من على الوجود ـ كما يسمي المرء هذا، وكان لدينا نصف ساعة من

الوقت لنرحل، ونقلنا بسيارات صغيرة عبر الراين، وبعد ذلك لم نستطع العودة مرة أخرى عبر الراين حيث كان الأمريكان يحكمون وكان الألمان لا يزالون يحكمون عندنا، أجل، إنه من حسن الحظ أنَّ ليني لم تمتثل لنصيحتي. وعن سبيل الريف والهدوء والهواء والزهور ـ وشيء من هذا القبيل: لم نر إلاَّ سحابة كبيرة من الغبار ـ هذا ما كانته تولتسم ذات مرة ـ، ثم أعيد بناؤها من جديد، لكنني أقول لك: سحابة كبيرة من الغبار!».

* * *

كريمر: «بعد أن جاؤوا إلى الولد وأخذوه خطر ببالي: إلى أين الآن، إلى الشرق، إلى الغرب أم البقاء؟ وقرّ قراري على البقاء: لم يسمحوا لأحد بالذهاب غرباً ـ إلاَّ للجنود ولفرق حفر الخنادق ـ وإلى الشرق؟ ما أدراني ـ ربما استمرت الحرب هناك عدة أشهر أو عاماً. ولهذا بقيت في منزلي حتى الثاني (والمقصود الثاني من آذار سنة ١٩٤٥ الذي أطلق عليه «الثاني» في أوساط معينة في المدينة. المؤلف). وفي ذلك الوقت جاءت الغارة التي جُنَّ في أثنائها كثيرون أو أوشكوا على الجنون؛ نزلت إلى قبو معمل البيرة المقابل وقلت في نفسي: العالم يزول، إنه قيام الساعة؛ وأصارحك، أنا، أنا التي لم تدخل كنيسة منذ أن بلغت الثانية عشرة، أي منذ سنة ١٩١٤، ولم يعد يهمها أمر القساوسة والرهبان ولا عندما ناهض النازيون **ظاهراً** (ليس التأكيد من المؤلف) القساوسة والرهبان، ولا حتى هنا كنت أنا مؤيدة: فقد التهمت فيما بعد الكثير من الديالكتيك وتفسير التاريخ المادي، مع أنَّ معظم الرفاق عدّوني امرأة

غبية ـ أقول لك: إنني صلّيت: ولا شيء آخر. وارتفع من جديد: ‹سلام عليك›، ‹الصلاة الربانية› لا بل ‹في حماك ورعايتك› ـ لا شيء إلاّ الصلاة. كانت شرّ وأشدّ الغارات التي سبق أن عشناها، وقد استمرت ست ساعات وأربعاً وأربعين دقيقة بالتمام والكال، وفي بعض الأحيان تحرّك سقف قبو معمل البيرة قليلاً. أشبه بخيمة في مهب الريح. تزلزل وتحرك ـ وهذا كله فوق المدينة التي كانت قد خلت تقريباً من ساكنيها، دائماً فوقها، المرة تلو المرة دون انقطاع؛ كنا ستة في القبو، امرأتان، أنا وامرأة شابة معها صبي في الثالثة من العمر، وهذه اصطكت أسنانها اصطكاكاً ـ وأول مرة أرى ما يدعى وما يقرأه المرء كثيراً: اصطكاك الأسنان؛ كان هذا آلياً، وما كانت لتملك من الأمر شيئاً، وما كانت لتعرف ذلك ـ في النهاية أدمت شفتيها عضاً، ووضعنا لها بينهما قطعة خشب، لوحاً خشبياً صغيراً مسحوجاً سحجاً أملس ـ وأغلب الظن من لوح برميل ـ، انتشر هناك؛ وظننت أنها ستجنّ وأنك ستجنّ ـ لم يكن الصوت عالياً جداً، الزلزال فقط، والسقف بين الحين والآخر أشبه بكرة مطاطية حين تخرب ويضغطونها إلى الداخل والخارج؛ كان الصبي الصغير نائماً: حلّ به التعب فنام وابتسم في الحلم. ثم كان هناك ثلاثة رجال أيضاً، عامل مخزن مسنّ في بدلة فرقة الانقضاض ـ وهذا في الثاني! ـ وهذا ملأ سراويله برازاً، ملأها ببساطة، وارتعش لكأنّ قشعريرة أصابته ـ وبلل سراويله بالبول، ثم خرج بعد ذلك مسرعاً، إلى الخارج، صرخ، ـ وخرج؛ أقول لك، لم يعثروا منه على زر سروال. كان هنالك شابان أيضاً، في ثياب مدنيّة، ألمانيان، على ما أظن، فارّان تسكّعا في الخارج بين الأنقاض، لكن الخوف تملكهما في أثناء الغارة؛

لاذا بالصمت وامتقع لونهما، فجأة وحين خرج الرجل المسن مسرعاً، عندها ـ ثم إني الآن في الثامنة والستين، وسيكون لهذا وقع كريه حتماً حين أرويه لك كما حدث في الواقع، فقد كنت آنذاك في الثالثة والأربعين، والمرأة الشابة، لم تقع عيناي عليها بعد ذلك، لم أرها قط بعد ذلك، لا الأربعة معاً، ولا الشابين ولا الطفل، لا أحد ـ ربما كانت المرأة الشابة في أواخر العشرين ـ أما هذان الشابان ـ اللذان كانا على أقل تقدير في الثانية أو الثالثة والعشرين، فإنهما صارا فجأة ـ أنّى لي أن أسمّي ذلك ـ شهوانيين أو ملحاحين مزعجين، لا، لا، ليس بصحيح هذا كلّه، فمنذ أن عذبوا زوجي في معسكرات الاعتقال لم أر منذ ثلاث سنوات رجلاً على الإطلاق ـ والآن، إذاً، كلاهما لم يعتديا علينا، ليس في وسع المرء أن يقول ذلك، كما أننا لم نمانع، فهما لم يغتصبانا ـ على أية حال: أحدهما تقدّم مني وأمسك ثديي وأنزل سراويلي، والآخر تقدم نحو المرأة الشابة وأبعد القطعة الخشبية من فمها وقبّلها، وتضاجعنا هنا، سمِّ ذلك كما تشاء، وبيننا الصبي الصغير النائم، وإنَّ لهذا وقعاً بشعاً في نظرك، على أنّه ليس في مقدورك أن تتصور ذلك حين تأتي الطائرات وترمي القنابل ست ساعات ونصف والقذائف المتفجرة ونحو ستة آلاف قنبلة متفجرة ـ لمنا شملنا نحو الأربعة والصبي الصغير بيننا، وما زلت أحسّ كيف كان فم الشاب الذي كان قد اختارني، مليئاً بالغبار حين قبلّني، وأحسّ بطعم الغبار في فمي ـ هذا كله كان قد تساقط من السقف المتأرجح ـ، وما زلت أشعر كم أنا سعيدة وهادئة مطمئنة وكيف أتابع صلواتي، وما زلت أرى كيف هدأت المرأة الشابة فجأة وصارت ترفع شعر الشاب الذي انطرح فوقها، من على الجبين

وتبتسم له، وفعلت أنا مثلما فعلت هي، ثمَّ ارتدينا ثيابنا من جديد، وأخذنا زينتنا بعض الشيء وجلسنا هادئين؛ ومن غير أن نكون على موعد أخرجنا كل شيء من حقائبنا، السجائر والخبز، وكان مع المرأة الشابة في حقيبة مشترياتها خيار مخلّل ومربّى الفراولة ـ أكلنا معاً كل شيء، من غير أن ننبس بكلمة، لكأننا تواعدنا على ألاّ يسأل أحدنا الآخر عن الإسم ـ لا كلمة، والغبار كان يصرّ على الأسنان، الغبار على أسناني من الشاب، وعلى أسنانه مني أنا ـ ثم انتهى الأمر في نحو الرابعة والنصف. هدوء. ليس هدوءاً تاماً. في مكان ما سقط شيء ما، في مكان ما هوى شيء ما، وفي مكان ما انفجر شيء ما ـ نحو ستة آلاف قنبلة. وإذا ما قلت، كان هدوء، فإني أعني في مثل هذه الحال أنه لم تعد هناك طائرات ـ وخرجنا جميعاً، كل واحد على حده ـ ولا كلمة عند الوداع. ووجدنا أنفسنا كلنا في سحابة من الغبار ضخمة عالية علو السماء، في سحابة من دخان، في سحابة من نار ـ وأغمي عليَّ، وبعد عدة أيام في المستشفى أفقت وكنت ما زلت أتابع صلواتي، ثم كانت هذه آخر مرة. ومن حسن الحظ أنهم لم يطمروني، ماذا تظن، كم من ناسٍ طمروا. وماذا تظن أيُّ مصير كان مصير قبو معمل البيرة؟ لقد انهار، بعد يومين من خروجنا منه ـ ويخيّل إليّ أن القبو ظل يغوص مثل كرة مطاطية ثم تداعى. توجهت أنا إلى هناك، لأني أردت أن أتفقد منزلي: لا شيء، لا شيء ـ ولا مما قد يسميّه المرء كومة أنقاض لا يستهان بها، وبعد ذلك بيوم واحد وحين غادرت المستشفى، جاء الأمريكان أيضاً».

* * *

نحن نعرف أن فانفت كانت قد أجليت عن المكان. والظاهر أنها كابدت أموراً مزعجة، أموراً سيئة (وبما أنها تصمت فإن المؤلف لم يستطع أن يتبيّن ما إذا كانت الأمور مزعجة أو سيئة من الناحية الموضوعية أو من الناحية الشخصية فقط). لم تنطق إلاً بكلمة واحدة: «مَنْشرة». ونعرف عن كريمب أنه مات من أجل طريق السيارات العريض ذي الاتجاهين ومات بسببه، والأرجح أنه مات وعلى شفتيه كلمة مثل «ألمانيا».

* * *

«انتقل» الدكتور هينيغس (هـ. عن هـ.) «مع رئيسي المنسوب إلى كونت إلى إحدى القرى حيث استطعنا أن نكون في أمان، ذلك بأن الفلاحين لم يغدروا بنا ولم يفشوا أمرنا. ولبسنا لباس الحطابين وسكنّا في كوخ مبني من الجذوع، لكننا كنّا موضع عناية ورعاية مثل الأسياد؛ حتى الجمائل لم تُسدَ لنا من قبل النساء الخاضعات للبيت الكونتي فحسب، لا بل عُرضت كما ينبغي. واعترف لك بصراحة أنَّ الشهوانية والحياة الجنسية البافارية كانت في نظري غاية في الفظاظة والخشونة وتفتقر إلى تهذيب مصدره الراين ومنطقته، وليس في هذه النقطة فحسب. وبما أنني لم أكن متهماً اتهاماً شديداً جداً فقد استطعت أن أتوجّه إلى منزلي، وكان على السيّد الجراف (الكونت) أن ينتظر حتى سنة ١٩٥٣، ثم مثل أمام القضاء بمحض إرادته، ولكن حين ألغي في الواقع بصمت التصرّف المصطنع لمجرمي الحرب. وقعد ثلاثة أشهر أخرى في فيرل، ثم ما لبث أن دخل السلك الدبلوماسي من جديد. وآثرت ألاّ

أعـرّض نفـسي من بعـد ذلك للخطر السـيـاسي، واكـتـفـيت بأن أقـدّم معلوماتي اللغوية الدقيقة».

هويزر الأكبر: «شعرت من خلال ملكي العقاري بأنني مرتبط، لم امتلك بيت غـروتن فحـسب، بل تأتّى لي أيضـاً أن أقتني في كـانون الثاني ٤٥ وشباط ٤٥ بيتاً لأشخاص مهددين سياسياً تهديداً شديداً. في إمكانك إن شئت، أن تصف هذا بأنه معاداة للآرية. أو إعادة معاداة الآرية، كانا بيتين يعودان إلى حيازة يهودية، باعـهـمـا لي فـيـما بعد نازيان مسنّان، بطريقة قـانونيـة، بصك موثّق عند موثّق العـقـود، وعلى نحـو شرعي تماماً. ـ وكان نقل حيـازة صحـيحـاً ـ وفي النهاية لم يكن ممنوعاً شراء بيوت أو بيعها، أو؟ الثاني استغنيت عنه لأنني كنت في الريف ـ لكنني رأيت سحابة الغبار، على بعد أربعين كيلومتراً ـ سحابة غبار ضخمة ـ؛ وعندما عدت على دراجتي في اليوم الآخر وجدت منزلاً سليماً لا عيب فيه في الغرب، ولم يكن عليَّ أن أغادره إلاَّ عندما جاء الانكليز. إذ أنَّ هؤلاء حافظوا أيّما محافظة على أحياء المدينة التي أرادوا أن يسكنوا فيها فيما بعد ـ أما ليني ولوته فقد تخلّتا عني كلياً ولم تحكيا لي أي شيء عن فردوسهما الروسي الصغير الذي كانتا قد أقامتاه هناك في المدافن. لا، أنا الرجل الشيخ ـ وكنت في الستين على كل حال ـ رغبتا هاتان عيني.

لوته أظهرت نفسها بمظهر البخيل الحريص إلى حدّ ما بعد أن توفيّت زوجتي في تشرين الأول. فقد تنقلت ببساطة في المدينة مع الطفلين، باديء ذي بدء عند أقربائها ومن ثمَّ عند هذه العاهرة مارغريت وبعد ذلك عند ناس تعرفهم، لا لشيء إلاَّ لكي لا يتمَّ إجلاؤها، ولم لا؟

كانت غايتها السلب والنهب وعرفت هي تمام المعرفة أين كانت مخازن القوات المسلحة. طبيعي لم يُستدعَ الجد الطيّب حين نهب المخزن قرب الكرمليت القديم. لا، هنا نهب المرء بعربات وأكياس ودراجات عادية قديمة وسيارات قديمة مستهلكة خرّبتها النيران في الشارع، لكنه كان في الإمكان تحريكها باليد أو بطريقة أخرى، هنا نهب المرء البيض والزبدة وشحم الخنزير والسجائر والقهوة والثياب ـ كانوا في غاية الطمع والجشع بحيث إنهم نقلوا لأنفسهم بيضاً في الشارع في أغطية علب الكمامات الواقية من الغاز؛ ونهبوا عرقاً وأيَّ شيء أرادوه ـ حفلات قصف وعربة وفجور بمعنى الكلمة مثلما كان في إبّان الثورة الفرنسية والنساء في المقدمة، وصاحبتنا لوته مثل امرأة شرسة في الطليعة! وكانت هناك اشتباكات حقيقية بمعنى الكلمة ـ كان لا يزال هناك جنود ألمان في المدينة. عرفت هذا كلّه فيما بعد وسرّني أنني انتقلت من هذا المنزل في وقت مبكّر بما فيه الكفاية، حيث إنَّ الأمور سرعان ما جرت فيما بعد كما في مبغى، عندما كان عليهم أن يخرجوا من فراديسهم الروسية في المدافن وعندما بدأت العلاقة بين هوبيرت ولوته. ما كنت ستتعرف على لوتّه ثانية، كانت دائماً امرأة صدودة ناقمة على الدنيا، تهكمية وسليطة اللسان، إلاّ أنها كانت قد تبدّلت حالها وتغيّرت أطوارها كليّاً. وتحمّلنا تذمراتها الاشتراكية في أثناء الحرب، مع أنه كان يشكّل خطراً علينا ذلك الشيء الذي كانت تبديه آنذاك بين الحين والآخر، وقد آلم أنها جرّت إبننا فيلهيلم إلى ذلك الهراء الأحمر، لكننا صفحنا لها ذلك، وفي النهاية كانت امرأة وأماً مدبّرة قوية مؤمنة بالواجب، لكن بعد ذلك، ومن ثم اعتقدت في الخامس من آذار أنَّ الاشتراكية قامت وأنَّ كل شيء

توزع، الملكيـة المنقولة وغيـر المنقولة، كل شيء. وكانت قد تسنّمت هي بعض الوقت إدارة مديرية الإسكان، وفي باديء الأمر بالغصب، ذلك لأنّ إدارتها كانت قد هربت، ومن ثم استلمتها بصورة قانونية، ذلك لأنها لم تكن في الحـقيـقـة فاشيّـة، إلاّ أنه لا يكفي ألاّ يكون المرء فـاشيـاً. فـقد حكمت سنة مديدة وأوصلت ناساً من غير تردّد إلى فيلات خالية، ناساً لم يكونوا ليعرفوا كيف ينبغي أن يستخدموا مرحاضاً ذا سيفون، وهؤلاء غسلوا ثيابهم في حوض الاغتسال، وربّوا سمك الشبوط وصنعوا عصير اللفت في الحمـامـات. والحق أنّ المرء وجد هناك نصف الأحواض مليئـة بعصير اللفت. ولحسن الحظ فإن هذا التبديل من اشتراكيـة إلى ديمقراطية لم يدم طويلاً، ثم صارت من جديد حلوة جـميـلة مثلما كـانت: موظفـة صغـيـرة. لكنهـا آنذاك في أيام السلب الكبيـر لازمت مع هؤلاء كلّهم فردوسها، فردوس المدافن، مع الطفلين، ومع أنها كانت تعرف أين كنت أسكن، وكانت تعرف تمام المعرفة، إلاّ أنها لم تقل لي كلمة واحدة. لا، ليس في وسع المرء أن يتحدّث هنا عن الشكر، وإذا تفحصت الموضوع عن كثب، فإنّ هذه مدينة لي بحياتها. كان يكفي أن أنقل كلمة واحدة مما قالته هي عن الحرب وأهداف الحرب، كلمة هراء، حتى توضع هي في السجن أو تزجّ في معسكرات الاعتقال، أو ربما لتعلّق على حبل المشنقة ـ هذا من بعد ذلك».

* * *

ربما همّ شخصاً ما أيضاً أن يعلم أنّ ب. هـ. ت لم يفشل تماماً في حيل البول التي أوحت بها إليه راحيل، فقد كانت ناجحة حتى آخر لحظة

ـ إلاّ أنها لم تعد تجدي نفعاً: فقد طلب في نهاية أيلول سنة ٤٤ للخدمة في كتيبة معدات، مع أنَّ القرحة المعدية تتطلب نظاماً غذائياً آخر غير مرض السكر؛ وبقي ب. هـ. ت يشارك في القتال: هجوم الاردينين وهورتيغنيفالد، ووقع في الأسر الأمريكي على مقربة من مكان يدعى فورسيلين، وليس بمستبعد أنه قاتل «جنباً إلى جنب» مع شلومر الذي تحوّل إلى واحدٍ اسمه كايبر! ومهما يكن من أمر فقد شهد ب. هـ. ت نهاية الحرب في معسكر أسر أمريكاني بالقرب من ريمز «بصحبة نحو مئتي ألف جندي ألماني من كل الرتب، واستطيع أن أقول لك إنَّ هذا لم يكن مبهجاً، لا فيما يتعلق بالصحبة ولا من حيث الوضع التمويني، ولا سيما فيما يتعلّق، لو سمحت لي بهذا التعبير، بالأمل في معاشرة نسائية ـ بئس ما كان. » (وإنها لملاحظة فاجأت المؤلف. فقد عدُّ ب. هـ. ت محايداً من حيث الجنس).

* * *

بدا للمؤلف غاية في الحرج والحساسية أن يسأل م. ف. د (ماريا فان دورن) عن مصير غروتن؛ وابتغاء للموضوعية قام بعدة محاولات حذرة، انتهت في شتائم ومسبّات لوته التي انصبت عليها، كما يبدو، غيرة ماريا فان دورن بسبب «حوادث معيّنة». «ما كنت قد عدت بعد عندما عاد هو إلى البيت، وإلاّ وأنا واثقة من ذلك كل الثقة، كان سيبحث ويجد عندي السلوان الذي قدمته له، مع أني أكبرها بالسن ثلاث عشرة سنة. على أنني كنت قد وصلت على غير قصد مني إلى الجانب الآخر من الراين، بل في ودّي أن أقول على الجانب الآخر من نهر

الفوبّر، وقبعت في ذلك الوكر الفستفالي البغيض حيث لم يعاملونا نحن أبناء منطقة الراين بالحسنى باعتبارنا مدللين، مدلّعين ولاحسي فلفل وباعتبارنا فاسدين ـ ولم يأت الأمريكان إلينا إلاّ في منتصف نيسان، وماذا تعتقد، كم كان صعباً ومحالاً عبور الراين غرباً. كان عليَّ، إذاً، أن أبقى هناك حتى منتصف أيار، وجاء هوبيرت في مطلع أيار، والظاهر أنّه تسلّل على فوره إلى مخدع لوته هذه. ولم يعد ثمة حيلة ما حين عدت. كان قد فات الأوان».

* * *

لوته: «يختلط عليَّ في بعض الأحيان ما يتعلّق بالفترة الممتدة من شباط إلى آذار في سنة ٤٥ وبداية أيّار. كان أكثر مما ينبغي، كل شيء غامض بعيد عن الحصر والفهم، لا بل، إننا كنا فيه. طبيعي أنني نهبت في زقاق شنورر بالقرب من دير الكرمليت وأخذت ما استطعت وآثرت آنذاك أن أستعين ببيلتسر، لا أن أستعين بالسيّد حمي، أبي زوجي. كم صعب علينا حلّ المشاكل كلها! كان عليَّ أن أعزّل من المنزل، والوحيدة التي كان في إمكانها البقاء هناك كانت ليني، على أنّ الأيام السابقة للولادة كانت قليلة، وما كان في مقدورنا أن نتركها وحدها، وعلى هذا انتقلنا كلّنا إلى ما يسميه هو الفردوس الروسي في المدافن. وكان قد اتضح أنَّ روسيّاً كان أبا طفلها ـ إلاّ أنها لغبائها كانت قد ذكرت رجلاً آخر، لأنها كانت قد استلمت بدءاً من أيلول أو تشرين الأول سنة ٤٤ بطاقة الأمومة ـ وهذا ما دبّرته مارغريت التي سمّت لها اسم جندي توفيَّ في المشفى العسكري! وكان اسمه جيندريتسكي. وكلتاهما انجزت

الموضوع بسرعة من غير أن تكونا على يقين من أنّ جيندريتسكي المتوفى هذا كان متزوجاً ـ ربّما جرّ هذا متاعب على هذه المرأة، وكما أرى، متاعب بغيضة: فلا ينبغي أن يلصق المرء بميّت شيئاً من هذا القبيل، كان في إمكاني إصلاح ذلك عندما أدرت بعد منتصف آذار مديرية الإسكان للحكومة العسكرية. كان لدينا ما يكفي من أختام وأشياء من هذا القبيل واتصال بكل السلطات الأخرى، وبذلك استطعنا أن نلحق الطفل بأبيه الحقيقي: بوريس لفوفيتش كولتوفيسكي ـ فإذا تصوّرت أن السلطات كلها قبعت في ثلاثة مكاتب فستعرف أنها كانت مسألة إسقاط أبوة طفل ليني عن هذا المسكين جيندريتسكي وتسوية الأمر. وكان هذا كلّه بعد الثاني من آذار، وعندما راح الأغبياء الألمان كلهم أخيراً فقد شنق هؤلاء في السادس فارين من الجندية في المدينة، قبل أن ينسحبوا الانسحاب النهائي وفجروا الجسر وراءهم. ثم جاء الأمريكان أولاً، واستطعنا أن نغادر الفردوس الروسي في المدافن نهائياً ونعود إلى البيت؛ لكن الأمريكان أيضاً لم يتعلموا درساً من الفوضى كلها، فهؤلاء، كانوا في الحقيقة مذعورين من الحال التي بدت فيها المدينة، ولقد رأيت بعضهم يبكي، ولا سيما بعض النسوة أمام الفندق عند الكاتدرائية ـ وأي بشر ظهروا كلهم هنا: فارّون من الجندية، روس مختبئون، يوغسلافيون وبولنديون وعاملات روسيات وأسرى معتقلات هاربون وبعض اليهود المختبئين ـ وأنّى لهؤلاء الأمريكان أن يتأكدوا من كان متعاوناً ومن لم يكن متعاوناً معه ومَنْ كان من أفراد هذا المعسكر أو ذاك. فقد كانوا قد تصوروا الأمر أسهل، على نحو سهل جداً بعض الشيء بخصوص النازيين وغير النازيين وما شابه ذلك؛ ولم يكن هذا

بالأمر السهل، كما ظنَّ هؤلاء السذّج. كان لا بدَّ من ترتيب كل شيء وتصنيفه ـ وحين ظهر هوبيرت أخيراً، في بداية أيار، كان الوضع واضحاً إلى حدٍّ ما، أقول إلى حدٍّ ما، ولا أخفي أنني تدخلت في بعض المصاير بأختام ووثائق على نحو أقرب إلى الأريحية؛ ولِمَ هي الأختام والوثائق؟ فهوبيرت مثلاً وصل في بذلة إيطالية أهداه إيّاها بعض الرفاق في برلين الذين كان عليه أن يعزّل معهم الاستحكامات وأنفاق المترو؛ كانوا قد فكروا ملياً: الانتقال غرباً في هيئة سجين ألماني هو غاية في الخطورة؛ فقد كان لا يزال هناك عدد لابأس به من المعاقل والأوكار النازية بين برلين والراين حيث كانوا سيشنقونه؛ ولكي يسير مدنيّاً فقد كان شاباً؛ في سن الخامسة والأربعين كان سيقع في أي أسر: روس، إنكليز أو أمريكان. وعلى هذا سار إيطالياً، وطبيعي لم يكن هذا تأميناً على الحياة، لكنَّ هذا كان عين الصواب: حسبهم أنهم احتقروا الايطاليين، وما تمَّ شنقهم حتماً على الفور، والمسألة كانت في الحقيقة مسألة: ألاّ يشنقوا على الفور أو يرموا بالنار، كانت هذه هي المشكلة، ثم واتاه الحظ ببذلته الإيطالية وبقوله ‹لا أفهم الألمانية› ـ إلاّ أنَّ هذا لم يكن حتماً تأميناً على الحياة أن يؤتى به إلى إيطاليا ببذلة إيطالية ويتم التحقق من شخصيته هناك بأنه ألماني! وكان في الإمكان أن يودي هذا أيضاً بالحياة. إلاّ أنه أفلح ووصل إلى هنا هاشّاً باشّاً، أقول لك هاشّاً باشّاً، وليس في مقدورك أن تتصور شخصاً هاشّاً باشّاً إلى هذا الحدّ. قال لنا: ‹يا أولاد، عقدت العزم على أن أمضي بقيّة حياتي باسماً مبتسماً›. عانقنا كلنا، ليني وبوريس، وسرّ سروراً عظيماً بحفيده، وعانق مارغريت وطفلي وعانقني بطبيعة الحال وقال لي: ‹أنت يا لوته تعرفين أنني

أحبك، وأحياناً أحسبك أنك تحبينني أيضاً. فلماذا لا نبقى معاً؟› وعلى تلك الحال نزلنا بثلاث غرف،ليني وبوريس وطفلهما ثلاث، ومارغريت واحدة، وكان المطبخ مشتركاً؛ ولم تعد هناك مشاكل بين ناس على جانب كبير من العقل، وكان عندنا كل شيء، كل إرث القوات المسلحة الألمانية المظفرة بزقاق شنورر، كما أنَّ مارغريت كانت قد جلبت معها أدوية كثيرة من المستشفى العسكري؛ وبدا لنا أنه لمن الأفضل لنا أن نترك هوبيرت يتابع تجواله بالبذلة الإيطالية ـ لكن يا للأسف لم أستطع أن أحصل له على بطاقة شخصية إيطالية، وحصل على واحدة من الحكومة العسكرية باسم إيطالي أوجده له بوريس: مانزوني، كان هذا الإسم الإيطالي الوحيد الذي كان يعرفه، وكان قد قرأ كتاباً لهذا الشخص المدعو مانزوني. وما كان أيضاً ممكناً إظهاره على أنه سجين ألماني أطلق سراحه، إذ أنَّه لم يكن في الواقع سجيناً سياسياً، بل كان مجرماً، وكان الأمريكان في ذلك دقيقين إلى حدّ ما أكثر مما ينبغي. فما أرادوا أن يتركوا مجرمين حقيقيين يتجولون بحرية أيضًا فكيف كان ممكناً الإيضاح لهؤلاء أنه كان **في الحقيقة** سياسياً. الأفضل إذاً: لويجي مانزوني، إيطالي، عاشرني وشاركني حياتي. اللعنة، كان على المرء أن يحترس من ألاّ تقوده قدماه إلى معسكر، ولو كان معسكراً للعائدين. الأفضل تفادي ذلك. ولم يعرف المرء تمام المعرفة إلى أين وصلت النقليات أخيراً. وسارت الأمور سيراً حسناً أيضاً حتى بداية ٤٦، هنا لم يعد الأمريكان تواقين هذا التوق إلى أن يزجّوا بالألمان كلهم في أي معسكر، وسرعان ما جاء الانكليز، وكسبت الأمريكان والانكليز إلى جانبي على خير وجه. وتساءل الناس بطبيعة الحال لماذا لم نتزوج، كنت أرملة وكان هو

أرملاً، وليس صحيحاً ما يقوله بعضهم أنني لم أفعل ذلك بسبب معاشي. لقد كان سأماً، وإني لأسميه هكذا مرة واحدة، كان سأماً أن يرتبط المرء هكذا ارتباطاً نهائياً، كما هي الحال في زواج. واليوم أندم على ذلك، لأن طفليَّ باتا فيما بعد في نطاق تأثير حمي. أما ليني فكانت تتمنى لو تتزوج بوريس وهو أيضاً كان يتمنى ذلك، لكنَّ هذا لم يكن ممكناً لأنَّ بوريس لم يكن يحمل أية أوراق؛ ولم يرد أن يكشف عن نفسه أنه روسي، ولئن كانت هناك أحياناً وظائف صغيرة لا بأس بها، إلاَّ أن معظم الناس تمَّ حزمهم هكذا مرة واحدة على غير رغبتهم ومن غير أن يعرفوا ما ينتظرهم وسيحدث لهم، وتمَّ إرسالهم إلى الأب ستالين، وكان هو قد حصل من مارغريت على بطاقة جندية ألمانية باسم ألفريد بولهورست، إنّما ألماني في الرابعة والعشرين صحيح الجسم سليم البنية، إنّما كان قد عانى قليلاً من نقص التغذية، وهل تعرف ماذا حدث لهذا؟ سينتسيك أو فيكرات ـ وهذا لم نرده أيضاً. هل تعلم أنَّ هذا لم يكن تأميناً على الحياة أيضاً. كما أنه لازم أيضاً البيت معظم أيامه، وكان يجب أن ترى كيف سكن كلاهما هنا مع ابنهما الصغير: مثل عائلة مقدسة. على أنه لم يكن في الإمكان نصحه بالعدول عن أنَّه لا يجوز للمرء أن يمسَّ امرأة لمدة ثلاثة أشهر بعد الولادة ولا من الشهر السادس أيضاً بصفة عامة ـ وعاش هذان معاً نصف سنة مثل مريم ويوسف وطبيعي قبلة بين الحين والآخر، لكن لا شيء آخر مثل الطفل! فكلاهما داعبه ودلّله وغنّى له أغاني، إلاَّ أنهما بكرّا قليلاً في التنزّه مساءً على نهر الراين، وذلك في حزيران سنة ٤٥. وطبيعي حتى منع التجول. نحن كلنا حذّرناهم، هوبيرت وأنا ومارغريت، لكنهما لم يمتنعا:

كل مساء على الراين. كان هذا رائعاً أيضاً، وكثيراً ما صحبت هوبيرت إلى هناك، وجلسنا جميعاً هناك وأحسسنا بشيء لم نشعر به في الواقع منذ اثنتي عشرة سنة: السلام. لا سفينة على الراين، كل شيء مليء بحطام السفن والجسور محطمة ـ اللهم إلاَّ بضع معابر والجسر الحربي الأمريكي ـ، ويخطر ببالي أحياناً، الأفضل لو أنَّ المرء لم يبنِ جسوراً على الراين وليت المرء ترك الغرب الألماني وشأنه نهائياً. ثمَّ حدث شيء آخر على غير توقع، شيء آخر مع بوريس أيضاً؛ وفي ذات مساء في حزيران ألقت دورية عسكرية أمريكانية القبض عليه، ولسوء حظه كانت بطاقة الجندية الألمانية في جيبه، ولم يكن هناك من سبيل للقيام بأي شيء: في مثل هذه الأحوال لم يجدِ نفعاً ضباطي الأمريكانيون ولم ينفع أصدقاء مارغريت الأمريكانيون، ولم يكن هناك فائدة من أنني ذهبت أيضاً إلى القائد ورويت له القصة المعقدة كلها: كان بوريس قد راح، وبادىء ذي بدء لم تبدُ الأمور سيئة إلى هذا الحدّ؛ إذ أنه كان في أسر أمريكي وسيعود بصفته ألفريد بولهورست ـ لو رفض العودة إلى الاتحاد السوفييتي. وطبيعي لم يكن بفردوس معسكرٌ أمريكي كهذا ـ وما لم نكن نعرفه: أنَّ الأمريكان بدأوا في الصيف يحيلون، إذا صحَّ القول، سجناء ألمانيين إلى الفرنسيين ـ أو يمكن القول، بدأوا يبيعونهم، إذ أنهم تركوهم يردون لهم مصاريف الأكل والسكن بالدولار ـ، وأنَّ بوريس انتهى به المطاف بهذه الطريقة في منجم في اللورين حيث ضعف ضعفاً شديداً ـ الحق أنَّ الولد لم يمت جوعاً، وذلك بفضل ليني، أو بالأحرى بفضل رهون ليني، كما أنه لم يكن قوياً جداً ـ وكان عليك أن ترى ليني آنذاك: فقد انطلقت على فورها بدراجتها القديمة. عبرت كل حدود

مناطق الاحتلال، لا بل كل حدود الدولة، إلى المنطقة الفرنسية ومنطقة السار ودخلت بلجيكا، ثم عادت أدراجها إلى منطقة السار، ومن هناك توجهت إلى اللورين، من معسكر إلى معسكر، وسألت القادة عن صاحبها ألفريد بولهورست، وألحت في السؤال عنه بشجاعة وصلابة، أقول لك هذا، وما عرفت هي أنّ هناك في أوربا نحو خمسة عشر أو عشرين مليون أسير حرب ألماني؛ كانت في سفر على دراجتها العادية حتى تشرين الثاني، وبين وقت وآخر كانت تعود إلى البيت لتتموّن ـ ثم تنطلق من جديد. وإلى الآن لا أعرف كيف تأتّى لها أن تجتاز الحدود وتعود ببطاقتها الشخصية الألمانية، كما أنها لم تتحدث عن ذلك قط. اكتفت أن تغني لنا الأغاني بين الحين والآخر، وغنّت للصبي المرة تلو المرّة: ‹في المساء المقدس اليوم، نجلس نحن الفقراء في حجرة باردة، الريح تهب في الخارج وإلى الداخل، تعال إلينا، يا يسوع الحبيب، وانظر: لأننا حقاً في حاجةٍ إليك› ـ ويا للأغاني التي غنّتها: فقد دمعت لها العيون. وقد قطعت هذه عدة مرات نهر الآيفل إلى الاردينين، ثم عادت ثانية، وانطلقت من سينتسيك إلى نامور ومن نامور إلى ريمس ثم عادت إلى ميتس لتنطلق ثانية إلى ساربروكين وتعيد الكرة إلى ساربروكين، ولم يكن هذا تأميناً على الحياة وهو أن تدور ببطاقة شخصية ألمانية في هذا الركن من أوربا ـ. وماذا يدور في خلدك، لقد عثرت على صاحبها بوريس، صاحبها جيندريتسكي، صاحبها كولتوفسكي، صاحبها بولهورست ـ تخيّرْ لك إسماً. عثرت عليه، في المقبرة عثرت عليه، لا في فردوس روسي في المدافن، لا، في قبر، ميتاً، مات إثر حادث، في حفرة من الحجر البركاني بين ميتس وساربروكن في

مكان مقفر في اللورين ـ وكانت قد أتمت الثالثة والعشرين لتوّها، وإذا دقّقت في المسألة، فقد ترمّلت ثلاث مرات. ومنذ ذلك الحين تحولت إلى تمثال، وكانت تعترينا قشعريرة وحمّى كلّما غنّت للطفل في المساء الشيء الذي كان أبوه قد أحبّه الحب الشديد:

رخام السلف صار عتيقاً
ونجلس اليوم هكذا عطلاً
تماماً مثل الوثنيّة المظلمة
الثلج يسقط بارداً على أجسادنا
الثلج يريد أن يدخل
ادخلْ علينا أيّها الثلج، لا كلمة:
فليس لك مكان أيضاً في السماء...

وتهتف فجأة بصوت لا حياء فيه: ‹هيّا إلى مهاغوني، الهواء رطب ونقي. فهناك لحم خيول ونساء، ويسكي وموائد قمار، قمر مهاغوني الأخضر الجميل يضيء لنا، إذا أنَّ لدينا اليوم تحت القميص أوراقاً مالية لضحكة عريضة من فمك الغبي العريض› ـ ثمَّ فجأة وبحالة نفسية مهيبة يقشعر لها البدن يرتفع الصوت عالياً: ‹لما كنت غلاماً، كثيراً ما أنقذني ربٌّ من صراخ الناس وعصاهم، ولعبت آنذاك بسلام وهدوء مع زهور الغابة الصغيرة، ولعبت معي نسيمات السماء، ومثلما تشرح أنت صدر البناتات حين تمدّ إليك الأذرعة الرقيقة، شرحت أنت صدري›. ولسوف أظل أعرف هذا على ظهر قلب طوال خمسين سنة، ولطالما سمعنا هذا كله، كل مساء تقريباً وفي النهار مرات ومرات وعليك أن تتصوّر: الشيء الصادر عن ليني في لغة ألمانية فصيحة منمّقة على حين لم

تتكلم هي في الحالة العادية إلاَّ اللغة العاميـة الراينية الرائعـة الجافة. وأقـول لك، هذا يليق بها، يليق بهـا وقـد لاق أيضـاً بالولد، لاق به وبنا جميعـاً، لا بل بمارغريت، وبعض أصدقـائها الأمريكانيين والانـكليز لم يشبعوا من النظر والسماع حين كانت ليني تنشد وتغني، ولا سيّما حين كانت ترتّل لصغيرها قصيدة الراين... كانت فتاة رائعة وامرأة فذّة، وأرى أيضـاً أنهـا كـانت أمّـاً عظيـمـة؛ وإذا كـان الصـبي قـد أخـفق في نهـاية المطاف، فليست هي الملومة، والذنب في مثل هذه الحال ذنب الأوغاد، ويجب عليَّ أن أعدَّ منهم ابنيَّ العـاقيّن <وآل هويزر المتحدين> ـ وليس ذنبهـا أنَّ هؤلاء حانقون غاية الحنق، ولاسيمـا الشيخ، حمي؛ فقد أتعبه هوبيرت وأوهنه عندما كان يأتي ويقبض إيجار مسكنه، ستـة وأربعين ماركاً وخمسة عشر بفينيكاً لغرفنا الثلاث. وفي كل مرة كان هوبيرت يضحك، كـان يضحك مثل شيطان، في كل مرة ـ، إلى أن اقتصرت المخالطة أخيراً على المراسلة، ثم جاءت حجة هويزر الشيخ المألوفة عن الرجل المحدود الأفق، وهي أنَّ إيجار السكن دين يجب تسديده في محل إقامة الدائن لا ديناً يؤتى به ـ وهنا كان هوبيرت **يحضر** له الإيجار في بداية كل شهر إلى فيللته في الخارج في الغرب ـ وهنا كان في مقدوره أن يضحك أيضاً ضحكاً شيطانياً، إلى أن فرغ صبر هويزر الشيخ وأصرَّ على أن يرسل له الإيجار. هنا رفع هوبيرت قضيّة ما إذا كـان الإيجار ديناً يُستوفى في محل إقامة الدائن أم ديناً يأتي المرء ويأخذه أم ديناً يرسل بحوالة ـ فليس لامرىء أن يطالبه بطريقة جائرة بأن يدفع عشرة بفينيكات أو عشرين بفينيكاً فقط لحوالة بريدية أو لقاء تحويل على حساب توفير البريد، فهو يعمل عاملاً بسيطاً، وهذا ما صحَّ بحق.

وبالفعل فإنَّ كلاهما مثل أمام القضاء، وكسب هوبيرت القضيّة، وكان لهويزر الخيار الآن أن يسمع عندنا أو عنده في البيت هذا الضحك الشيطاني؛ ثمَّ سمع هذا الضحك أربعين شهراً كلَّ بداية شهر إلى أن خطر بباله أخيراً أن ينيب عنه من يقوم بهذه الأمور ـ ولكني أقول لك إنَّ هذه الضحكة الشيطانية قد تركت أثرها في قلبه، وإنَّ مَنْ يجب أن يدفع الآن الثمن لذلك هو ليني؛ فهو يسومها سوء العذاب، ويوعز بأن يرمى بها خارجاً إذا لم نقم بشيء ما. (زفرات ـ قهوة ـ سيجارة ـ انظر إلى الأمام ـ، مسح على الشعر الأشيب القصير). كانت في نظرنا أوقاتاً طيبة حتى سنة ٤٨، إلى أن مات هوبيرت غروتن في حادث على هذا النحو البشع الكريه ـ كان جنوناً، منذ ذلك الحين لم أعد أحتمل رؤية بيلتسر هذا. ولا أريد أن أسمع أيَّ شيء عنه، لا؛ كانت الحال سيئة جداً؛ وبعد ذلك حرمت أيضاً من الطفلين، ولم يكفّ الشيخ في مثل هذه الأحوال ولم يدّخر وسيلة، واتهمني بكل رجل سكن آنذاك عندنا أو زارنا ذات مرة، وذلك لكي يأخذ مني الطفلين ويسلمهما للرعاية ومن ثم يأخذهما إليه؛ حتى إنه اتهمني بالمسكين هاينريش بفايفر، هذا الرجل المسكين الذي كان يعرج آنذاك هنا وهناك من غير ساق اصطناعية وكان يسكن عندنا كلما كان عليه أن يدخل المستشفى أو أن يأتي إلى مصلحة المعاشات. وكان علينا أن نؤجّر غرفاً، كنا مضطرين، ذلك لأنه رفع الإيجار ولم يتنازل ـ ثم جاءت المشرفة الاجتماعية عدة مرات، وماذا أقول، جاءت مرات، وفي كل مرة على نحو مفاجىء، اللعنة مرة أخرى، ظُنَّ ما تشاء، اللعنة مرة أخرى، فقد ضبطتني ثلاث مرات مع شخصٍ، مرتين، كما عبّرت هي، في ‹موقف فاحش صراحة›، وكما يقول المرء بالألمانية، كنت

مضطجعة مع بوجاكوف هنا في هذا السرير، وكان هذا رفيقاً لبوريس وكان يزورنا بين الحين والآخر. أما المرة الثالثة فقد ضبطتني في ‹موقف دعر›، إذ أنَّ بوجاكوف كان يقف بالقميص الداخلي عند النافذة وكان يحلق ذقنه بمرآة الجيب الخاصة بي وبطشت كان على بسطة النافذة. وكتبت في تقريرها: ‹هذه المواقف تدل على ألفة لا تلائم تربية أطفال ناشئة›.

أجل، كان كورت في التاسعة وفيرنر في الرابعة عشرة، ربما كان هذا غلطة، ولا سيّما أنني لم أحب بوجاكوف قط، حتى إني لم أشعر بأي ميل نحوه، إلاَّ أننا تسللنا ببساطة إلى السرير؛ كما أنهم استعلموا من الطفلين عن ذلك، وبعد ذلك خسرتهما، خسرتهما نهائياً؛ بكيا في البداية عندما كان عليهما أن يرحلا، لكن فيما بعد وعندما حبّبتهما الراهبات بجدهما، عندها لم يرغبا في أن يعرفا أيَّ شيء عني، ولم أكن عندئذ عاهرة فحسب، بل كنت شيوعية أيضاً وغير ذلك، شيء واحد يجب أن يقرّ المرء به للشيخ بدون قيد أو شرط؛ أنه أرسلهما إلى المدرسة الثانوية درّسهما، وبقطعة الأرض التي وهبتها السيدة غروتن للطفل كورت آنذاك، تلاعب هو بذكاء ومهارة ـ وها هي اليوم، وبعد ثلاثين سنة، وقد أقيم عليها أربعة محاضر بناء ومحلات تجارية تحت في القبو، وتبلغ قيمتها ثلاثة ملايين على أقل تقدير ولها ريع، في مثل هذه الحال كنا سنعيش منه كلنا وليني أيضاً، وآنذاك وحين حصل عليها كورت هدية، أريد بها أن تكون مثل فنجان مذهب أو شيء من هذا القبيل ـ وطبيعي إنّ هذا شيء مختلف عن أم عجوز مهترئة متعبة يجب عليها أن تذهب إلى المكتب كل صباح لقاء أجرٍ مقطوع قدره ألف ومئة وإثنا

عشر ماركاً بشيء آخر يجب أن يعترف المرء له به أيضاً: هو أنني ما كنت سأقوم بذلك بمثل هذه المهارة وما كنت سأحسن القيام بذلك. وإلى هذا ارتكبت حماقة مع بوجاكوف هذا، حماقة وجنوناً، ليس غير، كنت غاية في التعب والكآبة بعد أن مات هوبيرت على هذا النحو الرهيب، وبوجاكوف المسكين بكى آنذاك وولول بلا انقطاع ولم يعرف إذا كان عليه أن يذهب إلى الأم روسيا أم لا وغنى أغانيه الحزينة، مثله مثل بوريس ـ يا إلهي، هنالك اندسسنا عدة مرات في الفراش. وفيما بعد استنتجت أن هويزر كان الشخص الذي وشى إلى شرطة النجدة الألمانية، ذلك أننا نملك مخزناً للسوق السوداء. لم يستطع أن يحتمل أنه لم ينل شيئاً من زقاق شنورر، وذات يوم، وكان هذا في بداية سنة ٤٦، ظهر عندنا. إذاً، هؤلاء الجواسيس الأرذال ووجدوا طبعاً مخزنا في القبو: الزبدة المملحة وشحم الخنزير المدخن وسجائر وقهوة وكومات من الجوارب والألبسة الداخلية ـ وصودر كل شيء، وكان يمكن أن نعيل أنفسنا بذلك سنتين أخريين أو ثلاث سنوات أخرى على أحسن ما يرام. شيء واحد لم يستطيعوا أن يثبتوه علينا: أننا لم نبع غراماً واحداً في السوق السوداء، اللهم إلاّ ما استبدلناه ذات مرة والكمية التي وهبناها، وقد تدبّرت ليني أمر ذلك. هنا لم تجد العلاقات الأمريكية الانكليزية نفعاً، كان هذا مهمة هؤلاء الجواسيس الألمان الذين فتشوا البيت أيضاً ووجدوا عند ليني شهاداتها العجيبة بصفتها أكثر فتيات المدرسة ألمنةً. وأحد هؤلاء الأفظاظ ذوي الغلظة والشراسة أراد أن يشي بها ويتهمها بأنها نازية من جراء هذه الشهادات الخرائية التي كانت قد حصلت عليها وهي في العاشرة والثانية عشرة من عمرها، لكنه كان واحداً كنت قد رأيته

مصادفة في بزة كتيبة الانقضاض، فما كان منه إلاّ أن أمسك لسانه، وإلاّ كان الأمر مزعجاً لليني: تفضل واشرح لانكليزي أو أمريكاني أنَّ امرءاً ينال شهادة (أكثر فتيات المدرسة ألمنة) ولا ينتمي إلى النازية؟ الحق أنَّ بيلتسر كان آنذاك مستقيماً، فقد كان قد ضمن نصيبه من زقاق شنورر ولم يوشَ به، وحين سمع أنَّ كل شيء عندنا قد صودر أعطى شيئاً بمحض اختياره: بدون نقود، من غير مقابل، وأغلب الظن لكي يتودد إلى ليني. ومهما يكن فإنَّ هذا الأفّاق كان ألطف من هويزر الشيخ. وفيما بعد، وفي وقت متأخر كثيراً، وأعتقد أنه كان في سنة ٥٤، علمت من أحد رجال الشرطة هؤلاء أنَّ حمي وشى بنا».

* * *

هولتهونه التي كان المؤلف قد تواعد معها هذه المرة في مقهى عصري جد صغير وغالٍ لا لكي يثبت أنه فارس يعرف أصول اللياقة فحسب، بل لكي لا يستسلم أيضاً في استهلاك السجائر لأي تقييد من نوع داخلي أو خارجي، عاشت نهاية الحرب في ذلك الدير، دير الكرميليت سابقاً، في قبو كنيسة الدير سابقاً، «في قبو كهذا الذي كانت الراهبات يؤدين فيه على الأرجح عقوبة الحبس فيما مضى لم أر أيَّ شيء من السلب والنهب، ولم أشهد الثاني (من آذار) إلاَّ دوّياً عميقاً مستديماً مخيفاً بعيداً كل البعد، مروّعاً بما فيه الكفاية، لكنه كان بعيداً جداً، ولم أرغب، لا لم أرد أن أخرج من هذا القبو إلى أن عرفت تمام المعرفة أنَّ الأمريكان حضروا وكنت خائفة. لقد أعدم ناس كثيرون رمياً بالرصاص وشنقوا، ومع أنه كانت لديَّ أيضاً أوراق سليمة نظامية

مجرّبة: فقد كنت خائفة؛ إنَّ أية دورية شرطة كان من الممكن أن تساورها الشكوك وترديني قتيلة. وبقيت هناك قابعة، وحيدة فيما بعد، وتركت هؤلاء فوق ينهبون ويحتفلون. وما إن سمعت أن الأمريكان كانوا قد جاؤوا حتى خرجت وتنفست وبكيت من الفرح والألم، من الفرح بالتحرّر ومن الألم لهذه المدينة المدمّرة دماراً كلياً لا معنى له ـ ومن ثمَّ بكيت من الفرح عندما رأيت أن الجسور كلّها قد تحطّمت: أخيراً كان الراين حداً لألمانيا من جديد، أخيراً من جديد ـ كان هذا فرصة، وكان يمكن أن ينتهزها المرء ـ لابناء لأية جسور بعد الآن، بل السماح لمعابر روقبت مراقبة شديدة بالسفر جيئة وذهاباً. واتصلت على فوري بالمكاتب الأمريكانية. والتقيت بعد أخذ وردّ على الهاتف بصديقي العقيد الفرنسي وسمح لي بأن أتنقل بحرية بين المنطقة الانكليزية والمنطقة الفرنسية، وواتاني الحظ أن أساعد ليني مرتين أو ثلاث مرات بأن أخلّصها من مواقف مزعجة إلى حدّ ما حين كانت تسافر عبر المنطقة بحثاً عن بوريس. وفي تشرين الثاني حصلت على ترخيص واستأجرت قطعة أرض وعملت مشاتل وفتحت متجراً وجئت على الفور بليني إليَّ. كانت لحظة مهمة في نظري عندما حصلت على ترخيصي وبطاقتي الشخصية الجديدة: ألا ينبغي علي أن أصبح مرة أخرى إيلي ماركس من سارلويس أم كان عليَّ أن أبقى ليانه هولتهونه؟ قررت أن أبقى ليانه هولتهونه. وجواز سفري يقضي بأن أكون ماركس المدعاة هولتهونه. وإنك لتحصل عندي على شاي أفضل من هنا في هذه الحجرة الزائفة الانتاج والثراء». (وقد أكدّ المؤلف هذا بقناعة) «الحق أنَّ ما هو جيّد هنا هو الكعك المحلّي أو الحلوى المصنوعة من عجين اللوز. ولن أنسى هذا.

ولنعد الآن إلى ما وصفه لك بعض الأشخاص الذين يقدمون معلومات بأنه الفردوس الروسي في المدافن: لقد دعينا نحن أيضاً إلى هذا الفردوس، غروندتش وأنا، لكننا خفنا، لا من الأموات بل من الأحياء، ولأن المقبرة كانت في وسط منطقة رمي قنابل الطائرات بين المدينة القديمة والضواحي؛ وفيما يتعلق بالأموات فما من شيء ضايقني في هذا الفردوس، ومهما يكن فقد تقابل الناس قروناً طويلة في دياميس واحتفلوا بأعيادهم. فالقبو بجانب خشخاشة الكنيسة التابعة لدير الكرميليت كان أكثر أماناً لي ـ وما كان من حرج لدورية شرطة أن تأتي إلى هنا وتسأل عن أوراقي، أما في المقبرة بالمدافن: فقد كان هذا مكاناً مريباً، وفي نهاية المطاف لم يعد يعرف المرء أي شيء كان هو الأسلم والأكثر أماناً ـ أن يكون بصفة يهودية متخفيّة أو انفصالية متخفيّة أو جندي ألماني غير فار أو جندي ألماني فارّ أو سجين هارب أو سجين غير هارب، والحق أنَّ المدينة كانت تعجّ بالفارّين، وبالقرب من المدينة لم يكن الجو مريحاً، فسرعان ما كانت النيران تنطلق من كلتا الجهتين. وقد خاف غروندتش الخوف نفسه، مع أنه لم يغادر المقبرة، إذ صحّ التعبير، منذ أربعين أو خمسين سنة؛ والآن، وفي نحو منتصف شباط سنة ٤٥، غادرها وانتقل إلى الريف لفترة من الزمن، بل إنه التحق في نهاية المطاف في مكان ما بالمقاومة الشعبية، وكان على صواب: ولهذه الفترة الزمنية كان أي شكل من أشكال الشرعية أفضل حماية، وكان شعاري ـ الآن فقط لا إسراف ولا شطط. الاختباء في مكان ما بأوراق شبه سليمة وغوص الرأس في الجسد والانتظار. أقول لك إنه كان صعباً عليَّ، إذ أنه كانت هناك أشياء لم يجرؤ المرء على أن يحلم بها مجرّد حلم. ولهذا لم

أشارك عن وعي وإدراك بالنهب، إذ أنَّ هذا كان بطبيعة الحال غير مشروع، والعقوبة كانت عقوبة الموت، وعندما كان السلب والنهب كان الألمان لا يزالون يسيطرون رسمياً على المدينة، ولم أرد أن أتجول يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام بمثل هذه الجريمة في العنق. أردت أن أعيش، أعيش ـ كنت في الواحدة والأربعين وأردت الحياة، ولم أرد أن أعرّض هذه الحياة للخطر. وعلى هذا تصرّفت في صمت ولم أجرؤ على أن أتكلّم قبل دخول الأمريكان بثلاثة أيام بأنَّ الحرب انتهت أو كانت خاسرة. وبدءاً من تشرين الأول كتب في الحقيقة على لافتات ومنشورات أنَّ الشعب الألماني بأسره سيطالب بصرامة بالتكفير العادل لمروجي الإشاعات الكاذبة والانهزاميين ودعاة التردد والهزيمة وأعوان العدو ـ ولم يكن لهذه الكفارة إلاَّ اسم واحد هو: الموت. وتصاعد جنون هؤلاء: ففي مكان ما رموا بالرصاص امرأة كانت قد غسلت بياضات سريرها ونشرتها لتجف، وظنوا أنَّ هذه المرأة قد رفعت الراية البيضاء فرموها بالرصاص ـ بالمدفع الرشاش داخل النافذة. لا، أفضل الجوع قليلاً والانتظار، كان هذا شعاري، وأعمال السلب والنهب الوحشية هذه في الثاني بعد الهجوم ـ كان هذا خطيراً جداً عليَّ، وكان خطراً على الحياة، أن تجرجر هذه الأشياء أيضاً إلى المقبرة: وعلى كل حال كانت المدينة لا تزال تحت السيطرة الألمانية وكان لا بدَّ من الدفاع عنها. وعندما رحل الألمان عنها نهائياً لم يعد هناك أي تردّد لي. الذهاب الفوري إلى الأمريكان والاتصال الفوري بأصدقائي الفرنسيين؛ ومنّوا عليَّ بمسكن صغير جميل وحصلت على رخصة المشتل الأولى. وطوال غياب غروندتش الشيخ استخدمت محلاته ودفعت له استئجاراً على آخر قرش

على حساب وعندما عاد في سنة ١٩٤٦ سلّمت له محلّه سالماً سليماً وافتتحت محلّي، ثم جاء في آب ١٩٤٥ بيلتسر الطيّب وكان في حاجة إلى إثبات براءة خاص به، مع أنه كان قد بدأ كلَّ شيء بداية جيدة، ومن أعطاه إثبات براءة؟ مَنْ شفع له وآزره أمام لجنة التطهير؟ ليني وأنا، نعم، نحن برّأناه، وقمت أنا بذلك مخالفة قناعتين اثنتين: خالفت ضميري لأنني عددته رغم كل شيء وغداً، وخالفت مصالحي الشخصية. إذ أنه صار بطبيعة الحال منافسي، وبقي منافساً حتى منتصف الخمسينات. «فجأة بدت هولتهونه، مصدر المعلومات، كبيرة جداً في السنّ، مضعضعة محطّمة تقريباً، بشرة الوجه التي كانت حتى ذلك الحين مشدودة، استرخت فجأة، اليد مضطربة وهي تلهو بملعقة الشاي، مرتعشة، وصوتها مرتجف تقريباً: «حتى اليوم أنا لست على بيّنة مما إذا كانت تبرئته ومؤازرته أمام لجنة التطهير صواباً، على أنني كنت شخصاً مضطهداً منذ أن كنت في التاسعة عشرة من عمري وحتى الثانية والأربعين، من بعد المعركة عند جبل إيجيديان (إيجيديان بيرغ) وحتى دخول الأمريكان عشرين سنة من الملاحقة، سياسياً وعرقياً، مثلما تشاء ـ وكنت قد اخترت بيلتسر عن قصد لأنني قلت في نفسي، عند نازي ستكونين في حرز حريز، وعند نازي فاسد مجرم ستكونين على الأخص آمنة. على أنني عرفت ما قيل عنه من قيل وقال وما حدثني عنه غروندتش أحياناً، وإذا به أمامي، وقد شاب شعر رأسه من الخوف، وتقدم مع زوجته التي كانت بريئة حقاً ولم تعرف أيُّ شيء مما كان قد فعله سنة ١٩٣٣، ومع ولديه الحلوين الصغيرين، الصبي والفتاة، اللذين كان عمرهما يتراوح بين العاشرة والثانية عشرة ـ ظريفان لطيفان، كما

أنَّ الزوجة الشاحبة المستهترة بعض الشيء والتي كانت في جهل تام، فقد رثيت لحالها، ـ وسألني عما إذا كان في إمكاني أن أشنّع عليه أو أثبت أنه كان قد مارس مثقال ذرة من الوحشية في داخل العمل وخارجه عليَّ أو على أيّ إنسان آخر في السنوات العشر التي أمضيتها عنده وسألني أليس من المفروض أن يكون هناك زمن يجب أن تغتفر فيه لأنسان ما زلاّت شبابه ـ هكذا اسماها هو وأن تنتسى. كان لديه من المكر والدهاء ما يكفي لئلا يعرض عليَّ رشوة، واكتفى بأن ضغط ضغطاً خفيفاً بأن ذكّرني أنه ألحقني بفرقة تجديد الأكاليل، وهذا يعني أنه جعلني أمينة سرّه ـ وبذلك أراد أن يلمّح أن صحيفتي كانت أيضاً سوداء وأنني نفسي لم أكن لأتمتع بضمير نقيّ، إذ أنه لم يكن شيئاً محموداً أننا جدّدنا وأصلحنا أكاليل مسروقة، لا بل استعملنا أيضاً البابيونات (الشرائط) ـ وفي نهاية المطاف استسلمت وأصدرت له إثبات براءته وسميّت أصدقائي الفرنسيين كفلائي وما شابه ذلك. والشيء نفسه تصرّف مع ليني، وهذه كانت آنذاك مرموقة سياسياً ومحبوبة، مثلها مثل صديقتها لوته، كان في وسعهما كلتيهما أن تسجّلا لنفسيهما نجاحاً رائعاً، إلاّ أنَّ الحال كانت هكذا عند ليني، إنّها لم تستغلَّ شيئاً على الإطلاق؛ عرض عليها بيلتسر المشاركة ـ وهذا ما فعلته أنا فيما بعد تماماً ـ؛ ومن ثمَّ عرض على أبيها المشاركة، إلاَّ أنَّ هذا أراد القليل مثلها، ولعب دور البروليتاري تماماً، وأعرض عن الصفقات والتجارة، واكتفى بالضحك ونصح ليني أن تمنح بيلتسر «ضالته»، شهادة التبرئة، وفعلت ذلك طبعاً من غير مقابل. كان هذا بعد موت بوريس حيث أصبحت تمثالاً بالكليّة. إذاً، أعطته شهادة تبرئته ـ مثلي أنا. وبهذا نجا

إذ أننا كلتينا كان لنا وزننا. وإذا سألتني عما إذا كنت نادمة، فلا أقول نعم ولا أقول لا، ولا أقول ربما، بل أكتفي بالقول: إنني أشعر بالغثيان كلّما تذكرت أنه كان في قبضتنا ـ نعم: في قبضة اليد، بقطعة ورق وقلم حبر وعدة اتصالات هاتفية، إلى بادين بادين ومانيز، وكانت في الحقيقة الفترة السخيفة التي تطلّعت فيه ليني قليلاً إلى الحزب الشيوعي الألماني، وكان بين أعضاء لجنة التطهير رجل شيوعي، وهلمّ جراً. إذاً: برّأناه وانقذناه ـ وعليَّ أن أقول، إنه مهما ارتكب من أشياء غير مشروعة بغريزته الوحشية ومضارباً من حيث العمل لم يكن فاشياً قط ولم يصبح فاشياً من جديد، وكذلك فيما بعد حين كان من المفيد أو صار مجدياً مرة ثانية أن يتمكن من إظهار هذا **أيضاً**. لا. أبداً. على المرء أن يقول هذا، وعليه أن يعترف له بذلك بلا قيد وبلا شرط، ولم ينافسني قط منافسة غير عادلة، ولم ينافس أيضاً غروندتش منافسة غير عادلة ـ على المرء أن يعترف بذلك. ومع هذا ـ فإنّي لأحسّ بالغثيان عندما أتذكّر أنه كان في قبضتنا. وبلغ من إلزه كريمر أن شاركت آنذاك ـ فقد نجح في إقناعها، وكانت ملاحقة سياسياً، كما يمكن إثباته. وكان صوتها محترماً مثلما كان صوت ليني وصوتي، ومع أننا كلتينا كنا سنكفي، إلاّ أنه أراد منها أيضاً شهادة تبرئة وحصل عليها ـ، هذه أيضاً، السيدة كريمر، لم تستغل أيَّ شيء، ولم تستغلَّ عرض بيلتسر ولم تستغلَّ عرضي، ولم تستغلَّ الواقع وحقيقة الأمر أنَّ رفاقها القدامى ظهروا مرة أخرى. كان في رأسها آنذاك سطر واحد: ‹لم أعد أريد شيئاً، لم أعد أريد شيئاً›، ولم تشأ أن يكون لها أية صلة برفاقها السابقين ـ اكتفت بأن تسمّيهم أنصار تيلمان الذين سلّموا رجلهم أو صديقهم في

فرنسا إلى الجلاّد ـ وذلك في سنة ونصف السنة التي سرى فيها مفعول اتفاقية هتلر ـ ستالين التي عارضها هو منذ البداية. والآن، ماذا صارت هي، إلزه كريمر: عاملة مساعدة من جديد، في أول الأمر عند غروندتش، ثم في نهاية الأمر عند بيلتسر، إلى أن أتيت بها إلى المحل عندي حيث عملت مع ليني الشيء الذي عملناه في الحرب: صنعت أكاليل، وزيّنت أكاليل بشرائط، ورتّبت زهوراً في أشكال فنيّة متنوعة إلى أن أصبحت عاجزة معقدة. وبطريقة ما ومع أنهما كلتيهما لم تفكرا به أو تعربا عنه أو تلمّحا به مجرد تلميح، أحسست بهما كلتيهما أنهما لوم حيٌّ: فهاتان لم يكن لهما أي كسب أو مغنم، وصار الأمر دقيقاً كما في الحرب ـ فكريمر كانت تهيىء قهوة الفطور، وكانت نسبة الخلط إلى زمن طويل، إلى زمن طويل إلى حدّ ما، أقلّ مما في الحرب. كانتا تأتيان ومعهما مناديل الرأس وشرائح بالزبدة ومسحوق القهوة في كيس ورقي من قديم الزمان. كريمر حتى سنة ٦٦ وليني حتى سنة ٦٩، ولحسن الحظ لزقت أكثر من ثلاثين سنة، أما الشيء الذي لا تعرف عنه أيّ شيء ولا يجوز أن تعرف عنه أيّ شيء: ·. أنني تبنيّت موضوع معاشها ودفعت زيادة بصفة شخصية لكي يكون لديها الآن شيء ما على الأقل: إنّها في أتم صحة وعافية ـ ولكن أيّ شيء ستحصل عليه إذا تمّت تسوية المعاش؟ ليس هناك أربعمائة، ربما أكثر أو أقل بعض الشيء. هل تدري أنني أحسها بطريقة سخيفة تماماً لوماً حيّاً؟ ومع أنها لا تلومني على أي شيء، إلاّ أنها تأتي إليّ بين الحين والآخر لكي تحاول الاستدانة على استحياء لأنّ المرء يريد أن يحجز على شيء هي شديدة التعلق به: فأنا ماهرة وأستطيع أن أنظم، لا بل إنني أستطيع أن أنظّم وأنهّج بطريقة

علمية، ويسرني أن أحكم تنظيم سلسلة حوانيتي والسيطرة عليها وأن أوسّعها باستمرار ـ ولكن: يبقى هناك شيء يحزنني جداً. أجل. كذلك أنني لم أستطع أن أساعد بوريس وأنقذه من هذا المصير السخيف: قبض عليه ببساطة في الشارع بصفته جندياً ألمانياً وهو بالذات يجب أن يموت في كارثة منجم؟ لماذا؟ ولماذا لم أستطع القيام بأيّ شيء؟ الحق أنه كان لي هؤلاء الأصدقاء الطيبون عند الفرنسيين، وما كان هؤلاء ـ يخرجون لي بوريس فحسب، لا بل كان هؤلاء سيخرجون لي نازياً ألمانياً لو أني طلبت منهم ذلك، ولكن حين اتضح الأمر أخيراً أنّه لم يعد عند الأمريكان، بل عند الفرنسيين ـ كان الأوان قد فات، وكان قد مات ـ، حتى اسمه الألماني الوهمي لم يعرفوه معرفة صحيحة ـ هل كان اسمه بيلهورت أم بولهورست أم بالهورست، فلاليني عرفت هذا ولا مارغريت أو لوته عرفت هذا معرفة تامة. لِمَ أيضاً. كان في نظرهم بوريس، وبطاقة الجندية الألمانية هذه لم ينعموا النظر فيها بشكل دقيق طبعاً ولم يسجّلوا الاسم».

* * *

كانت هناك حاجة إلى بعض الأحاديث والتحريات الوافرة للحصول على معلومات دقيقة عن الفردوس الروسي في المدافن، على أية حال كان في الإمكان التأكد تماماً من مدته، من ٢٠ شباط حتى السابع من آذار سنة ١٩٤٥ عاش كل من ليني وبوريس ولوته مارغريت وبيلتسر وإبنا لوته كورت وفيرنر اللذان كانا آنذاك في الخامسة أو العاشرة من العمر في ظروف من نوع الدماميس وسراديب الموتى في «نظام قبور»

تام (بيلتسر) في المقبرة المركزية. فإذا كان بوريس وليني قد أمضيا «أيام المواقعة» فوق الأرض في كنيسة مدفن آل بوكامب فكان لا بدّ الآن من «النزول تحت الأرض» (لوته). كانت الفكرة من وحي بيلتسر الذي أسهم على نحو ما بالأسس السيكولوجية. برضىً لا يتغيّر واستعداد ثابت استقبل هو المؤلف مرة أخرى (وليست دائماً بالمرة الأخيرة) في غرفة هواياته بجانب متحف الأكاليل، عند البار المتحرّك المركّب حيث قدّم مشروب ويسكي ممدداً ووضع منفضة ضخمة بحجم إكليل غار متوسط. إنَّ كآبة إنسان عاش في سلام فترات تاريخية غاية في التناقض فاجأت المؤلف. وإنَّ رجلاً في السبعين من عمره ما زال ينفذ كل أسبوع من دون أن يحدق به خطر احتشاء القلب، مباراتي التنس ويؤدي كل صباح، لكن أيضاً كل صباح، جريه في الغابة، وتعلّم ركوب الخيل (بيلتسر حول بيلتسر)، و، «هذا على ثقة» (بيلتسر للمؤلف)، بين الرجال إذا صحّ التعبير، لا يعرف مشاكل القدرة الجنسية إلاّ سماعاً»؛ هذه الكآبة، هكذا إذا سمح المرء للمؤلف بهذا الاستنتاج السيكولوجي ـ لدى بيلتسر سبباً مفاجئاً لهذه الكآبة: إنها لوعة الحب. فما زال يشتهي ليني، وإنه لعلى استعداد «أن يأتيها بالزرقة من السماء»، على أن هذه تفضّل أن تنام مع تركي وسخ على أن تجود عليَّ بساعة حنان، وهذه كلّه بسبب قضيّة لا ذنب لي فيها. أيَّ شيء فعلت؟ فإذا نظرت إلى المسألة بدقة فإنني، والحق يقال، أنقذت حياة صاحبها بوريس. أي شيء كان سينفعه زيّه العسكري الألماني وبطاقة الجندية الألمانية لو لم يتمكن من الاختباء، وَمَنْ ذا الذي عرف أيُّ خوف اعترى الأمريكان من الموتى والمقابر ومما له علاقته بالموت؟ أنا. إنها كانت

تجربتي التي قمت بها في أثناء الحرب العالمية الأولى وفي فترة التضخم المالي لدى فرق استخراج الجثث، تجربتي أنهم سيبحثون في كل مكان، إلاّ أنهم لم يبحثوا بالتأكيد في المدافن ـ كما أنَّ كلاب الحراسة أيضاً وسفلة الناس كلهم ـ ما كانوا ليبحثوا بمثل هذه السهولة تحت أرض المقابر. ولم يكن في وسع ليني أن تبقى وحدها لأنَّ الطفل كان يمكن أن يولد كل يوم ولأنه كان على لوته ومارغريت أن تختبئا ـ وليني لم تستطع أن تبقى وحدها في المنزل. فماذا فعلت أنا؟ كنت الرجل الوحيد القادر على العمل في المجموعة، وأسرتي كانت في مكان ما في بافاريا ـ وأنا لم أكن أرغب في أن أكون لا في المقاومة الشعبية ولا في الأسر الأمريكاني. فماذا فعلت إذاً؟ وصلت بممرّ تحت الأرض مدفن هيريغر ومدفن بوكامب وأضرحة الأسر الكبيرة الخاصة بآل ديرتسيكي، إنه عمل مناجم مرتب، حفر، سقوط مميت، حفر، سقوط مميت. كانت كلها أربع حجرات صغيرة جافة جداً بنيت جدرانها بناء نظيفاً وملئت بالأسمنت، على أية حال بمساحة ٢ × ٢,٥، وإنه لمنزل مرتب مؤلف من أربع حجرات صغيرة. وبعد ذلك مددت التيار الكهربائي من محلّي، ولم تبعد المسافة إلاّ خمسين أو ستين متراً. وحصلت على مدفأة صغيرة، من أجل الولدين الصغيرين وليني الحامل ـ ولماذا الكتمان، فقد كان هناك أيضاً قبب لها جدران ولكنها لم تكن مبلّطة، كانت، إذا صحّ التعبير، أماكن محجوزة لآل بوكامب وآلا هيريغر وآل فون ديرتسيكي. وكانت هذا مخازن مثالية. حملنا القش والمرتبات إلى الداخل، ولكل الأحوال مدفأة حديدية صغيرة اسطوانية الشكل ـ طبعاً لليل، إذ ربّما كان جنوناً إشعال هذا الشيء في النهار، كما حاولت مارغريت هذا ذات مرة ـ إذ أن هذه

لم تكن تعرف أيَّ شيء عن التمويه. هذا وقد ساعدني غروندتش في هذه الأعمال كلها، أعمال الخلد ـ هذه المدافن كلها كانت تخصّ زبائننا المشتركين ـ؛ إلاَّ أنه رفض أن يسكن في الداخل، فقد حمل هذا معه في الحرب العالمية الأولى إلى الوطن عقدة انطمار وردم، وهذه لم تأتِ إلى قبو أو حانة في قبو، وعلى هذا كان عليَّ أنْ أناوله السلال مع التراب إلى الخارج وأن أنزل في مدفن، وما كان سيقوم هو بهذا قط؛ كما أنه لم يرغب في أن يسكن هنا تحت معنا. أما فوق الأرض فنعم، فهنا لم تخفه الأموات، أما تحت الأرض فقد خاف من موته. ولهذا انتقل نحو الوطن غرباً، حين تأزمت الأمور، انتقل إلى قريته هناك بين مونشاو وكرونينبورغ في نهاية كانون الثاني سنة ١٩٤٥! لا عجب أنه وقع في الفخ وصار أحد رجال المقاومة الشعبية وكان عليه في مثل سنّه أن ينتهي إلى معسكر الأسرى، إذاً، كنت قد أنهيت هذا السكن المؤلف من أربع غرف في المقابر في نحو منتصف شباط، وكان شباط شهراً هادئاً، هجوم واحد، ليس إلاّ، مرة واحدة لمدة نحو نصف ساعة مع قليل من القنابل لم يسمع المرء منها شيئاً إلا بصعوبة. إلى هنا انتقلت ليلاً مع لوته هذه مع كلا ولديها، ومن ثمَّ انضمّت مارغريت، وإذا ما حكى لك أحدهم أنني كنت سأعتدي على هذه، فإني أقول: نعم ولا. فقد قبعنا معاً هناك في حجرتين لآل فون ديرتسيكي، لوته مع ولديها بالجوار عند آل هيريغر، وكنا قد حجزنا لليني ولصاحبها بوريس مدفن آل بوكامب، عش الغرام الأساسي، بالمرتبات والقش ومدفأة كهربائية وخبز مخبوز جيّداً وماء ومسحوق حليب وقليل من التبغ وكحول ميثيلي وجعة ـ كما في مخبأ. وفي بعض الأحيان استطعنا أن نسمع المدفعية من جبهة إرفت، إلى هناك

نقلوا الروس لحفر الخنادق ـ بوريس ومعه بذلة عسكرية ألمانية في الأمتعة مع النياشين والأوسمة كما كانت من توابع بطاقة الجندية الملعونة هذه ـ هناك حفر الروس إذاً خنادق ومواقع للمدافع وسكنوا في مخازن الغلال، ولم يعد المرء يحرسهم حراسة شديدة، وذات يوم أحضرت ليني على مقود دراجتها المسروقة بوريس، والحق أنَّ اللباس العسكري الألماني لاق به، ولاقت به الضمادة المصطنعة على نحو رائع ـ حتى أنه كان لديه بطاقة جريح نظامية مختومة وموقعة، وبذلك مرّاً بكلاب الحراسة وانتقلا بعد ذلك في نحو العشرين من شباط إلى منزلهما الصغير في المقبرة، وكان الحق لي في أنه ما من دورية شرطة، لا ألمانية ولا أمريكانية، جرؤت على الدخول إلى القبور، هنا عشنا أياماً معدودات كما في حال من الحياة الهادئة المريحة، لا شيء لنسمعه، ولا شيء لنراد، وللحفاظ على الصورة عملت في النهار في حانوتي، إذ أنَّ الموت لم يتوقّف وكان لا بدَّ من الدفن المستمر، لكن ليس على النحو الاحتفالي المهيب ولا تحت إطلاق نيران التحية العسكرية، ولا بالإكاليل المرتّبة، بل اقتصرت المسألة على بعض أغصان التنوب، وبين الحين والآخر كانت توضع هنا وهناك زهرة ـ كان هذا جنوناً. وفي المساء كنت أتمشّى من بعد ذلك إلى منزلي، وفيما بعد كنت أركب دراجة ليني المسروقة ـ ومن ثم كنت أعود أدراجي إلى المقبرة. الحق أننا لقينا نكداً من ولديّ هويزر الملعونين، أوقح خنزيرين صغيرين يمكنك أن تتصورهما، ماهران ماكران ولا يباليان، «الشيء الوحيد الذي استطاع المرء أن يضبطهما به كان: التعلّم، وما أراد أن يتعلّماه كان واضحاً: كسب المال. لقد أكثرا السؤال عليَّ عن الحساب ومسك الدفاتر وما إلى ذلك. وهذان قلبا الدنيا آنذاك على

رأس أمهما. ولو كانت هناك آنذاك لعبة تسلية مثل لعبة المونوبولي لكنّا هدّأنا هذين الولدين الوقحين طوال أسابيع. ومما لا شك فيه أنهما فهما أنه كان لهما أن يهدأا وأ ن يخرجا إلى العراء، إذ أنهما كانا يرفضان أن يتركا المكان بالإكراه، لا، لقد كانا ذكيين إلى هذا الحدّ، لكن كم أفسدا من أشياء في الداخل! أعني أنَّ هناك حدوداً معينة، أي قليلاً من الرهبة والمهابة من الأموات، إذ أنَّ هذه الحرمة موجودة في كل إنسان، حتى فيَّ أنا ـ أمّا هذان الولدان فلم يحلما إلاَّ بالكنوز في المقابر، وكانا في بعض الأحيان على وشك أن يفكّا براغي الألواح من المشكاوات لكي يبحثا عن كنوزهما الملعونة. وإذا قيل عني أنني اغتنيت من الأسنان الذهبية لمتوفين، فإنني أقول عن هؤلاء: إنّه بلغ من هؤلاء أنهم اغتنوا من الأسنان الذهبية لأحياء. وعندما تقول لوته اليوم إنَّ المرء قد انتزع ولديها من يدها فإنني أقول إنهما لم يكونا قط في يدها. فهذان لم يتدربا على يدي جدتهما المتوفاة وجدّهما الذي ما زال على قيد الحياة إلاَّ على شيء واحد: تحقيق مغانم بالحيلة وجمع الأشياء القيْمة. شيء واحد لم أقم به ـ وقد قام به الآخرون كلّهم: مارغريت، ليني، لوته وحتى بوريس ـ، وهو أنني لم أجمع أعقاب سجائري قط، ولا أعقاب سجائر غريبة، وأجد هذا كريهاً مقيتاً. كنت أحب دائماً النظام والنظافة. وسيؤكد لك الجميع أنني كنت أخرج ليلاً في البرد وكنت أكسر الجليد في الأحواض الكبيرة لسقي القبور ـ أعني لسقي الزهور ـ، وأغتسل من فوق إلى تحت، وإذا ما كانت هناك إمكانية، كنت أقوم في ذلك الوقت بالجري الصباحي الذي صار بعد ذلك جرياً ليلياً، وجمع أعقاب السجائر البغيض كرهته وحوالي نهاية شباط وقبيل أن نقوم

بصيدنا الكبير في الثاني في زقاق شنورر أوشكت الحال أن تشحّ عندنا ـ في هذا الفردوس الروسي في المدافن ـ كنا قد أخطأنا الحساب ـ كنا قد توقعنا الأمريكان قبل ذلك بأسبوع ـ، وقلّ أيضاً الخبز المحمّص، والزبدة أيضاً، وحتى مشروب القمح والشعير المحمص البديل عن القهوة شحّ، وبعد ذلك السجائر؛ ثم جاء هذان الولدان بسجائر ملفوفة لفاً جيداً وكانا قد لفّاها بآلة سجائر أمّهما، وكانا قد حصلا على الورق من مارغريت الطيبة القلب ـ وباعاني، كما تبين فيما بعد، أعقاب سجائري باعتبارها ملفوفة لفاً حديثاً؛ ووجدا عشرة ماركات سعراً مناسباً. ضحكت النساء من ذلك واثنين على واقعية هذين الولدين، أما أنا فقد سرت قشعريرة في أوصالي حين ساومت مع هذين الشيطانين الصغيرين الحلوين. لم تكن المسألة في الواقع مسألة نقود، كان لديّ الكثير منها، كما أني كنت سأدفع أيضاً عشرين ماركاً لقاء سيجارة واحدة ـ لكنه المبدأ؛ وكان المبدأ خطأ. أنْ تجد عند هذين الصبيين الصغيرين إلى هذا الحد شهوة الكسب مضحكةً وتضحك من ذلك؛ بوريس، لا أحد غيره، هزّ الرأس، وفيما بعد أيضاً ليني، عندما شرعا بعد الثاني من آذار في بناء مهجعهما الذي سمّياه رأس مالهما، هنا تارة علبة دهن خنزير مسليّ وتارة أخرى علبة سجائر ـ وفي أثناء ذلك كنا كلنا متوتري الأعصاب لكي ننتبه إلى ذلك انتباهاً جيداً. وفي مساء الثاني وضعت ليني طفلها، ولم تشأ أن تلده في قبر، في إمكاني أن أفهم ذلك ـ كما أنّ يوسفها القديس لم يشأ ذلك أيضاً. وعلى هذا اجتازوا المقبرة التي دمرتها القنابل إلى المشتل، ليني في آلام الوضع، ومارغريت مصطحبة الأدوية، وضعوا لها هناك سريراً من لبد نباتي وأغطية عتيقة وحصائر،

وهناك وضعت طفلها حيث كان مرجحاً أن ينجب. كان صبياً ولد في وقته ولادة تامة وكان وزنه ثلاثة كيلوغرامات ونصف الكيلوغرام، وإذا كان قد ولد في الثاني من آذار فلا بدَّ أن يكون قد أنجب في نحو الثاني من حزيران بالحساب الدقيق ـ وإنك لن تجد في تلك الفترة أية غارة نهارية، ولا غارة! وبناء على قوائم الأجور أستطيع أن أثبت أنه لم تجر أية ورديّة ليلية في هذا اليوم، وبالذات ليس من قبل بوريس ـ وهذا يعني أنهما يجب أن يكونا قد انتهزا أية فرصة في وضح النهار. حسن، إذاً ـ فالأمر مضى وانتهى، أما الفردوس الروسي فهيهات! كان ينبغي أن ترى المقبرة بعد الغارة في الثاني من آذار: رؤوس ملائكة وقديسين مقطّعة، قبور مقلوبة، بتوابيت ومن غير توابيت، كما تحب وتتمنى، ونحن منهكون بكل ما في الكلمة من معنى عن العتل والنقل الدائمين لغنيمتنا من زقاق شنورر، العتل والنقل المزعجين المتعبين الخطيرين على الحياة ـ وفي المساء أيضاً الولادة! وهذه جرت بالمناسبة بسرعة وبسهولة. لا بحال من الأحوال الفردوس الروسي! هل تعلم من كان الوحيد الذي علمنا الصلاة ثانية: هذا الإنسان الروسي! أجل. علمنا الصلاة. شاب رائع، أقول لك، ولو أنه سمع كلامي لظلَّ على قيد الحياة. الحق أنه كان جنوناً، أن يسير عصر يوم السابع إلى المدينة مع النساء والأطفال، مصطحباً في الجيب بطاقة الجندي الألمانية هذه الكريهة الفظيعة، ولا شيء سواها. كان من الممكن أن يقعد هذا الشاب شهوراً في المدفن وأن يقرأ صاحبه كلايست وصاحبه هولدرين ومنْ كان على شاكلتهما، لا بل كان من الممكن أن أحصل له على بوشكين إلى أن يتمكن من إبراز وثيقة تسريح مزوّرة أو أصلية. وفي الصيف تمَّ إطلاق سراح مزارعين من

المعسكرات الأميركية، ولم يكن ينقصه إلاّ وثيقة تسريح نظامية انكليزية أو أمريكية. بهذا لم تفكّر النساء، كانت نشوة السلام قد أخذت فيهن وتملكت قلوبهن فرحة حياة خالصة، ولكن من أجل ذلك كان الأمر سابقاً لأوانه بعض الشيء. ولا بحال من الأحوال، أن تجلس أشهراً في المساء على الراين وبعد الظهر، مع الطفل وولديّ هويزر هذين الشيطانين الوقحين العاقين والجد غروتن المبتسم دائماً. كان من الممكن أن يظلّ الشاب جالساً إلى هذا اليوم على الراين أو على الفولغا لو أراد هو ذلك. كان هذا الشيء الذي حصلت عليه قبل أن أظهر رسمياً في حزيران: وثيقة تسريح باسمي وبرقم أسير حقيقي وخاتم معسكر الأسرى ـ إذ أنَّ حرفتنا تدخل في باب الزراعة ـ، كان هذا منطقياً وصحيحاً، والحق أنّه كان هناك ما يكفي للقيام به في وظيفتنا، أعني، لم يكن من حاجة لأن يموت المرء، كان هناك موت كافٍ ـ وكان لا بدَّ من دفن هولاء الموتى كلهم بطريقة أو بأخرى. فلا لوته فكرت بذلك ولا مارغريت التي كانت لها علاقاتها فكرت بالحصول على شهادة إطلاق سراح نظامية للشاب ـ وما كان هذا ليكلّف مارغريت سوى هزّة خصر، وما كان على لوته إلاّ أن تفكّر بذلك ولديها كل أختامها واستثماراتها وعلاقاتها. الحق كان استهتاراً شنيعاً عدم إثبات الشاب رسمياً بعد أيار أو حزيران، حتى لو أنه كان عليه أن يسمّي نفسه فريدريش كروب. وكان يمكن أن أكلّف نفسي شيئاً ما في ذلك ـ فأنا لم أكن أميل إلى هذا الشاب فحسب، بل كنت أحبّه أيضاً، وقد تضحك: فهو، هو الذي علّمني أنَّ هذا كله سخف من جراء أسافل الناس. أسافل الناس، هؤلاء كانوا يقبعون هنا».

هل كانت دموع بيلتسر حقيقية؟ ما كان قد أفرغ بعد كوكتيل الويسكي حين ظهرت في عينيه دموع مسحها بحركة حيية. «هل أنا مسؤول عن موت أبي ليني؟ أنا؟ ألهذا يجب أن يتحاشاني المرء كما يتحاشى الطاعون؟ أيَّ شيء فعلت في نهاية المطاف سوى أنني منحت أبا ليني فرصة حقيقية؟ وهذا ما رآه طفل وشخص غير خبير أنَّ هذا لم يكن قط مًلاّطاً جيداً، حتى المادة الجيدة لم يحسن استعمالها ولم ينجح فيها، وفريقه، فريق الطلي بالملاط، أخذه المرء لأنه لم يكن هناك فريق آخر غيره، إنما فيما بعد نزلت السقوف من جديد عند كل الناس الذين اشتغل لهم أو أنَّ الجدران تفتتت ـ ولم يكن هذا قد تعلم كيف يكون الطلي بالملاط، ولم تكن لديه الرمية الصحيحة والدفعة الصحيحة أو الحركة السريعة الصحيحة، وبما أنه لم يعد يرغب في أن يكون رجل أعمال وتعمد الظهور هناك بمظهر البروليتاري، فإنَّ هذا كان التخريف الخالص من السجن أو المعسكر أو أنَّ الشيوعيين الذين كان يلازمهم هناك لقّنوه ذلك. وأستطيع أن أقول لك إنَّ هذا كان خيبة أمل، فهذا الرجل العظيم بفضيحته الكبيرة في الظهر أثبت أنّه غير الكفء الغشيم سواءً الذي لم يستطيع أن يبني حائطاً بناءً صحيحاً وسليماً. كان هذا أيضاً نوعاً من التنفّخ أنَّ هذا راح يتنقل فجأة بعربة يد قديمة من بيت إلى بيت ومعه بضع أحواض من الزنك وملوق ورفش وكان يعرض خدماته ملاّطاً لقاء بطاطا وخبز وسيجارة أحياناً. وفي المساء كان يجلس على الراين ويغني أغنيات مع الابنة والحفيد والصهر ويراقب السفن ـ لم يكن هذا أي شيء لرجل له هذه الموهبة التنظيمية الهائلة وهذه الشجاعة. عرضت عليه عدة مرات عروضاً محترمة وقلت له: ‹أي غروتن، انظر،

لديّ هنا ثلاثمائة أو أربعمائة ألف مارك، لم أعد أستطيع، مهما حسنت نيتي، أن أستثمرها في أوراق مالية ثابتة أو مضمونة إلى حدّ ما، خذها وافتح بها متجراً، وحين يزول التضخم تعيدها إليّ، لا واحد مقابل واحد ولا اثنان مقابل واحد، بل ثلاثة مقابل واحد ومن غير فوائد. وعندك من الذكاء والفطنة ما يكفي لتعرف أنّ أعمالاً صبيانية مرتبطة بعملة السجائر هذه، هذا شيء لعدميين عائدين إلى الوطن لم يحصلوا في المعسكرات على أيّ شيء للتدخين، وإنَّ هذا لشيءُ للأطفال ولنساء ماهرات مدمنات على النيكوتين ولأرامل فقدن أزواجهن في الحرب. وأنت تعرف حق المعرفة مثلما أعرف أنا أنَّ السجائر ستكلّف ذات يوم مرة أخرى خمسة بفينيكات أو على الأكثر قرشاً، وإذا استثمرت اليوم خمسة وخمسين لسيجارة واحدة تبيعها على ناحية الشارع التالية بخمسة وستين، فإنَّ هذا عمل صبياني، وإذا أردت أن تحتفظ بالسجائر إلى أن تصبح العملة مرة أخرى صعبة فإني أتنبأ لك أنك ستحصل على خمسة بفينيكات لقاء بفينيكاتك الخمسة والخمسين، هذا إذا لم تتعفن السجائر حتى ذلك الحين›. ضحك وظنَّ أنني أردت أن أقترح عليه صفقة سجائر، ولم أستعمل هذا في أثناء ذلك إلاّ على سبيل المثال. ثم إنه خطر ببالي أنه سيفتح محل بناء، ولو أنه كان شاطراً بعض الشيء لاستطاع أن يتجول في الناحية بصفته ملاحقاً سياسياً. إلاّ أنه لم يرد ذلك. وأخيراً كان عليَّ أن أوظّف أموالي في نهاية الأمر، وآنذاك لم يكن في الإمكان عمل الكثير بالعقارات. فلو أنَّ ليني كانت قد باعت لي بيتها في حينه لقاء نصف مليون لكفلت لها بالعقد مسكناً خالص الإيجار مدى الحياة. وماذا أعطاها هويزر لقاء ذلك؟ القيمة الضريبية

المحددة على أربعة أمثال: لا أكثر من ستين ألف في نهاية الأمر، وهذا في كانون الأول سنة ١٩٤٤ ـ هذا لا يصدّق! أما أنا فقد جلست هنا ومعي نقودي ـ استثمرت ما استطعت، اشتريت أثاثاً وصوراً وسجاداً، حتى الكتب اشتريتها، إلاَّ أنه بقيت هذ البقيّة وقدرها ثلاثمائة أو أربعمائة ألف مارك والتي كانت معي **نقداً** في البيت. هنا خطرت ببالي فكرة، وهزأ الجميع من ذلك وقالوا: ‹إنَّ بيلتسر صار إنسانياً، لأول مرة يعقد صفقات سخيفة›. فماذا فعلت: اشتريت خردة، ليست أية خردة، بل حاملات فولاذ من أحسن النوعيات، وطبيعي على نحو مشروع واستحصلت إذا صحَّ التعبير على حقوق فكّ وأخذ ما يصلح حيثما تأتّى لي الحصول على ذلك ـ وكان معظم الناس سعداء بأن يرفع الحطام من على أراضيهم على هذا النحو. أما من حيث حاملات الفولاذ، فلم تكن المسألة إلاَّ مسألة التخزين، وكان لديَّ من الأراضي ما يكفي: إذاً إلى العمل! هل تعلم كم كان أجر الساعة لعاملة في مشتل، مثل ليني أو كريمر؟ لا أكثر من خمسين بفينيكاً. وإنَّ عاملاً بسيطاً في البناء، ربما بلغ أجره ماركاً واحداً، وإن كان محظوظاً فلربما وصل إلى مارك وعشرين بفينيكاً، أما الشيء الذي كان يجدي نفعاً فكان علاوات العمال الذين يؤدون عملاً شاقاً وبطاقات كان يمنح بها السمن والخبز والسكر وما إلى ذلك، وللحصول على هذه كان لا بدَّ من تأسيس شركة، وهذا ما قمت به، وسميت شركتي (الشركة المساهمة لفك القطع)، وضحك مني نصف المدينة حين بدأت أجمع حاملات الفولاذ التي كانت موجودة على مسافة كيلومترات، وأوربا كلّها كانت مليئة بالفولاذ، وما كنت لتحصل لقاء دبابة مدمرة إلاَّ على علبتي سجائر ـ وتركت الناس يضحكون. شغّلت

أربعَ فرق مجهزة بأدوات، واستحصلت على رخصة الفك وأخذ ما يصلح وجمعت حاملات الفولاذ على نحو منظم. ولأنني قلت في نفسي: ليس لكم إلاَّ الضحك، فالفولاذ هو الفولاذ ويبقى فولاذاً. كان هذا في زمن كان تهدى لك فيه سفن حربية قديمة ومصفحات وطائرات بشرط أن تسحبها، وأنا فعلت ذلك: سحبت الدبابات والمصفحات؛ وكان عندي من الأراضي ما يكفي، آنذاك لم تكن بعد مقاسم بناء ولم تكن عليها بعد أية مبانٍ. وعلى هذا النحو استطعت أن أستثمر بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٤٨ رأسمالي كلّه: حاملات فولاذية من أحسن الأصناف بكميات كبيرة، مكومة تكويماً جيداً ومخزّنة، ومن البداية لم أتقيّد بلائحة أو تعرفة الأجور ولم أترك الناس يعملون طوال اليوم لقاء ثمانية أو عشرة ماركات. دفعت أجراً جيداً، ثلاثة ماركات لكل متر حرّ، وبعضهم بلغ أجره اليومي، بحسب موقع قطعة الأرض، مائة وخمسين ماركاً على أقل تقدير، بل وأكثر في بعض الأحيان، وفضلاً عن ذلك حصلوا كلهم على بطاقة العمال الذين يؤدّون أشقَّ الأعمال. كان هذا امتيازاً إضافياً. وتقدمنا بانتظام من الضواحي إلى وسط المدينة حيث كانت المتاجر الكبيرة والمكاتب الكبيرة. هنا تعسّرت الأحوال بعض الشيء، لأنه كان لا يزال هناك كثير من الإسمنت على الحاملات الفولاذية وأحياناً لفة كاملة من قضبان حديد مدوّرة متشابكة كان لا بدَّ من لحمها. وفي مثل هذه الأحوال دفعت بطبيعة الحال خمسة أو ستة ماركات وحتى عشرة ماركات على المتر الجر، وعلى المرء أن يساوم على ذلك كما يساوم المرء في منجم تبعاً لموقع المنجم. حسن. أبو ليني قاد لي إحدى هذه الفرق، وطبيعي أنه نفسه عاون في ذلك، ومثلما كانت تسلّم لي الكميات في

المساء، كان الدفع يتمُّ **نقداً**: أوراق نقدية في اليد، وكان من هؤلاء، مَنْ توجّه مساءً إلى البيت مصطحباً ثلاثمائة مارك، وأحياناً ثمانين فقط، لكن ليس بأقلَّ من ذلك. كان هذا في زمن قلَّ أن كسب فيه عمالي في المشتل ستين ماركاً في الأسبوع. وما زال نصف المدينة يضحك من جمعي لحاملات الفولاذ التي علاها الصدأ على أرض عقاراتي في شارع شونْشتيتر، وذلك في زمن تمَّ فيه فكُّ الأفران العالية! إذاً: بقيت على عنادي، بدافع المكابرة. لم يكن هذا بعمل آمن دائماً، وإني لأعترف بذلك، لكنني لم أجبر في النهاية أيَّ إنسان على ذلك، أيَّ شخص: كان عرضاً واضحاً، وصفقة واضحة، ولم أهتمَّ بما وجده هؤلاء هناك في الأنقاض من أشياء وما شابه ذلك: من أثاث وأمتعة وكتب وأدوات منزلية وغير ذلك. كان هذا عملاً ثانوياً لهم. وضحك الناس ضحكاً شديداً وكلّما مروا بعقاراتي قالوا: ‹هنا يتلف بيلتسر أمواله›. بل وكان هناك نكّاتو نكات وسط أصدقائي في نادي الكرنفال (ايمرجروني في شتروسجر) ـ مهندسو بناء ومن كان على شاكلتهم ـ، فهؤلاء عدّوا لي تماماً كم من الأموال الطائلة كلّف هذا الصدأ: وكان لدى هؤلاء صيغهم عن بناء الجسور وما شابه ذلك، ببيانات مساحة دقيقة، وأقول بصدق أنا نفسي لم أعد على ثقة من أنّه كان توظيفاً سليماً للمال. أمّا الشيء المضحك فكان في سنة ١٩٥٣، وذلك عندما بقيت هذه الأشياء في مكانها من خمس إلى ثماني سنوات وحين كان عليَّ وأردت أن أتخلص منها، لأنني أردت أن أبني مباني على هذه العقارات نظراً لأزمة المساكن وعندما قبضت بعد ذلك مليوناً ونصف المليون مارك لقاء ذلك، عندها عدّني الجميع وغداً ومضارباً واستغلاليَّ حرب والله يعلم ماذا أيضاً.

وإذا بالمصفحات العتيقة أيضاً يصبح لها قيمة والشاحنات وما شابه ذلك ـ وعلى نحو قانوني مطلق بالتأكيد كنت قد أوعزت بسحبها، لأن قطعتي الأرض الكبيرتين كلتيهما كانتا خاليتين وكان المال لديَّ مكوّماً. ثم حدث الشيء المرعب أيضاً، الشيء الرهيب الذي لم تسامحني النساء عليه قط. مات أبو ليني إثر حادث في أثناء فكّ الأنقاض الخاصة بمديرية الصحة السابقة. لم أشكَّ قط في أنَّ هذا العمل يمكن أن يكون محفوفاً بالأخطار أو يمكن أن يكون خطراً على الحياة، ومنحت بدل طوارىء أو رفعت سعر المتر المكعب بحيث إنه ساوى عملياً بدل طوارىء، وحذرّت غروتن الشيخ عندما بدأ يعبث بجهاز اللحام وأنّى لي، أسألك أنّى لي أن أعرف أنه كان ذا إحساس ضعيف بعلم السكونيات (الاستكاتيكا)، بحيث إنه أزال اللحام من على الأرض تحت قدميه إذا صحّ التعبير فسقط في الأنقاض على عمق ثمانية أمتار؟ يا إلهي، لقد كان خبيراً وكان له لقب مهندس وصنّع في شركته حاملات فولاذية عشرة أضعاف مما تركتهم يفكون ويأخذون ما يصلح في خمس سنوات ـ أنّى لي أن أعرف أنه سيلحم نفسه في الهاوية إذا صحّ التعبير؟ هل كان في مقدوري أن أعرف هذا، هل هذا ذنبي؟ ألم يعرف كل واحد أنها لمخاطرة فك اللحام عن حاملات فولاذية من صناديق خرسانية دمرتها القنابل في مدينة لم يبق منها إلاَّ الأنقاض، ألم أدفع أنا ثمناً مجزياً لهذه المجازفة؟ وبصراحة فإنّ غروتن هذا الإنسان الخبير الذي يكاد أن يكون أسطورياً لم يثبت لا في جمع الحاملات الفولاذية، ولا في تقطيعها أو فك اللحام عنها أنه بارع جداً ولم يثبت أنه مطّلع نظرياً على الجوانب التقنية ـ أضفت له بعض الشيء من أجل ليني التي

حزَّ في نفسي مصيرها مع صاحبها بوريس».

انهمرت دموع بيلتسر الآن بغزارة بحيث إنه سيكون إثماً وجريرة أن يشك المرء في صحتها الفيزيائية، على حين يجاوز إعطاء الرأي في صحتها الوجدانية اختصاص المؤلف. وبصوت خافت أيضاً، وهو يمسك بكأس الويسكي، ناظراً حواليه كما لو أنَّ حجرة هواياته والبار الخاص به ومجموعة الأكاليل في الغرفة المجاورة كانت غريبة عنه: «كان رهيباً أن ينشكّ كما ينبغي بحزمة من أسياخ الحديد الملفوف برزت من قطعة خرسانية وأن يخرق، لا أنْ يمزّق إرباً، بل أن يخرق خرقاً وأن يطعن أربع طعنات في العنق والبطن ويوخز في الصدر ومرة أخرى في العضد الأيمن و- كان رهيباً، كريهاً كان هذا - وهو يبتسم. وما زال يبتسم - مجنون، مثل مجنون مصلوب بدا هو. جنون. ويحملونني مسؤولية ذلك! و« (تردّدٌ في صوت بيلتسر، عذاب في عينيه، يدان ترتجفان. المؤلف) » وجهاز اللحام كان معلقاً يئز ويدمدم ويغلي على البقية الباقية من الحامل البارز الذي كان غروتن قد فكَّ لحامه. كان في الحقيقة جنوناً، الشيء كلّه، قبيل الإصلاح النقدي بشهر حيث إني كنت على وشك أن أوقف عملية جمع الحوامل الفولاذية - والحق أن رأسمالي بالمارك الألماني كان قد استهلك تماما. بطبيعة الحال صفيّت بعد هذه الحادثة المشروع كله على الفور، وعندما تقول النسوة إنني فعلت هذا لأنني أردت أن أنهي العمل بذلك، فإن هذا غير صحيح على نحو شيطاني: أقول لك، إني كنت سأنهي ذلك لو كان هذا منتصف سنة ١٩٤٦. ولكن برهن في مرة واحدة على -«لو، لكنت»، برهن لي ذلك. وكما كان الأمر، من حيث الواقع، قبل الإصلاح النقدي بشهر واحد، فقد كان ما كان، وجلست هنا،

كراهية النساء في القفا والازدراء في الوجه بسبب جبل الخردة العائد إليّ والذي يصدأ على نحو مستمر وكان لا يزال في مكانه طوال خمس سنوات. ولأنّ غروتن الشيخ لم يكن مؤمّناً عليه فقد كنت وظّفته معاوناً حرّاً، لا عاملاً أو مستخدماً ، بل بصفة شركة تعاقدية إذا صحّ التعبير، عرضت أن أدفع طوعاً واختياراً لليني أو لوته معاشاً بسيطاً: لا شيء، لا شيء ـ لوته بصقت ورائي عندما حضرت ذات مرة إلى هناك. ‹مصاص دماء› صرخت و‹أحد زبانية الصلب› وأشياء أسوأ من ذلك. في أثناء ذلك أنقذت حياتها، في هذا الفردوس الروسي في المدافن، سددت فمها بيدي عندما بدأت فجأة في أثناء النهب في زقاق شنورر تهتف مثل المجنون بعالي صوتها بشعارات اشتراكية. أجهدت نفسي مع ولديها الشقيين واشتريت من هذين الكلبين الصغيرين الماهرين الحاذقين أعقاب سجائري، سجائر ملفوفة لفّاً حديثاً، عندما وقعنا في نهاية شباط هنا في المأزق، في مدافننا ـ هنا لزمنا المكان معاً في الثاني من آذار نحو سبع ساعات وتشبثنا ببعضنا بعضاً والأسنان تطقطق، أقول لك، حتى لوته الملحدة تمتمت هنا بالصلاة الربانية التي رتّلها بوريس لنا، حتى صغيريّ هويزر الوغدان كانا هادئين، خائفين ورعين، مارغريت بكت، ونحن قبعنا هناك وطوقنا بعضنا بالأذرعة مثل إخوة وأخوات خوفاً من الموت، بدا لنا وكأن الساعة قامت. لم يعد يهمُّ ما إذا كان أحدنا نازياً أو شيوعياً، أو كان الآخر جندياً روسياً ومارغريت ممرضة مبالغة في رأفتها وحنانها، لم يكن هناك إلاّ شيءٌ واحد: حياة أو موت. ومع أن المرء لم يعد يرتاد الكنائس على نحوٍ سليم، إلاّ أنه تعلّق بذلك، إذ أنها (الكنائس) كانت جزءاً لا يتجزأ من الصورة والحياة ـ وكانت قد

تحولّت في يوم وحيد إلى تراب، وظل للتراب صريره تحت أسناننا أياماً طوالاً، واستقر في سقف الحلق، ثم انطلقنا بعد الغارة، انطلقنا إلى النور لكي نرث معاً، أقول معاً، القوات المسلحة الألمانية ـ في اليوم نفسه وعندما أخذ الظلام يحلُّ سارعنا إلى أن نساعد في ولادة ابن ليني وبوريس».

الدموع لم تكفكف بعد، والصوت يرق أكثر وأكثر: «الإنسان الوحيد الذي فهمني وأحبني وكنت سأضمّه إلى صدري مثل ابن وألحقه بأسرتي ومحلّي وكل شيء تريده أنت، والذي كان أقرب إليَّ من زوجتي وأطفالي حتى اليوم ـ هل تعرف من هو هذا؟ إنه بوريس لفوفيتش ـ أحببته رغم أنه أخذ مني الفتاة، وما زال قلبي متعلقاً به إلى اليوم ـ ربّما عرفني هذا حق المعرفة وفهمني، أصرّ بأن أعمّد الطفل الصغير. أنا. بهاتين اليدين، أجل ـ أقول لك، سرى الخوف في أوصالي كما في أهوال الموت لأنني تذكّرت لحظة واحدة ما أحدثته هاتان اليدان في نهاية الأمر بأحياء وأموات، بنساء وفتيات، بصكوك وخزائن، بأكاليل وربطات وما شابه ذلك ـ وأنا، أنا بهاتين اليدين كان لا مناص لي من أن أعمّد ولده الصغير. حتى لوته أمسكت لسانها عندئذ والتي كانت على وشك أن تبدأ بسخافتها مرة أخرى ـ لقد عقدت الدهشة لسانها، عندما قال لي بوريس: ‹أنت يا فالتر› ـ كنا نخاطب بعضنا بعضاً بصيغة أنت بعد الثاني من آذار ـ، ‹أنت يا فالتر›، قال هو، ‹أرجوك الآن أن تعمّد ابننا التعميد الاضطراري›. وفعلت هذا ـ توجهت إلى مكتبي، فتحت صنبور الماء، انتظرت إلى أن سال الوسخ الصديء ونزل الماء على نحو أصفى بعض الشيء، غسلت كأسي وملأته بالماء وعمّدته كما كنت قد رأيت هذا

مرات ومرات بصفة مساعد قِسّ في القداس ـ ولأنني لم أستطع أن أكون أيضاً عرّاباً، مثلما كنت أعرف، فقد أمسك فيرنر الصغير ولوته الصبي وعمدته بالعبارات: ‹أعمّدك باسم الاب والابن والروح القدس على اسم ليف› ـ هنا بكى كورت، هذا الوغد الصغير، وحتى لوته السليطة اللسان وبوريس ومارغريت أيضاً كانوا حزانى باكين ـ ليني وحدها لم تبك، استلقت هذه بعينين مفتوحتين التهبتا من الغبار وقد تهلّلت أساريرها وأرضعت هذا الطفل ثديها على الفور. أجل، هكذا كان كل شيء، والآن دعني أنفرد بنفسي من فضلك، فقد هيّج هذا الكثير في أعماقي».

* * *

يعترف المؤلف بصراحة أنّ هذا كلّه أثّر فيه إلى حدٍّ ما تأثيراً شديداً وكان عليه أن يحبس بمشقة دمعتين أو ثلاث دمعات جالت في عينيه عندما جلس إلى مقود سيارته. ولكي لا تستأثر به الطبيعة المثيرة كثيراً للدموع سار مباشرة إلى بوجاكوف الذي التقاه في ظروف سارة: كان يجلس في كرسي المرضى المتحرك على شرفة مسقوفة بالزجاج وقد تلفّع بأغطية، كان ينظر متأمّلاً من فوق حيّ أكشاك ممتد إلى تقاطع سكتين حديديتين كان قد انحصر بينهما حفرة حصى ومشتل ومجمّع خردة. في مكان ما بينهما شيء مفاجيء إلى هذا الحد أشبه بملعب تينس، نُقَرُ ماء أخرى على لون الأرض الأحمر الباهت، طائرات نفاثة خارقة لجدار الصوت في الجو، ضجيج سيارات صغيرة من طريق فرعية لتحويل السير إلى وسط المدينة، أطفال كانوا يلعبون الهوكي على الدروب بين حدائق

ضيّقة ومعهم علب حليب فارغة. أما بوجاكوف الذي كان أيضاً ذا مزاج مثير للدموع، من غير مشنقة التدخين، وحيداً على الشرفة، فقد رفض السيجارة المقدّمة وأمسك بمعصم المؤلف لكأنه أراد هو ـ بوجاكوف ـ أنْ يجسّ له ـ للمؤلف ـ نبضه.

***

«الحق أنني تركت هناك زوجة وابناً يقارب عمره عمرك، هذا إذا اجتاز عشرين ألف إمكانية للحياة. فابني لافريك كان عمره سنة ٤٤ تسعة عشر عاماً، ومن المؤكد أنهم استدعوه ـ من يعلم إلى أين ـ، وفي بعض الأحيان أفكرّ بالسفر إلى هناك والموت هناك، سيّان أين ـ ولاريسّا زوجتي، ترى أما زالت على قيد الحياة؟ الحقيقة أنني خدعتها حين أتيحت لي الفرصة لذلك، كان هذا في شباط سنة ١٩٤٥، حين أرسلونا إلى جبهة إيرفت لكي نحفر خنادق وخنادق منفردة ومواقع للمدافع. هناك وللمرة الأولى وبعد أربع سنوات امتدت يدي إلى امرأة وضاجعتها ـ في الظلمة وفي مخزن للتبن والحشيش تمددنا طولاً وعرضاً، روس وألمان، جنود وأسرى ونساء ـ ليس في وسعي أن أقول لك كم كان عمرها ـ، لكنها لم تمانع، إنّما بكت فيما بعد قليلاً، إذ أننا لم نكن كلانا قد تعوّدنا الخيانة الزوجية إن صحَّ التعبير هكذا، في هذه الظلمة، في هذا الجنون حيث لم يعد يعرف أحد أين كان مكانه ـ هنا تمددنا بين التبن واللفت، قرية كبار فلاحين (كولاك) خصبة غنية ـ جروسبوليسهايم، يا إلهي، كلانا بكى، أنا أيضاً ـ كان هذا بالانكماش أشبه، إنكماشاً في الخوف والظلام والقذارة، نحن والوحل على أقدامنا، وربما ظنّتني ألمانياً

أو أمريكياً. إذ أنه كان هنا وهناك بعض الأميركان الشبان الجرحى الذين كانوا شبه أموات من البرد، وكان ينبغي نقلهم إلى المستشفى العسكري من قبل شخص ما. أو إلى أحد أماكن التجمّع، إلاّ أنّ هذا الشخص كان قد فرّ من الجندية فيما بعد، كما تسمّونه أنتم الألمان، وترك الشباب هنا مسطوحين، ولم يعد لديهم شيئاً يقولونه إلاّ ‹الحرب اللعينة› و‹الجنرالات أولاد الحرام› و‹خراء على غابة هورتغن اللعينة› ـ لم يكن هذا تآخياً على نهر الإلبه بل على نهر إيرفت، على نهير حقير كهذا كان في إمكان المرء أن يبصق فوقه من ضفة إلى ضفة، هنا كان ينبغي أن تتشكل جبهة إيرفت بين الراين والحد الغربي ـ هنا كان في إمكان صبي في العاشرة من عمره أن يبول من فوق ذلك من جهة إلى جهة. وبين الحين والآخر أتذكر المرأة التي انفتحت لي ـ ربّتُ على خدها ومسحت شعرها ملاطفاً إياها، وكان هذا كثيفاً وأملس. لست أدري هل كان شعرها أشقر أو خرنوبياً وهل كان عمرها ثلاثين أو خمسين ولا أعرف ماذا كان اسمها. ـ وصلنا في الظلام إلى هناك ورحلنا مرة أخرى في الظلام إلى هناك ورحلنا مرة أخرى في الظلام ـ لم أرَ إلاّ المزارع الكبيرة والنيران المشتعلة التي كان يطبخ عليها ويشوى، جنوداً، هؤلاء الأمريكان المتجمّدين برداً ونحن نتوسطهم، وبوريس أيضاً الذي لحقت به ليني مثل الفتاة ذات السبعة أزواج نعال حديدية والسبعة العصي الكثيرة العقد. وآمل أن تعرف الحكاية الجميلة. ظلام، وحل على الأقدام، لفت، خدّ امرأة، شعرها، دموعها ـ وحجرها. ماريا أم باولا أم كاترينا، وأرجو ألاّ تكون فكرت بأن تحكي هي هذا لزوجها أو أن تهمس به لأي قس اعتراف. تعال يا ولدي. واترك لي يدك ـ إنه لجميل جداً أن يجسّ المرء نبض

إنسان ما. آكل الخيار والروسي اللينيغرادي الرقيق الشعور والسوداوي يذهبان معاً إلى السينما. يشاهدان فيلماً روسياً عن المعركة عند كورسك، ليكنْ. وأنا وقعت في الأسر الألماني في بداية آب ١٩٤١، يا ولدي، في معركة ما من المعركة القذرة بالقرب من كيروفوغراد ـ آنذاك كان اسم المدينة هكذا على أية حال، مَنْ ذا الذي يعرف ما اسمها اليوم، حيث إنَّ المرء يعرف بلا شك ما فعلوه بكيروف ـ كان هذا رجلي، رجلنا، كيروف هذا ـ حسن، قد راح. الأسر عندكم، يا ولدي، لم يكن سهلاً، وإذا قلت أنت أنَّ الأسر عندنا لم يكن أيضاً سهلاً، فإني أقول لك إنَّ أسرانا كانوا في حال سيئة مثل الأسرى الألمان ـ ثلاثة أيام، أربعة أيام سرنا على الأقدام عبر القرى والحقول وكنا على وشك الجنون من العطش ـ فكلّما رأينا عين ماء أو جدولاً صغيراً لحسنا الشفاه من العطش ولم نعد نفكر بالطعام ـ خمسة آلاف رجل في مزرعة مواشي تابعة لأحد الكولخوزات في العراء والعطش لم يبارحنا. وكان إذا أراد مدنيون مسالمون، من أبناء جلدتنا، أن يجلبوا لنا شيئاً لنشربه أو لنأكله لم يكن يسمح لهم بالاقتراب ـ كانت طلقات الرصاص تدوي في أوساطهم؛ ـ وإذا ما اقترب أحدنا من المدنيين، فالمدفع الرشاش، يا ولدي، ويصير في خبر كان. أرسلت إلينا إمرأة فتاة صغيرة في نحو الخامسة من عمرها حاملة خبزاً وحليباً، واحدة اسمها ناتاشا صغيرة حلوة بكل ما في الكلمة من معنى ـ لقد ظنّت أنّهم لن يتعرّضوا بأي سوء لفتاة صغيرة حلوة مثل هذه تحمل حليباً في إبريق وخبزاً في اليد ـ لكن لا ـ المدفع الرشاش ـ، وماتت ناتاشا الصغيرة مثل كل إنسان آخر، وعلى الأرض كان الحليب والدم والخبز. وعلى تلك الحال انتقلنا من تارنوفكا إلى أومان، ومن

أومان إلى إيفان غورا، ومن أيفان غورا إلى غايزين ومن هناك جئنا إلى فينيتسا، ومن ثم إلى شميرينكا في اليوم السادس وتابعنا إلى راكوفو، وهذه كانت قريبة من بروكورف؛ مرتين في اليوم حساء بازلاء خفيف ـ فكانت توضع قدور الطبخ للجموع في الداخل، وكانت هذه تتراوح بين العشرين والثلاثين ألف؛ ثم إلى القدور ـ باليد المجردة كنا نغرف الحساء من القدر ونرشفه مثل الكلاب، هذا إذا حصلنا على شيء ـ وكان هناك أحياناً لفت مسلوق نصف سلق وكرنب وبطاطا، وحين كان المرء يأكل من هذا كله كان يصاب بآلام في المعدة، زحار ـ وكانوا ينفقون على حافة الطريق. لازمنا مكاننا هناك، حتى آذار ١٩٤٢ تقريباً؛ وكان هناك أحياناً ثمانمائة أو تسعمائة ميت يومياً ـ، وكان يتخلّل ذلك ضرب وامتهان ثم ضرب بين الحين والآخر وإطلاق نار بين ظهراني الجموع ـ وحتى في حال عدم وجود أي شيء عندهم لنأكله، فلماذا لم يتركوا السكان الودعاء يقتربون الذين أرادوا أن يجلبوا لنا شيئاً ما؟ ثم كنت عند كروب في مدينة كوينكزبيرغ في مصنع للجنازير ـ في الليل إحدى عشرة ساعة وفي النهار اثنتي عشرة ساعة ـ، كنا ننام في مراحيض، وإذا ما حالف أحدنا الحظ عثر على كشك كلب، ولئن كان المكان هنا ضيّقاً إلاّ أنه كان على الأقل وحيداً. ،وكان الأسوأ من هذا كلّه أن تمرض أو تعدَّ مكسالاً إذ أنْ المكاسيل كانوا يسلّمون إلى فرق الدفاع (الحرس الأسود) ـ، وكنت إذا مرضت ولم تستطع أن تعمل بعد ذلك، فلم يكن هناك إلاّ المشافي العسكرية الكبيرة التي كانت عملياً مراكز إبادة تحت قناع المستشفيات، معسكرات موت، أنزل فيها ناس كثيرون أكثر مما تستوعب بأربعة أمثال، شديدة القذارة، وكانت الجراية تتألف من ٢٥٠

غ خبز صنعي وليترين حساء بالاندة: والخبز الصنعي كان يتألف بمعظمه من الدقيق الصنعي، والدقيق الصنعي لم يكن إلاً قشّاً تمّ تفتيته تفتيتاً خشناً، كان تبناً، وكان لا يزال فيه ألياف خشبية ـ الهشيم وقشور الحبوب القاسية الجافة، والقش، كان هذا يهيّج الأمعاء ولم يكن بغذاء، إنما سوء تغذية منتظم ـ، وإلى ذلك بصورة مستمرة،: ضرب وامتهان ودائماً بالهراوة. وفيما بعد ظهر أن القش كان خسارة، كان هناك نشارة في الخبز، إلى حد الثلثين، أما حساء البالاندة فكان يتكوّن من بطاطا متعفنّة خالطها شتى نفايات المطبخ، وداخلها بعر الفئران ليكون تابلاً ـ وبين الحين والآخر كان يموت كل يوم مائة رجل. وكان الخروج شبه مستحيل، كان ينبغي أن تكون مقرّباً من القدر، وكنت أحد المقربين منه، فلم أعد آكل هذا الشيء، جعت، إلاً أنني لم أمرض على الأقل ولاحظت على الفور أنه كان أكلاً مسمّماً ـ كان خيراً أن أجمّع وأركب من جديد جنازير مدة اثنتي عشرة ساعة عند السيد كروب. في إمكانك الآن أن تتصوّر أي امتياز كان أن تأتي إلى مدينة لتجمع الجثث وتعزّل وترفع الأنقاض، وأنه خيِّل إلينا بوريس الأمير في الحكاية الذي يعتلي عرش الملك في النهاية. وقد سمح لهذا أن يضفّر في مشتل أكاليل ولم يكن قد تعلّم صنعة البستاني، فقد تمَّ جلب هذا في الصباح مع حارس خاص وتم إحضاره مساء، لم يُضْرَب هذا، بل إنه أهدي شيئاً ـ والشيء الذي لم يعرفه أحد غيري ـ كان هذا محبوباً وأحب. كان ابن الملك! ونحن، لم نكن أبناء ملوك، إلاً أننا كنّا مميزين من قبل القدر. صحيح أننا لم نكن نستحقُّ أن نلمس جثثاً ألمانية ونذهب بها، لا، إنّما كان مسموحاً لنا بأن نرفع الأنقاض من الطرقات في العربات الشاحنة ونصلح قضبان السكك

الحديدية، وفي أثناء جرف الأنقاض كان يحدث أحياناً الشيء الذي لا يمكن تجنّبه: أنَّ يَد روسيٍّ، أنَّ رفشاً يتولى أمره روسي كان يصطدم بجثّة، وكان هذا يمنح استراحة محتّمة، حظاً غير مستحق ـ إلى أن تكون الجثث قد أبعدت والتي صنع لها بوريس أكاليل في مكان ما ورتّب زهوراً وانتقى لها شرائط. وفي بعض الأحيان كان هناك بين الأنقاض ثلاجات مطبخ وأصونة سفرة محطمة، وفي بعض الأحيان كان لا يزال فيها شيء ما كان في إمكاننا أن نستفيد منه، وكان هناك بطبيعة الحال مصادفات سعيدة لم ينظر الحارس بالذات في أثنائها **حين** كان أحدنا يجد شيئاً ما للأكل، وأيام كان الحظ فيها ثلاثي الطوابق: شيء تمَّ العثور عليه، وما من حارس نظر إلى ذلك ولم يتمَّ التفتيش. وكان إذا تمَّ ضبطُ أحدنا فإنَّ حاله لم تكن تبشّر بخير: حتى الألمان لم يكن مسموحاً لهم بأن يدسّوا شيئاً في الجيب، وكان إذا دسّ روسي شيئاً ما في جيبه كانت حاله مثل حال جافريل أو سيبوفيتش وأليكسي إيفانوفيتش اللذين تمَّ تحويلهما إلى فرق الدفاع (الحرس الأسود) للمعاقبة، وقتلا بعد ذلك. وكان أحسن شيء حين كان المرء يجد شيئاً ما أن يلتهمه على الفور، في هذه الحال كان على المرء أن يكون محاذراً في المضغ، إذ أنه لم يكن ممنوعاً أن يأكل المرء في أثناء العمل، ذلك لأنه كان في غنى عن منع ذلك. ولكن أنّى لواحد مثلنا أن يحصل على شيء ما للأكل؟ لا بدَّ أن يكون هذا قد سرق. كنا محظوظين برائد المعسكر الذي كان يحبسنا إذا ما تمَّ التبليغ عنا ذات مرة، وما كان ليقوم بتحويل أحدنا إلى الحرس الأسود إلاَّ إذا أصرّ الرقيب على ذلك، وعلى أية حال كان يصرّ على أن نحصل على جراياتنا بصورة صحيحة على

الأقل. أنا نفسي استرقت السمع حين تمَّ تفتيشي كيف تحدّثَ بالتلفون مع إحدى الجهات المختصة وتجادل مع أحدهم عما إذا كان يجب أن يوصف عملنا بأنه يستحق الذكر؛ إذ أننا في أثناء عمل **يستحق الذكر** كنا نحصل على نحو ٣٢٠ غراماً خبزاً، ٢٢ غراماً لحماً، ١٨,٥ غراماً سمناً و ٣٥ غراماً سكّراً في اليوم، وفي أثناء عمل لا يستحق الذكر لم يكن هناك إلاّ ١٢٥ غراماً خبزاً و ١٥ غراماً سمناً ولحماً ونحو ٢١ غراماً سكراً ـ وتجادل هذا أيّما جدال مع شخص ما في برلين أو دسلدورف لينتزع الموافقة على جعل عملنا يستحق الذكر؛ على كل حال، يا عزيزي، على كل حال ـ فإنَّ هذا كان يعني ١٠٠ غ خبزاً و ٣,٥ غ سمناً و ٤٧ غ لحماً و ١١ غ سكراً كثر أو قلَّ ـ، كان هذا الرائد إنساناً حازماً قوي الإرادة، كان ذا ذراع وذا ساق وذا عين أقل في الحقيقة مما يعود إلى إنسان كامل.

صيّح هذا وزمجر غاضباً بينما كنت أخضع للتفتيش، وفيما بعد أنقذ حياتنا كما ينبغي، نحن الاثني عشر الباقين في المعسكر إذ أن ثلاثين شخصاً فرّوا في أثناء الغارات الشديدة وكانوا قد انجحروا في الأقفاص أو اتخذوا طريقهم إلى الغرب صوب الأمريكان يتقدمهم صاحبنا الذي لا يكلّ فيكتور غينريشوفيتش وانقطعت أخبارهم عنا. أما نحن وبيننا بوريس الذي كان ينتظر سيره إلى المشتل بمرح واطمئنان، فقد أفقنا ذات صباح ورأينا أن حرسنا كانوا قد فرّوا بالإجماع؛ فما من حرس بعد الآن، غرفة الحراسة مفتوحة، السياج مفتوح، السلك الشائك فقط كان لا يزال هناك ـ والمنظر الذي كان عندنا كان مثل المنظر هنا، من على الشرفة: قضبان سكة حديدية، تعاريش، حفرة حصى، مخازن خردة ـ

هناك جلسنا إذاً ومعنا حريتنا أقول لك، كان هذا إحساساً فظيعاً. إلى أين بالحرية وإلى أين في الحرّية. لم يكن تأميناً على حياة أن تضرب في الأرض ببساطة أسير حرب روسياً مطلقَ السراح ـ والشيء الذي كان الحرس قد فعلوه هنا، لم تكن نهاية حرب رسمية، بل شخصية غير رسمية، وأغلب الظن أنّهم ألقوا القبض على البعض منهم وشنقوهم أو أعدموهم رمياً بالرصاص. تشاورنا وتوصلنا إلى النتيجة أن نعلم المعسكر الأساسي بالواقع؛ ولو لم يكن هذا الرائد قد فرَّ أيضاً لساعدنا في أن نتخلّص مرة ثانية من هذه الحرية الخطيرة جداً على الحياة والتي لم تكن مناسبة ولم تكن في تلك اللحظة في مكانها ـ وكان من السخف أن ينطلق المرء ليسلّم نفسه لأقرب دورية أو لكلاب الحراسة؛ الحقّ أنّه كان هناك طريقة بسيطة جداً للتخلص من ناس، طريقة تكون مصدر إزعاج نوعاً ما لأن تحرس وتحبس وتحكم: وهي أن يطلق المرء النار عليهم، وهذا لم يهمنا كثيراً، كما ستفهم. كنا نسمع أحياناً المدفعية، لكأنما كان هناك حرية حقيقية بعض الشيء ـ أما أن يتم الافراج هكذا ببساطة، فقد كان هذا خطراً علينا. كانت حركة فيكتور غينريشوفيتش مهيئةً تهيئة دقيقة وتامة بخرائط ومواد غذائية وبعض العنوانين التي كان قد حصل عليها بواسطة أقماره الصناعية أو صناديق الرسائل؛ فهؤلاء انطلقوا جماعات جماعات، الملتقى هاينزبيرغ هناك على الحدود الهولندية وأرادوا المتابعة إلى أرنهايم. أما نحن فقد كنا في ارتباك وارتياح بسبب هذه الحرية التي منحت لنا بين عشيّة وضحاها. خمسة كانت لديهم الشجاعة لأن يستفيدوا من هذه الحرية، فقد بحث هؤلاء عن ثياب رثّة وغيّروا ملبسهم قليلاً ثم انطلقوا مجتازين قضبان السكك الحديدية متسترين بلباس فرقة

عمالية معها رفوش ومعازق، ولم يكن هذا بفكرة سيئة . أما نحن السبعة الباقون فكنّا خائفين، وطبيعي أنَّ بوريس لم يشأ أن يبتعد عن ليني، وطبيعي أنه لم يستطع أن يمضي وحده إلى هناك من غير مربيّة الأطفال كولب، وتوجه على فوره إلى الهاتف ونجح في أن يتّصل بالمشتل، ويعطي إنذاراً، وبعد ذلك بنصف ساعة كانت الفتاة على دراجتها هناك تحت عند تقاطع شارعي نيجيرات وفيلديرزدورف وكانت تنتظر. ثم اتّصل بوريس بالمعسكر الأساسي هاتفياً وبلّغ أننا من غير حراسة ولم تمضِ نصف ساعة حتى وصل ذلك الرائد ذو العين الواحدة والذراع الواحد والساق الواحدة مصطحباً بضعة جنود في سيارة واجتاز أول التخشيبة صامتاً، وكان لهذا الرائد عضو اصطناعي بديل رائع يناسبه جيداً، حتى إنه استطاع أن يسوق به دراجة ـ ثم دخل غرفة الحراسة، غادرها ثانية واستدعى بوريس وشكره، بالمصافحة كما ينبغي والنظر في عين الرجل وشيء من هذا القبيل. ألماني بكل معنى الكلمة وليس بمضحك إلى هذا الحدّ، كما قد يتناهى إلى الأسماع. اللعنة، كان ذلك قبل أن يدخل الأمريكان المدينة بأربعة عشر يوماً، وماذا فعل الرائد، لقد أرسلنا باتجاههم! صوب إرفت، حيث كانوا. قال لبوريس: ‹يا كولتوفسكي، يؤسفني أن أعتبر قيادتك للمشتل منتهية بذلك›. لكنني رأيت الفتاة على الدراجة وهي تتكلم مع سائق السيارة، ومن هذا علمت هي حتماً إلى أين كانت وجهتنا، كان في إمكان المرء أن يرى بوضوح كافٍ أنَّ هذه كانت حاملاً مثل زهرة عباد الشمس، حين توشك النوى أن تتشقق، وتصورت هذا لنفسي. رحنا إذاً بعد عشرين دقيقة، بسيارة شاحنة، في بادىء الأمر إلى جروسبوليسهايم، ثم إلى جروس

فيرنيش، وبعدها إلى بالكْهاوزن ليلاً، وحين أوصلونا إلى فيرنيش، في الليل مرة أخرى، لم يكن هناك إلاّ بوريس وأنا، فالآخرون فهموا إيماءة الرائد فتسلّلوا ليلاً عبر حقول اللفت إلى الأمريكان، وتمّ حشر أميرنا من قبل أميرته في بذلة عسكرية ألمانية وضمّد بشاش ضرِّج بدم دجاجة ونقل إلى المقبرة. أما أنا فقد قمت بشيء جنوني: عدت إلى المدينة، وحيداً، وفي الليل، في نهاية شباط، إلى المدينة التالفة المدمّرة حيث جرفت ورفعت الأنقاض سنة كاملة وكشفت عن جثث، حيث تعرّضت للشتم والإهانة وحيث كان يرمي لي عابر سبيل في بعض الأحيان أمام القدمين بعقب سيجارة أو بسيجارة كاملة وأحياناً بتفاحة أو قطعة خبز، وحين كان الحارس لا ينظر صوبي أو كان لا يريد أن ينظر إلى ناحيتي ـ عدت إلى المدينة وانجحرت في فيلاّ مهدّمة، في القبو الذي كان شبه متداعٍ بحيث إنَّ سقفه شكّل لي في ميلانه سطحاً لي وانتظرت في هذا الركن المحميّ. كنت قد سرقت الخبز والبيض من عند الفلاحين وكنت أشرب ماء المطر من نقرة ماء في مطبخ الغسيل، وفي أثناء النهار كنت أجمع الحطب، أرضية خشبية، وهذا الخشب يحترق احتراقاً جيداً، وفتشت الأثاث المهشم إلى أن وجدت أخيراً شيئاً للتدخين: ست سيجارات غليظة ثمينة في محفظة سجائر جلدية سليمة خاصة برأسمالي وكان مطبوعاً عليها: لوتسيرن ١٩١٩. ولا تزال هذه لديَّ حتى الآن، وأستطيع أن أريك أياها، إنّ ست سجائر غليظة ثمينة خاصة برأسمالي لتعادل، إن لم تكن مبذّراً جداً، ستاً وثلاثين سيجارة صغيرة متوسطة الجودة، وإذا ما كان لديك علاوة على ذلك أعواد ثقاب فإنّها لثروة، لا أعواد ثقاب فحسب، بل ورق سجائر أيضاً، وهذه كانت كتاب صلوات طبع على ورق

رقيق وكان من جروس فيرنيش، وكانت سماكته خمسمائة صفحة وفي المقدمة الاسم: كاتارينا فيرميلزكيرستين، المناولة الأولى سنة ١٨٧٨ ـ وقبل أن ألفّ السيجارة قرأت بطبيعة الحال ما كان مكتوباً على الصفحة: ‹لتمحّص هنا ضميرك فيما أهنت الإله بالأفكار والكلام والعمل. لقد أثمت، يا رباه، أثمت على نحوٍ شديد مخالفةً السماء. مخالفةً إياك، ضللت مثل شاة هائمة، لست جديرة بأن أسمى ولدك› كان هذا حق الورقة المسكينة عليَّ قبل أن تذهب هباء. هنا قبعت، متلفعاً بكل الأشيا المتناثرة هناك من أقمشه مهلهلة وغير مهلهلة: ستائر وبقايا أغطية المنضدات وتنورات وقطع سجاد، وفي الليل كانت لي ناري الخفيفة من خشب الأرضية ـ هنا عشت الثاني من آذار، رعد السماء، الجحيم والقيامة، الآن أقول لك ما لم أقله لأحد غيرك وما لم أقله أنا لنفسي: عشقت هذه المدينة، في ترابها الذي أكلته وأرضها التي زلزلت وأبراج كنائسها التي سقطت، ونسائها اللواتي انكمشت فيما بعد معهن في الشتاءات الباردة، الباردة، إن لم يستطع أيَّ شيء على الإطلاق أن يدفئك إلاً أقرب امرأة ينجحر المرء معها.. لم أستطع الرحيل عن هذه المدينة، ليت ابني لافريك وزوجتي لاريّسا يصفحان عني، ولتغفر لي ما قرأت في كتاب الصلوات والأدعية: ‹هل تصرّفت في الزواج المقدس بمقتضى الواجب؟ هل ارتكبت إثماً ـ في الأفكار والكلمات والأفعال حيال ذلك؟ هل اشتهيت بتدبّر واستحسان إرادي ـ ولو لم يحدث أيُّ شيء في الواقع ـ أن ترتكب إثماً أو ترتكبي إثماً مع رجل آخر أو أمرأة أو شخص عازب؟› وطبقاً للاسئلة إلى كاتارينا فيرميلزكيرشن. التي يجب أن أرد عليها بالإيجاب والتي آمل أن تكون استطاعت الإجابة

عليها بلا، وربما كانت أفضل السبل للتوصل إلى الصلاة، حين يستعمل المرء كتاب صلوات وأدعية ورق سجائر ويتعهّد بينه وبين نفسه بأن يقرأ قبل ذلك كل صفحة قراءة دقيقة قبل أن يلف سيجارته. والآن اترك لي يدك والزم الصمت»، وهذا ما فعله المؤلف المرتبك غاية الارتباك والذي اكتشف عند بوجاكوف أيضاً دموعاً وبكاء وأحسَّ عذاباً وخمن ألماً باحتمال يقارب اليقين).

* * *

كتتمة متواضعة فقط لبيانات بوجاكوف الموضوعية يسمح المؤلف لنفسه بأن يضيف هنا بعض الاقتباسات المؤكدة غير الكثيرة لسادة ذوي مقام كبير تفوهوا بها مباشرة أو منقولة عن محاضر وتقارير لسادة ذوي مقام كبير، بصفة إيضاح إذا صحّ التعبير.

* * *

روزينبيرغ: «لديك التصوّر إلى حدٍّ ما وكأنَّ الطريق إلى ألمانيا شيء أشبه تقريباً بالطريق إلى سيبيريا.

أعرف أن المرء عندما يحضر ثلاثة ملايين ونصف إنسان لا يستطيع أن يؤيها بطريقة رائعة. وإنّه لبديهي أنَّ هنا الاف الناس قد أنزلوا منزلاً سيئاً أو عوملوا معاملة سيئة. لا عليك من هذا ولا تغتمَّ من ذلك. إنه لسؤال معقول جداً ـ وأظن مدير المنطقة راوكل ناقشه أو أنه سيتحدّث عنه ـ: هؤلاء الناس من الشرق يؤتى بهم إلى ألمانيا ليعملوا ويحققوا أكبر انتاج ممكن. إنها لمسألة طبيعية تماماً . ولتحقيق محصول عمل فلا

يجوز للمرء بطبيعة الحال أن يحضرهم وقد تجمّد ثلاثة أرباعهم، ويتركهم واقفين عشر ساعات، بل على المرء أن يزوّدهم بالطعام الكثير بحيث تكون لديهم قوى احتياطية... »

«حق التأديب بالضرب حق لكلّ مدير مؤسسة لعمال زراعيين ذوي صفات قومية بولونية... ولا يجوز أن يحاسب مدير المؤسسة في حال كهذه الحال من قبل أية مصلحة.

ينبغي إبعاد العمال الزراعيين ذوي الصفات القومية البولونية بقدر المستطاع عن أهل البيت وايواؤهم في اصطبلات وغير ذلك. وفي أثناء ذلك لا يجوز أن تقف أية روادع عائقاً في الطريق».

«شبير: في أثناء الانتاج المتواصل يجب أن يكون وقت العمل وقتاً منتظماً طوال شهر كامل. بسبب الغارات الجوية توقّف إمداد المصانع بقطع الغيار والمواد الأولى. وبذلك تراوح عدد الساعات في المؤسسات والمصانع بين ثماني ساعات واثنتي عشرة ساعة في اليوم. وأظن أن المعدّل كان ينبغي أن يتراوح طبقاً لإحصاءاتنا بين ٦٠ إلى ٦٤ ساعة في الأسبوع تقريباً. د. فليكسنر: كيف كان وقت عمل الإيدي العاملة في المعامل، أولئك الذين جاؤوا من معسكرات الاعتقال؟

شبير: كانت هي نفسها تماماً مثل أوقات العمل لبقية الإيدي العاملة في المصانع والمؤسسات. إذ أنَّ العمال من معسكرات الاعتقال لم يكونوا في الواقع إلاّ جزءاً من كافة المستخدمين والعمال، وهذا الجزء من كافة المستخدمين والعمال لم يعد يُحمَّل بأكثر مما حمّل عمال المصنع الآخرون أيضاً.

د. فليكسنر: وبمَ تحتّم هذا؟

شبير: كان هناك طلب فرق الدفاع (الحرس الأسود) أنَّ السجناء من معسكرات الاعتقال يجتمعون في قسم من أقسام المصنع. كان الإشراف على العمل يتألف من معلمين ألمان ورؤساء مجموعات ألمان. وكان على وقت العمل أن يتبع لأسباب تخص المؤسسة والمعمل أوقات عمل المؤسسة كلها، ذلك لأنه معلوم أنه لا يمكن العمل في المعمل أو المؤسسة إلاَّ في إيقاع واحد.

د. فليكسنر: من وثيقتين سأقدمهما في مناسبة أخرى يتبيّن بشكل موحد أن اليد العاملة من معسكرات الاعتقال عملت في التسليح الحربي والتسليح البحري والتسليح الجوي بمعدل ٦٠ ساعة في الأسبوع على حدّ سواء.

لماذا، يا سيّد شبير، أقيمت بالقرب من المؤسسات والمصانع معسكرات اعتقال خاصة، ما يسمى معسكرات العمل؟

شبير: أقيمت معسكرات العمل هذه لتجنّب طرق طويلة، ولكي يصل العامل بهذا إلى المعمل نشيطاً محبّاً للعمل في المعمل» (الإبراز من المؤلف).

«البولشفية العدو اللدود لألمانيا النازية... بهذا فقد الجندي البولشفي كل مطلب بصفة جندي محترم طبقاً لاتفاقية جنيف... الإحساس بزهو وتفوق الجندي الألماني الذي أمر بحراسة أسرى حرب روس يجب أن يستبينَ للملأ أيضاً في كل مكان... لهذا يطلب باتخاذ اجراءات عنيفة حادة لا مراعاة فيها لدى أقلّ إشارة لمقاومة، لا سيما من محرّضين بولشفيين... لدى أسرى حرب روس فإنه لضروري لأسباب تتعلق بالانضباط استعمال السلاح بعنف شديد».

«على القوات المسلحة أن تتخلص على الفور من كل العناصر وسط أسرى الحرب التي يمكن اعتبارها قوى محركة بولشفية. إنَّ الوضع الخاص للحملة الشرقية يتطلب بذلك إجراءات خاصة يجب القيام بها برغبة في تحمّل المسؤولية من غير أية تأثيرات إدارية بيروقراطية».

«رمي أسرى حرب روس بالرصاص (ج. أو.)

الرمي بالرصاص وحوادث مميتة لأسرى حرب روس يجب ألاَّ يتمَّ تبليغ قائد معسكر الأسرى عنها ابتداءً من الآن بأنها حادثة خاصة».

«إنَّ أسرى حرب يعملون بكفاءة طوال اليوم يحصلون كل يوم عمل على تعويض أساسي مقداره

٧٠ بفينيكاً لأسرى حرب غيرروسيين

٣٥ بفينيكاً لأسرى حرب روسيين».

«أما التعويض الأدنى لكل يوم عمل فيبلغ:

٢٠ بفينيكاً لأسرى حرب غير روسيين

١٠ بفينيكات لأسرى حرب روسيين».

* * *

بما أننا نستشهد هنا، فلتسلَّم هنا فيما بعد وثيقة أخرى اكتشفتها في صندوق ليني غير المرتَّب ماريا فان دورن الدؤوبة السهلة الارتشاء على نحو لطيف بسجائر من ماركة الجمل (من غير مرشِّح!) في أثناء استقصاءات أخرى حصلت في أثناء الترتيب بخصوص انتقال ليني إلى الريف المرغوب فيه من قبلها. والمسألة هي مسألة رسالة لهاينريش

غروتن المتوفى غيرمتكشفة إلى الآن ولا يخشى المؤلف أن يصفها بأنها «نموذج مخلّف لشعر محسوس».

«التوزيع المكاني حسابيٌّ صرف. عليه أن يثبت كم غرفة وبصورة خاصة أية غرف من غرف الجلوس الموجودة هي ضرورية حتماً لإيواء عدد أفراد الثكنة في حالة استغلال اقتصادي شديد (خانة ‹القدرة على الإيواء الخاصة بخطة الاستفادة بما يطابق التعليمات›). ولا ينظر بعين الإعتبار إلى كيفية استفادة الوحدة العسكرية من غرف الجلوس في داخل الحدود المرسومة لها في خطة الاستعمال استفادة حقيقية. وفضلاً عن الغرف ذات السرير لشخص واحد المسموح بها طبقاً للخطة فإنَّ الغرف ذات السرير لشخص واحد المسموح بها طبقاً للخطة فإنَّ الغرف بحسب السعة يجب إدخالها في الحسبان إلى أن يتكامل عدد إنزال الجند في الثكنات. وإنَّ غرفاً لا مبرر لاستعمالها عند استخدام الغرف على الوجه الصحيح، أي بما يطابق خطة الاستعمال، يمكن إسقاطها في التوزيع المكاني. إنَّ غرف خدم في مساكن ضباط وغرفاً مخصّصة لإيواء ضباط صف وجنود يمكن إدارتها وتدبيرها من رسم الوحدة العسكرية السنوي وبذلك يمكن إدارتها وتولّي شؤونها على أنها محجوزة دائماً.

إذا لم يكن في الإمكان منح المكان المتوجّب، أي أن الثكنات تكون مكتظة، فيجب أن يحسب حساباً للأماكن الموجودة كلّها عند حساب الرسم السنوي على المواد الاستهلاكية وعند حساب رسم الاستهلاك السنوي على الأجهزة والأدوات الصغيرة. إنَّ توزيع المكان على عدد إنزال الجند في الثكنات يجب ألاّ يوضح إذاً في هذه الحال وفق القدرة المنتظمة على إيواء الجند بموجب خطة استعمال، بل يجب أن

يوضع طبقاً للإيواء الفعلي.

يوضع التوزيع المكاني من جديد حين يتم حساب عدد إنزال الجند في الثكنات حساباً جديداً.

من مهام إدارة مقر الوحدة إعداد وصيانة وإدارة أبنية خاصة بالرايخ وغرف تتعلق بالقداس لجماعات الجند المصلين (كنائس مقر الوحدة وكنائس في منطقة تدريب الجند) ومقابر مقر الوحدة. وفي المشافي العسكرية الكبيرة تمَّ إعداد قاعة كبيرة للصلاة.

إنَّ بناء مبنى جديد لكنائس مقر الوحدة وإنشاء مقابر جديدة لمقر الوحدة مع مرافق ثانوية وتأثيث غرف لأغراض تتعلق بالقداس وتعديل منشآت قائمة من هذا النوع، هذا كله يقتضي موافقة القيادة العليا للجيش. وقبل ذلك يجب الاستماع إلى أساقفة الجيش.

فإذا لم تتوافر في مقر وحدة من الوحدات غرف خاصة بالرايخ وملائمة للعبادات ففي هذه الحال يجب الحفاظ على حق استعمال أو حق المشاركة في استعمال كنائس مدنية. **إنَّ المشاركة في استعمال لوازم العبادة الموجودة في الكنائس المدنية يجب أن تكون الهدف في المحادثات. فإذا لم يكن في الإمكان التوصل إلى ذلك فإنَّه يتم إعداد هذه اللوازم من قبل الإدارة طبقاً للبند الثاني الفقرة ١١٣/أ)**. والعقد الذي يجب إبرامه من قبل إدارة مقر الوحدة يستلزم اشتراك قس الوحدة (البحري) العسكري وقس (مقر الوحدة) للدائرة العسكرية وكذلك موافقة إدارة الجيش.

ومن أجل درس المثبّتين (متناولي القربان لأول مرة) يتمَّ إعداد غرف مناسبة في كنائس أو أبنية أخرى. وإذا دعت الضرورة فيجب استئجارها

بموافقـة إدارة الجيش عن طريق إدارة مقر الوحدة. وربما سمح للواعظ أيضاً بأن يتكفّل نفسه بالغرف. وفي هذه الحال يتحدد له تعويض مناسب عن طريق إدارة الجيش. تدفع التكاليف لصيانة كنائس مقر الوحدة والغرف الخاصة بموجب ١٥٠ ومقابر مقر الوحدة مع توابعها وكذلك لصيانة وإتمام لوازم المسكن المنتظمة (بما فيها تكاليف العبادة ـ انظر: البند الثاني فقرة ١١٣/أ ـ)، فضلاً عن ذلك تكاليف تدفئة الكنائس وكنائس المقابر وإنارتها وتنظيفها وتكاليف صيانة وتنظيف غسيل الكنيسة، هذا كله يتم دفعه من الأبواب المساهمة لرأسمال الميزانية ‹إيواء›.

إذا انتقل سرجين الاصطبلات إلى إدارة ذاتية، فمن كل صافي الفائدة للسرجين المباع بثمن رخيص (الإيراد القائم بعد خصم ضريبة الكسب، قارن الفقرة ٢٩ (٢) نظام جيش الرايخ R.H.O) يجب أن يقيّد النصف من عمليات الصرافة للقوات المزاولة للإدارة الذاتية في باب ‹إيرادات متنوعة›، بينما يبقى النصف الآخر للجهات صاحبة الإدارة الذاتية ويمكن تقييده طبقاً للمادة ٢٤٤ في دفتر الرمز (S) (سين) تحت باب خاص هو ‹إيرادات السرجين›.

على الجهات صاحبة الإدارة الذاتية أن تقوم لقاء ذلك بـ:

أ) إزالة أماكن السرجين (الزبل) ـ

ب) صيانة عربات العلف وتبديلها.

جـ) تحسين منشآت الإصطبلات وبيوت ركوب الخيل (مثلاً: عن طريق مرآة بيوت ركوب الخيل) وملاعب ركوب الخيل وحدائق القفز بالقياس إلى التجهيز المنظم والأثاث (١٧٩ ي) و ٢٤٦)،

د) علاوات علف ومصاريف أخرى لمصلحة الخيول.

لا يجوز أن تدفع مصاريف أخرى لحساب ‹إيراد السرجين› ‹أموال (S)›. فالجهات صاحبة الإدارة الذاتية تتعهد بأن تتصرّف على الوجه الأكمل بسرجين الاصطبلات الناتج بالتفاهم مع إدرة مقر الوحدة. وعلى هذه أن تجد أفضل فرص للبيع. فإذا تم استبدال السرجين بمواد غذائية فإنَّ عملية المقايضة يجب أن تحوّل إلى شراء وبيع من غير أن يكون هناك ضرورة إلى إظهار هذه أمام الطرف المتعاقد. فقيمة العملة يجب إثباتها في الدفاتر في الإيرادات والنفقات ويجب تحويل نصف قيمة العملة للسرجين على حساب إيرادات السرجين إلى باب ايرادات متنوعة، والسرجين الذي تستعمله القوات نفسها، مثلاً لتسميد مرعى يجب تعويضه. ويجب إدخال نصف قيمة العملة في باب إيرادات متنوعة.

إنَّ الإدارة الذاتية لسرجين الاصطبلات مهمة تقوم بها وحدة اقتصادية متكاملة (فوج من الفرسان، كتيبة وهلم جراً). وفي الإمكان أيضاً أن تترك لسرايا خيالة أخرى ولسرايا مدفعية وسرايا بشكل مستقل. التقييد في دفتر ‹S› وفقاً لـ ٢٤٤ و٢٦١.

إن ‹إيرادات السرجين› القائمة في دفتر ‹S› تتبقى للجهات صاحبة الإدارة الذاتية حتى في حال انتقالها إلى ثكنة أخرى أو إلى مقرّ آخر.

وبالنسبة لفرق إفرادية مغادرة تابعة لوحدة عسكرية ففي الإمكان تحويل مبلغ مناسب إلى الوحدة العسكرية الجديدة. وعند حل وحدة عسكرية ما وما إلى ذلك يجب إدخال إيرادات السرجين القائمة بعد دفع النفقات المتبقية في باب إيرادات متنوعة. وفي هذه الحال يجب تسليم الأشياء التي تمَّ الحصول عليها من إيرادات السرجين مجاناً مقابل إشعار

بالاستلام ويجب إثبات ذلك من قبل الإدارة في سجل جرد الأدوات واللوازم».

بسبب معلومات معينة وتتمّات للتحقق أيضاً من صحة أشياء كثرت أم قلت، كان لا مفرّ من أن نضايق السيّد العالي المقام مرة أخرى؛ كما أنَّ المؤلف طلب هاتفياً مقابلة فإنه حين علم بمطلبه استجاب ووعد هو هذا من غير تردد «بمقابلات أخرى، وإذا دعت الضرورة بمقابلات متكررة أيضاً». وكان لصوته هذه المرة وقعٌ رقيق أقرب إلى الرضى واللطف، وسافر المؤلف بالقطار سفرته التي تستغرق ستاً وثلاثين دقيقة دون أن يوجس خيفة هذه المرة. وخاطر بسيارة أجرة وفاتته بذلك البنتلي، سيارة السيد الكبير المقام، التي كان قد بعث بها هذا بالذات مع سائقه إلى المحطة لاستقبال المؤلف واصطحابه. ولما أنّ المؤلف لم يكن قد حسب حساباً لمثل هذا الاهتمام الذي لم يكن قد أعلن عنه قبل ذلك، فقد كلّفته هذه العملية نحو سبعة عشر ماركاً فاصلة ثمانين، بما فيه البخشيش ١٩,٥٠ مارك، إذ أنَّ السيد الكبير المقام يسكن في مكان بعيد إلى حدٍّ ما عن المدينة. ويأسف المؤلف بالغ الأسف أنه بذلك أضاع على إدارة الشؤون المالية مبلغاً يتراوح من ١,٧٥ مارك إلى ٢,٥٠ مارك. بدا له مستحسناً أن يوظّف هذه المرة هدايا من جديد، ووقع اختياره على منظر للراين يشبه ذلك الذي كان قد لفت انتباهه عند السيدة هولتهونه على نحوٍ لطيف في وضوحه الشبيه بوضوح الجواهر. السعر ٤٢ ماركاً. مؤطّر بـ ٥١,٨٠ ماركاً. أما حرم السيد التي ستسمى في المستقبل ببساطة ميتسي ـ ليس هذا فقط قولاً ـ فقد «ابتهجت بهذا الاهتمام». وللسيد نفسه كان لدى المؤلف أولى الطبعات للبيان الشيوعي، ولو أنه لم يتمَّ

الحصول عليها إلاّ بصورة طبق الأصل (والواقع أن المسألة كانت مسألة صورة بسيطة كانت قد زينت بطريقة طباعية بعض الشيء، إلاّ أنَّها جعلت السيد يبتسم إبتسامة الفرح).

كان الجو هذه المرة مريحاً أكثر. فقد عنيت ميتسي بالشاي من غير سوء ظن، وهي تقريباً من نوعية تلك الشاي التي كانت السيدة هولتهونه قد وصفتها في المقهى بأنها جيّدة بشكل خاص؛ كان هناك كعك جاف ونبيذ أسباني وسجائر وارتسم على وجهي كلا هذين الإنسانين الحساسين كآبة رقيقة طردت الدموع، إلاّ أنها لم تمنع من أن تكون العينان مغرورقتين. كان عصراً لطيفاً خلا من اعتداء مستتر، ولكنه لم يكن كلّه من غير اعتداءٍ صريح. الحديقة وصفت، والغرفة كذلك، والشرفة لم توصف بعد: كانت مقوّسة تقوّساً باروكياً تزيّنها على أطرافها تعريشات، ممتدة في الوسط بعيداً إلى الحديقة العامة؛ وعلى الأرض المعشوشبة أدوات الكروكي. أولى الأزاهير (الفورستيات) على الشجيرات.

ميتسي: سمراء الوجه، مع أنها في السادسة والخمسين، توحي حقّاً وكأنها في نحو السادسة والأربعين، ذات ساقين طويلتين وفم دقيق الشفتين وصدر عادي، في ثوب جرْسي (من الصوف الناعم) بنيّ أحمر، والجلد مصفرٌ اصفراراً اصطناعياً على نحو يناسبها. «إنه لجميل الشيء الذي ترويه عن الفتاة الشابة التي كانت تنتقل على الدراجة العادية من معسكر إلى معسكر تبحث عن حبيبها وتجده أخيراً في المقبرة؛ وأعني بجميل طبعاً ليس المقبرة وواقع الأمر أنها وجدته هناك، إنما فقط، أنَّ امرأة شابة تقطع على دراجتها نهر الآيفل والاردينيه حتى نامور، ويتأتّى

لهـا أن تصل إلى ريمز وتعـود إلى مـيـتس، ثـم إلى الوطن مـرة أخـرى، لتـقـطع الآيفل من جـديد مـروراً بحـدود الدول ومناطق الاحـتـلال. إني لأعـرف هذه المرأة الشـابة، وعـرفت أنهـا كـانت تلك التي تحدّثت عنهـا آنذاك، كنت ـ إني كنت، لا أعرف تماماً مـاذا كنت ـ، إنما كنت سـأحاول أن أفرحها، مع أنهـا شخص صموت، كنا في الثانيـة والخمسين حين غادر زوجي السجن وجاء إليـها مباشرة بعد أنَّ كنا قد وجدنا البسـتاني وعرفنا منه العنوان. امـرأة ذات جـمـال مـدهش، وفـي وسـعي أن أحكم أن المرأة على سـحـر هذا الجـمـال على الرجـال (؟؟ المؤلف). وهذا الطفل الجـمـيل أيضـاً ذو الشـعـر الأشـقـر الناعم المسـتـرسل. كـان زوجي متـأثراً ـ ذكّـره الطفل ببوريس الشـاب، ولو أنَّ هذا كان نحيفاً ويضع نظارة، إلاَّ أنه كان يشبهـه، أليس كذلك؟ (السيـد يومـيء بالإيجاب. المؤلف). طبـيـعي أنَّ طريقتـهـا في التربيـة كانت خاطئة. مـا كـان لهـا أن تتـردد في أن ترسل الصـبيّ إلى المدرسـة. علـى كل حـال كـان الصـبي آنذاك في السـابعـة والنصف، ومـا مارسـته معه كان فـي الحقيـقة رومـانسيـة خالصة، لا شيء غـيـر ذلك. غنـاء أغـانٍ ورواية حكـايات وهذا الخليط المنافي للذوق من هولدرلين وتراكـل وبريشت ـ ولسـت أدري هل كـانت قـصـة كـافكا (مـسـتـعمرة العـقـاب) القراءة المناسبة لطفل لم يبلغ الثـامنة تماماً، ولست أدري أيضـاً مـا إذا كانت الصـور الطبيـعيـة لكل، لكن أيضـاً لكل أعضـاء الإنسـان، لن تؤدي إلى، لنقل، نظرة حيـاتيـة مـادية بعض الشيء. ولكن: كان فـيهـا شيء عظـيم، مع أنَّ الفوضـى كانت تسـود وليس غيـر الفوضى. وعليَّ أن أقـول إنَّ هذه الصـور لأعـضـاء تناسـل الإنسان كـانت مكبرّة لهـذا الغرض؛ ولست أدري مـا إذا كان هذا سابقـاً لأوانه بعض الشيء ـ واليوم

سيكون الأوان قد فات تقريباً (ضحك من قبلهما كليهما. المؤلف). أما الصبي فحلو، حلو ومنفتح كل الانفتاح ـ ومصير المرأة الشابة التي كانت آنذاك في حدود الثلاثين، وبمعنى أوسع كانت قد فقدت ثلاثة رجال والأخ، والأب، والأم ومترفعة أبيّة! لا، لم أعد أملك الشجاعة لأزورها مرة أخرى، أبيّة مترفعة إلى هذا الحد كانت هي. الحق أننا راسلناها حين سافر زوجي سنة ٥٥ مع آديناور إلى موسكو ووجد في الواقع بعد بحث عسير في وزارة الخارجية أحد معارفه من أيام برلين استطاع أن يسأله على جناح السرعة عند الخروج عن كولتوفسكي. النتيجة: سلبي، جداً الصبي الحلو ـ توفيًا؛ وعمّته ليديا ـ لا أثر لها».

السيد: «لا مبالغة إذا ما قلت إن الذنب ذنب الحلفاء الغربيين إن لم يَعُدْ بوريس على قيد الحياة. لا أقصد بذلك الإستعمال السخيف التعيس لبطاقة الجندية وحقيقة الواقع أنه مات بحادث منجم. لا، ليس هذا ذنب الحلفاء الغربيين يقوم في أنهم ألقوا القبض عليَّ واعتقلوني سبع سنوات، أو زجوا بي في السجن، وحتى لو لم تكن الأقفال محكمة القفل ولم تكن المزاليج مثبتة جداً. كنت قد اتفقت مع ايريش فون كام بأنَّ عليه أن ينذرني لو تأزم وضع بوريس، لكن نظراً لفرار حرسه فإنّه فقد أعصابه، وكان أيضاً أفضل ما استطاع أن يفعله في هذا الموقف: إرساله إلى جبهة إيرفت حيث كان في إمكانه أن يفرَّ في أقرب فرصة بدون صعوبات. وكان قد تمَّ الاتفاق على نحوٍ آخر: كان على كام أن يجهّز له بذلة عسكرية انكليزية أو أمريكيانية وأن يخبئه في معسكر لأسرى حرب إنكليز أو أمريكان ـ وإلى أن يتوضح الخطأ تكون الحرب قد انتهت. طبيعي أنه كان جنوناً أن نحمّله بطاقة جندية ألمانية وبزة عسكرية ألمانية

ونلحق به إصابة أخرى متلاعب فيها. كان هذا جنوناً. وطبيعي لم نستطع أن نعرف، لا كام ولا أنا، أنَّ في الأمر مغامرة نسائية! وطفل على الطريق والغارات الجوية! جنون! لم استدرج الفتاة هذه آنذاك إلى أن تبوح بالكثير من سرّها، شكرتني عندما علمت أنني كنت الشخص الذي حوّل بوريس إلى المشتل، لكنها شكرت كما لو أنَّ فتاة مهذّبة التهذيب الصحيح إلى حد ما كانت ستشكر على لوح من الشوكلاة. لم تعرف هذه ما غامرت به وما كان ستساعدني عليه وثيقة لبوريس في نورنبيرغ وما إلى ذلك. جررت على نفسي عاراً أبدياً، أمام المحكمة وأمام رفاقي المتهمين معي، عندما أدليت بأقوالي إنني كنت سأنقذ حياة شخص اسمه بوريس لفوفيتش كولتوفسكي البالغ من العمر كذا وكذا. وقال المدّعي الروسي: ‹سنحاول الآن التوصل إلى هذا المدعو بوريس لفوفيتش كولتوفسكي وما دمت تعرف رقم المعسكر الأساسي›. إلاَّ أنه لم يعثر عليه أيضاً بعد سنة! وعددت هذا حيلة وضيعة. كان بوريس سيتمكن من مساعدتي لو أنه عاش وسمح له المرء بذلك. نسب المرء إليَّ هناك أبشع الأقوال، أقوالاً مما تمَّ التفوّه بها في مؤتمرات شاركت أنا فيها، إلاَّ أنها لم تصدر عني. هل تظنني قادراً على ما يلي؟ (سحب مفكرته وقرأ عليَّ:) ‹إنّ اللين حيال أسرى الحرب الروس المطيعين المستعدين المريدين للعمل أيضاً ليس في محلّه. ويفسّره هو بأنه ضعف ويستنتج استنتاجاته›. وفضلاً عن ذلك وبمناسبة محادثة حصلت في أيلول سنة ١٩٤١ عند رئيس تسليح الجيش، يقال إنني اقترحت أنّ تخشيبة (براكة) للعمل الطوعي في خدمة الرايخ كانت تتسع حتى الآن لمئة وخمسين أسيراً، يمكن جعلها تتسع ثمانمائة وأربعين أسيراً بتركيب

مضاجع خشبية متعدّدة الطوابق. ويقال إنّ روساً جاؤوا صباحاً للعمل في أحد معاملي بلا خبز وبلا ثياب عمل وأنّ عمالاً ألمانيين استجدوا الخبز ـ ويقال أنه كان هناك زنزانات عقاب. في هذا كنت أنا ذلك الذي شكا في آذار سنة ٤٢ من أنّ مستخدمين روسيين عندنا كان قد أوهنهم سوء التغذية في المعسكر بحيث إنهم لم يعودوا قادرين على أن يشدوا على سبيل المثال فولاذاً لولبياً شداً صحيحاً. وأنا شخصياً احتججت بمناسبة حديث لي مع الجنرال راينكه الذي كان مسؤولاً عن أسرى الحرب كلهم، على الخليط المعيّن لما يسمّى بخبز الروس الذي كان ينبغي أن يتكوّن من ٥٠٪ من مجروش الحنطة السوداء و ٢٠٪ من شرائح الشوندر السكري و ٢٠٪ من دقيق السليلوز و ١٠٪ من دقيق القش أو الورق. ونجحت في مسعاي بأن ترتفع نسبة مجروش الحنطة إلى ٥٥٪ ونسبة شرائح الشوندر السكري إلى ٢٥٪ بحيث تنخفض الأخلاط الفظيعة لدقيق السليلوز ودقيق القش أو الورق بما يتناسب مع ذلك، على أية حال في مصانعنا ـ وعلى حساب مصانعنا. وإنه ليغيب عن الذهن ببساطة أنّ المشاكل تبرز ببساطة. وأنا نبّهت باكّه، وكيل الوزارة في وزارة التموين للرايخ، وموريتس، مستشار الوزارة، إلى أنّ العمل في الصناعات الحربية يتطلب ناساً أقوياء وفي نهاية المطاف كنت أنا ذلك الذي وضع موضع التنفيذ الأيام التي أطلق عليها أيام حساء الدقيق التي باتت مشهورة. وكان لي مشاحنة مع زاوكل الذي هددني بالسجن وأراد أن يلقي على مسامعي حرفياً كل أوامر القيادة العامة للجيش والقيادة العامة للقوات المسلحة والمكتب الرئيس لأمن الرايخ. ولأنّ هذه التغذية اللاإنسانية كلها كان يجب أن تبقى خافية على الملأ الألماني فقد هرّبت

أنْبـاءً عن ذلك إلى السـويد بإفشـاء مقـصـود لأسـرار وتعـرّضت لمخـاطر جسـيـمـة لكي أنذر الرأي العـام العـالمي، ومـاذا كـان الجزاء؟ سنتين في المعـتـقل وخمس سنوات في السـجن من جراء مـصـانعنا الفـرعـيـة في كونيكزبيـرغ التي لم أكن أنا في الحقيقة مسؤولاً عنها. حسناً، حسناً، مـات آخرون، وآخرون آذاهم المرء أذى أكـبـر، وفي النهـاية أنـا صـحـيح الجسم معـافى ولم أتضرر بصـورة خاصـة. (بمَ؟ المؤلف). نـريد أن ننسى ذلك وننسى أيضـاً المشـادة العـقـيـمة المنافـقة في القضـيـة التي واجهوني فـيها بوثائق ونسـبـوا إليّ أقـوالاً لم تصدر عنـي في الواقع. وكم تمنيت أن أخرج بهذا الشـاب من الحرب سالماً، ولم يتـأتَّ لي ذلك ـ لم يتأتَّ لي أن أجد أبويه وأختـه، مـا أخفقت فـيـه كل الإخـفـاق أن يكون لي تأثـيـر في تربيـة ابنـه. وفي النهـاية كنت قـد أثبتُّ أنَّ تأثرّي الثـقـافي في بوريس لم يكن سـيـئـاً إلـى هذه الدرجـة. فـمن ذا الذي جعله يعـرف تراكل وكـافكا وأخيـراً هولدرلين؟ ألـم أكن أنا السـبب في أن تتـمكن هذه المرأة العنيـدة من أن تضـمّن في نهـاية المطاف هؤلاء الشـعـراء في ثقـافـتـها النـاقـصـة وتنقلهم من بعـد ذلـك إلى ابنهـا؟ هل كـان حقـاً تطاول حين رأيت لزامـاً عليّ أن أنهض بأعـبـاء عـرّاب من النوع الرفـيـع لسليل كـولتـوفـسـكي الوحيد الذي يمكن إثباته؟ أنا على ثقة أنَّ بوريس نفسه ما كان سيتهرّب من هذا العـرض الودي، وهل كان ضرورياً أن أردَّ خائباً بمثل هذه الطريقة الفظة؟ خصوصاً هذه المخلوقـة الوقحة التي كانت تسكن هناك ـ ونسيت اسـمـها ـ بتـصـوراتهـا الاشـتـراكـيـة المبـتـذلة والتي شتـمتني شتـمـاً مبـتـذلاً حقيراً وطردتني في النهاية شرَّ طردة، هذه أيضاً، كما تناهى إلى سمعي، واجهتـها صعوبات مع ولديها وكـانت تتحرك دائماً على حافة الخروج عن

المجتمع، إن لم يكن البغاء. وهل كان السيد غروتن أبو هذا المرأة الغريبة في صمتها والعشيق فيما بعد لهذه الشبيهة بالعاهرة الوقحة المتوردة، هل كان مثلاً حملاً إلهياً في أزمان الحرب؟ ما أعنيه هو: لم يكن من داعٍ لأن يصدّني المرء من على العتبة بكبرياء وعجرفة وأن يتبنّى من غير تمحيص أحكام محكمة صارت في أثناء ذلك موضع شك وسمعتها الرديئة على كل لسان. لا، لا. لم يكن لي حمد ولا شكر».

ألقي هذا كلّه بصوت خفيض أقرب إلى الاستياء منه إلى العدوانية، وبين الحين والآخر تناولت ميتسي يده لتهدّئه حين بدأت أوداجه تنتفخ. «حوالات بريدية أعيد إرسالها ورسائل لم يردَّ عليها، ونصائح ضرب بها عرض الحائط، وهذه المخلوقة الوقحة، أعني الآخرى، كتبت إليَّ ذات يوم بصريح العبارة: ‹ليكن في معلومك أنَّ ليني لا تريد أن يكون لها أية علاقة معك؟› حسن ـ تمالكت نفسي بعد ذلك، لكنني تتبعت الأخبار بطبيعة الحال بصورة منتظمة، لأجل الصبي ـ وماذا كان مصيره؟ لا أريد أن أقول صار مجرماً، إذ أنه لا يليق بمستواي أن أتبنى من غير تمحيص تصوّراً قانونياً سائداً في كل مرة. فأنا نفسي كنت مجرماً، وكان إجرامياً أنني رفعت باجتهاد شخصي محتوى مجروش الحنطة ومحتوى شرائح الشوندر السكري لخبز الروس بنسبة خمسة وخفّضت محتوى دقيق السليلوز والقش بما يتناسب مع ذلك، لكي يصبح الخبز مقبولاً بشكل أفضل: كان يمكن أن يكلّفني هذا معسكرات الاعتقال. وكنت مجرماً لا لشيء إلاَّ لأنني كنت مشتركاً في مصانع وبناءً على تداخلات من نوع الحميم المعقّد والاقتصادي المعقّد كنت واحداً من أولئك المقاولين الكبار الذين لم تعد مملكتهم أو بالأحرى دائرتهم تمكّن

من وضوح مفصّل. وأنا نفسي كنت مجرماً بما فيه الكفاية، في أشدّ العهود اختلافاً، على أن أنعت الصبي بأنه مجرم، إلاّ أنه أخفق، وما من شك في ذلك ـ إنه لجنون وإنه ليقوم على تربية مجنونة عندما يريد شخص ما في الثالثة والعشرين أن يعيد عن طريق الغش بالصكوك وتزوير كمبيالات ظروف ملكية إلى ما كانت عليه والتي نشأت تارة بطريقة مشروعة وإن كانت صعبة وتارة على نحوٍ قاسٍ لا يرحم، ولنسمّه نحن، مهارة المالكين الحاليين التي ربما كانت على غاية من الدقة المضنية. الموصى به موصى به والمبيع مبيع. وبتعبير له علاقته بالتحليل النفسي، إنَّ عند الصبي ارتباطاً عاطفياً خطيراً بالأم وجرحاً نفسياً بسبب الأب. وهذه الأم لم تعرف أيَّ شيء تسبّبت فيه هي وصاحبها كافكا ـ ولم تعرف أنَّ كتاباً متعارضين إلى هذا الحد مثل كافكا وبريشت، ومقروئين بمثل هذه الشدّة، لا يستساغ وجودهم جنباً إلى جنب ـ، وفوق ذلك أيضاً اللهجة الحماسية العاطفية المتطرفة عند هولدرلين وشعر الانحطاط الغنائي الأخاذ عند تراكل: كل هذا تشبّع به هذا الطفل عندما بدأ يتكلّم ويسمع، وإلى ذلك هذه المادية الجسمانية بملامح صوفية: الحق أنني أنا أيضاً ضد التابو، ولكن هل كان سليماً وصحيحاً إتباع هذه الأحيائية على هذا النحو من التفصيل وهذا التعظيم والتمجيد لكل أعضاء الجسم الإنساني ووظائفها؟ ـ وأخيراً فنحن محطّمون في طبيعتنا. آه ـ إنه لمرٌّ، ألاّ يسمح بالمساعدة، وإنه لمؤلم أنْ يُردَّ المرء».

هنا أيضاً وما كان سيعتبره المؤلف محالاً: الدموع نتيجة للبكاء، وبالتالي فإنَّ تلك نتيجة لألم دفين ـ وفي هذه اللحظة جاءت الكلاب تركض على الحشيش الرائع، كلاب ـ سلوقية جميلة جمالاً ملكياً لم

تشمشم المؤلف إلاً شمشمة قصيرة، وكما يظهر تركته جانباً على نحو سوقي مبتذل ولم تلتفت إليه لكي تلحس دمعات السيِّد. اللعنة مرة أخرى، الآن وعلى حين غرة أخذ الجميع يصيرون عاطفيين: بيلتسر، بوجاكوف والسيِّد الكبير المقام؟ ألم تتألق عينا لوته تألقاً مريباً ـ أما بكت ماريا فان دورن أيضاً جهاراً ـ أما أوشكت مارغريت أن تكون نقرة دموع، بينما لم تسمح ليني لعينيها أن تترقرقا بالدمع أكثر مما كان ضرورياً لتبقيهما مفتوحتين وصافيتين؟

كان الوداع من ميتسي والسيِّد ودّياً، كان لا يزال في الأصوات أسى وحسرة حين رجيا المؤلف أن يكون له تأثير الوسيط، إن استطاع إلى ذلك سبيلا، فالمرء ما زال مستعداً دائماً وأبداً لأن« يحسّنَ وضع » ابن بوريس، ذلك لأنه كان ابن بوريس وحفيد ليف كولتوفسكي.

* * *

ما زال موقف غروندتش عند نهاية الحرب غير موضّح، وغامض نوعاً ما، موقفه السياسي والجغرافي والجسدي والنفسي. كان من السهل ترتيب زيارة له: اتصال هاتفي وموعد، وإذا بغروندتش يقف بعد موعد الانصراف من المقبرة عند البوابة الحديدية الصدئة التي لا تفتح إلاً عندما يتمُّ نقل تلك البقايا من الأكاليل والزهور التي لا يمكن استعمالها لتشكيل السماد الطبيعي بسبب منشئها البلاستيكي. أما غروندتش الذي هو دائماً وأبداً إنسان مضياف وابتهج للزيارة فقد أمسك بيد المؤلف ليقطع به بأمان «أجزاء زلقة بصورة خاصة». كانت حالته في داخل المقبرة قد تحسنت في أثناء ذلك تحسّناً كبيراً. فقد صار في حوزته

منذ عهد قريب مفتاح للمرحاض العمومي، بالإضافة إلى حمامات عمال المقبرة في البلدية، وزوّد بجهاز ترانزسيتسور وتلفزيون، ومتّع النفس (كان الوقت فصحاً. المؤلف) بتفتح أزهار الكوبية القريب الحدوث والذي توقّعه بمناسبة الأحد الأبيض. وفي هذا المساء البارد من آذار كان الجلوس على مقاعد خشبية مستحيلاً، إنّما نزهة هادئة في المقبرة، وهذه المرة أيضاً إلى الطريق الرئيسي، الذي سماه غروندتش الشارع الرئيس. «أفضل أحيائنا السكنية»، قال وهو يكركر، «وأغلى عقاراتنا، وإذا خطر ببالك في يوم من الأيام ألاّ تصدّق فالتر فإنني سأريك بعض الأشياء التي تثبت وتؤكد بياناته. فهذا لا يكذب أبداً، مثلما أنه لم يكن في وقت من الأوقات غير إنساني» (كركرة). وأطلع غروندتش المؤلف على بقايا ذلك السلك الكهربائي الذي كان بيلتسر قد وضعه هناك مع غروندتش في شباط سنة ١٩٤٥: كانت أجزاء سلك معزول عزلاً ضارباً إلى السواد وأقلّ جودة كانت توصّل من المشتل إلى بلوطة كساها اللبلاب، ومن هذه البلوطة عبر شجيرة البيلسان (التي كانت المشابك لا تزال عليها، ولو أنها كانت صدئة)، عبر سورٍ من الليغسطروم (جنبة الرباط) إلى خشخاشة مَنْ هم من آل تسيكي. وعلى السور الخارجي لهذه المقبرة المهيبة تتكرر المشابك وتتكرر بقايا سلك أقل جودة معزول عزلاً ضارباً إلى السواد ـ ومن ثم وقف المؤلف (ليس من غير رجفة خفيفة كما ينبغي أن يعترف) أمام الباب البرونزي الرهيب الذي شكّل فيما مضى من زمانه المدخل إلى الفردوس الروسي في المدافن، والذي كان للأسف مقفلاً في ذلك المساء الباعث على الشجن، مساء أول الربيع. قال غروندتش: «من هنا تمَّ الدخول إذاً، وفي الداخل

استمر السير إلى الجهة الأخرى إلى آل هيريغر، ومن هناك إلى دو كامب». فكلا المدفنين، مدفن آل تسيكي ومدفن آل هيريغر كان قد عُنيا بهما أشدّ العناية، بطحالب وزهور الثالوث وورود. ويضيف غروندتش قائلاً: «أجل، كلا الاشتراكيين تسلّمتهما من فالتر، والممرات سدّها بعد الحرب بجدران مرة ثانية وطلاها بالملاط، وللأسف على شيء من عدم الاتقان، من قبل غروتن الشيخ، أما الشقوق التي ظهرت فيما بعد. والطلاء المتفتت فقد نسبه فيما بعد إلى القنابل، ولم يكن هذا كذباً، إذ أنه لا بدَّ أن يكون قد وقع هنا قصف شديد في الثاني من آذار. وهناك في الخلف تستطيع أن ترى ملاكاً أصابته قذيفة قنبلة في الرأس، لكأنَّ فأس الحرب غاصت في شخص ما». (استطاع المؤلف أن يرى الملاك رغم الغسق الذي بدأ ويؤكد قول غروندتش بذلك). «وكما ترى، فقد استخدم لدى آل هيريغر وآل فون تسيكي شيء مما يمجّه الذوق. فآل هيريغر عملوا على ترميم المكان وعمل آل فون تسيكي على تجديده وتحديثه بينما ترك آل دوكامب أو السيّد دو كامب القبر يتصدّع ويتداعى. فالولد ـ الذي شارف في هذه الأثناء أيضاً على الخامسة والستين، إلاَّ أنني شاهدته هنا في بداية العشرينات في بزته البحرية يبكي ويصلي، وبدا هذا مضحكاً نوعاً ما، إذ أنه كان آنذاك في سنّ لا تتناسب مع بزّة بحري، ولم يرغب في أن يخلعها ـ ولربما كان لا يزال إلى اليوم يجري بها هنا وهناك، هناك في المصح بالقرب من ميران. وبين الفينة والأخرى يجود محاميه بشيء ما لكي يقلع على الأقل أخبث الأعشاب، ويصرّ المحامي على حق للسيد المضحك المعمّر في البزة البحرية الذي ما زال يعيش دائماً من مصنع ورق السجائر. وإلاَّ ستمهّد المدينة هذا الشيء بصورة محتملة. في

مثل هذه الحال ستكون هناك مقاضاة كما ينبغي بسبب مكان الدفن» (كركرة. المؤلف)، كما لو أنَّ المرء لن يدفن الشاب دفناً جيداً هناك تحت في التيرول. وها هي الكنيسة الصغيرة، الباب متداعٍ خرب، وإذا شئت، ففي إمكانك أن تلقي النظر وترى ما إذا كان ليني وبوريس قد تركا شيئاً من الخلنج الخاص بهما».

الحق أن المؤلف دخل الكنيسة الصغيرة المتداعية البناء وتأمّل باهتمام النقوش المتفتتة على الحائط بأسلوب الناصريين (مجددي الفن المسيحي) في الأفنية نصف المقبّبة الرائعة في هندستها المعمارية. كان المكان وسخاً في الداخل، والجو بارداً ورطباً، وجازف المؤلف ببعض أعواد الثقاب (لم يتّضح بعد ما إذا كان في إمكانه أنْ يحمّلها المديرية المالية على أنها نفقات، ذلك لأنه كان له بصفته مدخّناً كبيراً استهلاكٌ لا يستهان به على كل حال، ويجب أن يتمَّ التحقّق بواسطة خبراء مختصين رسميين وخصوصيين يتقاضون أجراً عالياً مما إذا كان في الإمكان إعتبار نحو ثلاثة عشر إلى ستة عشر عود ثقاب تكاليف عمل مناسبة للحصص)، لكي يشاهد المذبح الذي كان قد فقد كلَّ معدن سوى الحديد؛ ووراء المذبح اكتشف المؤلف تراباً يلمعُ لمعاناً بنفسجياً ضارباً إلى الحمرة على نحو غريب ومنشؤه نباتي والذي ربما كان مصدره الخلنج المتفتّت؛ وحين غادر كنيسة آل دو كامب مرتبكاً أوضح له غروندتش الذي كان يتسلّى بغليونه، إذا صحّ التعبير، مصدر قطعة لباس نسوية تلبس عادة تحت الثوب أو الكنزة على النصف الأعلى النسوي. «أي، نعم، أغلب الظن أنهم يدخلون إلى هنا، بعض العشّاق، الذين يضلّون طريقهم بين الحين والآخر ويجدون أنفسهم في موقف لا مخرج منه، ولا

دهليز لديهم ولا مال من أجل نزل رخيص ولا يخافون الأموات».

صارت نزهة جميلة مثمرة في هذا المساء الكئيب الذي كان قد خلق من أجل أن يختم بماء كنسي في حجرة غروندتش.

«حسنٌ إذاً»، استأنف غروندتش الكلام، «فقدت في الحقيقة أعصابي حين سمعت أنه جرت عندنا في ديارنا معارك شديدة، وأردت الذهاب إلى هناك لأرى أمي ثانية وأقف إلى جانبها. كانت في أواخر السبعين، وعلى مدى خمسة وعشرين عاماً لم أزرها، وإذا كانت قد هرولت طوال حياتها وراء الرهبان فلم يكن هذا ذنبها. وإنّما ذنب بُنى معينة (كركرة)، وكان جنوناً، ومع هذا ذهبت أنا، في وقت متأخر جداً، واعتمدت على معرفتي بالأرض. فقد رعيت وأنا طفل الأبقار هناك وقطعت مسالك الغابة إلى أطرافها ووصلت في بعض الأحيان إلى كثبان الثلوج والرمال المتراكمة. هؤلاء الأغبياء لا غيرهم قبضوا عليَّ لفترة قصيرة ودسّوا في يدي بندقية وأعطوني شارة ذراع وأرسلوني مع شرذمة أشباه أطفال إلى الغابات، وقلّدت نموذج دورية استطلاع ـ كنت لا أزال أعرف هذه الوساخة من الحرب الأخيرة ـ، واصطحبت النفر من الفتيان ـ لكن معرفتي بالأرض لم تعد تجدي نفعاً: لم تعد هناك أرض ـ لم يكن هناك إلاّ حفر القنابل وقزم الأشجار والألغام، ولو لم يقبض علينا الأمريكان بعد ذلك بوقت قصير نوعاً ما لكان قضي علينا ـ إذ أنَّ هؤلاء كانوا يعرفون الطرق الآمنة الخالية من الألغام، ولحسن الحظ كان قد أنقذ هؤلاء الفتيان على الأقل، أنا أيضاً، وإن استغرق هذا فترة قبل أن يطلقوا سراحي، أربعة أشهر جوع وخيام، قذارة وبرد، هذا ولم تكن الحال موضع استحسان عند الأمريكان، وكنت قد شفيت من الروماتيزم

نهائياً. لم أر أمي قط ثانية. كان قد أصابها أبله ألماني بعيار ناري على نحو أو آخر لأنها رفعت الراية البيضاء ـ والمكان القفر كان لفترة وجيزة بين الخطوط، تارة الأمريكان وتارة الألمان، ورفضت العجوز الرحيل، هنا سدّد الألمان إلى أمي التي شارفت على الثمانين طلقة أخرى من مسدس رشاش، وأغلب الظن أنهم الخنازير أنفسهم الذين يقيم المرء لهم تماثيل هنا. وما زال القساوسة لا يفعلون أيَّ شيء حيال هذه التماثيل الخرائية أقول لك إنني كنت على وشك أن أنهي كل شيء مع المزارعين حين أطلق الأمريكان سراحي أخيراً في حزيران. لم يكن هذا أيضاً سهلاً إلى هذا الحد، مع أن مكاني الطبيعي كان في الحقيقة هذا الفرع. وشعار المزارعين هذا كان أبناء كولبينغ قد تستّروا عليه في المعسكر وأبلغوه إلى زملائهم في العمل باعتباره إشارة لهم. هنا قمت بدور الأب كولبينغ، بدور العامل المسيحي وحفظت بعض الأقوال المأثورة التي تتكلف التديّن والتقوى ورددتها ترديداً ببغاوياً، وهكذا خرجت في حزيران. وجدت في انتظاري محلاً صغيراً مقبولاً أدير إدارة جيدة ونظّم تنظيماً رائعاً سلمتني إيّاه السيدة هولتهونه بما فيه الاستئجار بالصورة الدقيقة المضبوطة. لم أنسَ لها هذا قط، ولا تزال تأتيها الزهور من عندي حتى اليوم بسعر الكلفة. وفالتر هذا لم يطلب منّي وثيقة براءة ـ إذ كنت سأتركه يعرق على الأقل ويجلس في السجن بضعة أشهر، حيث إنه إجتاز كل الأيام الصعبة من غير أن يصاب بخدش واحد. كعلاج، ليس غير، اتركه في قلق وتوتّر بعض الشيء، وما كان هذا سيضرّه. الحق أنه كان لطيفاً معي، وجمع لي نصيبي وأعطاني قرضاً كي أستطيع أن أبدأ أخيراً بحانوتي الخاص. وزعنا المشتركين فيما بيننا، وأمدّني

بسخاء بالبذور، على أن نصف سنة في أي شكل من أشكال الأسر كانت ستثلج صدره».

بقي المؤلف بعض الوقت (نحو ساعة ونصف) عند غروندتش الذي لم يكن متباكياً حتى بالتلميح، بل صمت من وقت لآخر صمتاً مريحاً. كان الجو مريحاً في حجرته وقدّم مشروب الجعة ومشروب الكرز، هنا، وفي حجرة غروندتش، سمح للمؤلف أن يدخّن سيجارة، الشيء الذي لم يكن مسموحاً له في مقبرة غروندتش إيثاراً للرؤية («إنك لترى لفافة صغيرة على بعد كيلومترات») وحين أوصل غروندتش المؤلف إلى الخارج ماراً مرة أخرى بالنفايات الزلقة قال غروندتش بصوت لم تخنقه العبرات، بل متأثر جداً: «يجب القيام بكل شيء لإخراج ابن ليني ليف هذا من السجن. إنها ليست إلاّ حماقات تلك التي ارتكبها هذا. أراد هذا أن ينفّذ بآل هويرز السيئين هؤلاء نوعاً من التعويض الشخصي لأمه. إنه ولد ممتاز، مثله مثل أمه وأبيه، وعلى كل حال فقد ولد هناك حيث أسكن أنا الآن، وعمل عندي ثلاث سنوات قبل أن يمضي إلى مصلحة المقابر ومن ثمَّ إلى مصلحة تنظيف الشوارع. ولد رائع، ليس صموتاً مثل أمه. لا بدَّ من القيام بشيء ما من أجله. فقد لعب هنا طفلاً عندما عملت ليني عند بيلتسر، واشتغلت عندي فيما بعد بصورة مؤقتة حين كان يحلّ العمل الموسمي. فلو توقف الأمر على ذلك لخبأته هنا في المقبرة حيث كان أبوه مختبئاً. وما من أحد سيجده، ولا يخاف هو أيضاً من المدافن والأقبية كما أخاف أنا».

ودّع المؤلف وداعاً حاراً ووعد أن يعود ثانية ويفكر بأن يفي بهذا الوعد؛ وفضلاً عن ذلك وعد أن يلمّحَ لغروتن الشاب، إن تأتّى لهذا أن

يفرّ من السجن، «تلميحة المقبرة»، كما سمّاها غروندتش. ونادى غروندتش على المؤلف: «وقل له إنه سيحصل عندي دائماً على قهوته وحسائه وسجائره. دائماً وأبداً».

* * *

ينبغي عرض أقوال ليني المباشرة القليلة في هذا المقام عرضاً مختصراً:

«الخروج إلى الشارع» (لكي تنقذ معزفها من الحجز)

«كائنات حيّة» (في الفضاء)

«المجازفة برقصة قصيرة» (مع هـ. هـ)

«حين يئين الأوان سأندفن فيه» (في برنس الحمام)

«اللعنة، أيُّ شيء هو هذا الذي يخرج مني؟» (ليني وهي فتاة صغيرة، مثيرة بذلك إلى برازها وبولها).

«متمدّدة ومستسلمة كلياً»؛ «مفتوحة»؛ «موطوءة»؛ «ممنوحة» (تجربة الخلنج).

«الرجاء، الرجاء، هلاّ منحتني خبز الحياة هذا. لماذا ينبغي عليَّ أن أنتظر كل هذا الوقت؟» (قول أدّى إلى رفض تناول القربان أول مرة).

«أما وقد وضع على لساني هذا الشيء الباهت الرقيق الجاف الذي لا طعم له ـ فإني كنت على وشك أن ألفظه ثانية» (إشارة إلى المناولة الفعلية للقربان أول مرة).

«مسألة عضلات» (إشارة إلى «غياب الورق» عندها بالنسبة للتبرز).

«مَنْ أحبّه أريد أن أستسلم له بلا قيد ولا شرط»؛ «تصوّر ملاطفات جريئة»؛ «عليه أن يبتهج بي وعليَّ أن ابتهج به» (بالنسبة إلى «الزوج المنتظر»).

«هذا الشخص (ليس له) «يدان رقيقتان» (أول موعد).

«للبكاء قليلاً في هدوء» (ارتياد السينما).

«لطيف كل اللطف، لطيف جداً جداً وطيب» (أخوها هاينريش)

«بسبب الثقافة الهائلة خوف منه» (أخوها هاينريش)

«ومن ثمَّ فوجئت لأنه كان مجنوناً إلى هذا الحد، لطيفاً بشكل غير معقول» (أخوها هاينريش).

«ضمن مورد رزقه بشكل جيد تماماً»؛ «تفكيك آلات وأخذ ما يصلح منها» (عن أبيها بعد سنة ١٩٤٥).

«أغلب الظن أنها شكّلت لأبي آنذاك إغواء بمعنى الكلمة، حيث إني لا أعني بذلك **غاويتي**» (عن لوته هويزر).

«سيئة، سيئة، سيئة» (عن القهوة العائلية مع أخيها هاينريش).

«كان شعراؤنا أشجع منظفّي المراحيض (بعد أن كانت **هي** قد نظّفت مرحاض مارغريت المسدود، وفي ذلك إشارة إلى هاينريش وإيرهارد).

«هذا» (لا ينبغي ولا يجوز أن يحدث) «في السرير». «في العراء، في العراء. ليست شغلة الذهاب معاً إلى السرير والنوم معاً الشيء الذي أبحث عنه.» (تأملات في حاضر مارغريت حول عملية يسميها المرء عموماً مضاجعة).

«في نظري مات قبل أن يكون ميتاً» (عن زوجها أ. بفايفر بعد أن أجبرها ذاك على العملية الموصوفة أعلاه).

«إنها ذابلة هناك، ميّتة جوعاً، مع أنني جلبت لها أخيراً شيئاً لتأكله بصورة دائمة، وحين ماتت بعد ذلك، طمروها في الحديقة من غير شاهد وما إلى ذلك؛ حين وصلت إلى هناك أحسست أنها لم تعد هناك، وقال لي شويكنز: ‹لا فائدة ولا عائدة ـ أم أنك تريدين أن تحفري الأرض بأظافرك؟› ثم توجهت إلى المديرة وسألت بعنف عن راحيل، عندها قيل لها، مسافرة، وحين سألت إلى أين، تخوفت المديرة وقالت: ‹أي بنيّتي، هل هجرتك كل الأرواح الطيّبة؟›» (عن موت راحيل).

«مؤلم ألماً لا يوصف» (عن المغامرة مع ألويس)

(مرعبة) «مشاهد هذه الأموال الطائلة المسكوكة سكّاً حديثاً» (عن عملها في المكتب في أثناء الحرب).

«الثأر» (باعتباره دافعاً مفترضاً من قبل ليني للتأثير الميت لأبيها في الأرواح).

«الاشتعال ناراً على الفور» (وضع اليد عند بوريس).

«كان أجمل بكثير من تجربة الخلنج التي حكيت لك عنها» (انظر اعلاه).

«في هذه اللحظة بالذات بلغ ضرب التحية العسكرية اللعين بإطلاق النار دفعة واحدة ذروة» (لحظة من لحظات إفصاح بوريس عن الحب).

«المضاجعة» (ليني لمارغريت عن عملية موصوفة وصفاً فيه مزيد من الفظاظة).

«هل تعلم أنني أرى في كل مكان لافتة: إحذر خطر الموت!» (عن موقفها بعد المضاجعة).

«لماذا كان لا بدَّ لي من أن أعرف هذا سابقاً، كان هناك شيء أهم

للإفـضـاء بـه، وقلت لـه إنني أدعـى غـروتن وليـس كـمـا هو على الورق بفايفر» (ليني لمارغريت بخصوص حديث مع بوريس).

(أسفاً أنَّ الأمريكان) «لم يتقدموا».

«ليس هناك إلاً ٨٠، ٩٠ كـيلومـتـراً ـ لماذا يسـتـغرق هذا كل هذا الوقت؟» (انظر أعلاه).

«لماذا لا يـأتون في أثناء النهـار، مـتى يعـودون في أثناء النهـار، ولماذا لا يتـقـدم الأمريكان، لماذا يسـتـغـرقون كل هذا الوقت حـتى يصلوا إلى هنا، والمسافة ليست بعيـدة إلى هذا الحد؟» (عن الغارات الأمريكية بالقنابل والتقدم البطيء جداً بالنسبة إلى ليني).

«شـهـر السـبـحة المجـيـدة» (إشـارة إلى تشريـن الأول سنة ٤٤ الذي حدثت فيه غارات نهارية كبيرة سمحت لليني بمضاجعة بوريس)

«كلاهما شاعر. إذا ما سألتني، كلاهما» (عن بوريس وإيرهارد).

«أخيراً، أخيراً، كم من الوقت إحتاجوا إليه» (مـرة أخرى عن تقدّم الأمريكان).

(المضاجعة) «استبعدت» (ليني وهي حبلى).

كان سيطيب للمؤلف جداً أن يغفل حدثاً عابراً فقط في حياة ليني حكى عنه تلميحاً بعض الأشخاص الذين هم مصدر المعلومات: ألا وهو نشاط ليني السياسي القصير بعد سنة ٤٥. وفيما يتعلق بهذه النقطة فلا تخذله قدرته التكهنية، إنّما يخذله الإيمان فقط. فهل عليه أن يصدّق رغم هذا ما يروى رواية محتملة؟ إن موضوع ورطة المؤلف المفضّل إلى هذا الحدّ لدى المحترفين وغير المحترفين يدوّن هنا على الورق في كامل شدّته!

ثبت بشهادة هانز وغريته هيلتسن اللذين يشاركان ليني بضع سويعات أمام التلفزيون بأنّ ليني مهتمة سياسياً، شهدا على ذلك بطريقة قد لا تحمل كاتباً بالعدل ولا مراسل جريدة على أن يمانع في أيّ تصديق. «ليس أحبَّ إلى ليني» من أن ترى (وهذا ما أكده بقوة الزوجان هيلتسن بعد نحو سنتين من الجلوس المشترك أمام تلفزيون ليني غير الملون) «هذه الوجوه للناس الذين يتكلمون هنا على السياسة» (من أقوال ليني المباشرة النادرة!) فحكمها على بارتسيل وكيسينغر وشتراوس لا يمكن نقله هنا: فقد يكلّف المؤلف الكثير الكثير. ولا يستطيع القيام بذلك ويجد نفسه، فيما يتعلق بهؤلاء السادة الثلاثة، في موقف مماثل لموقف السيّد الكبير المقام. فهو، أي المؤلف، قد يلجأ إلى واجبه، واجب المراسل الصحفي وفي إمكانه أن يستشهد بليني وأن

يحمّلها عبء الإثبات ويسحبها إلى المحكمة، ومع أنه واثق أنها لن تتخلّى عنه ولا عن الزوجين هيلتسن، إلاً أنه يفضّل أن يلمّح هنا لا أن يستشهد. لسبب بسيط: إنه يكره أن يرى ليني في ساحة القضاء. ويرى أنَّ لدى ليني من الصعوبات ما يكفيها: فإبنها الوحيد المحبوب في السجن، ومنذ وقت قريب بات معزفها في خطر الحجز عليه؛ خوفها أو حالتها العصبية ـ ارتيابها وعدم تأكّدها مما إذا كانت «حملت» من التركي (ليني نقلاً عن هانز وغريته هيلتسن)؛ بهذا يثبت أحد التفاصيل البيولوجية: أنه ما زال يحدث لها على غرار النساء؛ خطر الخنق بالغاز الذي لا علم لأحد به ويجهل ما إذا كان هذا ممكناً تنفيذه ـ تمَّ الإعراب عن ذلك من قبل موظف متقاعد من الجوار ـ يمكن أن تثبت عليه بعض محاولات التقرّب غير المجدية (مضايقات من أغلظ الأنواع في الدهليز المعتم وطبطبات في المخبز وعملية تعرٍّ في الدهليز المعتم أيضاً)؛ دغل مجزٍ واقع وحجزٍ وشيك الوقوع، دغل «قد لا يقلل المرء من عدد أشجاره بعض الشيء بسكين أدغال» (لوته هويزر). هل كان عليها أن تكرّر أمام القضاء ملاحظاتها اللطيفة في دقتها (من الناحية الأدبية) والتي لها وقع الصاعقة، وذلك عن بارتسيل وكيسينغر وشتراوس؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلاّ على النحو التالي: لا، لا، ومرة أخرى.

أما أنه لم يعد هناك الآن لف ولا دوران: أجل، «اشتركت» ليني في الحزب الشوعي الألماني (لوته هويزر، مارغريت، هويزر الأب، ماريا فان دورن وموظف سابق ذو منصب قيادي في هذا الحزب تطابق في الكلام وعلى وتيرة واحدة!) وما من شك أنَّ المرء يعرف اللافتات التي كتبت عليها «بالاشترك مع...»؛ وبذلك يُعرَّض على الأغلب بكبار

الشخصيات التي لن تظهر أبداً فيما بعد ولم يُلْقَ عليها سؤال أيضاً أو لبّت دعوة، ولا يعتبرها المرء إلاّ جذابة. هل يعدُّ المرء ليني جذابة؟ الظاهر نعم، ولو خطأً. والموظف السابق الذي يدير في موقع مناسب في المدينة كشكاً للجرائد رائجاً وينعت نفسه أنه من جيل «٦٨» هذا الإنسان اللطيف المعشر ـ على أية حال في نظر المؤلف ـ في نحو منتصف العقد السادس، بدا مستسلماً، إنْ لم نقل شديد التبرّم. طلب منه إيضاح هذا الشيء المبهم المختصر «جيل ٦٨» بعض الشيء، فاكتفى بالقول: «منذ سنة ٦٨ لم أعد أشترك. لا، أنا لا». فالحديث المنقول فيما يلي من البداية إلى النهاية، حديث هذا الشخص الذي يعطي معلومات ويودّ أن يبقى مجهولاً مثل السيّد الكبير المقام قُدِّم على نحو غير متّصل، ذلك لأنَّ الشخص قوطع المرة تلو المرة من قبل مشتري الجرائد. وعلى هذا النحو بات المؤلف مطّلعاً على سياسة التسويق الذاتية جداً لابن جيل «٦٨» الذي أجاب في أقل من نصف ساعة أربع عشرة أو خمس عشرة مرة على الأقل عند الاستعلام عن انتاج أدب إباحي خلاعي، إجابة آمرة، إن لم تكن متجهّمة برمة: «لا يباع هنا». حتى المجلات، لسان حال الصحافة، غير المريبة نسبياً مثل الصحف التي تعتمد على الإثارة والصحف اليومية الجادّة وغير الجادة، وكذلك أيضاً الصحف المصورة ذات الطابع شبه البريء والمتوسط البراءة ـ لم تُعطَ، كما بدا للمؤلف، من قبل ابن جيل «٦٨» إلاَّ على كرهٍ منه. وتمَّ الرد بدقة من قبل الشخص المذكور، مصدر المعلومات، على نبوءات حذرة للمؤلف أنه نظراً إلى سياسة بيع كهذه يستشعر خوفاً على ريعية ومردودية الكشك. «حالما أحصل على معاش إصابة عمل سأغلق هذا الحبس على كل حال.

وإلى الآن لم أحصل إلاً على تعويض ضئيل، أشعروني عند الموافقة عليه أنه كان أحبَّ إلى هؤلاء لو أني لم أكن من الناجين. كان هذا سيصبح أيضاً أرخص. لا، لا أبيع أنا وساخة الاستسلام والخضوع المدنية هذه. إمبريالية الأدب الإباحي الخلاعي هذه، ولو أنَّ هناك مساعي لإجباري على ذلك، وبخاصة أن «كشكاً في مثل هذه الموقع الضخم ملزمٌ بأن يهيء لمشروع المشترين منه عرضاً مناسباً للسوق» (اقتباس من عريضة أحد أعضاء المجلس البلدي للحزب الديمقراطي المسيحي). لا، ليس معي. إذا كان لهم أن يبيعوا أخيراً هذه الوساخة حيث يكون مكانها: على أبواب الكنائس، بين صحفهم الاكليروسية المذهلة وأعمالهم الخرقاء المنافقة المتعلقة بالعفّة. لا، ليس معي، سواءُ فلان أم علاّن ـ حسن، فإذا كانوا سيستمرون في مقاطعتي وسيظنون بي الظنون بصورة عامة فأنا سأستمر في مزاولة رقابتي. فلا أبيع قذارة خضوعهم المدنيّة حتى لو شنقوني». ربما كان ضرورياً إتمام القول إن الشخص الذي يعطي معلومات كثير التدخين، له بشرة وعينا مريض بالكبد. ذو شعر أشيب كث ويضع نظارة ذات انكسار بصري عالٍ، ذو يدين ترتعشان وفي وجهه تعبير احتقار مركّز جداً بحيث إنَّ المؤلف قد لا يسمح لنفسه حتى ولا في عناء بالتوهم بأن يكون مستبعداً عن هذا الاحتقار. «كان يمكن أن أعرف حين أخرجوا فيرنر إلزه كريمر من المعسكر هم فاشيّو فيشي، وسلّموه إلى النازيين كما علمت فيما بعد. لا أحد يستطيع أن يقدّر الشيء الذي شعرنا به خلال السنة ونصف السنة التي سرى فيها مفعول حلف هتلر ـ ستالين! ثمَّ أعدموا فيرنر رمياً بالرصاص. أوهمونا خفيةً أنه خائن فاشيّ وللتخلص من الخونة الفاشيين فلا حرج أن يستخدم المرء الفاشيين. مثل

هذه السخافات صدقتها أنا حتى سنة ١٩٦٧. ‹استأصلوا شأفة الفاشيين في صفوفكم بأن تشوا بهم عند الفاشيين بصفتهم مخبرين›. إذاً، هنا تبقى أيدي البروليتاريا المحلية طاهرة على الأقل ونظيفة من ذلك. حسن. انتهى الأمر معي. لا. كان ينبغي أن أستمع إلى الزه سنة ١٩٤٥. لم أفعل، تابعت العمل ثلاثاً وعشرين سنة على نحو مشروع وغير مشروع، وتركتهم يشون بي ويلقون القبض عليَّ ويسترقون السمع إليّ ويسخرون مني. الآن وحين أغلق المحل هنا سأسافر إلى إيطاليا حيث لا يزال هناك بعض الناس ونفرٌ من الناس الذينَ ليسوا متذللين متملّقين مثلنا نحن. آه والشيء المتعلق بالفتاة بفايفر أو غروتن، كان هذا مؤلماً لي حتى في ذلك الحين، حيث كنت لا أزال عقائدياً متعصباً لعقيدته على نحو يماثل سبعة عشر كاردينالاً معاً. كنّا قد علمنا أنه كان لها في ظروف خطيرة على الحياة علاقة غرامية مع جندي من جنود الجيش الأحمر وأنها كانت قد أوصلت إليه مواد غذائية وخرائط وجرائد وتقارير عن الوضع، لا بل إنها أنجبت منه طفلاً باسم روسي. وأردنا أن نحوّلها إلى فدائية، وهل تدري ماذا كان قد علّمها جندي الجيش الأحمر هذا؟ الصلاة! كان جنوناً! الحق أنّها كانت جذابة، فتاة مستهترة بديعة الحسن، وكان لهذا تأثيره الحسن في حفلاتنا البائسة التعيسة، التي كان علينا أن نحارب فيها الجنون الذي كانوا قد سببوه في بروسيا وغيرها عن طريق جيش اشتراكي كما يقال. ولو أني أصغيت إلى إلزه التي قالت لي: ‹فريتس، اعترف لك أنَّ الحال لم تعد ممكنة، ليس على هذا النحو. هذا ليس في الحقيقة الشيء الذي أردناه سنة ١٩٢٨ حين كان على المرء أن يؤازر تيدي تيلمان لأسباب سياسية. وأعترف لك أخيراً أن

هيندينبورغ فاز أيضاً في سنة ٤٥. بالله عليكم دعوا هذه الفتاة اللطيفة في هدوء، فأنتم لا تسبّبون لها إلاَّ المتاعب بدون أن تفيدوا أنفسكم›. أجل، لكن هذه لم تكن إلاّ عاملة، عاملة حقيقية ولو أنها من طبقة وسطى منحلّة. على أية حال، وفقنا عدة مرات بأن تناولت بيدها العلم الأحمر وطافت معنا في المدينة، مع أنه كان علينا أن نجعلها سكرى تقريباً لأنها كانت حيية خجولة إلى حدّ المرض، وجلست عدة مرات بعد ذلك أيضاً على منصة الخطابة للزينة حين كنت أتحدث. وما زلت أخجل حتى اليوم عندما أتذكر ذلك». (هل كان هذا الإسمرار الزائد الواضح الجلي لبشرة فريتس نوعاً من احمرار الوجه؟ ولسوف يكون مسموحاً للمرء أن يسأل. وبالمناسبة فإنَّ اسم فريتس مختلق، والمؤلف يجهل الاسم الحقيقي لفريتس). «كانت بروليتارية بشكل رائع جداً ـ عاجزة كل العجزعن أن تتبنى التفكير البورجوازي في الربح أو أن تطبّقه ـ، لكن إلزه كانت على حق: لقد آذيناها وألحقنا بها ضرراً ولم ننفع أنفسنا، إذ أنَّ المرة أو المرتين اللتين أجابت فيهما المراسلين إجابة حقيقية حين سألوها عن صاحبها بوريس وعما تعلّمت منه ‹تحت الأرض›، أجابت: ‹الصلاة›. كانت الكلمة الوحيدة التي تلفّظت بها. وكان هذا بطبيعة الحال لقمة سائغة للصحافة الرجعية التي أبت إلاّ أن تخصّص لنا عنواناً: ‹تعلّموا الصلاة مع الحزب الشيوعي الألماني. شقراء ديلاكروا تثبت أنها حصان طروادة›. وبلا ضرورة صارت في الحقيقة في وقت من الأوقات عضواً في الحزب وكانت قد نسيت أن تتركه وفي الحال جاءتها زيارة إلى البيت حين ألغي حزبنا، ثم عاندت و «نكاية فيهم»، كما قالت، لن تتركه، وحين سألتها ذات مرة لماذا كانت ستشارك فعلاً معنا، قالت:

‹لأنَّ الاتحاد السوفييتي أنجب ناساً على شاكلة بوريس›. كان يمكن أن يجنَّ المرء إن فكّر أنها كانت تنتمي إليها ـ ومن ثمَّ، أجل، من ثمّ فإنَّ كلَّ شيء ينقلب في رأس امرىء ما لأنه يدرك لماذا تفلس الحركة العالمية البروليتارية في أوربا الغربية إفلاساً كلياً. آه، دعنا من هذا. سأمضي إلى إيطاليا، ويحزّ في نفسي أن أسمع أنَّ حالها سيئة جداً. ومن المحقّق أنّها لن تذكرني بخير، وإلاَّ كنت رجوتك أن تبلّغها سلامي. كان عليَّ أن أصغي إلى إلزه وإلي غروتن الشيخ أبي الفتاة الذي اكتفى بالضحك، كان يضحك ويهزّ الرأس حين تحركت ابنته ليني بالراية الحمراء».

ربّما كان ضرورياً الإكمال أيضاً أنَّ فريتس والمؤلف قدّم كل منهما للآخر بالتناوب سجائر، على حين باع فريتس باحتقار شبه مفعم باللذة الجرائد البورجوازية المحتقرة من قبله أيّما احتقار. وقد فعل هذا بحركات يد وإيماءة ربما كان يمكن أن يحسّها بائع جرائد حساس بأنها مهينة. وتعليق فريتس: «ها إنهم يذهبون إلى هناك ويقرؤون هذا الكذب، هذه الخربشات الإقطاعية المبهرجة المبتذلة التي تستشف وراء أصوات المؤلفين، عندما تقرأها، التفضّل الضروري. ويلتهمون الجنس والحشيش، كما التهموا في السابق قذارات القساوسة رجال الدين، ويلبسون القصير والطويل في أدب جمّ كما لبسته في السابق راهباتهم المتبتلات. سأسدي إليك نصيحة ناصح: إذا انتخبت بارتسيل أو كوبلر حصلت عندئذ على التفاهة الليبرالية من مصدرها على الأقل. أنا، أنا أتعلّم لغة البشر، الإيطالية، وأنشر الشعار: الحشيش أفيون للشعب).

* * *

إنَّ المؤلف الذي أنزاح عن كاهله عبءٌ كبير لأنه أوضح هذه المرحلة المؤلمة في حياة ليني نوعاً ما، أخفق لدى أشخاص آخرين موجودين بالفعل، هم مصدر معلومات، عند باب بيوتهم أو منازلهم حيث استقبل بالسؤال: «هل أنت مع أو ضد ٦٨؟» بما أنَّ المؤلف تتخلّله شتى أنواع الدوافع وتتخاطفه شتى أنواع الحساسيات، فهم، على أية حال ليس من المرة الأولى، لماذا كان عليه أن يقرّر موقفه المؤيد أو المعارض لسنة كاملة من القرن العشرين، شغل فكره طويلاً بهذه السنة وأخيراً، وكما يعترف بصراحة، استقرَّ بدافع الحاجة الفطرية إلى الرفض على الجواب: «معارض» ـ وبهذا كان قد أغلق في وجهه وعلى نفسه تلك الأبواب نهائياً. إلاَّ أنه تأتّى له أن يجد بعد بحثٍ طويل في أحد الأرشيفات تلك الجريدة التي كان فريتس قد استشهد بها في صدد ليني. كانت جريدة مسيحية سنة ١٩٤٦. وقد تمَّ التحقق من صحة اقتباس فريتس بأنه «مطابق حرفياً» (المؤلف). وفضلاً عن ذلك فإنَّ شيئين إثنين كانا ممتعين وبذلك ربما كانا يستحقان التبليغ: نص المقال نفسه وصورة في الجريدة تظهر منصّة خطابية مزيّنة بأعلام للحزب الشيوعي الألماني وشعاراته وعلى المنّصة يستطيع المرء أن يرى فريتس في وضعيّة متكلفة بليغة مدّربة ـ شاباً بصورة مذهلة: في سنّ تتراوح بين منتصف ونهاية العشرين، ولا يزال بدون نظارة. وفي الخلفية يرى المرء ليني التي ترفع بيرقاً بشعارات سوفييتية مائلاً فوق رأس فريتس، إنها وضعية تذكّر المؤلف بشكل قوي جداً بدور الأعلام والرايات في احتفالات طقسيّة معيّنة تأمر بتنكيس الأعلام في أشدّ اللحظات رهبة. وقد أحدثت ليني بهذه الصورة في المؤلف نوعية من التأثيرات: لطيفة خفيفة الظل وفي

غير موضعها، إن لم نقل الشيء الذي لا يمكن قوله بسهولة إنها كاذبة. وليس أحبَّ إلى المؤلف من أن يركّز على هذه الصورة كامل قدرته التكهنيّة بواسطة عدسة يمكن اختراعها في وقت من الأوقات لكي تنقّي ليني من ذلك. ولحسن الحظ تظهر في صورة الجريدة هذه المنسوخة نسخاً رديئاً، إنما لا تستبين إلاّ لمطّلعين، ويبقى الأمل في ألاّ تكون هناك في أي أرشيف آخر النسخة السلبية لهذه الصورة. ولربما كان ضرورياً نقل المقال هنا حرفياً. تحت الشيء الذي كتب في أسفل الصورة وتمّ الاستشهاد به جاء كعنوان للنص: «إمرأة شابة تربّت تربية مسيحية تعلّمت الصلاة من همجٍ حمر. أمر يكاد لا يصدّق، مع أنه مؤكد، أن تدّعي إمرأة شابة لا أعرف إن كنت سأنعتها على الوجه الصحيح بالآنسة غروتن أو بالسيدة بفايفر، أنها تعلمت الصلاة مرة أخرى من أحد جنود الجيش الأحمر. إنّها أم لطفل غير شرعي وتسمي أباه بزهو وخيلاء جندياً سوفييتياً بدأت معه علاقة جنسية غير شرعية وغير مشروعة، بعد انقضاء سنتين على تضحية بفايفر المتزوج منها بحياته في وطن الزوج غير الشرعي. ولا تخجل من أن تبثَّ دعاية لستالين. ليس هناك من داعٍ لأن يحذّر قراؤنا من مثل هذا الجنون. لكن ربما جاز السؤال عمّا إذا لم يكن على المرء أن يدخل ظواهر معيّنة للبساطة الزائفة في باب الإجرامية السياسية. ونحن نعرف أين نتعلم الصلاة: في درس الديانة وفي الكنيسة؛ كما نعرف أيضاً من أجل ماذا نصلّي: من أجل غرب مسيحي وربما كان على قرّاء صاروا متأملين أن يصلّوا فيما بينهم بين الحين والحين من أجل الآنسة غروتن المسماة أيضاً السيدة بفايفر. إنها في حاجة إلى ذلك. وأغلب الظن أن الدكتور أديناور، محافظ المدينة لوقت

طويل والذي يصلّي، لديه على كلّ حال قوة إقناع من أجلنا أكثر مما قد يختبىء في خنصر هذه المرأة (الآنسة؟) المضلّلة وربما المختلّة العقل التي يقال إنها سليلة بيت طيّب كريم لكنه افتقر من كل الوجوه».

يأمل المؤلف بإلحاح أن تكون ليني أنذاك قارئة صحف بشكل متقطّع كما هي عليه اليوم. وهو ـ المؤلف ـ لن يراها إلاّ كارهاً محقّرة مجروحة المشاعر في هذا الأسلوب المسيحي.

* * *

في أثناء ذلك كان في الإمكان التحقق أيضاً من جزئية مهمة: قائمة الشُرُطُ التي وضعتها ماريا فان دورن فيما مضى من زمان عندما خطب آل بفايفر ليني للويس من آل غروتن، وقد اكتشفتها غريتة هيلتسن على لوح الباب ـ والحق أن كلمة شرف وردت في حينها ستين مرة. وبهذا ثبت أمران: ماريا فان دورن شخص موثوق به ويركن إليه في نقل المعلومات و: لوح باب ليني لم يدهن قط منذ ثلاثين سنة.

* * *

كان في الإمكان أيضاً التحقق من صحة الكلمة الغريبة «كريستيلير»، مما اقتضى هذا بعض الأسباب التي (يمكن وصفها بأنها زائدة عن اللزوم). وقد قام المؤلف ببعض محاولات الإيضاح (الزائدة عن اللزوم) لدى قساوسة كاثوليك أصغر ذلك لأنّ هذه الكلمة التي تنمّ عن إجراءات صحية معيّنة، كانت ربطتها له الجدة كومّر الموثوق بها جداً بعلاقة كنسية. النتيجة: سلبي. مكالمات تلفونيّة مختلفة لدى مكاتب

رعاية دينية أحسوا (بلا حقّ!) أنهم موضع هزء وسخرية وسمحوا مترددين بتوضيح العلاقة بحذر شديد جداً. لكنهم أظهروا عدم اهتمامهم المطلق بإيضاح علاقات لغوية وعلّقوا السمّاعة أو وضعوا السماعة ببساطة ولم يسبّبوا للمؤلف إلاً الضرر وضياع الوقت، إلى أن خطر بباله خاطر كان يمكن أن يخطر بباله سابقاً ذلك لأنَّ الكلمة كانت قد ترامت إليه من مثلث جغرافي يشمل فيربن ـ تولتسم ـ لوسيميش: سأل ماريا فان دورن التي اعتبرته، بدون أن تتردّد لحظة واحدة، تعبيراً لهجياً عن «التعاليم المسيحية»، طقس عبادة «كان قد اعتبر في الحقيقة نوعاً من درس الديانة الموسّع للأطفال، لكننا نحن البالغين كنا نذهب إليه أيضاً بين الحين والآخر لنجدّد معلوماتنا؛ إلاً أنه كان يجري في أغلب الأحيان في وقت كنّا ننام فيه في البيت بعد وجبة غداء عامرة: في نحو الثالثة عصر الأحد» (ماريا فان دورن). وأغلب الظن أنَّ للمرء هنا علاقة بحالة كاثوليكية ذات طبيعة تتشابه مع «مدرسة الأحد» الإنجيلية.

* * *

إنَّ المؤلف (الذي تأخر على كل حال بتحرّياته من جراء الملاكمة بين كلاي وفريزر) قد تعرّض لعذاب ضمير له علاقته فقط بتمويل أبحاثه وضرر إدارة الشؤون المالية المرتبط بذلك؛ هل كان عليه أن يجازف بالسفر إلى روما لكي يبحث في أرشيف مركز الجمعيات الديرية الدينية عن مصير هاروسبيكا؟ واللقاءات مع كلا اليسوعيين في فرايبورغ وروما، ولئن كانت لها قيمتها من الناحية الإنسانية، إلاً أنها لم تكن مثمرة من وجهة نظر المخبر المقررّ، فإنها كانت بدون شك استثمارات

خاطئة بما فيها تكاليف الهاتف والبرقيات ورسوم البريد ونفقات السفر؛ لم تدرَّ عليه بأكثر من أيقونة صغيرة بينما مارغريت العاملة بانتظام عملاً ناقصاً إلى هذا الحد من حيث الافراز الخارجي والغدد الصمّ على حدّ سواء والتي كان عليه أن يزورها بين الحين والحين وقد كلّفته بعض الزهور، وزجاجة صغيرة متواضعة الحجم مليئة بمشروب الجن وبعض السجائر بين وقت وآخر، حتى إنّه لم يستقلّ سيارة أجرة ـ ذلك لأنه كان يتوجه في معظم الأحيان إلى هناك مشياً على الأقدام لأسباب صحية ـ، فإنها كانت قد أفادته ببعض التفاصيل المفاجئة عن هاينريش غروتن. فضلاً عن ذلك كان لا بدَّ من مراعاة اعتبارات لها علاقة ليس فقط بالسياسة الضريبية، بل هي اعتبارات إنسانية أيضاً؛ ألن يضع الراهبة اللطيفة سيسيليا في مأزق، ويحرج الراهبة سابينتيا ويجلب لألفريد شويكنز، ولو أنه كان على جانب ضئيل من خفة الظل، نقلاً إجبارياً مجدداً؟

ولكي يستطيع أن ينعم التفكير بهدوء بكل هذه المشاكل سافر باديء ذي بدء إلى الراين الأسفل واجتاز في مقصورة من الدرجة الثانية في قطار بلا عربة طعام وبدون تقديم مشروب، مكان الحج كيفيلير واجتاز وطن سيغفريد وبُعيد ذلك المدينة التي فقد فيها لوهينْغرين أعصابه، ومن هناك تابع سيره بسيارة أجرة مسافة خمسة كيلومترات ماراً بموطن يوسف بويز، إلى قرية بدت هولندية إلى غير حدّ تقريباً. إنَّ المؤلف الذي أجهدته هذه السفرة المزعجة التي استغرقت نحو ثلاث ساعات وأغضبته بعض الشيء، قد عزم في باديء الأمر على أن ينعش نفسه بمنعش بسيط تناوله عند كشك لبيع البطاطا المحمّرة حيث زودته

إمرأة شقراء توحي باللطافة وخفة الظل بالبطاطا المحمرة والمايونيز والكفتة (ساخنة) بلطف ما بعده لطف وأرسلته بعد ذلك لتناول القهوة إلى مطعم مقابل. كان يوماً كثير الضباب، حجرة غسيل، وبدا واضحاً أنَّ سيغفريد لم يسر على أيامه على الطريق إلى فورمس راكباً عبر نيفلهايم فحسب، بل إنَّه كان قد جاء أيضاً من الطريق نفسه. كان الجو في المطعم دافئاً وهادئاً؛ وقد قام على خدمة رجلين نعسانين بيراندي الحبوب صاحب مطعم نعسان دفع إلى المؤلف أيضاً كأساً كبيرة من براندي الحبوب قائلاً: «هذا هو الأفضل في هذا الطقس فيزيل الإحساس بالبرد وعلاوة على ذلك: فهو ضروري بعد البطاطا المحمّرة والمايونيز». ثم تابع كلامه هادئاً مع كلا ضيفيه بلهجة كانت لها رنّة برينتن، حلقية أيضاً، باتافية [هولندية] بصورة خاصة. ومع أنَّ المؤلف لم يكن يبعد عن مركز انطلاقه إلاَّ نحو مئة كيلومتر فقد خيّل إليه أنه بالقياس إلى ذلك من أبناء بلدان البحر المتوسط. وقد وافق هواه حب الاستطلاع الضئيل لكلا الرجلين النعسانين وصاحب المطعم الذي دفع إليه بالكأس الثانية من على الطاولة؛ بدا أنَّ الموضوع الأساسي للحديث كان «دي كيرك»، سواء بالمعنى العياني المعماري التنظيمي أم بالمعنى المجرد والميتافيزيقي تقريباً؛ كثير من هزّ الرأس وبعض الهمهمات والدمدمات، ثم شيء عن بابن حيث إنه لا يمكن أن يكون المقصود بذلك أبداً مستشار ألمانيا المزعج؛ وأغلب الظن أنه ما كان سيستحق الذكر عند هؤلاء الرجال الوقورين. أيحتمل أن يكون أحد هؤلاء الذين لم يتكلّموا استثناءً، مع أنَّ ألمانيين في حانة، عن الحرب، كان قد عرف ألفريد بولهورست؟ وأغلب الظن أنَّ ثلاثتهم، ومن المحتمل أو من المؤكد إلى حدّ ما أنهم

كانوا قد جلسوا معاً على المقعد المدرسي، كانوا قد سبحوا معه حديثاً يوم السبت وذهبوا بشعر مسرّح على بلل إلى الاعتراف، ويوم الأحد إلى القداس وبعد ظهر الأحد إلى ذلك الدرس التعليمي الذي يسمّيه المرء في الجنوب كريستيلير، وكانوا قد تزحلقوا في بانتينين على ملاعب التزحلق على الجليد وحجّوا بين الحين والآخر إلى كيفيلير وكانوا قد هرّبوا سجائر من هولندة. وبترتيب الأعمار لا بدَّ أنّهم ويحتمل أنّهم عرفوه، ذلك الذي كان قد مات في مستشفى مارغريت العسكري في نهاية ١٩٤٤ بعد بتر مزدوج وبطاقة الجندية الخاصة به كانت قد استعملت في غير موضعها لمنح جندي سوفييتي ـ لفترة قصيرة على كل حال ـ إثبات شخصية. وقد رفض المؤلف كأس البراندي الثالثة وطلب قهوة لكي لا يتخدّر من النعاس اللذيذ. هل كان لوهينغرين قد فقد أعصابه هنا في نيفلهايم في يوم شديد الضباب وذلك عندما سألته إلزا فعلاً؛ أهنا في مكان ما تمَّ إمتطاء التمُّ الذي رضيت عنه الأجيال اللاحقة لكي يستعمل علامة تجارية للسمن النباتي الصناعي؟ كانت القهوة ممتازة، وقد ناولتها إلى الداخل إمرأةٌ لم يسمح لمؤلف أن يرى إلاّ ذراعيها المكتنزين الأبيضين الضاربين إلى الحمرة، وصاحب الحانة تفضّل عليه بكومة من السكر على طبق الفنجان، وفي الإبريق اللازم لم يكن حليب، بل كان قشدة. كيرك وبابن، وشيء من السخط في الأصوات التي تزداد خفوتاً. لماذا، لماذا لم يولد ألفريد بولهورست ثلاثة كيلومترات غرباً، ولو أنَّ هذا حدث، فأية بطاقة جندية كانت ستسرق مارغريت لبوريس في ذلك اليوم؟

بعد أن كان قد انتعش نوعاً ما، توجه المؤلف في أول الأمر إلى الكنيسة حيث استعمل جدول القتلى دليل عناوين؛ كان هناك أربعة

باسم بولهورست، وواحد فقط اسمه ألفريد ـ وألفريد هذا كان هناك ـ في الثانية والعشرين ـ تمَّ التبليغ عن موته في سنة ١٩٤٥، لا في سنة ١٩٤٤. كان هذا محيّراً. ألم يبلّغ عن موت مزدوج هنا أيضاً كما هي الحال عند كايبر الذي كان شلومر قد قتل بالنسبة له مرة ثانية؟ والشمّاس الذي خرج من الموهف والغليون في فمه في غير كلفة للقيام بتحضيرات طقسية ما ـ هل كانت أغطية خضراء بنفسجية أم حمراء تلك التي نشرت هناك في مكان ما؟ ـ فإنه عرف ما العمل. وبما أنَّ المؤلف ليس أهلاً تماماً ليكذب أو يختلق أيُّ شيء (فهو وقف على حقائق بطريقة مزعجة مؤلمة، كما سيكون كل واحد قد فهم في أثناء ذلك)، فإنه غمغم في حيرة عميقة شيئاً عن ألفريد بولهورست الذي ألتقاه ذات مرة في الحرب، وعلى هذا قصّ الشمّاس على الفور باستنكار، وإن لم يكن على نحو مريب، أنَّ «صاحبهم» ألفريد مات إثر حادث في المنجم في أسْرٍ فرنسي ودفن في اللورين؛ وأنَّ اشتراكاً في زينة القبر يسري عليه عن طريق مشتل في سانت آفولد؛ وأنَّ عروسه ـ «فتاة جميلة رقيقة، شقراء حلوة وذكيّة» ـ أصبحت راهبة، وأنَّ والديّ ألفريد لا يزالان إلى هذا اليوم حزينين آسفين لأنه أصيب في ذلك الوقت بالذات لما وضعت الحرب أوزارها. أجل، إنه كان عاملاً، كما يقال، في مصنع السمن النباتي الصناعي، مؤدّباً، هادئاً، جندياً على مضض، وحيثما التقاه المؤلف. ما زال غير ظنآن، إنَّما بطريقة فضولية، نظر الشمّاس الأصلع إلى المؤلف نظرة ملحة إلى هذه الدرجة بحيث إنَّ ذاك استأذن منصرفاً على عجل مسارعاً إلى ثني ركبتيه ثنياً غير متسق؛ ما كان سيصحّح تاريخ موت ألفريد إلاَّ على مضض، وما كان سيخبر أبوي

ألفريد إلاً كارهاً بأن إشتراكهم في زينة القبر جاء في صالح جسد إنسان سوفييتي ورماده وترابه، لا لأنه، أي المؤلف، كان سيضنّ به على ذلك التراب وذلك الرماد ـ لا، ولكن يطيب للمرء أن يعرف أنَّ ذلك الذي يظنه المرء في قبر ما، ملقى أيضاً بالفعل فيه، وبدا هنا أنَّ الأمر في الظاهر ليس كذلك. وكان أزعج ما في الأمر: هو أنَّ الأجهزة الإدارية الألمانية المسؤولة عن الوفيات كانت، كما يظهر، قد أخفقت هنا كلياً. كان هذا محيّراً جداً. وأغلب الظنّ أنه كان قد تمَّ إحداث ما يكفي من الاضطراب في الشمّاس على كل حال.

* * *

لا يصحّ هنا وصف الصعوبة في إيجاد سيارة أجرة، ولا الإقامة الأطول أيضاً في كليفي، ولا حتى العودة التي استغرقت نحو ثلاث ساعات في قطار غير مريح مرَّ من جديد بكسانتين وكيفيلير.

إنَّ مارغريت التي طلب منها معلومات في نفس المساء حلفت «بأغلظ الإيمان «أن ألفريد بولهورست هذا مات بين يديها: أشقر الشعر، كئيباً، طالباً كاهناً، بلا ساقين ـ إلاً أنها وقبل أن تبلّغ عن موته أسرعت إلى مكتب المكتبة الذي أنتهت فيه أوقات الدوام وفتحت بمفتاح مصطنع خزانة ذات وجه لفّاف وسرقت بطاقة الجندية الخاصة به وأخفتها في حقيبتها،. ثم بلّغت بعد ذلك عن موت ألفريد. أجل، حدّثها عن عروسته، عن فتاة شقراء هادئة جميلة، وذكر مسقط رأسه ـ ذلك الذي كان المؤلف قد بحث عنه في خدمة الحقيقة وسط المتاعب والمشقات، ولكنه يحتمل أنه انتسيت، في العجلة، وقبيل نقل المستشفى

العسكري، «الشكليات» التي لا تقصد بها الدفن، وإنّما إبلاغ أقربائه بموته.

لم يبق هنا إلاّ سؤال واحد لكي يطرح: هل أخفقت حقاً الأجهزة الإدارية الألمانيـــة أم أنه كـــان من واجب المؤلف أن يصل إلى أبوي بولهورست المسنين ويصارحهما بالحقيقة عن الجسد الذي يطلبان غرس خلنج أو زهرة الثالوث هناك كل سنة في عيد جميع القديسين ـ وأن يسأل عما إذا لم يلفت نظرهما قط أنَّه توجد هناك بين الحين والآخر باقة سميكة من ورد أحمر تضعه ليني وابنها ليف هناك في زيارات تحدث بين وقت وآخر؛ أم أنَّ المؤلف ربما كان سيجد عند الأبوين بولهورست المسنينّ تلك البطاقة الحمراء المطبوعة مسبقاً والتي أملأها بوريس؛ وعليها كتب يخبر أنّه في صحة وأنه وقع في الأسر الأمريكاني؟ هذه الأسئلة يجب أن تبقى معلقة. وليس في الإمكان توضيح كل شيء. ويعترف المؤلف بصراحة أنه ـ مثل إلزه فون برابانت أو لوهينغرين ـ فقد أعصابه أمام نظرة الإنكار بشكل فضولي لشمّاس من الراين الأسفل أو أقرب إلى أن يكون هولندياً، وليس ببعيد جداً عن نييمغيغن.

* * *

على نحو مفاجىء كان في الإمكان إيضاح، ولو لم يكن إيضاحاً كلياً، لا موت هاروسبيكا، وإنما جزء من ماضيها ولا خططها في المستقبل، إنما الشيء الذي يخطّطه آخرون معها في المستقبل. إنَّ السفرة إلى روما التي عقد المؤلف العزم عليها فقد أثمرت بصورة استثنائية. وفيما يتعلّق بروما فإنَّ المؤلف يحيل إلى النشرات والبرامج السياحية

وأدلة الأسفار الملائمة، وإلى الأدب الألماني عن إيطاليا الغزير المادة الذي لا ينوي أن يضيف إليه أيَّ شيء؛ ولا يودّ إلاَّ أن يعترف أنه، حتى في روما، فهم أمنيات فريتس، وأنه سُمِح له أن يدرس الفرق بين دير آباء يسوعيين ودير راهبات؛ وأنه استقبل من قبل راهبة هي أقرب ما تكون إلى الحلاوة والسحر، في الواحدة والأربعين على أقصى تقدير، لم تبتسم ابتسامة التعجرف والاستخفاف، بل ابتسامة الطيبة والتعقّل والحكمة، حين ترامى إليها شيءٌ من الزلفى من المؤلف عن الراهبات كولومبانوس وبرودينسيا وسيسيليا وسابينسيا. حتى ليني ورد ذكرها، وثبت: أنها كانت معروفة في الإدارة العامة للجمعيات الديرية الواقعة في موقع رائع على تلّة في الشمال الغربي من مدينة روما. وليتصوّر المرء: الناس يعرفون هناك عن ليني! تحت أشجار الصنوبر والنخيل وبين الرخام والنحاس الأصفر، في غرفة باردة ذات أناقة لا يستهان بها وعلى مقاعد جلدية كبيرة وثيرة سوداء من ماركة موريس، وشاي لا يستهان به على المنضدة والسيجارة التي تبعث الدخان على حافة طبق الفنجان وقد انغضّ البصر عنها لا قصداً ولا عن طيبة، بل **فعلاً**، هنا عرفت راهبةٌ جذّابة كانت قدكتبت رسالة الدكتوراة عن فونتانه، وكانت على وشك أن تحصل على الاستاذية ولو في معهد عالٍ للهيئات الديرية برسالة عن غوتفريد بنّ (!!!)، اختصاصيّة في الأدب الألماني، ومثقفة ثقافة عالية في لباس بِسيط (ناسبها على نحو رائع)، حتى هايسينْبوتل لم يكن غريباً عنها ـ **هي** كانت على علم بليني!

على المرء أن يتصوّر هذا: روما! ظلال الصنوبر. جنادب، مراوح تهوية، شاي، كعك الحلوى باللوز، سجائر، وفي نحو السادسة مساء ـ

ومخلوقة تغري جسداً وروحاً على سواء لم تظهر أيضاً ذرة من الارتباك عند ذكر (المركيزة فون أو...)، وعندما أشعل المؤلف السيجارة الثانية بعد أن أطفأ الأولى بلا تردد في طبق الفنجان (من خزف مايسنر المقلّد، لكنه جيّد التقليد)، فإذا بها تهمس بنبرة خشنة في صوتها: «اللعنة، أعطني أيضاً واحدة، فتبغ فيرجينيا هذا لا أستطيع أن أقاوم رائحته» - وابتعلت الدخان بطريقة لا تستحق إلاّ تعبير «خاطيء»، ثم تابعت همسها، أنّما في صوت متآمر مناسب: «حين تأتي الراهبة صوفيا فهي ضالّتك». هذه المخلوقة، هنا، في مركز العالم، في أعماق قلب كل الكاثوليكية، هي عرفت ليني، ليس فقط باسم غروتن، بل باسم بفايفر إيضاً، وهي، هذه المخلوقة السماوية نبّشت بموضوعية العالم علبة خضراء من ورق مقوّى، حجمها من قياس أ/٤، وارتفاعها نحو عشرة سنتيمترات، وحكت، وهي لا تستعين بأوراق إفرادية ومجموعات الأوراق إلا بين وقت وآخر كدعم للذاكرة، عن «الراهبة راحيل ماريا غينسبورغ، من البلطيق؛ ولدت في سنة ١٨٩١ بالقرب من ريغا ونالت الشهادة الثانوية في سنة ١٩٠٨ في مدينة كونيكسبيرغ؛ درست في برلين وغوتينغن وهايدلبيرغ، وهناك أيضاً نالت إجازة الدكتوراة في البيولوجيا سنة ١٩١٤. وفي الحرب العالمية سجنت غير مرّة باعتبارها إشتراكية محبّة للسلم من أصل يهودي. في ١٩١٨ رسالة دكتوراة عن بدايات علم الغدد الصم عند كلود بيرنارد، دراسة كان صعباً وضعها في مكان معيّن ذلك لأنه كان لها أبعاد طبيّة ولاهوتية وفلسفية وأخلاقية، إلاّ أنه في نهاية المطاف قبلت من قبل اختصاصي في الأمراض الداخلية بأنها دراسة طبيّة. عملت طبيبة في أحياء عمالية في منطقة الرور.

تغيير الديانة في سنة ١٩٢٢. إلقاء محاضرات في أوساط حركة الشباب. التحاق بالدير على أثر متاعب كبيرة لا يمكن أن تعزى إلى تعاليمها المادية الزائفة بقدر ما تعزى إلى عمرها. وعلى كل حال كان عمرها سنة ١٩٣٢ إحدى وأربعين سنة. وبتعبير مهذّب فإنها لم تعش حياة أفلاطونية بكليّتها. شفاعة من قبل كاردينال. التحاق بالدير، منع من التدريس بعد نصف سنة. والآن» ـ هنا تناولت الراهبة الجميلة كليمنتينا من غير كلفة علبة سجائر المؤلف و «سحبت سيجارة» (المؤلف) ـ «الباقي تعرفه أنت بعض الشيء. عليَّ أنْ أصحّح الانطباع الممكن أنَّ المرء أرهبها هنا في دير غيرسيلين. على العكس: خبّأها المرء. كان قد بُلِّغ عنها أنها (هاربة فارة)، وصلة الآنسة غروتن أو السيدة بفايفر صلة خيرية، ويحتمل أيضاً أن تكون صلة شذوذ جنسي على نحو خفيف، اهتمامها كان في الحقيقة خطراً على الحياة بالنسبة لراهبة غينسبورغ وللدير وللآنسة غروتن. كما أنَّ البستاني شويكنز تصرّف أيضاً إلى أقصى حدّ تصرّفاً طائشاً حين سمح للسيدة بفايفر بالدخول. على كل حال، قد مضى هذا وانتهى ومرَّ بسلام ولو أنه كان مؤلماً، ولو بمرارة متبادلة، ولأنني اشترط لديك على الأقل تلميحاً إلى فهم ديالكتيكي للدوافع، ولا داعي لي لأن أشرح لك لماذا يجب أن يخبيء المرء في ظروف مماثلة لمعسكرات الإعتقال شخصاً ودَّ المرء أن يحميه من معسكرات الإعتقال. كان الأمر قاسياً، ولكن أما كان التخلّي عنها سيكون أقسى؟ لم تكن محبوبة، كانت هناك ألوان من العنت والمضايقات، وكان هناك شماتة، دائماً بشكل متبادل، إذ أنها كانت إنساناً عنيداً، وإذاً: باختصار. الآن يأتي الشيء الفظيع. هل ستصدّقني

إن قلت لك إنَّ الهيئة الديرية لا يهمها أدنى اهتمام أن تخلق مغبوطين أو قديسين وأنها بحكم بعض ـ بعض الظواهر التي تود لو تقمعها، تكاد أن تكون مدفوعة إلى أن تسير على طريق هو كل شيء إلا أن يكون شعبياً؟ هل ستصدقني؟» إنَّ صيغة السؤال بالمستقبل المطبقة على فعل يصدق بدت للمؤلف في هذا السياق قبيحة جداً وقد تفوّهت بها اختصاصية في الأدب الألماني من هذه المرتبة، راهبة تبتلع دخان سيجارة فيرجينيا على نحو (خاطيء يشوبه الأثم)، ومن المؤكد أنها كلّما نظرت في المرآة رأت بعين الرضا والإعجاب الخطَّ الكلاسيكي لحاجبيها الأسودين الشديدي الرقة ونوع غطاء رأسها المناسب، والخطّ المغري جداً لفمها الكبير الظاهرة شهوانيته، وأنّها كانت على وعي كافٍ لتعرف أيضاً تأثير يديها الموفورتين جاذبية؛ ومع أنها كانت تلبس ثياباً محتشمة إلاَّ أنّها «أوْحَت» تحت لباسها الرسمي بأنَّ لها صدراً لا تشوبه شائبة ـ من هذا الفم بدا للمؤلف استعمال صيغة المستقبل الاستفهامية مع فعل يصدّق إستعمالاً غير سليم! إنَّ سؤالاً بسيطاً مرتبطاً بالمستقبل مثل «هل ستتنزه معي؟» «هل ستطلب يدي؟»، جائز في مثل هذه المواقف، أما السؤال عما إذا كان شخص ما **سيصدّق** ما لم يسمعه بعد! كان المؤلف ضعيفاً بما يكفي لأن يوميء إيماءة الموافقة، إضافة إلى ذلك، لأنه كان مطالباً من خلال نظرات نافذة بتعبير شفوي لأن يهمس بكلمة نعم مثلما يتم الهمس بها في ظروف أخرى عند التزويج كنسياً. فإيُّ شيء بقي له ـ للمؤلف؟ في هذه اللحظة لم يكن هناك أي سبيل للشك في أنَّ السفرة إلى روما أتت أكلها، فقد ساعده هذا الاضطرار على الهمس بكلمة نعم على الاطلاع على النوعيات العالية لشهوانية

أفلاطونية عازبة متكاملة مثلما كانت الراهبة سيسيليا قد استطاعت أن توصلها إليه تلميحاً فقط. حتى الراهبة كليمينتينا بدأت أنها أحست بأنها كانت قد جاوزت حدّها قليلاً؛ فقد خففت كثيراً إلى حد ما من سحر عينيها الشديد ـ ولا بدَّ من القول إنَّ شفتيها الوردتيتين التوتا في استياء، وشعر المؤلف بما قالته الآن أنه نضحٌ سيكولوجي مستعمل قصداً. قالت بوجه جامد لم يخلُ من رفة هدب، على العكس: إنَّ أهدابها القاسية القصيرة قصراً غير متوقع مخيب للأمل والموحية بأنها تشبه إلى حدٍّ ما مكنسة، رفّت رفاً شديداً حين قالت: «إذا ما ناقشنا اليوم مشكلة (المركيزة فون أو...)، ردّت علينا طالباتنا بجفاء: ‹كان يفترض أن تتناول الأقراص المانعة للحمل، وهي أيضاً أرملة› ـ وعلى هذا النحو ينزل شاعر من مرتبة كلايست إلى مستوى رخيص لمجلاّت مصورة. لكنني لا أريد أن أتهرّب. فالشيء المسيء في قضيّة غينسبورغ ليس ما قد تعتبره أنت أمراً مفروغاً منه أنَّ المعجزات تستعمل! إنَّ الأمر على عكس ذلك: لن يكون لنا فكاكٌ من المعجزات! لن نتخلص من الورود التي تنمو في قلب الشتاء حيث دفنت الراهبة راحيل! وهبْ أننا أبعدناك عن الراهبة سيسيليا وعن شويكنز الذي هو بالمناسبة آمن موفور على أحسن وجه، ولا داع لأن تقلق عليه ـ ولكن لا لأننا استعملنا المعجزة، بل لأنَّ المعجزة توجّهنا وأردنا أن نبعد محايدين غير منحازين ذوي ميول صحافية، لا لأننا نريد عملية التطويب، بل لأننا لا نريدها! هل تصدّق ما وعدتني أنت بأن تصدّقه»؟ هذه المرة نظر إليها المؤلف، قبل أن يجيب، متفكّراً نظرات «فاحصة» بدت الراهبة كليمنتينا فجأة مضعضعة ـ ولا يمكن أن يعبر المرء بتعبير آخر ـ ثائرة الأعصاب أيضاً،

حركت غطاء رأسها، وفي أثناء ذلك ـ وهذا أيضاً للأسف حقيقة ـ لاح شعرها الأحمر الداكن في غزارة رائعة؛ وسعت لأن تحصل مرة أخرى على سيجارة من العلبة، وفي هذه المرة بمران متعب لطالبة كثيرة التدخين تدرك صباحاً في نحو الرابعة في يأس أنَّ المحاضرة عن كافكا التي ستلقيها بعد ست ساعات اخفقت كلّياً. صبت الشاي مرة ثانية وأضافت الحليب والسكر بالنسبة الدقيقة التي يفضّلها المؤلف، حتى إنّها حركتها وقربّت له الفنجان ونظرت إليه مستنجدة ـ وما من تعبير آخر بمكن لذلك ـ وعلى المرء أن يستحضر الموقف مرة أخرى: عصر مشمس في الربيع. روما. رائحة الصنوبر الطيّبة وزعيق جنادب خافت ـ أجراس الكنائس، الرخام، مقاعد جلدية وثيرة، براميل خشبية بنباتات الفاوانيا (عود الصليب) المزهرة لتوّها، وفي كل شيء يكاد يهتز من تلك الارثوذكسية الكاثوليكية التي يتكلّم عنها بروتستانتيون بين الحين والآخر بحماسة وافتتان؛ وجمال كليمينتينا الذي كان قبل دقائق في كامل تفتّحه وازهراره ذبل فجأة؟ وملاحظتها المصحيّة عن المركيزة فون أو. من علبة الورق المقوّى الغامقة الخضرة أخرجت بلهفة وحسرة ورقة تلو ورقة ومجموعات صغيرة مثبّتة بمشابك أو صمغ، خمس مجموعات، ست مجموعات، عشر مجموعات ثماني عشرة ـ ومجموعها ست وعشرون: «لكل سنة تقرير ودائماً التقرير نفسه: ورود تنبثق في كانون الأول من الأرض فجأة. وورود لا تذبل إلاّ حين تبدأ الورود بالتفتّح في الأحوال العادية؛ ولجأنا إلى أشدّ الوسائل يأساً وربما بدت لك رهيبة رهبة الموت، أخرجناها من القبر ونقلت بقاياها التي كانت في مرحلة التفسّخ التي تناسب عدد سنوات موتها إلى مقابر أخرى، وبعد أن تفتحت هناك أيضاً

الورود الرهيبة أخرجنا البقايا مرة أخرى وأعدنا نقلها ثم أخرجناها مرة أخرى وأوعزنا بحرقها ووضعنا وعاء الرماد في كنيسة صغيرة حيث لا يوجد في الواقع أي أثر لأي تراب بالقرب منها: ومع ذلك ورود! فقد انبثقت من الوعاء وغطّت على الكنيسة الصغيرة؛ وأعيد رمادها إلى الأرض ـ ومن جديد: ورود. إني متأكدة لو أننا ألقينا بالرماد من الطائرة لنمت ورود من عرض المحيط ومن قلب الصحراء! هذه هي مشكلتنا، وعلى هذا، ولذلك كان علينا أن نبعدك عن الراهبة سيسيليا، وكان علينا أن نرقّي شويكنز إلى مراقب على ملك زراعي بالقرب من مدينة فورتسبورغ، ولهذا تثير السيدة بفايفر قلقنا، لا لأنها قد تنكر ـ لنقل ـ الظاهرة، بل لأنها، على الأرجح، وبعد كل ما أعرفه عنها وتمَّ واكتمل بأخبارك عنها ـ ستعدّ هذا أمراً بديهياً كل البداهة، أنَّ وروداً تتفتح من رماد صاحبتها هاروسبيكا في كل سنة في نحو منتصف كانون الأول، سياج سميك شائك من شجيرات الورد الملتفة لا أعرفه إلاَّ من حكاية دورن روزشين، فلو حدث هذا كلّه في إيطاليا ـ لما كان هناك من داعٍ لأن نخشى الشيوعيين؛ إنما في ألمانيا! كان هذا سيكون انتكاساً، الله يعلم، لقرن من الزمن. إيُّ شيء كان سيتمخّض عن شكل الطقوس الدينية، وأي شيء كان سيتمخّض عن التنوير عن المعقولية الفيزيائية البيولوجية لما يسمى معجزات؛ وإلى ذلك: من ذا الذي قد يضمن أن الورود لن تتوقف عن التفتح عندما يذيع المرء الأمر؟ كيف سيكون موقفنا هنا لو أننا توقفنا فجأة؟ حتى الأوساط الرومانية الرجعية تنصحنا بأدب واجب أن نقفل الملفات. وطلب من علماء نبات وعلماء أحياء ولاهوتيين أن ينظروا إلى الظاهرة مع تأكيد الكتمان، هل

تعلم من أعلن نفسه متأثراً منفعلاً ومَنْ أدخل إلى الموضوع شيئاً خارقاً للطبيعة: علماء النبات وعلماء الأحياء، لا اللاهوتيون. وانظر بعين الاعتبار الأبعاد السياسية: من رماد يهودية اعتنقت الكاثوليكية وترهّبت ثم تلّقت على فورها أمراً بمنعها عن التدريس ثم ماتت ـ لنقل بلا حرج ـ في ظروف غير سارّة ـ من رمادها تنبت منذ سنة ١٩٤٣ ورود! إنَ هذا مثل حلقة ساحرات. سحر. تصوّف. ولي، لي أنا بالذات، التي عبّرت عن آرائها النقدية حول إحيائية بِنْ يسلمني المرء هذا الملف! هل تعلم ما قاله لي أمس أحدُ الأحبار الكبار مكركراً على الهاتف: <قدّم لنا بولس ما يكفي من معجزات، فلا معجزات أخرى الآن من فضلك. وهو يكفينا **زهرة صغيرة**، ونحن إذاً مزودون بالزهور>. هل ستصمت أنت؟» هنا لم يومىء المؤلف برأسه، بل هزّه هزّاً عنيفاً وأكّد هذه الحركة بكلمة «لا» نطقها نطقاً واضحاً، ولأنَّ كليمينتينا ابتسمت، في فتور، وفي أثناء ذلك استخدمت علبة السجائر الفارغة أداة للمسح وجمعت أعقاب السجائر من صحن فنجانها إلى صحن المؤلف وفيه أعقاب السجائر، ثمّ، وهي بعد متعبة ولا تزال تستخدم العلبة الفارغة أداة مسح، أفرغت آثار التدخين في سلة مهملات من بلاستيك أزرق، وبعدها ظلت واقفة وهي تبتسم، وبذلك أعطت إشارة للتحرّك، لهذا فإن المؤلف لا يعرف ما إذا لم يكن ينبغي أن تستعمل هنا معجزة بأن يتظاهر المرء بإنكارها.

رافقت كليمينتينا المؤلف إلى الباب، وهي تتكلم عن الأدب بلهجة المحدّث. كانت الطريق طويلة نسبياً،نحو أربعمائة متر عبر الأرض المترامية الأرجاء. سرو وصنوبر ودفلى ـ وإنّ المرء ليعرف هذا. وعند

رأس الشارع، المطل على المدينة الخالدة الضاربة إلى الحمرة والصفرة، دسّ المؤلف في يد كليمينتينا علبة سجائره الاحتياطية غير المفتوحة التي خبأتها مبتسمة في كمّ لباسها الرسمي، ودستها ببساطة في الثوب الذي يوحي بأنه من نوع القمصان الذي كان مناسباً لأن يخفي أكثر من سجائر بحكم تصميغه المتماسك. هنا، وفي أثناء انتظار الحافلة التي كانت ستقلّه باتجاه الفاتيكان إلى داخل المدينة، بدا للمؤلف مناسباً أن يتخلّص من الأفلاطونية، فسحب كليمينتينا إلى وسط شجرتي سرو صغيرتين وقبّلها بدون استحياء على جبينها وخدّها الأيمن ثم على فمها. لم يكفها أنها لم تقاوم، بل قالت متنهدة: «آه، نعم»، صمتت لحظة مبتسمة قبل أن تقبّله بدورها على الخد، ثم قالت حين سمعت الحافلة تقترب: «عد ثانية ـ ولكن من غير ورود».

* * *

سيفهم كل إنسان بسهولة ويسر أنَّ المؤلف أحسَّ السفرة مجزية، وقد يبدو أيضاً مفهوماً أنه لم يرد أن يؤجّل الرحيل لكيلا يورّط عدة ناس بسرعة مبالغ فيها في أزمات نفسيّة، ولأنه كان هناك ما استعجله فقد آثر في رحلة العودة طريق الجو، وفي داخله ـ وهذا إلى يومنا هذا ـ ممزق كلّياً من المشكلة ما إذا وإن صحَّ هذا، بأي درجة امتزج ـ من حيث المصاريف ـ شيء له علاقته بالوظيفة وشيء خاص بمناسبة هذه السفرة، ممزّق، ولو نصفين فقط، من سؤال له علاقته بالوظيفة وخاص على حد سواء: هل كانت كليمينتينا قد قامت **بالدعاية والإعلان** لمعجزة ورود غيرسيلين بحذق ومهارة، أم كانت قد تمنت أن تحوول دون هذا بنفس

الدقة والحيلة؛ وكيف سيتصرّف لو نجح في أن يعرف الرغبات من فم محبوبته الآن: بطريقة موضوعية كما طابق هذا واجبه، أم سيتصرف تصرّفاً ذاتياً كما سيطابق هذا هذا ميله وسيلبي الرغبة في أن يجامل كليمينتينا؟

* * *

مشغول بهذه المشكلة الرباعية الطبقات، عصبي، بل أقرب إلى الحساسية المفرطة، وقد حلَّ عليه بعد ربيع روما شتاء الوطن قاسياً: ثلج في نيفلهايم وشوارع زلقة وسائق سيارة أجرة سيء المزاج كانت أمنيته الدائمة أن يحرق أيُّ شخص بالغاز أو يطلق عليه النار أو يقتله أو يشبعه على الأقل ضرباً، ثم ـ خيبة أمل مريرة ـ استقبال غير سار على بوابة الدير في غيرسيلين حيث ردّه المرء بفظاظة وكلام قليل غامض عليه عن لسان راهبة متكدرة متجهّمة جاوزت مرحلة الشباب: «ضقنا ذرعاً بالصحفيين!» (الطول الإجمالي بالمربع نحو خمسمائة متر)، وبقي له منظر الراين، وكنيسة القرية مغلقة (هنا كان قد خدم مساعدو الكاهن في القداس، أولئك الذين كانوا قد ابتهجوا ذات يوم إلى حدّ التلذّذ ببشرة مارغريت. هنا كانت ليني قد عاشت، وهنا كانت هاروسبيكا مدفونة، نبشت، دفنت مرة أخرى، وحفرت مرة أخرى وأحرقت ـ وما من مكان، ما من مكان في سور الدير كان فيه ثغرة! لم يبق إلاّ مطعم القرية الذي لم يكن جوّه هادئاً إلى هذا الحد هدوء الدعة والسلام ولا نعساً كما في وطن ألفريد بولهورست. لا، هنا كان الجو صاخباً وأصبح المؤلف محطّ نظرات الريبة، هنا رأى أشخاصاً غرباء عن المكان من طبقة

واضحة مميزة: صحافيون فعلاً أردفوا قائلين بصوت واحد ساخر حين سأل صاحب المطعم عند طاولة البار عن غرفة: «غرفة في غيرسيلين وهذه الآن وفضلاً عن ذلك» ـ وبسخرية متزايدة ـ «ربما أيضاً غرفة مطلّة على حديقة الدير ـ كيف؟» وحين أومأ فعلاً مجيباً على ذلك بإجابة بسيطة ساذجة، تعالت أصوات عربدة حقيقية. هاها وهوهو لرجال ونساء في لباس مطابق للزيّ السائد صنّفوه تصنيفاً نهائياً في عداد البلهاء لأنه انخدع بلطف زائف آخر وأجاب على السؤال بالإيجاب بأنه يريد أن يلقي على أي حال نظرة على حديقة الدير المغطاة بالثلج، هنا أزدادوا لطفاً، وبينما كان صاحب الحانة يصبّ ويسحب، يسحب ويصبّ ـ وضّحوا: ألم يعرف عمّا تكلّم العالم كله؟ ـ أنه كان قد اكتُشف في حديقة الدير ينبوع حمّة (مياه معدنية حارة) جعل شجيرة ورد معمّرة تزهر؛ وأنّ الراهبات، وهن يستندن على الحق في أرضهن، حمين وسترن شخصياً المكان المتعلق بالموضوع بحواجز متحركة؛ وأنّ المرء قد سدّ المدخل إلى برج الكنيسة وأرسل إلى المدينة المجاورة (تلك التي كان لـ ب. هـ. ت فيها ساعة صبوة مع هاروسبيكا! المؤلف)، لاستعارة سلّم قابل للتمديد والتقليص يصل مداه إلى مسافة خمسة وعشرين متراً في مشروع تهديم لكي «يستطلع أمور الراهبات بدافع الفضول». هنا أحاط الجميع بالمؤلف الذي لم يعد يعرف هو نفسه ما إذا كان ساذجاً وكم كان هو ساذجاً ـ الناس من وكالة الأنباء الأمريكية ومن وكالة الأنباء الألمانية ووكالة الأنباء الفرنسية كانوا قد جاؤوا، لا بل كان قد جاء أيضاً مندوب نوفوستي لكي «ينزع القناع عن وجه الفاشية الامريكية ويفضح تلاعب الحزب الديمقراطي المسيحي بالانتخابات. هل تعلم»، مضى مندوب

نوفوستي اللطيف في أوجه أخرى قائلاً وهو يناول المؤلف كأس بيرة: «في إيطاليا تبكي صور مريم العذراء حين يتم الانتخاب، ومنذ عهد قريب تنبثق في ألمانيا الاتحادية في حدائق دير ينابيع حمّة (مياه معدنية حارة)، وتنمو ورود حيث دفنت راهبات يقال، كما يحاول المرء أن يمثّل لنا، إنهن كن قد اغتصبن آنذاك في أثناء احتلال بروسيا الشرقية. على أية حال يقال إنَّ للموضوع علاقة ما بقضيّة شيوعيين، وماذا يستطيع شيوعيون أن يقوموا به نحو راهبات إلاَّ أن يغتصبوهن؟» إنَّ المؤلف، الذي هو أحسن إطلاعاً من معظم الحاضرين والذي كان قد قبّل قبل خمس ساعات وهو يطلّ على روما، خداً لم يكن جلده شبيهاً بالرق على الإطلاق، قد عقد العزم على أن يستسلم وينتظر تقارير الصحف. كان محالاً العمل هنا على ما بقي من كشف للحقيقة. هل كان المرء قد حشرلينى) فعلاً بطريقة مشوّهة في **القصة**، وهل كانت هاروسبيكا قد تحولت إلى حرارة؟ غادر المطعم، وقبل أن يغلق الباب، كان لا يزال يسمع أنَّ إحدى الصحفيات الحاضرات بدأت تغني بصوت ساخر: ‹انبثقت وردة...›.

* * *

في اليوم الثاني وفي الطبعة الصباحية للجريدة التي استشهد بها مرة من المرات وجد «تقريراً ختامياً»: «تبيّن أنَّ تلك الحادثة العجيبة الغريبة التي لم توصف من قبل الصحافة الشرقية بطريقة ساخرة إلاَّ بأنها ‹معجزة حمّة الورود لمدنية غير سيلين› يمكن عزوها إلى أسباب طبيعية. وكما يثبت أسم المكان الذي تكمن فيه الكلمة الجرمانية غايزير

(ولربما كانت غايزيرين هايم قد سميت ذات مرة غيرسيلين)، فإنَّ غيرسيلين كان فيها في القرن الرابع الميلادي ينابيع حارة، ولهذا السبب احتضنت أيضاً بصورة مؤقتة في القرن الثامن الميلادي مقراً صغيراً للقيصر استمرَّ هناك إلى أن نضبت الينابيع من جديد. وتشرح الراهبات بصراحة، كما أعلمتنا الرئيسة الراهبة سابينتيا في مقابلة خاصة أنهن لم يفكرن قط بمعجزة ولم ينشروا شيئاً من هذا القبيل. وأغلب الظن أنَّ هذه الكلمة كانت قد اختلطت بالتقارير عن طريق طالبة سابقة يجب أن توصف علاقتها بالمدرسة الثانوية للبنات القائمة منذ زمن طويل في غيرسيلين بأنها متناقضة متكافئة الضدين وأنها كانت فيما بعد على صلة وثيقة بالحزب الشيوعي الألماني. والحق أن المسألة كانت، كما أكدّها في أثناء ذلك اختصاصيون، مسألة انبثاق مفاجيء في هذه الحالة لينابيع ساخنة ربما جعلت بعض شجيرات الورد في حالة إزهار حقيقية. لا شيء، لا شيء البتّة، هكذا أوضحت الراهبة سابنتيا بموضوعية راهبة ديرية عصرية منفتحة متنورة، لا شيء يقبل الظنَّ أنَّ شيئاً خارقاً للطبيعة له يدٌ في ذلك».

* * *

على حين لم يطل تردّد المؤلف لحظة في أن يحكي لمارغريت عن معجزة حمّة الورد وخلفياتها (تهللت أساريرها وصدّقت كل شيء ونصحته بإلحاح ألاَّ يفرّط بكليمينتينا)، وبلغ منه أن تعرّض لهزء لوته المرّ التي كذّبت بطبيعة الحال كل شيء وجعلته في مصاف «مقبّلي الراهبات» المزعج («وهذا حقيقي وكذلك أيضاً رمزي». لوته)، فإنّه

تردّد في أن يطلع ليني على الأحداث الغريبة في غيرسيلين ويعلمها ولو تلميحاً بوضع الأبحاث والتحرّيات في روما. إنَّ ب. هـ. ت. ـ هكذا بدا للمؤلف ـ كان له الحق في أن يعرف أي أثر عُزي بعد سبع وعشرين سنة إلى رماد راحيل المبجّلة ولا ريب من قبله. فإذا كان جيولوجيون مشهورون، مؤيدون من قبل بعض المنقّبين بشركة بترول استغلت حادثة حمّة الورد بدون تردّد لأغراض دعاوية، قد أثبتوا في تقارير محكمة متينة «الشيء الطبيعي إلى غير حدّ» للحادثة، فإنَّ جزءاً من صحافة أوربا الشرقية قد أصرَّ في عناد على الرواية أنَّ «لجنة الانتخابات لقوى رجعية من غيرسيلين أنهارت فقط تحت ضغط القوى الاشتراكية الذي لا يفتر ولاذت الآن إلى قوى مدّعية العلم وتخدم الرأسمالية. وبذلك يتم البرهان مرّة أخرى على إمكانية توجيه العلم الرأسمالي والتلاعب به».

* * *

من المحتمل أنَّ المؤلف أخفق هنا؛ كان من المفروض أن يتدخّل، وكان من المفروض أن يتسلّق السور في غيرسيلين، ومن الجائز أن يؤازره الأصلع ب. ت . هـ، وكان من المفروض أن يعبّىء ليني وأن يقطف لها على الأقل بضع وردات ويسلّمها لها عند الباب؛ وأغلب الظن أنها كانت ستزيّن لوحتها المرسومة رسماً كبيراً (جزء من الشبكية على العين اليسرى للعذراء مريم المسماة راحيل) تزييناً رائعاً ومناسباً. لكن الآن بالذات توالت الحوادث وتشابكت ولم تترك للمؤلف متّسعاً من الوقت ليستسلم إلى حنين خاص شدّه إلى روما. الواجب نادى، نادى في صورة هيرفيك شيرتينشتاين الذي أنشأ نوعاً من «لجنة ليني في ضائقة ـ

ساعدوا ليني» وأراد أن يجمع الناس كلَّهم، وأن يساعدها معنوياً ومادياً حيال ضغط هويزر المتزايد، بل ومن المحتمل أن ينظر بعين الاعتبار في إجراءات سياسية. وجاء صوت شيرتينشتاين على الهاتف محتداً، إنّما كان ثابتاً؛ أما بحّة صوته الذي كان قد تهدّج ناعماً رقيقاً مثل الخشب الرقائقي النفيس في أثناء الحوارات والأحاديث السابقة فقد كان له الآن رنين معدني. لقد طلب عناوين كل «المهتمين بهذه المخلوقة المدهشة» وحصل عليها وحدّد مؤتمراً للمساء بحيث إنه كان لا يزال هناك وقت كافٍ للمؤلف، من أجل الموضوعية والعدالة والحقيقة، وكذلك أيضاً، لكي يتفادى بقدر المستطاع موقفاً انفعالياً صرف، وكذلك أيضاً من أجل الواجب الاعلامي لينفذ إلى السكن الأساسي للطرف الآخر. فآل هويزر، مهتمون، لايضاح موقفهم أيضاً من هذه القصة التعيسة، إلاّ أنّهم في خوف من أعمال مخططة معينة، كانوا مستعدين على فورهم لأن «يتركوا أيضاً ما بإيديهم من أعمال ملحة جداً».

وأثبت اختيار مكان المؤتمر فقط صعوبته. وكان للاختيار: شقة هويزر الشيخ الصغيرة في ذلك المصح ـ دار العجزة ـ الفندق الفاخر الذي سبق وصفه؛ مكتب «مدير شباك المراهنات» (العنوان مأخوذ بالضبط من تعريف ذاتي. المؤلف) كورت هويزر أو مسكنه الخاص، وفضلاً عن ذلك غرفة المؤتمرات لشركة هويزر، شركة التوصية بالأسهم ذات الضمان المحدود التي «نمثل فيها نحن مجتمعين مصالحنا المختلفة والاستثمارات). (كل الاستشهادات نقلاً عن معلومات أعطاها كورت هويزر على الهاتف).

ليس بدون اهتمام خاص اقترح المؤلف غرفة المؤتمر بشركة هويزر ـ

شركة التوصية ذات الضمان المحدود، التي تقع في الطابق الثاني عشر في بناء عالٍ على الراين وأنها كما عرف مطّلعون، أما المؤلف فلم يكن قد عرف بعد، أنها تطل إطلالة رائعة على المناظر الطبيعية ومناظر المدينة. وليس بدون خفقان قلب سافر المؤلف إلى هناك: فروحه، روح بورجوازي صغير، لا تدرك دائماً ما هو نموذجي حقاً وفاخر وجيه إلاّ بعد عناء؛ وبحكم منبته، منبت بورجوازي صغير للغاية، فهو وإن طاب نفساً هناك، إلاّ أنه يحسّ بأنه غريب. وبقلب مرتجف أيضاً دخل دهليز مبنى الشقق الصغيرة الفخم الأنيق الذي كانت شققه من نوع **الشقق فوق سطح المبنى (الملحق)** دارجة ومفضّلة إلى هذا الحدّ. ثم إنَّ بواباً لبس لباساً لم يكن هو هو زيّاً ولم يكن هو هو لباس الخدم الرسمي، ومع ذلك وبطريقة ما كان يوحي بأنه لبس هذا وذاك على حدّ سواء، قاسه لا باحتقار، وإنما متفحّصاً. وكان ملموساً بوضوح: الحذاء لم يجتز هذا الامتحان. مصعد غير مسموع ولا يحدث صوتاً: المرء يعرف هذا. وفي المصعد لوحة من النحاس الأصفر عليها «اتجاه الطريق»، وبما أنَّ دراسة دقيقة ومكثفة كانت مستحيلة نظراً لسرعة المصعد المذهلة غير المسموعة فإنَّ نظرة عابرة دلّت أنَّ في هذا البيت لم تكن تعمل إلاّ قوى خلاّقة تقريباً: مهندسون معماريون، إدارات تحرير، وكالات أزياء، لافتة لفتت الانتباه بصورة خاصة بسبب عرضها: «ارفين كيلف، اتصالات بناس خلاّقين مبدعين».

وعلى حين كان لا يزال يُعمل تفكيره فيما إذا كانت المسألة هنا مسألة اتصالات طبيعية أم روحية، أو ربما لم تكن إلاّ اتصالات اجتماعية غير ملزمة، أم أنَّ المسألة ربّما كانت مسألة حلقة متسترة

لاستدعاء العاهرات أو اللواطيين هاتفياً، رأى نفسه في الطابق الثاني عشر حيث انفتح الباب على نحو غير مسموع وكان ينتظره شاب لطيف المحيا قدّم نفسه بالكلمات البسيطة: «أنا كورت هويزر». ومن غير أدنى إشارة إلى المنافقة والتفضّل أو حتى الاحتقار، وبلطف مريح في حياديته لم ينفِ الحرارة على الإطلاق، بل الأرجح أنه نبّه إليها، فإنَّ كورت هويزر قاده إلى قاعة المؤتمرات التي ذكّرته بسرعة بتلك الغرفة التي كان قد جلس فيها قبل يومين مع كليمينتينا وجهاً لوجه: رخام، أبواب ونوافذ معدنية، كراسي جلدية وثيرة من نوع موريس ـ وإطلالة لا على روما الضاربة إلى الإحمرار والصفرة، بل على الراين وبعض الأماكن الواقعة عليه، في النقطة الجغرافية تماماً حيث يدخل النهر الذي ما زال دائماً وقوراً جليلاً، في أشدّ مراحله قذارة على الإطلاق، على نحو سبعين أو ثمانين كيلومتراً باتجاه المنبع في المكان الذي يطلق المرء عنده نهر القذارة الألماني كلّه أو قذارة النهر الألمانية كلّها على المدينتين الهولنديتين البريئتين أرنهايم نييمْفيغن.

إنَّ المكان الذي بدا لطيفاً إلى حدّ يحيّر العقول باستثناء الأثاث كان له شكل قطاع دائرة، ولم يكن ليضمّ إلاّ بعض الكراسي وتلك الكراسي من نوع موريس التي كانت متشابهة تشابهاً مباشراً مع تلك الكراسي الوثيرة في قاعة الهيئة الديرية الدينية في روما. وربما سيقرّ المرء للمؤلف أنَّ حنينه وجد هنا غذاءً جديداً وبقي بعض لحظات مضطرباً مبلبل الأفكار. خصّص له أجمل المقاعد: إلى نافذة تطلّ على الراين من فوق نحو خمسة جسور؛ وعلى الطاولة الأنيقة العريضة الملائمة للنافذة المقوّسة كان: مختلف أصناف المشروبات الروحية، وعصير الفواكه وشاي

في إبريق حافظ للحرارة؛ كان هناك سجائر رقيقة وغليظة، لا بمجموعة وتشكيلة حديثة النعمة على نحو سوقي مبتذل، إنما بتشكيلة ومجموعات معتدلة معقولة. ويصحّ هنا استعمال الكلمة المناسبة: أنيق. هويزر الشيخ وحفيده فيرنر أيضاً، كلاهما بدا لطيف المعشر، خفيف الظل أكثر مما كان لهما في ذاكرته؛ وسارع المؤلف بحكم مركزه إلى أن يصحّح أحكاماً مسبقة وأن يقبل بكورت هويزر الغريب المريب الذي التقاه أول مرة، بدون تحيّز إنساناً متواضعاً هادئاً لطيف المعشر الذي كان قد أضفى على حسن هندامه تلك الذرة من الإهمال الذي ناسب صوته الهادىء الذي يتوسّط الصادح والجهر. فقد شابه أمه لوتّه شبهاً مفاجئاً: الناصية، العينان المستديرتان. أيعقل أن يكون هذا ذلك الرضيع الذي ولد في ظروف درامية مثيرة إلى ذلك الحدّ والذي لم يعمّد بناء على رغبة أمه الشديدة؛ ولد في تلك الغرفة حيث نامت الآن أسرة برتغالية مكوّنة من خمسة أشخاص، هل باع هو ومعه فيرنر الذي بلغ الآن الخامسة والثلاثين وبدا أكثر صرامة، في الفردوس الروسي بالمدافن لبيلتسر الذي ما زال يحسّ إلى اليوم مرارة من ذلك، أعقاب سجائره بعد أن لفّها بورق سجائر جديد باعتبارها سجائر لم يلفّها هو نفسه؟

لقد نشأ للحظات معدودة ارتباك، ذلك لأن المرء، كما يظهر، عدَّ المؤلف نوعاً من رسول الصلح، وإيضاح سبب مجيئه اقتضى بعض التوضيحات الضرورية من جانب المؤلف. لكي **يستعلم**، لكي يستعلم **بموضوعية**. وكما ذكر المؤلف في استطراده المقتضب ـ فالمسألة هنا لم تكن مسألة أحاسيس طيبة وميول وعروض وعروض مضادة. فالحال فقط ممتعة هنا، لا ايديولوجيا على الإطلاق، ولا وكالة إطلاقاً؛ وهو ـ المؤلف ـ

ليس موكلاً في أي شيء ولا يسعى أيضاً إلى أي توكيل؛ إنّ «الشخص المختلف عليه» لم يواجهه مرة واحدة حتى الآن مواجهة شخصية، ولم يتكلّم معه إلاّ مرتين أو ثلاث مرات في الشارع، ولم يتكلم معه بعد كلمة واحدة، إنّ مطلبه، ولو بطريقة ناقصة متجزئة، ولكن بأقل ما يمكن من التجزؤ والنقصان، أن يستقصي حياة هذا الشخص، ومهمته - مهمة المؤلف - ليست ممنوحة من قبل سلطة أرضية دنيوية ولا من قبل سلطة سماوية غير دنيوية، إنها **وجودية**، ولأنه الآن فقط اكتشف شيئاً أشبه بالاهتمام في وجوه آل هويزر كلهم الذين لم يولوا كلامه شيئاً من التأدب واهتمام المجاملة إلاّ بصعوبة، لأنهم، كما تبين بوضوح، لم يشتمّوا في كلمة وجودي إلاّ اهتماماً مادياً، لهذا رأى نفسه مجبراً على أن يوضّح **كلّ** أوجه الشيء الوجودي. وعندما سئل من قبل كورت هويزر عما إذا كان مثالياً، نفى ذلك بعنف؛ ولدى السؤال عما إذا كن مادياً أو واقعياً نفى ذلك أيضاً بعنف؛ ومن حيث لا يدري رأى نفسه خاضعاً لنوع من الاستجواب أجراه معه بالتناوب هويزر الشيخ وكورت وفيرنر بأن سألوه عما إذا كان أكاديمياً كاثوليكياً، بروتستانتياً، من أبناء منطقة الراين، اشتراكياً، ماركسياً ليبرالياً، مع أم ضد موجة الجنس وحبوب منع الحمل والبابا وبارتسيل والسوق الاقتصادية الحرة والاقتصاد الموجّه؛ كان هذا ضرباً من لعبة الروليت لتحديد الموقع والتي كان عليه في أثناء ذلك أن يدير الرأس بصورة دائمة لكي يرى كل سائل من السائلين - لهذا فإنه أجاب عن الأسئلة كلها باستمرار وبقناعة بالنفي، وأخيراً فإن سكرتيرة ظهرت فجأة من باب لم يكن منظوراً حتى هذه اللحظة صبّت له الشاي وقرّبت له البسكويت بالجبن، وفتحت علبة سجائر وفتحت بزر كهربائي

أحد الجدران التي بقيت إلى الآن سميكة لا تشوبها شائبة وأخرجت ثلاثة ملفات وضعتها أمام كورت هويزر على المنضدة؛ إلى جانب ذلك دفتر ملاحظات وورق وغليون قبل أن يواريها الباب، وهي مخلوقة ذات حسن عادي ذكّرت المؤلف بالنشاط الموضوعي الذي به تم الفروغ من رجال في بيوت بغاء في أفلام معينة ـ، شقراء، ذات صدر متوسط الحجم. وأخيراً كان هويزر الشيخ ذلك الذي أخذ يتحدث بأن ضرب بعكازته ضرباً خفيفاً على حزمة الملفات وترك العصا فوقها لكي يقدّم بين الحين والآخر ترقيماً إيقاعيّاً. «بهذا»، قال هو، ولم يخْلُ صوته من رنة الألم والحسرة. «بهذا تنتهي صلة ، علاقة، قصة ربطتني بآل غروتن برباط وثيق طوال خمسٍ وسبعين سنة. إذ أنني، وكما تعرف، صرت وأنا في الخامسة عشرة عرّاب هوبيرت غروتن ـ والآن أقطع أنا ، ومعي حفيداي، كل الخيوط، وأقصى غطاء الطاولة». هنا ينبغي الإيجاز على وجه الاستثناء ذلك لأنَّ هويزر الشيخ بدأ بمقدمة طويلة إلى حدّ ما ـ بادئاً بالتفاحات التي قطفها وهو في السادسة من عمره ـ في نحو سنة ١٨٩٠ ـ في حديقة الوالدين غروتن، واصفاً حربين عالميتين وصفاً يكاد أن يكون دقيقاً ومشدّداً على موقفه الديمقراطي واصفاً مختلف زلات وحماقات ليني (السياسية والأخلاقية والاقتصادية) والسير الذاتية لكل الشخصيات والمعرّف بها تقريباً ـ، كانت محاضرة دامت ساعة ونصف الساعة أجهدت المؤلف بعض الشيء، ذلك لأنّه كان مطّلعاً ولو بطريقة أخرى على معظم الأمور. أم ليني، أبو ليني، المهندس المعماري الشاب الذي كانت قد سافرت معه ذات مرة في نهاية الأسبوع، أخوها ، ابن خالها ، النفوس الميّتة، هذا كله، هذا كلّه ـ وبدا للمؤلف كأنَّ الحفيدين كليهما لم ينصتا أيضاً باهتمام

مطلق، وكذلك أيضاً «بعض الصفقات المشروعة كلياً» ـ هذا كلّه تمَّ سرده، لا على نحوٍ وحيد البعد في العدوانية، بل أقرب إلى العدوانية الدفاعية وأشبه بأسلوب السيد الرفيع المقام؛ قطعة الأرض التي كانت قد وهبت لكورت في المهد ـ هنا أرهف المؤلف سمعه ـ، «كلّفت ذات مرة قرشاً واحداً لكل متر مربع عندما تملكها جد السيد غروتن في سنة ١٨٧٠ من مزارع مهاجر، وكان هذا سعراً خيريّاً، وكان سيتمكن من الحصول عليها بأربعة بفينيكات أيضاً، لكن هؤلاء كان عليهم أن يمثّلوا دائماً دور الكرماء الأريحيين، ولأنه كان مجنوناً، فقد أتمَّ السعر فضلاً عن ذلك ووضع عوضاً عن خمسة آلاف مارك ألفي تالر (= ستة آلاف مارك) بحيث أنَّ سعر المتر المربع وصل عنده إلى بفينيكين. هل هو ذنبنا أن قيمة المتر المربع اليوم ثلاثمائة وخمسون. فلو أنَّ المرء كما أعتقد، انتبه إلى بعض الاتجاهات التضخمية العابرة لحصل المرء على خمسمائة بدون قيمة البناء التي تستطيع أن تعتبرها بارتياح مساوية لقيمة العقار. وأقول لك، حتى في حال إحضارك غداً لمشترٍ يضع لي خمسة ملايين على المنضدة، فأنا ـ نحن لن نبيعها، تعال الآن إلى هنا وانظر من النافذة». هنا استعمل عصاه من غير كلفة مرساةً وادخل يده بهذا في سترة المؤلف المزرّرة تزريراً رخواً والذي يخاف دائماً على أزراره المرتخية، وشدّه إليه من غير تردد وليس من غير وحشية و ـ كما يجب الإنصاف في القول ـ ليس من دون أن يهزَّ الحفيدان الرأس، بحيث إنَّ المؤلف كان عليه أن ينظر أيضاً إلى الأبنية المحيطة التي كانت قد تدرّجت حول البناء المؤلف من اثني عشر طابقاً في ثماني وسبع وست طبقات. «هل تعرف»، قال هذا بصوت خافت خفوتاً مخيفاً، «هل تعرف ما اسم هذا

الحيّ؟» المؤلف الذي لم يلاحظ ملاحظة دقيقة كل الدقة التغيرات الطوبوغرافية كلها، هز الرأس. «هذا الحي يدعى هويزرينغين ـ وهو يقوم على قطعة الأرض التي تركها المرء بائرة سبعين سنة قبل أن يهبها لهذا السيد الشاب هناك» (ملوّحاً بالعصا نحو كورت، ويصبح الصوت الآن ساخراً) «وأنا، أنا، أنا تدبّرت الأمر بألاّ يبقى في مهده، طبقاً للقول المأثور الذي نادى به آباؤنا: ‹أخضعوا الأرض›».

في هذا الموضع أخذ السيد المسن لدرجة لابأس بها يوحي بالوهن والهرم؛ ومع أنه هو نفسه عدواني على نحو غير خافٍ، فقد أحسّ محاولة المؤلف ليتخلّص من خطاف عصاه، اعتداء وعدواناً من جهته، مع أنَّ المؤلف تصرّف بتحفظ كبير في غير قليل من العاطفة الرقيقة والحرص على أزراره. فجأة أحمرّ هويزر احمراراً شديداً، نزع الزر فعلاً، وأثناء ذلك انمزقت مزقة لا يستهان بها من بذلة تويدية مهترئة، ولوّح بعصاه مهدّداً من فوق رأس المؤلف، ومع أن المؤلف مستعد في كل وقت لأن يدير خدّه الأيسر، فقد بدا له الدفاع عن النفس هنا في موضعه، (انحنى بسرعة متفادياً الضربة، فرَّ، ولم يتأتَ له إلاَّ بجهد جهيد أن يجتاز موقف الخزي هذا بجدارة. في أثناء ذلك تدخّل كورت وفيرنر مهدّئين، والظاهر أنَّ الاستدعاء تمَّ بضغط على زر غير مرئي، فقد نشطت آلة الصّرف (المرأة) البدينة الشقراء ذات الصدر المتوسط الحجم التي استدرجت الشيخ المسن من المكتب ببرود لا يوصف ولا يمكن تقليده بأن همست في أذنه بشيء ما، واقعة علّق عليها كلا الحفيدين معاً بالقول: «أجل، يا ترودي، إنك لأفضل فتياتنا المتعدّدات الأغراض».

قبل أن يغادر المكان (لا يجرؤ المؤلف على أن يستعمل تعبير غرفة بهذه

المناسبة، فقد تكون عاقبة هذا دعوى قذف)، هتف منادياً وراءه: «أنت يا هوبيرت، سوف يكلّفك ضحكك كثيراً. فمن يضحك أخيراً يضحك كثيراً».

لم يظهر السيدان فيرنر وكورت هويزر متأثرين من هذه الواقعة إلاّ من وجهة النظر ذات العلاقة بتقنية التأمين. فقد جرت محادثات ثلاثية حول السترة المتضرِّرة. طفرة عفوية من فيرنر ليعوّض السترة بدفع فوري عالٍ جداً ونقداً، وئدت، إذ صحَّ التعبير، في مهدها بنظرة من كورت؛ على كل حال كان كورت قد مدّ اليد المعروفة من كل جانب إلى المحفظة، إلاّ أنّه سحبها بعد ذلك مرة أخرى في دهشة. وصدرت كلمات وعبارات من مثل «بديهي أننا نعوّض القيمة الجديدة التي لسنا ملزمين بها». وكلمات مثل «تعويض معاناة ذاتية» و«علاوة صدمة»، وسميّت شركات تأمين، وذكرت بوليصات تأمين بأرقامها، وأخيراً استشهد بترودي الغريبة المريبة التي طلبت من المؤلف بطاقة زيارته، وحين تبيّن أنه لم يكن معه بطاقة، سجّلت عنوانه في دفتر الاختزال وعلى وجهها تعبير الاشمئزاز، بتعبير وجه كأنما يجبرها المرء على أن تعالج نوعاً من البراز الكريه الرائحة بصورة خاصة.

هنا يودّ المؤلف أن يسمح لنفسه بأن يقول أيضاً شيئاً عن نفسه:

لم تكن تهمّه سترة جديدة في الواقع ولا حتى سترة قيمتها ضعف قيمة سترة جديدة، أراد أن يستردَّ سترته القديمة ولو أنَّ هذا يكاد أن يكون له وقع انتحاب، الحق أنه كان متعلّقاً بها، وأصرَّ على إرجاع قطعة ثيابه؛ وحين أخذ كلا الهويزريين يصرفانه عن هذا بأن نوّها إلى تدهور مهنة الخياطة نبّه هو إلى رفاءة ماهرة نجحت عدة مرات في تدبير أمر

سترته. ويعرف المرء الناس الذين يقولون، مع أنه لم يسبق لأحد أن منعهم عن الكلام أو كان سيمنعهم: «أودّ أن أقول شيئاً ما» أو هل لي أن أقول شيئاً ما» ـ في موقف كهذا كان المؤلف الذي استطاع أن يحتفظ في مشقة بموضوعيّته في هذه المرحلة من المفاوضات، وأمسك عن التنويه إلى عمر سترته والأسفار التي قام بها والقصاصات الكثيرة التي كان قد دسّها في جيوبها وكان قد أخرجها منها والنقود الصغيرة في الحشوة وفتات الخبز وبقايا الخيوط، أكان عليه أن يشير فعلاً إلى أنَّ خدَّ كليمينتينا كان قد استقر على طيّة صدر سترته اليمنى قبل أقلّ من ثماني وأربعين ساعة، وإن كان لوقت قصير؟ أيصح أن يعرّض نفسه لشبهة العاطفية والشعور الشّجي حيث إنَّه كان يجري وراء مطلبٍ غربي بشكل ملموس إلى أبعد حد، كما عبّر فيرجيل عن ذاك **بمسألة الدموع** (Lacrimae rerum).

لم يعد الجو منذ زمن جوَّ وفاقٍ وانسجامٍ كما كان عليه من قبل وكان يمكن أن يكون لو أنَّ كلا الهويزريين أبديا ذرة من الدراية والفهم أنَّ شخصاً يؤثر شيئاً قديماً على شيء جديد ولا يمكن النظر إلى كل شيء في هذا العالم من وجهة النظر المتعلّقة بتقنية التأمين. أخيراً قال فيرنر هويزر: «إذا ما صدم شخص ما سيارتك القديمة، فولكس فاكن، وعرض عليك بعد ذلك سيارة فولكس فاكن جديدة، مع أنه ليس ملزماً إلاَّ بأن يعوّض لك الثمن المذكور في القائمة، وأنت لا تقبلها، فلا يسعني أن أسمّي هذا إلاَّ شاذاً غير عادي». التلميح فقط أن المؤلف يقود سيارة فولكس فاكن قديمة كان إهانة غير متعمدة وإشارة إلى ظروف الدخل والذوق، ولئن لم تكن موضوعية، إلاَّ أنها كانت ذاتية وكان لها طابع

التواضع. ولسوف يستاء المرء من ذلك استياء شديداً إذا ما تخلّى هو ـ المؤلف ـ عن موضوعيته وعبّر بعبارات حادة بأنه يبول على سيارة الفولكس فاكن القديمة والجديدة على حدّ سواء ـ وأنه يريد أن يحصل على سترته التي خرّبها شهواني خرف وقد أعيدت إلى وضعها السابق. إنَّ حواراً من هذا القبيل لم يستطع أن يسفر بطبيعة الحال عن أي شيء. كيف يستطيع المرء أن يوضّح لشخص ما أنَّ المرء شديد التعلّق بسترة قديمة وأنه لا يستطيع أن يخلعها، وهذا ما طلب منه لكي يتم تحديد ضررها الواقعي ـ هكذا إذاً، اللعنة مرة أخرى، تلك حال الدنيا، إنه لا يستطيع ذلك لأن قميصه مثقوب، وبمعنى أدقّ، إنَّ فيه مزقاً كان قد أحدثه صبي روماني بشصٍّ في الحافلة، ولأنَّ القميص أيضاً لم يعد نظيفاً كل النظافة، اللعنة، ولأنَّ المرء دائماً في سفر في خدمة الحقيقة، ودائماً يسجل ملاحظات بأقلام رصاص وأقلام حبر جاف ويرتمي مساءً في الفراش مثل القتيل من غير أن يخلع القميص؟ أليست كلمة رد إلى الوضع السابق كلمة سهلة الفهم؟ من المحتمل أن يستسلم ناس تسمّى باسمائهم أحياء يقيمونها على ممتلكاتهم، لانفعال شبه ميتافيزيقي عندما يكون عليهم أن يتبيّنوا أن هناك، كما يظهر، أشياء، لا بل سترات لا يمكن تعويض المالك عنها بمال. ربّما انطوى هذا على تحدٍّ محزن ـ أما من وجد إلى الآن موضوعيِّة المؤلف جديرة بالتصديق إلى حدٍّ ما. سيصدّق أيضاً الشيء الذي يوحي بأنه لا يصدّق: الحق أنه كان **هو** في هذا الجدال العنصر الموضوعي الهادىء المهذب، كما أنه كان في هذه الحالة أيضاً العنصر الثابت، على حين صار كلا الهويزريين مغرضين وكان صوتهما منفعلاً غاضباً، متوتراً، مستاءً، وأيديهم، حتى يدا كورت

عند نهاية هذا المشهد المؤلم المخزي ـ كانت ترتجف بصورة دائمة في ذلك الاتجاه حيث استطاع المرء أن يخمّن مكان محافظهم ـ لكأنها كانت ستسحب من هناك سترات، سترات محبّبة عمرها اثنتا عشرة سنة، يفضلها المرء على جلده وأقل تعويضاً، إذ أنَّ الجلد يمكن زرعه، أما السترة فلا؛ وبه يتعلّق المرء بلا عاطفية، لا لشيء إلاّ لأن المرء في نهاية المطاف غربي وتمّ تلقين شخصٍ ما بالعصا **مسألة الدموع** Lacrimae re-.rum.

كما أنّه تمَّ الإحساس أيضاً إحساساً استفزازياً أنَّ المؤلف خرَّ راكعاً على أرضيّة الصالة وبحث هناك زحفاً عن تلك المزقة التي كان قد انتزع معها أحد أزراره؛ فلربما احتاج هو إليه إذا ما ذهب إلى الرفاءة. ولما أنَّه تنازل من بعد ذلك عن كل تعويض وعرض بأن يتحملّ تكاليف رفء السترة بأن لمحَ إلى أنَّ هذا ربما تسنّى له بطريقة ملتوية غير مباشرة عن طريق نفقات العمل، إذ أنه أوّلاً وأخيراً يمارس وظيفته هنا، فقد تمَّ الإحساس بهذا أيضاً أنه إهانة؛ فالمرء لا يقتر الخ، أفٍّ، يا لسوء فهم تلو سوء فهم! ألا يمكن أن يصدّق المرء شخصاً أنه يود الحصول على سترته مرة ثانية، ولا شيء إلاّ سترته؟ هل ينبغي أن يتّهمَ المرء بالعاطفية التيميّة؟ ثم ألا يوجد أولاً وأخيراً إقتصاد أعلى عليه أن يمنع من أن ترمي سترة مرقّعة مرفوّة ويمكن استعمالها أيضاً وتسرّ لابسها، لا لشيء إلاّ لأنَّ المرء يملك محفظة متخمة ولا يريد أي نكد؟

* * *

أخيراً وبعد هذا الحدث العابر المغيظ الذي كان قد أفسد الانسجام

الأولى أيّما إفساد دخل المرء في الموضوع: موضوع المحفظات الثلاث التي، كما يظهر، شكّلت ملف ليني. ولا بدّ هنا من إعادة تلخيص كل ما حكي عن «إهمال الخالة ليني»، ومسلك الخالة ليني اللاواقعي وأخطاء الخالة ليني التربوية وصحبة الخالة ليني ـ «ولكي لا تعتقد أننا يمكن أن نكون متزمتين، رجعيين أو غير تقدميين، فالمسألة هنا ليست مسألة عشّاق، ولا مسألة أتراك، إيطاليين أو يونانيين ـ إنّ المسألة هي أنّ العقار قد انخفض ربحه بنسبة ٦٥٪ تقريباً، وإيراد البيع وحده، إذا استثمر بمهارة، قد يعطي ريعاً سنوياً يتراوح من أربعين إلى خمسين ألف مارك، ومن المحتمل أن يكون أكثر، لكننا نريد أن نحاجج هنا في نزاهة بالحد الأدنى ـ فأي ربح يدرّ البيت؟ فإذا ما خصم المرء التصليحات ونفقات الإدارة ومغبّات كافة المستخدمين والعمال الخارجين عن المجتمع في الطابق الأرضي حيث تسكن الخالة ليني وتخوّف مستأجرين أفضل جهاراً ـ، فأي ربح يدره البيت؟ لا خمسة عشر، في حدود ثلاثة عشر، أربعة عشر ألف». هذا ما قاله كورت هويزر.

ويستمر كورت هويزر في الكلام (الاختصار يمكن تأكيد صحته من خلال ملاحظات المؤلف)، بأنّ الموضوع لا يمسُّ عمالاً أجانب، وأن المرء لا يحمل أيّة تحيّزات عنصرية، ولكن ينبغي أن يكون المرء منطقياً، فلو أنّ الخالة ليني أعلنت استعدادها أن **تأخذ** إيجارات منصفة للسوق لكان هناك مجال للحديث عما إذا كان المرء سيضع البيت كلّه تحت تصرّف عمال أجانب ويؤجره سريراً سريراً وغرفةً غرفةً ويعيّن الخالة ليني مديرة، لا بل يمنحها سكناً مجانياً وتعويضاً نقدياً شهرياً؛ إلاّ أنها تأخذ ـ وهذا في الواقع جنون بل ويعارض معلومات المذهب الاقتصادي الاشتراكي ـ

إيجاراً يعادل الشيء الذي تدفعه هي؛ من أجلها فقط أبقى المرء على سعر المتر المربع بـ ٢,٥ ولا لكي يربح آخرون من ذلك؛ ولهذا تدفع الأسرة البرتغالية ١٢٥ ماركاً مقابل ٥٠ متراً مربعاً، يضاف إلى ذلك ١٣ ماركاً للحمام واستعمال المطبخ، والأتراك الثلاثة («أحدهم ينام دائماً عندها بحيث إنَّ اثنين فقط يشغلان الغرفة») ٨٧,٥٠ ماركاً لقاء ٣٥ متراً مربعاً، ويدفع الزوجان هيلتسن بدورهما ١٣٥ ماركاً مقابل ٥٠ متراً مربعاً، زائد ثلاثة عشر لكليهما، (وإنها في هذا لمجنونة جنوناً ما بعده جنون أن تحسب لنفسها أنصبة الحمام والمطبخ ضعفاً لأنها تحجز الغرفة لابنها ليف الذي تم إيواؤه بشكل مؤقت مجاناً». وما يجعل الإناء يطفح هو حقيقة الأمر أنها تحسب إيجار الغرفة غير مفروشة إيجار بيوت مفروشة؛ وليس هذا شيئاً بريئاً كل البراءة مثل تجربة شيوعية فوضوية، إنَّ هذا إفساد سوق؛ ويمكن أن يجني المرء على أقل تقدير وبدون مبالغة في الظلم من كل غرفة مع استعمال الحمام والمطبخ مبلغاً يتراوح من ثلاثمائة إلى أربعمائة مارك. الخ. الخ. وبدا لكورت هويزر نفسه مزعجاً أن يفكر بشيء «كان عليَّ أن أعالجه من أجل الموضوعية»، إذ أنَّ ليني لم يكن لها من الأسِّرة العشرة إلاَّ سبعة، وسرير واحد كان لا يزال للجد، وسرير ثانٍ لهاينريش بفايفر المستاء جداً، وسرير ثالث لوالديه «اللذين يقف شعرهما حين يفكران بما قد يمارس من جنس في الأسِّرة».

إنَّ ليني لا تخلُّ بقوانين اقتصادية بصورة واضحة وبحقوق الانتفاع فحسب، بل بحقوق الملكية أيضاً، وبما أنه استحال على الزوجين بفايفر في أثناء ذلك، أن يتفاوضا مع ليني مباشرة فإنَّهما كانا سيتخليَّان عن حقوقهما في ملكية السرير أمانة لشركة هويزر ذات الضمان المحدود

والتوصية بالأسهم من أجل الحفظ: إذ أنه ينبغي ألاّ تصان حقوق خاصة فحسب، بل حقوق أوصي عليه قانونياً، وبهذا قد يكتسب الشيء بعداً إضافياً سيكون عنده شيء مبدئي مهدّداً وفي خطر. السرير الذي هو ملك لهاينريش هويزر، كان قد وهبته له أمُّ الخالة ليني وذلك في أثناء الحرب، «عندما كان ينتظر هناك استخدامه في الجبهة»، والهبة هبة، وإنها استملاك نهائي بمفهوم المشرّع. وإنه ـ ولا حرج من أن يستعمل المؤلف هذا ـ ليس في الإمكان الفهم أنَّ المستأجرين كلهم أو المستأجرين من مستأجرين مشغولون عند حمل الزبالة أو تنظيف الشوارع. هنا احتجَّ المؤلف بأن لفت النظر إلى أنَّ الزوجين هيلتسن **ليسا** مشغولين في أثناء حمل الزبالة، والسيّد هيلتسن موظف بلدية في مركز من المرتبة الوسطى، والسيدة هيلتسن تمارس المهنة المحترمة لمجمّلة تعمل في فن التجميل والبرتغالية أنا ماريا بينتو تخدم في المشرب في مطعم يخدم الزبائن أنفسهم فيه خدمة ذاتية تابع لمتجر محترم؛ هو نفسه جلب من عندها كفتة وفطيرة بالقشدة وقهوة وحاسبها على ذلك، على حين كان هذا صحيحاً لا غبار عليه. وأكدَّ كورت هويزر هذا التصحيح بإيماءة من رأسه، لكنه أضاف أنَّ الخالة ليني لا تتصرّف في نقطة أخرى تصرفاً دقيقاً من حيث التدبير المنزلي، فهي في صحة تامة وقادرة على العمل لمدة سبع عشرة سنة أخرى، لكنها تخلّت عن عملها بناء على وسوسات طائشة لابنها المشوّش الذهن ولكي تهتم بالأطفال البرتغاليين الثلاثة الذين كانت تغنّي لهم وتعلّمهم الألمانية وتركتهم يعاونون في «رسوماتها الرديئة» ـ وثابت في أحد الملفات ـ أنها منعتهم مراراً وتكراراً من أداء واجبهم المدرسي، مثلما فعلت مع ابنها. فهناك الكثير من

الأخطاء، وهذه حال الدنيا، وإنَّ مَنْ يناصب القانون العداء ينظر إليه من قبل المحيط بأنه نكرة، وكذا هي الحال أنه ينظر إلى حمل القمامة وتنظيف الشوارع بأنهما أحطُّ الأعمال، وبهذا تهبط جاذبية البيت الاجتماعي، وبتلك تهبط قيمة الإيجار.

هذاكلّه تمَّ سرده بلهجة هادئة وبحجج سليمة وبدا مقنعاً. كان الزّعل على السترة قد انتسي من زمن، إلاّ أنه كان لا يزال يتقدّ في أعماق المؤلف الذي وجد، وهو يتحسس من غير عمد قطعة الملابس المحبوبة، إصابة كبيرة في البطانة الداخلية، وأحس فضلاً عن ذلك كيف توسع المزق الذي أحدثه صبي إيطالي في القميص. على كل حال هناك شاي جيدة وكعك مع الجبنة وسجائر، وبقيت الطلّة الرائعة من النافذة المقوّسة وتكوّن اطمئنان من حقيقة أنَّ فيرنر هويزر أكدَّ بصورة دائمة كلام أخيه بإيماءة رتيبة منتظمة بالرأس بأنْ كان ينبر تقريباً نقاطاً مهمة وفواصل وشرطات وفواصل منقوطة ـ ونشأ بذلك خليط من تأثير الجاز وتأثير يسبّب الهلوسة وحدّة الحس أوحى بالانسجام.

يجب الإطراء هنا أيضاً على حساسية فيرنر هويزر الذي لا بدَّ أنه أحسّ أنَّ المؤلف، وقد امتلأ من معلّلات ضيّقة إلى هذا الحد كما التكتم، كان سيطيب له أن يتطرق إلى موضوع كان على لسانه، إذا صحّ التعبير: وهو لوتّه هويزر التي هي على كل حال أمٌّ لكلا هذين السيدين الشابين اللذين يوحيان بالتمكّن والاستقرار.

هو ـ فيرنر ـ كان ذلك الذي ذكر من غير استحياء هذا «الإغتراب المحزن والكلي للأسف»؛ فليس على المرء أن يخادع نفسه بأي شيء، قال هو، وعليه أن يحلل واقعة ما تحليلاً موضوعياً، وينبغي عليه أن

يقوم بعملية نفسية، ولو كانت مؤلمة، وبما أنّه هو يعرف أنَّ هناك اتصالاً بين المؤلف وأمّه، لا بل إنه ليحتمل أن يكون هناك تعاطف، بينما التعاطف بينه وبين أخيه وجدّه وبين المؤلف لم يعد «متوازناً» بسبب «حادثة محزنة لكنها ثانوية في حدّ ذاتها». ويهمه أن يؤكد أنه ليس في مقدوره أن يفهم أن شخصاً يفضّل سترة تويدية مهترئة من معمل منسوجات من الدرجة الثالثة والتي يمكن تمييزها بسهولة أنّ عمرها «اثنتا عشرة سنة»، وذلك على سترة جديدة مصدرها معمل منسوجات كبير، إلاّ أنه تربّى على التسامح، ومستعد أيضاً، للتساهل مع تلك، ولو تنفيذاً للشعار الرايني «مجنون يترك مجنوناً وحده». كما أنه غير قادر أيضاً أن يفهم النفور الواضح من سيارة مفضّلة إلى هذا الحدّ ومنتشرة مثل هذا الانتشار الواسع مثل سيارة الفولكس فاكن ـ وهو نفسه اقتنى لزوجته سيارة فولكس فاكن لتكون ثاني سيارة، وحين يجري ابنه أوتو الذي هو الآن في الثانية عشرة، امتحان الثانوية في نحو ست أو سبع سنوات فلسوف يقتني السيارة الثالثة من نوع الفولكس فاغن. هذا، بطريقة عابرة، والآن إلى أمه. إنها، وتلك غلطتها الأساسية، وإن لم تشوّه صورة الأب الشهيد، إلاّ أنها قللت على نحو مبتذل من شأن الخلفية التاريخية التي سقط فيها قتيلاً بأن وصفت كل شيء بأنه سخافة. «حتى الصبيان الشطّار إلى تلك الدرجة، كما كنا نحن بدون ريب، تلهّفوا ذات يوم إلى صورة أبيهم». لم يتأتَ عليهما هذا، فقد وُصف لهما أبوهما بأنه رجلٌ طيب، حساس، ولو أنه كان فاشلاً جزئياً، على أية حال كان فاشلاً من حيث الوظيفة، ولم يظهر قط شكٌّ في حبّ أمه لأبيه فيلهيلم، على أنَّ صورة الأب تحطمت بسبب كلمة

سخافة المستعملة بصورة دائمة وفي السياقات التاريخية على نحو منتظم، وإن لم يكن طبقاً لخطة؛ وزاد الأمر الواقع وبالاً أنه كان لها عشاق، غروتن، كان لا يزال هذا مقبولاً مع أنّ لا شرعية العلاقة جرّت عليهم سخرية وأذى، «واكثر من ذلك» أنها نامت من بعد ذلك مع روس، ومن حين لآخر ضاجعت أيضاً أمريكانياً أهملته مارغريت الرهيبة هذه»، وثالثاً، انفعالها المعادي للدين والكنيسة، وليس هذا الشيء نفسه، كما يعرف هو، فكان لهذا نتائجه الرهيبة؛ وكان عندها كلا الانفعالين «متحدين على نحوٍ إجرامي»؛ وسامتهما الطريق المدرسي الطوي المضني إلى مدرسة حرّة، وازدادت تجهمّاً وتكدّراً وتبرّماً ومرارة بعد أن مات «الجد غروتن» في حادث، وغاب التوازن بالذات؛ وهذا التوازن ـ، وعليه أن يعترف بذلك ويقدّره لها إلى اليوم ـ، قد وجده لدى الخالة ليني التي كانت دائماً لطيفة ظريفة وكريمة، وغنّت أغاني وروت حكايات، وصورة المرحوم، ربما كان في الإمكان القول، زوجها، ولو أنه كان جندياً من جنود الجيش الأحمر، هذا الصورة لم تمسَّ قط، وأبت ليني أن تشارك في تفسيرات المصير السخيف التي لا عداد لها؛ أعواماً وأعواماً، أجل أعواماً وأعواماً بمعنى الكلمة جلست معهما ومع ليف في المساء على الراين، «بيديها اللتين أضرَّ بهما انغراز شوك الورد فيهما بعض الشيء»؛ وليف كان قد عمِّد لتوّه، أما كورت فلم يكن قد تعمّد، لم يعمّد عند الراهبات إلاَّ في السابعة من عمره، حين تأتّى، والحمد لله»، لجدّه أوتو أن يخرجهما من هذا «الوسط» حمداً لله، لأن الخالة ليني كانت للأطفال الصغار رائعة، أما بالنسبة للبالغين فقد كانت سمّاً؛ إنها تغنّي أكثر مما ينبغي وتتكلم أقلَّ مما ينبغي، ولو أن هذا كان مريحاً

وذا أثرٍ ناجع، ذلك أنَّ الخالة ليني «لم يكن لها قط أية علاقة بالرجال، على حين كان الوضع لدى أمّنا مريباً، وكان لدى مارغريت الرهيبة كما هي الحال في مبغى». ونوّه فيرنر هويزر أيضاً بماريا فان دورن» لا بل إنه ذكر بوجاكوف بالخير، «مع أنَّ هذا غنّى أحياناً بعض الشيء أكثر مما ينبغي». هذا وإنَّ المرء اتخذ في نهاية المطاف اللون المسيحي الصحيح، وتربّى على الإنجاز والمسؤولية، ودرس، فهو درس القانون وكورت درس الاقتصاد، «على حين مارس جدّه سياسته المالية، ولا بدَّ من القول، السياسة الرائعة المبدعة، التي مكنتنا من أن نستخدم معلوماتنا على الفور في مؤسساتنا الخاصة».

يحتمل أن يظهر النهوض بشباك مراهنات لا يشغَله إلاّ تشغيلاً إضافياً، بمظهر محترم، وفي الحقيقة هو هواية، مشروع أساسه تجاري غايته إشباع غريزة اللعب عنده بإطلاق العنان لها. لكن في النهاية لا بدَّ من التأكيد أنَّ الخالة ليني أخطر من أمّه التي وصفها بأنها «ليست إلاَّ إشتراكية مزيّفة محبطة» ليس في مقدورها أن تسبّبب أيَّ أذى. أما الخالة ليني فإنّه يجدها رجعية بكل ما في الكلمة من معنى عميق، إنه لقسوة أو إنه لا إنساني مثلما كانت تأبى إباءً غريزياً، عنيداً، متعذّر التعبير عنه بالكلام، إنّما ثابت ومبدئي، ومثلما لا ترفض كل مظهر من مظاهر التفكير بالربح بشكل تقريبي، فهذا يشترط تعبيراً، بل ترفض ببساطة. ويصدر عنها التحطيم والتحطيم الذاتي، ولا بدَّ أن يكون هذا عنصراً في آل غروتن، وكان في أخيها أيضاً وفي أبيها بدرجة أعلى. وختم فيرنر هويزر حديثه قائلاً: إنَّه لم يكن مجرداً من الإنسانية، كان منفتحاً للحياة والدنيا وكان ليبرالياً إلى أقصى الحدود التي أظهرتها له

تربيته؛ فقد كان نصيراً صريحاً لحبة منع الحمل، ولموجة الجنس، ويعدّ نفسه مسيحياً، وإن شاء المرء، فهو «متعصّب للتهوية»، وإنَّ ما ينبغي أن يحدث مع الخالة ليني، أنه يجب أن تتهوّى. ليس هو، هي إنسان فظ غليظ القلب، إذ أنَّ الطبيعة البشرية تنطوي على الرغبة السليمة في التملّك والربح، وهذا ما أثبته علم اللاهوت، بل توافق عليه الفلسفة الماركسية أكثر وأكثر. وأخيراً، وهذا على الأقل يمكن أن يغفره لها، هي مسؤولة عن تعاسة إنسان لم يحبه هو فحسب، بل إنه يحبه إلى هذا اليوم: إنه ليف بوريسوفيتش غروتن، ابنه بالمعمودية «الذي أوكل إليه في ظروف درامية، وإني لأعتبر هذا مهمة أو تكليفاً، وربما نظرت إلى هذا التكليف إلى حين نظرة فيها شيء من السخرية اللاذعة، إلاَّ أنني أولاً وأخيراً عرّابه، وليس هذا وضعاً ميتافيزيقياً ولا دينياً اجتماعياً فحسب، بل قانوني أيضاً أنوي أن أراعيه». واعتبر المرء هذا فيهما، فيه وفي أخيه، كراهية أنهما كانا سيتركان ليف يتّهم ويحكم عليه ويسجن «بسبب بعض الحماقات، إلاَّ أنها من الناحية القانونية مشكوك فيها»، وفي الواقع كان هذا حالة حب لردّه إلى صوابه وكسر ما «يعتبر في النهاية أكبر الكبائر: تعاليه وتكبّره». وما زال يذكر أبا ليف بأنه إنسان طيّب لطيف وظريف وهادىء، وإني متأكد من أنَّ ذاك ما كان ليهمه أن يترك ابنه يتحوّل إلى ما تحوّل إليه أخيراً على طرق ملتوية غير مباشرة: زبّال. فلا يريد أن يجادل على الإطلاق في أنَّ حمل القمامة ذو أهمية ووظيفة اجتماعية من الدرجة الأولى، ولكن مما لا جدال فيه أنَّ ليف «كفوء لشيء أعلى». (علامات التنصيص من وضع المؤلف الذي لم يستطع أن يستشفَّ من حديث فيرنر هويزر بصورة دقيقة ما إذا كان

يستشهد هو هنا أم يتلو أم أنه قد نقل شاهداً إلى كلامه؛ وإنه لمن غير الممحّص ما إذا كانت علامات التنصيص هنا مجوّزة. ولا يمكن اعتبارها إلاّ اقتراحاً).

على المرء أن يتصوّر أنه انقضت حتى الآن قرابة ثلاث ساعات، من الرابعة حتى السابعة. وربَّ أشياء حدثت، وربَّ أشياء قيلت. وفتاة الأغراض المتعددة لم تعد تظهر، والشاي في الترموس ازدادت مرورة، فقد كانت مركّزة جداً؛ والكعك بالجبنة كان قد فقد طراوته في المكان الدافيء أكثر من اللازم وصار في النهاية مثل الجلد، ومع أنَّ فيرنر هويزر كان قد نعت نفسه بأنه مروحة تهوية فلم يعدَّ عدّته إطلاقاً ليمدَّ المكان المتناسق كل التناسق بشتى أنواع التبغ (فيرنر هويزر: غليون، كورت هويزر: سيجار والمؤلف سيجارة) بالهواء النقي؛ محاولة المؤلف أن يفتح فعلاً الجانب الأوسط من النافذة المقوّسة التي كانت معلّمة بإطار نحاسي منفرد وقبضة تدل على أنه جزء قابل للفتح، حيل دونها من قبل كورت هويزر مبتسماً وبعنف رقيق، وليس من غير الإشارة إلى جهاز تكييف الهواء المعقد الذي لا يسمح «بالتهوية الفردية بشكل تلقائي» إلاّ بلمعة إشارة معيّنة تنظّم أعمال البيت المناخية؛ وبما أنَّ هذه الساعة ـ على حدّ قول كورت هويزر بلهجة وديّة ـ وبهذا الوقت بالذات، إن كانت المكاتب وإدارات التحرير مغلقة، هي الساعة الحرجة، فعلى المرء أن يحسب حساباً بأن يحصل على الإذن بالتهوية عن طريق لمعان عين سحرية مثبّتة على غطاء النافذة؛ وفي الوقت نفسه فإنَّ جهاز التكييف محمّل تحميلاً زائداً بحيث إنه يعجز عن أن يدخل تلقائياً ما يكفي من الهواء النقي. «إنه في الحقيقة وحدة سكنية من ثماني وأربعين وحدة

إفرادية مختصّة بالبناء بمقياس ١٢ × ٤ تكون كلها محمّلة بأكثر من طاقتها، في الوقت الذي يُملي فيه البريد وتجري فيه اتصالات هاتفية حاسمة وتحدث فيه مناقشات مهمة. لك أن تحسب ثماني وأربعين وحدة بأربع غرف، ولك أن تحسب لكل غرفة بمعدّل شخصين مدخّنين ونصف الشخص ـ وفي المعدل الإحصائي شخص واحد من هؤلاء كثير التدخين (يحرق السيجارة تلو السيجارة، ونصف شخص مدخن غليون ونحو ثلاثة أرباع الشخص مدخن سيجار احصائياً ـ فيكون في هذا الوقت بهذا المبنى عادة أربعمائة وخمسة وسبعون مدخّناً ـ لكنني قطعت الحديث على أخي ويبدو لي أنه كان علينا أن ننهي الحديث، إذ أنَّ «وقتك محدود بكل تأكيد».

أجل، الآن فيرنر هويزر مرة أخرى (تمَّ نقل ما قاله بإيجاز شديد)، المسألة ليست مسألة مال، كما قد يظنُّ مراقبون سطحيون فقط، ولا يقصد المؤلف على الإطلاق. فالمرء عرض على الخالة ليني منزلاً مجانياً في أحسن موقع بلا مقابل، وقد أعلن المرء استعداده أن ييسّر لليف الذي كان إطلاق سراحه قاب قوسين، شهادة ثانوية مسائية، ثم دراسة جامعية في آخر المطاف، لكن هذا كلّه رفض لأن المرء يحسُّ بالارتياح في هذا المجتمع، مجتمع زبّالين، ولأنَّ المرء يأبى أن يقوم بأقلَّ ما يمكن من التكيف؛ لا أسباب راحة تجذب أو تغري، فالمرء متعلّق بموقده القديم الطرز وبمدافئه وعاداته ـ وإنه لواضح مَنْ هو هنا الطرف الرجعي. إن المسألة مسألة تقدّم ـ وقد تفوّه بهذه الكلمة في صفتها المزدوجة باعتباره مسيحياً في جوّه المسيحي وعالماً اقتصادياً ورجل قانون متسامحاً وضليعاً في أصول النظام والقانون ـ، «من يتقدّم عليه أن يتجاهل بعض

الناس، عندها لن يعود هناك وجود لشيء رومانسي مثل ‹متى نخطو جنباً إلى جنب› التي غنّتها لنا أمّنا حتى الملال. كما أننا لا نستطيع أن نفتح النوافذ، كما نشاء، على نحو ما ترى، حتى ولا في بيتنا الخاص بنا مسموح لنا أن نفتح النوافذ متى نشاء». طبيعي أنَّ المرء لا يستطيع أن يضع تحت تصرّف الخالة ليني مساحة مائتين وأحد عشر متراً مربعاً في أي مبنى من مباني هويزر الجديدة ـ فهذا سيماثل حاصل إيجار قدره نحو ألفي مارك، كما أنّه لا يمكن السماح بمدافيء ونوافذ «يمكن فتحها على مصاريعها في كل وقت»، وبخصوص مستأجرين عندها، ومستأجرين من الباطن أو عشّاق، كان ينبغي أيضاً وضع قيود «اجتماعية تافهة كل التفاهة». «لكن اللعنة مرة أخرى»، هنا صار فيرنرهويزر عدوانياً لأول مرة، ولو إلى حين، «إني لأودّ أن يكون لي أيضاً الجو الهاديء مثل الخالة ليني». ولهذا السبب ولأسباب أخرى، ولا سيّما من أجل أغراض سامية يجب أن تبدأ الآلة التي تبدو قاسية لا ترحم.

كان سيطيب للمؤلف أن يقول في هذا المقام كلمة ترضية، كما أنه كان سيبدي استعداداً لأن يقرَّ بالتفاهة النسبية للزعل على السترة بالنظر إلى المشاكل الخطيرة لهؤلاء الناس المعذبين الذين لم يسمح لهم أن يفتحوا نافذتهم في بيتهم على مصراعيها؛ وفي نهاية المطاف لم يكن هذا بذي أهميّة كما كان قد بدا له في البداية. لقد كان كورت هويزر ذلك الذي حال بينه وبين النطق بهذه الكلمة البسيطة وإن لم تكن كلمة ترضية، لكنها على الأقل متعاطفة، إذ أنّه لم يكن هناك أيُّ جدلٍ بينه وبين كلا الشخصين اللذين يعطيان معلومات. لقد كان هو الذي نطق

بنوع من الكلمة الختامية بأنْ سدّ الطريق إلى باب الخروج لا على نحوٍ فيه تهديد، بل على نحوٍ فيه رجاء، وذلك عندما اتّجه المؤلف صوبه بعد كلمات وداع مقتضبة وفي يده المعطف والقبعة.

وفيما كان يخصّه هو، فإنَّ المؤلف كان لا بدَّ له من أن يصحّح الكثير من الأحكام المسبقة وطاف هو بذهنه بعد كل التفاصيل المنقولة مثل مزيج من ضبع وذئب بصفته بطلاً في الاقتصاد لا يبالي؛ على أنَّ كورت هويزر كانت له عن قرب عينان أقرب ما تكونان إلى الحلاوة شابهتا في الشكل فقط، لا في المضمون، عيني أمه، ومن المؤكّد أن قسوة لوته الساخرة ومرارتها القريبة من الدموع في هاتين العينين الرقيقتين العسليتين اللتين يمكن أن يقال عنهما في ارتياح إنهما عينا غزال، وقد خففت منهما عناصر لا يمكن أن يكون مصدرها إلاّ أبوه فيلهيلم، على أية حال ليست إلاّ من فرعه، ولو لم تكن من أبيه، جدّ كورت، وإذا ما أعمل المرء عقله في أنَّ مجمل الاستعدادات الوراثية لكثير من الأشخاص الذين اختلطوا مباشرة مع ليني منشؤها المثلث الجغرافي فيربن ـ تولتسم ـ لوسيميش، فعلى المرء أن يثني بعض الشيء على مزارع الشمندر هذه، وإن كانت قد أنجبت إلى جانب ذلك آل بفايفر. ما من شكّ: كورت هويزر كان إنساناً حسّاساً، وكان لا بدَّ من إعطائه فرصة ليعبر عن ذلك، مع أنَّ الوقت كان ضيّقاً. فلم يتحرّج من أن يضع يده على كتف المؤلف، لم يكن في هذه الحركة مرة أخرى منافقة «ولا تفضّلٌ»، إنّما شيء من الأخوة التي ينبغي ألا تمنع عن أي إنسان. قال بصوت خافت: «انظر، يجب ألاّ تذهب حاملاً الانطباع لكأنّما يكرّ الآن، فيما يتعلّق بالخالة ليني، علم حركة آلية عنيف متعلّق بالتاريخ

الاجتماعي، عملية قاسية تدمّر بنى متأخّرة ونخضع لها نحن أيضاً؛ فلو تركنا هٰذا الإخلاء الإجباري القضائي يمرّ من غير شعور ومن غير تروٍّ وبلا ضمير كلياً لكانت الحال هكذا بكل تأكيد، إلاّ أن الحال لم تكن هكذا بالنسبة لهذا. إننا نقوم بذلك عن معرفة وليس من دون ضمير، على أية حال ليس من غير اختبار ضميرنا. أنا لا أنكر الضغط الذي يمارس علينا من قبل ملاكين زراعيين ملاصقين وجماعات الأملاك الثابتة. إلا أننا كنّا سنكون أقوياء بما يكفي لأن نتحرر منه، أو لأن نمهل مهلة. كما أنني لا أريد أن أنكر أيضاً أنَّ لدى جدّنا حركات كيفية انفعالية شديدة، وهذا أيضاً كان يمكننا أن نضعه مرة أخرى في نصابه وربما كان سنسوّي فضلاً عن ذلك، كما فعلنا ذلك طوال سنوات، لا بل طوال عقود تقريباً، حساب إيجار ليني من الجيب الخاص وكنا سنظهر على هذا النحو بمظهر المهدّيء المسترضي. وفي نهاية المطاف نحبها، ندين لها بالكثير ونحسّ بغرابتها أقرب إلى اللطف والإيناس منه إلى الإزعاج والمضايقة. وأعدك وأفوِّضك بأن تنقل مضمون هذا الوعد. فحين ينتهي غداً الإخلاء الإجباري ويخلى المسكن سنسوِّي على الفور، كورت وأنا، الحساب وسنوقف التنفيذ كلّه، وهناك شقة جميلة جداً جاهزة لها في أحد مقاسم الأبنية الخاصة بناء، إلاّ أنه ليس مسكناً تستطيع أن تأوي فيه عشرة مستأجرين من الباطن. لا، ليس هو بذلك. على أنَّ المكان كافٍ لها ولابنها وربما أيضاً لعشيقها الذي لا نريدها أن تنفصل عنه على الإطلاق. فالمسألة مسألة أمر آخر، أمر أسمّيه بدون تحرّج وحياء إجراءً تربوياً، توجيهاً رقيقاً محبّاً يجب أن يستخدم للأسف وسائل تنفيذ وحشية للغاية. ليس هناك أية سلطة تنفيذية خاصة.

وسيحصل هذا إذاً بصورة وجيزة وبدون ألم، وعند الظهر يكون كل شيء قد انتهى، وإذا لم تثر ثائرتها، الأمر الذي يخشى منه عندها، سكنت في المساء في المسكن المجهّز لها. كل شيء أعدّ لفكّ أثاثها القديم الأثير إلى نفسها في اللحظة الحاسمة وإعادة شرائه. بل إنَّ للعمل خلفياته التربوية، التربوية على نحو مفعم بالحب، والمبدئية على سواء. ولربما تستهين أنت بالفهم الاجتماعي لمجموعة مثل ملاّكي البيوت والعقارات، ولكنني أستطيع أن أبوح لك: أن المرء فطن منذ زمن طويل إلى أنَّ هذه المباني السكنية القديمة الكبيرة هي بالذات تلك المساكن الرخيصة نسبياً والتي تحظى بشيء من أسباب الراحة وما شابه ذلك، وفيها تتشكل تلك الخلايا التي تناصب مجتمعنا القائم على الإنجاز والعمل العداء. إنَّ الأجور العالية للعامل الأجنبي لا يمكن تبريرها إلاَّ تبريراً اقتصادياً حين يستنزف قسم منها في الإيجارات وبهذه الطريقة، وكما هو الشأن دائماً، سيبقى في البلاد: فالأتراك الثلاثة يكسبون معاً نحو ألفي مارك وزيادة ـ ولا يحتمل أنهم لا يدفعون منها بما فيه استعمال الحمام والمطبخ إلاَّ نحو مائة مارك للإيجار. ويكون هذا خمسة بالمئة، قياساً إلى العشرين وحتى الأربعين بالمئة التي يجب أن يدفعها موظف عادي. إنَّ كلا الزوجين هيلتسن يدفعان من دخل إجمالي قدره نحو ألفين وثلاثمائة مارك نحو مائة وأربعين، **مفروش**. والحال متشابهة عند البرتغاليين، هنا يزيّف ببساطة موقف المنافسة بطريقة لو أنها انتشرت لأودت في الحقيقة مثل مرضٍ سارٍ بأحد المبادىء الأساسية لمجتمعنا القائم على الإنجاز والعمل ومبادىء دولتنا الدستورية الحرة في ديمقراطيتها، ولقوّضته وهدّمته. ألا ترى أنَّ تكافؤ الفرص ينتهك هنا.

وتجري على التوازي مع هذه العملية الاقتصادية المضادّة؛ وهذا حاسم، عملية أخلاقية مضادة. مثل هذه الظروف، كما تسود في مسكن الخالة ليني، تشجّع أوهاماً كومونية اشتراكية، إن لم نقل شيوعية، ليست مخربّة فتاكة بصفتها أوهاماً، بل بصفتها صورة رعوية، ولا تشجّع الاتصال الجنسي غير الشرعي، بل مذهب الاتصال الجنسي غير المشروع الذي يدمّر شيئاً فشيئاً، ولكن بشكل مؤكد، الحياء والأخلاق ويزدري الفردية. وفي إمكاني أن أورد لك بعض الأوجه، وربما عشرات الأوجه الواضحة. وباختصار: ليس هذا بإجراء شخصي ضد الخالة ليني، فليس هناك كراهية ولا ثأر، بل على العكس، هناك تعاطف، وبصراحة، هناك حنين إلى هذه الفوضوية اللطيفة، وأعترف أن هناك شيئاً من الحسد ـ لكن الحاسم هو أنَّ هذا النوع من المسكن، وهذه المعرفة تقوم على تحليلات دقيقة لاتحادنا، مرتع، ولنقل هذا من غير انفعال، مرتع لشيوعية تشجّع صوراً رعوية طوباوية ونزعة فردوسية. أشكرك على صبرك، وإذا ما تعرّضت لصعويات في السكن، فإننا نضع أنفسنا تحت تصرّفك ـ لا اشتراطات لذلك، وهذا لا يقوم إلاَّ على تسامح لطيف».

— ١٠ —

جرى في منزل شيرتينشتاين مثلما كان قد جرى في بعض حجرات سمولني المجاورة في سانت بطرسبورغ في تشرين الأول سنة ١٩١٧. ففي مختلف الغرف انعقدت لجان مختلفة. السيدة هولتهونه، لوته هويزر والدكتور شولسدورف شكّلوا ما يسمى باللجنة المالية التي كان عليها أن تهتم بمدى سوء الحالة المالية عند ليني، وبمحاضر حجز وشكاوي الإخلاء وما شابه ذلك. وباشتراك الزوجين هيلتسن والتركي محمد والبرتغالي بينتو كان قد تمَّ وضع اليد على رسائل وغيرها كانت ليني قد خبأتها بدون فض على نحوٍ فيه ازدراء في درج الكومودينة، وفيما بعد، وحين لم يعد في هذه متّسع، في القسم السفلي من الكومودينة، وكان قد تمَّ تعيين بيلتسر نوعاً من رئيس أركان حرب لهذه اللجنة الثلاثية. وكان على شيرتينشتاين أن يهتم ومعه هانز هيلتسن وغروندتش وبوجاكوف الذي كان قد أحضر من قبل لوته بسيارة أجرة، بموضوع «المجرى الاجتماعي». وماريا فان دورن كانت قد تولّت أعباء التموين والتي كان عليها أن تجهّز السندويشات وسلطة البطاطا والبيض والشاي. ومثل الكثيرين من هواة الساموفار (غلاّية الشاي الروسية) كان رأيها أن تهيّأ الشاي في ساموفار، وكان بوجاكوف قد أطلعها على وظائف الساموفار، آلة كبيرة جداً، كانت قد أرسلت إلى شيرتينشتاين، كما أفاد هو، من معطٍ مجهول مع قصاصة ورق كتب عليه بالآلة

الكاتبة: «من أجل عزف ليلي مارلين المتنوع كثيراً شخص تعرفه». وماريا فان دورن، مثلها مثل كل ربّات البيوت من بنات جيلها، غير ذات خبرة بالشاي، كان لا بدَّ من إجبارها إلى حدّ ما على أن تجعل الكمية المحددة من قبلها أربعة أضعاف على الأقل. وبالمناسبة برهنت أنها عظيمة، وما إن كانت قد حققت بعض التفوق في التموين، حتى أخذت سترة المؤلف وبحثت في كومودينة شيرتينشتاين عن أدوات خياطة وقتاً طويلاً من غير طائل، لكنها أفلحت فيما بعد بمؤازرة لوتّه فبدأت ترفو جروح السترة المعروفة المؤلمة من الداخل والخارج بمهارة فائقة ومن غير نظارات، وترفو بطريقة عملية رفواً فنياً، هذا إذا ما قدّر المرء مهارتها، وإن لم تكن هذه قد توثقت بأي دبلوم. ذهب المؤلف إلى حمّام شيرتينشتاين الذي أبهجته مقاساته الفخمة وأبهجه حوض الاستحمام الضخم فيه مثلما راق في عينيه مخزون شيرتينشتاين من أخلاط العطور. لا بل إنه استعار قميصاً من قمصان شيرتينشتاين، ذلك لأن لوتّه، وقبل أن يتمكن من الحيلولة دون ذلك، كانت قد اكتشفت المزق في قميصه، وكان القميص مليحاً رغم بعض الفارق في عرض الصدر وقياس القبة. إنَّ هناك كل ما يوجب لوصف منزل شيرتينشتاين بأنه مثالي: بناء قديم، وثلاث غرف تطل على فناء وفي إحداها جناح والمكتبة ومكتب أيضاً، وفي الغرفة الثابتة التي يمكن أن تسمّى ضخمة نوعاً ما (الكبر مقاس طبعاً بحسب الخطوات لا بشريط القياس: ٧ × ٦) كان سرير شيرتينشتاين وخزانة ثياب وكومودينات، وانتشرت ملفات ضمّت مجمل كتاباته النقدية، والغرفة الثالثة كانت المطبخ الذي لم يكن كبيراً جداً. لكنه كان كافياً، وكذلك الحمام الذي إذا قيس بكل حمام في

بناء جديد، سواءٌ فيما له علاقة بسعته أم أثاثه، فقد أوحى بالبذخ إن لم يكن بالترف والنعيم. كانت النوافذ مفتوحة، ورأى المرء في الفناء أشجاراً عمرها على أقل تقدير ثمانون سنة، وجداراً غطّاه اللبلاب، وبينما كان المؤلف لا يزال في الحمام ساد في الغرف المجاورة هدوء كان قد طلب بهسهسة عنيفة من قبل شيرتينشتاين قائلاً هس هس. ثم حدث شيء شغل المؤلف لفترة قصيرة عن التفكير بكليمينتينا، أو عمّق هذا التفكير كثيراً، على نحو مؤلم إذا صحَّ التعبير. حدث شيء عجيب: فقد غنّت إمرأة ـ لا أحد يمكن أن يكون غير ليني. إنَّ مَنْ لم يتصوّر قط شيئاً في حورية ليلو الشابة الجميلة ربما كان حريّاً به أن يتعامى عن قراءة الاسطر التالية، لكن مَنْ سبق أن وظّف قليلاً من المخيّلة في حورية ليلو الجميلة، فليعلم هذا أنه: لا يمكن أن تكون غنت إلاَّ هكذا. كان صوت فتاة، صوتاً نسائياً، وكان له وقع آلة، وأيَّ شيء غنّت في أجواء الفناء الهادىء، عبر النافذة المفتوحة إلى نوافذ مفتوحة؟

صنعت شالاً
لأغنيتي؛ طرّزته
من فوق إلى تحت
بأساطير قديمة
أخذه حمقى
لبسوه على مرأى
من العالم لكأنهم
هم نسجوه.
وإنه ليتطلب مزيداً من الشجاعة

أن يمشي المرء عارياً

من الناحية الوجودية فإنَّ هذا الصوت الذي حمل هذه الكلمات إلى الفناء الذي قد انساب غناؤها على الأرجح ـ غير مسموع وبلا سميع أو مجيب ـ قبل أكثر من أربعين سنة، كان له تأثيره بحيث إنَّ المؤلف لم يستطع أن يكتم دموعه إلاَّ بشق النفس وأخيراً ولأنه سأل نفسه لماذا دائماً يكتمها، تركها تنساب من غير إبطاء. أجل، هنا اعتراه بكاء، إلاَّ أنه أحسَّ بالغبطة، وبما أنه لم يستطع أن يكتم أفكاراً مبطّنة أدبية إلاَّ بصعوبة كبيرة، فقد ساوره فجأة شكٌ في المعلومات عن كتب ليني الموجودة؛ فهل كان المرء قد بحث هنا أيضاً بالدقة المطلوبة، وقلب صناديق وأصونة بحثاً، ولربما غاب عنه بعض الكتب الموجودة عند أم ليني، لكاتب كان المرء قد منعه لأنَّ المرء كان خجل من أن ينطق بالاسم نطقاً خاطئاً؟ ولا شكَّ في أنّه كان يمكن اكتشاف كنوز أخرى في موجودات ليني، نفائس خبيئة كانت أمها قد عرفتها فتاة شابة في عام ١٩١٤، في عام ١٩١٦ على أبعد تقدير.

* * *

على حين لم تكن اللجنة المالية قد توصلت بعد إلى أي وضوح كانت لجنة المجرى الاجتماعي قد توصلت إلى المعرفة أنَّ الإجراءات الوحشية ستبدأ غداً في نحو الساعة السابعة والنصف، إنَّما في الوقت نفسه فتحت المكاتب التي يمكن للمرء أن يوقف هذا المجرى. وأنه لمستحيل استصدار إجراءات إيقاف في الليلة نفسها، مع أنَّ شيرتينشتاين كان قد أجرى في هذا الخصوص اتصالات هاتفية لا طائل

تحـتـهـا مع مـخـتلف المحـامين، لا بل مـدعين عـامين. وعلى هذا برزت مشكلة كسب الوقت والسؤال الذي يكاد يصعب حلّه: أنّى للمرء أن يؤجل إخلاء المسكن الإجباري حتى التاسعة والنصف تقريباً؟ وقد وضع بيلتسر معلوماته وعلاقته لبعض الوقت في خدمة جمعية المجرى الاجتماعي واتصل هاتفياً ببعض وكلاء الشحن وموظفي تنفيذ كان يعرفهم من حفلة كارنفاله «ايمر جرونه شتروسير»، وبما أنه كان أيضاً عضواً في نادٍ للمغنين الرجال، كما لم يتبيّن إلى الآن، نادٍ «يعجّ بقانونيين وما شابههم»، فقد وجد على كل حال أنَّ إيقافاً قانونياً كان شبه مستحيل. وأعاد الكرة على الهاتف إذ وضع أمام عيني إنسان خاطبه بـ (يوب) إمكانية تعطيل سيارة اراد هو ـ بيلتسر ـ «أن تكلّفه شيئاً ما»، على أنَّ بوب، والظاهر أنه وكيل النقليات المكلّف، بدا أنه غير موافق على الخطة، الشيء الذي علّق عليه بيلتسر قائلاً بنفس ممرورة: «ما زال هو لا يثق بي، ولا يصدّق دوافعي الخالصة في إنسانيتها». لكن حين وردت عبارة تعطيل السيارة خطر ببال بوجاكوف خاطر شبه عبقري. ألم يكن ليف سائق سيارة زبالة، ألم يكن التركي كايا تونتش والبرتغالي بينتو سائقي سيارة زبالة أيضاً، ألم يكن هناك وسط سائقي سيارات الزبالة شيء من التضامن مع زميلهم المسجون وأمه؟ أي شيء كان يمكن أن يحدثه تضامن صرف؟ هذا ما قاله كل من بينتو وتونتش، بينتو الذي بدا ريفياً مثل تونتش، وبما أنَّ المرء بدا أنه في غير حاجة إليه لا في اللجنة المالية ولا في لجنة المجرى الاجتماعي، فإنّه كان يقشّر في المطبخ البطاطا المسلوقة، بينما كان تونتش قد تولى خدمة الساموفار والإمداد بالشاي. هل كان عليهما ـ وهذا الآن باستياء

وازدراء ـ أن يعبّرا عن التضامن بعبارات بورجوازية (عبّرا عن ذلك بطريقة أخرى: «كلام، كلام، لا شيء إلاّ كلام بورجوازيين»)، على حين تمَّ طرد عشرة أشخاص، من بينهم ثلاثة أطفال، طرداً قانونياً؟ لكن هنا هزّ بوجاكوف الرأس، وبحركة من الذراع صعبة ومصحوبة بألم أحدث هدوءاً وأوضح أنه رأى فيما مضى من زمان في مينسك وهو تلميذ في المدرسة، كيف أعاق المرء ترحيل أسرى على أيدي قوى رجعية. فقد أعطى المرء قبل الترحيل بنصف ساعة على نحو وهمي إنذاراً بالحريق، وطبيعي أن المرء عمل حساباً لأن تقاد سيارات إطفاء من قبل رفاق موثوق بهم، وأمام المدرسة التي كان الأسرى مسجونين فيها تسبب المرء في اصطدام مفتعل إلى حدّ أن رصيف المارة إنسدّ بذلك أيضاً؛ وبهذا تمَّ اكتساب الوقت لتحرير الأسرى من باب الخروج الخلفي ـ والذين لم يكونوا إلاّ جنوداً وضباطاً معرّضين لأشدّ الخطر ومتهمين بالفرار من الجندية وبالعصيان المسلح. وبما أنَّ بينتو وتونش وكذلك شيرتينشتاين وشولسدورف الذي جاء مسرعاً لم يفهموا بعد فقد صار بوجاكوف واضحاً. إذ قال: «سيارات الزبالة هي في الحقيقة أشياء ثقيلة إلى حدّ ما لا تلائم في كل الأحوال حركة المرور. وفي كل مكان تسبّب تجمّعاً، فإذا اصطدمت سيارات أو بالأحرى ثلاث سيارات زبالة هنا عند تقاطع الطرق فسيكون الخط كلّه غير سالك لمدة خمس ساعات على الأقل، ويوب هذا لن يقترب بشاحنته من البيت إلاّ على بعد خمسمائة متر، وبما أنه لن يستطيع أن يمرَّ بالقرب من البيت إلاّ مروراً عندما يدخل مرتين شارعاً ذا اتجاه واحد، وكما أعرف الألمان جيداً، فلن يكون هنا أبداً حين يتم الحصول على تأجيل. ولكن في حال أنه قطع فعلاً تذكرة الرصيف،

وهذا يعني الحصول على الإذن، ليستعمل الشارع ذا الاتجاه الواحد تأدية لواجب ملحّ، ففي هذه الحال يجب أن تصطدم على قارعة الشارع الأخرى سيارتا زبالة أيضاً». وقد أشار شيرتينشتاين إلى أنه سيكون للمسألة ذيولها، ولا سيما لسائقين أجانب لو أنهم سبّبوا مثل ذلك، ولا بدّ من التروّي فيما إذا لم يكن من الأفضل كسب ألمان من أجل ذلك. ولإنجاز ذلك زوّد سالازار بأجرة السفر وسفرّه على حين رسم بوجاكوف الذي زوّده شولسدورف بقلم رصاص وورقة، خارطة رسم فيها كل الشوارع ذات الاتجاه الواحد، يعاونه في ذلك هولتسن. وتوصل المرء إلى النتيجة أن اصطدام سيارتين زبالة سيكون كافياً لخلق فوضى خطرة كل الخطر وستعلق فيها شاحنة بوب على نحو ميؤوس منه على بعد كيلو متر من المنزل. وبما أنَّ هولتسن كان يعرف شيئاً عن إحصاء المرور وكان يعرف أيضاً بصفته موظفاً في مصلحة إنشاء الطرق أبعاد سيارة زبالة وحمولتها معرفة تامة، خلص وهو يعمل مع بوجاكوف في المخطط الاستراتيجي، إلى أنّه «سوف يكفي إلى حدّ ما إذا ما أصطدمت سيارة زبالة واحدة فقط بهذا الفانوس أو هذه الشجرة». إلاَّ أنه من الأفضل جعل سيارة زبالة أخرى تسبب حادث صدام. «فهذا يستغرق مع الشرطة ولوازمها أربع أو خمس ساعات». وعلى هذا عانق شيرتينشتاين بوجاكوف وسأله عما إذا كان في إمكانه أن يلبي له طلباً ما، إلاَّ أنَّ بوجاكوف أجاب أنَّ غاية ما يبتغيه وآخر أمنية له تقريباً أن يسمع ‹ليلى مارلين› مرة أخرى، إذ أنه يحسّ بأنه بائس تعيس. وبما أنه لم يعرف شيرتينشتاين من قبل، فلا يجوز الظن أنَّ هنا خبثاً، إنما بساطة روسية معينة، ليس غير. امتقع وجه شيرتينشتاين، لكنه برهن أنه رجل نبيل

بأنه توجه على فوره إلى المعزف وعزف ‹ليلي مارلين› ـ وأغلب الظن للمرة الأولى منذ نحو خمس عشرة سنة. عزفها عزفاً صحيحاً. وأبدى إعجاباً بالأغنية عدا عن بوجاكوف الذي بكى من التأثر التركي تونتش وبيلتسر وغروندتش. وأصاخت السمع كل من لوتّه والسيدة هولتهونه، وخرجت ماريا فان دورن من المطبخ وهي تبتسم ابتسامة عريضة.

أوضح تونتش الذي صار موضوعياً من جديد، أنه لسوف يقوم هو بالحادث المفتعل، وأنه قاد سيارة ثماني سنوات بدون حادث رضاء لوسائل نقل البلدية، ولربما كان في مقدوره القيام بهذا الحادث، لكنه ينبغي عليه أن يغيّر طريقه أو يستبدلها؛ ومن أجل ذلك يحتاج الأمر إلى اتفاق فقط، ولئن كان هذا صعباً إلاّ أنه ليس بمستحيل القيام به.

في أثناء ذلك كانت اللجنة المالية قد وصلت إلى وضوح. قالت السيدة هولتهونه، «لكن حذار من أن نخادع أنفسنا، إنه لوضوح مخيف. فآل هويزر جمعوا كل شيء، كما أنهم اشتروا التزامات ديون أجنبية بأجمعها أيضاً، ويدخل في ذلك محطة الغاز والمياه. فلا يروعكم مجموع مبلغ إجمالي قدره ستة آلاف وثمانية وسبعون ماركاً وثلاثون بفينيكاً». وبالمناسبة فإنَّ العجز الذي يغطي نفسه بالفاقد من الأجر بسبب القبض على ليف تغطية شبه تامة يبرهن أنَّ ليني تستطيع أن تساوي بين الإيراد والمصروف؛ ومن حيث ذلك فلا ضرورة إلى إعانة مالية ضائعة، بل إلى قرض فقط. وسحبت دفتر شيكاتها ووضعته على المنضدة وملأت صكاً واحداً وقالت: ألف ومائتان في البداية. ولا طاقة لي بأكثر من ذلك في الوقت الحاضر. فأنا فرّطت بمشتريات زائدة عن الحد لدى إيطاليين مملين. وأنت تعرف، يا بيلتسر، كيف يكون هذا».

وقبل أن يسحب بيلتسر دفتر صكوكه لم يستطع أن يمسك عن تعليق فيه دعوة إلى الأخلاق. قال: «لو أنها باعتني البيت لما كان جاء النكد كلّه، لكنني أقدم ألفاً وخمسمائة» ـ وبنظرة إلى لوته ـ«آمل ألاّ أكون غير منبوذ إلاّ عندما يحتاج المرء إلى مال». وبدون أن تستجيب لوته إلى تعريض بيلتسر، أعلنت إفلاسها، وأكد شيرتينشتاين تأكيداً جديراً بالتصديق أنَّ كل ما وصلت إليه يده مع أصدق النيات ليس بأكثر من مئة مارك؛ وتبرّع هيلتسن وشولسدورف بثلاثمائة أو خمسمائة مارك، على حين أبدى هيلتسن الاستعداد أن يشارك بنصيب في تسديد الدين الباقي عن طريق زيادة الأجرة. وأوضح شولسدورف وهو محمرّ الوجه أنه يرى من واجبه أن يتحمّل الباقي ذلك لأنه مذنب بكثير أو قليل، ولكن بالمناسبة بلا حدود، في حق السيدة بفايفر فيما يتعلق بسوء حالتها المالية، إلاّ أنَّ عيبه الذي يقلّل دائماً السيولة عنده أنه يجمع الآن نفائس روسية، ولا سيما مخطوطات كتب بخط المؤلفين، وقد اشترى لتوّه رسائل لتولستوي غالية وعزيزة جداً على نفسه، إلاَّ أنه مستعد لأن يبدأ من الصباح الباكر بالخطوات الإدارية ويسرع بها، واستناداً إلى علاقات فمن الممكن حتماً أن يستصدر تأجيلاً، ولا سيما حين يسحب قرضاً على مرتّبه وهذا ما سيفعله غداً على فوره بعد فتح شباك الصّرف، ويتوجه بكامل المبلغ نقداً إلى الجهات المختصة. وبالمناسبة فإنَّ النصف يكفي بالتأكيد في البداية، وإذا ما وعد بالباقي حتى الظهر. ثم أنه في النهاية موظّف ومعروف بأنه نزيه، وبالمناسبة عرض على أبي ليني بعد الحرب في أحاديث عديدة تعويضاً خاصاً، لكن هذا رفضه، وها إنَّ الفرصة قد سنحت له لأن يكفّر عن خطاياه الفيلولوجية التي أدرك بعدها السياسي

في وقت متأخر جداً. وكان لا بدّ للمرء من أن يرى شولسدورف شبيهاً جداً بعالم. شبيهاً بشوبنهاور ـ والدموع في صوته كانت ظاهرة ملحوظة. «أما الشيء الذي أحتاج إليه، سيداتي سادتي، فهو على الأقل ساعتان من الزمن. فأنا لا أحبّذ إجراء سيارة الزبالة، لكنني أقبله على أنّه دفاع عن النفس وسأسكت، مع أنَّ يميني الوظيفية تحدث لي صراعاً وأزمة. إني أؤكد لكم أنَّ لديَّ أيضاً أصدقاء ونفوذاً، ومدة خدمة لا تشوبها شائبةٌ طوال نحو ثلاثين سنة ضد ميلي لكن في الظاهر ليس ضد موهبتي، أوجدت لي أصدقاء ذوي مناصب عالية سوف يعجّلون وقف التنفيذ. إنّما: امنحوني وقتاً».

أما بوجاكوف الذي كان قد درس في أثناء ذلك خريطة المدينة مع تونتش فقد رأى الإمكانية الوحيدة في طريق أطول، في خلل فني مفتعل، وإن دعت الضرورة في وقفة في شارع جانبي هادىء. على أية حال تمَّ وعد شولسدورف بالوقت. وحتى قبل أن يتمكن شيرتينشتاين من البدء بالكلام قاطع نفسه بحدّة قائلاً هُسْ هُسْ ـ ليني عاودت الغناء.

مثلما امتلأ جسمك بمثل هذا الجمال
ينضج العنب على التلّة ذهبياً
وعن بعد تتألق مرآة البحرة
والمنجل يصلصل في الحقل

تعليق بيلتسر على ذلك، بعد أن ساد سكون شبه رهيب لم يقطعه في بادىء الأمر إلاّ كركرة ساخرة من كركرات لوته: «إنه لصحيح، إذاً، أنها حامل منه». وبهذا يمكن البرهان على أنَّ الشعر العظيم نفسه له

قيمة إخبارية قابلة للتعميم.

هنا خرج المؤلف أول مرة عن حياده قبل أن يغادر الرفقة ذات المزاج الاحتفالي المهيب بأنْ دفع أيضاً مبلغاً بسيطاً إلى صندوق ليني.

* * *

بعد أن كان قد تمَّ إعلامه في اليوم التالي نحو العاشرة والنصف صباحاً عن طريق شولسدورف بنجاح التأجيل قرأ في يوم الغد التالي في جريدة محلية تحت عنوان: ‹أمن المحتمل أن يكونوا أجانب؟› التقرير التالي: «هل كان تخريباً، مصادفة، تكراراً لحادثة الزبالة المشكوك فيها أو ما معنى ذلك أنَّ سيارة نقل الزبالة سائقها برتغالي كان أريد منها أن تقوم بعمل في صبيحة أمس قبيل الساعة السابعة على بعد ثلاثة كيلومترات غرباً في شارع بروكنر، وأنّ سيارة زبالة أخرى سائقها تركي كان عليها أن تؤدي عملها على بعد خمسة كيلومترات شرقاً في شارع كريكمان، وأنهما اصطدمتا معاً على ناصية شارع بيتسيرات وأولدينبورغ؟ وكيف حدث أنَّ سيارة ثالثة من سيارات حمل الزبالة سائقها ألماني تجاهلت لافتة الطريق ذي الاتجاهين ودخلت أيضاً في شارع بيتسيرات واصطدمت هناك بالمصباح الكهربائي؟ أوساط اقتصادية لها في هذه المدينة مكانة واسم ولها أفضالها على هذه المدينة، وافت إدارة التحرير بأنباء، وطبقاً لهذه الأنباء لا بدَّ أن تتعلق المسألة هنا بعمل مدبرّ. إذ أنَّ السائقين ويا للعجب، التركي والبرتغالي يسكنان في دار سيئة السمعة من دور شارع بيتسيرات كان المفروض إخلاؤها أمس بالاتفاق مع الدائرة الاجتماعية وشرطة الآداب. وإنَّ ‹ذوي الخير والبر›

لسيدة يقال عنها إنها من بائعات الهوى حالوا عن طريق قرضٍ عالٍ جداً دون الإخلاء الذي عطّل بسبب فوضى المرور التي تفوق كل وصف (انظر الصورة). وقد وصف كلا السائقين الأجنبيين من قبل سفارتي بلديهما أنهما عنصران غير مأموني الجانب من الناحية السياسية وما على المرء إلاّ أن ينعم النظر فيهما ويحكم عليهما حكماً صارماً. ألم يعلم المرء غير مرة منذ وقت غير بعيد أنَّ أجانب يعملون في الإتجار بالأعراض ونكرر السؤال ـ **مثل أما بعد فأعني**: هل ينبغي أن يكونوا دائماً أجانب؟ إن الحادثة الشائنة المخزية في الظاهر لا تزال موضع بحث حتى الآن. إنَّ شخصاً مجهولاً حتى الآن كان قد اندسَّ بصفة ‹وجودي››إلى الأوساط الاقتصادية المذكورة أعلاه بحججٍ واهيةٍ وكان قد أطلعه المرء عن حسن نيّة على بعض المعلومات ويشتبه به أنه مسبّب الحركة. ويبلغ الضرر بحسب تقديرات مؤقتة نحو ستة آلاف مارك. وليس في الإمكان تقدير الشيء الذي يمكن أن تكون قد كلّفته فوضى المرور هذه من إنجاز غير عادي مدة عدة ساعات».

لم يطر المؤلف بدافع الجبن، لا بدافع الشوق ـ لا، إلى روما، إلى فرانكفورت، ومن هناك سافر بالقطار إلى فورتسبورغ، إلى حيث نقلت كليمينتيا نقلاً تأديبياً، بعد أن اتهمها المرء أيضاً بإفشاء أسرار له تتعلق براحيل غينسبورغ. وهي ـ كليمينتينا ـ لم تعد تتروى في أثناء ذلك فحسب، بل عقدت العزم أيضاً أن تترك الرهبنة وتخلع غطاء الرأس وتظهر شعرها النحاسي اللون كلياً.

* * *

ربما كان من المفروض النطق هنا بتفاهة عظيمة: أنَّ المؤلف رغم أنه يسعى ويجتهد ليسافر مثل طبيب ما على دروبه المتشابكة «بعربة أرضية وأحصنة لا أرضية». فهو أيضاً ليس إلاَّ إنساناً؛ وأنّه يستشف من مؤلفات أدبية معينة الزفرة «مع ايفّي على بحر البلطيق» ومن غير تبكيت ضمير، ذلك لأنه ليس هناك أية ايفي Effi رهن إشارته يسافر معها إلى بحر البلطيق، وليس أمامه إلاَّ أن يسافر مع كليمينتينا، ولنقل، إلى فايتسهوشهايم ويناقش معها هناك مسائل وجودية؛ ويأبى أشدّ الإباء بأن يسميّها «فتاته»، لأنها هي تمانع بأن تصبح «فتاته»؛ إنَّ لديها عقدةً بارزة هي عقدة غطاء الرأس، ذلك لأنها أمضت نحو ثماني عشرة سنة مرتدية هذا الغطاء ولم تعد ترغب في أن تبقى تحته، وهي تعدّ ما يسميه المرء طلباً شريفاً، طلباً غير شريف؛ وبالمناسبة فإن أهدابها أطول وأرق مما بدت لحظة من الزمن في روما؛ ومنذ عقود من الزمن مبكرّة في النهوض، تستمتع بالنوم طويلاً والفطور في السرير والتنزّه والقيلولة، تلقي محاضرات طويلة نوعاً ما (وربمّا سمّاها المرء تأملات أو حوارات داخلية) عن أسباب خوفها لتجتاز مع المؤلف خط الماين في اتجاه الشمال. ولن يكون كلام عن حياتها ما قبل فايتسهوشهايم. «افترضْ أنني مطلقة أو أرملة ـ فلن تكون بي رغبة عندئذ لأحكي لك أيضاً كلمة واحدة عن زواجي». عمرها الحقيقي إحدى وأربعون سنة، اسمها الحقيقي كارولا، إلاَّ أنه لا اعتراض لديها البتة أن يستمرَّ اسمُ كليمينتينا. وعن كثب وبعد عدة أحاديث يتبيّن أنها مدلّلة: لم يكن عندها أيّةُ هموم تتعلق بالإيجار والثياب والكتب والتموين ـ وهذا هو مصدر خوفها الحياتي، حتى تكاليف قهوة بسيطة في العصر ـ في

شفتسنغن ربما أيضاً أو نومبفينبورغ ـ تخيفها، فكل دفع يرعبها. وهذا الاتصال الهاتفي الدائم إلى «شمال المانين» ـ هكذا تسمي هي هذا ـ يثير أعصابها لأنها تعتبر كل شيء تسمعه عن ليني متخيّلاً. لا ليني نفسها التي يمكنها إثباتها من ملفات الجمعية الديرية للرهبنة؛ ولئن تمكنّت من أن تتوصل إلى المقال المشهور عن (المركيزة فون أو...) وأن تقرأه، إلاّ أنها حصلت من الراهبة برودينتيا كتابياً على إثبات بشكل المقال نفسه ومضمونه. فكل ذكر لراحيل غينسبورغ يثير أعصابها، ومطلب المؤلف أن تسافر معه إلى غير سيلين وتقطف هناك وروداً ردّت عليه برفع يدها اليسرى للضرب مثل قطة؛ إلاّ أنها لا تريد أن تعرف أيَّ شيء عن المعجزات». ربما كانت الإشارة هنا مسوّغة أنّها تتجاهل، عن غير وعي، الفرق بين الإيمان والمعرفة؛ المؤكد أنَّ غيرسيلين لها أمل في أن تصبح مكان مياه معدنية ساخنة؛ فالماء هناك تتراوح درجته بين ثماني وثلاثين وتسع وثلاثين درجة مئوية، ويعدُّ هذا مثالياً. ومؤكد فضلاً عن ذلك، كما كان في الإمكان معرفته هاتفياً أنَّ شولسدورف التزم للغاية (على حد قول شيرتينشتاين) وأنّه تمَّ رفع دعوى على الجريدة المستشهد بها بأن تسحب عبارات مثل «دار سيئة السمعة» و«عاهرة بائعة هوى»، على حين أنَّ الصعوبة الوحيدة هي أقناع المحكمة بأن عليها أن تعتبر التعبير اللطيف «بائعة هوى» إهانة فضلاً عن ذلك: لوته تسكن مؤقتاً في غرفة ليف، والتركيان تونتش وكيليتش سيشغلان على الأرجح شقة لوته الصغيرة (هذا إذا وافق مالك البيت الذي يعتبر «حاقداً على سكان الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط»)، لأنَّ ليني ومحمد قررا أن يعيشا معاً حياة مشتركة، وإنها لتسميه مؤقتة، إذ أن محمداً متزوج

لكنه مسلم، الأمر الذي يجيز له زوجة ثانية، بحسب شرطه هو، لا بحسب الشرط القانوني للدولة المضيفة، هذا إذا صارت ليني مسلمة، وليس هذا بمستبعد لأن القرآن أيضاً أفرد مكاناً للعذراء. وفي أثناء ذلك يتمُّ أيضاً حلُّ مشكلة التسوّق لأن أكبر أطفال البرتغاليين، مانويلا ابنة الثماني سنوات، تجلب الخبز. وضغط المرء على هيلتسن في دائرته «ضغطاً خفيفاً بصورة مؤقتة» (كل شيء نقلاً عن شيرتينشتاين). وفي أثناء ذلك واجهت ليني «لجنة ساعدوا ليني» واحمرّ وجهها «من الفرح والحياء أيضاً» (وأغلب الظن للمرة الرابعة في حياتها. المؤلف)، وأثبت طبيب أمراض نسائية حملها، وتقضي كثيراً من الوقت عند أطباء، وتتركهم يفحصونها «من فوق إلى تحت طولاً وعرضاً» لأنها «تريد أن تجهز للطفل بيتاً صالحاً» (شيرتينشتاين نقلاً حرفياً عن ليني). ونتائج الكشف للطبيب الاختصاصي في الأمراض الباطنية وطبيب الأسنان وطبيب الجراحة العظمية والبولية سلبية مئة بالمئة؛ إلاَّ الطبيب النفساني فإنه وحده يضع بعض القيود، وأثبت تضرّر الوعي الذاتي ضرراً لا موجب له كلياً وإهمالاً كبيراً للبيئة والمحيط، على أنه يعتبر هذا كلّه قابلاً للشفاء، حالما يطلق سراح ليف من السجن. ثم إنَّ عليها من بعد ـ «ويجب اعتبار هذا دواءً موصى به» (شيرتينشتاين نقلاً عن الطبيب النفساني) ـ أن تتنزّه بقدر المستطاع ذراعاً بذراع مع محمد شاهين وليف على مرأى من الملأ. أما الشيء الذي لم يدركه الطبيب النفساني، كما لم يدركه شيرتينشتاين، فهي الكوابيس التي تزار فيها ليني، كما يظهر، من قبل شوف ولوح خشبي ورسام وضابط، حتى لو أنها أخلدت إلى النوم في حضن محمد المواسي. ويوصف هذا ـ على نحو غاية في

البساطة وغير صائب كلياً، كما قد يبرهن المؤلف ـ «بعقدة الأرملة»، ـ وكذلك أيضاً على نحو غير صائب ـ يعزى أيضاً إلى الظروف التي حملت فيها بليف وولدته. فهذه الكوابيس المرعبة، كما تعرف كليمينتينا أيضاً، ليس لها أية علاقة على الإطلاق بالمدافن والغارات وبالعناق في أثناء الغارات نفسها.

* * *

ببطء تأتّى للمؤلف أخيراً أن يخطف كليمينتينا إلى «شمال الماين»، وقد توقّف في باديء الأمر في ماينز وبعدها في كوبلينس، وفي المرة الثالثة في أنديرناخ، مسهِّلاً الانتقال بخطة مدروسة باتقان ومتعددة المراحل. فإلى جانب اللقاءات الطبيعية تمَّ تدريج اللقاءات الإنسانية أيضاً بحرص وحذر أولاً السيدة هولتهونه، بسبب مكتبتها والجو المتحضر المثقف وبيئتها القريبة من الرهبنة؛ كما أنَّ ناساً مثقفين لهم حق في المراعاة والاعتبار. لقاء موفّق وناجح أنهته السيدة هولتهونه بعبارة مهموسة همساً مبحوحاً «إني أهنّيء» (علام؟ المؤلف). وبعد ذلك ب. هـ. ت. تألّق بحساء بالبصل رائع وسلطة إيطالية ممتازة وشريحة لحم محمّرة وتلقّف برغبة ونهم كل شاردة وواردة عن راحيل غينسبورغ وغيرسيلين وما إلى ذلك؛ وبما أنه يحتقر قراءة الصحف فإنّه لم يعرف أيَّ شيء عن الفضيحة التي انتهت بالتأكيد في ذلك الأثناء، وبعد ذلك وعند الوداع همس «أنت أيها المحظوظ». أما غروندتش وشولسدورف وشيرتينشتاين فقد كانوا ناجحين نجاحاً هائلاً حقيقياً: الأول بسبب «سلوكه الطبيعي»، وكذلك أيضاً لأن الحزن الخلاّب من مقابر قديمة لا

يخـيِّب له أثر أبداً؛ وشـولسـدورف، لأنـه قنبلة حـقـيـقـيـة من الظرف والجاذبية؛ فمن ذا الذي يقدر على مقاومته؟ إنه منشرح الصدر منذ أن وجد الأساس الواقعي ليفيد ليني، وفضلاً عن ذلك فإنّه بصفته عالم لغة زميـل لكلمـينتـينا، فسـرعان ما انجرف كلاهما وهما يتناولان الشاي وأقراص الحلوى باللوز والسكر، في حوار حاد محتدم حول مرحلة ثقافية روسيـة سوفيـيتـيـة سمتهـا كليـمينتـينا الشكلية وسمّاها شولسدورف البنيوية. غير أنَّ شولسدورف تراجع قليلاً وشكا كثيراً من الكيد والدسّ والمذهب الفاغنري للمحنيّن معيّنين محسوبين على الشباب، واشتكى أيضاً بصراحة، ناظراً إلى كليمينتينا نظرة ألم وإلى الفناء نظرة أكثر تألماً، من أنه لم يرتبط قط بأية امرأة؛ ولعن المعزف والموسيقا، وتوجّه بنوبة من الماسوشية إلى المعزف ونقر عليه على نحوٍ محطِّم للنفس تقريباً معزوفة (الليلي مارلين) واعتذر بعدئذ ورجا بانتحاب جاف أن «يتركوه وحده مع عذابه وألمه». كيف يمكن تقدير هذا الألم، اتضح عند الزيارة المحتّمة لبيلتسر الذي هزل هزالاً شديداً في تلك الأثناء ـ في غضون الخمسة الأيام تقريباً، أيام فايتسهْوشْهايم وشفيتسينغ ونومبفينبورغ ـ؛ وفي حضور زوجته أيفا التي قدمت القهوة والجاتو بكآبة متعبة، إنما لطيفة حلوة، وأبدت بضع ملاحظات استسلامية بعامة، فهي لم توحِ في معطفها الأبيض المبقّع الوسخ أنها طبيعية تماماً، وحدّثت أحاديث مليئة بالحزن والألم والحسرة وتناولت موضوعات مثل بويس وأرتمان و «العبث المعقول للفن»، على حين استشهدت بما فيه الكفاية من مجلة يومية جادة ـ، ثم كان عليها أن تعود إلى مرسمها، «يجب عليَّ أن أذهب، الرجاء أن تعذروني»! بدا بيلتسر مقلقاً. نظر إلى كليمينتينا لكأنه

يعتبرها «عصفوراً في اليد» عندما انصرفت هذه بعد ذلك لأسباب ملحّة قوية واضحة لفترة من الزمن (وكانت قد شربت عند شولسدورف ثلاثة أقداح من الشاي وعند بيلتسر حتى الساعة فنجانين من القهوة)، همس بيلتسر: «أول ما ظنّه المرء سكّراً، لكن نسبة السكر بالدم عندي طبيعية تماماً، وما عدا ذلك أيضاً ـ لا شيء. يمكنك أن تصدّقني، ولك أن تضحك، أنني أحسُّ أول مرة أنَّ لي روحاً وأنَّ هذه الروح تعاني، ولأول مرة أرى أنه ليس أية امرأة، بل إمرأة واحدة تستطيع أن تشفيني؛ وفي وسعي أن أخنق هذا التركي ـ أيُّ شيء يعجبها في هذا الجلف الذي يفوح منه نتن الخروف والثوم وأنه بالمناسبة أصغر منها بعشر سنوات وله زوجة وأربعة أطفال، وها هو قد حبّلها ـ أنا ـ ساعدني بالله عليك». إنَّ المؤلف الذي أظهر تعاطفاً لا يستهان به مع بيلتسر لفت النظر إلى أنه معروف أنَّ توسّط طرف ثالث في مثل هذه الشدّة سيفشل ـ لا بل أنَّ الأثر سيكون عكسياً. **وهذه** مسألة يجب على المبتلى بذلك أن يجد وحده الحل فيها. ويتابع بيلتسر قائلاً: «في أثناء ذلك أقدّم للعذراء كل يوم دستة من الشموع، وأنا ـ الآن يواجه رجل رجلاً ـ ألتمس العزاء عند نساء أخر، ولا أجده وأشرب وأرتاد نوادي القمار ـ لكن لا أملك إلاّ القول: **أغلق باب المراهنة**. رجاء». إذا قيل إنَّ بيلتسر بدا مؤثراً فالمرجو ألاّ يكون في الإمكان العثور في ذلك على أيّ أثر للسخرية، ولا سيما أنه هو نفسه علّق على حالته تعليقاً صائباً: «لم أكن قط عاشقاً في حياتي، عاشرت المومسات، بل إنّي مارست الفسق والفجور، أما زوجتي التي أحببتها جداً، فما زلت أحبّها، وأحبُّ ألاّ ينزل بها مكروه وما دمت حيّاً ـ لكنني لم أقع في هواها، وليني التي اشتهيتها منذ أن رأيتها أول

مرة، ودائماً يفسد عليَّ خطتي أجانبُ، فأنا لم أغرم بها، لم أغرم بها إلاَّ منذ أنْ رأيتها مرة ثانية قبل أسبوع أنا... أنا لست مسؤولاً أبداً عن موت أبيها؛ أنا ـ أنا أحبها ـ لم أقل هذا عن أية امرأة حتى الآن». في هذه اللحظة عادت كليمينتينا وألّحت على التحرّك، على نحو يكاد لا يحس به أي مخلوق، إنّما ملموس. كان تعليقها فظّاً نسبياً، كان على الأقل بارداً وموضوعياً: «تستطيع أن تسميه كيفما شئت ـ مرض بيلتسر أو شيرتينشتاين».

* * *

بمناسبة الرحلة القصيرة إلى تولتسيم ـ لوسيميش سنحت الفرصة لضرب عصفورين بحجر واحد: كليمينتينا التي تصف نفسها دائماً بأنها جبلية وبافارية عن اقتناع ولا تعترف إلاَّ كارهة أنَّ ناساً لطفاء المعشر يسكنون شمال الماين أيضاً، كان في الإمكان تعريفها بسحر، لا بل بفتنة السهل الذي ربما عرّفوها به في شيء من التحمّس المفرط؛ واعترفت بأنها لم تر بعد حتى الآن مساحات سهلية في مثل هذا الاتساع قد تذكرها بروسيًا «لو لم أعرف أنَّ هذا لن يستمر إلى أبعد من ثلاثمائة إلى أربعمائة كيلومتر، على حين إنها تبلغ آلاف الكيلومترات، لكن عليك أن تعترف بأنها تذكّر بروسيًا». فالحصر «ما عدا الأسوار الخشبية» رفضت أن تقبل به، كما أنها رفضت رفضاً مطلقاً تأمّلاً أطول عن الأسوار الخشبية والأسيجة وعلامات الحدود على أنّه «أدبيّ» أكثر من اللازم، ورفضت تلميحاً إلى أصلها الكلتي على أنّه «مفرط في العرقية»، لكنها في نهاية المطاف، ولو كارهة مرة ثانية، اعترفت، بأن

«له قوة امتصاص أفقية»، على حين أنَّ له عندنا قوة امتصاص عامودية؛ هنا يتملكك الإحساس دائماً بأنك تسبح، كذلك في السيارة، وأغلب الظن في القطار أيضاً، وينتابك الخوف بأنك قد لا تصل إلى الضفة أبداً، وهل يوجد هنا ضفة أو شاطىء؟» إشارة إلى المرتفعات المرئية للتلال السفحية وما قبل سلسلة جبال الآيفل الإردوازية، هذا كله جعلها تضحك ضحكة ساخرة ليس إلا.

أما ماريا فان دورن فكانت ناجحة للغاية. جاتو بالخوخ مع القشدة المضروبة (تعليق: أنتم تأكلون هنا في كل مناسبة قشدة مضروبة»). وقهوة كانت ماريا فان دورن قد حمّصتها وطحنتها حديثاً «كما ينبغي»، أثبتت أنها لا تقاوم «ورائعة، أول قهوة شربتها على الإطلاق، الآن فقط أعرف ما هي القهوة» الخ... الخ. و: «ربما كنتم ذواقين». وكذلك أيضاً تعليق الوداع عند ماريا فان دورن: «متأخر بعض الوقت، لكن ليس متأخراً أكثر من اللازم، ليباركك الله»، ثم هامسة: «ستعلمك هذه إياه». (تصحيح مصحوب باحمرار الوجه، وكذلك في همس): «أقصد قليلاً من النظام وما شابه ذلك». ومن ثم دموع: «أصبحت وبقيت عانساً عجوزاً».

* * *

أطلق على بوجاكوف في المسكن اسم «مدلّل»، وبطريقة مفاجئة «مدلّل دلالاً مجهولاً». كان قد ترك قصاصة ورق فقط: «لا داع للبحث، شكراً بصورة مؤقتة، سأخبر بحضوري»، على أنَّ هذا الإخبار لم يحدث منذ أربعة أيام. أعتقد بيلينكو أنَّ بوجاكوف عاد «فاستأثر به

الفسق والفجور»، أما كيتكين فقد أعتقد أنه يحتمل أن يكون في الطريق بصفته «مخبراً أحمر»؛ واعترفت الراهبة اللطيفة بصراحة أنها تفتقد بوجاكوف، وأعلمت أنَّ هذا يحدث في الربيع كل سنة تقريباً». في هذه الحال لا بدَّ له من أن يرحل مرة، فالأمر يزداد صعوبة لأنه يحتاج إلى حقناته. ويؤمل أن يحظى بالدفء والأنس».

* * *

مع أنها كانت قد علمت عن ليني في تأملٍ متنوعٍ إلى هذا الحد، تارة أكثر شدة وحدة، وتارة أكثر صراحة، وتارة أخرى أكثر تضميناً (عند ب. هـ. ت الذي استطاع أن يثبّت ويؤكد وجودها على كل حال)، أرادت كليمينتينا أن تراها على أي حال «رؤية العين، ملموسة، مشمومة مرئية». ليس بدون ارتجاف وجزع ترك المؤلف هانز هيلتسن يرتّب اللقاء المباشر المستحق من زمن مع ليني، تمَّ الاتفاق لأنَّ ليني «عصبيّة» جداً. لوته فقط ومحمد و «أنت ستتعجبون ممن» سيسمح له بهذه المقابلة.

قال هانز هيلتسن: «إنها تنفعل بعد النزهات الأولى مع محمد بحيث إنها لا تتحمل حضور أكثر من خمسة أشخاص. وعلى هذا لن نكون نحن، زوجتي وأنا، حاضرين. وما يثير أعصابها بخاصة هو العشق والترقب الشهواني المرتبط بذلك أو التوتّر، كما يوحي به بيلتسر وشيرتينشتاين والذي يظهر حتى عند شولسدورف بالتلميح».

بما أنَّ كليمينتينا أولّت عصبيّته وتوتر أعصابه بنوع من الغيرة أوضح لها المؤلف أنه يعرف كل شيء عن ليني، أما عنها، عن

كليمينتينا، فيكاد لا يعرف أيَّ شيء؛ لا بل إنه، استناداً إلى تحرياته المكثفة المعقدة، مطّلع على شؤون ليني الشخصية الأكثر حميمية، ويخيّل إليه أن خائن أو مطلّع على الأسرار، بينما هي، أي كليمينتنا، قريبة منه، أما ليني، رغم أنه يستلطفها، إلاَّ أنها غريبة عنه.

يجب الإعتراف بصراحة أنَّ المؤلف كان سعيداً بمرافقة كليمينتينا وبحبِّ الاستطلاع لديها المتعلّق بأشياء لغوية فقهية أو اجتماعية، إذ أنه لولاها هي التي دان بها في نهاية المطاف لكل من ليني وهاروسبيكا، لوقع هو في خطر الإصابة بالداء العضال، داء شيرتينشتاين أو داء بيلتسر.

لحسن الحظ تمّ صرف انتباهه المنفعل وترقّبه المضطرب بمفاجأة: من ذا الذي جلس هناك على الأريكة، ممسكاً بيدها جهاراً، غير مبتسم من الحيرة والارتباك، إنما مبتسماً ابتسامة المستهزيء الشامت، إلى جانب لوته هويزر المحمرّة الوجه على نحو فتّان؟ ما من أحد سوى بوجاكوف! شيء واحد كان مؤكداً: الراهبة اللطيفة في المنزل الذي هرب هو منه، لا داعي لأن تشغل بالها: إنه يحظى بالأنس والدفء! وإذا شكك امرؤٌ ما في أنَّ لوته قادرة على أن تشعَّ دفءاً وحرارة، هنا يجب أن يُصحّح لهذا رأيه. هناك جلس التركي أيضاً، وظهر بمظهر اللاشرقي على نحو مفاجيء ومخيّب للآمال نوعاً ما. جلس هناك على نحو فظ غير لائق، متيبساً، غير مرتبك، في بذلة زرقاء وقميص منشّى وربطة عنق هادئة لونها بني (لا فاتح ولا غامق)، جلس هناك وأمسك بيد ليني في وضع لكأنما كان يجلس في نحو عام ١٨٨٩ أمام آلة تصوير ضخمة لمصوّر يصوّر صوراً كاملة أدخل لتوه اللوحة وطلب عدم الحركة قبل أن يضغط

على كرة المطاط التي تؤدي إلى فتح عدسة آلة التصوير. ليني، لقد بقي كثير من الجزء قبل أن تتطلع إليه الأعين، ثمَّ توجهت إليها تلك الأنظار كلياً: على كل حال لم يكن المؤلف قد رآها خلال تحرياته الدؤوبة إلاَّ مرتين وعلى نحو عابر في الشارع، من جانب، لا **من أمام قط**، لاحظ مشيتها الأبيّة، أما الآن فلم يعد هناك من مناص، كان لا بدَّ من مواجهة الواقع، ولتكن هنا مجوَّزة جملة بسيطة تقوم على **إقصار في القول** هي جميلة: المسألة مجدية! كان جميلاً أنَّ كليمينتينا كانت حاضرة، وإلاَّ لما كانت الغيرة على محمد مستبعدة؛ وقد بقيت على كل حال بقيّةٌ من ذلك، وخز خفيف للأسف أنّها حلمت في حضنه، لا في حضن المؤلف، بشوفٍ ورسامٍ وضابطٍ. لقد قصّت شعرها وصبغته بصبغة رمادية اللون، وفي الإمكان اعتبارها ببساطة في الثامنة والثلاثين من العمر؛ عيناها الكحلاوان صافيتان، فيهما حزن، ومع أنَّ طولها، كما هو مثبت، ١,٧١ م، فإنها بدت بطول ١,٨٥ م، مع أنَّ ساقيها الطويلتين اثبتتا في الوقت نفسه أنها ليست حسناء التفصيل على الإطلاق بخفة وظرف قامت بصبِّ القهوة، بينما وضعت لوته الجاتو على الصحون ووزع محمد القشدة المضروبة اللازمة كلٌّ بحسب رغبته «ملعقة واحدة؟ ملعقتان؟ ثلاث ملاعق؟» ليني، كما اتضح، ليست سكوتة وكتومة فحسب، بل قليلة الكلام أيضاً وذات حياء يرتسم على وجهها دائماً «ابتسامة جزعة». كانت تنظر إلى كليمينتينا بعين الرضا، وهذا ملأ صدر المؤلف سروراً وافتخاراً؛ وحين سألتها تلك عن هاروسبيكا أشارت إلى صورة جدارية رائعة في الواقع، ملّونة وغير متعدّدة الألوان، معلقة فوق الأريكة بقياس ١,٥ × ١,٥ م، ومع أنها غير مكتملة، إلاَّ أنها تشع

قوّة كونية لا توصف ودقة ونعومة؛ لم ترسم عمل حياتها غير المكتمل على نحو متعدد الطبقات، بل من ثماني طبقات يمكن مراجعة عدّها - ولربّما كانت قد سجّلت في أثناء ذلك نحو ثلاثين ألف من أصل ستة ملايين مخروط ونحو ثمانين ألف من أصل مائة مليون عصيّة - وتجنبت طابع المقطع العرضي، وعوض عن ذلك رسمتها رسماً أفقياً مثل سهل لا متناهٍ يمرّ به المرء مروراً عابراً متجهاً صوب أفق ما زال قيد التكوين. ليني: «هذه هي، ربما جزء من الألف من شبكيتها حين تنتهي». كانت على وشك أن تصير ميالة إلى الحديث الكثير فأضافت: «معلّمتي العظيمة، صديقتي العظيمة». لم تتفوه بأكثر من ذلك في خلال ثلاث وخمسين دقيقة تقريباً استغرقتها هذه الزيارة. وبدا محمد بعيداً نسبياً عن روح الفكاهة حتى في حال توزيعه القشدة المضروبة، ولم يترك يد ليني من يده الطليقة، وحين كانت ليني تصبّ القهوة، كان يجبرها على أن تفعل ذلك بيد واحدة، بينما كان يمسك هو بيدها الطليقة. وعملية المسك بالأيدي هذه سرت عدواها بحيث إنَّ كليمينتينا مضت تمسك أخيراً بيد المؤلف لكأنَها تجس له نبضه بصورة دائمة. لم يكن هناك مجال للشك: كليمينتينا كانت متأثرة. لم يعد هناك أيُّ أثر لغطرستها الأكاديمية، كان ملموساً أنها كانت قد علمت بليني، لكنها لم تثق بها ولم تطمئن إليها. وفي ملفات الجمعية الديرية للرهبنة ظهرت، أمّا أنها كانت موجودة وموجودة فعلاً، فقد هزّها هذا. زفرت زفرة الضيّق ونقلت نبضها المرتفع إلى المؤلف.

* * *

هل يلاحظ القاريء النافد الصبر أنَّ نهايات سعيدة تحدث هنا بكثرة؟ إمساك بالأيدي وقطع عهود وتجديد صداقات قديمة ـ كما هي الحال بين لوته وبوجاكوف ـ بينما آخرون ـ من مثل بيلتسر وشيرتينشتاين وشولسدورف ـ يتخلفون عن الركب عطاشاً وجياعاً؟ هل يلاحظ أنَّ تركياً يبدو مثل فلاح من الرون أو من جبال الآيفل الوسطى يقود العروس إلى بيته؟ وأنَّ انساناً عنده في البيت زوجة وأربعة أطفال وبناء على حقوق تعدّد الزوجات هو على علم بها، إلاَّ أنه لم يستطع إلى الآن أن يرعاها، بل لم يظهر ما يدل على أثر من الشعور بالذنب، بل من المحتمل أنه أعلم بصراحة امرأة ما اسمها زليخا بما هي عليه الأمور؟ وأن رجلاً يوحي قياساً إلى بوجاكوف أو المؤلف بالنظافة على نحو أقرب إلى الإثارة، مدعوك دعكاً: بثنيّة وربطة عنق؛ وذلك الذي ما زال يجلس هناك لكأن المصور الوهمي بالقبعة العريضة الإطار وربطة العنق فنان مغمور في مكان ما في أنقرة أو اسطنبول في نحو عام ١٨٨٩ ما زالت إصبعه على الكرة المطاطية؟ وأنَّ زبالاً يدحرج صفائح الزبالة ويرفعها ويفرغها يربطه الحب بامرأة تحزن على ثلاثة رجال وقرأت كافكا وحفظت هولدرلين على ظهر قلب وهي مغنية ورسامة ومعشوقة وأم كاملة وحامل وتجعل نبض راهبة سابقة يرتفع ويرتفع وهي التي عالجت طوال حياتها قضيّة الواقع في مؤلفات أدبية؟

حتى لوته الطلقة الذلقة اللسان كانت صامتة لكأنها كانت هي أيضاً متأثرة منفعلة ومزعزعة؛ وتحدثت متلعثمة عن إطلاق سراح ليف الوشيك الوقوع، وعن مشاكل السكن الناجمة من ذلك، لأنَّ صاحب الدار عندها رفض أن يستقبل «زبالين أتراكاً»، أما الزوجان هيلتسن فلن

يكون في إمكانهما أن يستغنيا عن أية غرفة، لأنّ غريته هيلتسن تكسب في المساء بصفتها فنيّة في أعمال التجميل «شيئاً ما إلى جانب ذلك» في إحدى الغرف، وإنه لمحال «حشر الأصدقاء البرتغاليين الخمسة في غرفة واحدة»، إلاّ أنها تريد البقاء بالقرب من ليني مع بوجاكوف الذي سمّته من غير حياء وخجل «صديقي بويتر»، بل يجب عليها البقاء «لتصمد أمام» لديها وحميها. «ليس هذا إلاّ إرجاء، ليس بنهاية». وكونها راغبة في أن تدخل مع بوجاكوف مكتب الأحوال الشخصية وهو معها، إلاّ أنه ليس في الإمكان الإثبات أنَّ هذا أرمل أو مطلق.

في النهاية ساهمت ليني بقسط من الحديث بأن تمتمت «مارغريت، مارغريت، مارغريت المسكينة»، بعين مغرورقة بالدمع أول الأمر، ومن ثم بعين دامعة. وفي نهاية الأمر فإنَّ محمداً بتزحزحٍ لا يمكن تحديده. وقد عدّل في جلسته على نحو أكثر مما كان عليه طوال الوقت، أفهم في غير لبس أنه يعتبر المقابلة منتهية.

الوداع ـ «عسى ألاّ يكون نهائياً»، قالت كليمينتينا لليني التي ابتسمت لذلك ابتسامة لطيفة هذا اللطف ـ فإنه أُخِّر بعد ذلك أيضاً بالطريقة المعهودة بأن حبا المرء الصور والمعزف وأثاث البيت ككلّ بكلمات ودية وحبا اللوحة الجدارية بكلمات حماسية، ووقف في الدهليز قليلاً حيث تمتمت ليني: «يجب أن نحاول التقدم مرّة ثانية بعربة أرضية وأفراس لا أرضية»، وإنه لتلميح لم تفهمه كليمنتينا المثقفة ثقافة ناقصة كما يبدو.

في الخارج وفي نهاية الأمر، في شارع بيتسيرات التافه كل التفاهة

استأثر بكليمنتينا موقفها المحتم الأدبي لا سبيل إلى تغييره بأن قالت «أجل، إنَّها موجودة، مع أنها غير موجودة. هي موجودة، وهي ليست بموجودة». وكما يرى المؤلف. إنه لموقف ينطوي على شك وهو دون مستوى كليمنتينا بكثير.

على كل حال أضافت هي: «في يوم من الأيام ستواسي هي هؤلاء الرجال كلهم الذين يتعذبون بسببها وستشفيهم كلهم».

بعيد ذلك أضافت قائلة: «اسأل نفسي عما إذا كان محمد يقدّر رقصات الحفلات الغربية مثلما تقدّرها ليني».

يرى المولف بارتياح أنَّ بقية التقرير تكاد لا تحتاج إلاَّ للنقل الحرفي: تقرير سيكولوجي ورسالة ممرض تقدمت به السن ومحضر موظف في الشرطة. أما الكيفية التي توصل بها إلى حيازة هذه الوثائق فيجب أن يحافظ عليها باعتبارها سر المهنة. هب أنَّ الأمور لم تجرِ دائماً على نحو مشروع، كما أنها لم تجرِ أيضاً في كتمان تام دائماً، إلاَّ أنَّ إخلالاً طفيفاً بالشرعية والكتمان يخدم هنا هدفاً مقدّساً: الموضوعية. ماذا يعني، إذاً، في مثل هذه الحال ـ والأمر يتعلق بالتقرير السيكولوجي الذي لا يتضمن بالمناسبة أيَّ شيء ينم عن تفرقة أو تمييز ـ ماذا يعني إذا ما مرَّرت إحدى موظفات آل هويزر (لا سيدة الأغراض المتعددة!) بضع صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة في آلة نسخ مجفّف؛ وبذلك يترتب على آل هويزر ضرر قدره نحو ٢,٥ مارك، ولا يدخل في ذلك تكاليف المحل المطابقة للحصص (وليتذكر المرء الخمسة الملايين التي كلّفت المؤلف زراً). ألا يعوَّض هذا بعلبة شوكولا محشوة قيمتها أربعة ماركات ونصف؟ ورسالة الممرض حصلت عليها ماريا فان دورن الدؤوبة، ومع أنها الأصل. إلاَّ أنه كفاها طولاً بأن استطاع المؤلف أن يصوّر بنفسه في متجر كبير بنصف مارك. وبلغت التكاليف كلها (بما فيها السجائر للأخيرة) حوالي ٨ ماركات. أما محضر موظف الشرطة فقد حصل عليه المؤلف مجاناً. وبما أنَّ التقرير لا يشتمل على أسرار خاصة بالشرطة ولا

على أسرار تتعلق بالشرطة السياسية، وليس إلاَّ نوعاً من الدراسة الاجتماعية، وإن كانت غير اختيارية، إلاَّ أنها في الحقيقة موفقة، فقد كان يمكن أن تكون هناك شكوك، لا من الناحية العملية، بل من الناحية النظرية شكوك تخلّص منها بعضهم بكأس بيرة من فوق الدكة، وإنها بالمناسبة بيرة أبى الموظف الشاب في الشرطة إلاَّ أن يدفع حسابها، وإنها لرغبة مفهومة ويحترمها المؤلف ولم يرغب في أن يسيء إليها بباقة زهر لزوجة موظف الأمن أو بلعبة جميلة لابنه الصغير البالغ من العمر سنة ونصف السنة («حلو»، كما استطاع أن يؤكد بعد نظرة إلى الصورة من غير أن يضطر إلى المراءاة). (لم تعرض له صورة الزوجة! ولربما صعب عليه أن ينعت امرأة رجل آخر بحضوره بأنها «حلوة»).

باديء ذي بدء إذاً التقرير الذي يقوم على سيكولوجية العمل. سير تعليم الخبير مقدّم التقرير، خلفيّته، عمره الخ. كل هذا بقي مجهولاً، إلاَّ أنه قيل عن السيدة الشابة في حينها إن الخبير مقدّم التقرير يُقدَّر من قبل موظفي اتحاد نقابات العمال الألماني ومن قبل قضاة العمل أيضاً.

«إنَّ الخبير (الذي يختصر نفسه فيما يلي بحرف خ) عرف ليف بوريسوفيتش غروتن (المدعو فيما يلي ل. ب. غ). من حديث اتصال جرى قبل اعتقاله بأربعة أشهر بناءً على أمر من مدير شؤون العاملين في مؤسسات المدينة لتنظيف الشوارع. في أول حديث كان الموضوع مشروع نقل ل. ب. غ. إلى الإدارة داخل المصنع باستخدام لنصف الوقت بصفة وكيل العديد من العمال الأجانب ومستشار ضبط الوقت. ولكلا العملين نُصِح بـ ل. ب. غ. في ذلك الوقت من قبل خ. إلاَّ أنَّ كلا العملين رفضا من قبل ل. ب. غ. ولم يكن في الإمكان فهم عملية تطور ل. ب. غ.

النفسانية، آنذاك إلاَّ فهماً سطحياً يقوم على حصر البيانات، ولكن في تلك الأثناء، وبما أنَّ إدارة السجن وفرّت من باب التساهل الإمكانية لأربعة أحاديث أخرى مدة كلها منها ساعة واحدة، فإنَّ عملية تطوره النفسانية بحثت بحثاً أكثر شدّة وكشافة، ولو أنه لم يكن فيه من التفاصيل ما يكفي لإنصاف شخص مكوّن تكويناً معقداً مثل هذا التعقيد وفق معايير علمية. ومن المؤكّد أنّ ل. ب. غ. كان سيستحق دراسة علمية مركزة مستفيضة. إن خ. الذي أصبح في أثناء ذلك مدرساً منتدباً لعلم النفس في معهد عالٍ فني يرى أيضاً أن ينصح أحد تلامذته بـ ل. ب. غ موضوعاً للدبلوم.

إنَّ محاولة تخطيط نفساني تجرى هنا على ل. ب. غ، يجب الشروع بها إذاً بالشرط المتاح، الأمر الذي يتعلق بصلاحية استعمالها العلمية، وإن أعطت صورة قريبة من الصحة. ويمكن أن يتخذها التوجيه داخل المصنع فقط محاولة لشرح دوافع ل. ب. غ. في أعماله «الإجرامية» مسهّلاً على الأرجح المضي في معاملة ل. ب. غ. والشرط المذكور أعلاه.

لقد نشأ ل. ب. غ. وترعرع في ظروف غير ملائمة للغاية، من حيث بيئته خارج الأسرة، وفي ظروف ملائمة للغاية، من حيث بيئته الأسروية. فإذا تطلبت كلمة «ملائم» المستعملة في الحالة الأخيرة حصراً أيضاً قد يوصف وصفاً مناسباً بكلمة ‹تدليل›، فإنَّ هذا ‹التدليل› بالذات ـ إذا ما نظر المرء إلى الذي صار اليوم في الخامسة والعشرين ـ سبب في أن ل. ب. غ. يجب أن يعتبر عضواً مفيداً كل الفائدة، لا بل عضو مهم من أعضاء مجتمعنا، ولو أن هناك اضطرابات اجتماعية كبيرة.

كان غير مناسب للغاية في نظر ل. ب. غ. وآخرين الحقائق أنه،

وقد نشأ نشأة غير شرعية ومن غير أب، ولم يستطع أن يطالب لنفسه بالأساس المهم لعملية التطور النفساني لليتيم ولا ليتيم الحرب. وبالنسبة للطفل غير الشرعي ليس الأب المتوفى دليل براءة أو تبريراً للطفل اليتيم. وبما أنه كان يُنادى عليه أيضاً في الشارع وفي المدرسة ‹ابن الروسي› وكانت أمه ترمى أحياناً ‹بعشيقة الروسي›، فقد عُيِّر بصورة دائمة على نحو فيه إذلال وقذارة بصورة خاصة، وإن لم يكن بصراحة، وإنما بطريقة لا شعورية، بالحقيقة أنه لم ينجب بالاغتصاب، إنمّا باستسلام طوعي، وكان قد أنجب في ظروف كان يمكن أن تكون نتيجتها على أبيه وأمه عقوبة صارمة إن لم تكن عقوبة الإعدام وبهذا المعنى كان هو أيضاً ‹ولد السجين›. إنَّ الأطفال الآخرين كلّهم، حتى الأطفال غير الشرعيين، أتيحت لهم الإمكانية السيكولوجية بأن يحسّوا بصفتهم ‹أولاد قتلى› بمنزلة أعلى من ل. ب. غ. من الناحية الاجتماعية. وللتعبير تعبيراً شعبياً فإنَّ ما زاد الطين بلّة بالنسبة إليه: أنه صار بدرجة متزايدة ضحية تلك المؤسسة المزعجة التي يسميها المرء المدرسة المذهبيّة (كما أوضح خ. في عدة منشورات أمام الملأ أيضاً!) صحيح أنه كان قد عمِّد، لا بل تعميداً كاثوليكياً، وأثبت هذا التعميد شخص يدعى بيلتسر كان فيما بعد معلمه لفترة قصيرة وأثبته أشخاص آخرون، إلا أنَّ السلطات الكنسية أصرّت على إعادة «التعميد الاضطراري» بصفته تعميداً نظامياً. إن التحريّات المستفيضة الدقيقة المضنية التي أجريت بهذا الخصوص، جلبت لـ ل. ب. غ. لقباً آخر رهيباً جداً رهبة الموت. وفضلاً عن أنه كان ‹ولد المقبرة› كان هو ‹ولد المدفن›، كان قد ‹أنجب وولد بين الجثث›. باختصار: رفضت أمه أن يُعمّد مرة ثانية، لأنَ

ذكرى التعميد الذي كان أبو ل. ب. غ. قد شارك فيه، عزيزة عليها؛ فقد أبت أن تترك ‹أيّ شخص› يمحو ذكرى هذا التعميد، لكنها من جهة أخرى لم تشأ أن ترسل ابنها إلى ‹المدرسة الحرة› التي كانت تبعد آنذاك نحو خمسة عشر كيلومتراً، ولا أن ترسله إلى ‹البروتستانت› (مما لم يتضح ما إذا كان أولئك سيصرّون أيضاً على تعميد جديد)، وبهذا لحق بـ ل. ب. غ العيب الآخر، آخر العيوب: هل كان ‹مسيحياً›، هل كان ‹كاثوليكياً› أم لم يكن أيّاً منهما؟

بالنظر إلى هذه الخلفية يكتسب مصطلح ‹التدليل› نسبيّة تكاد أن تلغيه. وبذلك كان لـ ل. ب. غ ما يكفيه من خالات أيضاً: الخالة مارغريت، الخالة لوتّه، الخالة ليانة والخالة ماريا، كان له قبل كل شيء أمه، نساء فقط ‹دلّلنه›، وكان له فضلاً عن ذلك ‹أعمام› و‹أبناء عم›، أشخاص بدلاء عن الأب والأخ، العمان أوتو وبيوتر، وولدا العم فيرنر وكورت، وكانت له ذكرى جدّه الذي ‹جلس معه أعواماً وأعواماً على الراين›. ولما أنَّ أمه أبعدته كلما أمكن، ولو في ظروف واهية بعض الأحيان، من دروس المدرسة، ففي الإمكان اعتبار هذا فيما بعد ردّ فعل غريزي سليم. وإذا ما أظهر ل. ب. غ أيضاً قوة نفسية مدهشة بأن ابتعد طواعية من ‹مجال التدليل› وذهب للعب في الشارع ولم يخش الضربات السلبية، ولا الضربات الإيجابية، فإنه ليُشكُّ فيما إذا كان سيتحمل ضغط المدرسة اليومي. ولو لم يكن ل. ب. غ ـ وهذا افتراض ـ مشوّهاً أو سقيماً إلاّ بالتلميح أيضاً، لما قاوم ضغط البيئة القوي المتعدد النواحي زيادة عن عامه الرابع عشر: ولكانت النتائج :انتحاراً وكآبة لا علاج لها أو حوادث جنائية عدوانية. الحق أنَّ ل. ب. غ تغلّب على

أشياء كثيرة وكبت أيضاً أشياء كثيرة. أمّا الشيء الذي لم يستطع أن يتغلب عليه أو يكبته كان الواقع أن ‹عمه› أوتو الذي كان حتى ذلك الحين لطيفاً إلى هذا الحد، قد حرمه في نهاية المطاف من رفقة ‹ابني خالته› فيرنر وكورت اللذين كانا أكبر منه بخمس أو عشر سنوات، وكانا يمثلان له تلك الحماية التي لم يكن عليه أن يكوّنها لنفسه، إنّما كان في وسعه أن يعتدّ بها. فالهوة الاجتماعية التي نشأت في ذلك الأثناء بينه وبين ابني خالته، تأر وعناد هي أيضاً من غير لبس بواعث ‹لإجراميته› التي انحصرت في تزوير كمبيالتين بطريقة تفتقر إلى المهارة، على حين بقي غامضاً على الخبير بعد خمس مقابلات إجمالاً ما إذا كان انعدام المهارة في التزويرات يجب أن يعتبر تحدّياً مقصوداً أو تحدّياً غير مقصود للعم وولدي الخالة. وبما أنَّ هذه التزويرات قد حصلت غير مرة (أربع مرات على الإجمال)، ثلاث مرات تمَّ التستّر عليها، ولم تصبح إلاَّ في المرة الرابعة موضع تبليغ، إلاَّ أنَّ التزويرات الأربعة كلها تضمّنت الخطأ نفسه (كتابة خاطئة لباب: كتابةً)، فإنَّ أكبر الظن أنَّ المسألة هي مسألة تحدٍّ متعمّد يجب أن ينظر إليه في علاقته بتحرّك الأوضاع المالية لهويزر وغروتن في أثناء الحرب والذي تمت معرفته في تلك الأثناء.

كيف عوّض ل. ب. غ. إذاً طفلاً ويافعاً عن إحساسه بأنه جُرِح؟ ونظراً إلى حيرة أمه وحساسيتها وسرعة تأثرها لا بدَّ أنه أدرك مبكراً أن التعويض داخل الأسرة الذي وصف هنا إجمالاً ‹بالتدليل› لم يكن كافياً وأنَّ ل.ب. غ. كان عليه أن يظهر مبادرة خاصة أيضاً، وأنه تمكّن من أن يعتمد على أمه وخالاته الكثيرات ولا سيما بعد رحيل ‹ابني خالته›

كليهما، ولا بدَّ أنه اتضحَ له غريزياً أنه في نهاية المطاف سيكون عليه أن يصبح ‹الرجل في البيت›.

هنا يجب التعريف بمفهوم رفض الانجاز أو العمل. باديء ذي بدء: رفض العمل في المدرسة حيث رفض بين الآونة والأخرى الترحيل إلى مدرسة لتقوية التلامذة الضعفاء أو إلى مدرسة خاصة. وعلى خلاف موهبته التي لا سبيل للشك فيها وذكائه تصرّف، كما توقع المجتمع بناءً على علم الحركة الآلية الخاص به من صبي من هذا النوع انشحن بسمات لا جتماعية. كان وهو طالب أسوأ بكثير مما كان ينبغي أن يكونه، لا بل إنه تصنّع إلى درجة معينة البلاهة. ولم يتفاد الرسوب إلاَّ عندما قرّب هذا إلى الفهم بسبب الإعادة خطورة المدرسة لتقوية التلاميذ الضعفاء ـ وهذا ـ أي الترحيل إلى مدرسة تقوية التلاميذ الضعفاء ـ ما تفاداه إلاَّ لأنَّ أمّه كانت تتخوّف من طريق المدرسة البعيد، واعترف للخبير (خ) أنه كان سيطيب له الذهاب إلى ‹مدرسة تقوية التلاميذ الضعفاء›، إلاَّ أنَّ هذه كانت تقع في الفترة المذكورة في ضاحية بعيدة جداً؛ وبما أنَّ أمه كانت تعمل وأنَّ ل. ب. غ كان يقوم مبكراً بأعمال البيت، فإن طريق العودة وحده كان سيخلّ ‹بسير العمل في البيت› إخلالاً كبيراً.

يتزامن مع عدم الكفاية ورفض العمل في المدرسة ازدياد في الكفاية مشروط ومقيّد بطريقة فيها عناد، لم ‹يردَّ عليه› بشيء من الناحية المدرسية. فقد استطاع وهو في الثالثة عشرة أن يقرأ الروسية بطلاقة ويكتبها بفضل المؤازرة الطيبة جداً لأحد معارف أمه وجدّه الذي كان يعلّمه ثلاث مرات في الأسبوع. وليلاحظ المرء: لغة أبيه! هو ـ ولا بدَّ من أن يقول قائلٌ هنا ـ فاجأ، ولكن نظراً إلى الموقف الأساسي

السيكولوجي للمعلم الابتدائي العادي في الفترة المذكورة فإنه لمن المؤسف القول، إنه أغضب معلميه بأن كان يستشهد بشعر روسي من بوشكين حتى بلوك، على حين بقي هو في الوقت نفسه في نحو اللغة الألمانية على مستوى الذي هو بحاجة إلى مدرسة للتقوية. لكن لا على نحوٍ مغيظ فحسب، بل أقرب ما يكون أيضاً إلى التحدي الذي كان لا بدَّ من الإحساس به أنه وهو ابن ثلاث عشرة سنة وتقدم في أثناء ذلك حتى السنة المدرسية الخامسة! ـ جابه معلميه أيضاً ـ وبدون أن يطلب منه ذلك! ـ بكافكا وتراكل وهولدرلين وكلايست وبريشت وبأشعار لشاعر يكتب بالانكليزية ولا سبيل إلى تحديد هويته إلى الآن، وأغلب الظن أنه من منشأ إيرلندي.

تكفي الأمثلة. ويؤكد الخبير (خ): إنَّ تناقضاً شديداً يحدث حيال المجتمع، على حين يُمارَس ازديادٌ من الكفاية هناك خارج المدرسة حيث يمكن أن ‹يعود› العمل بشيء ما، في المدرسة، عدم الكفاية، لكن في الوقت نفسه هناك حيث لا يستطيع العمل أن ‹يعود› بأيِّ شيء.

هذا التناقض الشديد يبقى حاسماً بالنسبة لحياة ل. ب. غ. وبما أن السنّ تتقدم به ويحرر نفسه في رد فعل سليم من ‹التدليل›، فإنَّ التضاد هو التوتر الذي يستمد منه مقاومة وقدرة على البقاء. إنَّ نموذج التجربة بات لا يتبدلّ تبدلاً كبيراً حتى عامه الرابع عشر، وقبيل التخرّج من المدرسة يصبح ل. ب. غ أول مرّة ‹مجرماً›، في صلة لا يستطيع الخبير (خ) أن يحللها تحليلاً دقيقاً، إنَّما يكتفي للأسف بأن يقدّم تقريراً عنها، لأنه يفتقر إلى المنفذ الداخلي والخارجي إلى مواد التجربة المذكورة، ولأن تحليلاً دقيقاً سوف يشترط دراسة تاريخية شاملة لها

علاقة بعلم نفس الدين. وعلى هذا سيكون كافياً هنا إيراد بيانات التجربة: إنَّ ل. ب. غ. الذي لم يحضر درس الديانة إلاَّ مرات متباعدة وفي معظم الأحيان في ظروف مغيظة له ولرجال الدين قد حُرم ـ وأناساً ستعمل تعبيره هو ـ ‹من الاسرار والاعتراف وتناول القربان، آنذاك لا بسبب تعميدي الناقص، وإنما لأنَّ المرء وجدني عاصياً متكبراً متعجرفاً، على أية حال، لم يجدني متواضعاً التواضع الكافي، ولأنني فضلاً عن ذلك كنت قد اطلعت على الأدب الديني بعض الشيء، ولو أنَّ هذا كان بطبيعة الحال من باب الهواية، إلاَّ أنني انكببت عليه حبّاً بالمعرفة لا غير›. وهذا استثار المعلمين وأغضبهم، وأعني مدرسي الدين القساوسة، ذلك لأنَّ المرء جعل ‹منح الأسرار› وقفاً على‹خضوعه›. أما ل. ب. غ. الذي أصرّ الآن ـ كما اعترف هو ـ على منحها لاعتبارات مبدئية وصوفية، فقد حاز أخيراً عن طريق ‹عمل مدنّس للمقدسات، عن طريق السرقة، وبتعبير أدق، عن طريق انتهاك حرمة المذبح› على برشان مقدس أكله: وكانت هناك فضيحة. كان ل. ب. غ. سيودع آنذاك إصلاحية الأحداث لو لم يشفع له رجل دين متنور خبير بعلم النفس. ‹بدءاً من تلك اللحظة›، كما قال ل. ب. غ. بالحرف الواحد للخبير (خ)، ‹لم أعد أتناول القربان إلاَّ مع أمي في الصباح عند الفطور›.

إنَّ ازدياداً آخر في الكفاية يتضح حتى عامه الرابع عشر: عنصر يكاد يقوم على قسر مرضي للقيام بأعمال محددة، حب للنظام متصاعد، ميل إلى الترتيب له علاقته بدون شك بالمراهقة المبتدئة. فهو لا ينظف الشارع أمام البيت وبهو الحديقة والمسكن فحسب، بل يتدخل أيضاً في أثناء النزهات منظماً ومرتباً بأن يرفع الأوراق، ومع أن المرء

يعتبره في محيط يغلب عليه العنصر النسوي ‹أنثوياً› أو ‹مثل فتاة›، فأنَّ لعبته المفضلة بين سن الثامنة والثالثة عشرة كل نوع من المكانس. وفي الإمكان القول أيضاً كتوضيح نفساني متمم لهذه الظاهرة أن نظافة يتم عرضها وممارستها هنا ـ من جديد معونة ضدية ـ إزاء بيئة ملوَّثة له وشاتمة معيبة.

إنَّ ل. ب. غ. الذي طرد من المدرسة من الصف السادس لم يكن لديه أمل بشهادته المحشاة حشواً غير مرضٍ ليحصل على وظيفة تلميذ عادية. فقد عمل معاوناً ـ ومن جديد بالمكنسة بصورة أساسية! ـ في مشتل شخص يدعى بيلتسر، وفيما بعد لدى شخص يدعى غروندتش بنفس الطريقة، ثم تسلّمته بعَدئذ إدارة المقبرة ونقل بعد ذلك من هناك إلى حمل الزبالة في البلدية، وعلى حسابها حصل على رخصة القيادة. وهناك عمل منذ ست سنوات، وإذا ما صرف المرء النظر عن ميل معين إلى تمديد عطلة الأسبوع والإجازة وإذا ما أبعد المرء بعد ذلك السخط غير المستغرب بكل تأكيد بسبب عدم الكفاية ورفض العمل بادٍ للعيان فإن رب عمله آنذاك كان راضياً عنه كلَّ الرضى، وتوجّه الازدياد في الكفاية عند ل. ب. غ في السنوات المنصرمة إلى أمه دون غيرها التي ناشدها بأن تترك عملها مع أنها كانت لا تزال بعد امرأة شابة نسبياً وقادرة وقد أمدّها بعمال أجانب وعائلاتهم بصفة مستأجرين. وإذا ما صار أحد هؤلاء العمال أخيراً عشيقها فقد سبب هذا لدى ب. ل. غ أزمة نفسية قليلة قلّة مشكوك فيها والذي يجب أن يعدَّ ارتباطه وتقلقله الشديد بالأم لا مراء فيه ولا منازع. حتى الخبر أنَّ أمّه حامل من الأجنبي ذي الأصل الشرقي حملاً يمكن إثباته أحدث عبارة طليقة حرة، والخبير

(خ) يود أن يزعم أنها عبارة حُرَّة حرية مشكوك فيها، وهي ‹حمداً لله، في مثل هذه الحال يكون لي أخ صغير أو أخت صغيرة›، إلاَّ أنه كان في الإمكان استشفاف شيء من التشنج وراءها، ولو لم يكن هذا ممكناً إلاَّ عند إنصات مدّرب.

ومن الخطأ اعتبار هذا التشنّج راسخاً متأصلاً في المجال الأوديبي فقط. ولا ريب أنَّ أساسه أيضاً نوع من الخوف الطبيعي من مشاكل البيئة المتجدّدة وصعوباتها التي يضمّنها ل. ب. غ بكل تأكيد الطفل المنتظر الذي يعتبر مشاكله المنتظرة مع البيئة المحيطة ومشاكله هو ذاته شيئاً واحداً بدون شك استناداً إلى التجربة الذاتية.

صحيح أنه ليس في الإمكان هنا استبعاد مظنّة الغيرة الطبيعية حتماً، إلاَّ أنه يمكن ردّها إلى الحدّ الأدنى. وبيّنت تحريات لدى من هم في سن واحدة ورفاق عمل لـ ل. ب. غ أنه لم يكن محبوباً عند نساء وفتيات فحسب، بل إنّه لم يتجنب تبعات هذه المحبة.

هنا يجب أن يعتبر مشروطاً أنَّ عمال نقل الزبالة يحققون بين الحين والآخر رغبات خاصة للسكان المتضايقين بسبب قمامة الاستهلاك وفي أثناء هذا الأمر لم تنشأ أية اتصالات محددة مثل هذه ‹الجُنَح› ـ رغبات خاصة للسكان لأخذ زبالة فوق الحد الذي يحق لهم، وفي معظم الأحيان لقاء راشن (بخشيش) ـ مثل هذه الجُنَح تحتملها الإدارة نظراً إلى الأزمة من حيث حمولة الزبالة.

ومهما ظهرت صورة ل. ب. غ المعطاة هنا بمظهر متناسق نسبياً فإنَّ هناك مع ذلك مضايقات اجتماعية بشكل واضح تبدو فعلاً أنها مضايقات اجتماعية من هذا القبيل، ولو كان في الإمكان إيضاحها من

خلال ضرورات التضادية القصوى المشروطة بالدفاع عن النفس.

إنَّ الشيء الذي يظهر عند ل. ب. غ بالنسبة لهاوٍ نفساني هو ١ ـ **عقدة تضامن** يمكن إيضاحها من الاضطرار الدائم إلى التقمص النفسي بأبيه وأمه، أما الآن فإنها تركزت عند الشخص الذي صار في أثناء ذلك يافعاً على أجانب وبعد حبس استمر في تلك الأثناء ثلاثة أشهر تركّزت على الرفاق في الحبس. ولو افترض المرء السجناء أيضاً ‹غرباء في المجتمع› لنتج من عقدة التضامن. ٢ ـ **حب أجانب** يتجلى من ضمن ما يتجلى في ٣ ـ **الرغبة في تعلم لغة الأجانب**. (ل. ب. غ يتّبع منذ أشهر دورة للغة التركية). إنَّ شخصاً ما (والخبير (خ) أقرب هنا إلى الميل منه إلى عدم الميل إلى أن يتكلم عن شخصية رغم بعض التردد والشك) مثل ل. ب. غ لا تترك له حساسيته المتطورة تطوراً عالياً ولا ذكاؤه أي خيار له إلاّ ليتكيف و‹يفضح› بذلك نفسه ومواضع تثبيت تقمصه النفسي وليثبت في عدم تكيّف دائم نفسه بالذات ونقاط تثبيت تقمصه النفسي، إنَّ شخصاً مثل هذا وجد نفسه في صراع دائم بين الموهبة وشيء ممكن المنال من الناحية الاجتماعية. وبهذا احتاج هذا الشخص (الشخصية؟) إلى عوائق جديدة بصورة دائمة ومصطنعة فيما بعد لكي يثبت أمام نفسه والبيئة الخارجية اثباتاً. وإذا جرد المرء الكلمة من الشرط المفترض بحق أنَّ هذا يحصل بذلك على منافع وميزات (بقاء أطول في المستشفى، مكاسب عالية من المعاشات وإجازات بدون مرتب وغير ذلك) ـ ففي مثل هذه الحال يكون ل. ب. غ. ٤ ـ **متمارضاً** يتظاهر ـ بتعبير مبالغ فيه ـ بالمرض، لا ليحرز نفعاً أو فائدة، بل ليحرز أضراراً لكي يرضي بها عقدة التضامن لديه ويرضي ميوله نحو الأجانب.

ومن هذه الناحية يمكن فهم تزوير الكمبيالات أيضاً بأنها ‹تظاهر›، لا بأنّه ‹إجرامي في الحقيقة›. وبما أنَّ بعض التظاهر قد أفاده في نهاية المطاف (من مثل براهين الثقة لعمال أجانب تبلغ حد الإجلال والتبجيل) فإنَّ هذا من باب الديالكتيك لتجربة وجود مثل هذه التي تجعل نموذجاً اجتماعياً ـ أو مبدءاً اجتماعياً، كما سيعبر زملاء ماركسيون ـ في مثل هذه الأحوال ‹بيناً واضحاً›.

لا بدَّ أيضاً من إيضاح السبب لوجود رفض العمل وعدم الكفاية عند ل. ب. غ. فقد أثبت موهبة تنظيمية هائلة، إذ أنه أرتقى في أثناء ذلك إلى أن يكون قائد القافلة («لا أريد أنْ أرتقي إلى أعلى»). وبما أنه كان على علمٍ بشروط حركة المرور وحمل زبالة سلسلة الشوارع الموكلة إليه، فقد نجح في أن يخطط لتجهيز برميل ضخم وتفريغه بحيث إنَّ قافلته كانت قد أدّت المهمة المكلفة بها بأقل مما هو مخطط لها بساعتين وأحياناً بثلاث ساعات، بدون أن تتعرض للسرعة والعجلة. وقد ضبط ل. ب. غ مع قافلته في أثناء استراحات أطول مما قدِّر لها لم تكن قد ظهرت بأنها تقلّل الكفاية. وحين طلب منه أن يضع خبرته التنظيمية تحت تصرّف هيئة التخطيط رفض وأبى وقام بالخدمة من جديد وفق التعليمات والخبرة، لأنَّ السكان أبدوا استياء من الاستراحات الطويلة، وبصورة خاصة لعمال أجانب، حتى إنَّ الصحافة تلقّت هذا، وهذا التصرّف أدّى إلى أول لقاء بين الخبير (خ) ول. ب. غ. لأنَّ المرء نظر آنذاك بعين الاعتبار إلى إجراء له علاقته بمحكمة العمل؛ إلاَّ أنه بعد ذلك صرف النظر عن ذلك بناءً على نصيحة الخبير (خ) (ويشير الخبير هنا إلى قضية الموظف الإداري هـ. م. التي كان يعمل هو فيها أيضاً

بصفة خبير واستعمل أول مرة مفهوم رفض العمل وعدم الكفاية الذي دخل في أثناء ذلك في أدبيات قوانين العمل. أما هـ. م. الذي أنجز العمل الموكل إليه لمدة ثماني ساعات في خلال ساعتين ونصف فإنه من بعد ذلك ولما وضع، من حيث إنه متعارض مع ل. ب. غ، نموذجاً لزملائه اخفق بسبب خبثهم ومضايقاتهم الخبيثة ومرض مرضاً نفسانياً شديداً؛ وحين استعاد قدرته على العمل، هذه المرة عامل في مصلحة أخرى، ومجبر لأن يمضي ست ساعات ونصف في المكتب ‹بلا عمل› فقد أقام دعوى ‹استرداد ست ساعات ونصف من الزمن الضائع يومياً› الذي أدعى أنه وقت فراغ. وبعد رفض هذه الظلامة اشتد مرض هـ. م. أكثر وأكثر، وبما أنَّ قضيّته لفتت بعض الانتباه، فقد تولتها شركة صناعية حيث يساهم هو، وقد شفي في أثناء ذلك شفاء تاماً، مساهمة كبيرة في ازدياد كفاية المصنع. وفي قضية هـ. م. التي عمل فيه الخبير (خ) أيضاً لم تنصبَّ الملامة في عدم الكفاية ورفض العمل إلاَّ على رفض تمضية وقت العمل المفروض بالقعود. إن عدم الكفاية ظاهرة متزايدة في الانتشار ستحمل المجتمع المطبوع بطابع مبدأ تكافؤ الفرص مشاكل عويصة جداً). وفي حال ل. ب. غ. فإنَّ رفض العمل وعدم الكفاية يكمن في أنه يحقق الإنتاج المتوقّع، إلاَّ أنه لا يضع في خدمة رب العمل كل ما لديه من ذكاء وموهبة تنظيمية ـ حتى ولا لدى المزيد من الأجر ـ إن المجتمع المطبوع بطابع مبدأ تكافؤ الفرص يمكن أن تحسب له حاسبات آلية النهايات الصغرى أو النهايات العظمى أو معدّلاً، إلاَّ أنَّ إحراز العلامات الخاصة بالعمل والتي هي معقدة جداً عند نقل الزبالة، لأنَّ الشيء الذي لا يمكن حسابه متفاوت طوبوغرافياً ـ مثلاً ازدحام المرور

وحوادثه والقابلية للازدحام والحوادث ـ لا يمكن أن يأتي به إلاً مستخدم خبير قادر على التجريد ـ مثل ل. ب. غ. ثم إذا أعمل المرء ذهنه في أنه قد يتم هنا تنظيم مشاكل زبالة ليست محلية فحسب، بل إقليمية وتتخطى الإقليمية أيضاً، تنظيماً اقتصادياً كبيراً جداً، فإنَّ الضرر الذي يلحقه ل. ب. غ بالاقتصاد العام، لا يمكن تقديره إلاً بمشقة. ومن حيث ذلك فإنَّ هناك عدم كفاية كبيراً جداً.

بما أنَّ الخبير (خ) كان يهمه أن يعرف أنَّ كافة وظائف ل. ب. غ الجسدية أيضاً مراقبة، فقد طلب من طبيب السجن أن يفحص طول القامة والوزن والوظائف العضوية كلها. النتيجة: سلبي كليّاً. كما أن استهلاك ل. ب. غ للكحول والنيكوتين عادي أيضاً، على أية حال ليست هناك أية أضرار ناجمة عن المخدرات. ولم يكن في الإمكان إثبات تشخيص مرضي عند ل. ب. غ، اللهم إلاً درجة انكسار دنيا قدرها ٥, ٠ على العين اليمنى. لكن بما أنَّ هناك من جهة اضطرابات اجتماعية كبيرة جداً وسلوكاً خاطئاً يمكن إثباته، ومن جهة أخرى لا بدَّ أن يكون ممكناً إثبات كل إضطراب من هذه الاضطرابات في التوازن الصماوي لـ ل. ب. غ، فإنَّ الخبير (خ) يفسّر هذه الحالة السوية بذلك التضاد المتطرف الدائم الذي يخلق هنا تعويضاً. أما لو ألغي هذا التعويض المعقد الذي تمَّ دائماً في ظل توتّرات داخلية عالية لمني ل. ب. غ. في فترة قصيرة بمرض سكر شديد والتهاب كبد شديد، وأغلب الظن أنه كان سيمنى بمغص كلوي شديد. ولهذا ينصح بالعدول عن أن يطلق سراحه من الحبس قبل الآوان، ذلك لأنه يفطن فيه إلى معنى هذه التضادية، وفضلاً عن ذلك يستطيع أن يرضي ويشبع عقدة التضامن

عنده وحبّه للأجانب. لا بل ربما كان ممكناً ـ ولا يمكن استبعاد ذلك على الإطلاق ـ أنَّ ل. ب. غ. بحث عن الموقف المتطرف للحبس ليحلَّ توتراً اجتماعياً يحتمل أن خفَّ. وبما أنّه حدث في أثناء ذلك، وكما علم الخبير (خ) تضامن بيئي كبير مع أم ل. ب. غ، ويجب اعتبار إمكانية التضاد هذه إذاً مصغّرة محدودة، فلا يمكن أن يكون مفيداً لـ ل. ب. غ في هذه اللحظة إلاّ السجن المؤدى تأدية تامة، ولا سيّما أنَّ عملية الإكبار والتمجيد الحاصلة لن تتوقف بذلك أيضاً لدى زملائه في العمل.

لا يستطيع الخبير (خ) أن يعقد العزم على أن يتبنّى نظرية ظهرت حديثاً وطرحها الأستاذ هونكس، وأن يطبقها على ل. ب. غ. والمسألة هي مسألة المفهوم الذي هو موضع نقاش إلى الآن، مفهوم ‹التظاهر بالحالة السوية› الذي يظن البروفسور هونكس أنه أثبته في أشخاص خضعوا للاختبار ويخفون استعداداً لوطياً كامناً قوياً تحت نشاط متطرف له طابع اشتهاء الجنس الآخر، بناء على ‹تعويض موجّه توجيهاً هستيرياً› (هونكس). وفي صدد تحليل جديد دقيق علمياً لتقارير قديمة خاصة بمحكمة التفتيش يعزو هونكس ‹جمال› الساحرات و‹ظرافتهن الجسدية وفتنتهن› و‹فنون الوطء› عندهن المتعلقة بمعلومات الافراز الباطني السابقة بدون شك لعصرهن إلى ‹ذلك التعويض الموجّه توجيهاً هيستيرياً› والذي أخفى ‹طبيعتهن الحقيقية›.

ليس في وسع الخبير (خ) أن يهتدي إلى المعرفة أنَّ لدى ل. ب. غ. (تظاهراً بالحالة السوية)، بل رفض الحالة السوية وعدمها في حالة استعداد عادي. الواقع أن حمل الزبالة غاية مهنته ومبتغاها يثبت أنه

بحث بالغـريزة عن التضـادية المناسبة له: عـن مهنة تخدم التنظيف، إلاً أنها تعتبر قذرة».

- ١٢ -

رسالة المرض ب. إ. في نحو الخامسة والخمسين إلى ليني.

«السيدة المحترمة بفايفر،

رسالتك إلى السيد البروفيسور دكتور كيرنليش وقعت في يدي مصادفة عندما كنت أرتّب له مكتبه بطلب منه، ونظّمت ملاحظاته التي احتاجها لكتابة بعض التقارير التي يمليها عليَّ بحكم العادة. وعلى حين أجيب على رسالتك فإنّني ارتكب خيانة ثقة قد تكلّفني الكثير إن لم تحافظي على أشدّ أنواع الكتمان، وهذا ما أطلبه منك من أعماق قلبي، حيال البروفيسور كيرنليش، وزملائي وزميلاتي وكذلك راهبات الدير العاملات هنا والمشرفات أيضاً. إذاً فأنا أشترط هذا. ولا أفشي السرَّ هذا وأخون سر مهنة إلاَّ كارهاً، هذا السرُّ الذي صار طبيعة ثانية لي بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة من العمل في مستشفى الأمراض الجلدية. ليس فقط رسالتك المهمومة بالألم والحسرة، وليس فقط تذكّر حزنك العميق الجارف الطاغي الذي استطعت أن استشعره عند دفن السيدة شلومر؛ لا، وعلى حين أكتب فإني أؤدي نوعاً من التكليف أو وصية المرحومة التي عانت كثيراً من الأمر بعدم الزيارة الذي فرض عليها في أثناء الأيام الأربعة عشر الأخيرة من حياتها ـ ولا بدَّ من تأكيد هذا ـ ونظراً لحالتها كان لا بدَّ من فرضه أيضاً. ولا شك أنك تتذكرينني؛ مرتين أو ربما ثلاث مرات سنحت لي الفرصة أن أرافقك إلى المرحومة، حين كان

لا يزال مسموحاً بالزيارة؛ ولكن بما أنني لا أعمل منذ أكثر من سنة إلاّ في غرفة عمل السيد البروفيسور تقريباً وأساعده في جمع المادة لتقارير خبرة وتقارير مرض وغيرها فأغلب الظن أنك لن تتذكري من بعد ذلك ممرّضاً، لكن ربّما تذكرت السيّد الأصلع المائل إلى السمنة والمتقدم في السن، والباكي بكاء لا يليق في حدته وشدّته والذي كان يقف على انفراد في أثناء دفن السيدة شلومر والأرجح أنك ظننته أحد عشاقها الذين لا تعرفينهم. إنما الأمر ليس كذلك، وإذا ما أضفت لفظة (للأسف) لفظة غير مقنعة كل الإقناع وغير نابعة من أعماق القلب، فرجائي ألاّ تري في ذلك إهانة للمرحومة الحبيبة إلى نفسك كل هذا الحب ولا تزلفاً. الواقع أنني فشلت في أن أجد رفيقة عمر دائمة، وارتبطت عدة مرات من تلقاء نفسي ارتباطاً أخلصت النيّة فيه، لم يفشل ـ وأريد أن أكون صادقاً وصريحاً معك ـ بسبب خسّة وفظاظة المصطفاة في كل مرّة فحسب، بل بسبب وظيفتي أيضاً (التي تجعلني بالضرورة على تماس دائم بمصابين بأمراض سرية) وكذلك أيضاً بسبب المناوبات الليلية الكثيرة الاختيارية التي قمت بها.

إنَّ السيد البروفيسور لن يردَّ على رسالتك لأنّك لست قريبة المرحومة، وحتى لو كنت قريبتها فلن يكون ملزماً بأن يخبرك، أنت، كما تتمنين ‹تفاصيل› عن موت السيدة شلومر. فهذا يحرّمه واجبُ الكتمان الطبي وهذا يحرّمه أيضاً واجبُ الكتمان التمريضي الذي لا أريد أن أخلَّ به. وإنّي لأرتكب شيئاً من عدم الكتمان، وإن لم يكن كلياً، عندما أخبرك شيئاً عن صديقتك المرحومة في آخر أسبوع من حياتها، ولهذا أرجوك كل الرجاء أنْ تتكتمي على رسالتي وطبيعي أنه صحيح حين

يذكر سبب الوفاة على شهادة الوفاة الرسمية: توقف قلب، وهن كلي في الدورة الدموية، ولكن ما سبب ذلك في نهاية المطاف حيث إنَّ السيدة شلومر كانت في تحسّن فيما يتعلق بمرضها العضال، الأمر الذي أريد أن أشرحه لك. قبل كل شيء: العدوى الشديدة التي جلبتها صديقتك إلى قسمنا، ثبت أنها التقطتها من رجل دولة أجنبي. وأغلب الظن أنك تعرفين أكثر مما أعرف أنا أنَّ صديقتك تخلّت منذ سنتين عن استهتارها الذي كانت قد مارسته بكل تأكيد زمناً طويلاً وأنها وبعد أن كانت قد ورثت والديها، انتقلت إلى الريف لتتمَّ حياتها هناك في هدوء وأسى على نحو فيه وقار. وبحكم طبيعتها، وتعرفين هذا أفضل مما أعرفه أنا، لم تكن هي في الحقيقة عاهرة على الإطلاق، حتى إنها لم تكن بائعة هوى، بل كانت أقرب إلى أن تكون واحدة استورطت دائماً في رغبات معينة للرجال. كان يصعب عليها أن تقول ‹لا›، حين كان قلبها يحدّثها بأنَّه سيكون ممكناً لها أن تمنح السرور. وأحسُّ بأن لي الحق في أن أعبّر على هذا النحو لأنَّ السيدة شلومر روت لي في ليلة وفاتها حياتها كلها تقريباً وباحت بكل تفاصيل ‹انزلاقها›، وإنّي وإن كنت أيضاً بعد اثنتي عشرة سنة من الخدمة في مستشفى جامعي للأمراض الجلدية وبعد الأحداث التي لا تزال تتطلب الوصف ـ لا أميل كل الميل إلى أن أضفي الطابع المثالي على مهنة المومسات أو أضفي عليها الطابع الرومانسي، إلاَّ أنني أعرف أنَّ معظم هؤلاء النسوة يمتن بائسات مريضات قذرات وعلى شفاههن أعنف التجديفات ومسبات الله، ومعظمهن تعفن وانتن بحيث إنّه ما من مجلة جنس من مجلات الجنس الفكهة الآن إلى هذا الحد سترسمها على صفحات عناوينها. إنه أتعس موت قد تتصورينه

أنت: بلا أنيس أو جليس، منتن وكئيب وبائس ـ ولهذا السبب كنت أنا أذهب أيضاً وأشارك في معظم تشييعات الجنازة والدفن، حيث لم يكن يشيّع جنازة هؤلاء النسوة في معظم الأحيان إلاّ مشرفةٌ اجتماعية وكاهنٌ موظف توظيفاً روتينياً.

أنّى لي أن أطرق دون مزيد من اللف والدوران الموضوع الحساس جداً الذي لن يفقد أيَّ شيء من دقته حين أتصورك إمرأة عصرية منفتحة كانت متزوجة ومطلعة على بعض التفاصيل التي ينبغي ذكرها؟ هذا والأمر كذلك، فإني كنت أيضاً ذات يوم ‹طالب طب›، ولو أني لم أصبح قط طبيباً؛ ولأسباب فرضتها ظروف الحرب، ليس هذه فقط، بل أيضاً بدافع الخوف من الامتحان معترف به توجّه إلى الامتحان التمهيدي ـ بقيت عالقاً في الإسعاف، وامتلأت من بعد ذلك علماً وخبرة في مستشفيات ميدانية ألمانية وروسية بحيث إنني تظاهرت بطريقة طائشة بأنني طبيب، وقد أطلق سراحي من الأسر الروسي في سنة ١٩٥٠ وأنا في الخامسة والثلاثين، ومارست بصفة طبيب من هذا القبيل العمل بنجاح أيضاً، إلاّ أنّه بعد ذلك وفي سنة ١٩٥٥ حكم عليَّ بأنني محتال، وأمضيت بضع سنوات في السجن، إلى أن أطلق سراحي قبل الآوان بناءً على تدخّل البروفيسور د. كيرنليش الذي كنت قد تعاونت معه في سنة ١٩٣٧، وكنت لا أزال آنذاك طالباً، فآواني وشغّلني، وكان هذا في سنة ١٩٥٨. إني أعرف إذاً حياة شخص موصوم بوصمة. وبالمناسبة لم تندَّ عني هفوة يمكن إثباتها طوال السنوات الخمس التي مارست فيه عملي ‹الطبي›. والآن تعرفين مَنْ هو الشخص الذي أمامك ـ هذا على الأقل بان. وأنّى لي أن أكشف عن الشيء الآخر؟ سأحاول أن أقدم على المهمة

بشجاعة! كانت صديقتك قد تقدمت من الشفاء إلى حدّ أنّ المرء ربما فكّر في تخريجها في ستة إلى ثمانية أسابيع. فكل زيارة كانت تجهدها، وكذلك زيارات السيد الغامض، إنّما الخفيف الظل الذي عادها في الفترة الأخيرة مرات ومرات (!!! ـ من قبل المؤلف)، والذي ظنناه في بادىء الأمر عشيقاً سابقاً، ثم قواداً، وفيما بعد موظف مراسم، أي ذلك الذي جمعها على نحو خطير النتائج برجل الدولة الأجنبي الذي كان عليه أن تخلق له على حدّ قولها ‹مزاج العقد والاتفاق› وخلقته له بعد أن كانت نساء أخر قد أخفقن في انجاز ‹مزاج العقد والاتفاق› هذا.

لكن قبيل التخريج حدث شيء غريب وعجيب وغير معقول حتى بعد أن اعتدت من خلال دراسة الطب والممارسة ‹الطبية› الطويلة، ومن خلال صلتي المستمرة طوال نحو خمس وثلاثين سنة بالرطانة الساخرة اللاذعة ‹لقلاع الفرسان›، فإنه ليصعب عليّ أن أعلم سيّدة مثلك خطيّاً بما سيكون أصعب شفوياً. إن المسألة، أيتها السيدة بفايفر المحترمة، هي مسألة العضلة التي تعمل وتستجيب من الناحية الفيزيائية والكيميائية الحيوية والنفسية بطريقة معقّدة كل التعقيد، هذه العضلة التي تسمى بصفة عامة العضو التناسلي للذكر. لن يفاجأك (آه، إنني في غاية الارتياح أنَّ هذه الكلمة خرجت)، أنَّ هذا الرمز لا يطلق عليه من قبل النساء اللواتي تعجّ بهن أقسامنا، اسماء رقيقة. فما هو محبّب، وما كان دائماً محبّباً هو أسماء رجال. وعلى حين أن نعوتاً مبتذلة بصورة خاصة يكون لها وقع سيء ما فيه الكفاية، فإنها تناسب بذلك الوسط وتحافظ على طابع شبه موضوعي وسريري تقريباً يجعلها أقلَّ ابتذالاً مما هي ‹نبيلة› في الظاهر. وفي الأسابيع التي بدأت تشفى فيها صديقتك

صارت أسماء الرجال باعتبارها لقباً لهذا الرمز الموصوف على نحو أقرب إلى السخافة زياً في قسمنا. ويجب أن تعرفي إذاً، أيتها السيدة بفايفر المحترمة، أنه تحدث في هذه الأقسام موجات سخافات قد لا يعرفها المرء إلاّ من مدارس داخلية للبنات، وفضلاً عن ذلك: إنه ليؤثر في الممرضين أو المشرفين ويفعل فعله فيهم بالطريقة نفسها. وكما استطعت أن أعلم في أثناء فترة سجني التي دامت ثلاث سنوات فإنَّ هناك هذا ‹الانتقال الديالكتيكي› بين السجناء وحراسهم أيضاً. فالراهبات اللواتي يملن على كل حال إلى السخافة أحياناً، يطيب لهن أن يشاركن في هذه السخافة في أقسام الأمراض الجلدية دون غيرها؛ ليس هذا بذميم ومستنكر، بل هو أقرب إلى أن يكون نوعاً من الدفاع عن النفس. هذا قد كانت راهبات الهيئة الديرية لطيفات جداً تجاه صديقتك، وما يتعلّق بالزيارات والهدايا والمشروبات الروحية والسجائر فكثيراً ما أغضين على ذلك، ولما أنَّ بعضهن يخالطن منذ ثلاثين وأربعين سنة نساءً مصابات بالأمراض السرية فإنهنَّ تبنَّيْنَ ـ دفاعاً عن النفس! ـ رطانتهن في بعض الحالات، لا بل يساهمن في كثير من الأحيان في توسيعها. وعليَّ أن أعلمك شيئاً غريباً جداً، إما أنه سيفاجئك وإمّا أنه سيؤكد على الأرجح انطباعك: وهو أنَّ السيدة شلومر كانت حييّة جداً. ففي باديء الأمر داعبها المرء بأن تكلّم في السياق المذكور عن ‹غوستاف آدولف› أو ‹إيغون› و‹فريدريش› وهلم جرا وطرب طرباً لا حدود له أنَّ السيّدة شلومر لم تعرف ما المقصود بذلك. كان هذا طوال أيام وطوال ليالٍ هزلاً ليس بعده هزل شاركت فيه الراهبات. واقتصر اللعب القاسي في أول الأمر على أسماء بروتستانتية للغاية: ‹كثيراً ما زارك غوستاف آدولف› أو

‹أحببت إيغون حبّاً جماً› الخ الخ. وحين اتضحت التوريات إلى تلك الدرجة من أجل تجريد (السيدة شلومر) من براءتها الملعونة› (المريضة ك. غ. قوادة احترفت المهنة أكثر من ستين سنة)، فهمت السيدة شلومر على فورها العلاقة وأخذت تحمرّ خجلاً عند ذكر اسم رجل. وقد تمَّ تفسير احمرارها الشديد المتكرر من ناحية أخرى بأنه شدّة حساسية وتصنّع، وبالتالي تزايد واشتد اللعب القاسي، لا بل تصاعد إلى أشدّ أنواع السادية. ولكي يجعل المرء الوحشية تامة فقد استمرت الحال إلى أن تناول المرء إلى ذلك أسماء نساء في سياق مناسب. وكان محبّباً في أثناء ذلك الربط بين أسماء بروتستانتيّة للغاية وأسماء كاثوليكية للغاية والذي وصف فيما بعد بأنه ‹زواج مختلط›. فعلى سبيل المثال لويس ولويزه الخ. وأخيراً، وللعتبير تعبيراً سوقياً مبتذلاً، لم يفارق الاحمرار السيدة شلومر على الإطلاق، لا بل أنها كانت تحمرّ كلما نودي بمناسبة بريئة في الممشى باسم زائر أو راهبة أو ممرضة. وذات مرة وعلى طريق الوحشية هذا وفي استنكار لحساسية لم يُرِدِ المرء أن يعترف بها للسيدة شلومر صعّد المرء أخيراً هذا التعذيب المستمر إلى ما هو تجديف، فتكلّم المرء عن القديس لويس الذي كان على كل حال في يوم من الأيام شفيع الأعفاء والعفيفات، وعن القديسة آجاتا الخ، ولم يعد هناك من حاجة إلى حساسية نفسانية أن السيدة شلومر لم تحمّر فحسب، بل إنها كانت تصرخ من الألم النفسي إذا ما ذكر اسم ‹هاينريش› أو ‹القديس هاينريش›.

هذا وإنَّ هذا الإحمرار، أيتها السيدة بفايفر المحترمة، له أيضاً علاقة يمكن إثباتها طبياً. فما يسمى إحمراراً يحدث عادة عن احتقان

الدم المفاجيء في أوعية بشرة الوجه وشعرياتها الدموية عند إثارة مبعثها الفرح أو حيرة (كما كانت الحال عند السيدة شلومر)، وذلك عن طريق الجهاز العصبي النباتي. ولا داعٍ لذكر أسباب أخرى للإحمرار ـ من مثل الإجهاد وما شابه ذلك ـ وعلى كل حال كانت نفوذية الشعيرات عند السيدة شلومر متزايدة، فسرعان ما كان يشكل ما يسمّى أورام دموية (وبلغة الشعب (كدمات زرقاء) وفرفرية قد يسميها المرء عادة كدمات حمراء. وبهذا ماتت صديقتك، أيتها السيدة بفايفر المحترمة. وفي النهاية ـ وما سوّغه تشريح جثة، كما حدث أيضاً بعد ذلك، فقد تغطّى جسدها كلّه بأورام دموية وفرفريات، الأمر الذي كلّف جهازها العصبي النباتي أكثر مما في طاقته وتوقفت دورتها الدموية وتوقف قلبها عن الخفقان، ولأنَّ الاحمرار عند السيدة شلومر قد استحال إلى شواش عصبي شديد، فقد احمرّت عشيّة الليلة التي توفيت فيها، وأكثر من ذلك، حين انشدت الراهبات في الكنيسة الصغيرة طلبة عيد جميع القديسين. أعرف أنني ربما لا أستطيع أن أثبت نظريتي أو فرضيتي إثباتاً علمياً، ومع هذا أرى لزاماً عليَّ أن أعلمك: أنَّ صديقتك مارغريت شلومر ماتت بالاحمرار.

بعد أن كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً لتبقي على الحديث مترابطاً، فقد اكتفت دائماً بالهمس: ‹هاينريش، هاينريش، ليني، راحيل، هاينريش›، ومع أنه كان سيخطر بالبال أن تمنح لها آخر الأسرار إلاَّ أنني عدلت عن ذلك في آخر لحظة: كان سيؤلمها ألماً شديداً لأنَّ المرء كان قد مضى يدخل أخيراً في تجديف متزايد في السياق المذكور ‹السيد المخلص› أيضاً و‹السيد يسوع الطفل› ومريم العذراء والبتول قدس

الأقـدس في كل نعـوتهـا، وأكـثـر من ذلك قـد تمَّ أخـذه من الطلبـة اللوريتانيـة من مثل الوردة الصوفيـة الخ Rosa Mystica والمؤكد أنَّ نـصاً طقسياً منطوقاً به عند سرير موتها كان سيزعج السيدة شلومر أكثر مما كان سيواسيها.

أرى من واجبي أن أضيف أنَّ السيـدة شلومر تكلمت بطريقـة ودية حارة بعض الشيء أيضاً عن ‹الرجل الذي يأتي إلى هنا أحياناً› فضلاً عن حديثها عن هاينريش وليني وراحيل. وأغلب الظن أنها قصدت بذلك الزائر الغامض الذي هو أقرب إلى أن يكون زائراً غير معروف.

وإذا كنت سأوقّع هذه الرسالة ‹بكل احترام واخلاص› فالرجاء ألاّ تعتبري في ذلك هروباً إلى صيغ اصطلاحية تقليدية للتحيات، وبما أنني لا أستطيع أن أجيز لنفسي كلمة ‹حار› لأنها قد تعبّر عن شيء من الصفاقة فاسمحي لي أن أضيف

مع التحيات الودية

المخلص

بيرنهارد إيلفاين».

ـ ١٣ ـ

بعد تروٍّ غير قصير قرّرت كليمينتينا التي تدخلت الآن بقوة في التحرّيات أنه لمن الأفضل تحويل تقرير موظف الأمن إلى الكلام غير المباشر، لا نقله نقلاً حرفياً. وبهذا فإنه سيحدث بطبيعة الحال تغيّر أسلوبي كبير. وستضيع بعض التفاصيل الجميلة (مثل السيدة ذات بكرلفّ الشعر التي ظهرت بالقميص الداخلي برفقة سيّد وصف صدره الأشعر بأنه من «نوع الفرو»؛ وكذلك أيضاً «كلب يهرُّ هريراً حزيناً»، محصِّل أقساط ـ هم كلّهم يقعون ضحيّة عمليْة تحطيم التماثيل الدينية التي لا يرضى المؤلف عنها أبداً، وهم في الحقيقة ضحايا عدم مقاومته). والسؤال عما إذا كان لديه رفض عمل وعدم كفاية أم مجرّد رفض مقاومة يبقى معلقاً. لقد حذفت كليمينتينا كل شيء بدا لها زائداً عن اللزوم، ولم تخجل أن تستعمل في أثناء ذلك القلم الأحمر المألوف لها ألفة وأية ألفة، وما تبقّى هو «الشيء الجوهري» (ك).

١) الرقيب الشرطي ديتر فولفين الذي كان يوقف سيارة الدورية أمام المقبرة الجنوبية خوطب قبل أيام قلائل من امرأة تدعى كيتي تسفيفيلر وطلب منه أن يوعز بفتح منزل السيدة إلزه كريمر في شارع نورجهايم رقم /٥/ عنوة. وحين سئلت لماذا ترى هذا ضرورياً ذكرت السيدة تسفيفيلر بأنها عرفت عنوان السيدة كريمر بعد تحرّيات طويلة جداً (وبتعبير أدق: بعد ٢٥ سنة!) لم تمضها بتحريات **فحسب**، بل تفرغت

لتزورها وتنقل إليها بعض الأخبار. وكان قد رافق السيدة تسفيفيلر ابنها هاينريش تسفيفيلر ابن الخامسة والعشرين، مزارع مثل أمه (الحق كان يجب أن تسمى مزارعة بالنسبة إلى السيدة تسفيفيلر. المؤلف). فقد جاءا ليعلما السيدة كريمر أنَّ ابنها إيريش المتوفى في نهاية ١٩٤٤ حاول في قرية بين كرمّر شايت وزيميرات أن يهرب إلى الأمريكانيين. وفي أثناء ذلك أطلقت النيران عليه من قبل الأمريكانين والألمان على حدّ سواء، فبحث عن ملاذٍ في بيت آل تسفيفيلر ووجد هذا الملاذ، وأمضى عدة أيام هناك، ونشأت علاقة غرامية وطيدة بين كيتي تسفيفيلر وايريش كريمر، هو في السابعة عشرة وهي في التاسعة عشرة؛ كانا «سيخطبان» بعضهما و«يتعهدان بالوفاء الأبدي» وكان سيعقدان العزم ألاّ يتركا البيت، كذلك أيضاً لما تأزمت مفاوضات الحرب وصارت مهددة للحياة؛ كان البيت يقع «بين الخطوط». وفي أثناء تقدم الأمريكانيين حاول إيريش أن يضع في إطار الباب العلوي منشفة أدوات مطبخ مقلّمة بأحمر، إنما هي في معظمها قطعة بيضاء كعلامة استسلام، وفي أثناء ذلك قتل على يد أحد قناصي الجيش الألماني «بطلقة في القلب». وهي، السيدة تسفيفيلر، رأت القنّاص الذي كان يجلس على برج «بين الخطوط»، ولم يكن سلاحه مصوّباً على الأمريكان، بل كان مصوباً على القرية التي لم يعد يجرؤ أيُّ شخص فيها على أن يرفع راية بيضاء علماً أنه («كان لا يزال في القرية نحو خمسة أشخاص»). وذكرت السيدة تسفيفيلر أنها سحبت القتيل كريمر إلى المنزل ووسّدته في مخزن الغلال وبكته بكاء شديداً، ثم فيما بعد، وحين استولى الأمريكان على القرية،. وسدّته «التراب المقدس» بيديها. ولم يمضِ إلاّ قليل حتى رأت أنها

حامل وولدت «في الميعاد» بتاريخ ١٩٤٥/٩/٢٠ ابناً عمدته على اسم هاينريش؛ وفي نهاية سنة ١٩٤٤ كانت تسكن وحدها في البيت، إذ أنَّ والديها لم يعودا من الإجلاء، ولم تتلقَّ أية أخبار عنهما، فعُدَّا مفقودين، وأغلب الظن أنهما قتلا «في الطريق» بغارة جوية. وبصفتها أمّاً غير شرعية، ووحيدة في المزرعة التي حسّنتها مرة أخرى، لم يكن سهلاً عليها هذا، إلاَّ أنَّ «الزمن أبرأ الجروح»، فربّت ابنها وأنهى المدرسة بنجاح وصار مزارعاً. على كل حال كان له ما لم يكن لكثيرين من الشباب، قبر أبيه في الجوار. وهي، السيّدة تسفيفيلر، «قد» (!!) حاولت في سنة ١٩٤٨ أن تجد السيدة كريمر، و «قد» (!!) حاولت ذلك مرة أخرى في سنة ١٩٥٢، ثم تخلّت عن هذا الموضوع يائسة، كما أنَّ المحاولة الأخرى في سنة ١٩٦٠ (!!) أخفقت. لكنها عرفت بعد ذلك أيضاً أنَّ إيريش كريمر غير شرعي، كما أنها لم تعرف أيضاً اسم أمّه ومهنتها. أخيراً وقبل نحو نصف سنة أهتدت إلى عنوان السيدة كريمر بفضل وكيل أسمدة تولّى الموضوع بحيوية من باب المجاملة، إلاَّ أنها ترددت لأنها لم تعرف كيف «ستتلقى هذا». وألحّ الصبي في النهاية، وسافر المرء إلى المدينة ووجد منزل السيدة كريمر، إلاَّ أنَّ هذا لم ينفتح حتى بعد طرق متكرر غير قصير. وإنَّ استفسارات كانت ستسفر أنَّ السيدة كريمر لا يمكن أن تكون مسافرة، ولم تكن مسافرة قط. وباختصار: هي، السيدة تسفيفيلر، «يوجس قلبها شيئاً رهيباً».

٢) لقد عانى فولفين صراعاً. هل كان هنا «في الإرجاء خطر» الإمكانية الشرعية الوحيدة لفتح منزل السيدة كريمر عنوة؟ أخيراً استطاع، وقد وصل مع السيدة تسفيفيلر وابنها في أثناء ذلك إلى شارع

نورجهايم رقم /٥/، أن يتأكد أنَّ السيدة كريم لم ترها عين إنسان منذ أسبوع. أحد الجيران (ليس الرجل الأشعر الصدر، بل صاحب معاش معروف بأنه سكّير عربيد، أصله من الراين،) اعتقد أنه «سمع طائرها يزقزق زقزقة بائسة» طوال ثلاثة أيام. وقرر فولفين أن يفتح المنزل، لا لأنه عدَّ مصطلح «في الإرجاء خطر» صالحاً للاستعمال، بل بدافع الشفقة ليس غير. ولحسن الحظ كان في الجوار أيضاً شاب (بعبارات ضعيفة كل الضعف يفرغ هنا من شخصية ممتعة كانت أربع إلى خمس مرات من أصحاب السوابق بسبب الضرب والجرح والمتاجرة بالأعراض واقتحام البيوت وكانت معروفة لدى الجيران كلهم بـ «كروكيس هاين»، إنسان وصفه ديترفولفين، الرقيب الشرطي، أيضاً بأنه «ذو شعر ينمو نمواً برّياً، شعر بني طويل، كثٌّ دهني، ذائع الصيت»)، فتح البيت بمهارة مريبة وبعبارة ذات دلالة «هذه المرة أقوم بهذا **من أجل** الشرطة».

٣) عُثر على السيدة كريم على المقعد الخشبي بالمطبخ ميّتة، متسممة بأقراص منوّمة، ومرتدية كامل لباسها. لم يكن التفسّخ قد ظهر بعد. إلاّ أنها كانت قد كتبت فقط!!!، المؤلف) ببقية من معجون البندورة الذي كانت قد دهنت به، كما يبدو، أصابعها فعل «يريد» بصيغ مختلفة على مرآة قديمة كانت معلّقة فوق حوض مطبخها. «بتُّ لا أريد. لم أعد أريد. كنت قد بِتُّ لا أريد منذ زمن طويل...» هنا، كما يبدو، كان المعجون قد نفد منها. وعثر على الطائر الميت، ببغاء استرالي، في غرفة النوم المجاورة تحت الصوان.

٤) اعترف ديتر فولفين أنَّ السيدة كريم كانت معروفة منذ زمن طويل عند الشرطة. فقد عرف المرء ـ من خلال الفصل ١٤ ـ أنها كانت

شيوعية، لكنها منذ سنة ١٩٣٢ لم تعد تنشط سياسياً، مع أنّه ـ وهذا أيضاً معلوم عند الشرطة ـ كان عندها غير مرة، ولا سيما في الفترة التي وليت منع الحزب الشيوعي الألماني، ضيف طلب منها النشاط. (هنا كانت كريمر قد دوّنت الاسم الكامل لـ «فريتس»، الذي سقط هذه المرة ضحية قلم المؤلف الأحمر).

٥) السيدة تسفيفيلر وابنها استحقا الإرث وحجز ديتر فولفين على كيس نقود فيه ١٥,٨٠ ماركاً، وكذلك على دفتر توفير بقيمة ٦٧,٥٠ ماركاً. وكشيء ثمين بارز وحده دون غيره تمّ الحجز على جهاز تلفزيون غير ملّون يكاد يكون جديداً كانت السيدة كريمر قد ألصقت عليه بطاقة «دفع كلياً على أقساط صغيرة». وعلى صورة مؤطرة معلقة فوق المقعد الخشبي بالمطبخ تعرفت السيدة تسفيفيلر على أبي ولدها، إيريش كريمر. وأظهرت صورة أخرى «أباه على الأرجح. بسبب الشبه المذهل». وفي علبة صفيح ملونّة بزهور حملت عنوان شركة قهوة مشهورة، تمّ العثور: على «ساعة يد رجالية تكاد تكون عديمة القيمة، إنمّا كانت سليمة، وعلى خاتم ذهبي قديم فيه ياقوته حمراء زائفة ويكاد أن يكون أيضاً عديم القيمة. وعلى ورقة من فئة العشرة ماركات تعود إلى سنة ١٩٤٤. وعلى شارة محاربين قدماء حمر لا يستطيع الموقّع أن يقدّر قيمتها. وعلى ايصال رهن لسنة ١٩٣٦ كان قد رهن به خاتم ذهبي لقاء: ٢,٥ مارك، وإيصال رهن آخر لسنة ١٩٣٧ كانت قد رهنت به ياقة من فرو القندس لقاء ـ.٢ ماركاً. وعلى دفتر إيصالات الإيجار الذي نظمت ايصالاته بصورة صحيحة مضبوطة». ولم يعثر على مخزون مواد غذائية ذات قيمة: نصف زجاجة خل، علبة زيت، شبه ملآنة، (من الحجم

الصغير)، وخبز غراهام (خبز حنطة خشن) متيبّس (خمس شرائح)، علبة حليب مفتوحة وكاكاو في علبة صفيح - تحتوي على ٦٥ - ٨٠ غ. ونصف كأس قهوة مطحونة وملح وسكر ورز وبطاطا بكمية قليلة، فضلاً عن كيس ورقي فيه طعام للطيور وغير مفتوح. وفضلاً عن ذلك دفتران صغيران من ورق السجائر ورزمة مفتوحة من التبغ المفروم ومن ماركة «الغذاء التركي». وست روايات لشخص اسمه اميل زولا، طبعة جيب، بليت من كثرة القراءة، إنما غير متسخة. وأغلب الظن ذات قيمة ضئيلة. وكتاب بعنوان (أغاني الحركة العمالية). ووصف الأثاث كله من قبل الجيران الذين تدافعوا إلى الداخل حبّاً بالاستطلاع وألزموا حدودهم بالشكل المناسب، باحتقار وازدراء بأنه «السقط الخالص». وختم المنزل حسب التعليمات بالشمع الأحمر، بعد أن كان قد ارتقب وصول طبيب الشرطة. وأحيلت السيدة تسفيفيلر إلى السلطة القضائية بناء على حقوقها في الإرث.

٦) عُرِض على السيدة تسفيفيلر أن يوصل بينها وبين السيّد («فريتس») الذي ربما استطاع أن يعلمها بتفاصيل ممتعة من حياة المرحومة وعن أبي المرحوم إيريش كريم. رفضت قائلة أنها لا تريد أن يكون لها أية علاقة بشيوعيين.

ـ ١٤ ـ

إذا لم تكن كليمينتينا مشغولة بقلمها الأحمر فإنها تكاد لا تعوّض. إن حساسيتها التي لا تقبل الجدل والخاصة بالدراسات الألمانية، والتي لم تخذلها إلاّ إذا كان لديها مطامع تحريرية أو مطامع ذات طبيعة تتعلق بصياغة نص، وإنّ تمرّنها الطويل تقريباً على أساليب روحانية لا يمكن وصفها، بالاستعمال الدنيوي، بأنهما ضائعان على الإطلاق، ذلك لأنها بطريقة ما متحررة تنكبّ على عمل المطبخ والطهي بحماسة تثلج صدر المؤلف، وهي أقرب إلى أن تكون مولعة بالغسيل والتنظيف، وتسجّل مقطّبة الجبين مقدار أسعار اللحم والإيجارات، إلاّ أنه يطيب لها من جهة أخرى أن تسوق سيارات الأجرة، وتحمرّ بين الحين والآخر من العرض الشديد لما هو من الأدب المكشوف؛ وفيما يتعلق بالجانب التأليفي فقد استقلت، إذا جاز هذا التعبير، فهي لم تعد تعتدي بقلمها الأحمر على نصوص ناس آخرين، بل اكتفت بالاعتداء على نصوصها الخاصة بها. وعلى حدّ قولها فقد «هزّها» موت إلزه كريمر، فقد انسكبت دموع (وما زالت) وتريد أن تؤلف سيرة موجزة لهذه المرأة التي تنحصر «تركتها بعد عمل دام خمسين سنة بصفة عاملة، وذلك في جهاز تلفزيون سدِّدت أقساطه ونصف زجاجة خل وقليل من ورق السجائر ـ ودفتر إيصالات الإيجار. لا أفهم ذلك. لا أفهم ذلك على الإطلاق.» الحق أنَّ هذه معلومات مستحبة ومقاصد محمودة.

بالمناسبة أدّت كليمنتينا خدمات غير مقدّرة لا بصفة مخبر، وإنما بصفة مراقبة. وعلى حين أنَّ المؤلف لم يصل بعد الحالة المنشودة بشغف، حالة عدم الكفاية، فإنها تقترب من الهدف لكي لا تقوم إلاَّ بأشياء تسرّها. إنه ليسرها أن تزور شيرتيسنشتاين وشولسدورف وأن تتأكد أنهما يبدوان مستجمين مستريحين، أما الأسباب لاسترخائهما فتكتشفها فيما بعد: شيرتينشتاين «خدّ على خدّ ويد بيد مع ليني على مقعد في حديقة بلوشر». وفيما يتعلق بشولسدورف فإنها رأت مرتين بأم عينيها وضع اليد على اليد في مقهى شبيرتس؛ وفي إحدى المرات قابلت في منزل ليني إنساناً لا يمكن أن يكون بحسب وصفها أحداً آخر إلاَّ كورت هويزر. وبما أنها متأكدة إلى حدّ ما، أنَّ ليني تحرم محمداً أيضاً في وضعها الحالي من علاقة جنسية، فإنها تجد أنَّ ليني جاوزت الحد بما يكفي لدى بيلتسر الذي «قبّلته في الظلام، في سيارته، غير بعيد من منزلها». وتتوجّس خيفة من زيارة بيلتسر لأنها تعتقد أنه «في قرارة نفسه إنسان غير رقيق، وإنه لقادر أن يطلب مني الحياة الجنسية التعويضية الملموسة».

إنَّ ليف غروتن لا يشغل بالها على الإطلاق. «سيخرج هذا في القريب العاجل». وشاركت مشاركة فعالة، كما هي عليه، في مظاهرة عمال الزبالة أمام محكمة الجنايات وألّفت نصوص لوحات مثل: ‹هل التضامن جريمة؟›، ‹هل الوفاء يعاقب عليه القانون؟› وأكثر تهديداً أيضاً ‹: إذا عوقب رفاقنا ستغرق مدينتنا في الزبالة›. وهذا عاد عليها بأول العناوين بالخط العريض في صحيفة محلية تعتمد على الإثارة: ‹راهبة سابقة ذات شعر أصهب بصفة متطرفة للزّبالين!›. وما عدا ذلك

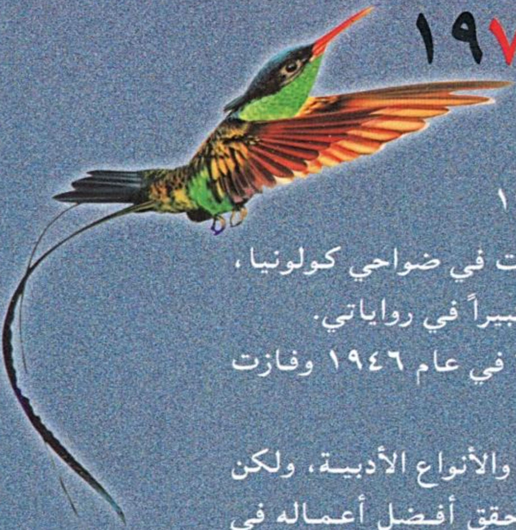
اللغة الألمانية وتتحدث مع بوجاكوف عن الوضع الحالي للاتحاد السوفييتي وتترك غريته هيلتسن تدللها دلالاً يتعلق بالتجميل. وتساعد مختلف الأتراك والإيطاليين في إملاء استمارات لإرجاع ضريبة الأجور. وتتصل بالهاتف مع محامين عامين بمناسبة القضية التي لا تزال جارية ضد سائق سيارة الزبالة)، وتصف لرئيس الدائرة المختص (على الهاتف أيضاً) الفوضى التي ستنشأ لو أن عمال نقل الزبالة أضربوا الخ. الخ. وإنه لبديهي أن تذرف بين الحين والآخر عبرة على ‹المركيزة فون أو...› وعدة عبرات على ‹طبيب ريف› و ‹مستعمرة العقاب›، ومع هذا ورغم كل الدموع فإنّها لم تفهم بعد ما يمكن أن يعنيه المصطلح «بعربة أرضية وأفراس لا أرضية». وقد ابتعدت من كل ما هو لا أرضي ابتعاداً شديداً، ربما على نحو متطرف للغاية. لم تكن هي التي دفعت إلى غيرسيلين، ليني كانت تلك التي دفعت بها إلى هناك حين علمت أنه افتتح هناك في الواقع حمام معدني. ويجب ذكر مَنْ تعيّن (مدير استشفاء) و(مدير دعاية وإعلان)؟ لا أحد إلاّ شويكنز الذي يدور هناك نشيطاً بورق كوربون مع صناع ومهندسين معماريين ويقوم باتصالات هاتفية آمرة ووجد وسيلة ناجعة ليوقف «بلوى الحمرة اللعينة بالقوة إذا اقتضى الأمر». وفي محيط قدره خمسون متراً حول «الينبوع الذي لا يعوّض» جهّز نوعاً من تصريف السم تدور فيه بصورة دائمة مادة كريهة واقية للنباتات أوقفت فعلاً الحمرة. غير أنَّ حفنة من التراب التي سميت ذات مرة راحيل غينسبورغ، لا تصل بطبيعة الحال. ومهما يكن فإنَّ بوجاكوف كان في إمكانه أن يحس بسرور «فائدة» الينبوع «لالتهاب مفاصله اللعين». ومنذ أن نجح في حثّ لوته على عدم الكفاية ورفض

العمل فكثيراً ما يتنزه كلاهما هناك في حديقة زوّار الحمام المعدني.

طبيعي أنَّ كليمينتينا عندها عناد وجلد بصفتها الوحيدة بين الأشخاص المذكورين إلى الآن، بما فيهم محمد، وأوتيت قدرة تختص بها راهبات سابقات وراهبات حديثات، وعلى حين كانت تراقب ليني في أثناء الرسم ساعات طويلة بصمت وتساعد الفنانة في إعداد القهوة وغسل الفراشي، من غير أن تضنّ بالمجاملات، توصلت إلى أنه كان لها أن ترى العذراء في التلفزيون. وتعليقها أكثر سطحية مما سيسمح به حبر الطباعة: «إنها هي بالذات، هي، هي تلك التي تتراءى هنا لنفسها بناء على تأملات لا تزال تتطلب الإيضاح». وعلى كل حال تبقى هناك «التأملات التي لا تزال تتطلب الإيضاح»، وتبقى في الخلفية سحب مكفهرة لا تبشّر بخير عميم: غيرة محمد ونفوره من رقص الحفلات، هذا النفور الذي تمَّ إظهاره في أثناء ذلك.

هاينريش بول

نوبل ١٩٧٢



- ولد عام ١٩١٧ وتوفي عام ١٩٨٥
- يقول پول عن نفسه: «لقد ولدت في ضواحي كولونيا، واعتقد أن الضواحي تلعب دوراً كبيراً في رواياتي.
- نشر پول أول قصصه القصيرة في عام ١٩٤٦ وفازت إحداها بجائزة «جماعة ٤٧».
- جرب پول العديد من الأشكال والأنواع الأدبية، ولكن معظم النقاد متفقون على أنه حقق أفضل أعماله في القصة القصيرة.
- من رواياته المنشورة «لم يقل كلمة واحدة» عام ١٩٥٣، و«بيت بلا حراس» عام ١٩٥٤، و«خبز الأعوام السابقة» عام ١٩٥٥.
- يُبرِز الكاتب في أعماله سخف الحرب بكل صورها وأشكالها، ومحنة الأخلاق التي دفعت البعض إلى خلق الفاشية، تشهد بهذا كل أعماله ابتداء من أقاصيصه الأولى حتى روايته هذه «صورة جماعية مع سيدة»، والتي قد يلاحظ القارىء فيها تعاطفاً للكاتب مع اليهود، لكن پول يبدي هنا تفهماً متبصراً، يقظ الذاكرة، للذنوب التي أحس بها الألمان تجاه اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، بعيداً عن أي تحيز قد يتم تفسيره بشكل خاطىء كموالاة لليهودية السياسية أو الصهيونية.

ISBN:2-84305-620-X
9 782843 056208